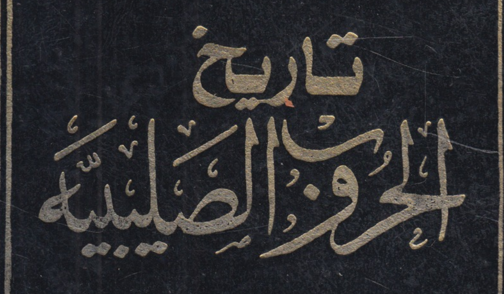




تاريخ الحروب الصليبية

الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس

الجزء الثاني

نقله إلى اللغة العربية

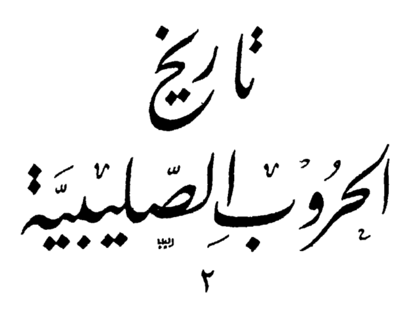
الدكتور السيد الباز العريني





تاريخ الحروب الصليبية

ستيفن رنسيمان



٢

الحرب الاولى وقيام مملكة بيت المقدس

نقله الى اللغة العربية

الدكتور السيد الباز العريني

استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبـعة الثالثـة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مقـــدمة

يعرض المجلد الثاني من كتاب (تاريخ الحروب الصليبية) تطوّر مملكة بيت المقدس منذ قيامها سنة ١١٠٠ ، أي بعد ان صار بلدوين الاول ملكاً عليها ، حتى سقوطها في يد صلاح الدين سنة ١١٨٧. والمعروف ان عهد جودفري السابق على حكم بلدوين الاول ، يعتبر فترة بالغة الأهمية ، إذ شهدت فشل المحاولة التي كانت تدعو الى قيام حكومة ثيوقراطية ، على نهج حكومة البابوية في ايطاليا .

وحرص الملوك الثلاثة الأوائل : بلدوين الاول وبلدوين الثاني وفولك ، على توطيد ملكهم في بيت المقدس ، وفرض سلطانهم على سائر الإمارات الصليبية ، فامتدّت رقعة المملكة ، وتوافرت لها أسباب الدفاع بما شيّده هؤلاء الملوك من استحكامات على أطراف المملكة ، وبما أقاموه من قوات عسكرية تشمل فئات عديدة ، وبتشجيع نموّ طبقة النبلاء الإقطاعيين .

على ان انقسام العالم الاسلامي هيّأ للصليبيين الاستقرار في الشرق الأدنى ، وحملهم على ان يقيموا من النظم السياسية والقضائية والعسكرية والاجتماعية ما كفل لهم البقاء في جوف العالم الاسلامي . فلم يكن خافياً على الصليبيين ما كان من عوامل الفرقة والاختلاف بين القوى الاسلامية ، فحاولوا عزل المسلمين بالشام عن سائر المسلمين في الدول الاسلامية المجاورة ، بما لجأوا اليه تارة من التحالف مع بعض الامارات الاسلامية ومساندتها لمناهضة الامارات الاخرى في داخل بلاد الشام ، او خارجها ، وبما سعوا اليه تارة اخرى من استمالة بعض الزعماء الثائرين على الحكومة الاسلامية في بغداد او القاهرة ، وأفادوا في ذلك من الاختلافات العنصرية : (العرب ، الكرد ، الترك والتركمان) ، ومن المذاهب المتطرفة كالباطنية .

غير ان كل الجهود التي بذلها الملوك الثلاثة الأوائل في الفترة بين سنة ١١٠٠ ، ١١٤٣ ، في سبيل المحافظة على كيانهم في الشرق الأدنى ، لم تصمد لما حدث في المرحلة التالية ١١٤٣ – ١١٧٤ ، من تغييرات في أوضاع الامارات الصليبية والدول الاسلامية المجاورة والدولة البيزنطية ودول غرب اوربا .

ففي هذه المرحلة، يعتبر بلدوين الثالث أول مَن حكم بيت المقدس من الفرنجة المستوطنين، بعد ان انقرض، بوفاة فولك سنة ١١٤٣ ، الجيل الاول من الأمراء الصليبيين الذين اشتركوا في الحروب الصليبية منذ بدايتها . وتمّ في هذه المرحلة اكتمال نموّ الامارات الصليبية ، فأصاب تقاليدها السياسية والاقتصادية والعسكرية من التعديل والتغيير ما يتلاءم مع أحوال الشرق وشكل المغامرون الاوربيون حياتهم في الجهات التي نزلوا بها حسبما تمليه طبيعة البيئة وأحوال السكان الوطنيين، وبلغت الامارات اللاتينية في تطورها مرحلة، تهيأ عندها لكل إمارة ان تستقل بأمورها ، وان تنزع الى إغفال الروابط الإقطاعية التي كانت تجمع بين سائر الامارات ، فلم يعد لملك بيت المقدس المكانة العليا إلا باعتباره مقدم الأسوياء ، ولم يدفعه الى التدخل في شؤون الامارات الاخرى إلا ما كان يربطه مع بعض الأمراء من صِلات القرابة والمصاهرة، او استنجادهم به. فلم تكن هذه الامارات سوى حلف مفكك مهدّد بالانهيار. يضاف الى ذلك ما حدث من ظهور الأحزاب في مملكة بيت المقدس وسائر الامارات ، بسبب التنازع على الحكم ، ولما كان من الاختلاف بين البارونات المحليين الذين يميلون الى المسالمة والمحافظة على التقاليد التي استقرت بين اللاتين في الشرق ، وبين القادمين حديثاً من الغرب المسيحي، الذين اشتهروا بالمغامرة ، والحرص على الحصول على الاقطاعات ، وشدة كراهيتهم للمسلمين ، والميل الى القتال ، وشجعهم على ذلك انحلال بعض الاقطاعات عن أصحابها الأصليين وانتقالها الى أراملهم . فوفد من غرب اوربا مَن التمس الجاه والثراء ، ومن هؤلاء رينالد شاتيون وجاي لوزجنان .

يقابل هذا التطور في الإمارات اللاتينية ما اتخذه الأمراء المسلمون من خطوات نحو الوحدة ، والمبادرة الى استرداد الاراضي الاسلامية التي استولى عليها الصليبيون . ومن نتائج هذا الاتحاد سقوط الرها في يد زنكي ، وامتداد هجماته الى بيت المقدس وانطاكية وطرابلس . والواقع ان حركة الجهاد الديني انبعثت عند المسلمين ، منذ أن تعرضوا للقتل والتشريد والتعذيب عند سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين ، غير أن تفرّق كلمة المسلمين وشقاقهم عطّل هذه الحركة ، وهيأ للصليبيين الفرصة للتمكين لأنفسهم في الشرق الأدنى .

فالفترة الممتدة من قيـــام مملكة بيت المقدس حتى ظهور زنكي اتسمت بالجهود المتفرقة التي بذلتها القوى الاسلامية ، والتي دلّت على مـا أدخره المسلمون من بسالة وشجاعة وقوة وبأس ، إذ أن من قادة الحرب الصليبية الاولى وزعمائها ، أمثال بوهمند الأول ، وبلدوين ، وجوسلين ، وقعوا في ايدي الأمراء المسلمين ، وتحقق للمسلمين النصر الحاسم في وقـائع عديدة ، فاندحرت جيوش الفرنج في معارك كثيرة ، وتعرضت املاكهم في انطاكية والرها للضغط الشديد من قبل المسلمين . على أن افتقار المسلمين الى الوحدة وتغلب المصالح الشخصية والأسرية والعنصرية ، فضلاً عن الحاجة الى زعيم قوي يؤمن بالمصالح الاسلامية العـامة ، كل ذلك أطال أجل الامارات اللاتينية . وأدرك عماد الدين زنكي اهمية توحيد الجبهة الاسلامية قبل المضي لمنازلة الصليبيين، فبادر الى توطيد ملكه في الموصل وحلب ، واستطاع ابنه نور الدين أن ينزع دمشق من التحالف مع الفرنج ، فلم تلبث أن دخلت في نطاق ممتلكاته ، واكتملت الوحدة بزوال الخلافة الفاطمية ، واندماج مصر في املاك نور الدين ، وبذا تهيأ الطريق لصلاح الدين ، كيما ينجز ما استهله زنكي من جهد في سبيل الوحدة، وينزل بالصلبيين الضربة القاصمة في معركة حطين ، وينزع منهم بيت المقدس ، سنة ١١٨٧ .

ولا شك ان للدولة البيزنطية أهميتهـا فيما ساد الشرق الادنى الاسلامي والفرنجي من سياسات ، منذ قدوم الصليبيين سنة ١٠٩٧ . واستهدفت بيزنطة في سياستها عادة المحافظة على مصالحها في الشرق الادنى ، فتحالفت اول الامر مع الفاطميين لمناهضة العباسيين والسلاجقة ،وأثارت اوربا لشن العدوان الصليبي ، ليدفع عنها ضغط السلاجقة ، وحرصت على ان تأخذ العهود والمواثيق على قادة الصليبيين بأن يكونوا أتباعـاً للامبراطور البيزنطي ، حتى اذا استقر الامر للصليبيين ونسوا وعودهم وعهودهم لجأت بيزنطة الى مناهضة الصليبيين .

وطالما قوي ساعد الصليبيين بما قدم اليهم من أمداد من المسيحيين من الغرب، وبمـا أفادوه من ضعف القوى الاسلامية ، لم يحفلوا بدعاوى بيزنطة ، غير ان الإفاقة الاسلامية على أيدي زنكي وأسرته ، وما تلى ذلك من المضي في اتمـام الوحدة الاسلامية ، وما أسفر عن الحملة الصليبية الثانيـة من قصور غرب اوربا

عن بذل المساعدة للصليبيين ، كل ذلك حمـل الصليبيين على التماس التحالف مع البيزنطيين . على ان ما حاق ببيرنطة من هزيمة ساحقة على أيدي السلاجقة سنة ١١٧٦ ، وتعرض حدودها الأوربية للأخطار من قبل الالمان والنرمان بصقليه ، حمل ذلك أجبر الامبراطور البيزنطي على ان ينصرف عن تأييد الصليبيين ، ويلتمس محالفة صلاح الدين ، ولم تثمر محاولات بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لإقامة جبهة مسيحية لمناهضة المسلمين الذين أضحوا جبهة متحدة زمن صلاح الدين ، وبذا حقق صلاح الدين مـا كان يأمله المسلمون من استرداد بيت المقدس . فمهّد بذلك الى زوال ملكهم في الشرق الادنى .

حرص رنسيمان على تحليل هذه الاوضاع في منطقة الشرق الادنى، على الرغم من انه جعل عنوان هـذا المجلد الثاني ، مملكة بيت المقدس والشرق الفرنجي . فالمعروف ان هذه الدراسة لا تستقيم إلا بمعالجة اوضاع القوى الاسلامية في هذه المنطقة ، وعلاقات المسلمين بالفرنج ، والواقع ان رنسيمان بذل جهداً فائقاً في دراسة ما حدث من تطور للأوضاع الاسلامية في هذه الفترة ، فأولى المصادر العربية من الاهتمام مـا أولاه للمصادر المسيحية . وما اتصف به رنسيمان في مؤلفاته من الأمانة والصدق والادراك السليم ، فضلاً عن سلاسة الاسلوب ، كل ذلك يجعل لهذا المجلد الثاني من تاريخ الحروب الصليبية ما هو جدير به من التقدير عند دارسي تاريخ الشرق الاوسط في العصور الوسطى .

وفي الترجمة العربية لهذا الكتاب، كان لا بد من الرجوع الى المصادر الاصلية لضبط أسماء الأعلام والمدن والانهار والوقائع ، ولإثبات مـا جرى اقتباسه من فقرات من المصادر العربية. ولذا أضفت من الملاحق، أمثال وصف معركة حطين حسبما أورده المؤرخون المسلمون المعاصرون، وأسماء الخلفاء والسلاطين والأتابكة والأمراء الذين حكموا في الشرق الأدنى الاسلامي ، فضلاً عن كشاف بمـا يقابل أسماء المواضع العربية من الأسماء الواردة في التواريخ القـديمة والكتب المقدسة ، والله ولي التوفيق .

السيد الباز العريني

بيروت – رجب سنة ١٣٨٨

اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٦٨

تصدير

حاولت أن أروي في هذا الجزء قصة إمارات الفرنج بالشرق الأدنى ، منذ أن ولى بلدوين الاول حكم مملكة بيت المقدس الى أن استردها صلاح الدين ، وهي قصة سبق أن رواهـا المؤرخون الاوربيون من الألمان بما اشتهروا به من الدقة ، مثل روريخت ، ومن الفرنسيين بما عُرفوا بـه من الأصالة والطرافة ، مثل رينيه جروسيه ، ومن الانجليز ، بما اتصفوا به من الإيجـاز ، مثل و. ب. ستيفنسون ، ولم أختلف عن هؤلاء الكتّاب في معالجة نفس الأساس وفي استخدام نفس المصادر الأصلية ، غير أنني تجاسرت فجعلت للدليل والقرينة من التفسير ما يختلف في بعض الأحوال عنـد المؤرخين السابقين . فليست هـذه القصة هينة دائماً ، ولا سيا أن سياسات العالم الإسلامي في أوائل القرن الثاني عشر ، أزرت بكل تحليل مستقيم ، وللإلمام بها لا بدّ لنا أن نفهم قيام إمارات الصليبيين وما جرى فيا بعد من أسباب إفاقة المسلمين .

لم يحدث في القرن الثـاني عشر هجرات عنصرية ضخمة كالتي امتـاز بهـا القرن الحادي عشر ، وكالتي وقعت في القرن الثالث عشر ، فعقّدت سيرة الحملات الصليبية المتأخرة ، وأسهمت فيا أصاب الشرق الأدنى من

الانهيار . على أنـــه في الوقت الراهن يتركز اهتمامنا على الشرق الأدنى ذاته . لكن لا بد ان يمثل في خاطرنا ، القاعدة البالغة الإتساع التي قامت عليها سياسات غرب أوربا ، وما نشب من الحروب الدينيـــة بين أمراء أسبانيا ، وملوك صقلية ، ومشاغل بيزنطة والخلافة الشرقية (العباسية) . فدعوة القديس برنارد وتبشيره للحرب الصليبية (الثانيـــة) ، ووصول الأسطول الانجليزي الى لشبونه ، ومؤامرات البلاط في القسطنطينية وبغداد ، ليست إلا حلقات في مأساة ، على الرغم من أن ذروتها اكتملت على تل أجرد بالجليل .

والواقع أن الحرب هي الغرض الأساسي الذي ينطوي عليه هذا الجزء . ونهجت في معالجة الحملات والغارات العديـدة سبيل المؤرخين السابقين ، الذين توافروا على دراستها ، فالحرب كانت أساس الحياة في الشرق الأدنى ، وقرر مصيرها ما وقع من أخطار في ساحة القتال .

على أنني أفردت في هذا الجزء فصلاً عن حياة الشرق الفرنجي ونظامه . وإني لأرجو أن أورد في الجزء الثالث ، ما حدث به من تطورات فنية واقتصادية . وهذان المظهران للحركة الصليبية بلغـــا الأهمية القصوى في القرن الثالث عشر .

وسبق أن أشرت في تصدير الجزء الأول الى المؤرخين الذين أفـدت من كتاباتهم . ولا بـد لي هنا أن أخص بالذكر ، كتاب يوحنا لامونت ، الذي تعتبر وفاته في سن مبكرة ، صدمة لكتابة تاريخ الصليبيين ، فنحن ندين له ، دون غيره ، بدراستنا المتخصصة عن نظام الحكومة في الشرق الفرنجي . وإني لأود أيضاً أن اعترف بمـا أدين به لكلود كاهن الاستاذ بجامعة ستراسبورج ، لما لكتابه القيم عن شمال الشام ومقالاته العديدة من بالغ الأهمية لموضوعنا .

وإني لأزجي الشكر لأصدقائي الكثيرين ، الذين بذلوا لي المساعدة في أسفاري الى الشرق ، وأخص بالذكر دائرة الآثار بكل من الأردن ولبنان ، وشركة النفط العراقية .

وإني لأتوجه بالشكر أيضاً الى القيمين على مطبعة جامعة كمبردج ، لما اشتهروا به من العطف والصبر .

لندن ١٩٥٢ ستيفن رنسيان

الكتاب الاول

قيام مملكة بيت المقدس

الفصل الاول

الشرق الفرنجي وجيرانه

تحقق للحملة الصليبية الأولى هدفها ، عندما دخلت جيوش الفرنج بيت المقدس . غير أنه اذا كان لا بد من بقاء المدينة المقدسة بأيدي المسيحيين ، واستمرار طريق الحجاج اليها سهلاً ميسوراً ، فينبغي أن يقوم ببيت المقدس حكومة مستقرة ، تستند الى وسائل دفاع قوية ، وأن تكون طرق اتصالها بأوربا آمنة . والواقع أن الصليبيين أدركوا ما يفتقرون اليه من حاجات . اذ أن عهد دوق جودفري على قصره شهد قيام دولة مسيحية . وعلى الرغم من الصفات الطيبة التي تحلّى بها جودفري ، فإنه كان رجلاً ضعيفاً أحمق . اذ ترتب على حقده وكراهيته لرفاقه ، أن نشبت بينهم الحروب الداخلية ، كما أن ما اتصف به من التقوى الخالصة حمله على أن يتنازل عن جانب كبير من سلطته الى الكنيسة . ولم ينقذ الدولة الناشئة إلا وفاة جودفري ذاته ، وقيام أخيه بلدوين في الحكم من بعده . لأن بلدوين ادخر في نفسه كل ما يتصف به الرجل السياسي من الحكمة وبعد النظر والصلابة . غير ان ما واجهه بعد ان تولى الحكم من مسئولية ، كان شديد العنف والخطورة ، ولم يأنس بلدوين إلا لعدد قليل

من الرجال ، الذين يبذلون له المساعدة . فكبار المحاربين بالحملة الصليبية ، إما توجهوا صوب الشمال ، وإما عادوا الى بلادهم ، ولم يبق بفلسطين من زعماء الحركة إلا أضعفهم شأناً وأقلهم نفعاً ؛ وهو بطرس الناسك ، الذي لم نعلم شيئاً عن حياته الغامضة ، وقد رجع الى أوربا سنة ١١٠١ [١] . وصحب الأمراء جيوشهم عند عودتهم الى بلادهم ، بل ان بلدوين ذاته ، الذي لم يكن إلا من اصغر ابناء السادة الإقطاعيين ، ولذا لم يملك شيئاً من الارض ، لم يصحب معه الى الشرق اتباعاً ينتمون اليه ، انما اتبعه من بذله أخوه له من الرجال . فأضحى وقتذاك يعتمد على فئــة قليلة من المحاربين الأشداء الأوفيـاء ، الذين اقسموا قبل أن يغادروا اوربا ، على البقاء في الأرض المقدسة ، وارتكن بلدوين أيضاً الى جماعة من المغامرين ، منهم عدد غـير قليل ، يشبهونه في أنهم من الأبناء الصغار ، الذين كانوا يأملون في أن يقيموا لأنفسهم إمارات ، وفي أن يجعلوا لأنفسهم ثروة .

بلاد فلسطين :

وحينما تولى بلدوين العرش ، تعرض للخطر ، الجانب الأكبر من فلسطين ، الذي حازه الفرنج . فأكثر ما ساده الهدوء والاطمئنان ، هو ذلك الجزء الجبلي الذي يعتبر العمود الفقري للإقليم ، والذي يمتـد من بيت لحم الى سهل جزرل (زرعين) شمالاً ، لأن عدداً كبيراً من القرى الواقعة به ، كان المسيحيون يؤلفون معظم سكانهـا ، بينما هجر معظم المسلمين ديارهم بالمنطقة عند ظهور جيوش الفرنج ، بـل إنهم غادروا مدينتهم المحبوبة ،

---

(١) انظر : Hagenmeyer : Pierre l'Hermite pp. 330 - 344.
توفي بطرس سنة ١١١٥ ، بعد ان بلغ من العمر عتياً .
انظر : Hagenmeyer : op. cit. p. 347.

نابلس ، التي أطلقوا عليها اسم دمشق الصغيرة . على أنـه كان من اليسير الدفاع عن هذه المنطقة . فمـا يقع الى الشرق منها ، كان يحميه وادي الاردن ، ولم يكن بين اريحا وبيسان مخاضة يصح اجتياز النهر منها ، ولم يؤدِ من الوادي الى الجبال إلا درب واحد . ويكاد يكون من العسير ايضاً الوصول اليها من جهـة الغرب . وفي أقصى الشمال منها كانت تقع إمارة الجليل التي استولى عليها تانكرد ، وأضافها الى العالم المسيحي . وتألفت هذه الإمارة من سهل ايزدرايلون (مرج بني عامر). والتلال الممتدة من الناصرة الى بحيرة الحولة على أن أطرافها كانت أكثر تعرضاً للاعتداء ، اذ كان من اليسير الوصول اليها من البحر المتوسط ، من عكا ، ومن جهة الشرق ، باتخاذ الطرق المؤدية الى شمال بحر الجليل وجنوبه . على أن عدداً كبيراً من المسلمين غادروا هذه الإمارة ايضاً ، ولم يبق بها إلا المسيحيون ، فضلاً عن بعض الجاليات اليهودية بالمدن الصغيرة ولا سيما في صفد ، التي تعتبر من قديم الزمن الموطن الأصلي للتلمود . غير أن معظم اليهود آثروا مغادرة البلاد واللحاق بالمسلمين الى المنفى ، بعـد ان تعرض إخوانهم في الدين للمذابح في بيت المقدس وطبريه ، وبعـد أن أعلنوا معارضتهم للمسيحيين في حيفا[1] . وتعتبر الحافة الوسطى والجليـل نواة المملكة ، غير أن محاولات التوسع ، أخذت تمتد الى المناطق المجاورة التي يكثر بها المسلمون . وظفرت إمارة الجليل أخيراً بمنفذ الى البحر المتوسط ، عنـد حيفا . وسيطرت حاميـة الفرنج التي ترابط في حبرون على النقب بالجنوب . غير أن قلعة القديس ابراهام (ابراهيم) ، وهو الاسم الذي أطلقه الفرنج على حبرون لم تكن أكثر من جزيرة صغيرة في وسط محيط إسلامي[2] ، فلم يكن للفرنج سيطرة على الدروب الممتدة من بـلاد العرب ،

---

(١) انظر ما ورد عن اليهود فيما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الاول .

(٢) انظر ما سبق ، الجزء الاول ص ٤٢٩ ، ٤٤٦ .

الى الطرف الجنوبي للبحر الميت ، والتي سارت إزاء طريق التوابل الذي استخدمه البيزنطيون ؛ واستطاع البدو من هـذه الدروب أن ينفذوا الى النقب ، وأن يتصلوا بالحاميـات المصرية المرابطة في غزة وعسقلان على الساحل . ومع أن مدينة بيت المقدس يصلها بساحل البحر طريق يجتاز الرملة ولِد الى يافا ، لم يتوافر الأمن به إلا للقوافل العسكرية . اذ أن الجماعات المغيرة من المدن المصرية واللاجئين المسلمين الذين هبطوا من المرتفعات ، والبدو القادمين من الصحراء ، طافوا بكل الإقليم ، وتعرضوا للمسافرين في غفلة منهم . ومن الدليل على ذلك أن سايولف ، من حجاج الشماليين ، توجه الى بيت المقدس سنة ١١٠٢ ، بعد أن قام الملك بلدوين بتعزيز وسائل الدفاع عن المملكة ، فارتاع للأخطار التي تعرض لها في رحلته [١] . ومع أن أميري المدينتين الإسلاميتين ، أرسوف وقيسارية ، الواقعتين بين يافا وحيفا (التي صارتا بحوزة الفرنج) ، اعتبرا أنفسهما من أتباع جودفري ، فإنه لم ينقطع اتصالهما بمصر بحراً . وكان بأيدي المسلمين كل الساحل الممتد من شمال حيفا الى مسافة مائتي ميل ، حتى أرباض اللاذقيـة ، حيث كانت كونتيسة تولوز تقيم مع حاشية زوجها في حماية الحاكم البيزنطي [٢] .

والمعروف ان فلسطين إقليم فقير ، وما اشتهر به هذا الإقليم من رخاء زمن الرومان لم يستمر الى ما بعد غزو الفرس له . وما نشب من الحروب الدائمة منذ أن قدم الترك الى فلسطين ، منع الخلفاء الفاطميين من استعادتها . وكان بهذا الاقليم من الغابات ما يزيد كثافة عما هو عليه الآن . وبرغم ما أنزله به الفرس من التخريب والتدمير ، وما أحدثه الفلاحون وقطعان الماعز بالغابات من تحطيم بطيء ، فلا زال بالجليل ، وعلى حافـة جبل

---

(١) انظر : Pilgrimage of Saewulf (in P.T.T.S. vol. IV) pp. 8 - 9 .

(٢) انظر ما سبق ، جـ ١ ، ص ٤٤٩ — ٤٥١ .

الكرمل ، وحول السامرة ، غابات غزيرة ، ولا زال على ساحل البحر المتوسط جنوب قيسارية غابة من أشجار الصنوبر . وجادت الحقول في سهل ايزدرايلون (مرج بني عامر) بمحصولات وافرة من القمح ، واشتهر وادي الاردن ، ذو المناخ المداري ، بما ينتجه من الموز والفاكهة النادرة . ولولا ما نشب حديثاً من الحروب ، لزخر السهل الساحلي بمحصولاته وبساتينه التي تنمو بها الخضروات والأترج . وأحاط بالقرى الواقعة على الجبال أحراش الزيتون وحدائق الفاكهة . ومع ذلك يعتبر إقليم فلسطين في مجموعه من الاراضي شبه الصحراوية ، وتعتبر تربته خفيفة وفقيرة ، ولا سيما حول بيت المقدس ، فلم تقم صناعة كبيرة بمدينة من المدن . بل ان ملوك بيت المقدس في ذروة قوتهم لم يبلغوا من الثروة ما حازه كونت طرابلس او أمير أنطاكية [1] . والواقع ان المصدر الأصلي للثروة جاء من الرسوم والضرائب . فالأراضي الخصيبة بشرق نهر الاردن، في مواب وجولان ، لم يكن لها منفذ طبيعي سوى الموانى الواقعة على ساحل فلسطين . كما أن المتاجر القادمة من سوريا الى مصر سلكت طرق فلسطين . أما القوافل التي تجلب التوابل من جنوب بلاد العرب ، فاجتازت في كل العصور صحراء النقب الى البحر المتوسط . ولضمان الإبقاء على مصدر ثروتهم الأساسي ، وهو الرسوم ، لا بد من إغلاق سائر المنافذ ، ولذا ينبغي للفرنج أن يسيطروا على الطرف الممتد من خليج العقبة (جنوباً) الى جبل حرمون (الثلج) شمالاً ، بل كان لزاماً عليهم ايضاً أن يكون لهم السلطة على الطرف الممتد من جبال لبنان الى نهر الفرات .

ولم تتوافر الأحوال الصحية بفلسطين . على أن بيت المقدس بما اشتهرت به جبالها من هواء عليل ، وبما أدخله الرومان من إصلاحات صحية ، توافرت

---

(١) انظر وصف فلسطين في :
Munro : The Kingdom of the Crusaders pp. 3 - 9 .

بها كل أسباب الصحة ، إلا حينما كانت تهب من الجنوب رياح الخماسين وبما تحمله من تراب . أمـا السهول شديدة الدفء ، والتي اجتذبت خصوبتها أنظار المغيرين ، فكانت بمياهها الآسنة ، وتوافر الناموس والذباب بهـا ، مواطن للأمراض ، إذ ترعرعت بهـا الملاريا والتيفوئيد والدوسنطاريا . وتعرضت القرى المزدحمـة بالسكان ، التي انعدمت فيها أسباب الصحة ، للأوبئة مثل الكوليرا والطاعون ، وكثر عدد المجذومين ، وصار من اليسير ان يقع فريسة لهذه الامراض ، الفرسان والجند القادمون من الغرب ، بما ارتدوه من ملابس لا تلائم مناخ هـذه البلاد ، ولاشتداد شهيتهم للطعام ، وجهلهم بالصحة الشخصية . فارتفع معدل الوفيات بين الأطفال الذين نشأوا وشبوا بهذه الجهات ، ولا سيما بين الذكور . ومن سخرية القدر أن كان الأناث أقوى بنياناً من إخوتهم ، فأدى ذلك في الأجيال المقبلة الى مشكلة سياسية مستمرة في مملكة الفرنج . ولما تعلم النزلاء فيما بعد كيف يسايرون التقاليد المحليـة ، تهيأت لهم الفرص لحياة طويلة . غير أن نسبة الوفيات ظلت مرتفعة بين أطفالهم . ولم يلبث أن صار واضحاً أنـه كيما يبقى لسكان فلسطين من الفرنج ، من القوة ما يكفي للسيطرة على البلاد ، لا بد أن يقدم من أوربا باستمرار هجرات وفيرة العدد .

الحاجة الى ميناء بحري :

وكان لا بد لأول عمل يقوم بـه الملك بلدوين أن يكفل الدفاع عن مملكته ، وسوف يتطلب هذا العمل اتخاذ إجراء هجومي . ولذا كان لزاماً على بلدوين أن يستولي على أرسوف وقيسارية ، وإضافة بلادهما الى دولته ، أما عسقلان التي اضاعها المسيحيون سنة ١٠٩٩ بسبب حقد جودفري على الكونت ريموند[١] ، فلا بـد من الاستيلاء عليها ، ولا بد أيضاً من رد

(١) انظر ما سبق جـ ١ ، ص ٤١٩ .

الحد المصري الى الجنوب ، حتى يتوافر الأمن في الطريق من بيت المقدس الى الساحل . وتحتم تشييد معاقل أمامية فيما وراء نهر الأردن ، والى الجنوب من بحر الميت . وينبغي لبلدوين أن يحاول ربط مملكته بالإمارات المسيحية الواقعة الى الشمال ، حتى يتيسر بذلك فتح الطريق للحجاج ، ولأعداد متزايدة من المهاجرين . وتحتم عليه ان يبذل كل جهد لبسط سلطانه على امتداد الساحل ، وأن يشجع قيام إمارات مسيحية اخرى في سوريا . وينبغي أن يوفر لمملكته ميناء آخر ، يفضل كلا من حيفا ويافا . ذلك ان ميناء يافا لم يكن من العمق ما يكفل للسفن الضخمة الوصول الى الشاطىء ، ولذا لم يتم النزول الى البر إلا باستخدام قوارب العبور ، وتعرض الهابطون للخطر الشديد ، عند هبوب الرياح . فاذا اشتدت الرياح ، كان ذلك خطراً على السفن ذاتها . ففي اليوم التالي لنزول سيولف الى البر في يافا ، شهد حطام ما يزيد على عشرين سفينة من الأسطول الذي قدم عليه ، وغرق ما يربو على ألف حاج [١] . وعلى الرغم من ان المجرى المائي المؤدي الى حيفا كان اكثر عمقاً ، وكانت حافة جبل الكرمل تحميه من الرياح الجنوبية الغربية ، فإنه تعرض لخطر الرياح الشمالية . وتعتبر عكا الميناء الوحيد المأمون في فلسطين ، في كل فصول السنة . ولذا لا بد من الاستيلاء على عكا لأغراض تجارية واستراتيجية .

والواقع ان المال والرجال هما أهم ما احتاجه بلدوين لحكومته في الداخل . ولن يأمل في إقامة مملكته ما لم يتوافر له من الثروة والقوة ما يكفي لضبط اتباعه . فلن يستطيع الحصول على القوة البشرية إلا بالترحيب بالهجرة ، وبتشجيع المسيحيين الوطنيين على التعاون معه . أما المال فيستطيع الحصول عليه ، بتشجيع التجارة مع البلاد المجاورة وبالإفادة

---

(١) انظر : Pilgrimage of Saewulf pp. 9 - 8 .

من توافر الرغبة في عمل الخير عند المسيحيين في اوربا ، بما يسهمون به من اموال ، ومـــا يحررونه من أحباس على المنشآت الدينية في البلاد المقدسة . واذا كانت هذه الأحباس لا تجري إلا لصالح الكنيسة . فلا بد للملك ان يكون سيداً على الكنيسة ، حـتى يضمن استخدامها لمصلحة المملكة .

على ان اكبر ما حازه الفرنج من ميزة هو ما وقع من تصدع وحدة العالم الاسلامي . فلم يتحقق هدف الحملة الصليبية الاولى ، إلا بسبب مـا وقع بين القادة المسلمين من أحقاد ، وامتناعهم عن العمل سوياً . فالمسلمون الشيعيون الذين يتزعمهم الخليفة الفاطمي ، يكنون من الكراهية لـلأتراك السنيين والخليفة العباسي ببغداد مثلما يحملونه من البغض للمسيحيين . أما ما جرى بين الترك ، فقد وقع التنافس المستمر بين السلاجقة والدانشمنديين ، وبين الأراتقة وبيت تتش ، ثم بـين ولدي تتش ، دقاق ورضوان . وزاد الأتابكة المستقلون من امثال كربوقـــا في فوضى واضطراب مطامعهم الشخصية ؛ على حين ان بعض الامرات العربية الصغيرة الحاكمة ، امثال بني عمار في طرابلس ، وبني منقذ في شيزر افادت من الاضطراب في المحافظة على استقلالها القلق المحفوف بالخطر . وما احرزته الحرب الصليبية الأولى من انتصار زاد فيما هو سائد من فوضى لا غناء فيها . ومـا جعل التعاون بين الأمراء المسلمين بالغ الصعوبة ، ضعف الروح المعنوية وتبادل الاتهامات [١] .

وأفاد المسيحيون من الهزيمة التي حلت بالمسلمين . اذ ان بيزنطة في الشمال ، استطاعت بفضل ما اشتهر به الامبراطور الكسيوس من عبقرية

---

(١) لعل خير موجز لأحوال العالم الاسلامي وقتذاك ، ما ورد في مقدمة كتاب جب وعنوانه:
The Damascus Chronicle, Ibn al - Qalanisi.

ومرونة ، ان تفيد من الحرب الصليبية في إعـــادة سيطرتها على الشطر الغربي من آسيا الصغرى . وأعـــاد الأسطول البيزنطي حديثاً لسلطان الامبراطور كل الساحل الذي يـدور حول شبه جزيرة آسيا الصغرى . بل إن اللاذقية ، الميناء السوري ، أضحى مرة أخرى في حوزة الامبراطور[1]، بفضل مساعدة ريموند كونت تولوز . أما الإمارات الأرمنية بجبال طوروس ، وطوروس الشرقية ، التي هددها الترك بالزوال ، فأضحت تأمـــل البقاء . وترتب على الحملة الصليبية الأولى ، ان قامت للفرنج إمارتان أضحتا إسفينا في العالم الإسلامي .

إمارة أنطاكية :

وتعتبر أنطاكية أغنى الامارتين وأكثرهما أمناً وطمأنينة . أنشأها بوهمند النرمندي ، برغم معارضة رفيقه القائد الصليبي ، ريموند كونت تولوز ، وما قطعه على نفسه من التزامات للأمبراطور البيزنطي ، الكسيوس . لم تشمل الامارة مساحة كبيرة من الارض ، إذ تألفت من الوادي الأدنى لنهر الأورنت ، وسهل أنطاكية ، وسلسلة جبال الأمانوس ، فضلاً عن ميناءي الاسكندرونة والسويدية . على أن أنطاكية ذاتها كانت مدينة وفيرة الثروة ، برغم ما توالى على المدينـــة أخيراً من تقلبات في مصيرها . فاشتهرت مصانعها بمـا تنتجه من المنسوجات الحريرية والبُسُط ، والزجاج والفخار والصابون . وما نشب من الحروب بين المسلمين والمسيحيين ، لم يمنع القوافل التجارية القادمة من حلب والجزيرة من اجتياز أبواب أنطاكية ، في طريقها الى البحر المتوسط . وكاد كل سكان أنطاكية يتألفون من المسيحيين ، اليونانيين والسريان الأرثوذكس ، والسريان اليعاقبة ، وفئة قليلة من النساطرة ،

---

(١) انظر ما سبق جـ ١ ، ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

غير أنه اشتد بينهم من الحقـــد والكراهية ، ما يسّر للنرمان ضبطهم والسيطرة عليهم [١] . والواقع أن أهم ما تعرضت له أنطاكية من خطر خارجي ، جاء أساساً من قبل بيزنطة لا من جهة المسلمين . إذ أن الامبراطور البيزنطي أدرك ما جرى من خداعه وغشه حول امتلاك أنطاكية ، وإذ أضحت موانئ قليقية واللاذقية ، خاضعة لسلطانه ، واتخــذت بحريته من قبرص قاعدة لها ، ترقب سنوح الفرصة لاستعادة حقوقه . وحرص المسيحيون الأرثوذكس بداخل أنطاكية ، على أن يشهدوا عودة الحكم البيزنطي اليها ، غير أن النرمان استطاعوا أن يؤلبوا عليهم الأرمن والمسيحيين اليعاقبة . وتعرضت أنطاكية لطعنة بالغـة الشدة في صيف سنة ١١٠٠ ، حينما قاد بوهمند حملته الى أعالي نهر الفرات ، فدمر جيشه أنوشتكين الدانشمند أمير سيواس ، ووقع بوهمند نفسه أسيراً في يده . غير أنه برغم فداحة الخسارة في القوة الضاربة ، فإن ما أنزلته الكارثة من الضرر بإمارة أنطاكية لم يستمر طويلاً . فما أقدم عليه الملك بلدوين ، الذي لا زال حتى وقتذاك كونت الرها ايضاً ، من اتخـــاذ إجراء عاجل ، منع الترك من مواصلة انتصارهم . ولم يلبث تانكرد بعد بضعة شهور ، أن قـدم من فلسطين ، فتولى حكم أنطاكية نيابة عن خاله بوهمند أثناء اعتقاله . ولقي النرمان في تانكرد قائداً لا يقل عن بوهمند في القوة والنشاط والإقدام [٢] .

إمارة الرها :

أما كونتية الرها ، وهي إمارة الفرنج الثانية ، فتعتبر إمارة حاجزة ، تحمي أنطاكية من المسلمين . وهذه الكونتية التي حكمها وقتذاك ، بلدوين

---

(١) عن انطاكية ، انظر : Cahen : La Syrie du Nord, pp. 127 ff.

(٢) انظر ما سبق جـ ١ ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ ، وانظر ما يلي ، الفصل الثالث .

لى بور ، ابن عم الملك بلدوين وسميه ، كانت أكبر مساحة من إمارة أنطاكية . إذ امتدت على جانبي نهر الفرات ، من راوندان وعينتاب الى موضع غير معروف بالجزيرة ، الى الشرق من مدينة الرها . وافتقرت الرها الى حدود طبيعية ، والى التجانس بين عناصر سكانها . ومع ان سكانها يتألفون أساساً من المسيحيين ، من السريان اليعاقبة والأرمن ، فإنه دخل في نطاقها مدن إسلامية ، مثل مروج . ولم يأمل الفرنج في أن يقيموا بالرها حكومة مركزية ، واستعاضوا عن ذلك بما شيدوه من حصون منيعة شحنوها بالعساكر ، ومن هذه الحصون تولى الجند جباية الضرائب والجزية من القرى المجاورة ، واستطاعوا أن يشنوا الغارات على ما يلي الحدود من الجهات ، فظفروا منها بالكسب والغنيمة . وهذه المنطقة بأكلها كانت دائماً تعتبر إقليم حدود ، وتعرضت لحروب لا تنقطع ، ومع ذلك اشتملت على أراضي خصيبة ومدن زاهرة . وما حصل عليه كونت الرها من الضرائب ، وما جلبته له الغارات من غنائم ، كفلت له مورداً مالياً وافراً . والواقع أنه كان لبلدوين الأول من الثروة ، وهو كونت الرها ، ما يزيد على ثروته ، بعد أن أصبح ملك بيت المقدس[١] .

على أن القوة الضاربة كانت أشد ما احتاجت اليه هاتان الإمارتان . ولكن الحاجة لهذه القوة في الرها تقل في الأهمية عنها في بيت المقدس . فالمعروف أن السكان المسيحيين في فلسطين لم يجزلهم حمل السلاح منذ أن غزا المسلمون لأول مرة هذه البلاد . ولم يكن بفلسطين من الجنود الوطنيين ما يصح أن يركن اليهم الحكام الجدد (الفرنج) . أما انطاكية والرها فكانتا تقعان في داخل ما كان لبيزنطة من حدود . فكان بها من المسيحيين ، ولا سيما الأرمن منهم ، من تأصلت فيهم الروح الحربية زمناً طويلاً . فاذا

---

(١) انظر : Cahen : op. cit. pp. 110 ff.

تعاون الأرمن مع الأمير الفرنجي ، أضحى لديه جيش جاهز . ولذا كان اول ما حاوله كل من بوهمند وتانكرد في انطاكية ، وبلدوين الأول وبلدوين الثاني في الرها ، هو استرضاء الأرمن . غير أن الأرمن دلوا على أنهم ليسوا أهلا الثقة ، فضلاً عن شهرتهم بالخيانة ، فينبغي ألا يوكل اليهم من الوظائف ما يتطلب الثقة . واحتاج اميرا أنطاكية والرها ، الى فرسان نشأوا بالغرب ، كيا يقودوا كتائبها ويضبطوا أمر قلاعها ، واحتاجا أيضاً الى رجال دين تربوا بالغرب ، ليقوموا بإدارة حكومتيهما . غير أنه بينما هيأت انطاكية للمهاجرين الأمل في حياة آمنة مطمئنة ، لم تجتذب الرها اليها سوى المغامرين الذين قامت حياتهم أصلاً على النهب والسلب .

المدن الاسلامية على الساحل :

كان يفصل بيت المقدس عن هاتين الإمارتين الفرنجيتين الواقعتين بالشمال (الرها وأنطاكية) ، رقعة أرض طويلة الامتداد ، يحكمها امراء مسلمون عديدون ، اشتد التشاحن والتحاسد بينهم . فالساحل الممتد مباشرة الى الشمال من مملكة بيت المقدس ، تقع عليه أربعة مواني بحرية وافرة الثروة ، وهي عكا ، وصور ، وصيدا ، وبيروت ، وكل منها دانت بالولاء لمصر ، غير أن هذا الولاء كان يقوي ويضعف ، كلما كان الأسطول المصري قريباً او بعيداً منها [1] . فإلى الشمال من بيروت تقع إمارة بني عمار ، الذين اتخذوا طرابلس عاصمة لهم . وأفاد أمير طرابلس بما حدث مؤخراً من ارتحال

---

(١) انظر : Gibb : op. cit. pp. 15 - 18.
Le Strange : Palestine under the Moslems. pp. 342 - 352.

الصليبيين الى الجنوب ، فأمد سلطانه حتى بلغ انطرطوس[1] . أما جبلة ، الواقعة بين انطرطوس واللاذقية ، فإنها كانت بيد زعيم محلي ، وهو القاضي ابن صليحة ، ثم تنازل عنها في صيف سنة ١١٠١ ، الى طغتكين اتابك دقاق أمير دمشق ، ومنه انتقلت الى بني عمار[2] . وبجبال النصيرية ، وراء انطرطوس وجبلة ، قامت إمارتان صغيرتان ، فحكم بنو محرز في المرقب والقدموس ، وتولى بنو عمرون أمر الكهف[3] . واقتسم الجزء الأعلى من وادي نهر الأورنت ، خلف بن ملاعب أمير أفامية ، وهو مغامر شيعي اعترف بسيادة الفاطميين ، وبنو منقذ امراء شيزر ، الذين يعتبرون أهم وأشهر الأسرات الحاكمة الصغيرة ، وجناح الدولة أمير حمص ، وهو الأتابك السابق لرضوان أمير حلب ، فلما وقع الشجار بينه وبين سيده (رضوان) ، استقل بحمص[4] . ولا زالت حلب بيد رضوان الذي اتخذ لقب ملك باعتباره من أمراء الأسرة السلجوقية الحاكمة . واستقر بالجزيرة التي تقع الى الشرق من حلب ، افراد من أسرة ارتق ، الذين لجأوا اليها ، بعد أن استرد الفاطميون بيت المقدس سنة ١٠٩٧ ، ويعتبرون من أتباع دقاق أمير دمشق . وحكم دقاق في دمشق ، واتخذ لقب ملك مثلما فعل أخوه رضوان ، صاحب حلب[5] .

---

(١) عن بني عمار ، انظر ما كتبه سوبر نهايم في دائرة المعارف الاسلامية ، من مقال بعنوان : « ابن عمار » .

(٢) انظر : Ibn al - Qalanisi (The Damascus Chronicle), pp. 51 - 52.

(٣) انظر : Cahen : op. cit. p. 180.

(٤) انظر مقالة هونيجمان ، بعنوان : شيزر ، ومقالة سوبر نهايم ، بعنوان : حمص ، في دائرة المعارف الاسلامية ، وانظر ايضاً مقدمة حتى لكتابه :
An Arab - Syrian Gentleman. pp. 5 - 6 .
وهو ترجمة انجليزية لكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ .

(٥) انظر : Gibb : op. cit. pp. 22 - 24 .

وزاد في قلق الانقسامات السياسية واضطرابها ، اختلاف عناصر السكان في سوريا . إذ ألف الترك الارستقراطية الإقطاعية ، وهي فئة قليلة العدد متناثرة . على حين أن سائر الأمراء الصغار كانوا من العرب . على أن سكان المدن بشمال سوريا ومنطقة دمشق كانوا الى حد كبير من المسيحيين ، من السريان الذين ينتمون الى الكنيسة اليعقوبية ، والنساطرة الذين حلوا بالمناطق الشرقية ، والأرمن الذين تسربوا من الشمال . وكانت بلاد بني عمار آهلة بالمارونيين الذي ينتمون للمذهب المونوثليتي . وفي جبال النصيرية ، أقامت قبيلة النصيرية ، التي تدين بالمذهب الشيعي ، ومنها استمد خلف بن ملاعب قوته وسلطانه . وعلى منحدرات جبال لبنان الجنوبية ، نزل الدروز ، وهم فئة من الشيعة تقر ألوهية الحاكم بأمر الله . واشتهر الدروز بكراهيتهم لمن يجاورهم من المسلمين ، غير أنهم كانوا أشد مقتاً للمسيحيين . وازداد الموقف تعقيداً بما حدث من هجرة عرب الصحراء ، وأكراد الجبال الشمالية ، الى الأراضي الزراعية ، وبنزول جماعات من التركمان ، استعدت لأن تخدم كل من يستأجرها من الزعماء المتنازعين[1] .

الخلفاء الفاطميون والخلفاء العباسيون :

يعتبر الخلفاء الفاطميون في مصر أقوى جيران سوريا الإسلامية . والمعروف أن وادي النيل ودلتاه يعتبران أشد البلاد كثافة في السكان في عالم العصور الوسطى . واشتهرت القاهرة والاسكندرية بأنهما من المراكز الصناعية الكبيرة ، في انتاج الزجاج والفخار والأواني المعدنية ، فضلاً عن المنسوجات الكتانية والمزركش . وتجود الأراضي المتزرعة بكميات كبيرة من القمح . واشتهرت الدلتا بالمساحات الشاسعة التي ينمو بها قصب السكر .

---

(١) انظر : Gibb : op. cit. pp. 27 - 29 .

وتسيطر مصر على تجـــارة السودان ، من الذهب والصمغ العربي وريش النعام والعاج . وظلت تجارة الشرق الأقصى تنقلها حتى وقتذاك السفن التي تجتاز طريق البحر الاحمر ، ثم تصل الى البحر المتوسط عن طريق الموانى المصرية . وفي وسع الحكومة المصرية أن تحشد في ساحة القتـال جيوشاً ضخمة . ومع أن المصريين لم يشتهروا بالجندية ، فإن مصر تستطيع أن تستأجر من تشاء من الجنود المرتزقة . يضاف الى ذلك أن مصر ، دون غيرها من الدول الاسلامية ، حازت بحرية بالغـة الأهمية . والمعروف أن الخليفة الفاطمي الشيعي يعتبر المدافع الطبيعي عن الشيعة في الشام . ومع ذلك فإن ما درج عليه من السياسة التقليدية للتسامح الديني ، جعل عدداً كبيراً من العرب السنيين ، الذين يخشون السيطرة التركية ، مستعدين للاعتراف بسيادته . على أن الغزوات التركية اقتطعت جانباً كبيراً من امبراطورية الفاطميين في الشام ، وأضر بمكانة الفاطميين ما حدث من استيلاء الفرنج على بيت المقدس وما أحرزوه من انتصار في عسقلان على الجيش المصري الذي قدم لإنقاذ بيت المقدس . على أن بوسع مصر أن تعوض خسارتها في الجيش . فالواضح أن الوزير الأفضل ، الذي حكم مصر باسم الخليفـــة الفاطمي الآمر ، والذي كان أرمنياً ، وقد نشأ بعكا ، سعى بكل ما يبذله من جهد للانتقام لمـا وقع من الهزيمة في عسقلان ، ولاسترداد فلسطين . والواقـــع أن الاسطول المصري ظل على اتصال بالمدن الاسلامية على الساحل[1] .

أما الخليفة العباسي ، المستظهر بالله ، وهو الذي يقابل الخليفة الفاطمي ويعتبر نداً له ، فلم يكن إلا شاباً ، ليس له من السلطة إلا ظلها ، وتوقف حكمه في بغداد على رضى السلطان السلجوقي . على أن السلطان نفسه ،

(١) انظر : Wiet : l'Egypte Musulman pp. 260 ff.

بركيارق ، أكبر أبنـــاء ملك شاه ، أعوزه ما اشتهر به أبوه من القوة والكفاية . إذ دأب اخوته على التمرد عليه ، فأجبروه على أن يجعل خراسان إقطاعاً لأخيه سنجر ، وظل منذ سنة ١٠٩٩ يقاتل أخاه الآخر محمد ، الذي حاز فعلاً إقليم بغداد . كل هذه المشاغل جعلت من بركياروق حليفاً لا جدوى منه في قتال المسيحيين .

ولم يكن الملك قلج أرسلان بالأناضول ، زعيم أصغر بيوت السلاجقـة شأناً ، والذي انتحل لنفسه لقب السلطان ، بأحسن حالاً في الوقت الراهن من ابن عمه بالعراق ، إذ أن الحرب الصليبية الأولى انتزعت منه عاصمته نيقيه ، وحرمته من كل ثروته ، التي ضاعت في ساحة القتال في دوريليوم . وما كان يسيطر عليه من بلاد ، عاد قدر كبير منها الى أيدي البيزنطيين . وساءت علاقاته بالسلاجقة في الشرق ، فلم يعترف لهم بالسيادة . غير أن كثرة المهاجرين التركمان الى الأناضول ، هيأت له الوسيلة التي يعيد بها تأليف جيشه ، ودبّرت له من السكان من يضايقون المسيحيين[١] . ومن أقوى الامارات بالاناضول ، إمارة دانشمند التي قامت في سيواس ، وسيطرت على الشطر الشمالي لشبه جزيرة آسيا الصغرى . وأحرز أميرها ، أنوشتكين شهرة كبيرة ، بعد أن وقع بوهمند أخيراً في أسره . وكان أنوشتكين أول زعيم مسلم انتصر على جيش من فرسان الفرنج . وأخذ يزداد قوة بمـــا تدفق من هجرات التركمان[٢] .

على أن مجموعة من الإمارات الأرمنية قامت بـين الترك في الأناضول

---

(١) انظر مقالتي : « سلاجقة » ، و « قلج ارسلان » ، في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) عن انوشتكين (جشتكين) ، انظر مقال مكرمين خليل في دائرة المعارف الاسلامية ، بعنوان : دانشمند .

وإمارات الفرنج بشمال سوريا . فمن الأمراء الأرمن ، أوشين الذي سيطر على جبال طوروس الوسطى ، والى الشرق منه حكم أمراء بيت روبين ، وأقام كواسيل في جبل طوروس الشرقي ، واستقر ثاتول في مرعش ، وحكم جبرئيل في ملطية . وانتمى ثاتول وجبرئيل للكنيسة الأرثوذكسية ، ولذا نزعا الى التعاون مع بيزنطة . على أنها مع أوشين أقاموا وضعهم القانوني على ما يمنحه لهم الأمبراطور البيزنطي من تشاريف ، أما أمراء بيت روبين ، الذين من دون هؤلاء الأرمن ، نجحوا في أن يقيموا لهم دولة استمرت أمداً طويلاً ، فانهم ظلوا على عدائهم التقليدي لبيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية [1] .

بيزنطة :

كانت بيزنطة اكثر الدول المسيحية الخارجية اهتماماً بأمور الشام . فظل الكسيوس امبراطوراً على بيزنطة ما يزيد على ثلاثين عاماً . وحينما تولى الحكم ، كانت الأمبراطورية تعاني الافلاس المالي . غير أنه بفضل ما اشتهر به الكسيوس من الدبلوماسية والاقتصاد في الإنفاق ، وما اتصف به من اللباقة في معاملة رعاياه وخصومه سواء ، في داخل البلاد وخارجها ، أعاد بناء الأمبراطورية على أسس راسخة . فأفاد من الحركة الصليبية في استعادة الجزء الغربي من آسيا الصغرى ، من الترك ، وهيأ له اسطوله ، بعد تجديده ، السيطرة على السواحل . على أن بيزنطة ذاتها ، حتى في أشد حالات انحسار ملكها ، اشتهرت في الشرق بما كان لها من

---

(١) عن أصول الأرمن انظر :

Tournebize : Histoire Politique et Religieuse d'Armenie, pp. 168 - 170.

انظر ايضاً ما سبق ج ١ ، ص ٢٧٧ وما يليها .

مكانة تقليدية عظيمة . إذ أنها لم تكن سوى الامبراطورية الرومانية بما خلفته وراءها من تاريخ يبلغ مداه الف سنة ، كما ان امبراطورها لم يكن سوى زعيم العالم المسيحي دون منازع ، على الرغم من ان رفاقه المسيحيين قد تشتد كراهيتهم لسياسته ، وينكرون عليه نهمه وجشعه . وكانت القسطنطينية من اكثر مدن العالم أثراً في تفكير الناس ، لنشاط سكانها الذين توافر عددهم ، ولثروتها الزاخرة ، ولمناعة استحكاماتها ، كما أن القوات الامبراطورية المسلحة كانت خير جند العالم عتاداً واستعداداً . وظل النقد البيزنطي زمناً طويلاً أسلم العملات وأثبتها .

وجرى التعامل في التجارة الدولية على قاعدة نقد بيزنطة ، هايبربيرون hyperpyron ، المعروفة عادة باسم بيزنت ، وهو الصولد الذهب الذي ثبته قسطنطين الكبير . وكان لزاماً على بيزنطة ان تقوم بدور كبير في السياسة الشرقية لمدة قرن من الزمان . والواقع ان ما حققته بيزنطة من انتصارات ، اكثر ما ترجع الى مهارة ساستها وذكائهم ، والى صيت اسمها الروماني ، لا الى قوتها الحقيقية . إذ أن الغارات التركية دمرت التنظيم الاجتماعي والاقتصادي في الاناضول ، حيث استمدت الامبراطورية البيزنطية من قديم الزمن الجانب الاكبر من عساكرها ومؤنها . فاذا صح استرداد الممتلكات ، فمن المستحيل إعادة ما كان بها من تنظيم سابق . فأضحى الجيش بأسره من المأجورين ، ولذا تطلب نفقات باهظة ، فضلاً عن انه لا يصح الركون اليه ، والثقة فيه . فاذا جاز الاطمئنان الى استخدام الترك المأجورين ، أمثال البجناك ، في قتال الفرنج او الصقالبة ، فلا يصح الركون اليهم عند توجيههم لقتال إخوانهم الترك في آسيا . كما ان المأجورين من الفرنج لا يقبلون عن طيب خاطر على قتال اخوانهم من الفرنج . وكان لزاماً على الامبراطور الكسيوس في مستهل حكمه ، أن يحصل على مساعدة البنادقة بما بذله لهم من امتيازات تجارية على حساب رعاياه ، ثم اتبع ذلك ، بما جعله ايضاً من امتيازات للمدن البحرية الأخرى مثل جنوه وبيزا .

وبذلك أخذت تجارة الأمبراطورية البيزنطية تنتقل الى أيــد أجنبية . وحينما اشتدت حاجة الكسيوس ، بعد قليل ، الى النقد السائل ، تدخل في أمر العملة ، بأن أصدر قطعاً ذهبية ، لا تحتوي على القدر اللازم من الذهب ، فأخذت الثقة تتضاءل في البيزنت (الدينار البيزنطي) . ولم يلبث عملاء الأمبراطورية البيزنطية أن ألحوا في أن يتقاضوا أثمان سلعهم ، بالميكائيل (Michaels) ، وهو النقد الذي جرى سكه زمن الأمبراطور ميخائيل السابع ، وهو آخر نقد اشتهر بسلامته واستقراره .

والواقع أن أكثر ما اهتم به الأمبراطور ، هو أن يوفر الرخاء والسعادة للأمبراطورية البيزنطية . فرحب بالحملة الصليبية الأولى ، وأبدى استعداده للتعاون مع قادتها . غير أن ما اتصف به بوهمند من الطموح والعنــاد في أنطاكية ، أزعج الأمبراطور وأثار غضبه . فكان أول ما رغب فيه الكسيوس ، هو أن يستعيد أنطاكية ، وأن يسيطر على الطرق المؤدية اليها ، عبر آسيا الصغرى . فلما تحرك الصليبيون صوب الجنوب الى فلسطين ، توقف تعاونه الفعلي معهم . والمعروف أن السياسة البيزنطية التقليدية قامت طوال القرن السابق على محالفــة الخلفــاء الفاطميين الشيعيين بمصر لمناهضة الخلفاء العباسيين والترك السنيين . وباستثناء ما حدث زمن الخليفة الحــاكم بأمر الله المعروف بجنونه ، اتسمت معاملة الفاطميين للمسيحيين في الشرق بالرفق والعطف والرأفة . ولم يكن لدى الأمبراطور الكسيوس من الدواعي ما يجعله يظن أن حكم الفرنج سوف يكون أكثر قبولاً عنــد المسيحيين الشرقيين . ولذا امتنع عن المضي مع الجيش الفرنجي الذي يزحف على بيت المقدس . غير أنه ليس بوسعه في الوقت ذاته ، باعتباره راعياً للأرثوذكس أن يتخذ موقفاً سلبياً في تقرير مصير بيت المقدس . فاذا كان من الراجح ، أن تبقى مملكة الفرنج ، فلا بــد له أن يتخذ من الخطوات ما يحفظ له حقوقه . ولذا أبدى الكسيوس استعداده لأن يكشف للفرنج بفلسطين عن نواياه الطيبة . على أن مساعدته الفعلية سوف لا تتعدى التعاون في فتح

الطرق التي تجتاز آسيا الصغرى . أما موقفه من الزمان في أنطاكية ، فانه ينم عن الكراهية الشديدة لهم ، وأنه لن يكون إلا عدواً خطيراً لهم . لم يظهر فيما يبدو شيئاً من الحرص على استرداد الرها . والراجح أنه أدرك ما لكونتية الرها الفرنجية من أهميـــة باعتبارها معقلاً يواجه العـالم الاسلامي [١] .

مشاكل بلدوين :

ودخل حديثاً عامل جديد في السياسات الشرقية ، بما جرى من تدخل المدن التجارية الايطالية . لم يتوافر أول الامر عند هـذه المدن من الثقة ما يحملها على الاشتراك في الحرب الصليبية الأولى ، إلا بعد أن أدركت أن الحرب تؤذن بالنجاح وإحراز النصر . فبادرت بيزا والبندقية وجنوه بإرسال أساطيلها الى الشرق ، بعـد أن بذلت الوعود بالمساعدة ، مقابل إقامة منشآت في كل مدينة أسهمت هـــذه المدن الايطالية في الاستيلاء عليها . ورحب الصليبيون بتدخل هذه المدن الايطالية ، لأنها أمدتهم بالقوة البحرية التي لولاها ما استطاعوا أن يُخضعوا المدن الاسلامية على الساحل ، وهيأت سفنهم للصليبيين من طريق الاتصال بحراً بغرب اوربا ما يزيد أمناً وطمأنينة على ما يبذله الطريق البري . غير أن ما طلبته المدن الايطالية من امتيازات وحصلت عليهـا فعلاً ، دلّ على أن حكومات الفرنج في الشرق فقدت جانباً كبيراً من مواردها القوية [٢] .

وما حدث من تعقد الموقف الدولي من حول الملك بلدوين ، لم يدع

---

(١) عن بيزنطة وسياسة الكسيوس ، انظر ما ورد عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب .

(٢) عن المدن الايطالية انظر :

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, vol. I. pp. 131 ff.

الى شيء من التفاؤل . فأضحى حلفاؤه إما ضعافاً ينقصهم الحمـــاس ، وإما مغيرين مدمرين ، لم يحفلوا إلا بمصالحهم الذاتية . على أن ما وقع بين خصومه من انقسام وفرقة ، كان بالغ الفائدة له . على أنه اذا تهيأ العـالم الاسلامي قائد يستطيع أن يجمع شمله ، لم يبق لإمارات الفرنج في الشرق فرصة للبقاء . والواقع أن بلدوين استقر مع فئة بالغة القلة من اتباعه في بلاد سيئة المناخ ، ظلت قروناً عديدة ساحة لما نشب بين الأمم من الحروب . على أن الأمل تجـــدد عند بلدوين حينا علم أن حملات صليبية اخرى خرجت فعلاً من الغرب .

الفصل الثاني

الحملات الصليبية في سنة ١١٠١

في اواخر صيف سنة ١٠٩٩ ، بلغ غرب اوربا نبأ استعادة المسيحيين لبيت المقدس ، فتلقاه الناس بالحماس والسرور ، اذ أن المؤرخين قطعوا روايتهم للأحداث المحلية ، كيما يسجلوا الدليل الكبير على رحمة الله . وإذ مات البابا اربان الثاني قبل أن يعلم بهذا النبأ ، سبّح اصدقاؤه وأنصاره بحمد الله في سائر الكنائس لما ظفرت به سياسته من نجاح . وحدث في الشتاء التالي أن عـاد كثير من القادة الصليبيين بجيوشهم الى بلادهم . ولا شك أن الصليبيين لم يختلفوا عن سائر العساكر العائـدين الى بلادهم في المبالغة في ذكر ما تعرضت له رحلتهم من المشاق والمتاعب ، وفيما حوته البلاد التي اجتازوها من روائع وغرائب ، وفيما قاموا بـه من معجزات تلقوا فيها التشجيع والتأييد من السموات (الله) غير أنهم جميعاً صرحوا أن الشرق في حاجة الى محاربين ومستعمرين ليواصلوا عمـل الله ، وأن بالشرق من الثروة والضياع الكبيرة ما ينتظر قدوم المغامرين . وألحوا في

إثارة حرب صليبية جديدة ، يباركها دعاة الكنيسة [١] .

احتشاد اللومبارديين سنة ١١٠٠ :

على أن هذه الحملة المقبلة لم تشرع في المسير إلا في اوائل خريف سنة ١١٠٠ ، إذ أن شهور الشتاء لا تلائم الرحيل ، إذ كان لا بد وقتذاك من جني المحصول . وفي سبتمبر سنة ١١٠٠ غادرت حملة اللومبارديين إيطاليا قاصدة الشرق . وتولى قيادتها اكبر شخصية في لومبارديا ، أنسلم بويه Buis رئيس اساقفة ميلان . وسار بصحبته البرت كونت بياندرات ، وجيبرت كونت بارما ، وهيو كونت مونتبيللو . لم يكن للومبارديين دور بارز في الحملة الصليبية الأولى ؛ إذ أن عدداً كبيراً منهم ارتحلوا الى الشرق في الشهور الاولى للحملة ، وانحازوا الى بطرس الناسك ، غير أنهم أسهموا في تدمير حملته باشتراكهم مع اتباعه من الألمان في التآمر على أتباعه من الفرنسيين . ومن تبقى من رجال الحملة دخلوا وقتذاك في خدمة بوهمند . وترتب على ذلك ان صار لبوهمند ، دون غيره من الزعماء الصليبيين ، أعلى مكانة في لومبارديا . وهذه الحملة الحالية ، لم تفضل كثيراً الحملة السابقة في النظام ، فلم يكن بهـا من الجند المدربين إلا عدد قليل ، إذ تألفت أساساً من الرعاع الذين جاءوا من الأحياء الفقيرة ، كثيفة السكان ، بالمدن اللومباردية ، وهم رجال أثار اضطراب حياتهم ما حدث من نمو الصناعة في الإقليم . وصحبتهم أعداد ضخمة من رجال الدين والنساء والاطفال . كانت الحملة

---

(١) انظر رسالة البابا باسكال في :

Migne : Patrologia Latinae, vol. CLXIII, cols 42 ff.

غلب على الظن في الشرق وقتذاك ، أنه ما لم تقدم الامداد من الغرب، فلا بد من الجلاء عن البلاد التي تم فتحها . انظر :

De Translatione S. Nicolai in R. H. C. Hist. Occ. vol. V. p. 271 .

جمعا كبيراً ، وعلى الرغم من أن المؤرخ البرت اسقف اكس لاشابل قدر العدد بنحو مائتي ألف نسمة ، فينبغي على الأقل قسمة هذا العدد على عشرة . ولم يكن بوسع رئيس الأساقفة ، ولا كونت بياندرات ، الذي كان يعتبر القائد العسكري ، التحكم في هذه الجماعة وضبطها [1] .

وفي اثناء شتاء سنة ١١٠٠ شق اللومبارديون ، في يسر ، لهم طريقاً عبر كارنيولا Carniola ، ثم هبطوا الى وادي نهر الساف مجتازين بذلك بلاد ملك المجر ، ثم نفذوا الى الامبراطورية البيزنطية عند بلغراد . كان الكسيوس مستعداً لبذل المساعدة لهم . فتولى عساكره حراستهم عبر جبال البلقان . ثم انقسموا الى ثلاث جماعات ، نظراً لأنهم كانوا من وفرة العدد ما يتعذر تموينهم وحراستهم . فكان لا بد لجماعة منهم أن تمضي الشتاء في معسكر خارج مدينة فليبوبوليس ، وتعسكر الأخرى خارج أدرنة ، وتنزل الثالثة بظاهر رودوستو . ومع كل ذلك فإنهم بلغوا من اضطراب النظام ما يمنع ضبطهم والسيطرة عليهم . إذ أخذت كل جماعة في الإغارة على المنطقة الواقعة خارج معسكرها ، تنهب القرى ، وتقتحم مخازن الحبوب ، بل إنها صارت تسلب الكنائس وتسرقها . وحدث آخر الأمر ، في مارس ، ان الامبراطور أنزلهم جميعاً في معسكر خارج اسوار القسطنطينية ، بعد أن نوى أن ينقلهم الى آسيا متى تهيأت له الأحوال . غير أنهم لم يلبثوا أن سمعوا أن محاربين آخرين من الصليبيين ، رحلوا للانحياز لهم . فرفضوا اجتياز البوسفور إلا بعد وصول هذه الامداد . على أن السلطات الامبراطورية قطعت عنهم المؤن ، لترغمهم على العبور .

---

(١) انظر : Albert of Aix VIII. I. p. 559 .
Anna Comnena . XI. VIII. 1. vol. III. p. 36 .
اشارت اليهم على انهم نرمان يتولى قيادتهم اخوان باسم : (Phlantras) .

فبادروا عندئذ الى الهجوم على الاسوار ، وشقوا طريقهم الى فناء بلاشيرن القصر الامبراطوري ، فقتلوا بـه اسداً مستأنساً من وحوش الامبراطور ، وحاولوا أن يفتحوا أبواب القصر . وارتاع رئيس اساقفة ميلان ، وكونت بياندرات اللذان أحسن الامبراطور استقبالها . فاندفعا الى الجموع الثائرة ، ونجحا آخر الأمر في حملهم على العودة الى المعسكر . وصار لزاماً عليهما بعدئذ أن يقوما بتهدئة الامبراطور [١] .

اللومبارديون والفرنسيون في القسطنطينية سنة ١١٠١ :

على أن ريمond كونت تولوز هو الذي أعاد الهدوء والسلام . اذ كان ريموند يقضي الشتاء في ضيافة الأمبراطور الكسيوس ، بعد أن حظي بثقته التامة . ولا زال لريموند شهرة كبيرة باعتباره أقدم كل الأمراء الصليبيين ، وصديق البابا اربان ، والأسقف ادهيمر . استجاب له اللومبارديون ، وبناء على نصيحته ، وافق اللومبارديون على العبور الى آسيا . ولم ينته شهر ابريل حتى استقروا في معسكر قـام بالقرب من نيقوميديا ، ينتظرون قدوم امداد من الغرب [٢] .

لم يكن في وسع ستيفن كونت بلوا أن ينسى مطلقاً فراره من

---

(١) انظر : Albert of Aix VIII. 2-5. pp. 559-562 .
Orderic Vitalis. X. 19. vol. IV. p. 120.
وقد اضطربت روايته ، حين اشار الى ان الامبراطور استخدم الاسود في مهاجمة الصليبيين .

(٢) انظر : Albert of Aix VIII. 7. p. 563 .
Anna Comnena XI. VIII. 2. vol. III. pp. 36-37 .
جرت الرواية بأن ريموند كان يحمل معه ما هو معروف بالحربة المقدسة ، انظر :
Runciman: The Holy Lance found at Antioch, in Analecta Bollandiana vol. LXVIII. pp. 205 - 6 .

أنطاكية ، فلم يوف بنذوره الصليبية ، وظهر جبنه أمام العدو . أما زوجته ، الكونتيسة أديلا ، ابنة وليم الفاتح ، فاشتد خجلها منه . فلم تكف ، حتى في خلوتها بحجرة النوم ، عن تقريعه ولومه ، حتى يمضي ليسترد شهرته . فليس بوسعه أن يزعم ، أن الوطن في حاجة اليه ، اذ أن زوجته كانت دائماً هي الحاكم الفعلي للكونتية . وإذ استبد باستيفن التبرم والقلق ، خرج مرة اخرى في ربيع ١١٠١ قاصداً البلاد المقدسة (١).

ولم يكد يذيع خبر حملة ستيفن بلوا حتى تجهز عدد كبير من الفرسان الفرنسيين الآخرين للانضمام اليه ، يقودهم ستيفن كونت برجنديا ، وهيو كونت بروي Broyes ، وبلدوين كونت جراندبريه ، وهيو بييرفون أسقف سواسون . مضوا جميعاً في سيرهم الى ايطاليا، ثم اجتازوا بحر الأدرياتي ، وبلغوا القسطنطينية في مستهل شهر مايو . على أنه بغتهم في أحد المواضع أثناء رحلتهم سرية من العساكر الألمان بقيادة كنراد كندسطبل الأمبراطور هنري الرابع (٢) .

وطرب الصليبيون الفرنسيون للقاء ريموند بالقسطنطينية ، وازدادت غبطتهم باستقبال الامبراطور البيزنطي لهم . وبناء على اقتراح الكسيوس ، فيما يبدو ، قرروا أن يتولى ريموند قيادة الحملة بأسرها ، ولم يسع اللومبارديون إلا القبول . وفي أثناء الأيام الأخيرة من مايو ، سار من نيقوميديا على الطريق الى دوريليوم ، كل الجيش المؤلف من الفرنسيين والألمان واللومبارديين ، وجماعة من البيزنطيين بقيادة تسيتاس Tsitas الذي صحبه خمسمائة من المرتزقة الترك ، والراجح أنهم من البجناك .

---

(١) انظر : Orderic Vitalis X. 19. vol. IV. p. 119 .

(٢) انظر : Albert of Aix, VIII. 6. pp. 562 - 3 . Orderic Vitalis, loc. cit .

كانت الحملة الصليبية تهدف الى الوصول الى البلاد المقدسة ، والى أن تعيد أثنـــاء سيرها فتح الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى ، وهو هدف ثانوي ، لقي التأييد التـام من الامبراطور . ولذا أوصى ستيفن بلوا بأن يلتزم الجيش الطريق الذي سلكته الحملة الصليبية الاولى ، والذي يجتـاز دوريليوم وقونيه . ووافقه ريموند لمـــا في ذلك من مطابقة للتعاليم التي زوده بهـا الكسيوس . غير أن اللومبارديين الذين يؤلفون غالبية الجيش كانت لهم آراء اخرى . اذ اعتبروا بوهمند بطلاً لهم ، والمحارب الوحيد الذي يثقون في أنه يقودهم الى النصر . أما بوهمند فكان وقتذاك أسيراً في قلعة الامير دانشمند بنقصار ، التي تقع بأقصى الشمال الشرقي في الأناضول . وأصر اللومبارديون على أن يكون إنقاذ بوهمند اول عمل يقومون به . وضاع سدى احتجاج ريموند وستيفن على ذلك . ولم يكن خافياً ما هو معروف من غيرة ريموند وحقده على بوهمند ، ومهما كان له من خلال وصفات طيبة ، فإنه لم يكن قائداً كفئاً قوياً ، أما ستيفن فإن ما كان له من نفوذ ، خدشه ما تبقى من ذكريات عن سابق جبنه وارتعاده في الحرب الاولى . ولقي اللومبارديون الذين استأنفوا المسير ، المساندة من كل من رئيس أساقفـــة ميلان وكونت بياندرات [١] . ولم يكد الجيش يغادر نيقوميديا حتى استدار واتخذ الطريق المؤدي الى أنقرة . وهـــذا الاقليم بأمره كان في قبضة البيزنطيين ، وفي وسع الصليبيين ان يجدوا المؤونة أينما ساروا . على ان أنقرة ذاتها كانت من أملاك السلطان السلجوقي ، قلج أرسلان . غير أنه حينما بلغها الصليبيون ، أدركوا ضعف دفاعهـا فهاجموها واستولوا عليها . وأصابهم التوفيق حينما قاموا بتسليمها الى ممثلي الامبراطور .

---

(١) انظر : Albert of Aix VIII. 7. pp. 563-564 .

يشير الى ان اللومبارديين هم الذين قرروا المسير نحو الشرق . وتروى انه كومنينا في الموضع السابق ان الامبراطور كان يأمل ان يغير ريموند وتسيتاس هذا القرار .

معركة مرسيفان سنة ١١٠١ :

ولما غادر الصليبيون أنقرة ، اتخذوا الدرب الذي يتجه صوب الشمال الشرقي ، ويؤدي الى جنجره Gangra في جنوب بافلاجونيا ، كما يسلكوا الطريق الرئيسي المؤدي الى آماسيا ونقصار . على أن مشاكلهم بدأت أثناء سيرهم الى جنجره . اذ تقهقر قلج أرسلان أمامهم ، وأخـذ يخرب البلاد أثناء سيره ، حتى لا يجدوا ما يقتاتون به . وفي تلك الأثناء ازداد حذر الملك غازي دانشمند ، فبادر بتجديد التحالف مع قلج أرسلان ، وحثّ رضوان امير حلب على آن يبعث أمداداً من الجنوب . ووصل الصليبيون الى جنجره في أوائل يوليه ، فألفوا بهـا السلاجقة في قوتهم . واستعصى عليهم الحصن لمناعته . وصار لزاماً على الصليبين أن يمضوا في طريقهم ، بعد ان نهبوا القرى ، وحصلوا على ما صادفوه من مؤن . استبد بهم التعب والجوع ، ولم يتحملوا حرارة يوليـه اللافحة في هضبة الأناضول المستوية . وحملهم اليأس على ان يستمعوا للكونت ريموند ، الذي أشار عليهم بأن يسيروا صوب الشمال الشرقي الى كستموني Kastamuni ، ومنها الى احدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الاسود . اذ أن هذا الاتجاه سوف ينقذ الجيش من دمار محقق . ولا شك ان ريموند ظن ان الامبراطور سوف يغفر له عصيانه ، اذا رجع اليه ، وقد أعاد للأمبراطورية حصنين كبيرين ، هما أنقرة وكستموني ، ولم يكن الحصن الاخير (كستموني) إلا Castra Comnenon (قلعة كومنين) موطن أسرة كومنين .

على أن الرحلة الى كستموني كانت بطيئة وشاقة ، اذ نفذ المـــاء ، ودمّر الترك كل المحصولات ، وركض الـــترك في دروب متوازية ، لاثارة الاضطراب والفوضى والارتباك تارة في مقدمـة الجيش الصليبي وتارة في مؤخرته ، ولم يبتعدوا كثيراً حتى تعرض لهجوم تركي مفاجيء مقدمة الجيش الصليبي المؤلفة من سبعمائة من اللومبارديين . فولى الفرسان اللومبارديون

الادبار مذعورين ، بعد أن تركوا الرجالة يلقون القتل والذبح . وصادف استيفن كونت برجنديا صعوبة بالغة في لمّ شعث المقدمة ، وردّ العدو . وفي اثناء الأيام التالية ، انصرف ريموند الذي قاد مؤخرة الجيش الى الالتحام باستمرار مع الترك . ولم يلبث الجيش أن اضطر الى أن يتحرك كتلة متراصة ، فاستحال عليه أن ينفذ جماعات للاحتطاب وجمع الحشائش واستطلاع أخبار العدو . فلما بلغ الجيش أطراف كستموني ، تبين لقادته ان الفرصة الوحيدة لنجاته لن تتحقق إلا بأن يبذل كل ما في وسعه لشق طريق مباشر الى الساحل . غير ان اللومبارديين لم يستمعوا مرة اخرى لنداء العقل . ولعل ما وجهوه من اللوم الى اختيار ريموند الطريق الى كستموني راجع الى ما تعرضوا له من متاعب في الوقت الراهن ، ولعلهم ظنوا أنهم إذا اجتازوا بلاد السلاجقة الى بلاد دانشمند ، صار كل شيء اكثر يسراً وسهولة . على أنهم أصروا في حماقة خرقاء على أن يتوجهوا مرة أخرى الى الشرق . وكان لزاماً على الامراء أن يقبلوا هذا القرار ، إذ لم يكن لدى كتائبهم الصغيرة أمل في الحياة اذا تخلوا عن الجيش الرئيسي . وسارت الحملة فاجتازت نهر هاليس الى بلاد الأمير الدانشمند . ووصل الصليبيون ، بعد أن امعنوا النهب في قرية مسيحية ، اثناء سيرهم ، الى مدينة مرسيفان Mersivan التي تقع في منتصف المسافة بين النهر (هاليس) وأماسية . وفي هذه المدينة وقع الكندسطبل كنراد في كمين نصبه العدو ، وفقد بضع مئات من العساكر الالمان . وصار واضحاً ان الدانشمنديين وحلفاءهم يحشدون قواتهم للقيام بهجوم عنيف . وأعد ريموند الجيش المسيحي لخوض المعركة[1] .

---

(١) أنظر : Albert of Aix. VIII. 8 - 14 pp. 564 - 7 .
يشير الى ان الترك بذلوا الرشوة لريموند ليقود الجيش الصليبي الى كستموني ، على ان هذا القول يحتاج الى ادلة. اشارت أنه كومنينا في الموضع السابق الى نهب القرية المسيحية. وأصاب المؤرخ =

وأخذ الترك منذ أن بدأت المعركة في استخدام ما يهوونه من الخطط الحربية ، فكان الرماة يحملون على العدو ويطلقون السهام ، ثم يبادرون الى الارتداد ، بينما يظهر غيرهم من جهة أخرى . فلم يتهيأ للصليبيين الفرصة للمبارزة ، رجل لرجل فيظهرون فيها ما كان من مزايا لتفوقهم في القوة الجثمانية والاسلحة . ولم يمض وقت طويل حتى فقد اللومبارديون تماسكهم ، فولوا الأدبار مذعورين ، مع قائدهم كونت بياندرات ، وخلفوا وراءهم نساءهم وقسيسيهم ، ولم يلبث عساكر البجناك المرتزقة أن اقتفوا أثرهم بعد ان تبين لهم أنه لا داعي لانتظار الموت المحقق . أما ريموند الذي قاتل معهم ، فإنه أدرك أن الجند تخلوا عنه ، فحاول أن يتراجع بحرسه الى تل صخري صغير ، حيث اعتصم به الى أن قدم لنجدته ستيفن كونت بلوا ، وستيفن كونت برجنديا . وظل الفرسان الفرنسيون وكنراد الالماني يستبسلون في القتال طوال بعد الظهر ، حتى ارتدوا الى معسكرهم . وعندما حل الظلام ، ادرك ريموند أن ما حدث تجاوز الحد . فهرب تحت جنح الظلام ، مع حرسه من البروفنساليين وخفرائه من البيزنطيين ، متجهين نحو الساحل . ولما علم رفاق ريموند بهروبه كفّوا عن القتال . واكتمل فرار من تبقى من الجيش قبل طلوع فجر اليوم التالي ، وقد تركوا وراءهم المعسكر ومن كان به من غير المحاربين ، ليقع كل ذلك غنيمة باردة في ايدي الترك .

= رينيه جروسيه في كتابه (Histoire des Croisades vol. II. p.326 note2) حينما رفض ما ذهب اليه Tomaschak من ان ما اورده البرت عن مرعش Maresch انما يقصد به اماسيه (Topographie von Kleinasien p. 88) ووافق ميشو فيما ذهب اليه من ان المقصود بها Merzifun او Merzivan . فمن اليسير على فرنسي جادل ان يحول مرسيفان الى Meresiam ، او Mersican ، وهي الصيغة الفرنسية لفظة Marash ، غير انه من العسير اقحام الحرف (الراء) في أماسيه Amasya الاسم التركي لفظة Amasea ، او الاسم العربي ماسه Masa .

وبعـد أن توقف الترك للأجهاز على الرجال والطاعنات في السن من النساء بالمعسكر ، مضوا في حماس لمطاردة الفارين . ولم يستطع الافلات إلا الفرسان على ظهور خيولهم . أما المشاة فوقعوا في أيديهم ولم يفلت احد منهم من القتل . أما اللومبارديون الذين تسببوا في هذه الكارثة فلم ينج من الفناء منهم إلا القادة . وبلغت الخسائر اربعـة اخماس الجيش ووقع في ايـدي الترك مقادير كبيرة من الثروة والاسلحة . وزخرت اسواق الرقيق ودور الحريم بالشرق ، بما أصابه الترك في ذلك اليوم من الفتيات والأطفال [١] .

حرص ريموند وحاشيته على الوصول الى بافره ، الميناء البيزنطي الصغير ، الواقع على مصب نهر هاليس . فصادفوا به سفينة أقلتهم الى القسطنطينية . وشق الفرسان الآخرون لهم طريقاً للإرتداد عبر النهر ، فبلغوا سينوب الواقعة على ساحل البحر الاسود . ومنها ساروا في بطء على الطريق الساحلي الذي يجتاز الاراضي البيزنطية ، والذي يؤدي الى البوسفور . فاجتمعوا مرة اخرى بالقسطنطينية أوائل الخريف [٢] .

نتائج معركة مرسيفان ١١٠١ :

وإذ التمس الرأي العام للصليبيين كبش فداء يتحمل مسئولية أخطائهم ، ألقوا باللوم على البيزنطيين واعتبروهم مسئولين عما حل بهم من الكارثة . ذلك أن الكونت ريموند ، على ما جرى القول به ، كان ينفــذ تعاليم

---

(١) انظر : Albert of Aix VIII. 14 - 23 pp. 567-573 .
وتتفق روايته مع الرواية القصيرة التي اوردتها أنه :
(XI. VIII. 3. vol. III. pp. 37 - 38) .
(٢) انظر : Albert of Aix VIII. 24 p. 274 .

الامبراطور حينما أخرج الجيش الذي يقوده عن طريقه ليلقى حتفه في كمين تركي سبق إعداده . والواقع ان الامبراطور الكسيوس غضب على ريموند ورفاقه . فاستقبلهم في ادب ، وفي برود ، ولم يخف امتعاضه منهم [١] . فلو أن الحملة الصليبية أعادت له كستموني والجزء الداخلي في بافلاجونيا ، لاغتفر لها ذلك ، على أنه كان أشد حرصاً على السيطرة على الطريق المباشر الى سوريا ، لتأمين الفتوح التي قام بها في جنوب غربي آسيا الصغرى ، وللتمكين له في التدخل في أمور سوريا . يضاف الى ذلك أنه لم يشأ أن يتورط في حرب مع الأمير الدانشمند ، اذ سبق أن دارت بينهما المفاوضات حول افتداء بوهمند . غير أن خطته دمرها ما ارتكبه اللومبارديون من حماقة ، على أن للكارثة نتائج بالغة الأهمية والخطورة . فما كان للترك من شهرة وثقة في النفس ، خدشتها الانتصارات التي أحرزها المسيحيون أثناء الحملة الصليبية الاولى ، غير أن الترك لم يلبثوا بعد هذه الكارثة ان زاد فخرهم باسترداد هاتين الصفتين . اذ صار بوسع السلطان السلجوقي أن يعيد سلطانه على جوف هضبة الاناضول ، ولم يلبث أن أقام عاصمته في قونيه على الطريق الرئيسي الممتد من القسطنطينية الى سوريا . على حين أن الملك غازي الدانشمند واصل الفتح في وادي الفرات حتى بلغ أطراف كونتية الرها [٢] . فانسد من جديد في وجه الصليبيين والبيزنطيين الطريق البري من اوربا الى سوريا . يضاف الى ذلك أن ازدادت العلاقات سوءً بين الصليبيين والبيزنطيين . اذ أصر الصليبيون على اعتبار الامبراطور مصدراً لمتاعبهم ، بينما أغضب البيزنطيين وصدمهم غباء الصليبيين وإنكارهم المعروف وخيانتهم .

---

(١) انظر : Ibid . loc. cit .
يشير البرت الى ان ريموند حرص على ان يهدىء من ثائرة الامبراطور .
(٢) انظر : Michael the Syrian III. pp. 189-191 .
Cahen : La Syrie du Nord p. 232 .

حملتا نيفر واكيتانيا ١١٠١ :

ولم يمض زمن قصير حتى تجلّت نتائج الكارثة ، فلم تنقض إلا أيام قليلة بعد أن غادر اللومبارديون مدينة نيقوميديا ، حتى قدم الى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم الثاني كونت نيفر . والمعروف أن كونت نيفر غادر موطنه في فبراير (١١٠١) ، وبعد ان اجتاز ايطاليا ، عبر بحر الأدرياتي عند برنديزي الى افلونا . وترك الجيش أثراً رائعاً أثناء اختراقه مقدونيا لما التزم به من دقة النظام . وحظي الكونت باستقبال ودّي من الكسيوس ، غير أنه عزم على ألا يمكث طويلاً بالقسطنطينية . ولعله كان يتوقع ان ينحاز بجيوشه فيها الى دوق برجنديا لما كان بينهما من جيرة في الوطن ، ولذا بذل كل ما في وسعه للإسراع أملاً في اللحاق به . ولما وصل الى نيقوميديا علم أن الحملة الصليبية مضت في طريقها الى أنقرة ، التي بلغها حوالي نهاية شهر يوليه . غير أنـــه ما من احد في أنقرة يعلم بالجهات التي سار اليها الجيشان اللومباردي والفرنسي . فلم يسع وليم كونت نيفر إلا الرجوع ، كيما يتخذ الطريق المؤدي الى قونيه . وبرغم ما تعرضت له الرحلة من متاعب أثناء اجتياز بلاد لم تنهض من الخراب الذي حلّ بها زمن الحملة الصليبية الاولى ، فإن جيشه مضى في سيره في أتم نظام . وتولى المحافظة على قونيه وقتذاك حامية سلجوقية قوية ، وما قام به وليم من محاولة للإستيلاء عليها عنوة باءت بالفشل . وأدرك أنه من الحكمة ألا ينتظر بها ، فسار عنها . على أنه حدث في تلك الأثنـاء أن علم قلج أرسلان والملك غازي بقدوم هـذا العدو الجديد . واذ لا زالت تغمرهما حرارة الانتصار الذي أحرزاه على اللومبارديين ، أغــذا السير صوب الجنوب ، مجتازين فيما يبدو قيصرية – مزاكا ، ونيجده Nigdé ، فسبقا وليم في الوصول الى هرقلة . وسارت عساكر نيفر في بطء من قونيه متجهة صوب الشرق . ونفذ القوت ، وطمّ الترك الآبار الواقعة على امتداد الطريق . فلما اقتربوا ، اشتد بهم التعب والضعف ، فلم يسع الجيش التركي الذي يفوقهم

في العدد إلا ان يطوقهم ويوقعهم في الكين . وانهارت مقاومة الصليبين بعد معركة لم تستمر طويلاً . ولقي الجيش الفرنسي بأمره مصرعه على ساحة المعركة ، ولم ينج منه إلا كونت وليم وعدد قليل من الفرسان ، الذين اقتحموا خطوط الترك ، وظلوا أياماً عديدة يجوسون خلال جبال طوروس ، حتى بلغوا حصن جرمانيكوبوليس البيزنطي ، الذي يقع الى الشمال الغربي من سلوقية الايزورية . وأمدهم الحاكم البيزنطي ، فيما يبدو ، بقوة مؤلفة من اثني عشر جندياً من البجناك المرتزقة تولت حراستهم الى الطرف السوري . وبعد أسابيع قليلة دخل انطاكية كونت وليم ورفاقه ، مجردين من السلاح ، وكادوا يتعرون من ملابسهم ، وأشاروا الى ان البجناك هم الذين تولوا تجريدهم ، ثم تخلوا عنهم في الصحراء التي كانوا يجتازونها ، غير ان ما حدث فعلاً ليس معروفاً [1] .

ولم يكد كونت نيفر يعبر البوسفور ، حتى قدم الى القسطنطينية جيش ضخم آخر ، مؤلف من الفرنسيين والألمان . وقاد القوات الفرنسية وليم التاسع ، دوق اكيتانيا ، الذي يعتبر أشهر شعراء التروبادور في عصره ، والذي يعتبر من الناحية السياسية منافساً لدوداً لريموند كونت تولوز .

---

(١) انظر : Albert of Aix, vol. VIII. 25-33 pp. 576 - 8.
يعتبر المصدر الوحيد عن هذه الحملة . اما :
Hagenmeyer.: Chronologie du Royaume de Jerusalem pp. 438 - 9, 449, 450 - 460.
فانه يشير الى ان عساكر نيفر وصلوا الى القسطنطينية في منتصف يونيه ، وانهم ارتحلوا من انقره حوالي ٢٥ يوليه ، ومن قونيه في منتصف اغسطس .

ذلك أن زوجته ، الدوقة فيليبا كانت ابنة الشقيق الأكبر لريموند ، ولذا ينبغي أن ترث كونتيته . وقدم معه هيو كونت فرماندوا الذي تخلى عن الحملة الصليبية الاولى بعد استيلائها على أنطاكية غير أنه كان حريصاً على ان يوفي بنذره بالمسير الى بيت المقدس .

ارتحل جيش اكيتانيا من فرنسا في شهر مارس ١١٠١ ، واتخذ الطريق البري الى جنوب ألمانيا وبلاد المجر . وانحاز اليه أثنـاء السير ولف Welf دوق بافاريا الذي أعد نفسه ليقضي ما تبقى من عمره ، في القتـــال من أجل الصليب في فلسطين ، بعـد حياته الحافلة في ألمانيا . اصطحب دوق بافاريا جيشاً ألمانياً ، من الفرسان والمشاة ، الذين اكتمل إعدادهم . وصحبه ثيمو Thiemo رئيس اساقفة سالتزبرج ، وإيدا دوقة النمسا ، التي تعتبر من اجمل ملكات زمنها ، والتي التمست بعد زوال شبابها ما تقترن بـه الحرب الصليبية من إثارة صالحة . وسارت جيوشهم المتحدة مع الدانوب الى بلغراد ، ومضوا على الطريق الرئيسي عبر جبـال البلقان . ولم تكن هذه الجموع سهلة الانقياد ، فحينما وصلت الى أدرنه بلغ سلوكها من السوء ما حمل السلطات البيزنطية على ان ترسل لها الجند المأجورة من البجناك والبولوفتسيان Polovtsian لمنعها من المضي في السير ، فنشبت المعركة . ولم يجرِ الإذن لعساكر دوق وليم وولف دوق بافاريا بالمسير إلا بعد أن تدخلا فعلاً وكفلا سلوكهم الطيب مستقبلاً . على أن قوة كبيرة من الحرس صحبتهم الى القسطنطينية . حيث أحسن الكسيوس استقبال وليم وولف ودوقة اوستريا ، وأعـد الكسيوس لهم من الرجال من يتولون في سرعة فائقة نقل عساكرهم عبر البوسفور . واستقل جماعة من الحجاج المدنيين ، ومنهم المؤرخ ايكارد اسقف اورا ، سفينة حملتهم رأساً الى فلسطين ، التي بلغوها بعد رحلة استغرقت ستة أسابيـع .

كان يصح ان يلتقي الدوقان بكونت نيفرز ، فتزداد جيوشهما قوة بالإنحياز الى قواتـــه . غير ان كونت نيفرز أراد ان ينضم الى كونت برجنديا ، وليس متوقعاً ان ينحاز الدوق وليم الى جيش يقوده عدوه القديم ريموند كونت تولوز ، أما ولف دوق بافاريا ، وهو عـــدو قديم للامبراطور هنري الرابع ، فلم يكن يميل كثيراً الى كنراد كندسطبل الامبراطور هنري . عجل كونت نيفرز بالمضي الى أنقرة ، بينما ظل الجيش البافاري الاكيتاني في انتظاره نحو خمسة اسابيع على شاطىء البوسفور ، ثم سار في بطء على الطريق الى دوريليوم وقونية . فلمـا بلغ دوريليوم كان جيش نيفر وقتذاك يجتاز المدينة في طريق عودته ، وقد اتخذ طريقه فعلاً الى قونية . على أن ما حدث من ان جيشاً آخر سبق ان اجتـاز هذا الطريق منذ بضعة ايام ، لم يجعل الأمور بالغة السهولة عند الاكيتانيين والبافاريين . اذ ان القليل من المؤن التي يصح الحصول عليها نفذت فعلاً ، ومن اجل ذلك خص الصليبيون البيزنطيين باللوم . واكتشف الاكيتانيون والبافاريون مثلما اكتشف عساكر نيفرز أن الآبار قد جفت او انطمرت . فنهبوا فيلوميليوم بعد أن هجرها أهلها . أما الحامية التركية في قونية التي قاومت عساكر نيفرز ، فإنها غادرت المدينة قبل قدوم هذا الجيش الضخم ، غير ان العساكر الترك جمعوا وحملوا كل ما بالمدينة من مؤن قبل أن يغادروها ، وجردوا البساتين والحدائق بأرباض المدينة من كل مـا فيها . فلم يجد الصليبيون بها ما ينعشهم ، على أنه حدث في تلك اللحظة وعلى مسافة مائـة ميل ان كان قلج ارسلان والملك غازي يجريان مذبحة في رجال نيفرز .

معركة هرقلة :

جهـــد الصليبيون في الخروج من قونية واجتازوا الصحراء قاصدين

هرقلة ، وقد استبد بهم الجوع والظمأ ، ومن حين لآخر ينقض الترك على مجنبتهم ، يطرون قلب الجيش بالسهام ، ويقطعون طريق من خرج من صفوفه من الجماعات لجمع الاحطاب ، ومن ضل الطريق وفي اوائل سبتمبر دخلوا هرقلة ، التي هجرها سكانها مثلما حدث في قونية . على أن النهر الذي يجري وراء المدينة فاضت مياهه ، وهو من الأنهار القليلة بهضبة الأناضول التي يغزر فيضانها طوال شهور الصيف . فاندفع المحاربون المسيحيون ، بعد أن كاد الظمأ يسبب لهم الجنون ، من صفوف الجيش الى الماء الذي يروي غلتهم . غير أن الجيش التركي كان مختبئاً في الغابات الواقعة على شاطىء النهر . وإذ اضطرب نظام الصليبيين ، انقض عليهم الترك وأحاطوا بهم ، ولم يتركوا لهم من الوقت ما يعيدون فيه اصلاح صفوفهم ، وانتشر الذعر في الجيش المسيحي . واختلط الفرسان والرجالة ، وقد اشتد اندفاعهم ، وإذ هووا الى الارض عند محاولتهم الفرار ، أنزل بهم العدو القتل والتذبيح . واستطاع دوق اكيتانيا الذي تبعه احد سياسه أن يشق له طريقاً وأن يركض الى الجبال . وبعد أن ظل دوق اكيتانيا اياماً عديدة يجوس خلال الدروب ، اكتشف طريقه الى طرسوس . وأصاب هيو كونت فرماندوا جرح بليغ في المعركة ، غير ان بعض رجاله انقذوه ، فوصل ايضاً الى طرسوس ، غير انه كان يشرف على الموت . فقضى نحبه في ١٨ اكتوبر وتوارى جثمانه بطرسوس في كاتدرائية القديس بولص . ولم يفِ مطلقاً بنذره في المسير الى بيت المقدس ولم ينج ولف كونت بافاريا بحياته إلا بعد أن قذف ما عليه من الاسلحة . فوصل بعد اسابيع عديدة الى انطاكية يصحبه اثنان او ثلاثة من اتباعه . ووقع في الأسر رئيس الاساقفة ثييمو ، ثم استشهد في سبيل إيمانه وعقيدته ، وليس معروفاً ما كان من مصير دوقة النمسا . روت القصص المتأخرة انها ختمت أيامها أسيرة

في حريم أحـــد الامراء في جهة نائية ، حيث ولدت له بطلاً من أبطال المسلمين ، وهو زنـكي . والراجح انه وقعت من محفتها اثناء الذعر الذي انتشر ، فداستها الأقدام حتى ماتت [١] .

ولقيت كل حملة من الحملات الصليبية الثلاثة سنة ١١٠١ خاتمة فاجعة؛ وأثرت كوارثها في سيرة الحركة الصليبية بأمرها . إذ أخذ الترك بالثأر لما حلّ بهم من هزيمة في دوريليوم . فلن يجري بحال من الاحوال طردهم من بلاد الأناضول . وظل الطريق الذي يجتاز شبه الجزيرة غـير مأمون للجيوش المسيحية ، الصليبية والبيزنطية سواء ، ولما حاول البيزنطيون فيما بعد ان يتدخلوا في أمور سوريا ، كان لزاماً عليهم أن يوطدوا نفوذهم على أطراف طرق المواصلات ، البالغـة الطول ، والتي تتعرض دائمـاً للاعتداء ، على

---

(١) انظر : Albert of Aix VIII. 34 - 40 pp. 579 - 582 .

وهو المصدر الوحيد الوافي :

Ekkehard XXIV - XXVI. pp. 30 - 32 .

ابحر ايكارد من القسطنطينية وخلط بين الحملات البرية مثلمـا فعل فولشر اسقف شارتر (VII. XVI. 1 - 3 pp. 428 - 433) . ووردت ثـلاث روايات عن : Passiones St. Thiemonis (آلام القديس ثيمو) ، تصف استشهاد رئيس الاساقفـة ، غير انهـا لم تورد تفاصيل عن الحملة . امـا مصير ايدا الافتراضي فجرت الاشارة اليـه في : Historia Welfourm Weingartensis .

(انظر : M. G. H. Ss. vol. XXI. p. 462 .

لم يذكر ايكارد سوى انها لقيت حتفها قتلاً .

اورد عـدة مؤرخين غربيين اشارات عابرة عن هذه الحملة (op. cit. p. 457) ، يجعل Hagenmeyer تاريخ نهب فيلوميليوم حوالي ١٠ اغسطس ، وتاريخ المعركة حوالي ٥ سبتمبر .

حين أن المهاجرين الفرنج القادمين من الغرب كانوا يخشون اتخاذ الطريق البري الذي يجتاز القسطنطينية ما لم يكونوا في جيوش ضخمة . ولم يعد في وسعهم القدوم إلا بحراً ، والواضح أنه لم يقدر أن يؤدي أجر الرحيل إلا القليل منهم . وبدلاً من ألوف المستعمرين النافعين الذين كان ينبغي أن يقدموا الى سوريا وفلسطين في تلك السنة ، لم يصل إلا عدد قليل من القادة المتنازعين الذين فقدوا جيوشهم وسمعتهم أثناء الطريق ، فنفذوا الى إمارات الفرنج ، التي كان بها كفايتها من الزعماء المتناحرين .

ومع ذلك لم يكن لدى كل المسيحيين ما يدعو لإظهار الأسف على كوارث سنة ١١٠١ . فالمدن الإيطالية البحرية أدركت أن ما جرى من الفشل في السيطرة على الطريق البري عبر آسيا الصغرى يزيد في نفوذها وثروتها ، إذ أنها ملكت من السفن ما تعتبر بديلاً في الاتصال مع امارات الفرنج في الشرق . وأصبح تعاونها ضرورة ملحة ، فأصرت على أن ما يؤدي لها من أجور يتخذ صورة امتيازات تجارية . أما الأرمن بجبال طوروس ولا سيما امراء بيت روبين ، فرحبوا بالأحوال التي جعلت من العسير على بيزنطة أن تعيد سيادة امبراطوريتها على المناطق التي يعيشون بها ، على حين أن الأرمن الذين ينزلون الى اقصى الشرق لم يكن لديهم من الدواعي ما يحملهم على السرور لما حل من كوارث سنة ١١٠١ . إذ أن الأمير الدانشمند كان اكبر عدو لهم ، وما أحرزه من الانتصار شجعه على مهاجمتهم . وتهيأت فرصة راحة طيبة للنرمان في أنطاكية الذين يضارعون أمراء روبين في أن خوفهم من البيزنطيين يزيد على خوفهم من الترك . فلا زال بوهمند قابعاً في الأسر ، غير أن تانكرد الوصي على أملاك بوهمند ، استغل الموقف لتدعيم الإمارة على حساب الأمبراطور البيزنطي . ولم يلبث القدر أن جعل في كفه ورقة حظ ناجحة .

اعتقال الكونت ريموند سنة ١١٠١ :

المعروف أن دوق اكيتانيا ، وكونت بافاريا ، وكونت نيفرز وصلوا فعلا الى أنطاكية في خريف ١١٠١ ، بمن تبقى على قيد الحياة من رفاقهم ، على حين أن قادة الحملة اللومباردية الفرنسية لا زالوا بالقسطنطينية . وكان عسيراً على الكسيوس أن يغفر لهم حماقاتهم ، بل إن ريموند الذي بنى عليه الكسيوس الآمال الكبيرة قد خذله . على أن أمراء الغرب عزموا في نهاية السنة على أن يواصلوا حجهم ، واستأذن ريموند للحاق بزوجته وجيشه باللاذقية . ولم يسع الامبراطور إلا أن يستجيب لهم عن طيب خاطر ، وهيأ لهم من السفن ما يحملهم الى الشام . وفي مستهل السنة الجديدة هبط الى ميناء السويدية (سان سيمون) ستيفن كونت بلوا ، وستيفن كونت برجنديا ، والكندسطبل كنراد ، والبرت بياندرات ، فبادروا بالمسير الى أنطاكية حيث لقوا استقبالاً حاراً من تانكرد . غير أن سفينة ريموند انفصلت عن سائر السفن ، وانطلقت الى ميناء طرسوس . ولما هبط ريموند الى الساحل ، تقدم أحد الفرسان ، وهو برنارد الغريب ، فألقى القبض عليه ، لأنه خان العالم المسيحي بهروبه من ساحة معركة مرسيفان . ولم يكن بوسع حرس ريموند ، قليل العدد ، أن ينقذه . جرى المضي به في حراسة قوية ، حتى تم تسليمه الى تانكرد [١] .

---

(١) انظر : Albert of Aix, VIII, 42, pp. 582 - 3 .
كان برنارد الغريب يتولى قيادة طرسوس في سبتمبر ١١٠١ (انظر ما يلي ص ٥٩) .
والراجح ان المؤرخ رادولف Radulph of Caen (CXIV. p. 708) ، وأيده المؤرخ Cahen : La Syrie du Nord. p. 232, note 10 ، يرى أن ريموند هبط في Longiniada ، ميناء طرسوس ، لا في السويدية ، مع غيره من الصليبيين كما أشار البرت . ويقول متى الرهاري Matthew of Edessa CLXXII. p.242 ، أن ريموند ألقي في سجن Sarouantavi وهي سرفنتكار Serventikar بجبال طوروس ، وهذا فيما يبدو ليس محتملا .

الفصل الثالث

أمراء النرمان بأنطاكية

ومع أن مــا حدث من هزيمة بوهمند ووقوعه في أسر الملك غازي الدانشمند كان فيما يبــدو مثيراً للخوف والقلق وقتذاك ، فقد كان عند أمراء الفرنج ما يعوضهم عن ذلك . إذ كانت أنطاكية في حاجة الى قيم ، والواضح أن تانكرد هو المرشح لأن يحل مكان خاله . وبذا استطاع الملك بلدوين أن يتخلص من أخطر أتباعه في فلسطين ، بينما طرب تانكرد لأنه نزع نفسه من موقف أثار حيرته وقلقه ، ولأنه تهيأ له التحرك الى مجال ، أفسح أمامه الأفق ووهبه الاستقلال . على أن تانكرد حينما غادر فلسطين في مارس سنة ١١٠١ لم يشترط سوى أنه اذا عاد خاله من الأسر في خــــلال ثلاث سنوات ، ولم تعد أنطاكية في حاجة اليه ، فينبغي أن يردّ اليه اقطاعه بالجليل . ولذا كان من مصلحة كل من بلدوين وتانكرد ألا يجري التعجيل بإطلاق سراح بوهمند من الأسر . فـلم تحدث محاولة للتفاوض مع آسره [١] .

---

(١) Fulcher of Chartres VII. I. pp. 390-393 .
Albert of Aix VII. 44 - 5 pp. 537 - 8 .

اشتهر تانكرد في وصايته بالاستقامة ، فلم يتخـــذ لنفسه لقب أمير أنطاكية . ومع أنه أمر بسك النقود ، فإن العبــارة المدونة بلغة يونانية سقيمة لقبته « خادم الله » ، وأطلق على نفسه في بعض الحالات « الأمير الكبير » وإذا زادت أطماعه عن ذلك ، فالراجح أن الرأي العـــام في أنطاكية يمنعه من ذلك . فلا زال النرمان يعتبرون بوهمند زعيماً لهم ، والمعروف أن من أصدقاء بوهمند المخلصين ، البطريرك اللاتيني الذي عينه قبيل وقوعه في الأسر ، وهو برنارد فالنس ، الذي من أجله طرد من البطريركية يوحنا او كزيت اليوناني John the Oxite . ولم يختلف تانكرد عن بوهمند في سياسته ، فمن الناحية الداخلية ، حرص على تدعيم ادارة الإمـــارة ، وصبـغ الكنيسة بالصبغة اللاتينية ، وأما السياسة الخارجية فقامت على الاثراء على حساب البيزنطيين وجيرانه من الأمراء المسلمين . غير أنه يزيد في أطماعه المحلية عن خاله بوهمند ، ويقل عنه في الطموح الكبير [١] .

تانكرد وبيزنطة سنة ١١٠١ :

وأول ما جال في خاطر تانكرد هو أن يحمي نفسه من كل ما يتعرض له من اعتداء من قبل بيزنطة . وما حلّ بالحملات الصليبية من كوارث

---

(١) Schlumberger : Les Principautés franques du Levant pp. 14 - 15 .

استخلص شلمبرجر من دراسته لنقود تانكرد ، أنه ظهر عليها في أردية امبراطورية ، غير أنه جعل على رأسه كوفية . وورد في الكتابة اليونانية على أنه تانكرد خادم الله ، وعلى الوجه الآخر من النقد نقش الصليب مع الكتابة الآتية (كالتي ترد على النقوش البيزنطية) وهي :

I C X P. NIKA . وورد في Historia Belli Sacri p. 228 أنه لم يخر الاعتراف به حاكماً إلا بعد أن أقسم يمين الولاء لبوهمند . ونصبه في الوصاية المندوب البابوي Maurice of Porto .

سنة ١١٠١ أسهم الى حد كبير في مساعدته ، إذ أن نهوض الترك من جديد في آسيا الصغرى منع الامبراطور لفترة من الزمن من أن يخاطر بإرسال جيش يجتاز شبه الجزيرة الى أقصى الجنوب الشرقي لها . اعتقد تانكرد أن الهجوم خير وسيلة للدفاع . ولذا حدث في صيف سنة ١١٠١ ، بعد أن بلغته فيما يبدو أنباء معركة مرسيفان ، أن أرسل عساكره الى قليقية لاسترداد المصيصة وأذنة وطرسوس ، التي احتلها البيزنطيون منذ ثلاث سنوات . ولم تكن الجيوش المحلية البيزنطية من القوة ما يكفي لمقاومته . فلما وصل وليم كونت اكيتانيا وهيو كونت فرماندوا بعد فرارهما ، الى طرسوس في نهاية سبتمبر ، كان برنارد الغريب نائب تانكرد يسيطر على المدينة [١] .

ثم وجه تانكرد اهتمامه الى اللاذقية ، وهي الميناء البيزنطي الذي تطلع النرمان للاستيلاء عليه منذ زمن طويل . وكان بالغ المناعة لأن حاميته البيزنطية عززها عساكر بروفنسالية من قِبل ريموند ، وقام على حمايتها اسطول من البحرية البيزنطية . على أن تانكرد أجرى المفاوضات التي تكفل له الحصول على مساعدة السفن الجنوية [٢] . وفي تلك الأثناء احتل الاراضي الداخلية ، وحاول ان يستولي على جبلة الواقعة الى الجنوب . والمعروف أن بوهمند أنفذ في صيف سنة ١١٠٠ الى جبلة حملة لم تلق التوفيق ، ووقع أثناءها في الأسر

---

(١) Radulph of Caen, CXLIII, p. 766.
Albert of Aix VII, 40, p. 582.
Orderic Vitalis XXIII, p. 140.

(٢) Caffaro : Liberatio p. 59.
Ughelli : Italia Sacra IV, pp. 847 - 848.

كندسطبله ، ولم تلق النجاح ايضاً ، الحملة التي أرسلها تانكرد في صيف سنة ١١٠١ بل إنها حملت ابن صليحة قاضي جبلة على أن يسلم المدينة الى أتابك دمشق ، ولجأ ابن صليحة نفسه الى دمشق ليقضي بها سنوات الشيخوخة في هدوء ، فأرسل طغتكين ابنه بوري ليتولى حكم جبلة . غير أن بوري لم يكن أميراً محبوباً ، فطرده أهل جبلة بعد شهور قليلة ، والتمسوا حماية بني عمار أمراء طرابلس ، فلم يسع تانكرد إلا أن يسحب عساكره من المنطقة [١] .

نوايا الاسقف مناسيس السيئة – ١١٠٢ :

وتهيأ لتانكرد بعد اعتقال ريمond أن يمضي في خطته إزاء اللاذقية . فقد أمر بحبس ريموند في أنطاكية ، غير أن البطريرك برنارد ، ورفاق ريموند الصليبيين ارتاعوا لسلوكه وتصرفه . وبناء على طلبهم أطلق تانكرد سراحه . غير أنه كان لزاماً على ريموند اول الامر أن يحلف بأنه لن يتدخل مطلقاً في أمور شمال سوريا [٢] . وسار ريموند بعد اطلاق سراحه صوب الجنوب ، فهاجم انطوطوس . ووفقاً ليمينه ، أصدر الاوامر عند اجتيازه اللاذقية ، الى عساكره والى الكونتيسة بالجلاء عن المدينة واللحاق به . فبقيت الحامية البيزنطية باللاذقية دون مساندة من البروفنساليين . ثم حدث في أوائل ربيع سنة ١١٠٢ أن زحف تانكرد على اللاذقية . غير أن أسوار المدينة كانت

---

(١) Ibn al - Qalanisi (Damascus Chronicle) , pp. 51 - 52.

(٢) Albert of Aix VIII 42, pp. 582 - 3.

يشير ألبرت الى ان ريموند أقسم بألا يحاول فتح بلاد في الشام، شمال عكا، ولما لم يلق اعتراضاً على مهاجمته انطرطوس، فالراجح ان يمينه اقتصرت على المنطقة الممتدة من اللاذقية وما يليها شمالاً.

بالغة المتانة ، واستبسلت الحامية في القتال ، بينما كفلت وحدات من البحرية البيزنطية المؤن لهم . وظل الحصار على اللاذقية نحو سنة . غير أنـــه في أثنـاء الاسابيع الاولى من سنة ١١٠٣ ، استطاع تانكرد الذي استأجر وقتذاك سفنـاً من الجنوبيين ليقطع بها مـــا كان بين اللاذقية وقبرص من مواصلات ، بمـا أجراه خارج المدينة من مكيدة ، أن يغري رجال الحامية البيزنطية بالخروج ، ولم يلبث أن انقض عليهم ، وأسرهم . فلم يسع المدينة عندئذ إلا التسلم له[1] .

لم يرض الأمبراطور الكسيوس بهـذه الاعمال . أغضبه ما حدث من نفي يوحنا أوكزيت بطريرك أنطاكية اليوناني ، وما بلغه من الأنباء بأنه جرى طرد كبار رجـــال الدين اليونانيين ، وإحلال اللاتين مكانهم . ففي أوائل سنة ١١٠٢ ، تلقى الأمبراطور الكسيوس رسالة من الملك بلدوين الذي سمع شائعة بأن امتناع البيزنطيين عن التعاون أسهم في تدمير الحملات الصليبية سنة ١١٠١ ، فكتب الى الامبراطور يلتمس منه التأييد التـــام لكل حملة صليبية قادمة . حمل الرسالة الى الأمبراطور اسقف اسمه مناسيس ، قدم الى فلسطين مع ايكارد سنة ١١٠١ ، وكان مناسيس وقتذاك يتأهب للعودة من بيت المقدس . وانطوت الرسالة فيما يبدو على عبارات رقيقـة مهذبة ، وأرفق بهـا بلدوين هدايا للأمبراطور ، ولذا رأى الكسيوس إن يتحدث في صراحة مع الاسقف ، وان يبث له شكاويه . غير أنه في ذلك لم يكن سديد الحكم في رجله : اذ أن الاسقف كان في نزعته لاتينياً أكثر

(١) Radulph of Caen CXLIV, CXLVI pp. 708 - 9.
Anna Comnena, IX, VII 7, vol. III, p. 36.

منه مسيحياً ، ولم يعطف على اليونانيين . وبناء على طلب الامبراطور ، توجه الى ايطاليا وأنهى الى البابا كل ما قاله له الأمبراطور ، غير أنه أدى ذلك في عبارات أثارت غضب البابا على بيزنطة . ولو كان البابا اربان الثاني عائشاً ، لما وقع ضرر من الأضرار . اذ اشتهر اربان بأفكاره الواسعة ، ولم يكن راغباً في الشجار مع العالم المسيحي في الشرق . أما خلفه على كرمي البابوية ، وهو باسكال الثاني فكان أقل شأناً ، وقصير النظر ، وسهل الانقياد . فلم يلبث أن خضع لفكرة الفرنج الشائعة التي تجعل من الامبراطور عدواً . ولم يظفر الكسيوس بشيء من الانصاف [1] .

بلدوين الثاني يقمع بلحيته سنة ١١٠٢ :

وتلى ذلك ان حاول تانكرد التدخل في امور مملكة بيت المقدس . ففي سنة ١١٠١ ، أمر الملك بلدوين بنفي البطريرك دايمبرت ، فبادر تانكرد

---

(١) Albert of Aix VIII, 41, 47 - 8, pp. 582, 584 - 5.
يعتبر ألبرت مناسيس ، اسقف برزينونا Barzenona او Barcinona ، التي ليست الا برشلونة .
(Chalandon : Regne d'Alexis 1e Comnene p. 237, Leib : Rome, Kiev et Byzance pp. 273 - 4 , Norden : Das Papstum und Byzanz p. 70) .
على ان اسقف برشلونة وقتذاك كان برنجار الثاني ، وكان طاعن السن ، ولم يغادر ابروشيته مطلقاً ، برشلونة . والراجح ان الاسقف كان ايطالياً ، غير انه من المستحيل معرفة اسقفيته . ولعل شكواه جرى عرضها في المجمع الديني الذي عقده البابا باسكال الثاني في بنيفنتو سنة ١١٠٢ ، انظر :
(Annales Beneventani ad ann. 1102 in M. G. H. Ss. vol. III, p. 183.
ويذكر المؤرخ ألبرت انه التقى بالبابا في بنيفنتو .

بالترحيب به في أنطاكية ، حيث جعل تحت تصرفه كنيسة القديس جورج . ولما حدث بعد بضعة شهور ان تعرض بلدوين للهزيمة في الرملة على أيدي المسلمين ، استنجد بأمراء الشمال ، فلم يقبل تانكرد النهوض لمساندته ما لم يعد دايمبرت لبطريركية بيت المقدس . ووافق بلدوين ، وبذا ازدادت شهرة تانكرد ، غير ان هـــذه الشهرة لم تلبث ان هوت حينما أدان مجمع ديني دايمبرت وقرر نفيه ، فاستضافه تانكرد مرة اخرى ، غير انه لم يمض في تأييد قضيته [1] .

على ان اعمال تانكرد ونشاطه لم تلق دائماً القبول من جاره بالرها ، بلدوين لى بور . والمعروف أن والد بلدوين ، وهو هيو الاول كونت ريتل ، كان من أبناء أميرة بولونيا ، عمة جودفري كونت اللورين والملك بلدوين . وجاء بلدوين ، وهو من أبناء هيو الصغار ، الى الشرق مع ولدي عمـــه جودفري وبلدوين . فلما أقـــام بلدوين الاول ملكه بالرها ، بقي بلدوين لى بور عند بوهمند في أنطاكية ، فقام بالوساطة بين الأميرين . ولمـا وقع بوهمند في الأسر ، تولى أمر حكومة أنطاكية ، الى ان جرى استدعاء بلدوين كونت الرها الى بيت المقدس . وعندئذ حاز بلدوين لى بور الرها اقطاعاً من ابن عمـه ، على ان يكون له الاستقلال الداخلي وأن يعترف بسيادة بيت المقدس . والواقـــع ان ما ورثه من وضع لم يكن هيناً . لم يكن لبـلاده حـــدود طبيعية ، فتعرضت للغزو المستمر . وليس في استطاعته ان يحكم إلا بشحن المدن والقلاع الرئيسية بالعساكر ، ولتحقيق

---

(١) انظر ما يلي ، الفصل الخامس .

هذا الفرض افتقر الى من يثق فيهم من الأتباع والرفاق . ونظراً لأنه لم يتوافر له الرجال منْ جنسه ، حرص على ان تكون علاقاته طيبة مع المسيحيين الوطنيين . والواقع ان اول اجراء اتخـذه ، فيما يبدو ، بإعتباره كونت الرها ، هو الزواج من اميرةٍ وطنية ، مورفيا ، صغرى بنات جبرئيل صاحب ملطية ، وهو أرمني ، غير انه ينتمي الى الكنيسة الأرثوذكسية . وفي الوقت ذاتـه استطاع بلدوين ان يظفر بمساندة الأرمن الذين ينتمون الى الكنيسة الانفصالية ، بعـد ان خطب ودهم ، وأفاض مؤرخهم متى الرهاوي في امتداح طبيعته اللطيفة ، وطهارة حياته الخاصة . على الرغم من انه أنكر ما اتصف به بلدوين من الطموح والنهم .

وحرص بلدوين على ان يخص الأرمن بالمصانعة ، اذ يصح استخدامهم جنوداً ، على أنه اظهر ايضاً الميل والعطف نحو رعاياه من السريان اليعاقبة ، بل انه نجح في رتق الصدع الذي تعرضت له كنيستهم . وتعتبر شراهته للمال النقيصة الوحيدة عنده . اذ كان دائماً في حاجة ماسة الى المال يلتمسه أينما وجد الى ذلك سبيلاً . غير ان ما اتخـذه من الوسائل لأقل تحكماً وأكثر قبولاً مما اتخذه بلدوين الاول . فكان فرسانه من اشد الناس طرباً وسروراً ، حينما حاول ان يبتز ثلاثين الف بيزنتاً من صهره ، بأن صرح بأنه مدين بهذا المبلغ الى رجاله ، وأنه اقسم لهم انه سوف يحلق لحيته اذا لم يدفع لهم هذا المال . والمعروف ان الارمن ، كاليونانيين ، يعتبرون اللحية من مقومات الرجولة ، وراعهم ما شهدوه من كثرة عدد الصليبيين الذين يحلقون لحـاهم . واعتقد جبرئيل ان صهره الأجرد اللحية يلحق بمكانته الأذى والضرر ؛ وإذ اشترك رجال بلدوين في الملهاة ، بأن أقروا ايضاً ان سيدهم أقسم فعلاً هذه اليمين ، بادر جبرئيل فسلم له ما يلزم من المال ،

حتى لا يقع في مهانة شديدة ، وحمل بلدوين على ان يقسم مرة اخرى بألا يرهن لحيته مطلقاً[١] .

وكان لزاماً على بلدوين الثاني في اوائل حكمه ان يواجه اعتداء من قبل الأراتقة بماردين ، اذ ان الأمير سكمان قاد جيشاً لمهاجمة سروج ، وهي مدينة اسلامية سبق ان استولى عليها بلدوين الاول ، وجعل عليها فولشر شارتر. ونهض بلدوين الثاني لمساعدة فولشر ، على ان ما تلي ذلك من معركة ، حلت فيها الهزيمة ببلدوين ، ولقي شارتر مصرعه . وانتزع المسلمون المدينة . غير ان قلعتها لم تقع في أيديهم ، وبقيت في أيدي بنيدكت رئيس الأساقفة اللاتين في الرها ، بينما اسرع بلدوين الثاني بالمسير الى أنطاكية ليستأجر عساكر تعوض خسائر جيشه . وازداد حظاً وسعادة عند عودته من أنطاكية ، اذ جرى طرد سكمان من سروج بعد أن تكبّد خسائر فادحة . واستحر القتل في كل من انحاز الى الأراتقة من السكان ، وبلغ الأسرى من كثرة العدد ، ان ما تقرر عليهم من فدية زادت في ثروة خزانة بلدوين[٢] .

ولم يلبث بلدوين أن ظفر بنائب كفء له ، يتمثل في ابن عمته جوسلين كورتيناي . وهو ابن عمة بلدوين ، ومن أصغر أبناء سيد كورتيناي وأقلهم

---

(١) William of Tyre X. 24, pp. 437 - 438, XI. 11, pp. 469 - 472.
يروي قصة زواج بلدوين ولحيته .
Matthew of Edessa CCXXV, p. 296.
يشير الى ما يكنه له من الاحترام ، غير انه لا يشعر بالمحبة نحوه .

(٢) Matthew of Edessa CLXVIII, pp. 232 - 3.
Ibn al - Qalanisi, p. 50 - 1.
Al Azimi p. 494.

حظاً من المال ، والراجح أنه قدم الى الشرق في رفقة أقرب جار له ، كونت نيفرز . وعند وصوله ، بادر بلدوين بأن جعل له إقطاعاً ، كل بلاد الكونتية الواقعة غربي نهر الفرات ، على أن تكون تل باشر حاضرة له . ودلّ جوسلين على أنه صديق شجاع ، غير أن ولاءه تعرض فيما بعد للشكوك والتساؤل [١] .

اطلاق سراح بوهمند سنة ١١٠٣ :

وكلما مضى الزمن ، ازداد ازتياب بلدوين ، فيما يبدو ، في اطماع تانكرد وودّ أن يعود بوهمند الى أنطاكية . فشرع بلدوين والبطريرك برنارد في اجراء مفاوضات مع الأمير الدانشمند لإطلاق سراح بوهمند . ولم يشترك تانكرد في هذه العملية . وعرض الامبراطور الكسيوس فعلاً مبلغاً ضخماً من المال ، قدره ٢٦٠ ألف بيزنتاً ، على الأمير الدانشمند مقابل الاستحواذ على بوهمند ، ولو لم يبلغ نبأ هـذا العرض مسامع السلطان السلجوقي ، قلج ارسلان ، لقبله الدانشمند . ذلك أن قلج ارسلان ، باعتباره سيداً على جميع الاتراك بآسيا الصغرى ، طلب أن يكون له نصف كل مـا يتلقاه الدانشمند من فدية . وما نجم عن ذلك من شجار بين الاميرين التركيين ، أدى الى الامتناع عن قبول عرض الامبراطور ، وأفاد في تحقيق الغرض الذي يرمي الى فض التحالف بين الاميرين التركيين . ووقف بوهمند ، أثناء الأسر ، على هذه المفاوضات . اذ لا زال بوهمند رجلاً وسيماً بالغ الجاذبية ، فأضحى موطن اهتمام سيدات قصر الأمير الدانشمند . ولعله استطاع بمساعدة هؤلاء النسوة ، أن يقنع آمره بـأن الاتصال الشخصي مع الفرنج بالشام وبذل الوعد بالتحالف معهم لخير له من مفاوضة الامبراطور البيزنطي ، التي عزم

(١) William of Tyre, X. 24, pp. 437.

السلاجقة على أن يتدخلوا فيها . ووافق أمير الدانشمند على اطلاق سراح بوهمند مقابل الحصول على مائة ألف بيزنت [1] .

وحدث أثناء المفاوضات أن هاجم ملطية جيش الدانشمند ، ولا بـد لجبرئيل صاحب ملطية أن يستنجد بصهره بلدوين لرد الاعتداء ، غير أن بلدوين لم ينهض لمساعدته ، والراجح أن بلدوين لم يشأ في هـذه اللحظة الحرجة أن يسيء الى الامير . والواقع أن جبرئيل تعرض لكراهية رعاياه ، لتعلقه بالأرثوذكسية . فالسريان بصفة خاصة لم يغفروا له مطلقاً ما سبق أن قام به من إعدام أحـد أساقفتهم ، بتهمة الخيانة . ووقع جبرئيل في الأسر ، وسقطت عاصمته في يد الدانشمند ، وصمدت احدى القلاع في الدفاع عن نفسها ، وتلقى جبرئيل من آسريه طلباً بأن يصدر أوامره الى القلعة بالاذعان والاستسلام . ولما عصت الحامية الأوامر ، تم تنفيذ حكم الاعدام في جبرئيل أمام أسوار القلعة [2] .

---

(١) Albert of Aix, IX. 33 - 36, pp. 610 - 12.
Orderic Vitalis X. 23, vol. IV, p. 144.
يروي قصة غرام بوهمند مع ابنه الدانشمند .
Miracula S. Leonardi (Aa. Ss. Nov. vol. III, pp. 160 - 8. 179 - 82).
يجعل بوهمند صديقاً لزوجة الامير المسيحية .
أما (Matthew of Edessa , CL XXVIII, p. 252) فيشير الى ان الكسيوس كومنين افتدى رتشرد الارماني le Principate ، على ان رتشرد كان في سوريا قبـل اطلاق سراح بوهمند . (Miracula S. Leonardi , p. 157)
ويروي المؤرخ Radulph of Caen أن بلدوين لم يتصرف على هـذا النحو الا لكراهيته لتانكرد (CXLVII, p. 709) .
وأورد Ibn al Qalanisi , p. 59 قصة النزاع بين السلطان السلجوقي والامير الدانشمند .

(٢) Michel the Syrian III, pp. 185 - 189.

وحدث في ملطية ، في ربيع سنة ١١٠٣ ، أي بعد بضعة شهور ، أن تم تسليم بوهمند الى الفرنج . وأسهم في تحصيل المال اللازم لافتدائه كل من بلدوين ، والبطريرك برنارد ، وكواسيل أحد صغار امراء الارمن ، فضلاً عن أقارب بوهمند في ايطاليا . ولم يشترك تانكرد في افتدائه . وبادر بوهمند بالمسير الى انطاكية حيث تولى من جديد مقاليد الحكم بها . وأثنى بوهمند علناً على تانكرد لما قام به من إدارة الامارة أثناء تغيبه ، غير أن ما كان خافياً ، ان شيئاً من الاحتكاك كان قائماً بين بوهمند وابن اخته ، إذ أن تانكرد لم يرَ ما يدعوه لأن يُسلّم لخاله ما فتحه من البلاد أثناء وصايته على أنطاكية . غير أن الرأي العام ألزمه بالتخلي عنها ، وكافأه بوهمند على ذلك بأن بذل له اقطاعاً صغيراً في إمارة أنطاكية . وكان من حقه قانوناً أن يطلب من بلدوين ردّ الجليل اليه ، غير أنه لم يعر ذلك اهتماماً [١] .

واحتفل الفرنج بعودة بوهمند ، بأن قاموا بهجوم شامل على جيرانهم . ففي صيف سنة ١١٠٣ ، أغار بوهمند وجوسلين كورتيناي على بلاد حلب . فاستوليا على مدينة المسلمية ، التي تقع شمال حلب ذاتها ، وانتزعا إتاوة كبيرة من المسلمين بهذه المنطقة ، جرى استخدامها في تسديد ما اقترضه بلدوين والبطريرك برنارد من أموال من الفرنج لافتداء بوهمند [٢] . ثم تلى

---

(١) انظر ما سبق ص ٥٨ : Fulcher, p. 460.

ويروي فولشر ان تانكرد نال ما هو جدير به من المكافأة والجزاء . غير ان رادولف يشير الى أن كل ما ظفر به لا يتجاوز مدينتين صغيرتين .

انظر : (Radulph of Caen, loc. cit)

(٢) Kemal'ad - Din p. 591.

Ibn al - Athir p. 212.

يضيف ابن الاثير أن بوهمند ابتز الاموال من قنسرين .

ذلك أن انصرف بوهمند وجوسلين لقتال البيزنطيين . اذ ان الكسيوس بعد ان كتب الى بوهمند يطلب اليه إعادة المدن القليقية ، أنفذ قائده بوتوميتس لاستردادها . غير ان جيش بوتوميتس لم يكن ليعول عليه . ففي خريف سنة ١١٠٣ ، دخل بوتوميتس الى قليقية ، غير انه لم يلبث ان قرر أنه ليس بوسعه استرداد هذه المدن ، وعلم ان الفرنج أعدوا خطتهم للتوسع ، شمالاً ، بمهاجمة مرعش ، التي تولى حكمها باسم الامبراطور ، ثاتول الارمني . فعجل بوتوميتس بالمسير اليها ، والراجح أنه بفضل هذا الاجراء أنقذ ثاتول في الوقت الراهن . غير ان الامبراطور استدعاه الى القسطنطينية . وفي مستهل الخريف التالي زحف بوهمند وجوسلين على مرعش ، وكان ثاتول عاجزاً ، لا حول له ولا قوة . فالجيش البيزنطي على مسافة بعيدة منه ، بينما قامت وقتذاك علاقــات ودية بين الفرنج والترك الدانشمند . فسلّم ثاتول المدينة الى جوسلين ، الذي أذن له بالالتجاء الى القسطنطينية ، بينما اخذ بوهمند مدينة البستان الواقعة الى الشمال من مرعش [١] .

اهمية حران ١١٠٤ :

أحسّ الفرنج وقتذاك بأنهم بنجوة من الاعتداءات من قِبــل آسيا الصغرى ، فصار بوسعهم الالتفات الى قتال المسلمين بالشرق . ففي مارس ١١٠٤

---

(١) Anna Comnena, XI. IX. 1 - 4, vol. III, pp. 40 - 41.
Matthew of Edessa CLXXXVI, p. 257.
Radulph of Caen, p. 148.

أخطأ رادولف حينما أشار الى ان الاستيلاء على مرعش حدث بعد معركة حران .

أغار بوهمند مرة أخرى على بلاد حلب التابعة لرضوان ، فاستولى على بصرفوت ، على الطريق الممتد من انطاكية الى حلب . غير أنه فشل فيما قام به من محاولة للاستيلاء على كفرلاثا ، جنوبي حلب ، لما أبدته قبيلة بني عليم من مقاومة عنيفة . وفي تلك الأثناء قطع جوسلين طرق الاتصال بين حلب ونهر الفرات [1] . على أن الاتصال بين المسلمين في الشام ، والمسلمين في العراق وفارس ، لم يكن لينقطع فعلاً ، إلا اذا احتل المسيحيون حصن حران المنيع ، الواقع بشمال الجزيرة ، بين الرها ونهر الفرات ، فإذا ظفر الفرنج بحران ، فإنهم يفكرون في توجيه حملة لمهاجمة الموصل والجزيرة . وتراءى في ربيع سنة ١١٠٤ أن الأحوال تهيأت لذلك . ففي سنة ١١٠٣ ، مزق كل العالم الاسلامي بالشرق ، ما نشب من حرب داخلية بين السلطان السلجوقي بركياروق وبين أخيه محمد . على ان الصلح انعقد بينهما في يناير ١١٠٤ ، وبمقتضاه احتفظ السلطان لنفسه ببغداد وهضبة ايران الغربية . أما أخوه الثالث سنجر ، فإنه حاز فعلاً خراسان وشرق ايران ، بينما حصل محمد على شمال العراق والجزيرة ، وصارت له حقوق السيادة على ديار بكر وكل بلاد الشام . ولم يكن هذا الاتفاق هيناً ، اذ لم يلبث كل واحد من الاخوة ان تطلع الى نقضه ، وأن حرص في الوقت ذاته على التماس الحلفاء من بين امراء العرب والترك . فما حدث في الجزيرة نفسها سنة ١١٠٢ من وفاة أتابك الموصل ، كربوقا الذي هزمه الفرنج في انطاكية ، أدت الى إثارة الحرب الاهلية . لم يستطع سكمان بن أرتق امير ماردين ان يكفل لمرشحه ولاية الأتابكية ، واشتبك في قتال مع جكرمش الأتابك الجديد

---

(١) Kemol ad - Din, pp. 591 - 592.
Zettersteen Chronicle, p. 239.

الذي عينه السلطان محمد السلجوقي . وخضعت حرّان لقائد تركي اسمه قراجه كان من المماليك الذين خدموا ملك شاه . غير ان ما اشتهر به من شراسة الخلق أثار عليه السكان ، وحملهم على ان يسلموا الحكومة الى محمد صاحب اصفهان . غير ان محمداً لقي مصرعة بيد غلام سابق لقراجه ، اسمه جاولي ، بعد ان توثقت علاقته به واندفع في صداقته له . غير ان سلطة جاولي لم تكن بالغة الاستقرار ، على حين ان حران ذاتها ازداد تعرضها لغارات الفرنج بالرها ، الذين نهبوا أراضيها وعطّلوا تجارتها . والواضح ان الفرنج قصدوا المبادرة الى المضي الى ما هو ابعد من ذلك [١] .

كارثة حران سنة ١١٠٤ :

انزعج كل من سكمان في ماردين ، وجكرمش في الموصل . على ان ما تعرضا له من خطر مشترك حملها على أن ينسيا ما كان بينهما من نزاع وأن يتحدا سوياً لتوجيه حملة لمنازلة الرها ، قبل ان يتعرضا للهجوم . ففي أوائل سنة ١١٠٤ ، زحفا سوياً على الرها ، وكان سكمان على رأس جيش كثيف من فرسان التركمان ، بينما قاد جكرمش جيشاً لا يقل كثيراً في العدد عن جيش سكمان ، وتألف من الترك السلاجقة ، والاكراد والعرب .

---

(١) عن حملة حران انظر :

Cahen : La Syrie du Nord, pp. 236 - 237.

Nicholson : Tancred, pp. 138 - 142.

يؤكد نيكولسون أن الحملة لم تكن جانباً من سياسة عامة للتوسع ، بل انهـا كانت رداً على تهديد المسلمين . غير انه من المحقق ان حران كانت الهدف الاخير للفرنج .

وسمع بلدوين الثاني بأنهم يحتشدون في رأس العين على مسافة سبعين ميلا من عاصمته (الرها) . فأرسل الى جوسلين وبوهمند يستنجد بهما ، واقترح عليهما ان يحولا الهجوم ، بأن يقوما بمحاولة لمنازلة حران . وبعد ان أبقى بلدوين الثاني حامية صغيرة في الرها ، اتخذ طريقه الى حران على رأس جماعة صغيرة من الفرسان ، وجموع من الرجالة الارمن . وصحبه بنيدكت رئيس اساقفة الرها . وانحاز اليه بالقرب من حران ، جوسلين بمن حشده من بلاده من العساكر ، وجيش انطاكية بقيادة بوهمند ، فضلا عن تانكرد ، والبطريرك برنارد ، ودايمبرت البطريرك السابق لبيت المقدس . وبلغ عدد كل جيش الفرنج نحو ثلاثة آلاف فارس ، ونحو ثلاثة أمثال هـذا العدد من الرجالة . والواقع ان هذا الجيش يمثل القوة الضاربة الكاملة عند الفرنج بشمال الشام ، عدا حاميات الحصون .

احتشد الجيش امام حران ، بينما لا زال الامراء المسلمون على مسافة ، الى الشمال الشرقي منهم ، يزحفون على الرها . ولو أن الفرنج حاولوا الاستيلاء على الحصن عنوة ، لأضحت حران بأيديهم ، غير أنهم لم يرضوا ان ينزلوا الضرر بالاستحكامات ، التي كانوا يأملون الافادة منها فيما بعد . وظنوا ان الحامية سوف يدفعها الخوف الى الإذعان ، وكان لهذا الامل ما يبرره . وإذ كان المسلمون بداخل المدينة ضعافاً ، لم يسعهم إلا ان يبادروا بالدخول في مفاوضات . غير انه لم يلبث الشجار ان وقع بين بلدوين وبوهمند على مسألة ، أي لوائي الأميرين ، ينبغي ان يرتفع اولاً على اسوار المدينة . وما حدث من التمهل والارجاء أدى الى سقوطها ، ذلك ان الجيش التركي اندفع نحو الجنوب ، فانقض عليها قبل ان تتم تسوية النزاع بينهما .

ودات المعركة على شاطىء نهر البليخ ، بالقرب من ساحة معركة

Carrhae القديمة ، حيث استأصل البارثيون فيها ، منذ قرون ، شأفة الجيوش الرومانية بقيادة كراسّوس. وقضت خطة الفرنج الحربية بأن يتخذ جيش الرها ، موقفه الى اليسار ليشتبك مع الجيش الاسامي للعدو ، بينما يختفي جيش انطاكية وراء تل منخفض على مسافة ميل الى اليمين ، ويتأهب للتدخل في اللحظة الحاسمة . على ان المسلمين اتخذوا خططاً مماثلة ، اذ هاجم جانب من جيشهم ميسرة جيش الفرنج ، ثم استدار ولجأ الى الفرار . وظن جيش الرها انــه تيسر له في سهولة ويسر الفوز بالنصر ، فأسرع لمطاردة الجيش الاسلامي ، فانقطع الاتصال مع رفاقهم في الميمنة . اجتازوا النهر ، فوقعوا على الفور في كمين نصبه لهم الجيش الاسامي للمسلمين . فأجهز المسلمون على عدد كبير منهم ، ومن تبقى منهم عادوا وولوا الادبار . وحينما تأهب بوهمند ، الذي ردّ فصيلة صغيرة تواجهـــه ، للاشتباك في المعركة ، لقي سيلاً من الفارّين ، يتدفق من بُعـــد ، يشقون لهم طريقاً للعودة ، عبر النهر ، فانقضت عليهم جماعات جديدة من الترك . واذ أدرك بوهمند ان ضاع كل أمل ، بادر بالابتعاد ولم ينقذ إلا عدداً قليلاً من جيش الرها . وبينما كان المقاتلون يسيرون تحت اسوار قلعة حران ، انقض عليهم رجال الحامية ، وفي وسط هــذا الاضطراب دفعهم الحماس الى ان يقتلوا كثيراً من المسلمين الذين يطاردون الفرنج ، وعدداً كبيراً من الترك . وهرب جيش انطاكية دون ان تلحق بــه خسائر فادحة ، أما جيش الرها فلم يفلت من الأسر او القتل إلا عـــدد ضئيل . وبلغ الخوف والجزع من البطريرك برنارد أنه في أثناء فراره قطع ذيل حصانه حتى لا يمسك به الترك ، على الرغم من أنه لم يشهد وقتذاك أحداً من عساكر العدو .

كان بنيدكت رئيس أساقفة الرها من أوائل الذين وقعوا في الأسر . غير أنه لم يلبث ان تم اطلاق سراحه إما لتغاضي حارس السجن ، وهو

مسيحي اعتنق الاسلام ، وإما لما قام به جيش انطاكية من هجوم عكسي . وهرب بلدوين وجوسلين على ظهر حصان واحد ، غير أنهما هويا الى قاع النهر ، فجرى حملهما أسيرين الى خيمة سكمان [١] .

واذ صدقت المخاوف بأن يقوم الترك مرة اخرى بمهاجمة الرها ، عجّل بالمسير اليها بوهمند وتانكرد ، لتنظيم اسباب الدفاع عنها . وللمرة الثانية ، ما حل بزميل آخر من سوء الحظ ، أفاد منه تانكرد . اذ ان من تبقى من الفرسان في الرها ، وعلى رأسهم كبير الأساقفة ، التمسوا منه ان يتولى الوصاية حتى يجري إطلاق سراح بلدوين من الأسر . فقبل تانكرد عن طيب خاطر هذا العرض . وارتاح بوهمند ، مثلما ارتاح بلدوين الاول قبل اربع سنوات ، لمسير تانكرد وبُعده . فأقام تانكرد في الرها مع بقية جيش الرها ، ومن يستغني عنه بوهمند له من العساكر ، بينما تحرك بوهمند راجعاً الى انطاكية ، حيث أخذ جيرانه يستعدون للافادة من كارثة الفرنج [٢] .

---

(١) Albert of Aix IX. 38 - 42. pp. 614 - 616.
Radulph of Caen CXLVIII, pp. 710 - 711.
Fulcher of Chartres, II. XXVII. 1 - 13. pp. 468 - 477.
Ibn al - Qalanisi, pp. 60 - 61.
Ibn al - Athir, pp. 221 - 3.
Sibt Ibn al - Djauzi p. 537.
Matthew of Edessa CLXXXII. pp. 254 - 5.
Michel le Syrien III. p. 195.
Chron - Anon, Syr. pp. 78 - 80.
وما ورد من روايات عن المعركة سادها الخلط والاضطراب .

(٢) Radulph of Caen : CXLVIII, p. 713.
Albert of Aix, loc. cit.
Matthew of Edessa, CLXXXII. p. 256.

وتعتبر معركة حران مكملة للحملات الصليبية في ١١٠١ . اذ انهما جميعاً حطمت اسطورة ان الفرنج لا يقهرون . فما حدث من إنزال الهزائم بالحملات الصليبية سنة ١١٠١ ليس له من معنى سوى ان شمال الشام أضحى محروماً من كل ما احتاج له من امداد من الغرب ما لم ترسخ سيطرة الفرنج ، أما معركة حران فإنها دلت آخر الأمر على أنه تقرر مصير اقليم الرها ، وأنه لن تقع حلب في أيدي الفرنج . فالاسفين الذي حرص الفرنج على الابقاء عليه بين القوى الاسلامية الثلاثة ، في آسيا الصغرى ، والعراق ، والشام ، لم يكن دقه محكماً . ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين أفادوا من ذلك ، إذ ان الامبراطور في بيزنطة كان يتطلع في غضب لما يجري ، ولم يأسف لما سمعه من هزيمة الفرنج

بوهمند وتانكرد يتركان بلدوين في الاسر ١١٠٤ :

لم تبلغ النتائج المباشرة للهزيمة من شدة الفاجعة ما يصح الخوف منها . فما انعقد من تحالف بين سكمان وجكرمش لم يعش طويلاً بعد إحراز النصر . اذ ظفر التركمان الذين ينتمون الى سكمان بمعظم الأسرى والغنائم ، فاشتعلت نار الحقد في نفس جكرمش . فهاجمت قوات جكرمش السلجوقية خيمة سكمان ، وانتزعت منها بلدوين . واشتدت ثائرة التركمان ، غير ان سكمان أظهر من ضبط النفس ما حملهم على الامتناع عن الرد على هذا الهجوم . ووطن نفسه على الاذعان لضياع الأسير غالي القيمة (بلدوين) . غير أنه لم يلبث ان انسحب الى ماردين ، بعد ان أخضع بعض القلاع الصغيرة على الاطراف المسيحية ، بما لجأ اليه من حيلة بسيطة بأن جعل جنده يرتدون ملابس ضحاياهم الفرنج ، ولم يشترك بعدئذ في الحرب[1] .

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, loc. cit.

أورد ابن الاثير مما روي عن سكان انه قال : « اني لأوثر ان أفقد غنيمتي ، ولا أدع المسيحيين يشمتون فينا » .

أما جكرمش فإنه مضى في القتال . وأول ما أجراه ليكفل الأمان من جهة سكمان ، انه اقتحم قلاع الفرنج في شبختان ، الواقعة شرقي الرها ، ثم واصل السير الى العاصمة . وإذ أدى تمهل الفرنج من قبل الى الابقاء على حران في أيدي المسلمين ، فإن الرها أنقذها للمسيحيين ما حدث من تمهل المسلمين . اذ توافر لتانكرد من الوقت ما يكفي لاصلاح وسائل الدفاع ، فاستطاع ان يرد اول هجوم قام به جكرمش ، ويرجع ذلك الى حد كبير الى ما اظهره الارمن الحليون من الولاء والبسالة . غير ان ما أحسّ به تانكرد من ضغط شديد حمله على ان يبادر بالاستنجاد ببوهمند . ومع ان بوهمند كان يواجه مشاكل عديدة ، كان لا بد ان يجعل الأسبقية لدرء الخطر عن الرها . فنهض بوهمند لمساندة ابن اخته . غير أنه عطّله ما كانت عليه الطرق من أحوال سيئة . واستبد اليأس بتانكرد فأمر رجال الحامية بأن يتخذوا أماكنهم للهجوم قبل بزوغ الفجر . وتحت جنح الظلام ، انقض رجاله على الأتراك الذين استغرقوا مطمئنين في النوم ، واكتمل انتصارهم بوصول بوهمند . فهرب جكرمش مذعوراً ، وخلف من ورائه معسكره الذاخر بالثروة . فانتقم الفرنج بذلك لهزيمة حران ، واحتفظوا بالرها [1] .

ومن الأسرى الذين وقعوا في يدي تانكرد ، أميرة سلجوقية من عقائل بيت الأمير . وبلغ من تقدير جكرمش لهذه السيدة ، أنه بادر

---

(١) Albert of Aix IX. 43, op. 617 - 618.
Ibn al - Athir, p. 223.
Ibn al - Qalanisi, p. 69 - 70.

بأن يعرض لافتدائهـــا ١٥ الف بيزنت ، او مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه . وبلغ بيت المقدس انبـــاء هذا العرض . فأسرع الملك بلدوين بالكتابة الى بوهمند بألا يجعل هذه الفرصة تفلت ، حتى يتم إطلاق سراح الكونت بلدوين . غير ان بوهمند وتانكرد احتاجا الى المـال ؛ على حين أن عودة بلدوين سوف تخرج تانكرد من وظيفته الحالية ليعود الى خاله . ولذا ردا على رسالة الملك بلدوين ، انـه ليس من الدبلوماسية في شيء أن يظهرا لهفتهما الشديدة على قبول العرض . على حين أنهما اذا ترددا في القبول ربما لجأ جكرمش الى زيادة الفدية . غير أنه في تلك الاثناء اتفقا مع الأمير جكرمش على قبول تأدية مال الفدية ، وبذا بقي بلدوين في الأسر [١] .

واذا أثرى بوهمند وتانكرد بتضحية رفيقهما ، تحولا للقـــاء أعدائهما الذين ضيقوا الخناق عليهما . ولم يحاول جكرمش أن يهاجم الرهـا مرة اخرى ، واستطاع تانكرد أن يصلح أمر الدفاع عن المدينة . على أنه كان لزاماً على بوهمند ان يواجه ما قام بـه وقتذاك رضوان امير حلب من غارة على الجهات الشرقية من إمارته . ففي يونيه تنـــازل الأرمن في ارتاح عـــن مدينتهم للمسلمين ، واغتبطوا للإفلات من طغيان انطاكية . وسار على هـــذا النحو مدن : المعرة ، ومصرين ، وسرمين الواقعة على الحدود . فلمـــا أحست حاميات الفرنج قليلة العدد ، المرابطة في معرة النعمان والبارة وكفرطاب بأنها أضحت معزولة ، لم يسعها إلا الانسحاب الى انطاكية . وفي تلك الاثناء أمعن رضوان في الإغارة على إمـــارة انطاكية ونهبهـا حتى بلغ جسر الحديد . ولم يبق على حامية بوهمند في

---

(١) Albert of Aix, IX. 46, pp. 619 - 620.

البستان الواقعة في اقصى الشمال إلا ما سبق من اعتقال زعماء الأرمن المحليين الذين كانوا يتآمرون مع الترك . وكادت امـارة بوهمند بأكملها تتعرض للخطر ، لو لم يحدث حوالي نهاية يونية ١١٠٤ من وفـاة دقاق امير دمشق ، فجذب اهتمام رضوان مـا وقع من النزاع على حكم دمشق بين بوري بن دقاق وعمه ارتاش[١] .

بوهمند يرحل الى الغرب سنة ١١٠٤ :

الواقع أن فشل بوهمند في رد هجوم رضوان يرجع الى انصرافه الى التفكير في أمور بيزنطة ، اذ ان الامبراطور البيزنطي الكسيوس كان وقتذاك على وفاق مع امارات الفرنج الواقعة في أقصى الجنوب . فلا زال ريموند كونت تولوز من أصدقائه المقربين ، وظفر ايضاً بثقة الملك بلدوين بما دفعه من أموال لافتداء كثير من أعيان الفرنج المأسورين في مصر . وما اشتهر به الكسيوس من السخاء انما جرى حسب تقدير سليم . اذ كان على نقيض سلوك بوهمند وتانكرد حول أمر بلدوين كونت الرها ، وكان ذلك كافيـاً لأن يذكر الفرنج أن له من النفوذ والمكانة مـا كان موضع احترام الفاطميين . ولذا حينما هاجم امارة انطاكية ، لم يتلق أميرها مساعدة من رفاقه . والمعروف ان الكسيوس قام فعلاً بتحصين كوريكوس وسيلوقية الواقعتين على ساحل قليقيـة ، لمنع اعتداء انطاكية على غرب قليقية وفي صيف سنة ١١٠٤ لم يجد الجيش البيزنطي بقيادة موناستراس ،

---

(١) Radulph of Caen, loc. cit.
Kemal ad - Din, pp. 592 - 3.
Sibt Ibn al - Djauzi, p. 529.
Ibn al - Qalanisi pp. 62 - 65.
ورد في رنسيان « التاش » وما هنا من ابن القلانسي ، ص ١٥٦ ، وهو عم بوري .

صعوبة في ان يحتل من جديد المدن الواقعة في شرقي قليقية : طرسوس وأدنة والمصيصة ؛ على حين ان إسطولاً بقيادة القائد البيزنطي كانتاكوزينوس ، الذي سبق أن قـــدم الى مياه جزيرة قبرص لمطاردة اسطول جنوي مغير ، أفـــاد من مركز بوهمند ، فأقلع الى اللاذقية ، حيث استولى رجاله على الميناء والجانب الأسفل من المدينة . فأسرع بوهمند بكل مـا استطاع ان يحشده من عساكر الفرنج لتعزيز الحامية في القلعة ، ولاستبدال قائدها ، الذي لم يكن موضع ثقتـه . غير ان افتقاره الى القوة البحرية منعه من محاولة طرد البيزنطيين من موضعهم[1] .

وعند حلول الخريف أحسّ بوهمند باليأس والضيق . وفي سبتمبر عقد مجلساً مؤلفاً من أتبـاعه في انطاكية ، ودعا الى حضوره تانكرد . وفي هـــذا المجلس تحدث اليهم في صراحة عن الأخطار التي تحيق بالامارة ، وقال ان الحل الوحيد هو ان يحصل على أمداد من اوربا ؛ ولذا سوف يذهب الى فرنسا ، ويستخدم ما له من مكانة في تجنيد مَن يحتاجه من الرجال . وأعرب تانكرد عن استعداده للقيام بهذا الامر ، غير ان خاله (بوهمند) ردّ عليه بأنه ليس له سلطة كافيـة في الغرب ، فلا بد ان يبقى وصياً على انطاكية بعد رحيله ؛ ولم تلبث التدابير ان أعدت لرحيل بوهمند . وفي أواخر الصيف أقلع بوهمند من ميناء السويدية ، وحمل معه كل مـا تحصل عليه من الذهب والفضة والتحف والمنسوجات القيمـة ، فضلاً عن نسخ من كتاب « أعمال الفرنج » ، وهو تاريخ لكاتب مجهول عن الحملة الصليبية الاولى ، من وجهة نظر النرمان . وأدخل بوهمند

(١) Anna Comnena XI. X. 9. XI. 7. vol. III. pp. 45 - 9.

هـــذه النسخ فقرة توحي بأن الامبراطور سبق أن وعـده بإمارة انطاكية [١] .

تولى تانكرد عندئذ مقاليد حكومة أنطاكية ، وأقسم في الوقت نفسه بأن سوف يرد الرها الى بلدوين عقب إطلاق سراحه من الأسر . وفي تلك الأثناء ، ونظراً لأنـــه ليس في وسع تانكرد بأنطاكية ان يُحسن إدارة الرها ، جعل ابن عمه وصهره ، رتشرد كونت سالرنو نائباً عنه على البلاد الواقعة عبر الفرات (الرها) [٢]

(١) Anna Comnena XI. XII. 1 - 3. vol. III. pp. 50 - 1.
تشير الى ما جرى ادعاؤه من وفاة بوهمند ، حتى لا يلحظ احد رحيله .
Albert of Aix IX. 47. p. 620.
Fulcher of Chatres II. XXIX. 1. pp. 482 - 3.
Radulph of Caen CLII, CI III. pp. 712 - 14.
Ibn al - Qalanisi op. cit. p. 66.
Matthew of Edessa CLXXXII, pp. 255 - 6.
وعن اقحام بوهمند لفقرة من كتاب « اعمال الفرنجة » ، انظر :
Krey « A Neglected Passage in the Gesta » in the Crusades and other Historical Essays presented to Dr. Munro.
وأشار الى وصول بوهمند الى ايطاليا .
Annales Barenses p. 155.

(٢) Matthew of Edessa CLXXXIX. P. 260.
Michel le Syrien III, p. 195.
Ibn al - Athir pp. 262 - 3.
صار تانكرد منذئذ يطلق على نفسه فيما يصدره من وثائق تانكرد ، دوق وامير انطاكية .
Tancredus dux et princeps Antiochenus.
(Rohricht : Regesta p. 11).
وفي زمن وصايته السابقة اكتفى تانكرد بأن اتخذ لقب Princeps ، دون الاشارة الى صفة اقليمية. Ibid p.5. ولا زال يتخذ ايضاً لقب امير الجليل .

وبلغ بوهمند بلاده أبوليـــا في أوائل السنة الجديـدة ، وظل حتى سبتمبر التالي يقوم بتصريف أموره الخاصة التي احتاجت الى إشرافه ، بعد غيبة استمرت تسع سنوات ، وبإعداد جماعات من النرمان للحاق برفاقهم في الشرق . ثم توجه بوهمند الى روما ، حيث التقى بالبابا باسكال . وأكد له بوهمند أن الامبراطور الكسيوس هو العدو اللدود للاتين في الشرق . وإذ سبق للبابا باسكال أن أخذ برأي الاسقف مناسيس عن الكسيوس ، لم يلبث أن صدّق كل آراء بوهمند . فلما ارتحل بوهمند الى فرنسا ، صحبه المندوب البابوي ، برونو ، الذي عهـــد اليه البابا بأن يثير الحرب المقدسة على بيزنطة . ويعتبر ذلك نقطة تحوّل في تاريخ الحروب الصليبية . فما كان للنرمان من سياسة ترمي الى تحطيم قوة الامبراطورية الشرقيـة ، أضحت السياسة الرسمية للحروب الصليبية . فلا بـد من تضحية مصالح العالم المسيحي بأسره لصالح المغامرين من الفرنج . واذا كان لزاماً على البابا فيما بعد أن يندم على اندفاعه وحماقته ، فإن الضرر وقع فعلاً . وما يكنه فرسان الغرب وأهله ، من النفور لتعالي الامبراطور وكبريائه ، فضلاً عن حسدهم له على ثروته ، وارتيابهم فيما درج عليه المسيحيون في الشرق من ممارسة طقوس وشعائر لم يفهموها ، كل ذلك أقرته رسمياً الكنيسة الغربية . ومنذ ذلك الحين ، مهما عدّل البابا من آرائه ، فإن فرسان الغرب وأهله ، أحسوا باقتناعهم بكل ما يقومون به من عمـــل عدائي نحو بيزنطة . وأدرك البيزنطيون من جانبهم أنه تحققت أسوأ ما لديهم من مخافات . فالحرب الصليبية ، بزعامة البابا ، ليست حركة تهدف لمساعدة العـــالم المسيحي ، بل كانت أداة لتحقيق الاستعمار الغربي الاخرق . وهذا الاتفاق السيء الذي انعقد بين بوهمند والبابا باسكال فاق كل ما وقــع من نزاع بين الكاردينال همبرت والبطريرك ميخائيل كريولاريوس لتحقيق الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية .

لقي بوهمند استقبالاً حافلاً في فرنسا ، إذ مكث فترة من الزمن في قصر الملك فيليب ، الذي أذن له بأن يجند الرجال من مملكته ، وحظي ايضاً بمساندة فعلية من كونتيسة بلوا ، أديلا ، التي حرصت على أن تنيب عنها من يشترك في الحرب الصليبية . فلم تكتف أديلا بأن قدمت بوهمند الى أخيها هنري الاول ملك انجلترا ، فاستقبله في نورمانديا في عيد القيامة سنة ١١٠٦ ، ووعد بتشجيع عمله ، بل إنها دبرت له قيام تحالف مثير ، مبني على أن يتزوج بوهمند من ابنـة الملك فيليب ، وهي كونستانس ، كونتيسة شامبانيا بعـد طلاقها ، وتم الزفاف في أواخر الربيع من سنة ١١٠٦ ووافق الملك فيليب في نفس الوقت على أن يتزوج تانكرد من ابنته الصغرى ، سيسيليا ، التي رزقهـا سفاحاً من برترادا مونتفورت . على ان كونستانس لم تذهب مطلقاً الى الشرق ، إذ أنها أمضت بإيطاليا حياتهـا الزوجية وفترة طلاقها . أما سيسيليا فأبحرت الى انطاكية في أواخر تلك السنة . هذه الصلات الملكية زادت من مجد وكرامة الأمراء النرمان [١] .

---

(١) Orderic Vitalis , XI. vol. IV. pp. 210 - 13.
Suger , Vita Ludovici pp. 29 - 30.
Chronicon S. Maxentii, p. 423.
Chronicon Vindocinense, pp. 161 - 2.
William of Tyre, XI. 1. p. 450.
Anna Comnena, XII. 1. I. vol. III. p. 53.
أشار Luchaire : Louis VI le Gros, p. 22. الى ان زواج بوهمند من كونستانس حدث في ابريل او مايو سنة ١١٠٦ . والراجح ان سيسيليا أبحرت الى الشرق بعد هذا التاريخ. ولذا فالراجح ان زواجها وقع في زمن متأخر من سنة ١١٠٦ .

ويعتقد Matthew of Edessa (loc. cit.) أن بوهمنـد كان مضطراً لأن يتزوج من سيدة موسرة ، وأشار الى انهـا زوجة ستيفن بول (والواضح انه خلط بين هيو كونت شامبانيا بالمحارب الصليبي هيو سانت بول Hugh of Saint Pol صديق بوهمند) ؛ وانها أمرت بسجنه حتى رضي آخر الامر ، وكان يؤثر ان يعود الى الشرق .

بوهمند يغزو الامبراطورية البيزنطية سنة ١١٠٧ :

ومكث بوهمند في فرنسا الى أواخر سنة ١١٠٦ ، ثم عاد منها الى أبوليا ، حيث عكف على إعداد الخطة لحملة صليبية جديدة ، لا بد أن تستهل أعمالها دون هوادة بمهاجمة الامبراطورية البيزنطية . على أنه لم يتعجل الحرب ، بعد أن أثلج صدره ما بلغه من أنباء بأن انطاكية لم تتعرض لخطر مباشر أثناء حكم تانكرد وفي ٩ اكتوبر سنة ١١٠٧ هبط جيشه في أفلونا على ساحل ابيروس البيزنطي . ولم تمض اربعة ايام حتى ظهر بوهمند امام حصن دورازو المنيع ، مفتاح شبه جزيرة البلقان ، الذي ظل النرمان زمناً طويلاً يطمعون في الاستيلاء عليه ، وظل فترة قصيرة في أيديهم منذ ربع قرن . غير أنه توافر ايضاً لالكسيوس من الزمن ما يكفي لإتمام استعداداته . واستعد الكسيوس للتضحية بحدوده الجنوبية الشرقية من أجل انقاذ دورازو . فعقد صلحاً مع السلطان السلجوقي ، قلج ارسلان ، وحصل منه على جنود مرتزقة . وإذ تبين لبوهمند أن ما للحصن من مناعة بالغة ، وما تقوم به حاميته من شدة الدفاع ، تمنعه من الاستيلاء عليه عنوة ، لجأ الى حصاره . على أن ما افتقر اليه بوهمند من قوة بحرية ، مثلما حدث في حروبه الأولى مع بيزنطة ، أدى الى دماره . فبادرت البحرية البيزنطية الى قطع سبل اتصاله مع ايطاليا ، وفرضت الحصار على الساحل . ثم حدث في مستهل فصل الربيع التالي ، أن أحدق به الجيش البيزنطي الرئيسي . ولما حلّ فصل الصيف ، أضعف النرمان ما تفشى بينهم من الدوسنطاريا والملاريا والمجاعة ، بينما حطّم الكسيوس روحهم المعنوية ، بما أذاعه من شائعات ، وبما دسه من خطابات مزورة الى قادتهم ، وهي اجراءات وصفتها ابنته أنه في إعجاب شديد . ولما أدرك بوهمند ، في سبتمبر ، بأنه انهزم ،

استسلم للأمبراطور ، ويعتبر ذلك انتصاراً رائعاً لبيزنطة ، إذ ان بوهمند ظلّ حتى وقتذاك أشهرَ المحاربين في العالم المسيحي . فإن مشهد هذا البطل الخطير ، الذي كان يعلو بهامته على الامبراطور ، يتوسل اليـــه ويخضع لكل ما يمليه عليه ، لدليـــل لا ينسى على ما للامبراطورية البيزنطية من جلال ومجد لا ينثلم .

معاهدة ديفول سنة ١١٠٨ :

استقبل الكسيوس بوهمند في معسكره الذي نصبه على مدخل الوديان الضيقة العميقة التي يجري فيها نهر ديفول . أظهر له الامبراطور الكسيوس البشاشة والظرف ، مع البرود ، ثم لم يلبث ان قدّم له المعاهدة التي لا بد ان يوقعها . وتردد بوهمند اول الامر ، غير ان نقفور برينيوس زوج أنّه كومنين (الذي كان يقف على خدمة صهره الكسيوس) ، حثّ بوهمنـــد بأنه لا سبيل للاختيار .

ورد في صفحات كتـــاب أنه كومنين النص الكامل للمعاهدة . وفيها كان لزاماً على بوهمند ان يعرب عن ندمه لنقضه العهد الذي سبق ان بذله للامبراطور . ثم أقسم بأشد الأيمان وأوثقها بأنه سوف يكون تابعاً ومولى للامبراطور ولولي عهده يوحنا ، وسوف يلزم كل رجاله بأن يحتذوا به . ولتجنب كل خطأ تقرر استخدام اللفظ اللاتيني الدال على « التابـع » Liege ، وجرى إيراد ما ينبغي على التابـع ان يؤديه من واجبات . تقرر ان يبقى بوهمند أميراً على انطاكية ، على ان يحكمها في ظل سيادة الامبراطور . وتشمل ولاية بوهمند : انطاكية ذاتها ، وميناءها السويدية ، ومـــا يقع الى الشمال الشرقي من البلاد حتى مرعش ، فضلاً عن كل مـــا يفتحه من البلاد

من أيدي أمراء حلب وسائر الامارات السورية الداخلة ، غير انه لا بد ان يعود لسلطان الامبراطور المباشر ، مدن قليقية وساحل اللاذقية ، ولا ينبغي ان يمس أملاك أمراء روبين . وأرفق بالمعـــاهدة ملحقاً ، يشمل بالتفصيل كل ما تتألف منه إمارة بوهمند من مدن . وكان لزاماً على بوهمند ان يمارس السلطة المدنية في إمارته ؛ اما البطريرك اللاتيني فينبغي عزله ، ليحل مكانه بطريرك يوناني . وحوّت المـاهدة من النصوص كالتي تفرض على بوهمنـد ان يلزم تانكرد او غيره من رجـاله بالطاعة ، اذا رفضوا الانصياع لمطالب المعاهدة [١] .

وترجع أهمية معاهدة ديفول الى انها كشفت عمـــا كان يفكر فيه الكسيوس حتى وقتـذاك من حـلّ لمشكلة الامير الصليبي . اذ أضحى الامبراطور مستعداً لأن يجيز بأن ينتقل لسلطان الامير اللاتيني المستقل ، كل ما يقع من مناطق على الحدود ، بل انطاكية ذاتها ، طالما التزم الامير روابط التبعية وفقاً للعرف اللاتيني ، وطالما استطاعت بيزنطة ان تحتفظ بسلطان غير مباشر ، عن طريق الكنيسة . يضاف الى ذلك ان الكسيوس أدرك أنه مسئول عن رفاهيـــة المسيحيين الشرقيين ، بل انه أراد ان يكفل حقوق أتباعه من الارمن من بيت روبين ، الذين ليس من السهل إرضاؤهم . وعلى الرغم من ان المعاهدة بقيت مجرد قصاصة ورق ، فانهـا

---

(١) انظر : Anna Comnena, XII. IV. 1 - 3.
VIII. 1 - IX , 7.
XIII. II. 1 - XII. 28.
vol. III. pp. 64 - 65, 77 - 85, 91 - 139.
Chalandon : op. cit. pp. 237 - 250.

حطمت بوهمند ، الذي لم يجرؤ على ان يظهر مرة اخرى في الشرق ، اذ انه لجأ في ذلة وانكسار الى أملاكه في أبوليا ، حيث بقي بها الى ان مات سنة ١١١١ ، كأنه امير ايطالي صغير مغمور . وخلّف وراءه من زوجته الفرنسية ، طفلين ورثا كل ما له من حقوق في انطاكية .

كان بوهمند جندياً رائعاً ، وقائداً جريئاً ماكراً ، وبطلاً عند أتباعه ، طغت شخصيته الرائعة على كل رفاقه في الحملة الصليبية الاولى . على ان طموحه الشخصي الكبير هو الذي أدى الى سقوطه . ولم يحن الوقت بعد للصليبيين كيما يدمروا الحاجز الذي يحمي العالم المسيحي الشرقي [1] .

على ان معاهدة ديفول تطلبت التعاون من تانكرد ، حسبما أدرك ذلك الكسيوس ؛ اذ ان تانكرد الذي لم يأسف لأن يرى خاله بوهمند مستبعداً من امور الشرق ، لم يكن في نيته ان يصير من أتباع الكسيوس . ومع ان طموحه لم يبلغ من الاتساع ما بلغه طموح خاله بوهمند ، فقد وجّهه لإنشاء إمارة قوية مستقلة ؛ غير ان آماله في المستقبل لم تكن سهلة التحقيق . اذ ان بوهمند لم يترك له سوى عدد قليل من الرجال ، ولم يبق له شيئاً من المال . ومع ذلك عزم تانكرد على ان يتخذ خطة الهجوم . فما انتزعه من قروض من التجار الأثرياء بأنطاكية ، زاد في أمواله ، ويسّر له استئجار مرتزقة محليين ، واستدعى كل من يصح الاستغناء عنه

---

(١) اختلفت التواريخ فيما أوردته من روايات عن تاريخ وفاة بوهمند . غير ان Rey (Histoire des Princes d'Antioche,p. 334)، و Hagenmeyer (op. cit. p.298) ناقشا هذا للوضوع ، واتفقا على ان بوهمند مات سنة ١١١١ (في ٦ مارس) ، على حد رواية Rey التي نقلها عن (Nécrologie de Abbaye de Molesme) .

من الفرسان والخيالة من الرها وتل باشر ، فضلاً عن بلاد انطاكية . وفي ربيع سنة ١١٠٥ ، خرج بجيوشه لاستعادة أرتاح . وكان رضوان امير حلب يتجهز للمسير لمساندة بني عمار في قتالهم مع الفرنج في أقصى الجنوب ، غير انه لما علم بزحف تانكرد ، عاد كيما يدافع عن أرتاح . والتقى الجيشان في ٢٠ ابريل سنة ١١٠٥ عند قرية تيزين قرب أرتاح ، على سهل موحش تناثرت فيه الصخور وإذ ارتاع تانكرد لضخامة الجيش التركي ، عرض الاجتماع برضوان ، الذي أوشك على ان يوافق لولا ان قائد خيالته صباوو ، حثه على ألا يتردد في الهجوم . على ان طبيعة الارض منعت الترك من استخدام ما أعدّوه من الخطط الحربية . واذ ردّ الفرنج اول هجوم للخيالة الترك ، انسحب هؤلاء كيما يطمعوا العدو ويوقعوا به ، غير انه لم يكن بوسع الترك ان يعيدوا تنظيم صفوف جيشهم ، للقيام بهجوم جديد ؛ وفي تلك الأثناء استطاع فرسان الفرنج ان يبددوا مشاة الترك . وإذ فشلت خطط الترك ، لم يلبث ان ساد الذعر بينهم ، وانطلق رضوان وحرسه على خيولهم فارّين الى حلب ، وتبعهم معظم الخيالة ، ومن تبقّى من الخيالة والرجالة جرى الإجهاز عليهم في ساحة القتال .

وما أحرزه تانكرد من انتصار كفل له استرداد كل ما فقده من بلاد في السنة الماضية . اذ تخلّت الحامية السلجوقية له عن أرتاح ، بينما مضت عساكره في مطاردة الفارّين حتى أسوار حلب ، ونهبوا عدداً كبيراً من سكان المدينة ، عند هروبهم هلعين من المدينة . وسعى رضوان لعقد الصلح ، ووافق على ان يتنازل عن كل ممتلكاته الواقعة بوادي نهر الاورنت ، وان يؤدي بانتظام الجزية لتانكرد . ولم تنتهِ سنة ١١٠٥ حتى

امتدت أملاك تانكرد مرة اخرى جنوباً الى البارة ومعرة النعمان [1] .

استيلاء تانكرد على أفامية سنة ١١٠٦ :

وفي فبراير سنة ١١٠٦ ، اغتال جماعة من الباطنية بحلب ، أمير أفامية خلف بن ملاعب ، الذي لم يكن معادياً للفرنج ، ولم يلبث القتلة ان اختلفوا مع حليفهم بداخل المدينة (أفامية) ، ابي الفتح (السرميني) ، الذي تولى مقاليد الحكومة ، والتمس المساعدة من رضوان . واذ استنجد سكان المدينة من الارمن بتانكرد ، أدرك ان الوقت قد حان للتدخل . مضى تانكرد بجيشه نحو الجنوب ، وشرع في حصار المدينة . غير أن أبا الفتح أعاد الأمن الى نصابه ؛ ووعده بالمساعدة كل من أميري شيزر وحماه . ولم يسع تانكرد إلا الانسحاب ، بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع ، وبرّر ذلك بأنه لا بد ان ينهض لمساعدة حامية اللاذقية ، التي تعرضت للمجاعة ، بعد ان استمر حصار البيزنطيين لها ثمانية عشر شهراً ؛ فأمدها بالمؤن ثم عاد الى انطاكية . على أن أحد أبناء خلف ، وهو مصبح بن ملاعب ، الذي أفلت من المصير الذي حلّ بأبيه ، ظهر بعد شهور في أنطاكية ، في مائة من أتباعه ، وحثّ تانكرد على ان يعود لمهاجمة أفامية . وبفضل مساعدة مصبح هاجم تانكرد المدينة ، بعد ان حفر خندقاً حولها ليمنع الناس من الدخول الى المدينة والخروج منها . ولم ينهض لمساعدة أبي الفتح

---

(١) انظر :
Radulph of Caen, CLIV. pp. 714 - 15.
Albert of Aix, IX. 47, pp. 620 - 621.
Kemal ad - Din, p. 593.
Ibn al - Qalanisi, pp. 69 - 70.
Ibn al - Athir, pp. 227 - 228.

احد من الأمراء المجاورين ، وبعد بضعة أسابيع أذعن المسلمون بالمدينة في ١٤ سبتمبر سنة ١١٠٦ ، بشرط الإبقاء على حياتهم . ووافق تانكرد على الشروط ، غير أنـه عند دخول المدينة ، أمر بقتل ابي الفتح وثلاثة من أتباعه إرضاء لمصبح . وتقرر حمل سائر أعيان المدينة الى أنطاكية ، حيث بقوا بها حتى سعى رضوان لافتدائهم . وتقرر تنصيب احد الفرنج حاكماً على أفامية ، بينما حظى مصبح بإقطاع صغير بالقرب من أفامية [١] . ولم يلبث الفرنج ان استردوا بعدئـــذ كفرطاب . وتولى امرها فارس اسمه تيوفيل ، الذي لم يلبث ان أضحى مصدر رعب للمسلمين في شيزر [٢] .

تانكرد في ذروة قوته سنة ١١٠٩ :

ولما أتم تانكرد تأمين حدوده الشرقية والجنوبية ، التفت لمواجهة ألد أعدائه ، وهو بيزنطة . فحينما كان هجوم بوهمند على أملاك بيزنطة في اوربا وشيك الوقوع ، في صيف سنة ١١٠٧ ، كان لزاماً على الكسيوس أن يسحب عساكره من الطرف السوري ، ليواجه ما يتعرض له من تهديد بالغ الخطورة . فتقرر استدعاء كانتاكوزينوس من اللاذقية ، مع عدد كبير من رجـــاله ، وجرى ايضاً دعوة موناستراس من قليقية ، التي تولى أمر

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, loc. cit.
Zettersteen Chronicle, p. 240.
Kemal ad - Din, p.694.
Ibn al - Athir, p. 233.
Albert of Aix X. 17 - 23. pp. 639 - 42.
يروي ان ابا الفتح الذي سماه Botherus اغتال امير المدينة .

(٢) انظر : Usama, Hitti p. 157.
Ibn al - Qalanisi, p. 73.
Kemal ad - Din, p. 594 - 5.

حكومتها سبارابيل اوشين الارمني صاحب لامبرون . وحـدث في شتاء سنة ١١٠٨ او اوائل سنة ١١٠٩ ، أن أغار تانكرد على قليقية ، عقب إذلال بوهمند في ابيروس . على ان الامبراطور لم يكن مصيباً في تقديره للرجال . فالمعروف ان اوشين ينحدر من اسرة عريقة النسب ، واشتهر منذ حداثته بالشجاعة ، غير أنه لم يلبث ان صار يميل الى الترف والدعة . ويعتبر حصن المصيصة ، الواقع على نهر جيحان المنفذ المؤدي الى قليقية . ولما تقدمت قوات تانكرد براً عن طريق سلسلة جبال الأمانوس ، وبحراً عن طريق نهر جيحان لحصار المدينة ، المصيصة ، لم يحاول اوشين وقف سير العساكر . فسقطت المصيصة بعد حصار قصير الأمد ، واستطاع تانكرد في الشهور التالية ، فيما يبدو ، أن يعيد سلطانه الى أذنة وطرسوس ، بينما ظلت قليقية الغربية في أيدي رجـال الأمبراطور البيزنطي . أما اوشين فانسحب الى بلاده في جبال طوروس [١] .

وتم ايضاً استعادة اللاذقية . والمعروف ان النرمان كانوا حتى وقتذاك يفتقرون الى القوة البحرية . غير أن القوة البحرية البيزنطية تركزت وقتذاك في البحر الادرياتي بعيـداً عنهم . واستطاع تانكرد ان يظفر بمساعدة الاسطول البيزاوي . وما طلبته بيزا من ثمن لهذه المساعدة ، هو ان يكون لها شارع في انطاكية ، وحي باللاذقية ، فضلاً عن كنيسة ومستودع تجاري بها . أما بترياس الذي خلف كانتاكوزينوس القائد البيزنطي باللاذقية ، فلم

(١) انظر : Anna Comnena, XII. II. 1 - 7. vol. III. pp. 56 - 59.
William of Tyre, X. 23. pp. 635 - 636.

عن معاهدة تانكرد مع البيازنة ، انظر :

Rohricht, Regesta p. 11.
Muratori, Antiquitates Italicae, II. pp. 905 - 906.

يكن من القوة ما يحمله على المقاومة . فدخلت اللاذقية آخر الأمر في نطاق املاك انطاكية في ربيع سنة ١١٠٨ ، وفي السنة التاليـــة ، أمد تانكرد أملاكه الى اقصى الجنوب ، بأن انتزع جبلة وبُلنياس وقلعة المرقب ، بعد ان تفككت ممتلكات بني عمار [١] .

وبينما كان بوهند يستسلم للامبراطور البيزنطي ، ويقر بزوال استقلاله ، كان تانكرد يبلغ ذروة قوته ، ولم يكن ملزماً بحال من الاحوال باطاعة قرار الامبراطور البيزنطي . إذ صارت له السلطة المطلقة في البلاد الممتدة من جبال طوروس الى الجزيرة ووسط بلاد الشام . اضحى حاكماً لانطاكية والرها ، على الرغم من انـه كان في الواقع وصياً عليهما . غير ان الامير بوهمند كان يقيم وقتذاك في ايطاليا مطروداً ، ولن يعود مطلقاً الى الشرق ، بينما يحل بلدوين كونت الرها في أسر الترك مغلوباً على أمره ، لم يحاول تانكرد النهوض لإنقاذه . صار امير حلب من اتباعه الموالين له ، وما من احد من الامراء المجاورين يجرؤ على ان يهاجمه . والواقع ان تانكرد نجح في تحدي وريث قياصرة القسطنطينية . وحينما قدم سفراء الامبراطور الى انطاكية ، لينهوا اليه بما التزم به عمه من تعهدات ، طردهم في شيء من الغطرسة . اضحى تانكرد ، كما قال عن نفسه ، نينوس الاشوري الكبير ، العملاق الذي لا يجرؤ احد على مقاومته [٢] .

على ان للغطرسة حدوداً ، فعلى الرغم مما اشتهر به تانكرد من البراعة ، فإنه لم يكن محبوباً او مقبولاً . وتعرضت قوته وسلطته للتحدي والانتقاص من زملائه الصليبيين .

---

(١) انظر : Dal Bargo : Diplomata Pisana, pp. 85 - 94.
Heyd : Histoire du Commerce du Levant, vol. I. pp. 145 - 146.

(٢) انظر : Anna Comnena XIV. II. 3 - 5. vol. III. pp. 147 - 148.

الفصل الرابع

كونت تولوز وطرابلس

يعتبر ريموند كونت تولوز ، أغنى من خرج في سنة ١٠٩٦ من الامراء في الحملة الصليبية الاولى ، وأكثرهم شهرة ، وهو الرجل الذي كان متوقعاً ان يصير قائد الحركة الصليبية . ولم تمض إلا سنوات خمس حتى أمسى من اقل الصليبيين اعتباراً وأهمية . على أنه هو الذي خلق المتاعب لنفسه . فعلى الرغم من أنه لا يزيد نهماً وطموحاً على سائر رفاقه ، فإن ما اشتهر به من الغرور جعل أخطاءه بالغة الوضوح . فما اتخذه من سياسة الولاء للأمبراطور الكسيوس ، حرص على ان تقوم فعلاً على الشرف ، وعلى ما اشتهر به من بعد النظر السياسي ، غير أنها تراءت لزملائه من الفرنج على أنها ضرب من التدابير الخائنة ، ولم يجن منها ريموند إلا كسباً ضئيلاً ؛ إذ لم يلبث الامبراطور ان اكتشف انه صديق ضعيف مجرد من الكفاية . أما أتباعه فاحترموه لتقواه ، غير انه ليس له عليهم من سلطان . أرغموه على المضي الى بيت المقدس في الحملة الصليبية الاولى ، ودلت حملة ١١٠١ على ضآلة كفايته لأن يتولى قيادة حملة حربية . وأحط ما حل بـه من

هوان وذلة ، جرى حينما أسره تانكرد ، الذي يعتبر من صغار رفاقه . وعلى الرغم من ان ما اقدم عليه تانكرد من عمل أثار الرأي العـــام ، لأنه حطم قواعد الضيافة والشرف ، فـــإنه لم يتم إطلاق سراح ريموند إلا بعد ان أقر بتخليه عن كل دعوى له في شمال الشام ، فدمَّر بذلك اساس اتفاقه مع الامبراطور الكسيوس [1] . على أن ريموند اشتهر بالصلابة والإصرار . وإذ نذر بأنه سوف يبقى في الشرق ، ظل محافظاً على وعده ، وأخذ يدأب على أن يقيم له إمارة .

بنو عمار أمراء طرابلس :

كان لا بد للمسيحيين ، اذا قدّر لإماراتهم البقاء ، ان يقوموا بفتح منطقة اخرى . ذلك ان سلسلة من الإمـــارات الاسلامية ، كانت تفصل الفرنج بإنطاكية والرهـــا عن سائر اخوانهم في بيت المقدس . وتعتبر طرابلس الخاضعة لبني عمـــار أهم هذه الإمارات . والمعروف ان زعيم الأسرة الحاكمة ، وهو القاضي فخر الملك ابو علي ، كان يؤثر السلام . ومع ان جيشه كان صغيراً ، فإنه حكم إقليماً معروفاً بثروته . وبفضل ما اشتهر بــه من إظهار المسالمة مع جيرانه ، احتفظ بالاستقلال القلق ، الذي لا يستند إلا على قوة ومنـــاعة الحاضرة الحصن (طرابلس) ، الواقعة على شبه جزيرة الميناء . وكلما اقترب الفرنج من املاكه ، كان يظهر لهم قدراً كبيراً من التودد ، فزوّد بالمؤن الحملة الصليبية الأولى ، ولم يقاوم قـــادة هذه الحملة حينما حاصروا مدينة عرفة من ممتلكاته . وبذل مساعدة قيمة

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٦٠ .

لبلدوين البولوني اثناء رحلته المحفوفة بالخطر ، ليتسلم تاج بيت المقدس غير أنــه حينما ابتعد الصليبيون مسافة طويلة ، بادر في اطمئنان الى الاستيلاء على مدينتي انطرطوس وبرزية اللتين سبق ان احتلها الصليبيون . وبذا سيطر على كل الطريق الساحلي الممتد من اللاذقية وجبلة الى بيروت التابعة للفاطميين [1] .

أمـا الطريق البديل الممتد من شمال الشام الى فلسطين ، فيسير في وادي نهر الأورنت ، مجتازاً مدينة شيزر الخاضعة لبني منقذ ، ومدينـة حمـاه التي تدين بالولاء لرضوان ، ومدينة حمص التي يحكمها جناح الدولة أتابك رضوان وزوج أمه . وفي حمص يتفرع الى طريقين : الأول ، وهو الذي اجتـازه ريموند في الحملة الصليبية الاولى ، يتجه الى البقيعة الى طرابلس والساحل ، بينما يمضي الطريق الآخر الى بعلبك من توابع دمشق ، ثم الى منابع نهر الاردن .

وما اشتهر به ريموند من الطموح ، حمله على التفكير في ان يقيم إمارة تتحكم في الطريق الساحلي وطريق الأورنت ، على أن تكون حاضرتها حمص ، التي أطلق عليها الفرنج La Chamelle . غير أنـه جعل هدفه الأول الاستيلاء على المدن الواقعة على الساحل ، ولا يتسنى له ذلك إلا بما يتلقاه من مساعدة من اسطول جنوى . ولما تم اطلاق سراح ريموند

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٧ .

Sobernheim, art. Ibn Ammar, En. Is.

المعروف ان بوري بن دقاق حاز جبلة من احد الشيوخ المحليين ، غير ان فخر الملك منعه من الاستيلاء عليها .

من حبس تانكرد في الايام الاخيرة من سنة ١١٠١ ، خرج من انطاكية ، في صحبة من بقي على قيد الحياة من امراء الحملة الصليبية ، سنة ١١٠١ ، امثال ستيفن بلوا ، ووليم اكيتانيا ، وولف كونت بافاريا ، ورفاقهم ، الذين حرصوا على ان يؤدوا الحج الى بيت المقدس . واجتمع في اللاذقية بزوجته وعساكره ، الذين سار بهم الى انطرطوس . ولما بلغ اسوار المدينة ، كان الاسطول الجنوي الذي ركن الى مساعدته ، راسياً في عرض البحر تجاه الساحل . ولم يبذل حاكم مدينة انطرطوس ، ازاء هذا التهديد المزدوج ، إلا مقاومة ضئيلة . وحوالي منتصف فبراير سنة ١١٠٢ دخل ريموند مدينة انطرطوس ، وبصحبته رفاقه في السفر الذين وافقوا دون جدال على ان تكون له هذه المدينة . وظنوا انه سوف يصحبهم بعدئذ الى بيت المقدس . ولما رفض ريموند المضي معهم الى بيت المقدس ، اشتد غضبهم ، وصبّوا عليه لعناتهم ؛ على قول المؤرخ فولشر شارتر . غير ان ريموند قرر بأن تكون انطرطوس نواة لإمارته . فلم يسعهم إلا ان ينصرفوا عنه ، وأن يمضوا في السير الى الجنوب[1] .

انتصار ريموند امام طرابلس سنة ١١٠٢ :

لم يخف ريموند ما أعده من خطط ، فارتاع العالم الاسلامي ، ولم يسع فخر الملك إلا ان يرسل الى امير حمص والى دقاق امير دمشق ينذرهما .

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, 11. XV11. 1 - 2. pp. 433 - 435.
Albert of Aix V111. 43. p. 583.
Caffaro : Liberatio p . 69.
يشير كافارو الى ما بذله الاسطول الجنوي من مساعدة لريموند .

على أنه لما ظهر ريموند امام اسوار طرابلس ، تبين أن جيشه لا يزيد قليلاً على ثلثمائة رجل . وظن المسلمون ان الفرصة حانت للقضاء عليه . فبادر دقاق بانفاذ ألفين من فرسانه ، وأرسل جناح الدولة ما يزيد على هذا العدد كثيراً ، واحتشد كل جيش بني عمار ، والخلاصة ان الجيش الاسلامي عند التقائه بجيش ريموند على السهل الواقع خارج المدينة ، كان يفوقه في العدد ، كل عشرين من المسلمين يقابلهم فرنجي واحد .

لم يورد المؤرخون الصليبيون تفاصيل عن اعمال ريموند . وما نعلمه عن المعركة البالغة الاهمية التي جرت ، مستمد من المؤرخ العربي ابن الاثير . إذ يشير الى ان ريموند جعل قبالة الدماشقة مائة من رجاله ، وجعل مائة آخرين لمواجهة بني عمار ، وخمسين لمواجهة رجال حمص ، وأما الخمسون الباقية فاتخذهم حرساً له . بدأ عساكر حمص هجومهم ، غير أنه حينما فشلوا هربوا فزعين ، وانتشر الهلع والجزع بين الدماشقة . غير ان جيش طرابلس أحرز انتصاراً باهراً ، ولما رأى ريموند خصومه الآخرين يفرّون ، وجّه كل جيشه لقتال رجال طرابلس ، وكانت الصدمة المفاجئة من القوة ما لم يكن في وسعهم احتمالها ، فارتدوا على اعقابهم ولاذوا بالهرب . وعندئذ اخذ الخيالة الفرنج يذرعون ساحة القتال ، فأجروا القتل في كل من لم يهرب من المسلمين . وقدر المؤرخ العربي من هلك من المسلمين بنحو سبعة آلاف رجل .

ولم يؤد الانتصار فحسب الى ان يستعيد ريموند شهرته ، بل كفل له ايضاً بقاء امارته في لبنان . فلم يجرؤ المسلمون مرة اخرى على أن يبادروا بمهاجمته . غير ان جنوده كانوا من قلة العدد ، ما لم تمكنه من الاستيلاء على طرابلس ذاتها ، باستحكاماتها الضخمة في شبه جزيرة المينا .

ولذا عاد ريموند الى انطرطوس ليرمم خطة الحملة التالية ، بعد ان حصل على اتاوة كبيرة من الخيل [1] والمال .

وبعد ان أمضى ريموند الشهور التالية في توطيد مركزه في الجهات المجاورة لأنطرطوس ، خرج في ربيع سنة ١١٠٣ للاستيلاء على البقيعة ، وهي حركة لا بد منها اذا أراد ان يعزل طرابلس ، ويمد أملاكه الى الأورنت . غير أن محاولته فشلت في الاستيلاء على حصن الطوبان الواقع الى الشمال الشرقي من مدخل الوادي . على أن جسارته وجرأته حملته على أن يحاصر قلعة الحصن ، وهي القلعة التي تسيطر على كل السهل ، الذي سبق لعساكره ان احتلتها لمدة اسبوع سنة ١٠٩٩ . وهاتان القلعتان تابعتان لجناح الدولة صاحب حمص ، الذي لا يقر ضياعها . فأعد جيشاً لإنقاذهما ، غير أنه لقي مصرعه على يد ثلاثة من الحشيشية ، عند خروجه من المسجد الجامع بحمص ، بعد أن دعا الله ان ينصره . وأدت وفاته الى اضطراب الأمن بالمدينة . فبادر ريموند الى رفع الحصار عن قلعة الحصن ، وتوجه صوب الشرق ليفيد من مصرع جناح الدولة . وعزا الرأي العام مصرع جناح الدولة الى عملاء من قبل رضوان ، الذي لم يغفر مطلقاً لجناح الدولة ما قام به منذ ثلاث سنوات من مهاجمته ، حينما كان منصرفاً الى قتال الفرنج في انطاكية . وإذ ارتاعت أرملة جناح الدولة ، ووالدة رضوان ،

---

(١) انظر : Ibn al Athir pp. 211 - 212.
Sibt Ibn al - Djauzi (p. 525).
الذي أشار الى ان معركة دارت خارج انطرطوس ، وجرى على نهجه كل من :
Caffaro : Liberatio, loc. cit.
Radulph of Caen CXLV. p. 707.

لاقتراب ريموند من المدينة ، أرسلت الى رضوان بحلب تعرض عليه تسلم حمص. غير أن مستشاري جناح الدولة رفضوا مساندتها واستدعوا دقاقاً لنجدتهم. فبادر دقاق نفسه بالقدوم من الجنوب ، وبصحبته أتابكه طغتكين ، فتولى زمام الحكم بحمص ، ثم عهد بإدارتها الى طغتكين. ولما لم يكن ريموند في وضع يهيء له قتال دقاق ، انسحب الى الساحل[1].

ولما عاد ريموند الى انطرطوس ، علم ان اسطولاً جنوياً مؤلفاً من اربعين سفينة ألقى مراسيه في اللاذقية. فبادر باستئجاره ليستعين به في مهاجمة طرابلس. غير ان الهجوم باء بالفشل ، ولذا تحرك الحليفان صوب الجنوب ، واستوليا على ميناء جبيل ، المعروفة عند القدماء باسم بيبلوس. وحاز الجنويون ثلث المدينة مكافأة لهم[2]. على أن ريموند عزم على فتح طرابلس ذاتها. ففي أثناء الشهور الاخيرة من سنة ١١٠٣ ، أقام معسكراً في أرباض المدينة ، وشرع في تشييد قلعة ضخمة على تل ، على مسافة ثلاثة اميال في داخل البلاد. وحاول ، قبيل هذا التاريخ ، ان يطرد تانكرد من اللاذقية ، ارضاء للبيزنطيين ، وفي مقابل ذلك أمدوه بمواد البناء والبنائين المهرة من قبرص. وفي ربيع سنة ١١٠٤ اكتمل بناء القلعة فاستقر بها ريموند. وأطلق عليها جبل الحاج ، غير انه اشتهرت عند العرب باسم

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, p. 213.

لم يرد التاريخ على وجه التحقيق في ابن الاثير.

Kemal ad - Din, pp. 590 - 591.

(٢) Albert of Aix, IX. 26, pp. 605 - 606.

Caffaro : Libertio p. 71.

قلعة الصنجيل ، أي قلعة سان جيل [1] .

وفاة ريموند سنة ١١٠٥ :

ومع أن طرابلس اضحت في حالة حصار مستمر ، فإنها ظلت صامدة لم تسلم استحكاماتها . سيطر ريموند على كل ما يصل اليهـــا من الطرق البرية ، غير انه لا زال يفتقر الى قوة بحرية دائمة . ولا زال بنو عمـــار بفضل ثرواتهم الوافرة يسيرون اسطولاً تجاريـ ـاً ضخماً ، ويجلبون الى مدينتهم المؤن من الموانىء المصرية الواقعة الى الجنوب منهم . غير ان قلعة ريموند هددت حريتهم . ففي اواخر الصيف شن بنو عمار هجوماً فأشعلوا الحرائق في ارباض طرابلس حتى بلغوا الأسوار ، وتعرّض ريموند نفسه للإصابة بعـد ان هوى به سقف دار محترق . وفي اوائل الربيع التالي ، نزع فخر الملك الى عقد هدنة مع المسيحيين ، بمقتضاها تخلى لهم عن ارباض طرابلس . ولم تكد المفـــاوضات تنتهي ، حتى نزل بريموند المرض الذي أودى بحياته ، ولم يكن قد اكتمل شفاؤه من الحروق التي اصابته منذ ستة اشهر . مـــات ريموند بجبل الحاج في ٢٨ فبراير سنة ١١٠٥ . وما قام به في السنوات الاخيرة من حياته من مغامرات رائعة

---

(١) Anna Comnena, XI. VIII. 5. vol. III. p. 389.
Albert of Aix, IX. 32. p. 510.
Caffaro : Liberatio p. 70.
Radulph of Caen, loc. cit.
William of Tyre, X. 17. p. 441.
Ibn al - Athir. pp. 217 - 218.
Abul - Mahasin p. 275.

أعادت له شهرته وصيته . وجرى نعيه على انه فارس مسيحي كبير آثر ان يتعرض لمتاعب الحرب المقدسة ، على كل ما تزخر بـه بلاده الاصلية من دواعي البهجة والسرور [1] .

كان ريموند جديراً بهذا الرثاء . ذلك أنه كان يختلف عن سائر رفاقه المسيحيين الذين استقروا وقتذاك بالشرق ، والذين لم يكن لهم في مواطنهم إلا رصيد ضئيل ، في أنـه كان يحوز إرثاً كبيراً في اوربا . وعلى الرغم من أنه أقسم بأنه لن يعود الى هـذه الممتلكات ، فإنه احتفظ بقدر من السيطرة على حكومتها . على ان وفاته خلقت مشكلة في وراثة الحكم في تولوز ، وفي لبنان ايضاً . إذ أنه سبق ان ترك حكومة تولوز لابنه الاكبر برتراند . غير ان حق برتراند في وراثـة الحكم كان موضع نزاع ، وذلك لأنه فيما يبدو لم يكن ابناً شرعياً لريموند . ولم يبق على قيد الحيـاة من أبناء ريمونـد من الكونتيسة الفيرا سوى ألفونسو جوردان الذي لم يمض على ولادته في قلعة الحاج إلا شهور قليلة . والواضح أنه ليس في استطاعة طفل ان يتولى حكومة دولة عسكرية محفوفة بالخطر في لبنان ، كما ان وجوده لم يكد يكون معروفاً اصلاً في تولوز . ظل برتراند يحكم أملاك

---

(١) Albert of Aix, loc. cit.
Bartolf of Nangis, LXV111, p. 539.
Caffaro : Liberatio p. 72.
William of Tyre, XI. 2. p. 452.
Ibn al - Athir p. 230.
(يشير الى ان وفاته وقعت بعد عشرة ايام مضت على وقوع حادث الحريق) . ويذكره وليم الصوري على انه : « Bonae memoriae » .
Vir religiosus et timens Deum, vir per omnis commendabilis.

أبيه في اوربا ، أما في الشرق ، فإن جنود ريموند اختاروا وفقاً لرغباته الاخيرة ، فيما يبدو ، ابن عمه وليم جوردان ، كونت مرداني (السرداني) ليكون خلفاً له . والمعروف أن وليم جوردان ، الذي لم تكن جدته لأمه سوى خالة ريموند ، قد وصل حديثاً الى الشرق . فاعتبر نفسه وصياً على ابن عمه الطفل ، وامتنع عن اتخاذ أي لقب تضفيه عليه أملاكه بالشرق . غير أنــــه طالما بقي ألفونسو جوردان حياً ، فلن يطمئن في الحكم وليم جوردان او برتراند [١] .

واصل وليم جوردان سياسة سلفه ، ريموند ، بأن اشتد في فرض الحصار على طرابلس ، وحافظ على التحالف مع بيزنطة . وبناء على طلب الامبراطور البيزنطي ، الكسيوس ، أنفذ اليه حاكم جزيرة قبرص ، يوماثيوس فيلاوكالس ، رسولاً يتلقى منه الولاء ، وفي مقابل ذلك يبذل له الهدايا القيمة . وترتب

---

(١) Albert of Aix, IX. 50. pp. 123 - 124.

ووفقاً لما ورد في :

Vaissette : Histoire de Languedoc. ed. Molinier, vol. IV. 1. pp. 195 - 199.

كان برتراند ابناً لريموند من زوجته الاولى ، ابنة ماركيز بروفانس . هذا الزواج تقرر إلغاؤه فيما بعد لما بينهما من صلة قرابة وثيقة تمنعه. على أن هذا الإلغاء لا يحمل عادة الاطفال الناجين عنه أبناء غير شرعيين . غير انه من الواضح انه على الرغم من ان ريموند اعتبر برتراند وريثاً له في تولوز ، حينما توجه الى الشرق وبصحبته أبناؤه من الفيرا ، فان دعاوى برتراند في تولوز ، لم تضارع دعاوى وليم جوردان الذي لا شك في شرعية بنوته . وحدث فيما بعـــد ان دعوى ألفونسو جوردان في طرابلس أزعجت ريموند الثاني حفيد برتراند. (انظر ما يلي الكتاب الثالث، الفصل الثالث). على ان وليم مالمسبوري، الذي لم يكن ابداً دقيقاً في رواياته، اعتبر برتراند ابناً لريموند من جارية (II. 9. 456) ، بينما اعتبره المؤرخ المعاصر Caffaro : Liberatio p. 72 ، ابناً سفاحاً .

على انصياع وليم جوردان ، أن انتظم إرسال المؤن من قبرص الى الفرنج أمام طرابلس ، وأسهمت القوات البيزنطية من حين لآخر ، في الحصار المفروض على المدينة . وبينما تدفقت المؤن على المعسكر الفرنجي ، تعرضت طرابلس وقتذاك لخطر المجاعة ، فلم تعد تصلها المؤن بطريق البر ، وعلى الرغم من أن سفناً من الموانئ الفاطمية ، بل ومن أملاك تانكرد ، اخترقت الحصار ، غير أنها لم تجلب من المؤن ما يكفي لما تحويه طرابلس من عدد ضخم من السكان . فازداد ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، فصار الرطل من التمر يبلغ ثمنه ديناراً واحـــداً . وغادر المدينة كل من استطاع الهروب منها . وساد في داخل أسوارها البؤس والمرض ، وحاول فخر الملك تخفيف الضائقة بتوزيع المؤن على العساكر والمرضى ، بعد أن دفع أثمانها بما فرضه من ضرائب استثنائية . وهرب الى معسكر الفرنج جماعة من أعيان المدينة ، وكشف اثنـــان منهم للمحاصرين عن الدروب التي زالت تسلكها السلع المهربة الى المدينة . وبـــذل فخر الملك أموالاً طائلة لوليم جوردان عن هذين الخائنين ، غير أنه لمـــا رفض الكونت تسليمها ، جرى العثور عليها قتيلين في المعسكر المسيحي[١] .

لم يعرف فخر الملك أين يولي وجهه ليلتمس المساعدة . فإذا تقـــدم بالطلب للفاطميين ، فسوف يصرون على أن يضيفوا إمارته لأملاكهم . ولم يكن لسبب من الأسباب على علاقات طيبة مع طفتكين صاحب حمص ،

---

(١) انظر : Anna Comnena, loc. cit.
Ibn al - Athir, p. 236.
يشير ابن الاثير الى ان مدينة طرابلس تلقت مقادير كبيرة من المؤن من اليونانيين باللاذقية .

الذي يعتبر الحليف الطبيعي له ، والذي تولّى مقاليد حكومة دمشق بعد وفاة دقاق سنة ١١٠٤ ، والذي دأب على شن الحرب على وليم جوردان . وأدرك فخر الملك فيما يبدو أن الأسلم له أن يلتمس الحلفاء من جهات بعيدة . ولذا أرسل في سنة ١١٠٥ الى سكمان ارتق أمير ماردين يلتمس منه المبادرة الى مساعدته . ولما لم يكن سكمان راغباً عن العودة الى منطقة ساحل الشام ، توجه على رأس جيش كثيف ، اجتاز به الصحراء . غير أنه لم يكد يبلغ البتراء حتى مات فجأة ، وعجّل قادته بالعودة الى الجزيرة للتنازع على ولاية الحكم[١] . وبفضل ما اشتهر به فخر الملك من الثروة والدبلوماسية ، استطاع ان يبقي في طرابلس ، طوال سنتي ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، وسط البؤس الذي ازداد حدة . وصلحت علاقته مع طغتكين . وما قام به طغتكين من هجمات على الفرنج كالتي أدت الى استعادة رفنية منهم ، كانت في صالح فخر الملك[٢] . غير أن الفرنج رسخت أقدامهم وقتذاك على ساحل لبنان ؛ وما من دولة اسلامية مجاورة كان لديها فيما يبدو من القوة او العدة ما يكفي لطردهم . وإذ استبد اليأس بفخر الملك ، قرر في ربيع ١١٠٨ أن يمضي بنفسه الى بغداد ليلتمس المساعدة من الخليفة العباسي ، ومن أكبر الزعماء المسلمين ، السلطان محمد السلجوقي .

فخر الملك يزور الخليفة ١١٠٨ :

خرج فخر الملك من طرابلس في مارس سنة ١١٠٨ ، بعد أن عهد

---

(١) انظر : Ibn al - Athir pp. 226 - 227.

(٢) Ibn al - Qalanisi, op.cit. p.60.
Ibn al - Athir, p. 230.

بالحكومة الى ابن عمه ابي المناقب بن عمار ، وبعد ان منح العساكر راتب ستة شهور معجلا . أخطر طغتكين بنواياه ، وحصل فيما يبدو من وليم جوردان على إذن باجتياز الاراضي التي في حوزة الفرنج . وصحبه حرس مؤلف من خمسمائة رجل ، وحمل معه الى السلطان هدايا كثيرة قيمة . ولما بلغ دمشق تلقاه طغتكين بكل مظاهر الاحترام ، وغمره أمراء دمشق بالهدايا ، على أنه آثر من قبيل الاحتياط ان ينزل خارج أسوار دمشق . ولما استأنف رحلته ، سار بصحبته تاج الملك بوري بن طغتكين . وحينما اقترب من بغداد ، لقي كل مظاهر الحفاوة والاهتمام فأرسل السلطان سفينته كيما تقله عند عبور الفرات ، واتخذ مجلسه في دست السلطان . ومع أنه لا يحمل من الألقاب ما يزيد على لقب قاضي ، فإنه دخل بغداد ، في موكب لا يجري إلا لأمير حاكم . فأظهر له الخليفة والسلطان المحبة الأخوية ، وشادا به لما بذله من خدمة للدين . غير أن هذه التحيات لم تلبث أن ظهرت جوفاء ، حينما دارت المناقشة حول الموضوع الذي قدم من أجله . إذ وعد السلطان بأن جيشاً سلجوقياً ضخماً سوف ينهض لإنقاذ طرابلس ، غير أنه لا بد لهذا الجيش أن ينجز أولاً بعض الاعمال في الجهات القريبة من بغداد . مثال ذلك لا بد من اخضاع امير الموصل ، جاولي ، وإعادته الى سابق ولائه للسلطان . وأدرك فخر الملك أنه ليس في نية السلطان محمد أن يتدخل في أمر طرابلس . وبعد أن مكث في دار السلطان ببغداد أربعة شهور حافلة بالضيافة ، ولم تكن مثمرة ، شرع فخر الملك في المسير عائداً الى بلاده ، غير أنه حينما رجع لم يجد له وطناً[1] .

---

(١) أنظر : Ibn al - Qalanisi, op. cit. pp. 83 - 86.
Ibn al - Athir, pp. 255 - 257.

كان ابو المناقب وأعيان طرابلس واقعين ، إذ أدركوا أنه ما من دولة إسلامية تستطيع مساندتهم سوى دولة الفاطميين ، الذين لا زال لهم بعض السيطرة على البحر . فطلبوا الى الأفضل الوزير المصري ، بأن يبعث من قبله والياً يتولى إدارة المدينة . وأجاب الأفضل طلبهم ، بأن عين شرف الدولة والياً على طرابلس ، التي قدم اليها في صيف سنة ١١٠٨ ، وقد جلب معه للسكان كميات كبيرة من القمح . لم يلق شرف الدولة متاعب حينما تولى السلطة ، إذ تم إلقاء القبض على أنصار فخر الملك وحملهم بحراً الى مصر . لم يسمع فخر الملك بالثورة إلا بعد أن وصل الى دمشق في طريق عودته . ولما كانت جبلة الواقعة الى شمال انطرطوس ، لا زالت في حوزته ، فإنه اتخذ طريقه اليها . غير أن حكمه في جبلة كان قصير الامد . ففي مايو سنة ١١٠٩ ظهر امام المدينة (جبلة) تانكرد في كل قواته . ولم يسع فخر الملك إلا التسليم بعد أن تم التفاهم على أن تبقى له المدينة إقطاعاً من تانكرد . غير أن تانكرد نقض عهده ، وأجبر فخر الملك على مغادرة المدينة ، وكان لزاماً على فخر الملك ان يقصد دمشق ليتخذ منها ملاذاً ، فأمضى بقية حياته يعيش على ما أجراه عليه طغتكين من مال [١] .

رحيل برتراند الى الشرق سنة ١١٠٨ :

ومع أن فخر الملك فقد طرابلس ، فإن المصريين لم يستطيعوا الاحتفاظ

---

(١) Ibn al - Qalanisi pp. 86 - 90.
Ibn al - Athir p. 274.
Sibt Ibn al - Djauzi p. 536.
يشير ابن الاثير الى أن طغتكين أقطعه أعمال الزيداني ، بإقليم دمشق .

بها ، ولم يظفر بها وليم جوردان . إذ حدث عند وفاة ريموند ان ارتضى بارونات تولوز حكم برتراند ، لأنه ظل يحكمهم فعلاً نحو عشر سنوات . ولم يعلموا بأن ريموند أنجب لهم ابناً شرعياً . غير انهم لما علموا بوجود الصبي ألفونسو جوردان ، أرسلوا الى الشرق يطلبون اليه القدوم ليتولى أمر ارثه الشرعي . والواقع أنه لا يجوز توجيه اللوم للكونتيسة الفيرا ، لأنها آثرت لابنها الأملاك الخصيبة بجنوب فرنسا على إمارته القلقة في الشرق . فوصلت الفيرا مع ابنها الى تولوز أثناء سنة ١١٠٨ [١] .

على ان قدومها أجبر برتراند على التفكير في مستقبله . والراجح ان الاسرة عقدت اتفاقاً ، تنازل برتراند بمقتضاه عن كل دعوى له في أملاك أبيه في اوربا ، مقابل تخلي ألفونسو جوردان عن كل ما له من إرث في لبنان ، وذلك حتى يتخلص منه في تولوز . فارتحل برتراند الى الشرق في صيف سنة ١١٠٨ ، وعزم برتراند على ان يستكمل إنشاء إمارته المقبلة بالاستيلاء على طرابلس . والراجح انه توقع ان يتعرض لمشاكل مع وليم جوردان . ولتحقيق أغراضه ، صحب جيشاً مؤلفاً من اربعة آلاف فارس وراجل ، واسطولاً مؤلفاً من اربعين سفينة ، أمدته به مواني بروفانس ، ورحل معه ابنه الصغير بونز . وأول ما زار برتراند من البلاد ، كانت جنوه ، التي كان يأمل في ان يحصل منها على ما يلزم لإخضاع طرابلس من مساعدة بحرية . وحاول وليم جوردان ايضاً ان يعقد محالفة مع الجنويين ، غير ان سفارته أدركت ان برتراند صار فعلاً حليفاً للجمهورية

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٠٠ .

(جنوه) ، فوعدت جنوه بأن تبذل المساعدة لبرتراند ليتسلم فتوح والده في الشرق ، وان يتوّج هـذه الفتوح بالاستيلاء على طرابلس ، التي سوف تحظى فيها جنوه بالمركز التجاري الممتاز . ولمـا مضى برتراند في رحيله صوب الشرق في الخريف ، أقلع معه اسطول جنوي [1] .

أما الامر الثاني فهو ان برتراند تجهز لزيارة القسطنطينية ، كيما يضمن تأييد الامبراطور ، صديق والده ، ومساندته له . على أن العواصف أرغمت اسطوله على ان يلجأ الى خليج فولو ، حيث رسا في ميناء ألميرو ، وقد ترك رجاله تأثيراً رائعاً بامتناعهم عما درج عليه الغربيون من نهب القرى . ولذا حيـنما وصل برتراند الى القسطنطينية ، أظهر الكسيوس الانحياز له والميل الى مساعدته ، واستقبله على انه من أبنائه . وتلقى برتراند هدايا ثمينة كثيرة ، وظفر من الامبراطور بوعد بما سوف يخصه به مستقبلاً من مساعدات ، ثم أقسم مقابل ذلك يمين التبعية للامبراطور [2] .

وأقلع برتراند وحلفـاؤه (الجنويون) من القسطنطينية الى السويدية ميناء انطاكية ، وأنفذ رسولاً الى تانكرد يطلب اليه اللقـــاء به . فبادر

---

(١) انظر : Albert of Aix, XI. 3. p. 664.
Caffaro : Liberatio, p. 72.
يشير ألبرت الى ان برتراند قام بزيارة بيزا على حين انه قصد زيارة جنوه .

(٢) Anna Comnena, XIV. II. 6. vol. III. p. 149.
تشير أنه كومنين الى ان برتراند لم يقسم يمين التبعية الا بعـــد ان صار فعلاً في طرابلس . أما Albert of Aix, loc. cit. فانه يروي أن برتراند توجه الى القسطنطينية عن طريق Halmyrus .

تانكرد بالقدوم للاجتماع به ، غير ان ما دار بينهما من الحديث لم يكن هيّناً سهلاً ، اذ ان برتراند طلب في غطرسة وكبرياء ، من تانكرد ، ان يسلمه ما كان بحوزة والده من أجزاء من انطاكية . وأجاب تانكرد بأنه سوف يفكر في هـذا الطلب ، اذا نهض برتراند لمساعدته في الحملة التي أوشك على توجيهها للاستيلاء على المصيصة والمدن البيزنطية في قليقيـة . والواضح ان هـذا الاقتراح لم يلقَ القبول من برتراند الذي سبق ان أقسم يمين التبعيـة للامبراطور الكسيوس ، والذي عوّل على المساعدات البيزنطية . غير انه عرض على تانكرد ان يستولي له على جبـلة التي لجأ اليها فخر الملك بن عمار ؛ غير ان تانكرد حرص على ان يتعـاون معه برتراند في الحملة الموجهة الى قليقية . ولما أصرّ برتراند على الرفض نظراً لما التزم به من يمين التبعية للامبراطور ، أمره تانكرد بمغادرة إمارته ، ومنع رعاياه من ان يبيعوا له المؤن والأقوات . وكان لزاماً على برتراند ان يتحرك جنوباً ، فأبحر الى ميناء انطرطوس[1] .

برتراند ووليم جوردان ، سنة ١١٠٩ :

كانت انطرطوس في حوزة أحد نواب وليم جوردان ، فبادر بالسماح لبرتراند بالدخول الى المدينة ، وأعطاه كل مـا احتاجه من المؤن . وفي اليوم التالي بعث برتراند برسول الى مقر وليم جوردان بجبل الحاج ، يطلب إرث والده في بلاد كاميلا ، اي إمارة حمص ، التي كان ريموند يأمل في إقامتها . على ان وليم جوردان أحرز منذ زمن قريب ، انتصاراً باهراً ، ذلك انه

(١) Albert of Aix, XI. 5 - 7. pp. 665 - 667.

حينما تولى المصريون أمر طرابلس ، كانت عرقة التي حكمها احد غلمان فخر الملك ، تطلب الحماية من طغتكين أمير دمشق . فتوجه طغتكين بنفسه ليتفقد هذا البلد الجديد الذي صار من توابعه ، غير ان أمطار الشتاء عطّلت سيره في وادي البقيعة . على ان طغتكين قام ، أثناء انتظاره تحسُّن الجو ، بمهاجمة ما سبق ان شيّده المسيحيون من حصون بالقرب من الحدود . وزحف وليم جوردان بجيش مؤلف من ثلاثمائة فارس ومائتي راجل من الوطنيين ، على كتف جبل لبنان ، فانقضّوا بغتة على طغتكين ، بالقرب من حصن الأكمة . ولم يسَع جيش دمشق بقيادة طغتكين إلا ان يفرّ مذعوراً الى حمص ، يطارده الفرنج الذين لم يخاطروا بالمضي الى مهاجمة المدينة ، بل توجهوا عندئذ صوب الشمال وأغاروا على أراضي شيزر . ولما سمع الأخوان مرشد وسلطان من بني منقذ ، أمراء شيزر ، بأن جيش الفرنج قليل العدد ، خرجا مطمئنين الى انه سوف يقع في أمرهما في سهولة ويسر ؛ غير ان الفرنج بادروا الى ان يشتدوا في الهجوم ، حتى تداعت صفوف جيش شيزر ، ولاذ الجند بالفرار . وعندئذ عاد وليم جوردان الى عرقة التي أذعنت له بعد حصار لم يستمر إلا ثلاثة أسابيع [١] .

وإذ تشجّع وليم جوردان بهذه الانتصارات ، لم ينزع الى التنازل عن

---

(١) Usama ed. Hitti, p. 78.
Ibn Hamdun, p.456.
Ibn al - Athir, pp. 226 - 227.
عن La Chamelle ، انظر :
Dussaud, R. Topographie Historique de la Syrie Antique et Mediévale p. 104, n. 3.

شيء لبرتراند ، فأجاب بأن ما حازه من بلاد ريموند انما كان بحق الإرث ، فضلاً عن انه قام بالدفاع عنها ، وأضاف اليها أملاكاً جديدة . غير انه ارتاع لضخامة اسطول برتراند ، فأرسل الى تانكرد بأنطاكية يلتمس منه التدخل لصالحه ، ووعد مقابل ذلك بأن يصبح من أتباع تانكرد . هذه الحركة من قِبَل وليم جوردان أجبرت برتراند على ان يتخــذ إجراء مماثلاً ، إذ أنفذ رسولاً الى بيت المقدس ، يعرض أمره على الملك بلدوين ، الذي استنجد بــه ، باعتباره الحكم الاكبر بين الفرنج في الشرق ، والذي اعترف به تبعاً لذلك سيداً له [1] .

وإذ اقتضت مهارة بلدوين السياسية ضرورة اجتماع الفرنج في الشرق على العمل معاً ، وصوّر له طموحه انه زعيمهم ، بادر الى الاستجابة لرجاء برتراند . والمعروف ان بلدوين كان وقتذاك ساخطاً على تانكرد لما لقيه منه بلدوين ، كونت الرها ، وجوسلين كورتيناي من معاملة سيئة . وتحرك برتراند نحو الجنوب الى طرابلس ، حيث قام جيشه بعمل مزدوج ، بأن استمر على حصار المدينــة الاسلامية (طرابلس) ، وتولى محاصرة أنصار وليم جوردان على جبل الحاج . وفي تلك الأثناء غادر وليم جوردان جبل الحاج ، واحتلّ من جديد انطرطوس ، التي انتظر بها قدوم تانكرد . ولم يكد تانكرد يصل اليه ، حتى زارهما رسولا الملك (بلدوين) ، يوستاس جارنييه ، وباجان صاحب حيفا ، فأمراهما بالمثول في حضرة الملك خارج طرابلس ، لتسوية مشكلة إرث ريموند ، وإعــادة الرها وتل باشر الى

---

(١) Fulcher of Chartres, 11. X1. 1. pp. 526 - 530.
Albert of Aix, X1. 1 - 2. 8. pp. 663 - 4, 666.

سيدِيها الشرعيين . وأراد وليم جوردان ان يرفض دعوة الملك ، غير ان تانكرد أدرك ان التحدي ليس إجراء عملياً .

وفي يونيــه ١١٠٩ اجتمع خارج أسوار طرابلس كل أمراء الشرق الفرنجي . إذ حضر برتراند بجيشه ، وقدم الملك بلدوين من الجنوب بجيش مؤلف من خمسمائة فارس وعـــدد كبير من الرجالة . وجاء تانكرد في سبعمائة من خيرة الفرسان ، أما بلدوين كونت الرها وجوسلين فقدما في حرسيهما . وفي الجلسة المثيرة التي انعقدت بقلعة جبل الحاج ، تم الوفاق شكلاً بين تانكرد وبين بلدوين كونت الرها وجوسلين ؛ وجرى تقسيم ارث ريموند كونت تولوز . فتقرر ان يحتفظ وليم جوردان بانطرطوس ، وبما فتحه من البلاد ، مثل عرقة ، وأن يكون من نصيب برتراند جبيل ، وطرابلس عقب الاستيلاء عليها . وأقسم وليم جوردان يمين التبعية لتانكرد ، بينما أقسم برتراند هذه اليمين للملك بلدوين . وتم الاتفاق على أنـــه في حالة وفاة احد المطالبين بالارث ، تؤول بلاده الى المطالب الآخر [١] .

وإذ انعقد الصلح بين القادة ، نهض جيش الفرنج للاستيلاء على طرابلس . وكان الوالي المصري على طرابلس ، وهو شرف الدولة ، قد ألح في طلب المساعدة من السلطات المصرية ، فأعدت اسطولاً ضخماً تألف من حمالات لنقل الجند ، وسفن للمؤن . غير ان ما حدث بين القـــادة المصريين من المؤامرات والمنازعات ، أدى الى تأجيل إقلاع الاسطول من موانئ الدلتا . وبعد ان أمضى الوزير المتخاذل شهوراً في تسوية المنازعات ، اصدر الأوامر

---

(١) Fulcher of Chartres, II. XLI. 1. p. 531.
Albert of Aix, XI. 9 - 12. pp. 666 - 668.

برحيل الاسطول . على ان ما حدث من استمرار هبوب الرياح الشمالية منع الاسطول من مبارحة الموانى . فلما أقلعت السفن ، بعد ان تضاءل عددها ، كان الوقت قد فات[٢] .

إذعان طرابلس سنة ١١٠٩ :

وتخلت حامية طرابلس عن التفكير في المقاومة ، بعد أن قطع المساعدة عنها اسطولا جنوه وبروفانس ، وبعد أن دك أسوار المدينة من جهة البر ، كل ما توافر للفرنج من الآلات . فأرسل شرف الدولة الى الملك بلدوين يعرض شروط التسليم فطلب الأمان لكل من أراد ان يغادر المدينة من سكانها ، بما يحمل من متاع ، ومن أراد منهم البقاء ، يعتبر من رعايا الفرنج ، ويحتفظ بأملاكه ، على أن يؤدي ضريبة سنوية . وطلب لنفسه الإذن بالرحيل مع عساكره الى دمشق . ووافق بلدوين على هذه الشروط ، وفي ١٢ يوليه دخل المسيحيون طرابلس .

التزم بلدوين بالاتفاق ، فلم يتعرض للنهب والتخريب ما كان بيده من المناطق . أما الجنويون فإنهم شقوا طريقهم الى داخل المدينة بعد أن تبين لهم خلوها من وسائل الدفاع . فأخذوا ينهبون ويحرقون الدور ، ويقتلون كل من صادفهم من المسلمين . ولم تستطع السلطات كبح جماحهم إلا بعد زمن غير قصير . وفي غمرة هذه الفوضى ، أتى الحريق على كل مكتبة بني

---

(١) Ibn al -Qalanisi, p. 89.

Ibn al - Athir, p. 274.

عمار التي تعتبر اروع مكتبات العالم ، فحل الدمار بكل ما تحتوي عليه [١] .

ولما تم احتلال المدينة ، وعاد الأمن الى نصابه ، صار برتراند أميراً لطرابلس ، فاتخذ لقب كونت ، وأكد تبعيته لمملكة بيت المقدس . وتجاهل ما ارتبط به من التزامات نحو الكسيوس . وجرت مكافأة الجنويين ، بأن صار لهم حي في طرابلس ، وقلعة اشتهرت بقلعة الكندسطبل تقع على مسافة عشرة اميال جنوبي طرابلس ، فضلاً عن ثلثي مدينة جبيل . على أن الجنويين بذلوا جبيل الى امير البحر هيو امبرياكو ، فأضحت اقطاعاً توارثه سلالته [٢] .

ولم يطل انتظار برتراند للاستحواذ على كل ما تركه والده بالشرق من إرث . إذ أن وليم جوردان صرعه سهم ، قبل ان يغادر جيش الفرنج طرابلس . ولا زالت أحوال مصرعه سراً من الأسرار . إذ أنه فيما يبدو تهور في تدخله فيما نشب بين سائسين من شجار وصراع ، ولما حاول أن يفرق بينهما ، رماه شخص بسهم . ولا شك أن الريبة انصبت على برتراند ، غير

---

(١) Fulcher of Chartres, 11. XLI. 2 - 4. pp. 531 - 3.
Albert of Aix, XI. 13. p. 668.
Ibn al - Qalanisi, pp. 89 - 90.
Ibn al - Athir, loc. cit.
Abul - Mahasin, p. 489.
Ibn Hamdun, p. 455.
Sibt Ibn al - Djauzi, p. 536.

(٢) Caffaro : Liberatio, pp. 72 - 73.
Rey : « Les Seigneurs de Gibelet » in Revue de l'Orient Latin, vol. 111. pp. 399 - 403.

أنه لم يقم على ذلك دليل . وبادر برتراند الى الاستيلاء على كل أملاك وليم جوردان ، التي انتقلت بذلك الى تبعية الملك بلدوين ، بينما ساند تانكرد الحصان الخاسر [١] .

وبذا حقق برتراند بن ريموند ما كان يطمع فيه أبوه من إنشاء إمارة بالشرق . لم تبلغ هذه الإمارة ، طرابلس ، من الضخامة ما كان يتصوره ريموند . فأراضي كامليا (حمص) لم تدخل مطلقاً في نطاقها ، وبدلاً من اعترافها بسيادة امبراطور بيزنطة الذين يقيم بعيداً عنها ، اتخذت سيداً لها يقيم في بيت المقدس قريباً منها . على أن هذه الإمارة اشتهرت بثروتها ورخائها . وبفضل ما اشتهرت به من الثروة ، والموقع ، بأن ربطت بين الفرنج بشمال الشام ، والفرنج بفلسطين ، قامت بدور جوهري في تاريخ الحروب الصليبية .

---

(١) Fulcher of Chartres, loc. cit.
Albert of Aix, XI. 15. pp. 669 - 670.

الفصل الخامس

الملك بلدوين الاول

ما حدث من تدخل الملك بلدوين في طرابلس في سنة ١١٠٩ دل على انه أقوى أمراء الشرق الفرنجي . والواقع انه لم يبلغ مكانته إلا بفضل ما اشتهر به من الصبر ، والدأب على العمل ، والجرأة في التدبير . فحينما وصل الى بيت المقدس بعد وفاة جودفري ، برغم ما تعرّض له من مقاومة البطريرك دايمبرت ، وأمير انطاكية (بوهمند) متحدين ، لم يؤل اليه إلا خزانة خاوية وإمارة تبعثرت أملاكها ، تألفت وقتذاك من الحافة الجبلية بفلسطين ، وسهل ايزدرأيلون (مرج بني عامر) ، وبعض الحصون المتناثرة في أراضي معادية ، وجيش صغير مؤلف من فرسان متغطرسين متمردين على القانون ، فضلاً عن مرتزقة من الوطنيين لا يثق فيهم . وتعتبر الكنيسة الهيئة الوحيدة المنظمة في المملكة ، على انه كان بداخل الكنيسة حزبان : حزب دايمبرت ، وحزب أرنولف . اما حكومة جودفري المركزية فتولى أمرها رجال بلاطه ، الذين بلغوا من قلة العدد وعدم الصلاحية ، ما لا يؤهلهم لإدارة الاقليم ؛ على حين ان البارونات ، الذين كان موكولاً لهم القلاع الواقعة على الأطراف ، صاروا يحكمون أملاكهم كيفما شاءوا .

وأدرك بلدوين أن أشد ما تتعرض له دولته من خطر، ما يقع عليها من هجوم اسلامي قبـــل ان ينتظم أمرها. ولاعتقاده أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، خرج على رأس حملة لإثارة الرعب في نفوس المسلمين، وذلك قبـل ان تتم تسوية المشكلة العاجلة لعلاقاته بدايمبرت، وقبـل ان يتلقى التاج. وما قام به من أعمال في الرها، وما أحرزه من انتصار على نهر الكلب، جعل له من الصيت المروّع، ما دعاه الى الإفادة منه. ولم يكد يمضي اسبوع على وصوله الى بيت المقدس، حتى توجّه الى عسقلان، وقام بمظاهرة عسكرية أمام أسوارها؛ غير ان الحصن بلغ من المناعة ما أعجز جيشه الصغير على مهاجمته، ولذا تحرّك شرقاً الى حبرون، ومنهـا هبط الى النقب، الى زُغر، في الارض المالحة الواقعة في الطرف الجنوبي للبحر الميت، وأشعل الحرائق في كل مـــا كان يصادفه من القرى، ومضى في سيره مجتازاً صحراء ايدوم (الشراه)، الى جبل هارون، الذي يقع عليه المعبد القديم، معبد النبي هارون، بالقرب من البتراء. وعلى الرغم من انه لم يُقم مستعمرات بالإقليم، فان ما صادفه من نجاح أخاف العرب، فلم يجرؤا في السنوات القليلة المقبلة على ان ينفذوا الى بلاده[1].

وعاد بلدوين الى بيت المقدس قبل حلول عيد الميلاد بأيام قليلة، بعد ان توافر للبطريرك من الزمن ما يجعله يفكر في وضعه، فلم يسَعْه إلا

(١) Fulcher of Chartres, II. IV. 1 - 5. II. pp. 370 - 383.
اشترك فولشر في هذه الحملة.

Albert of Aix, VII. 28 - 42. pp. 533 - 6.
يشير البرت الى دير يوناني يقع على ما هو معروف الآن بجبل هارون، والى محلة الرهبان حول الضريح النبطي الضخم المعروف الآن باسم الدير.

ان يذعن لما لا بد منه . وفي يوم عيد الميلاد سنة ١١٠٠ ، قام دايمبرت بتتويج بلدوين ملكاً على بيت المقدس ، وفي مقابل ذلك تمّ إقراره في البطريركية [١] .

وفي أوائل ربيع سنة ١١٠١ سمع بلدوين بأن قبيلة عربية وفيرة الغنى ، تجتاز وادي نهر الاردن ، فبادر بالمسير على رأس سرية من الجيش ، واجتاز نهر الاردن ، وانقضّ ليلاً على مخيمها . ولم ينجُ من هؤلاء العرب إلا عدد قليل ، بينا لقي معظم الرجال مصرعهم في خيامهم ، ووقع في الأسر النساء والاطفال ، وامتلأت يدا بلدوين بمقادير كبيرة من الأموال والمنسوجات الثمينة . وكان من الأسرى زوجة احد زعماء القبيلة ، وكانت على وشك ان تضع مولودها ، فلما علم بلدوين بحالها ، أمر بإطلاق سراحها مع جاريتها ، وأطلق لهـا ناقتين وقدراً كبيراً من المؤن والشراب . فوضعت وليدها سليماً على جانب الطريق ، ولم يلبث زوجها أن عثر عليها . وإذ اشتد تأثره بشهامة بلدوين ، أسرع اللحاق به ليشكره وليعده بأنه سوف يردّ له هذا الفضل جزاء على رحمته وعطفه [٢] .

وزاد في شهرة بلدوين ما تردّد من أنباء عن هذه الغارة ، فقدم الى بيت المقدس في مارس سنة ١١٠١ ، السفارات من المدن الساحلية : أرسوف ، وقيسارية ، وعكا وصور ، تحمل اليه الهدايا القيّمة ؛ بينا أرسل دقاق امير دمشق ، يعرض على بلدوين خمسين ألف قطعة ذهبية فدية

---

(١) انظر ما سبق ، جـ ١ ، ص ٤٦٠ .

(٢) انظر : William of Tyre, X. 11, p. 415.

للأسرى الذين وقعوا في يدي بلدوين في معركة نهر الكلب . وبذلك انحلت أشد ما كان بلدوين يواجهه من مشكلة مالية [١] .

الاستيلاء على أرسوف وقيسارية سنة ١١٠١ :

على ان كلا من أرسوف وقيسارية لم تفد طويلا من الإتاوة التي تؤديها لبلدوين . ففي مارس سنة ١١٠١ شهد الناس اسطولاً جنوياً قبالة حيفا ، وفي ١٥ أبريل سنة ١١٠١ رسا هذا الاسطول في يافا . وكان من ركاب هـذا الاسطول ، الكاردينال موريس ، أسقف بورتو ، أرسله البابا باسكال مندوباً عنه . والمعروف أن بلدوين ظل حتى وقتذاك يعتمد في قوته البحرية على اسطول بيزا الصغير ، الذي صحب عدوه دايمبرت رئيس اساقفة بيزا الى الشرق . وأدرك بلدوين ان أكثر ما يلائمه هو عقد محالفة مع الجنويين ، الذين يعتبرون أكبر المنافسين للبيازنة . فهرع الى حيفا ليحييهم وليستقبل المندوب البابوي ، ثم صحبا قادتهم الى بيت المقدس ليمضوا بها عيد القيامة . وفي بيت المقدس جرى الاتفاق على ان يخدموه مدة فصل من السنة ، ويتقاضى الجنويون مقابل ذلك ثلث كل ما يجري الاستيلاء عليه من غنيمة ، من المتاجر والأموال ، وأن يكون لهم شارع في حي السوق بكل مدينة يتم فتحها . ولم يكد الاتفاق ينعقد ، حتى تحرك الحلفاء لمنازلة أرسوف ، فهاجمها بلدوين من جهة البر ، بينما هاجمها الجنويون من جهة البحر . ولم تلبث المقاومة بأرسوف ان تداعت . وعرضت سلطات المدينة التسليم بشرط ان يبذل الأمان لسكان المدينة ، فيخرجون بأمرائهم وأمتعتهم ،

---

(١) انظر : Albert of Aix, VII. 52. pp. 541 - 2.

الى البلاد الاسلامية . وقبل بلدوين ما عرضوه من شروط . وتولت قواته حراستهم الى عسقلان ثم شحن بلدوين المدينة (أرسوف) بالعساكر ، بعد أن أفرد للجنويين نصيبهم [١] .

وتوجه الحلفاء من ارسوف الى قيسارية ، حيث بدأ حصارها في ٢ مايو سنة ١١٠١ . على ان حاميتها رفضت التسليم ، لاعتمادها على ما كان للمدينة من اسوار اقامها البيزنطيون ، غير انها سقطت عنوة في ١٧ مايو . وجرى الاذن للجند المنتصرة ، بأن تنهب المدينة كيفما شاءت ، وصحب النهب من الأهوال ما ارتاع له قادة الجند أنفسهم ، فوقعت اعنف مذبحة بالمسجد الجامع ، الذي كان في وقت من الاوقات معبد هيرود اجريبا ، وقد لجأ اليه عدد كبير من سكان المدينة ، والتمسوا الرحمة ، غير أنهم لقوا مصرعهم ؛ رجالاً ونساء سواء ، حتى صار صحن الجامع بحيرة من الدماء . ولم يفلت من القتل من كل سكان المدينة إلا عـــدد قليل من الفتيات والأطفال ، وقاضي القضاة ، وقائد الحامية ، اللذان أبقى بلدوين على حياتهما ، ليحصل على فدية كبيرة . وكانت القسوة والشدة عن قصد وإصرار . وأراد بلدوين بذلك ان يظهر بأنه يحفظ عهد من يسالمه ، ولا يرحم من لا يسالمه [٢] .

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, II. VIII. 1 - 7. pp. 393 - 400.
Albert of Aix, VII. 54. pp. 452 - 3.

(٢) Fulcher of Chartres, IX. 1 - 9, pp. 400 - 4.
Albert of Aix, VII. 55 - 6. pp. 453 - 4.
William of Tyre, X. 16, p. 423.
يروي انه كان من نصيب الجنويين كأس اخضر اعتقدوا انه مصنوع من الزمرد الصلب ، ولا زال في خزانة كنيسة سان لورنزو بجنوه ، وصار يعتبر فيما بعد الكأس المقدسة . انظر :
Heyd : Histoire du Commerce du Levant, I. p. 137.

معركة الرملة الاولى سنة ١١٠١ :

ولم يكد بلدوين ينتهي من تقسيم الغنيمة وفقاً للاتفاق الذي أبرمه مع الجنويين ، ومن إقامة حامية بالمدينة ، حتى جاءته الأنباء بأن جيشاً مصرياً دخل الى فلسطين .

ذلك ان الوزير الفاطمي ، الأفضل ، حرص على ان ينتقم لمعركة عسقلان التي وقعت منذ سنتين ، فأعد حملة بقيادة مملوكه سعد الدولة الطواشي . وبلغت الحملة عسقلان في منتصف مايو ، ومضت في سيرها حتى وصلت الى الرملة ، وكانت فيما يبـــدو تأمل في التوغل حتى تصل الى بيت المقدس اثناء انصراف بلدوين الى مهاجمة قيسارية . على ان بلدوين عجّل بالمسير بقواته الى الرملة ، فلم يسع سعد الدولة إلا الإرتداد الى عسقلان ، ينتظر قدوم الأمداد . وبعد ان حصّن بلدوين الرملة ، أقام معسكره في يافا ، حتى يرقب حركات المصريين ، ويظل في الوقت ذاته على اتصال بالمواصلات البحرية . وظل بلدوين مقيماً في يافا طوال الصيف ، فلم يغادرها إلا فترة قصيرة في يوليو ، زار فيها بيت المقدس لأغراض ادارية . وفي نهاية اغسطس وقع في يده كتاب ، علم منه ان قوات جديدة قد جاءت الى المصريين ، وأنهم يستعدون للسير الى بيت المقدس .

وفي ٤ سبتمبر تحرك سعد الدولة بقواتـه في بطء حتى بلغ أطراف الرملة . على ان بلدوين عقد مجلساً حربياً ، بعـد يومين ، تقرر فيه القيام بالهجوم عند بزوغ الفجر ، دون ان ينتظر مهاجمته . لم يكن لديه من القوة سوى مائتي وستين فارس وتسعمائة راجل ، غير أنهم اشتهروا بجودة التسليح وحسن التدريب . على حين ان جيش المصريين الضخم المؤلف من أحد عشر الف فارس وواحد وعشرين الف راجل ، لم يتوافر لديـــه

السلاح ، ولم ينل شيئاً من التدريب . جعل بلدوين قواته خمسة أقسام ، تولى قيادة احدها فارس اسمه بيرفولد ، وقاد القسم الثاني جيلدمار كاربنيل سيد يافا ، وتولى قيادة القسم الثالث هيو سيد سانت اومر ، الذي خلف تانكرد في إمارة الجليل ، بينا قاد بلدوين القسمين الرابع والخامس . وإذ تأثر الفرنج بوجود الصليب المقدس ، وبما ألقاه أرنولف اسقف روز من موعظة مثيرة ، وبما اعلنه المندوب البابوي من الإبراء والتحلل ، زحفوا على الرملة ، ثم انقضوا عند شروق الشمس على المصريين قرب يبنة ، الواقعة الى الجنوب الغربي من المدينة .

قاد بيرفولد الهجوم ، غير ان عساكره حصدهم المصريون ، ولقي مصرعه . وهرع لنجدته جيلدمار كاربنيل ، فهلك مع كل رجاله . وتلى ذلك هجوم قوات الجليل غير أنه لم يكن لها أثر في الحشود المصرية . ولم يستطع هيو سيّد سانت اومر ان يُخلّص رجاله ، إلا بعد خسائر فادحة ، ففر بهم الى يافا ، فطاردتهم ميسرة المصريين . تراءى ان كل شيء قد ضاع . على ان الملك بلدوين ، بعد ان اعترف على الملأ بذنوبه امام الصليب المقدس ، وخطب في رجاله ، امتطى جواده العربي الأصيل المعروف باسم الغزال ، وانطلق على رأس فرسانه الى قلب جيش العدو . وأخذت المصريين المفاجأة بعد ان اطمأنوا الى نصرهم . فتحرك قلب جيش المصريين عن موضعه بعد قتال قصير ، وولى الأدبار ، وامتد الذعر الى ميمنتهم . وطاردهم بلدوين حتى اسوار عسقلان ، بعد ان منع رجاله من التوقف لنهب جثث القتلى او استباحة معسكر العدو . ثم جمع رجاله ، وتراجعوا ليقتسموا ما حصلوا عليه من الغنائم في ساحة المعركة [١] .

---

(١) Fulcher of Chartres, II. XI. 1 - XIII. 5, pp. 407 - 20.
Albert of Aix, VII. 66 - 70, pp. 550 - 3.

وفي تلك الأثنـاء وصل الى يافا هيو سيد سانت اومر ، وروى ان المعركة خسرها الفرنج . وكانت الملكة وبلاطها ينتظرون في يافا . ولما سمعوا بحلول الكارثة ، اعتقدوا ان الملك قـد مات ، فبادروا بإنفاذ رسول الى الرجل الذي اعتقدوا أنه وحده هو الذي يستطيع ان يساعدهم في الوقت الراهن ، وهو تانكرد بأنطاكية . وفي صبيحة اليوم التالي شاهدوا جيشاً قادماً نحوهم ، فظنوا أنه جيش المصريين ، غير ان فرحهم كان كبيراً حينما تبيّنوا رايات الفرنج ، وتعرفوا الى الملك ، فوجهوا رسولاً آخر الى انطاكية ، يحمل الأنباء بأن كل شيء على ما يرام ، أما تانكرد الذي أطربه الاستعداد للسير نحو الجنوب ، فإن ما سمعه من الرسول حمـلـه على ان يبقى في إمارته [١] .

معركة الرملة الثانية سنة ١١٠٢ :

وانجاب الخطر موقتـاً ، وحاق بالمصريين خسائر فادحة ، ولم يكن بوسعهم ان يعودوا للهجوم في ذلك الوقت . غير ان ما اشتهرت به مصر من موارد ضخمـة هيأت للأفضل ان يجهز جيشاً كبيراً يستطيع به استئناف القتال في السنة التالية . وفي نفس الوقت قدم لزيارة بلدوين مَن بقي على قيد الحياة من أمراء حملات الأناضول الصليبية سنة ١١٠١ ، وفي مقدمتهم وليم كونت أكيتانيا ، وستيفن كونت بلوا ، وستيفن كونت برجنديا ، والكندسطبل كنراد ، وبصحبتهم سائر البارونات من الأراضي المنخفضة ، وإيكارد أسقف اورا ، والاسقف منـاسيس ، وجاء معظمهم

---

(١) Fulcher of Chartres, II. XIV. 1 - 8, pp. 420 - 424.

بطريق البحر الى عكا ؛ وبلغوا الجهات المجاورة لبيروت في أوائل ربيع سنة ١١٠٢ . وكيما يكفل لهم بلدوين السلامة أثناء اجتياز بلاد العدو ، أرسل حرساً ، يستقبلهم بتلك الجهات ، ويرافقهم الى بيت المقدس . على ان هؤلاء القادة تهيأوا للعودة الى بلادهم بعد ان احتفلوا بعيد القيامة في الأماكن المقدسة . ففي نهاية ابريل استقل وليم أكيتانيا السفينة في سلام الى ميناء السويدية ، غير ان السفينة التي اتخذها ستيفن كونت بلوا ، وستيفن كونت برجنديا ، وكثيرون غيرهم ، قذفت بها الى الساحل العاصفة قبالة يافا . وترددت الأنباء بأن جيشاً اسلامياً آخر يسير من مصر ، وذلك قبل العثور على سفينة اخرى تقلّهم ، وحملهم الحظ العاثر على البقاء ليسهموا في القتال المقبل[1] .

ففي منتصف مايو سنة ١١٠٢ ، احتشد في عسقلان ، جيش مصري ، مؤلف من حوالي عشرين ألف من العرب والسودانيين ، بقيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل ، وتحرك الى الرملة . وأتمّ بلدوين استعداداته الحربية ، إذ ان جيشاً مؤلفاً من بضعة آلاف من المسيحيين كان ينتظر في يافا ، وتأهبت حاميات الجليل لأن تبعث ما يُطلب منها من قوات ، غير ان كشافة بلدوين ضلّلته . ونظراً لاعتقاده بأن المصريين ليسوا إلا فئة قليلة من المغيرين ، عزم على ان يتولى بنفسه القضاء عليهم ، دون ان يلجأ الى استدعاء القوات الاحتياطية . فكان معه في بيت المقدس أصدقاؤه من الغرب ، أمثال ستيفن كونت بلوا ، وستيفن كونت برجنديا ، والكندسطبل كنراد ، وهيو كونت لوزيجنان ، وجماعة من الفرسان البلجيكيين . فاقترح

(١) Fulcher of Chartres, II. XV. 1 - 6, pp. 424 - 8.

عليهم بلدوين ان يشتركوا مع خيالته في إنجاز هـذه المهمة . على ان ستيفن بلوا تجاسر بالإشارة الى ان هـذا إجراء طائش ، ويحسن ازدياد التعرف الى الموضوع . غير انه لم يلقَ أذناً صاغية ، لما تذكروه من جبنه في انطاكيـة ، فلم يسعه إلا ان ينضم الى رفاقه ، دون ان يبث مرة اخرى شكواه .

وفي ١٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج من بيت المقدس ، الملك بلدوين في نحو خمسمائة فارس ، وغمرهم الفرح بركوبهم فلم يحفلوا بالنظام ، فلما بلغوا السهل ورأوا امامهم فجأة الجيش المصري الضخم ، ادرك بلدوين ما وقع فيه من الخطأ ؛ غير أن الرجوع صار متعذراً . إذ شهدهم الجيش المصري فعلاً ، وتوجه الخيالة المصريون الخفاف ، لقطع طريق ارتدادهم ، فلم يسعهم إلا المبادرة بشن الهجوم على العدو . واذ اعتقد المصريون بأن هذا الهجوم لم يقم بـه إلا مقدمة جيش ضخم ، تخلوا عن مواقعهم حتى لا يتعرضوا للصدام . غير أنه لما تبين لهم أنه لم تلحق قوة اخرى بالفرنج ، احتشدوا وأطبقوا على الفرنج ؛ فانهارت صفوف جيش بلدوين . على أنـه لم يصل آمناً الى يافا إلا قلة من الفرسان بقيادة روجر روزوي ، وهيو لى بور ابن عم الملك بلدوين ، بعد أن شقوا لهم طريقاً في صفوف الجيش المصري . ولقي مصرعه على ساحة المعركة عدد كبير من الفرسان ، أمثال جيرار افيسنز ، وستابلون الذي كان حاجباً للملك جودفري ، أما الملك بلدوين وكبار رفاقـه فاتخذوا طريقهم الى حصن الرملة الصغير ، حيث حاصرهم الجيش المصري .

ولم ينقذهم من الهجوم المباشر سوى حلول الظلام ، غير ان أسباب الدفاع عن الرملة كانت بالغة السوء والراجح أنه لن يستطيع الصمود في

الرملة سوى برج واحد شيده في السنة الماضية الملك بلدوين ، فاحتشد به بلدوين ورفاقه . وفي منتصف الليل قدم الى باب الحصن أحد الاعراب وطلب ان يقابل الملك . فجرى السماح له بالدخول ، فكشف عن شخصيته بأنه زوج السيدة التي اظهر لها بلدوين المروءة أثناء غارته على بلاد ما وراء نهر الاردن . فأعرب عن امتنانه للملك ، بأن أنذره بأن المصريين سوف يبدأون الهجوم عند بزوغ الفجر ، فينبغي ان يبادر بالهروب . واستجاب الملك لنصيحته . وبرغم ما قد يبديه بلدوين من الاسف الكبير لفراق رفاقه ، ومع أنه لم يكن شديد الإدراك لأهمية الشرف ، فإنه رأى ان بقاء المملكة يتوقف على بقائه والمحافظة على نفسه . فتسلل مع سائسه وثلاثة من أتباعه ، واجتازوا بخيولهم خطوط العدو ، واطمأن الى ان جواده الغزال سوف يحمله الى بر النجاة . وفي أثناء تلك الليلة هرب ايضاً كل من ليثار كمبراي ، فيكونت يافا ، وجوثمان كونت بروكسل مستقلين . وبرغم ما تعرض له جوثمان من جراح بالغة ، استطاع ان يصل الى بيت المقدس ، حيث أفضى بتفاصيل الكارثة ، غير أنه نصح بالمقاومة ، لاعتقاده أن بلدوين لا زال على قيد الحياة .

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ، هاجم المصريون أسوار الرملة ، وكدسوا أكواماً من الأخشاب حول البرج الذي لجأ اليه الفرسان ليشعلوا بها النيران . وكيلا يلقي الفرسان الفرنج هلاكهم في اللهب ، حملوا على العدو ، وتولى قيادتهم الكندسطبل كنراد . غير أنه لا سبيل الى الهروب ، فمن لم يلق منهم مصرعه لم يسلم من الأسر . وأظهر كنراد من البسالة ما جعل المصريين يبقون على حياته ، فتقرر حمله الى الأمر في مصر مع ما يزيد على مائة من رفاقه ، بينما لقي مصرعه في المعركة من القادة ، ستيفن كونت

برجنديا ، وهيو لوزجنان ، وجفري فندوم ، وهلك معهم ستيفن كونت بلوا ، وبذا افتدى صيته ما حلّ به من منية مجيدة . فباتت الكونتيسة أديلا قريرة العين (١) .

وإذ حلّ بيافا مرة اخرى ، الملكة والبلاط ، روى لهم روجر روزوي ومن هرب معه الى يافا من الرفاق ، ما وقع من هزيمة ماحقة ، وإذ خشوا أن الملك وفرسانه سقطوا في المعركة ، دبروا أمرهم على ان يغتنموا الفرصة ويهربوا بطريق البحر . غير أنه حدث في ٢٠ مايو ، أن أحدق الجيش المصري بأسوار المدينـــة ، وظهر الأسطول المصري عند الأفق الجنوبي . على أن أسوأ ما كانوا يخشونه بـــدا كأنه تحقق حينما لوّح جندي مصري أمام انظارهم ما كانوا يعتقدون أنه رأس الملك ، ولم تكن

(١) Fulcher of Chartres , II. XVIII. 1 - XIX - 5 , p. 436 - 444.
Ekkehard of Aura : pp. 33 - 5.
Albert of Aix, IX. 2 - 6, pp. 591 - 4.
Bartolf of Nangis, pp. 533 - 5.
William of Tyre, X. 20 - 1, pp. 429 - 432.
وهو الذي روى قصة الشيخ البدري .
Ibn al - Athir, pp. 213 - 216.
(وروايته مضطربة لاستنادها الى روايتين مختلفتين) .
يميل رنسيمان الى الأخذ برأي هيجنمير في تحديد التاريخ .Hagenmeyer, pp. 162 - 166 ,
ويجعله Chronicon S. Maxentii في ١٧ مايو ، بينما جعله ألبرت في عيـــد العنصرة ،
(أي حوالي ٢٥ مايو) .
لم يورد Guibert of Nogent, p. 245 تاريخا محدداً لوفاة ستيفن بلوا ، والراجح انها حدثت في ١٩ مايو ، وفقاً لما ورد في :
Cartulaire de Notre Dame de Chartres, III. p. 115.

في الواقع إلا رأس جيربود وينثنك الذي كان شديد الشبه بالملك . وفي تلك الآونة ، وكأن معجزة قد جرت ، حدث ان سفينة صغيرة تراءت هابطة من الشمال تحمل لواء الملك بأعلى صاريها .

ذلك ان الملك بلدوين اتخذ طريقه ، بعــد هروبه من الرملة ، الى الشاطىء محاولاً ان يلحق بالجيش في يافا ، غير أن القوات المصرية كانت تجوب القرى لمطاردة الفارين . وظل الملك بلدوين ليلتين بيومين يطوف بسفوح التلال الواقعـــة شمالي الرملة ، ثم بادر باجتياز سهل شارون الى أرسوف ، التي بلغهـــا في مساء ١٩ مايو سنة ١١٠٢ ، فاشتد فرح حاكم حيفا ، روجر ، للقائه . وفي ذلك المساء ، لحق بالملك في أرسوف ، ثمانون من خيرة فرسان الجليل بقيادة هيو سانت اومر ، الذي سبق ان هرع الى الجنوب حينما ترامت اليه أنباء زحف المصريين . وفي صباح اليوم التالي توجه هيو برجاله جنوباً ، وحاول أن يشق طريقه الى يافا ، على حين أن الملك بلدوين طلب الى جودريك ، وهو مغامر انجليزي ، أن يحمله على سفينته ، ليخترق الحصار البحري الذي فرضه المصريون . ورفع بلدوين لواءه تحيــة لرجال بلاطه ، وحينما لحظ المصريون ذلك ، بادروا بإرسال سفنهم لتعترض طريقه . على أن الرياح التي كانت تهبّ من الشمال ، كانت من القوة ، ما أعجز المصريين عن التغلب عليها ، على حين أنها دفعت ببلدوين سالماً الى الميناء (يافا) .

بلدوين في يافا سنة ١١٠٢ :

وبادر بلدوين بإعادة تنظيم قواته ، واستطاع أن يشق طريقه قبل أن يضيّق المصريون الخناق على المديـــنة ، فالتقى بجموع هيو ، وصحبهم الى

داخل أسوار المدينة . وتلا ذلك أنه بعث الى بيت المقدس يستدعي كل من يصح الاستغناء عنه من رجال بيت المقدس وحبرون . وتيسر العثور على راهب بيافا ، أبدى استعداده لأن يحمل رسالة الملك ، ويخترق خطوط العدو . فغادر يافا في جنح الظلام ، غير أنه لم يصل الى بيت المقدس إلا بعد ثلاثة أيام . ولما أكد للناس نجاة الملك ، ازداد حبورهم وسرورهم ، فاحتشد نحو تسعين فارساً او ما يزيد على هذا العدد من الأجناد ، وقد تحصنوا بقطعة من الصليب المقدس . وأسرعت هذه الجماعة الى يافا ، واستطاع الفرسان ان يشقوا طريقهم الى المدينة بفضل جودة دوابهم وسلاحهم بينما ساق الأجناد الى البحر ، فتخلوا عن خيولهم وسبحوا الى الميناء . وفي تلك الأثناء ، كتب بلدوين الى تانكرد ، والى بلدوين كونت الرها ، يخطرهما بما لحق به من خسائر فادحة ، ويطلب منهما إنفاذ الأمداد .

وجاءته مساعدة لم يكن ينتظرها ، وذلك قبل أن ينهض الأميران تانكرد وبلدوين لمساندته . ذلك ان اسطولاً مؤلفاً من مائتي سفينة ، معظمها من السفن الانجليزية ، زخر بالعساكر والحجاج من انجلترا وفرنسا والمانيا ، وصل في الأيام الأخيرة من مايو الى يافا بعد ان ساعدته الرياح على اختراق الحصار المصري ، فأمدوا الملك بما احتاج اليه من عساكر إضافية . وفي ٢٧ مايو قاد الملك جيشه لقتال العدو ، على ان تفاصيل المعركة ليست معروفة . ويبدو أن المصريين فشلوا في محاولتهم إيقاع الملك في كمين ثم تطويقه ، وتبع ذلك أن خيالة الفرنج الثقيلة أوقعت الاضطراب في صفوف المصريين وحملتهم على الفرار ذعراً . ولم تمض إلا ساعات قليلة حتى فر ، على غير هدى ، الجيش المصري الى عسقلان . فوقع في أيدي المسيحيين المعسكر

المصري بكل ما يحويه من غنائم[1] .

والواقع ان بلدوين ومملكته أنقذهما سلسلة من الحوادث ، التي شهد فيها المسيحيون مساعدة الله ، ولم يكن ذلك أمراً غير طبيعي . فلم تكن خطة المصريين الحربية القاصرة أقل هذه الاحداث شأناً . اذ كان بوسع سرية من العساكر ان تستولي على بيت المقدس عقب معركة الرملة ، دون ان يتعرض حصار يافا لضعف ظاهر . غير ان الوزير الافضل أخذ يفقد سلطانه ، كما ان ابنه شرف المعالى كان ضعيفاً لم يحظ بطاعة الجند ، وما حدث من التنافس بين سائر قادته ، أدى الى شلّ حركاته . ففي الصيف التالي أرسل أبوه حملة أخرى براً وبحراً ، وبينما أقلع الأسطول بحراً الى يافا ، رفضت القوات البرية ان تتجاوز عسقلان في تقدمها ، نظراً لما يكنه قائدها تاج العجم من الحقد لقائد الاسطول ، القاضي ابن قادوس وتقرر حبس تاج العجم لتمرده ، غير أن الضرر قد وقع ، إذ ضاعت خير فرصة لاستعادة فلسطين[2] .

ولما سمع تانكرد وبلدوين لى بور بأحوال بيت المقدس ، أعدا من التدابير ما يجعلها يستأنفان المسير نحو الجنوب ، بكل ما يتهيأ لهما من سرعة . وانحاز اليهما وليم اكيتانيا الذي كان بانطاكيا حينما وصلت رسالة الملك

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, II, XX. 1 - XXI. 18, pp. 444 - 455.
Ekkehard of Aura, loc. cit.
Albert of Aix, IX. 7 - 12, pp. 595 - 597.
Ibn al - Athir, loc. cit.

(٢) انظر : Ibn al - Athir, loc. cit
Albert of Aix, IX. 15, p. 599.

بلدوين . وارتحلوا سوياً ، وقد اتخذوا طريق وادي الأورنت ، فاجتازوا حمص ، ثم هبطوا الى أعالي نهر الاردن ، وكان معهم من القوة ، ما تمنع السلطات الاسلامية المحلية من محاولة اعتراض طريقهم ، فوصلوا الى يهودا حوالي نهاية سبتمبر . على ان بلدوين لم يعد وقتذاك في حاجة ماسة الى مساعدتهم . غير ان حضورهم شجعه على مهاجمة الجيش المصري في عسقلان . ومع ان المناوشات كانت في صالح المسيحيين ، غير انهم لم يتجاسروا على مهاجمة الحصن [١] .

بلدوين ودايمبرت سنة ١١٠١ :

على ان التقاء الأمراء الفرنج لم يخل من اهمية عند بلدوين لأسباب أخرى . منها ان تانكرد لم يقدم على بذل المساعدة إلا بشروطه الخاصة ، والواقع انه هيأ لبلدوين ان يحلّ اصعب مشكلة واجهته في الداخل . ذلك ان البطريرك دايمبرت سبق ان توّج بلدوين ملكاً في يوم عيد الميلاد سنة ١١٠٠ ، غير انه لم يفعل ذلك عن طيب خاطر ، وأدرك بلدوين ذلك . فكان لزاماً على بلدوين ان يسيطر على الكنيسة ، نظراً لما اشتهرت به الكنيسة من تنظيم دقيق ، ولأن ارباب الورع والتقوى في الغرب يخصّون الكنيسة ، لا السلطات الدنيوية ، بالمنح والهبات . والمعروف ان ارتقاء دايمبرت للبطريركية كان موضع ريبة من الناحية القانونية ، وتقدمت الى روما عنه شكاوى . فأرسل البابا باسكال ، آخر

---

(١) انظر : Ibn Moyessar, p. 464.
Ibn al - Athir, p. 213.
يشير ابن الاثير الى ان أمراء الشمال هم الذين أصروا على الارتداد .

الأمر ، مندوبـــاً من قبله ، وهو الـكاردينال موريس ، أسقف بورتو ليستطلع الموقف . ووصل في الوقت المناسب ، في يوم عيد القيـــامة ، سنة ١١٠١ ، فبادر بلدوين الى ان يتهم لديه دايمبرت بالخيانة ، بأن أطلعه على الرسالة التي كتبها دايمبرت الى بوهمند عند وفـاة جودفري ، وطلب فيهـــا الى بوهمند ان يعارض في أن يتولى بلدوين العرش ، وأن يستخدم القوة متى تطلب الأمر ذلـك . يضاف الى ذلك ان (بلدوين) صرح ايضاً ان دايمبرت حاول اغتياله اثنـــاء رحيله صوب الجنوب ، وبرغم مـــا يبدو من الخداع في التهمة الاخيرة ، لم تكن الرسالة موضع جدل ونقـــاش ، فقرر موريس أن يمتنع دايمبرت عن الاشتراك في طقوس عيد القيامة ، التي كان ينفرد بممارستها . وإذ خشى دايمبرت على مستقبله ، سعى الى بلدوين وجثا امامه على ركبتيه ، وتوسل اليه بالعفو عنه . على أنه بلغ من قسوة بلدوين وصلابته ما حمل دايمبرت ان يهمس بأن توافر عنده ثلثمائة بيزنته . والمعروف ان بلدوين كان دائماً في حاجة ماسة الى المـــال الجاهز ، فقبل خفية الهدية ، ثم توجه الى المندوب البابوي ، وفي قوة وشهامة أعلن أنه سوف يعفو عن دايمبرت . ولما اشتهر بـــه موريس من الميل الى السلام ، سرّه أن يتحقق هذا الوفاق [1] .

---

(١) Albert of Aix, VII. 46 - 51, pp. 538 - 541.

أورد ألبرت رواية ليست في صالح دايمبرت .

William of Tyre, IX. 26 - 27, pp. 438 - 440.

ولما اشتهر به وليم الصوري دائماً من الدفاع عن مصالح الكنيسة واستقلالها ، أغفل ما قام به موريس من تحقيق .

Riant, Inventaire, pp. 218 - 219.

عزل دايمبرت من البطريركية سنة ١١٠٢ :

واحتاج بلدوين مرة اخرى ، بعـــد شهرين ، الى المال ، فطلب الى دايمبرت ، الذي بذل له مائتي مَرك ، وأشار بأن هـذا هو كل ما تحويه خزائن البطريركية من مال . غير أن جماعة من رجال الدين الذين ينتمون الى حزب أرنولف ، أخطروا بلدوين بأن دايمبرت يخفي مقادير كبيرة من المال . وحدث بعـد أيام قليلة ، أن أقام البطريرك دايمبرت مأدبة فاخرة تكريماً للمندوب البابوي ، الذي كان يلتمس منه دائمـاً التأييد . فانفجر بلدوين ثائراً ، وأنكر عليهما البذخ والترف في الوقت الذي كادت فيه جيوش العالم المسيحي تهلك جوعاً . على أن دايمبرت ردّ في حدة بأن للكنيسة ان تنفق أموالها كيفما شاءت ، وليس للملك سلطان عليها ، بينما حرص موريس على ان يهدىء روعهما ، ولكن بلدوين لم يركن الى السكون . فما تعلمه في مستهل حياته ليكون قسيساً ، يسّر له أن يقتبس في حديثه نصوصاً من القانون الكنسي ، وأظهر من البلاغة ما أثر في نفس موريس . فحث دايمبرت على أن يعد بتجهيز فصيلة من الفرسان . ومع ذلك لم يؤد دايمبرت الأموال برغم طلبات بلدوين المستمرة . وفي خريف سنة ١١٠١ ، قدم رسول من قِبل روجر أمير أبوليـــا بهدية مقدارها ألف بيزنتة للبطريرك ، على ان يجعل ثلث هذا المبلغ للقبر المقدس ، والثلث للمستشفى ، وللملك الثلث الاخير لينفقه في إعداد الجيش . غير أن حماقـة دايمبرت دفعته الى ان يحتفظ بالمال كلّه لنفسه . على ان شروط الهدية قد ذاعت ، فلما تقدم الملك بالشكوى ، لم يعـــد في وسع المندوب البابوي مساندة دايمبرت ، الذي تقرر عزله عن البطريركية . فمضى دايمبرت الى يافا ، حيث بقي بها فصل الشتاء ، ثم غادرها في مارس سنة ١١٠٢ الى انطاكية ،

فتلقاه صديقه القديم تانكرد بالترحاب ، وعهد اليه بكنيسة القديس جورج ، التي تعتبر من أوفر الكنائس ثروة . وفي تلك الأثناء أبقى بلدوين منصب البطريرك شاغراً ، متذرعاً بحجة أنه لا بد من إخطار البابوية في روما ، بينما اقتحم موظفوه خزائن البطريركية ، حيث اكتشفوا ان دايمبرت أخفى بها عشرين الف بيزنتة . وناب موريس عن البطريرك بصفة مؤقتة ، غير أن هذه الفضائح حطمت صحته ، ولم يلبث موريس ان مات في ربيع سنة ١١٠٢[١].

ولما قدم تانكرد الى الجنوب لنجدة بلدوين ، اشترط ان يعود دايمبرت الى البطريركية ، وكان دايمبرت بصحبته . وكان بلدوين بالغ الميل الى القبول ، على انه وصل وقتذاك الكاردينال روبرت اسقف باريس ، مندوباً بابوياً . وعندئذ أصر الملك على ضرورة انعقاد مجمع ديني برئاسة روبرت ، لتنظيم امور الكنيسة ، ولم يسع تانكرد ودايمبرت إلا الرضوخ والقبول . وقرّر المجمع ان يعود دايمبرت الى منصبه بصفة مؤقتة ، حتى يتم النظر في كل ما يجري من التحقيق معه . وعندئذ انحاز تانكرد بعساكره الى الملك ، للاشتراك في الحملة الموجهة لمهاجمة عسقلان . ولم يلبث المجمع الديني ان انعقد في كنيسة القيامة . ورأس المجمع المندوب البابوي ، يساعده اسقفا لاون وبياكنزا الزائران ، وحضره جميع الأساقفة ورؤساء الأساقفة بفلسطين ، فضلاً عن اسقف المصيصة ، من بلاد تانكرد . ووجّه التهم الى دايمبرت ، كبار رجال كنائس قيسارية وبيت لحم والرملة ، وقد استوحوا في ذلك ارنولف اسقف روس . اعلنوا ان دايمبرت في طريقه الى فلسطين على رأس البيازنة سنة ١٠٩٩ ، هاجم اخوانه المسيحيين في جزائر ايونيان ،

---

(١) Albert of Aix, VII. 48 - 64, pp. 545 - 549.

وحاول إثارة الحرب الاهلية بين الملك بلدوين والامير بوهمند ، واحتفظ لنفسه بما حصل عليه من المال لإنفاقه لمصلحة الحجاج والمستشفى وعساكر المسيح . وهذه التهم لا شك في صدقها ، فلم يسع الكاردينال مندوب البابا إلا ان يعلن بأن دايمبرت ليس جديراً بالكرمي البطريركي ، ولا بد من عزله . ولما لم يكن في وسع تانكرد الاعتراض على الاجراء الكنسي ، سلّم بالهزيمة ، وصحبه دايمبرت في عودته الى انطاكية ، حيث أقامه من جديد في كنيسة القديس جورج ، حتى تحين الفرصة ليعود الى روما . وإذ دلّ على انه شيخ فاسد نهم ، لم يأسف الناس في فلسطين على مغادرته البلاد . والواقع ان ما حدث من تعيينه مندوباً بابوياً كان من الأخطاء الكبيرة التي ارتكبها البابا اربان الثاني[١] .

اما ارنولف اسقف روز ، الذي تطوع لمساعدة بلدوين في هذه المسألة ، فكان شديد الحرص على ان يسعى لأن يحل مكان دايمبرت . غير انه حدث عكس ذلك ، فحينما طلب المندوب البابوي مرشحاً لمنصب البطريرك ، اقترح اساقفة فلسطين ترشيح قس متقدم في العمر ، من ثيروان ، اسمه ايفرمار . والمعروف ان ايفرمار قدم مع الحملة الصليبية الاولى الى الشرق واشتهر بالتقوى والبر . ومع انه من مواطني ارنولف ، فانه لم يشترك معه في مؤامراته ، بل انه ظفر بالاحترام من الجميع . وطرب المندوب البابوي لرسامة رجل دين لا تشوبه شائبة ، ولن يجرؤ على ان يشترك في الامور السياسية . وفي تلك الأثناء صار في وسع ارنولف ان يمضي في خططه دون ان يلقى معارضة .

---

(١) Albert of Aix, IX. 14. 16 - 17, pp. 598 - 600.
William of Tyre, loc. cit.

انتخاب ارنولف بطريركاً سنة ١١١٢ :

على ان اليأس لم يتطرق الى دايمبرت ، فحينما توجه مولاه ونصيره بوهمند الى ايطاليا سنة ١١٠٥ ، صحبه معه ، فقدما الى روما ، حيث رفع دايمبرت شكواه الى البابا . وكان البابا باسكال حذراً في اول الامر ، غير انه قرر بعد تمهل ان يساند دايمبرت ، بعد ان خضع فيما يبدو لضغط شديد من قبل بوهمند . وتقرر ان يطلب من بلدوين ان يبعث الى روما من يرد على التهم الموجهة من دايمبرت . غير ان الملك بلدوين لم يحفل بذلك ، والراجح انه أدرك انصياع البابا لبوهمند . وعندئذ أمر البابا باسكال بإلغاء القرار الصادر بعزل دايمبرت ، والذي قال عنه انه صدر نتيجة لتدخل السلطة الدنيوية . على ان حماقة البابا تداركتها لحسن الحظ يد الله ، فبينما كان دايمبرت يتجهز للخروج منتصراً ، ليتبوأ منصبه البطريركي ، خرّ صريع مرض شديد ، ومات في مسينا في ١٥ يونيو سنة ١١٠٧ [١] .

ولم تنته متاعب البطريركية عند هذا الحد . ازداد تبرم بلدوين بالبطريرك ايفرمار ، ولعله أدرك أن الكنيسة من الأهمية ما لا يجوز ان تبقى في يدي رجل تافه . كانت الحاجة ماسة الى ان يرأسها حليف كفء . وحينما علم ايفرمار ما تقرر من عودة دايمبرت الى منصبه ، غادر البلاد الى روما . فلما بلغ روما ، علم بوفاة غريمه ، وقد حمل ايفرمار شكاوى لمناهضة السلطة الدنيوية . على ان أرنولف هرع الى روما أيضاً حينما بلغت فلسطين أنباء وفاة دايمبرت ، كيما يمثل الملك بها . ومع ان البابا باسكال يميل الى ايفرمار ، فإن المسألة بلغت من التعقيد ما لم يدر بخلده . فعهد بالبطريركية الى

---

(١) William of Tyre, XI. 1, pp. 450 - 1.

جبلين سابران ، رئيس أساقفة أرل ، وهو من شيوخ رجـال الكنيسة ، وذوي الخبرة الكبيرة . وفي ربيع سنة ١١٠٨ ، وصل جبلين الى فلسطين التي سبقه اليهـا كل من ايفرمـار وأرنولف . أدرك ان ايفرمار ليس كفئاً لهذا المنصب ، وما من احـد يود ان يعود ايفرمار اليه . وعندئذ أعلن شغور المقر البطريركي ، وعقد مجمعاً لتعيين بطريرك جديد . وفي غمرة الفرح ، اقترح بلدوين ان يكون جبلين المرشح للبطريركية ، فقبل ، وجرى استرضاء ايفرمار بترشيحه لوظيفة رئيس أساقفة قيسارية ، التي تصادف لحسن الحظ شغورها .

وترددت الأحاديث بأن أرنولف حث الملك على انتخاب جبلين ، لكبر سنه ، فلا يلبث كرمي البطريركية ان يكون شاغراً مرة اخرى . والواقع ان جبلين لم يعش بعد ذلك إلا أربع سنوات اخرى . وعنـد وفاته تقرر اختيار أرنولف لكرمي البطريركية دون ان يلقى مقاومة [١] .

كان أرنولف في نظر بلدوين بطريركاً مثالياً . فعلى الرغم مما وقع فيما بعـد من مشكلة حول زواج الملك للمرة الثانية ، ومن كراهية كثير من أتباعه ومرؤوسيه له ، فإنه ظل محتفظاً بمكانته . ولا شك أنه كان فاسداً ، فحينما تزوجت ابنة اخته إيمّا من يوستاس جارنييه ، منحها ضيعة وفيرة الثروة في اريحا ، كانت أصلاً من أملاك كنيسة القيامة . ومع ذلك فإنه اشتهر بالنشاط والكفاية وباخلاصه للملك . اذ يرجع اليه الفضل في التخلي

---

(١) انظر : Albert of Aix, X. 589, pp. 650 - 9.
XII. 24, p. 704.
William of Tyre, loc. cit. XI. 4, pp. 456 - 9.

نهائياً عمـا كان يفكر فيه معظم الذين اشتركوا في الحملة الصليبية ، من خطة لم تتحقق ، وبمقتضاها ، تصير بيت المقدس مملكة ثيوقراطية ، يتولاها ملك لا يزيد سلطانه عن أنه وزير للدفاع . إذ كان يرى أنه لا بـد للكنيسة في فلسطين ان تشاركه آراءه ، حـتى فيما جرى من عزل رهبان كنيسة القيامة الذين عيّنهم جودفري كونت اللورين ، لأنه لم يثق في ولائهم . وحينما اتسعت رقعـة المملكة بمـا تمّ من الفتوح ، اشتد نضاله في سبيل الوفاق بين السلطتين الدنيوية والكنسية ، لمقاومة البـابا باسكال ، الذي حملته محاباته الفاجعة للأمراء النرمان في أنطاكية ، على ان يدافع عما كان لكنيسة انطاكية من حقوق تاريخية لا تمارسها من الناحية العملية . ومع ان أرنولف لم يكن رجلاً جديراً بالاحترام والتقدير ، فإنه كان خادماً مخلصاً بالغ القيمة لمملكة بيت المقدس . على ان مؤرخ مملكة بيت المقدس العظيم ، وليم الصوري لم يكن منصفاً حينما لطخ ذكراه وشوّه سمعته ، لأنه بذل جهداً كبيراً في تدعيم ما قامت به الحملة الصليبية الاولى من اعمال [1] .

ويرجع الفضل الى أرنولف والى سيده الملك بلدوين فيما قام من علاقات طيبة بين هيئة الكنيسة من اللاتين وبين المسيحيين الوطنيين . ففي أثناء ولايته الاولى للبطريركية سنة ١٠٩٩ ، استبعد من كنيسة القيامة سائر مذاهب المسيحية الشرقية وسلبها امتيازاتها . على ان دايمبرت كان أشد منه عداوة ، فلم تجر

(١) William of Tyre, XI. 15, p. 479.
أنكر وليم الصوري مـا اتخذه ارنولف من أساليب الانتهازية والوصولية . انظر مـا يلي .

سياسته فحسب على إبعـــاد المسيحيين الوطنيين من كنيسة القيامة ، بل امتدت الى طردهم من أديرتهم ومنشآتهم في بيت المقدس ، سواء كان هؤلاء المسيحيون من الارثوذكس ، كاليونانيين والكرج ، او من المنشقين كالأرمن واليعاقبـــة والنساطرة ، وأساء أرنولف ايضاً الى التقاليد المحلية بأن عهد الى النساء بالخدمة في الأماكن المقدسة . ونجم عن كل هـــذه الجرائم الكبيرة ان انطفأت مصابيح كنيسة القيامة عشية عيد القيامة ، سنة ١١٠١ ، ولم تهبط النار المقدسة من السماء لإشعالها من جديد إلا بعد ان قامت الفئات الدينية الخمسة المبعـدة بالدعاء معاً للعفو عن الفرنج . ووعى بلدوين هـــذا الدرس . فأصرّ على انه لا بد من رفع ما حاق بالسكان الوطنيين من مظالم ، فردّ الى اليونانيين مفاتيح كنيسة القيامة . وعندئذ حظي بلدوين فيما يبدو بتأييد المسيحيين في فلسطين . ومع ان كبار رجال الدين بكنيسة القيامة كانوا من الفرنج ، فإنه كان بها كهنة من اليونانيين . وقبل المسيحيون الوطنيون الأرثوذكس هذا الوضع ، لأن كبار رجال الدين الأرثوذكس غادروا البلاد في السنوات المضطربة السابقة على الحرب الصليبيـــة الاولى . ولم يحظ رجـــال الدين اللاتين بشيء من المحبة ، بينما مضت الأديرة الارثوذكسية المحلية في نشاطها دون توقف ، فالحجاج الارثوذكس الذين زاروا فلسطين زمن مملكة الفرنج لم يصادفوا ما يحملهم على الشكوى من السلطات الدنيوية ، سواء فيما يتعلق بأمورهم او بأمور اخوانهم الوطنيين ، كما ان الكنائس المنشقة رضيت فيما يبدو بهذا الوضع . كان الأمر بالـــغ الاختلاف عن وضع إمارات الفرنج في شمال سوريا ، حيث أظهر المسيحيون الوطنيون من الارثوذكس والمنشقين النفور من

الفرنج لأنهم ظلمة [1] .

حصار عكا سنة ١١٠٣ :

على ان ما حلّ بالمصريين من هزيمة في يافا سنة ١١٠٢ ، وما لحق الحملة المصرية التي سارت في ربيع سنة ١١٠٣ من الفشل ، كل ذلك لم يستنفد نهائياً جهود الوزير الأفضل . غير ان إعداد جيش جديد استغرق منه وقتاً طويلاً . وأفاد بلدوين من فترة الهدوء في توطيد مركزه بساحل فلسطين ، فعلى الرغم من انه حاز المدن الواقعة على الساحل بين يافا وحيفا ، فإن المغيرين المسلمين دأبوا على ارتياد الطرق التي تربط بينها ، ولا سيا تلك التي تقع على منحدرات جبال الكرمل ، بل ان الطريق الممتد من يافا الى بيت المقدس لم يكن آمناً ، ولحظ ذلك الحاج

---

(١) انظر ما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الاول . وورد وصف مسهب للقداس ، في مخطوطة من كتاب فولشر شارتر ، المطبوع في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية. على ان هيجنماير Hagenmeyer ، الذي نشر كتاب فولشر في طبعة مستقلة ، لحظ ان هذا الوصف لم يرد إلا في مخطوطة واحدة (ل) ، ورفضه رفضاً باتاً خيا عدا الالفاظ الاستهلالية .

Conturbati sunt omnes propter ignem quem die sabbati non habuimus ad Sepulchrum Domini (II. VIII. 2, p. 396) .

انظر الملاحظة رقم ٥ التي وردت في كتابه ص ٣٩٥ — ٣٩٦ ، حيث اثبت المناقشة بالتفصيل . وأفرد في ملحق خاص (ص ٨٣١ — ٨٣٧) رواية فولشر شارتر وما يطابقها من الروايات الواردة في Bartolf of Nangis, Guibert of Nogent . والمعروف ان فولشر شارتر كان القسيس الخاص للملك بلدوين ، ولذا لا بد انه شهد هذا القداس . اما رئيس الدير Abbot Daniel (ed. de Khitrowo) p. 75 - 83. ،فانه وصف ما جرى في سنة ١١٠٧ من قداس . والواضح من هذه الرواية ان اليونانيين كانوا موكلين بكنيسة القيامة ذاتها .

سايولف[١] . ودأب القراصنة على ان ينطلقوا من ميناءي صور وعكا الذين لا زالا في حوزة المصريين ، لاعتراض طريق التجار المسيحيين . وحدث في اواخر خريف سنة ١١٠٢ ان السفن التي كانت تقل الحجاج العائدين الى بلادهم ، والذين انقذوا بقدومهم بلدوين في يافا في مايو سنة ١١٠٢ ، قذفت بها العواصف الى الساحل في نقط مختلفة ، بعضها بالقرب من عسقلان ، وبعضها في مواضع بين صور وصيدا . وتعرض المسافرون اما للقتل ، او للبيع بأسواق الرقيق في مصر[٢] . وفي ربيع سنة ١١٠٣ قام بلدوين بفرض الحصار على عكا ، وساعده في ذلك ما كان تحت تصرفه من سفن انجليزية . وكادت الحامية تستسلم له ، لولا ان اقلع الى الميناء (عكا) من صور وصيدا اثنتا عشرة سفينة وحمالات فاطمية ضخمة ، تحمل رجالاً وآلات لقذف النيران الاغريقية . وكان لزاماً على بلدوين ان يرفع الحصار[٣] .

وفي اواخر الصيف حاول بلدوين ان يطهّر جبل الكرمل من اللصوص ، على انه لم يحرز إلا نجاحاً ضئيلاً ، إذ تعرضت كليته لجراح بالغة اثناء مناوشة ، وظلوا فترة من الزمن يائسين من شفائه ، وفي اثناء مرضه بالقدس ، ترامت الانباء عن الحملة المزدوجة التي قادها تاج العجم وابن قادوس . على ان ما حدث من رفض تاج العجم تجاوز عسقلان في

(١) Pilgrimage of Saewulf, P. P. T. S. vol. IV. pp. 8 - 9.

(٢) Albert of Aix, IX. 18, pp. 600 - 601

(٣) انظر : Albert of Aix, IX. 15, p. 599.
Ibn al - Athir, p. 213.
جعل ابن الاثير هذا الحادث في سنة ٤٩٥ بدلاً من ٤٩٦ ﻫ .

مسيره ، ارغم ابن قادوس على الاكتفاء بفرض الحصار على يافـا . ولم يكن صادق العزيمة في جهوده . ولم يكد بلدوين يتماثل للشفاء ، وأضحى من العافية مـا يؤهله لقيادة الجيش الى الساحل ، حتى غادر الاسطول المصري الساحل [1] .

وفي شهر مايو التالي اقلع الى حيفا اسطول جنوي ضخم مؤلف من سبعين سفينة ، وهو الذي سبق ان ساند ريموند كونت تولوز في انتزاع جبيل . والتقى بلدوين بقادة الاسطول في حيفا ، وظفر بمحالفتهم لإخضاع عكا ، بعد ان بذل لهم الأجر المألوف ، وهو ثلث الغنيمة وامتيازات تجارية ، وحي في السوق . وبدأ الحلفاء الحصار في ٦ مايو سنة ١١٠٣ . واشتدت مقـاومة المملوك زهر الدولة الجيوشي قائد القوات الفاطمية ، غير أنه لم يتلق مساعدة من مصر . ولم يسعه إلا ان يعرض التسليم بعد عشرين يوماً ، وفقاً لما سبق بذله في أرسوف من شروط . فمن يرغب من السكان في مغادرة المدينة ، بوسعهم ان يخرجوا آمنين بما معهم من الأمتعة . ومن لم يشأ الخروج من المدينة يصيرون من رعايا ملك الفرنج . وقبل بلدوين من جانبه هذه الشروط والتزم بها ، بل إنه أجاز لرعاياه المسلمين ان يحتفظوا بمسجدهم . غير ان البحارة الإيطاليين لم يطيقوا ان يروا هـذه الثروة الكبيرة تفلت من أيديهم ، فانقضوا على المهاجرين ، وذبحوا عدداً كبيراً منهم وسلبوهم كل ما معهم . فغضب بلدوين ، وأراد ان يهاجم

(١) انظر : Fulcher of Chartres, II. XXIV. 1, pp. 460 - 1. Albert of Aix, IX. pp. 103 - 104.

الجنويين لولا ان تدخل البطريرك ، الذي أجرى التوفيق بينهم [1] .

على ان تملك بلدوين لعكا ، كفل له ما كان في مسيس الحاجة اليه ، وهو ميناء صالح لرسو السفن في كل الفصول . فعلى الرغم من ان عكا تبعد عن العاصمة ما يزيد على مائة ميل ، فإنها أضحت الميناء الرئيسي بالمملكة ، فحلت بذلك مكان يافا بمرفئها المكشوف . يضاف الى ذلك انها غدت الميناء الاساسي الذي يجري منه شحن ما يرد من دمشق من السلع ، الى الغرب . ولم تتوقف الحركة التجارية في عكا بعد سقوطها في أيدي الفرنج ، فلا زالت تجد التشجيع من المسلمين المقيمين بها [2] .

معركة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥ :

وفي صيف سنة ١١٠٥ ، قام الوزير الافضل بآخر محاولة لاسترداد فلسطين . فاحتشد في عسقلان في مستهل اغسطس ، جيش كثيف مؤلف من خمسة آلاف من فرسان العرب ورجاله السودانيين ، بقيادة ابنه سناء الملك . وإذ أفاد المصريون من الدروس السابقة ، عزموا على ان يطلبوا التعاون من أمراء دمشق الترك . على ان المساعدة من دمشق قد تكون في عام ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، بالغة القيمة . غير ان دقاقاً امير دمشق ، مات

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, II. XXV. 1 - 3, pp. 462 - 464,
Albert of Aix, IX. 27 - 29, pp. 606 - 608.
Caffaro : Liberatio, pp. 71 - 72.
Charter of Baldwin in Liber Jurium, Republicae Genuensis, vol. I, pp. 16 - 17.

(٢) انظر ما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الاول . لا تزال التجارة مستمرة زمن ابن جبير (سنة ١١٨٣) .

سنة ١١٠٤ ، وتنازع أفراد اسرته الحكم مع أتابكه طغتكين ، بينا قدم رضوان من حلب يلتمس نصيبه . وأول شيء قام به طغتكين ، أن جعل في دست حكم دمشق تتش بن دقاق الذي لم يتجاوز عمره سنة واحدة ، ثم أحلّ مكانه أخ لدقاق اسمه ارتاش ، في الثانية عشرة من عمره . غير أن ارتاش لم يلبث ان ارتاب في نوايا أتابكه طغتكين ، فهرب الى حوران ، فأجاره ايتكين أمير بصرى . واستنجد ارتاش ، من بصرى ، بالملك بلدوين ، فدعاه الى القدوم الى بيت المقدس . وفي هـذه الأحوال أعرب طغتكين عن فرحه وسروره بأن يساعد المصريين . غير أنه ليس بوسعه ان ينفذ اليهم جيشاً كبيراً لينحاز اليهم . على أنه أنفذ قائده صباوو في الف وثلثمائة فارس من الرماة[1] . وفي اغسطس سنة ١١٠٥ تحرك الجيش المصري الى فلسطين ، حيث انحازت اليه عساكر دمشق ، بعد ان اجتازت اقليم شرق الاردن واخترقت النقب . أما بلدوين فكان ينتظر في يافا ، ولما أضحى الاسطول على مرمى البصر ، اتخذ موقعاً على ساحة المعركة التي لا مناص من وقوعها في الرملة . خضعت يافا للقائـد ليثار كمبراي وعساكره الذين بلغ عددهم ثلثمائة رجل . وكان مع بلدوين ارتاش المطالب بعرش سلطنة دمشق ، وسائر من تبقى من قوات الفرنج بفلسطين ، التي تألفت من حاميات الجليل وحيفا وحبرون ، فضلاً عن الجيش الرئيسي المؤلف من خمسمائة فارس وألفين من الرجالة . وبناء على طلب بلدوين قدم من بيت المقدس البطريرك ايفرمار ، بكل من استطاع تجنيده منها من العساكر ، وعددهم مائة وخمسون رجلاً ، وبالصليب المقدس .

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, p. 71.
Ibn al - Athir, p. 229.

نشبت المعركة في يوم الاحد ٢٧ اغسطس سنة ١١٠٥ ، وعند طلوع الفجر ، ركب البطريرك ، وأخذ يغدو ويروح امام صفوف الفرنج ، وقد ارتدى كامل ملابسه ، وحمل الصليب في يده ، وصار يبذل بركاته وتحلّله ، ثم شن الفرنج هجومهم . على ان أتراك دمشق قاموا بهجوم مضاد ، كاد يحطم كل صفوفهم ، غير ان بلدوين ، قاد هجوماً ، بعد ان جعل لواءه بين يديه ، فشتت شمل المهاجين . وعلى الرغم من أن المصريين أظهروا من البلاء في القتال ما فاق كل ما درجوا عليه ، فإن جناحهم الأيسر مضى في محاولة فاشلة لمباغتة حيفا ، ثم عادت عساكرهم بعد فوات الأوان . ولم يحل المساء حتى حلت الهزيمة بالمسلمين . وفرّ صباوو بأتراكه الى بلادهم ، وارتد المصريون الى عسقلان ، حيث هرع قائدهم ، سناء الملك ، الى العودة الى القاهرة [1] . وأصاب الجيش المصري خسائر فادحة ، ولقي حاكم عسقلان مصرعه ، ووقع في الأسر القائدان السابقان لعكا وأرسوف ، ولم يطلق سراحهما إلا بعد افتدائهما بمبالغ كبيرة من المال . وأسف فولشر شارتر لأن سناء الملك أفلت من الأسر ، لما كان يعلقه على أسره من طلب دفع فدية ثمينة . على أن خسائر الفرنج كانت باهظة ايضاً . فلم يستطع بلدوين أن يمضي في مطاردة المصريين بعد استباحة معسكرهم ، كما أنه لم يواصل مساندته للأمير الشاب ارتاش ، الذي انسحب الى الرحبة على نهر الفرات ، بعد ان خاب أمله في بلدوين . وأقلع الاسطول المصري راجعاً الى مصر ،

---

(١) انظر : Albert of Aix, X. 48 - 51, pp. 653 - 655.
Ibn al - Qalanisi, p. 87,

ولم يحقق شيئاً ، بل إنه فقد بعض السفن في عاصفة عاتية [1] .

وهذه المعركة الثالثة التي نشبت في الرملة ، أنهت المحاولة الضخمة التي قام بهـا الفاطميون لاستعادة فلسطين . غير أن الفاطميين لا زالوا مصدر خطر على الفرنج . فما حدث في خريف سنة ١١٠٦ من غارة صغيرة قاموا بهـا ، أوشكت ان تحقق من النجاح ما فشلت فيه جيوش تفوقها ضخامة وكثافة . اذ حدث في اكتوبر من تلك السنة ، أثناء انصراف بلدوين الى جهة الجليل ، ان قام بضعة ألوف من الفرسان المصريين بهجوم مفاجىء على معسكر للحجاج بين يافا وأرسوف ، وذبحوا النازلين بـه . ثم توجهوا الى الرملة التي لم يتول الدفاع عنها سوى ثمانية فرسان ، الذين سهل التغلب عليهم ، وتقدم حاكم يافا ، روجر روزوي لمواجهتهم ، غير أنه وقع في كمين لم يخلص نفسه منه إلا بالفرار راجعاً الى يافا . على أنـه بلغت مطاردته من الشدة والعنف ، ان اربعين من العساكر الرجالة وقعوا في أيدي الأعداء خارج ابواب يافا ، فقتلوهم عن آخرهم . ثم تلى ذلك ، ان مضى المصريون قاصدين بيت المقدس ، فهاجموا قلعة صغيرة ، اسمها Chastel Arnaud التي لم ينجز بلدوين تشييدها ، وكان الغرض من تشييدها حماية الطريق المؤدي الى بيت المقدس . واستسلم العمال ، غير أنهم لقوا مصرعهم ، فيما عدا قائدهم جفري قسطلان برج داود ، الذي حملوه معهم ، ليحصلوا على فدية كبيرة .

---

(١) انظر : Albert of Aix, IX. 48 - 50, pp. 621 - 624.
Fulcher of Chartres, *II. XXXI.* 1 - *XXXIII.* 3, pp. 489 - 503.
Ibn al - Athir, pp. 228 - 229.
Ibn Moyessar, p. 466.

ولم يكد بلدوين يسمع بأمر الغارة ، حتى سار بجيشه نحو الجنوب ، فانسحب المصريون الى عسقلان [1] .

وما قـــام به المصريون في السنة التالية من حملة كادت تستولي على حبرون ، ردّها بلدوين على أعقابها . وتوغل المصريون سنة ١١١٠ حتى بلغوا أسوار بيت المقدس ، ولم يلبثوا ان انسحبوا [2] . وجرت في السنوات العشر التالية ، غارات مماثلة من حين الى آخر ، ومع أنها تقل عن سابقتها في القدر والأهمية ، فإنها أزعجت حياة النزلاء والحجاج المسيحيين في السهل الساحلي والنقب ، غير أنها لم تكن سوى هجمات انتقامية رداً على ما قام به بلدوين من غارات على الاراضي الاسلامية .

حملات بلدوين على المدن الاسلامية الساحلية سنة ١١٠٦ – ١١٠٨ :

تهيأ لبلدوين عنـدئذ الحرية ليواصل محاولته لتوسيع حدود مملكته . وكانت أهدافه الأساسية هي المدن الواقعة على الساحل : عسقلان في الجنوب ، وصور وصيدا وبيروت في الشمال . والمعروف ان عسقلان وصور من الحصون المنيعة ، تنزل بهما دائماً حاميات عسكرية ، ويقتضي إخضاعهما اهتماماً قوياً بالإعداد الحربي . وما حـدث في خريف سنة ١١٠٦ من قدوم اسطول ضخم يحمـــل حجاجاً من الانجليز والفلمنكيين والدانمرقيين الى الاراضي المقدسة ، شجع بلدوين على ان يعد حملة لمهاجمة صيدا .

---

(١) Albert of Aix, X. 10 - 14, pp. 635 - 638.

(٢) Albert of Aix, X. 33, pp. 646 - 647.
XI. 28, p. 676.

ولما علم حاكم صيدا بما حدث ، بادر بإرسال مبلغ ضخم من المال الى الملك بلدوين ، واذ كان بلدوين دائماً مفتقراً الى المـال ، لم يسعه إلا قبول الهدية ، وبذلك بقيت صيدا مدة سنتين تنعم بالسلام [١] .

وخرج بلدوين في اغسطس سنة ١١٠٨ للمرة الثانيـة لمنازلة صيدا ، يسانده اسطول يسيّره ملاحون مغامرون من مدن ايطالية مختلفة . وبادر حاكم المدينة الى طلب مساندة التركمان بدمشق لقاء ثلاثين الف دينـار ، بينما أقلع من مصر اسطول أنزل الهزيمـة بالايطاليين في معركة بحرية وقعت خارج ميناء صيدا ، وكان لزاماً على بلدوين ان يرفع الحصار عن المدينة . وعنـدئذ رفض اهل صيدا السماح للتركمان بدخول المدينة ، لما توافر لهم من دواعي الارتياب في نوايا طغتكين عن المدينة . بل إن حاكم المدينة امتنع عن ان يؤدي الدنانير التي سبق أن وعد بها . فهدد الترك باستدعاء بلدوين ، ولما ظهرت الدلائل على عودة بلدوين الى بلاده ، تمّ الاتفاق على الانسحاب ، وعلى ان ينالوا عشرة آلاف دينار تعويضاً [٢] .

وفي الصيف التـالي سنة ١١٠٩ نهض بلدوين لمساندة برتراند تولوز في الاستيلاء على طرابلس ، وفي مقابل ذلـك أرسل برتراند في أوائل سنة ١١١٠ من قِبله رجالاً لمساعدة بلدوين في هجومه على بيروت ، وتهيأ من سفن البيازنة والجنوية ما يجعله يفرض الحصار على المدينة ، وكفلت لهم طرابلس قاعدة مناسبة . وفشلت السفن الفاطمية القادمة من صور وصيدا في محاولتها كسر الحصار البحري . واستمر الحصار من فبراير حتى منتصف مايو . ولما استبد اليأس

---

(١) Albert of Aix, X. 4 - 7, pp. 632 - 634.

(٢) Ibid, X. 48 - 51, pp. 635 - 655.
Ibn al - Qalanisi, p. 87.

بحاكم المدينة من قدوم مساعدة اخرى ، تسلل ليلاً من خلال الاسطول الايطالي وهرب الى قبرص ، حيث استسلم للحاكم البيزنطي . أما المدينـة التي تخلى عنها ، فسقطت عنوة في ١٣ مايو . وأجرى الايطاليون مذبحـة شاملة في السكان ، قبل ان يعيد بلدوين الأمن الى نصابه [١] .

الاستيلاء على صيدا سنة ١١١٠ :

وفي أثنــاء ذلك الصيف ، قدمت من الغرب الى بلدوين أمداد بحرية جديدة . اذ حدث سنة ١١٠٧ ان اسطولاً من برجن بالنرويج بقيـــادة سيجورد الذي اشترك مع أخويه في حكم النرويج ، اجتاز بحر الشمال ، ونفــذ من بوغاز جبل طارق ، وقد زار في طريقه انجلترا ، وقشتالة ، والبرتغال ، وجزائر البليار ، وصقلية ، ثم وصل الى عكا عند عودة بلدوين اليها بعد الاستيلاء على بيروت . كان سيجورد اول ملك متوج ، يقـــدم لزيارة مملكة بيت المقدس ، فاستقبله بلدوين بكل مظاهر التشريف ، وصحبه بنفسه الى بيت المقدس . ووافق سيجورد على ان يبذل المساعدة للفرنج لفرض الحصار على صيدا . وبدأ الحلفاء في إلقاء الحصار على المدينة في اكتوبر سنة ١١١٠ . والمعروف ان صيدا كانت مدينة منيعة ، فالسفن النرويجية كاد يبددها كلها اسطول فاطمي قوي صغير ، قدم من صور ، ولم ينقذها إلا

---

(١) Fulcher of Chartres, II. XLII. 1 - 3, p. 536.
وفي قصيدة فلكية ، جعل فولشر التاريخ في ١٣ مايو . اما ألبرت (ص ٦٧١) فاعتبره في ٢٧ مايو. ويتفق ابن القلانسي مع فولشر في التحديد الزمني لسقوط طرابلس (١٣ مايو). انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 99 - 101.

وصول اسطول للبنادقة يقوده الدوج اورديلافو فاليري . وفي تلك الأثناء أعدّ حاكم صيدا خطة لاغتيال بلدوين . ذلك ان مسلماً مرتداً ، يعمل في خدمة بلدوين الخاصة ، وافق على ان يقوم باغتيال بلدوين لقاء مبلغ كبير من المـــال ، غير ان المسيحيين الوطنيين في صيدا سمعوا بأمر المؤامرة ، فكتبوا رسالة يحذرون فيها الملك ، وأثبتوها في سهم رموا به الى معسكر الفرنج . واستسلمت صيدا فعلاً في ٤ ديسمبر ، بنفس الشروط التي سبق بذلها لعكا . اذ غادر المدينة أعيانها الى دمشق بكل ما يحملونه من أمتعة ، غير أن السكان الفقّراء بقوا بهـــا وأضحوا من رعايا ملك الفرنج ، الذي بادر باستخلاص جزية منهم بلغت عشرين ألف دينار . وكافأ البنادقة بأن جعل لهم بعكا كنيسة وأملاكاً . وأضحت صيدا بارونية تولاها يوستاس جارنييه الذي كان حاكماً وقتذاك على قيسارية ، والذي لم يلبث أن وطّد مركزه بزواجه النفعي من إيمّا ابنة اخت البطريرك أرنولف[1] .

---

(١) Fulcher of Chartres, II. XLIV. 1 - 7, pp. 543 - 548.
Albert of Aix, XI. 26. 30 - 34, pp. 675 - 677,
William of Tyre, *XI.* 14, pp. 476 - 479.

يشير ولم الصوري الى المسيحيين الوطنيين .

Sigurdar Saga in Agrip of Norege Konungasögum, passim.
Sigurdar Saga Jorsalafara ok Broedra Hans, pp. 75 ff.
Ibn al - Qalanisi, pp. 106 - 8.
Ibn al - Athir, p. 275.
Dandolo in Muratori, Ss. R. I, vol. *XII.* p. 264.
Tafel and Thomas 1, 86, 91, 145.
Riant, Les Scandinaves en Terre Sainte, Chap. IV, passim.

أضحى الفرنج يسيطرون على جميع الساحل الشامي ، فيما عدا حصني عسقلان في الطرف الجنوبي ، وصور في منتصف الساحل . واشتدت ثائرة حاكم صور ، فأرسل في خريف سنة ١١١١ الى طغتكين بدمشق ، يطلب منه إنفاذ كتيبة مؤلفة من خمسمائة من الرماة ، على ان يؤدي له عنها مبلغ عشرين الف دينار ، واستأذن منه في الوقت ذاته ان يرسل هو وأعيان صور الى دمشق ما بحوزتهم من الأمتعة الثمينة لحفظها . ووافق طغتكين على ما طلبه امير صور ، فقدم من الساحل قافلة تحمل الأموال والسلع الثمينة . وإذ كان لزاماً عليها ان تجتاز ما بحوزة الفرنج من البلاد ، بذل حاكم صور ، واسمه عز الملك ، الرشوة لأحد فرسان الفرنج ، واسمه راينفِرد ، كيما يرشد القافلة ويكفل لها الأمن والسلام . وقبل راينفرد الشروط ، ثم بادر بإخطار بلدوين الذي انقض على رجال صور الذين لم يتطرق اليهم الشك في الخيانة ، وسلبهم كل ثروتهم . وإذ تشجع بلدوين بهذه الثروة المفاجئة ، حشد كل جيشه في نهاية نوفمبر لمنازلة أسوار صور . غير أنه لم يكن لديه اسطول يقدم له المساعدة ، عدا اثنتي عشرة سفينة بيزنطية تخضع لسلطان السفير البيزنطي بوتوميتس . ولم يكن البيزنطيون مستعدين لأن يقوموا بعمل عدائي ضد الفاطميين ، الذين حسنت العلاقات معهم ، ما لم ينالوا تعويضاً مجزياً . فطلبوا من بلدوين مقابل ما يبذلونه له من مساعدة ، ان يساندهم في استعادة ما سبق ان استولى عليه امراء انطاكية من المدن . ولما تردد بلدوين في ان يلتزم بشيء ، لم يفعل البيزنطيون أكثر من إمداد جيش الفرنج بالمؤن . استمر حصار صور حتى شهر ابريل التالي . وأظهر اهل صور البلاء في القتال ، فأحرقوا ما أعده بلدوين للحصار من أبراج خشبية ضخمة . على ان اهل صور اضطروا على أقل تقدير ، الى التماس المساعدة من طغتكين ، فكتب عز الملك حاكم صور ، قبل الاقدام

على اتخاذ هذه الخطوة ، الى البلاط الفاطمي بمصر يبرر تصرفه . وأحبط محاولة طغتكين الاولى للاتصال بصور ، سقوط حمامة الزاجل في يد بدوي يعمل في خدمة الفرنج . وأراد زميله الفرنجي أن يطلق سراح الطائر ، غير أنه حمله الى بلدوين . وأنفذ بلدوين رجالاً متخفين للقاء رسل دمشق ، الذين وقعوا في قبضتهم ، وتقرر إعدامهم . ومع ذلك مضى طغتكين الى صور ، وفي أثناء إغارته على القرى ، باغت جماعة من الفرنج تسعى للحصول على العلف ، وحاصر الفرنج في معسكرهم ، فلم يسع بلدوين إلا ان يرفع الحصار عن مدينة صور ، وأن يشق له طريقاً للعودة الى عكا[1] .

ولم يحرز بلدوين ايضاً شيئاً من النجاح في عسقلان . ذلك أنه عقب الاستيلاء على صيدا بادر بالمسير لمنـــازلة حصن عسقلان . على أن حاكم عسقلان وهو شمس الخلافة الذي اشتهر بعقليته التجارية ، الذي كان أرغب في التجارة من المحاربة ، قد سئم فعلاً كل هذا القتال . فسعى الى عقد هدنة مقابل مبلغ من المـــال ، حاول وقتذاك ان يجبيه من سكان صور ، التي كانت خاضعة لولايته . وإذ علمت مصر بتصرفه ، أنفـــذ الأفضل اليه قوات معروفـــة بالولاء ، حملت من الاوامر مـــا يقضي بعزله . وارتاب شمس الخلافة في غرضهم ، فرفض ان يأذن لهم بدخول المدينة ، بل إنـــه طرد من عساكره اولئك الذين ارتاب في ان عواطفهم مع الفاطميين ، وأحلّ مكانهم جنوداً مرتزقة اتخذهم من الارمن . ثم إنه لم يكتفِ بذلك ،

---

(١) Albert of Aix, *XII*. 3 - 7, pp. 490 - 493.
Ibn al - Athir, p. 257.
Ibn Moyessar, p. 467.

بل توجه الى بيت المقدس ليضع نفسه ومدينته تحت حماية بلدوين . ثم عاد وفي صحبته ثلثمائة جندي من الفرنج ، أنزلهم في القلعة (عسقلان) . على ان هذه الخيانة أزعجت العساقلة . ففي يوليو سنة ١١١١ ، وبفضل مساعدة تلقوها من مصر ، قاموا بانقلاب ، لقي فيه شمس الخلافة مصرعه ، وجرت مذبحة في الفرنج ، وهرع بلدوين لإنقاذ رجاله ، غير أنه وصل بعد فوات الأوان . وكان لا بـد ان تبقى عسقلان شوكة في جنب الفرنج لمدة أربعين سنة اخرى [١] .

وجرت محاولة مماثلة من قِبل بلدوين لفرض حمايته على بعلبك بمساعدة واليها ، الطواشي كمشتكين التاجي ، غير أنها حبطت في ربيع سنة ١١١٠ ، إذ سمع طغتكين بنبأ المؤامرة ، فأحلّ مكان كمشتكين ابنـه تاج الملك بوري [٢] .

تشييد القلاع في الجليل سنة ١١٠٥ :

والواقع ان أهم ما كان يشغل تفكير بلدوين ، هو ان يكفل لمملكته حدوداً ساحلية تسد حاجتها . غير أنه وجّه اهتمامه ايضاً الى ان يجعل لها حدوداً برية ملائمة ، وأن يفيد في نفس الوقت من اقتراب مملكته من طرق التجارة العربية الممتدة من العراق وبلاد العرب الى البحر المتوسط

---

(١) Albert of Aix, *XI*. 36 - 37, pp. 680 - 681.
Ibn al - Qalanisi, pp. 108 - 110.

(٢) Ibn al - Qalanisi, op. cit. p. 106.
Sibt Ibn al - Djauzi, p. 537.

ومصر . وحينما غادر تانكرد فلسطين ليتقلد زمام الحكم في أنطاكية عهد بلدوين بإمارة الجليل ، التي ظلت تحتفظ بالاسم الطنّان الذي أضفاه عليها تانكرد ، الى جاره السابق في فرنسا ، هيو سانت اومر ، وشجعه على ان ينتهج سياسة عدوانية مع المسلمين . وأول ما قام به هيو من اعمال ، أنه شيّد على الجبال ، على الطريق الذي يربط بين صور وبانياس ودمشق ، قلعة تورون ، المعروفة حالياً باسم تبنين . وكيما يهيء أحسن الأحوال للقيام بغارات على الاراضي الخصيبة الواقعة الى الشرق من بحر الجليل ، شيّد قلعة اخرى على التلال الواقعة الى الجنوب الغربي من البحيرة (طبرية) أطلق عليها العرب عَلْماال . واكتمل بناء هذين الحصنين في خريف سنة ١١٠٥ ، غير أن الحصن الثاني (علمال) لم يبق بأيدي المسيحيين سوى فترة قصيرة ، إذ ان طغتكين لم يسمح بأن تتعرض بلاده للتهديد من قبله . ففي نهاية هذه السنة (١١٠٥) ، وبينما كان هيو عائداً الى علمال بغنيمة ثقيلة بعد غارة موفقة ، انقض عليه جيش دمشق . فأصابت هيو جراح أودت به ، وتفرق رجاله ، ولم يجد طغتكين حينئذ صعوبة في الاستيلاء على القلعة . أما جيرار سانت أومر شقيق هيو ، الذي اشتدت به العلة وقتذاك فلم يعش طويلاً بعد وفاة أخيه . ولم يسع بلدوين عندئذ سوى ان يبذل إقطاع الجليل لفارس فرنسي اسمه ، جرفاس بوسوك [١] .

---

(١) William of Tyre, XI. 5, pp. 459 - 460.
Ibn al - Qalanisi, pp. 72 - 75.
Ibn al - Athir, pp. 229 - 230.
Albert of Aix, X. 8, pp. 635 - 636.

الهدنة مع دمشق سنة ١١٠٨ :

ظلت حرب العصابات مستمرة ، إذ شن عساكر صور غارة على تبنين ، اتفقت في الزمن مع غارة قوات دمشق على طبرية . على أنه لم تحرز كلاهما شيئاً من النجاح ، وعند قدوم بلدوين أرسل الدماشقة الى معسكره يطلبون عقد هدنة قصيرة الأمد . وما استقبل به رسل دمشق من الإيناس والكرم زاد كثيراً في ذيوع صيته بين المسلمين . غير ان الهدنة كانت لفترة قصيرة[1] . إذ ان طغتكين أغار من جديد في ربيع سنة ١١٠٨ على الجليل ، وفي معركة نشبت خارج طبرية وقع في أسره جيرفاس بوسوك ومعظم قادة جيشه . ثم أرسل الى بلدوين يخطره ان ما يبتغيه من ثمن لإطلاق سراحهم ، هو ان يبذل له المدن الثلاثة : طبرية ، وعكا ، وحيفا . ولما رفض بلدوين هذا الطلب ، أمر طغتكين بقتل جيرقاس ورفعوا جمجمة رأسه بذوائبه البيضاء المتموجة على قضيب حملوه في مقدمة الجيش الاسلامي المظفر[2] . على أن بلدوين ردّ على تانكرد لقب امير الجليل ، غير أن الراجح أنه كان يدير الامارة من بيت المقدس . وحدث سنة ١١١٣ ، عقب وفاة تانكرد ، حينما أقدم بلدوين صاحب الرها على طرد جوسلين

---

(١) Albert of Aix, X. 25 - 26, pp. 642 - 643.
Ibn al - Qalanisi, p. 75.

(٢) Albert of Aix, X. 57, p. 658.
Ibn al - Qalanisi, pp. 86 - 87.
Ibn al - Athir, pp. 268 - 269.

اعتبر ابن الاثير جيرفاس ابن اخت بلدوين .

كورتيناي من كونتيته ، عوّض الملك بلدوين الامير المنفي بأن منحه الجليل إقطاعاً [1] .

وفي نهـــاية سنة ١١٠٨ ، نظراً لتشابك المصالح الرئيسية لبلدوين وطفتكين ، قررا عقد هدنة لمدة عشر سنوات ، تقضي بأن يقتسما خراج السواد وجبل عوف ، أي القسم الشمالي من إقليم شرق الاردن . فيصير لبلدوين ثلث الخراج ، ولطفتكين ثلث آخر ، ويبقى الثلث الأخير للسلطـــات المحلية [2] . والراجح ان اسباب الهدنة ترجع الى دواع تجـارية ، إذ ان الغارات دمرت التجارة البرية التي تجتـــاز الاقليم ، وسوف تفيد جميع الاطراف من استئناف التجارة . على أن الهدنة ليس لها إلا صفة محلية خالصة . فلم تمنع طفتكين من النهوض لمساعدة المدن الاسلامية الساحلية ، ولم توقف محاولة بلدوين إخضاع مدينـــة بعلبك له . غير أن المؤرخين العرب أثنوا على هـــذه الهدنة ، إذ ان بفضلها لم يغر بلدوين على بلاد دمشق ، على الرغم من ان ما أنزله ولم جوردان من هزيمة بطفتكين في عرقة ، هيأت له فرصة طيبة [3] . ولعل الرغبة في عقد هدنة جاءت من جانب بلدوين ، نتيجة لما حاق بجيرفاس من هزيمـة ، وما تلى ذلك من خطر الغارات من شرق الاردن على الجليل ، وجاءت ايضاً من قبل المسلمين ، عقب الغارتين التي وقعتا مؤخراً ، قاد احداهما حاج مسيحي قدم حديثاً

---

(١) Albert of Aix, XI. 12, p. 668.
William of Tyre, XI. 22, p. 492.

(٢) Ibn al - Qalanisi, p. 92.
Ibn al - Athir, p. 269.

(٣) Ibn al - Athir, pp. 269 - 270.

الى فلسطين ، وهو وليم كليتون بن روبرت النرمندي ، فهاجم أميرة عربية موسرة ، كانت قادمة من بـــلاد العرب الى دمشق ، بكل ما تملك من الأمتعة ، بينما وقعت الغـــارة الثانية على قافلة تجارية من دمشق قاصدة مصر . وفي الغارة الاولى وقع في أيدي الفرنج اربعة آلاف جمـل ، بينما حاز الفرنج في الغارة الثانية كل ما في القافلة من السلع التجارية ، وأجهز البدو فيما بعد على من صادفوه حياً من رجالها [١] وانتقضت الهدنة سنة ١١١٣ ، حينما أغار بلدوين على أراضي دمشق [٢] .

انصرف بلدوين فترة من الزمن الى ما يجري في شمال الشام من امور ، منذ سنة ١١١١ ، بعد ان فشل في منازلة صور . سبق ان أعلن بلدوين صراحة في طرابلس ، سنة ١١٠٩ ، بأنه ينوي ان يجعـل نفسه سيداً على الشرق الفرنجي ، وعزز دعواه [٣] مـــا وقع من الأحداث في انطاكية والرها . وأضحى بوسعه ايضاً ان يوجّـه اهتمامه من جـــديد الى مدّ ملكه ، إذ كان دائماً يدرك ان فلسطين معرّضة باستمرار للغزو والتسلل من جهة الجنوب الشرقي ، عن طريق النقب . ولذا كان لا بد من السيطرة على الاقليم الواقع بين البحر الميت وخليج العقبـة ، لقطع طريق الاتصال بين مصر وسائر العالم الاسلامي . والمعروف ان طغتكين أرسل سنة ١١٠٧ ، جيشاً من دمشق الى ايدوم (العرابة) ، بناء على دعوة من بدو المنطقة ،

---

(١) Albert of Aix, X. 45, p. 653.
Ibn al - Athir, p. 272.

(٢) انظر ما يلي، الفصل السادس.

(٣) انظر ما سبق ، ص ١٤١ — ١٤٣ ، وما يلي ، الفصل السادس .

كما يقيم قاعدة تنفـذ منها الغارات الى يهودا . والمعروف ان بادية يهودا تحوي أديرة يونانية عديدة ، وحثّ أحد الرهبان ، وهو تيودور ، الملك بلدوين على التـدخل . وهبط بلدوين بجيشه الى معسكر الأتراك بوادي مومى ، بالقرب من البتراء ، غير انه حرص على تجنب نشوب معركة . وعندئذ عرض تيودور على ان يتوجه الى قائد قوات طفتكين ، زاعمـاً انه قد فرّ من جيش بلدوين ، وجـاء ليحذره بأن جيشاً ضخماً من الفرنج على مقربة منه . فارتاع الاتراك وتراجعوا الى دمشق مسرعين . وعندئذ أنزل بلدوين العقاب بالبدو ، بأن دمر الكهوف التي يقيمون بها ، واستاق قطعانهم . وحينما عاد صوب الشمال ، صحب معه عدداً كبيراً من المسيحيين الوطنيين ، الذين خشوا انتقام البدو منهم [١] .

عاد بلدوين الى اقليم العرابة سنة ١١١٥ ، وعزم على انه لا بد من الاحتلال الدائم له . وإذ هبط من حبرون ، ودار حول الطرف الجنوبي للبحر الميت ، واجتاز وادي العرابة ، وهو الوادي الأجرد الصلد الممتـد من البحر الميت الى خليج العقبة ، فوصل الى احدى البقاع القليلة الخصيبة المتناثرة في ذلك الاقليم الموحش ، وهـذه البقعة هي المعروفة بالشوبك ، وتقع في منطقة غابات بين المنخفض وبلاد العرب . وفي تلك البقعة ، التي تبعد نحو مائة ميل عن أقرب مكان ينزل به الفرنج ، شيد قلعة ضخمة ، أنزل بها حامية عسكرية ، وشحنها بالذخائر ، وأطلق عليها اسم جبـل

---

(١) Albert of Aix, X. 28 - 29, pp. 644 - 645.
Ibn al - Qalanisi, pp. 81 - 82.

وعن الأديرة اليونانية بهذه المنطقة انظر ما سبق ، ص ١١٩ ، حاشية ١ .

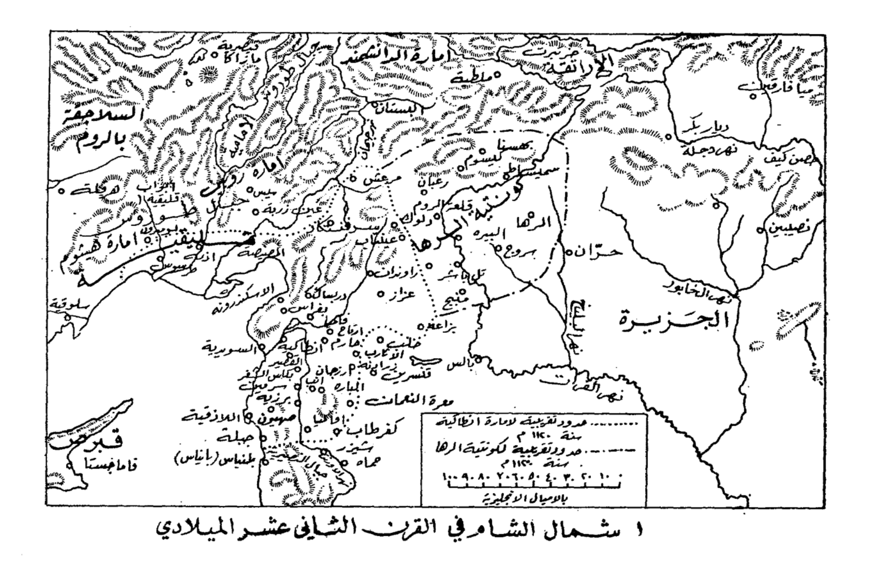
الملك (Le Krak de Montreal) . وفي السنة التالية ، قاد جيشاً ، يتبعه قطار من البغال التي تحمل المؤن ، وأوغل في مجاهل بلاد العرب . وزار من جديد حصن الشوبك ، ثم مضى في طريقه صوب الجنوب ، حتى بلغ آخر الامر ، رجاله الذين أنهكهم التعب ، العقبة ، على ساحل البحر الاحمر ، فهرعت خيولهم الى الماء لتستحم ، بينما انصرفوا هم الى صيد الأسماك التي اشتهرت بها مياهه . وارتاع السكان الوطنيون ، فلجأوا الى سفنهم ولاذوا بالفرار .

واحتل بلدوين البلدة التي أطلق عليها الفرنج أيله او إلين ، وحصّنها بأن أنشأ قلعة بها . ثم أقلع الى جزيرة صغيرة ، اسمها جزيرة فرعون ، وعرفها الفرنج باسم Le Graye ، فشيّد بهـا قلعة اخرى . فحلّ بهذين المعقلين حاميتان عسكريتان ، وبفضلها أضحى الفرنج يتحكمون في الطرق التي تصل بين دمشق وبلاد العرب ومصر . وصار من اليسير عليهم ان يغيروا على القوافل كيفما شاءوا ، بينما تعذّر على اي جيش اسلامي ان يصل الى مصر من الشرق[1] .

ولما عاد بلدوين من سواحل البحر الاحمر ، توجـه مرة اخرى لمنازلة صور ، غير أنه اكتفى هذه المرة بفرض حصار شديد على المدينة من جهة البر . ولتحقيق ذلك الهدف ، شيّد بلدوين قلعة في سكانديلون ، في الموضع الذي يأخذ فيه الطريق الساحلي في ارتقاء ذلك الجانب من الصخور شديدة

---

(١) Albert of Aix, XII. 21 - 22, pp. 702 - 703.
William of Tyre, XI. 29, p. 505.
عن أيلة ، انظر مادة أيلة في دائرة المعارف الاسلامية .



ا شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

الانحدار ، الى الدرب المعروف باسم سلالم صور [1] . والمعروف ان صيدا تسيطر فعلاً على المنافذ المؤدية الى صور من جهة الشمال ، بينما تشرف قلعة تبنين على الطرق المؤدية اليها من جهة الشرق . وأتم تطويق المدينة قلعة سكاندليون .

بلدوين وغزو مصر سنة ١١١٨ :

وما أنجزه بلدوين من أعمال ، حمله على ان يقوم في سنة ١١١٨ بحملة بالغة الجسارة والجرأة . ذلك ان الجيوش الفاطمية قامت مؤخراً من عسقلان بغارتين موفقتين على بلاده . ففي سنة ١١١٣ وبينما كان بلدوين منصرفاً لقتال الأتراك في الشمال ، مضت القوات الفاطمية في تقدمها حتى بلغت أسوار بيت المقدس ، وأمعنت في النهب أينما سارت ، وفي سنة ١١١٥ كاد ينعقد لها الظفر أثناء مباغتة يافا . ولم يكن رد بلدوين سوى أن يغير على مصر ذاتها . ففي أوائل شهر مارس ، وبعد مفاوضات مع شيوخ القبائل النازلة بالصحراء ، قاد جيشاً صغيراً لم يتجاوز مائتي وستة عشر فارساً ، وأربعمائة راجل ، توافرت له المؤن ، وتوجه من حبرون ، فاجتاز شبه جزيرة سيناء حتى بلغ الفرما الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، داخل الحدود المصرية ، بالقرب من مصب الفرع البلوزي لنهر النيل . وتجهز للاستيلاء على المدينة عنوة ، غير أن حاميتها فرّت خوفاً وهلعاً ، فمضى في سيره الى النيل ذاته . وتطلع رجاله الى هذا النهر المعروف ،

---

(١) Fulcher of Chartres, II. LXII. 1, pp. 605 - 606.
William of Tyre, XI. 30, p. 507.

وقـد استبدت بهم الدهشة . على ان مرضاً قاتلاً حلّ بالملك في ذاك الموضع ، فارتد راجعاً نحو فلسطين ، وقد دهمه الموت أثناء الطريق [1] .

وبفضل ما قام به الملك بلدوين من حملات متواصلة ، وإفادته من كل ما تهيأ له من فرصة ، ارتقي بمملكته الى دولة وطيدة الأركان ، شملت كل الاقليم المعروف من غابر الأزمان بفلسطين . وباستثناء صور وعسقلان ، اللتين لا تزالان خارج حوزتـه ، صار يسيطر على كل الاقليم الممتد من بيروت شمالاً الى بير سبع جنوباً ، ويحده شرقاً نهر الاردن ، فضلاً عن المعاقل الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي التي تتحكم في الطرق القادمة من بـــلاد العرب فاعترف بسيادته اخوانه المسيحيون في الشرق الفرنجي ، وكسب احترام جيرانه المسلمين . وما قام به من عمل ، أكد أنه ليس من اليسير ان تتعرض مملكة بيت المقدس للتدمير والتخريب .

ليس لدينـــا إلا أدلة ضئيلة عن الادارة الداخليــة لمملكته ، وفي الجملة كانت مملكة اقطاعية ، غير ان بلدوين جعل معظم المملكة في قبضة يده ، فعين الفيكونتات نواباً عنه . بل إن إمارة الجليل ، التي تعتبر أكبر الاقطاعات ظلت سنوات دون ان يكون لها امير . ولم تعتبر الاقطاعات حتى وقتذاك وراثية . فحينما لقي هيو سانت اومر مصرعه ، جرى الظن ان شقيقه جيرار سوف يخلفــه في إمارته لو ان صحته سمحت بذلك ، غير ان حقه لم يكن مطلقاً ، ذلك ان بلدوين وضع للملكة مسودة دستور .

---

(١) Albert of Aix, XIII. 25, p. 705.
Ibn al - Athir, p. 314.

وتولى بلدوين حكم البلاد عن طريق أتباعه (حاشيته) الذين ازداد عددهم . وكان لمقطعيه من الأتباع مثلما كان له . ويرجع الفضل الى بلدوين في كل ما تم من ترتيبات واجراءات مع الايطاليين في الموانئ البحرية ، فلم يتحتم عليهم ان يبذلوا المساعدة في حملة حربية ، غير أنه كان لزاماً عليهم أن يشتركوا في الدفاع البحري عن مواضعهم [1] .

وأعرب بلدوين عن حرصه على السيطرة على الكنيسة . وإذ تأكد من مساندتها ، سخى في معاملتها ، بأن أغدق عليها بما استولى عليه من المسلمين من الاراضي . على أنه أخطأ الى حد ما في سخائه وكرمه . إذ ان الكنيسة لم تلتزم بأن تمده بالجند . على أنه كان يتوقع من جهة اخرى ان تبذل له المال .

بلدوين وفئات السكان بالشرق :

دلت أحداث كثيرة على ان بلدوين ظفر بمحبة المسيحيين الوطنيين . إذ انه ظل منذ تتويجه يوم عيد القيامة في سنة ١١٠١ يحرص على الاهتمام باحساساتهم ومشاعرهم . فأجاز لهم ان يستخدموا في محاكمه لغاتهم ، وأن يسيروا وفقاً لعاداتهم ، وليس للكنيسة ان تتدخل في شؤونهم الدينية . وفي السنوات الاخيرة من حكمه ، شجع بلدوين المسيحيين ، المتهرطقين منهم والأرثوذكس ، على الهجرة من البلاد المجاورة الخاضعة لحكم المسلمين . والواقع أنه احتاج الى فلاحين مهرة ، ينزلون بأرض يهوذا ، التي أضحت مهجورة ،

---

(١) انظر : La Monte : Fendal Monarchy, pp. 228 - 230.
انظر ما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الاول .

بعـــد رحيل المسلمين منها . وشجع بلدوين المصاهرة بين الفرنج والسكان الوطنيين ، وجعل من نفسه مثالاً على ذلك . على أنه لم يقدم على الزواج من الوطنيات إلا عدد ضئيل من البارونات ، بينما شاع الزواج بين فقراء العساكر الفرنج والوطنيات . وهذا الزواج المختلط أنجب من الاطفال ما صار معظمهم فيما بعد عدة للمملكة من العساكر[١] .

وأظهر بلدوين ايضاً هذا التقارب مع المسلمين واليهود الذين ارتضوا بأن يكونوا من رعاياه . غير أنه لم يأذن لهم إلا بعدد قليل من المساجد والمعابد . وفي المحـــاكم أجاز للمسلمين ان يحلفوا على القرآن ، ولليهود ان يؤدوا اليمين على التوراة ، ويثق المتخاصمون المسلمون في أنهم سوف يحظون بالعدالة[٢] . وأجـاز ايضاً الزواج المختلط بين الفرنج والمسلمين . وتعرض البطريرك أرنولف سنة ١١١٤ ، للوم الشديد من قِبل البابا باسكال ، لأنه أجرى مراسيم الزواج بين مسيحي وسيدة مسلمة[٣] .

على ان البابا باسكال دلّ بتصرفه على جهله بما يجري في الشرق . فإذا قدر للفرنج ان يبقوا بالشرق ، ينبغي ألا يعيشوا أقلية أجنبية ، بل يتحتم ان يؤلفوا شطراً من العالم المحلي . وفي الفصل الذى نظمه شعراً غنائياً ، فولشر شارتر قسيس الملك بلدوين في تاريخـه ، ما لحظه من المعجزات الالهية ، بتحول الغربيين الى شرقيين . فمـــا يجري من اختلاط العناصر

---

(١) انظر ما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الاول .

(٢) انظر ما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الاول .

(٣) Röhricht, Regesta N° 83, p. 19.

الشرقية والغربية تراءى له عملاً رائعاً ، إذ اعتبره خطوة نحو اتحاد الأمم .
ونلحظ عملية الاختلاط طوال بقاء الإمارات الصليبية . وانتهج عقلاء ساسة الفرنج سياسة بلدوين ، بما اتخذوه من العادات والتقاليد المحلية ، وبما أنشأوه من صداقات ومحالفات محلية ، على حين ان ما نقله القادمون الجدد معهم من نعرات قومية ، جلب الكارثة الى البلاد .

ألحق الملك بلدوين الإهانة بالبابا ، لما ترتب على فتوحه على امتداد ساحل الشام ، أن دخل في حوزته من المدن ، ولا سيما صيدا وبيروت ، ما تعتبر كنائسها تابعة من الناحية التاريخية لبطريركية انطاكية . واقتضت الإدارة السليمة لمملكة بيت المقدس ضرورة انتقال هذه الكنائس الى اختصاص بطريرك بيت المقدس ، فقام بلدوين بتحقيق ذلك . واحتج برنارد بطريرك انطاكية لدى البابا على هذا الاجراء المخالف لقانون الكنيسة .
والمعروف ان البابا باسكال سبق ان أخطر بيت المقدس سنة ١١١٠ أنه نظراً لتغيير الأحوال والظروف ، لا بد من اغفال الوضع التاريخي . غير ان ما اتصف به البابا من الضعف جعله يتهاون ويتراجع عن موقفه ، فأيد دعاوى انطاكية . على ان بلدوين أغفل في شيء من اللطف ، القرار الجديد الذي اتخذه البابا . وبقيت أسقفية كل من صيدا وبيروت خاضعة لبطريركية بيت المقدس ، برغم ما بدر من البابا باسكال من تقريع وتأنيب حاد [١] .

---

(١) William of Tyre, XI. 28, pp. 502 - 505.

زواج بلدوين من أديلايد سنة ١١١٣ :

ارتكب بلدوين غلطة خطيرة بشأن زواجه . والمعروف أنه لم يحفل مطلقاً بعروسه الأرمنية منذ ان أخلّ ابوها بما وعد من البائنة ، بعد ان روّعته قسوة صهره . كان بلدوين يهوى المغامرات العاطفية . غير أن ما اتصف بـــه من الفطانة ، وما كان من وجود ملكة بالبلاط ، منعه من الانغماس في أهوائه ومباذله . على ان الملكة اشتهرت ايضاً بميلها الى المرح والسرور ، وأنهـا فيما يقال حبت بالعطف القرصان المسلمين أثناء رحيلها بحراً من انطاكية لترتقي العرش . ولم ينجبا من الأطفال ما يربطهما سوياً . ولما لم يعد على بلدوين أدنى فائدة سياسية بعد بضع سنوات من زواجه بالأميرة الأرمنية ، طردها من البلاط ، بعـــد ان اتهمها بالزنا ، وأجبرها على دخول دير القديسة آن في بيت المقدس ، الذي غمره بالأوقاف ، كيما يرضي ضميره . غير أنها لم تلبث أن تلقت الموافقة على طلبها بالالتجاء الى القسطنطينية ، حيث أقام والداها منذ ان طردهما الفرنج من مرعش . وفي القسطنطينية خلعت رداء الرهبنة ، وأخذت تنعم بكل ما في المدينة الكبيرة من ألوان المتعة والسرور[1] . وفي تلك الأثنـــاء طرب بلدوين لأنه أضحى بوسعه مرة اخرى ان يعيش اعزب . غير أنـــه لا زال في حاجة ماسة الى المال ، وفي شتاء سنة ١١١٢ علم بلدوين ان خير أرملة

---

(١) Guibert of Nogent, p. 259.

يشير الى ما تمارسه من حياة اللهو والعبث .

William of Tyre, XI. 1, pp. 451 - 452.

يورد انها لم تسلك سبل الشر إلا بعد طلاقها .

في اوربا يصح ان يقع اختياره عليها ، كانت تسعى للحصول على زوج . ولم تكن هـذه الأرملة سوى أديلايد سالونا كونتيسة صقلية ، التي تخلت حديثاً عن الوصاية عن عرش كونتيتها ، بعـد ان بلغ ابنها روجر الثاني سن الرشد . كانت بالغـة الثراء ، اجتذبها اللقب الملكي . ورغب فيها بلدوين لا فحسب من اجل بائنتها ، بل ايضاً لما لها من نفوذ على النرمان بصقلية ، والذين يترتب على محالفتهم إمداده بقوة بحرية ، فضلاً عن اتخاذهم قوة مناهضة لنرمان انطاكية . أرسل اليها يطلب يدها ، فقبلت الكونتيسة العرض بشروطها الخاصة . فالمعروف ان بلدوين لم يكن له ولد ، إذ مات أطفاله من زوجته الاولى في آسيا الصغرى ، أثناء الحرب الصليبية الاولى ، ولم تنجب الملكة الأرمنية اطفالاً . وأصرت أديلايد على أنه اذا لم ترزق من بلدوين بطفل ، علماً أنه ليس ثمة امل في انجاب اطفال نظراً لتقدمها في العمر ، فلا بد من انتقال تاج بيت المقدس الى ابنها ، الكونت روجر .

ثم عقد الزواج بين أديلايد وبلدوين ، وفي صيف سنة ١١١٣ أبحرت الكونتيسة من صقلية في أبهة وروعة لم يشهدها البحر المتوسط منذ ان أقلعت كليوباترا الى نهر البردان Cydnus لتلتقي بانطونيوس . اذ افترشت في سفينتها بساطاً منسوجاً من خيوط الذهب ، بينما ترصعت مقدمة السفينة بصفائح الفضة والذهب ، ورافقتها اثنتان من الشواني الحربيـة ، وعزز كل منها ثلاثة صفوف من المجاديف لدفعها ، وتزينت ايضاً مقدمتاهما ، وحملتا حرسها العسكري ، وأكثر ما يلفت النظر العساكر العرب الذين يتألف منهم حرس ابنها الخاص ، وقد لمعت وجوههم السوداء من خلال أرديتهم الناصعة البياض . وسار في أثرها سبع سفن اخرى ، حملت كل ما تملك من كنوز وثروة . هبطت الكونتيسة أديلايد في عكا في اغسطس

١١١٣ فاستقبلها الملك بلدوين بكل ما تعرضه مملكته من أبهة ، إذ خرج الملك ورجاله في حللهم الحريرية القيمة ، وتزينت خيولهم وبغالهم بالارجوان والذهب . وجرى فرش الشوارع بالبسط القيمة ، ورفرفت من نوافـذ وشرفات الدور الاعلام الارجوانية ، وظهر هـذا الرواء في كل المدن والقرى الواقعة على امتداد الطريق من عكا الى بيت المقدس . وفرحت البلاد بأسرها ، على ان فرحها وغبطتها بقدوم الملكة الجديدة لا يضارع ما جلبته معها من الثروة [١] .

وعلى الرغم من هذه البداية الرائعة ، لم يصب الزواج شيئاً من النجاح . اذ استولى بلدوين على بائنة (أموال) الملكة ، فأنفقها في تسديد رواتب الجند المتأخرة ، وفي بنـاء الاستحكامات ، وأسهم المـال المتداول في انعاش تجـارة البلاد . غير ان أثر الزواج لم يلبث ان تبدد وتكشفت عيوبه . اذ تذكر أتقيـاء الناس ان زوجة بلدوين السابقة لم يتم طلاقها قانوناً . وارتاعوا لأن ما قام به البطريرك أرنولف عن طيب خاطر يعتبر في الواقع طقوس زواج باثنتين . وبادر أعداء أرنولف العديدون الى الإفادة

---

(١) Albert of Aix, XII. 13 - 14, pp. 696 - 698.
William of Tyre, XI. 21, pp. 487 - 489.
Fulcher of Chartres, II, LI, pp. 575 - 577.
كانت اديلايد ابنـة للماركيز مانفرد ، وابنة أخ بونيفاس كونت سالونا ، وقد تزوجت من روجر الاول كونت صقلية ، سنة ١٠٨٩ ، وكانت زوجته الثالثة .
عن نسبها ، انظر :
Chalandon, Histoire de la Domination Normande en Italie, II, p. 391, n. 5.

من هذه المخالفة . على ان لم يكن لهجومهم سوى أثر ضئيل ، لو لم يغضب رعايا بلدوين حين اكتشفوا أنه اقترح تغيير ولاية حكم المملكة ، دون الرجوع الى مجلسه ، فتدفقت على روما الشكاوى في حق أرنولف . وقدم الى بيت المقدس بعد مضي سنة على زواج بلدوين ، المندوب البابوي ، برنجار ، اسقف اورانج . فلما تبين له أنه بالاضافة الى ما ارتكبه أرنولف من السمعانية ، أنه أقرّ وبارك زواجاً باطلاً ، يعتبر في حكم ارتكاب الزنا ، دعا الأساقفة ورؤساء الأديرة بالبطريركية لحضور مجمع ، أعلن فيه عزل أرنولف عن كرسي البطريركية . غير ان عزل أرنولف لا يتم بهذه السهولة . ولما أدرك أنه لم يُعيّن خلف له ، ارتحل الى روما سنة ١١١٥ . وفي روما استخدم أرنولف كل ما اشتهر به من الظرف والترغيب في التأثير على البابا والكرادلة ، الذين ازداد عطفهم عليه بفضل ما بذله من الهدايا المنتقاة . ووقع البابا باسكال تحت تأثيره ، فنقض قرار المندوب البابوي . وكل ما تعاهد به أرنولف من شروط ، أنه وعد بأن يطلب من الملك ان يتخلص من زوجته الصقلية . ووفقاً لهذا الشرط ، أعلن البابا ان عزل أرنولف لم يكن باطلاً فحسب ، بل إنه أهداه رداءه البابوي ، فجعل بذلك مكانته فوق كل اعتبار ، وليس لأحد ان يعترض عليها . وفي صيف سنة ١١١٦ عاد أرنولف الى بيت المقدس منتصراً [١]

---

(١) انظر رسالة البابا باسكال الثاني المؤرخة في ١٥ يوليو ١١١٦ ، في :
M. P. L. vol. CLXIII. cols. 408 - 409.
Albert of Aix, XII. 24, p. 704.
William of Tyre, XI. 24, pp. 499 - 500.

حقق أرنولف عن طيب خاطر الشرط الذي وعـــد به . إذ أدرك أرنولف ان الملك بلدوين لم يعـد شديد الحرص على الاحتفاظ بزوجته ، بعد ان نفدت بائنتها ، كما ان أديلايد التي اعتادت حياة الترف والأبهة في قصور بالرمو ، لم تعد تهوى متاعب الحياة في هيكل سليمان ببيت المقدس . غير ان بلدوين تردد في الأمر ، فـــلم يشأ ان يضيع ما يعود من مزايا التحالف مع صقلية . فقاوم مطالب أرنولف ، الى ان تعرض في مارس سنة ١١١٧ للإصابة بمرض خطير ، وإذ واجه الموت ، لم يسعه الى الإنصات للكهنة الذين يتلقون الاعتراف ، الذين أخطروه ، أنه يموت مذنباً . فلا بد ان يطرد أديلايد ، وأن يدعو زوجته السابقة لتكون بجانبه . لم يكن بوسعه ان يحقق كل رغباتهم ، فلم تكن الملكة السابقة مستعدة لأن تغادر القسطنطينية ، التي نعمت بمباهجها المثيرة الجذابة . على انه حينما تماثل بلدوين للشفاء ، أعلن إلغاء زواجه من أديلايد . فعادت أديلايد الى صقلية ساخطة ، بعد ان تجردت من أموالها ، ولم يرافقها في رحلتها احد . وكانت هذه إهانة بلغت من شدة الوقع ان بلاط صقلية لم يغتفرها . فلم تحصل مملكة بيت المقدس من صقلية على شيء من المساعدة والعطف إلا بعد زمن طويل [١] .

عام وفيات الأمراء سنة ١١١٨ :

حدث خسوف للقمر في ١٧ يونيو ١١١٧ ، وفي ١١ ديسمبر سنة ١١١٧ ،

---

(١) Albert of Aix, loc. cit.
William of Tyre, loc. cit.
Fulcher of Chartres, II. LIX. 3, p. 601.

ولم تمض خمس ليالي على الخسوف الثاني ، حتى سطع في سماء فلسطين من ضياء شهب من جهة الشمال ، ما كان يعتبر ظاهرة نادرة الحدوث ، وكان ذلك طيرة مخيفة ، تنذر بوفاة طائفة من الأمراء [١] . ولم تكذب هذه الطيرة . ففي ٢١ يناير سنة ١١١٨ مات البابا باسكال في روما [٢] . وفي ١٦ أبريل قضت نحبها أديلايد بصقلية [٣] . ولم يعش بعدها صديقها الخادع ، البطريرك أرنولف ، سوى اثني عشر يوماً [٤] . وجرت وفاة السلطان محمد (السلجوقي) في ايران يوم ٥ ابريل [٥] . ومات الخليفة الخليفة المستظهر بالله ببغداد في ٦ اغسطس [٦] . أما الأمبراطور الكسيوس ، الذي يعتبر أعظم حكام الشرق فإنه مات بالقسطنطينية في ١٥ اغسطس سنة ١١١٨

---

(١) Fulcher of Chartres, II. LXI. 1 - 3. LXII. 1 - 4, pp. 604 - 605, 607 - 608.

ويناقش هيجنمير في حواشيه امر تحديد زمن وقوع هذه الطيرة. ويذكر فولشر وفاة باسكال، وبلدوين ، واديلايد ، وارنولف ، والكسيوس .

(٢) Annales Romani, M. G. H. Ss. vol. V, p. 477.
William of Tyre, XII. p. 518.

(٣) Necrologia Panormitana in Forschungen zur deutschen Geschichte, vol. XVIII, pp. 472 - 474.
William of Tyre, XII. 5, p. 518.

(٤) انظر ما يلي ، الكتاب الثاني ، الفصل الأول .

(٥) Ibn al - Qalanisi, p. 156.
Ibn al - Athir, p. 303.

جعل ابن الاثير الوفاة في ١٨ ابريل سنة ١١١٨ .

(٦) Ibn al - Athir, pp. 310 - 311.
Matthew of Edessa, CCXXVI. p. 297.

بعد مرض أليم استمر زمناً طويلاً [1].

عاد الملك بلدوين في أوائل ربيع سنة ١١١٨ ، من مصر ، وقد اشتدت به الحمى . على ان جسده تحمل من الانهاك والتعب المضني ما جعله عاجزاً عن مقاومة الحمى . فحمله عساكره ، وهو رجل مائت ، عائدين الى حصن العريش الواقع على الحدود . وفي ذلك الموضع ، الذي يقع خارج حدود مملكته التي تدين له بوجودها ، مات بلدوين في ٢ ابريل ١١١٨ ، بين ذراعي اسقف الرملة . وتقرر نقل جثمانه الى بيت المقدس ، وفي يوم احد السعف ، ٧ ابريل ١١١٨ ، جرت مواراته بكنيسة القيامة ، بجانب اخيه جودفري [2].

صحب موكب الجنازة البكاء والعويل والندب من الفرنج والمسيحيين الوطنيين سواء . بل ان موته أثار المسلمين الزائرين . كان بلدوين ملكاً عظيماً ، وبرغم ما اشتهر به من القسوة وإغفال المثل والمبادىء ، فضلاً عن كراهية الناس له ، فإنه حظي بالاحترام العميق لما هو معروف به

---

(١) Zonaras, p. 759.
William of Tyre, XII. 5, p. 517,
Ibn al - Qalanisi, p. 157.
Matthew of Edessa, CCXXVIII. p- 300 - 301.
(أورد متى الرهاوي ايضاً خبر وفاته) .

(٢) Fulcher of Chartres, 1I. X1V. 1 - 5, pp. 609 - 613.
Albert of Aix, X1I. 26 - 29, pp. 606 - 609.
William of Tyre, X1. 31, pp. 508 - 509.
Ibn al - Qalanisi, loc. cit.

من النشاط ، ونفــاذ البصيرة ، وما اقترن به حكمه من الأمن والعدالة .
ورث بلدوين مملكة بالغة الضآلة والصغر ، غير محدودة ، وبفضل ما اشتهر به
من نشاط حربي قوي ، والبراعة الدبلوماسية ، والتسامح الصادق ، هيأ لها
مكاناً متيناً بين ممالك الشرق .

الفصل السادس

توازن القوى في الشمال

استطاع الملك بلدوين الاول ، قبل سنوات من وفاته ، ان يجعل من نفسه زعيم الفرنج في الشرق دون منازع . لم يكن ذلك عملاً سهلاً ، غير ان بلدوين أحرز نجاحاً باهراً في ذلك بفضل مهارته وحذقه في الإفادة من الظروف والاحوال .

فما حدث من أسر بلدوين لى بور ، وجوسلين كورتيناي في حرّان ، ورحيل بوهمند الى الغرب ، أدى الى انه لم يعد لتانكرد منافس من الفرنج في شمال الشام . وما وقع من المنازعات بين المسلمين هيأ له ان يفيد من كل الفرص المواتية . فالدولة السلجوقية أخذت في التفتت ، وما أسهم به الضغط الواقــــع عليها من الخارج في ذلك يقل عن أثر ما نشب من المنازعات بين الامراء . إذ ترتب على الانتصار في حرّان أن اضحى جكرمش ، أتابك الموصل في مقدمة زعماء الترك بشمال الشام والجزيرة ، ولم يضعف مكانته بين المسلمين ، ما حاق من الفشل الذريع بمحاولته المضي في مهاجمة الفرنج . اذ مات في أوائل سنة ١١٠٥ حليفه ومنافسه السابق ، سكمان

ابن أرتق صاحب ماردين ، أثناء سيره لنجدة طرابلس المحاصرة . ثم وقع النزاع بين أبلغازي ، شقيق سكمان ، وبين ابراهيم بن سكمان على تملك إمارته (ماردين) [١] . على حين ان رضوان امير حلب راوده الأمل في ان انتصار أبلغازي ، الذي سبق ان كان بخدمته ، سوف يحمل له نفوذاً بإقليم الجزيرة ، غير ان ابلغازي نسي ولاءه السابق . كما ان رضوان بلغ من انصرافه لمهاجمة الفرنج في انطاكية ، أنه لم يستطع ان يفرض ما كان له من سابق السيادة [٢] . أما امير الدانشمند الكبير ، وهو الملك غازي انوشتكين فإنه مات سنة ١١٠٦ وانقسمت أملاكه من بعده . فاختص ابنه الاكبر ابلغازي بسيواس وأملاكه بالأناضول (آسيا الصغرى) ، بينما صارت ملطية وأملاكه السورية من نصيب الابن الاصغر سنجر . على ان حداثة سنجر وافتقاره الى الخبرة والتجربة ، أغرى قلج ارسلان سلطان سلاجقة آسيا الصغرى ، الذي عقد اخيراً صلحاً مع بيزنطة ، على ان يتجه صوب الشرق ويهاجم ملطية ، فاستولى عليها في خريف سنة ١١٠٦ [٣] . ثم حاول ان يحصل على اعتراف العالم التركي بما اتخذه من لقب سلطان ، وأبدى

---

(١) ابن الفرات ، نقلا عن :

Cahen : La Syrie du Nord, p. 248, n. 26.

Ibn al - Athir, pp. 226 - 227.

انتزع ابلغازي ماردين من يد ابراهيم بن سكمان سنة ١١٠٧ .

عن تاريخ الأمراء السلمين ، انظر :

Caben : op. cit. pp. 246 - 249.

(٢) Ibn al - Athir, loc. cit.

(٣) انظر : Michael the Syrian, 111. p. 192.

الاستعداد لأن يصادق كل من يمالئه في هذا[1]..

لم ينعم جكرمش بزعامته زمناً طويلا ، فكان لزاماً عليه ان ينغمس فيما وقع في السلطنة السلجوقية بالشرق من منازعات . فحينما تحتم على بركياروق ان يقتسم أملاكه مع اخيه محمد ، كانت الموصل من نصيب محمد . وحاول جكرمش ان يستقل بالموصل ، فأعلن انه لا يدين بالولاء إلا لبركياروق وحده ، وناوأ قوات محمد . غير أنه حدث في يناير سنة ١١٠٥ ، ان توفي بركياروق ، فانتقل إرثه كاملاً الى محمد . ولما لم يعد لدى جكرمش عذر يتذرع به ، بادر بالاذعان وإعلان الخضوع لمحمد ، الذي اكتفى في الوقت الراهن بإعلان صداقته ، وانسحب بجيوشه صوب الشرق ، دون ان يغامر بدخول الموصل في موكب النصر[2] . والراجح ان ما أعده جكرمش وقتذاك من حملة لمهاجمة الفرنج ، كان بنـاء على طلب السلطان محمد . اذ ان جكرمش ألّف حلفاً يشترك فيه معه ، رضوان صاحب حلب ، والاصبهبد (نائب رضوان) صباوو ، وايلغازي الأرتقي فضلاً عن صهره ألبى بن ارسلان تاش صاحب سنجار . على ان الحلفاء اقترحوا على رضوان وألبى ، أنه لمن حسن السياسة ولأكثر ثمرة إرضاء السلطان (محمد) ، بالقيام بمهاجمة جكرمش ، فمضوا سوياً ، وهاجموا نصيبين . غير ان وكلاء جكرمش وعملاءه بها نجحوا في إثارة النزاع بين رضوان

---

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة قلج ارسلان . على ان ابن الاثير وسائر المؤرخين المسلمين حرصوا على ان ينعتوه بلقب «ملك» . وأشار متى الرهاوي وميخائيل السرياني الى انه سلطان .

(٢) Ibn al - Athir, pp. 224 - 225.

وايلغازي ، فاغتنم رضوان فرصة إقامة مأدبة امام اسوار نصيبين فاختطف ايلغازي وكبله بالسلاسل والأغلال . على ان العساكر الأرتقية هاجمت رضوان وأرغمته على الانسحاب الى حلب [1] ، وبذا نجا جكرمش ، الذي بادر بشن الهجوم على الرها ، غير أنه عاد الى الموصل ليواجه متاعب جديدة [2] ، بعد ان نجح في التغلب على هجوم قام به عساكر ريتشرد (سالرنو) .

وفي تلك الأثناء ، حاول قلج ارسلان ، الذي استولى على ملطية مؤخراً ، القيام ايضاً بهجوم على الرها ، ولما تبين له مناعتها ، مضى الى حرّان التي سلمها له عساكر جكرمش بها . والواضح ان سلاجقة الروم سعوا لبسط سلطانهم في العالم الاسلامي على حساب بني عمومتهم في فارس [3] .

لم يغفر السلطان محمد مطلقاً ما كان لجكرمش من نزعات استقلالية ، وارتاب في انعقاد اتفاق سري بين قلج ارسلان وجكرمش لمناوأته . فلم يسعه إلا أن ينتزع الموصل من جكرمش في شتاء سنة ١١٠٦ ، ثم يبذلها ، مع إمارتي الجزيرة وديار بكر الى مغامر تركي آخر اسمه جاولي سقاوه . وقاد جاولي جيشاً لقتال جكرمش ، الذي تقدم للقائه ، غير ان جكرمش انهزم خارج المدينة (الموصل) ، ووقع اسيراً في يد خصمه . ولما لجكرمش من مكانة ومحبة عند سكان الموصل ، بادروا باختيار ابنه الصغير ، زنكي

---

(١) Ibn al - Athir, pp. 225 - 226.

(٢) Matthew of Edessa, CLXXXIX. pp. 260 - 261.

(٣) Ibn al - Athir, p. 239.

أتابكا ، بينا استنجد اصدقاؤه في خارج الموصل بقلج ارسلان ، ورأى جاولي أنه من الحكمة ان ينسحب من الموصل ، ولا سيا بعد ان مات جكرمش فجأة في اسره ، اذ كان جاولي يأمل في ان يتخـذ من جكرمش أداة للمساومة . أما الموصل فإنهـا فتحت أبوابها لقلج ارسلان، الذي وعد باحترام حرياتها [1] .

استقر جاولي بوادي الفرات ، ومن مقره دخل في مفاوضات مع رضوان صاحب حلب . وتم الاتفاق بينهما على ان يجري اولاً طرد قلج ارسلان من الموصل ، ثم شن هجوم مشترك على انطاكية . ففي يونيو سنة ١١٠٧ هاجما الموصل بنحو اربعة آلاف مقاتل . وعلى الرغم من ان قلج ارسلان يقاتل بعيداً عن بلاده ، وليس لديه إلا جيش قليل العدد ، فإنـه نهض للقاء الحليفين على ضفاف نهر الخابور . غير أنـه حلّت به الهزيمة برغم بسالته وشجاعته ، وهلك غريقاً في النهر أثناء اجتيازه لائذاً بالفرار [2] .

والواقع ان العالم الشرقي تأثر بزوال شخصية قلج ارسلان ، فباختفائه انجـاب خطر شديد عن بيزنطة في لحظة حرجة كان بوهمند أثناءها على وشك ان يهاجم بلاد البلقان . وترتب على وفاة قلج ارسلان ايضاً أن تهيأ للسلطنة السلجوقية في فارس ان يطول اجلها ما يقرب من مائة سنة

---

(١) Ibid, pp. 260 - 264.

(٢) Ibn al - Athir, pp. 246 - 247.

Matthew of Edessa, CXCVI. p. 264.

تعتبر وفاة قلج ارسلان ، عنـد متى الرهاوي (CXCVI. p. 264) كارثة عند العـالم المسيحي ، ويقصد هنا الارمن .

اخرى ، كما ان اختفاءه يعتبر اول مرحلة بالغة الأهمية في انفصال الترك بالاناضول عن اخوانهم في أقصى الشرق ، ويضاف الى ذلك انه حرم المسلمين بالشام في الوقت الراهن من قوة كانت كفيلة بإقامة الوحدة بينهم .

أضحى في وسع جاولي بعد زوال قلج ارسلان ان يدخل الموصل . غير ان ما اقترن به حكمه من الوحشية ، لم يلبث ان جعله بغيضاً عند الناس . كما انه لم يزد عن جكرمش فيما أظهره من الاعتراف بسلطة سيده السلطان محمد . على ان السلطان محمد دبّر ، بعد سنة ، أمر عزله ، فأنفذ لقتاله جيشاً بقيادة مملوكه مودود الذي صار في السنوات القليلة التالية من اكبر ابطال الاسلام [1] .

اطلاق سراح جوسلين سنة ١١٠٧ :

وفي أثناء هذه الاحداث المثيرة ، كان بلدوين لى بور يقيم اسيراً في الموصل ، بينما انتقل ابن خالته جوسلين كورتيناي ، بعد وفاة سكمان الى ايلغازي الذي أعدّ الخطة لطرد ابن اخيه ابراهيم من ماردين . واذ احتاج ايلغازي الى المال والحلفاء ، وافق على اطلاق سراح جوسلين مقابل الحصول على مبلغ قدره عشرون الف دينار وعلى وعد ببذل المساعدة الحربية له . فوعد رعايا جوسلين في تل باشر بأن يؤدوا عن طيب خاطر المال

---

(١) Ibn al - Athir, pp. 259 - 261.
Bar Hebraeus, trans. Budge I, p. 241.

المطلوب لافتدائه ، وتم اطلاق سراح جوسلين في أثنـاء سنة ١١٠٧ [١] .
وبفضل هذا التدبير ، استطاع ايلغازي ان يستولي على ماردين . ثم سعى
جوسلين الى اطلاق سراح بلدوين الذي كان مع كل امتعة جكرمش في
قبضة جاولي . وتهيأت الفرصة لجوسلين ، اذ احتاج جاولي الى المساعدة
لمواجهـة الهجوم المقبل من مودود . فطلب جاولي ستين الف دينار ،
والافراج عن الاسرى المسلمين المعتقلين بالرها ، وعقـد محالفة عسكرية .
وبينما كانت المفاوضات تمضي قدماً ، خرج جاولي مطروداً من الموصل ،
حيث لم يلق مساندة من اهل المدينة الذين فتحوا أبوابها لمودود . فأقام
جاولي بإقليم الجزيرة ، ونقل معه بلدوين [٢] .

واستطاع جوسلين ان يجمع في يسر مبلغ ثلاثين الف دينار ، ثم قدم
بالمال الى قلعة جعبر ، الواقعة على نهر الفرات ، حيث حل بهـا وقتذاك
جاولي . وعرض جوسلين على جاولي ان يتخذه رهينة ، وأن يطلق سراح
بلدوين حتى يحصل على ما تبقى من الفدية ، فتأثر جاولي بما أظهره الامير
الفرنجي من الدماثة والشهامة . وقبل جاولي ان يحل جوسلين مكان بلدوين ،
ثم حدث بعد بضعة شهور ان اطلق سراح جوسلين ، لما اتصف به جاولي

---

(١) يشير (Michael the Syrian III, pp. 195 - 196) ، الى ان سكان مدينة تل باشر جعـلوا من انفسهم رهائن حتى يتم تحصيل الاموال اللازمة ، ثم هربوا ، فكأنهم لم يؤدوا شيئاً . غير ان جوسلين عاد الى أسره رهينة عن بلدوين ، واستطاع ان يكون له تأثير فائق على سلطان الموصل ، الذي اشتد اهتمامه بطلب رؤيته . ويذكر ابن الاثير ان المـال جرى دفعه في الموعد المحدد . انظر : Ibn al - Athir, p. 261.

(٢) انظر : Ibn al - Athir, p. 260.
Bar Hebraeus, loc. cit.

من الفروسية من جهة ، ولمصلحة خاصة من جهة اخرى ، وهي الحرص الشديد على التحالف مع الفرنج ، وذلك ارتكاناً الى الوعد الذي بذله جوسلين بدفع المال ، وتحققت فعلاً ثقته فيه [١] .

ظل تانكرد اربع سنوات سيداً على الرها ، أثناء اسر بلدوين لى بور ، وناب عن تانكرد في حكم الرها ، ابن عمه رتشرد . ولم يشأ تانكرد ان يتخلى لبلدوين عن الرها . فلما عاد بلدوين الى الرها ، وافق تانكرد على تحصيل المبلغ المطلوب لافتدائه ، وقدره ثلاثون الف دينار ، غير انه رفض ان يعيد الى بلدوين المدينة ، إلا اذا حلف له يمين الولاء ، غير ان بلدوين باعتباره من اتباع ملك بيت المقدس ، لم يستجب لرغبة تانكرد ، وتوجه الى تل باشر ساخطاً ، حيث لحق به جوسلين ، ومنها ارسلا الى جاولي يطلبان منه المساعدة . ولم يسع تانكرد إلا ان يزحف على تل باشر ، حيث جرت مناوشة صغيرة ، جلس على أثرها المتحاربون الى وليمة يسودها جو من التنافر والاضطراب ، وأخذوا يتناقشون في المشكلة مرة اخرى . غير انهم لم يصلوا الى تسوية . ثم تحرك بلدوين شمالاً يلتمس حلفاء آخرين ، وذلك بعد ان ارسل الى جاولي هدية ، لم تكن سوى ستين ومائة اسير مسلم ، أطلق سراحهم وجهزهم بالعتاد . واشتهرت حكومة الامير ريتشرد في الرها بالقسوة وابتزاز الاموال ، وأكثر ما لقي من النفور جاء من قبل الارمن . ولذا توجه بلدوين لزيارة أشهر زعيم للأرمن في الجهات المجاورة ،

---

(١) انظر :
Michael the Syrian, loc. cit.
Chron. Anon. Syr. pp. 81 - 82.
Bar Hebraeus trans. Budge I, p. 243.
Ibn al - Athir, p. 261.

وهو كواسيل صاحب كيسوم ، الذي زاد في مكانته مؤخراً ما لجأ اليه من إغراء جاثليق الارمن على ان يقيم تحت حمـــايته . استقبل كواسيل بلدوين في رعبان ووعد ان يساعده ، بينا أرسل اوشين الارمني ، حاكم قليقية من قبل البيزنطيين الى بلدوين ، ثلثمائة من عساكر البجناك المرتزقة ، إعراباً عن ارتياحه للقيام بكل عمل لمناهضة تانكرد . وعاد بلدوين الى تل باشر بكل هؤلاء الحلفاء . ولم يكن تانكرد مستعداً لأن يثير غضب جميع الارمن . يضاف الى ذلك ان برنارد بطريرك انطاكية ، جعل كل نفوذه في جانب بلدوين . وما ساد من النفور والبغض حمل تانكرد على سحب ابن خالته ريتشرد من الرها ، التي استقبلت بلدوين بمظاهر الغبطة والسرور [1] .

المسيحيون والمسلمون في مواجهة المسيحيين والمسلمين ، سنة ١١٠٨ :

ـ لم يكن ذلك إلا هدنة مؤقتة ، أخلص بلدوين أثناءها في صداقته مع جاولي ، فأعاد اليه عدداً كبيراً من الأسرى المسلمين ، وسمح بإعادة بنـــاء المساجد في سروج ، التي كان جُلّ سكانها من المسلمين ، وأمر بطرد وإعدام كبير قضاة سروج ، الذي لم يكن مقبولاً عند السكان ، فضلاً عن انه كان أحد الخارجين على الاسلام .

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, II. XXVIII. 1 - 5, pp. 477 - 481.
Albert of Aix, X. 37, p. 648.
Matthew of Edessa, CXCIX. p. 266.
Ibn al - Athir, pp. 262 - 263.
(يشير ابن الاثير الى ان البطريرك برنارد عند المسيحيين ، هو بمكانة الإمام عند المسلمين .

ارتاع رضوان صاحب حلب لهذا التحالف ؛ فالمعروف ان جاولي كان يهدد ممتلكات رضوان على نهر الفرات . فردّ على ذلك ، بأن أغـار على قافلة تجارية ، كان من بين ما تحمله ، شطر من المال الذي افتدى به بلدوين نفسه ، وكان مُرسَلاً من تل باشر الى مقر جـــاولي . وفي سبتمبر سنة ١١٠٨ ، شنّ جاولي هجوماً على مدينة بالس الواقعة على نهر الفرات ، والتي لا تبعد عن حلب سوى خمسين ميلاً ، فاستولى عليها ، وأمر بصلب كبـار أنصار رضوان بالمدينة . فبـــادر رضوان الى طلب العون والمساعدة من تانكرد . وفي أوائل اكتوبر سنة ١١٠٨ ، جهز بلدوين وجوسلين بضع مئات من فرسانها ، انحازا بها الى جاولي عند منبج ، بين حلب والفرات . وكان لدى جاولي نحو خمسمائة تركي ، واكثر من هـذا العدد من البدو ، بقيـــادة ابن صدقة امير بني مزيد . فبلغ عدد الجيش المتحد نحو ألفي رجل . اما رضوان فأعدّ للقائهم نحو ستمائة رجل ، غير ان تانكرد نهض لمساعدته في قوة تبلغ عدّتهـــا ألفاً وخمسائة رجل . ودارت المعركة ، واشتد وطيسها ، بين مسيحيين ومسلمين من جهة ، وبين مسيحيين ومسلمين من جهـة اخرى . واستطاعت قوات جاولي ان ترد رويداً رويداً فرنج انطاكية ، وتكبدهم خسائر فادحة . وحينما لحظ البدو في جيش جاولي ، مـــا أعدّه فرسان بلدوين من الخيل على سبيل الاحتياط ، لم يستطيعوا مقاومة مـا تثيره من إغراء ، فتركوا مواقفهم في المعركة ، كي يسرقوا هذه الجياد والفرار بهـــا . ولم يكد الترك بجيش جاولي ايضاً يشهدونهم مسرعين ، حتى انصرفوا عن القتال وولوا الادبار . فلم يبق في ساحة القتال سوى بلدوين وجوسلين ، فاضطرا ايضـاً الى الهرب بمن تبقّى معهما من العساكر ، وكاد كل منهما ان يقع في الأسر . ولم تقل خسائر المسيحيين ،

فيما يقال ، على ساحة المعركة عن ألفين من الرجال [١] .

انسحب جوسلين الى تل باشر ، وعاد بلدوين الى دلوك ، شمال راوندان ، حيث حاول تانكرد ان يحاصره ، غير انـه رجع عن عزمه حينما شاع خبر قدوم جاولي . واستعاد بلدوين وجوسلين الرها ، ولما دخلاها ألفياها في حالة اضطراب وذعر شديدين . ذلك ان أهل المدينـة ، لتخوفهم من ان بلدوين قد مات ، وانهم سوف يخضعون من جديد لمـا فرضه عليهم رتشرد النرماني من حكم بغيض ، عقدوا مجلساً في كنيسة القديس يوحنا ، حيث قام الارمن بالمدينـــة بدعوة الاسقف اللاتيني ، ليشترك في إقامة حكومة مؤقتة ، حتى ينجلي الموقف . فلما وصل بلدوين الى المدينة بعـد يومين ، ساوره الشك في وقوع خيانة ، واعتقد ان الارمن يعدّون خطة لاسترجاع استقلالهم . فبـادر بالضرب على أيديهم في شدة وعنف ، وتمّ إلقاء القبض على عدد كبير من الارمن ، وتقرر سمل عيون جماعة منهم ، ولم تسلم عينا الاسقف الارمني إلا بعـــد ان دفع غرامة كبيرة ، أسهم رعـاياه في تأديتها . ثم اضطر عـدد كبير من الارمن الى الخروج من المدينة . وليس معروفاً ماذا حدث فعلاً ، غير ان الواضح ان بلدوين استبد به من الجزع والخوف ما حمله على تغيير سياسته نحو الارمن [٢] .

---

(١) انظر : Matthew of Edessa, CXCIX. pp, 266 - 267.
Ibn al - Athir, pp. 265 - 267.
Kemal ad - Din, p. 595.
Ibn al - Fourat, quoted in Cahen : op. cit. p. 250, n. 34.

(٢) Matthew of Edessa, ibid, pp. 267 - 268.

الوفاق بين أمراء الفرنج سنة ١١٠٩ :

وعلى الرغم من انتصار تانكرد ، وبرغم ما حدث بعد بضعة شهور من الوفاق بين جاولي وسيده السلطان السلجوقي ، الذي ولاه قيادة في جهة بعيدة بفارس ، لم يحاول تانكرد بذل جهد جديد لطرد بلدوين من الرها . بل حدث ، بدلاً من ذلك ، ان قاد في خريف سنة ١١٠٨ حملة لمهاجمة شيزر ، وبعد ان قتل جماعة صغيرة من رجال العدو ، أوقع بهم في مغارة ، رجع عن شيزر مقابل جواد أصيل بذله امير شيزر هدية له[١] . وفي الصيف التالي انغمس في النزاع الذي نشب بين وليم جوردان وبرتراند تولوز ، على امتلاك بلاد للفرنج في لبنان . وما حدث من قبوله وليم جوردان تابعاً له ، عارضه الملك بلدوين بالمبادرة الى التدخل ، باعتباره السيد الأعلى لجميع الفرنج في الشرق . وحينما دعا بلدوين تانكرد وسائر القادة الفرنج لقبول تحكيمه ، في المعسكر المنصوب امام طرابلس ، لم يجرؤ تانكرد على مخالفته . ولم يكتفِ الملك ، في حضرة الأمراء واجتماعهم ، بتقسيم الإرث بين أميري بيت تولوز ، بل انه أرغم تانكرد ، وبلدوين كونت الرها ، وجوسلين ، على ان يتم الوفاق بينهم ، وان يعملوا سوياً ضد المسلمين . وإذ أقر تانكرد حق الملك في التحكيم ، كان ذلك دليلاً على اعترافه بسيادته وزعامته . وأجاز له الملك ، مقابل ذلك ، ان يحتفظ بانتماء وليم جوردان له ، وردّ عليه لقب امير الجليل ، وامتلاك معبد بيت المقدس ، ووعد بأن يستأنف تانكرد إدارة الإقطاع ، متى عاد بوهمند الى انطاكية . على ان هذه المزايا تضاءل شأنها حينما لقي وليم

(١) Usama, ed. Hitti, pp. 99 - 100.

جوردان مصرعه ، وانتقلت أملاكه الى برتراند ، الذي اعترف بالملك بلدوين وحده سيداً عليه . ومع ذلك فان تانكرد تشجّع وهاجم جبلة ، التي تعتبر آخر ما تملكه أسرة بني عمـار ، فاستولى عليها في يوليو سنة ١١٠٩ ، فأضحت حدوده تتاخم حدود أملاك برتراند[١] .

على ان الحاجـة اضحت ماسة لإجراء الوفاق بين سائر امراء الفرنج تحت زعامة الملك بلدوين ؛ ذلك انه حدث في اوائل سنة ١١١٠ ان استجاب مودود أتابك الموصل ، لتعليمات سيده السلطان فأعد حملة لقتال الفرنج . ثم زحف على الرها في ابريل سنة ١١١٠ ، يسانده ايلغازي الارتقي بعساكره من التركمان ، وأمير ميافارقين ، سكمان القطبي المعروف باسم شاه ارمن . ولم تكد الأنباء ترد بحشد القوات الاسلامية ، حتى أنفذ بلدوين لى بور الى بيت المقدس ، جوسلين يلتمس النجدة العاجلة من الملك بلدوين ، ويفصح عن ارتيابه في ان تانكرد يشجع العدو . وقام اصدقاء تانكرد من جهتهم بتوجيه نفس التهمة الى بلدوين لى بور ، على انهم لم يضارعوه في قوة الاقناع . كان الملك بلدوين منصرفاً وقتذاك الى منازلة بيروت وحصارها ، ولم يتحرك إلا بعـد ان استولى عليها . فأسرع بالمسير نحو الشمال ، وقد تجنب اجتياز انطاكية ، ليختصر الوقت من جهة ، ولأنـه لا يثق في تانكرد من جهة اخرى ، فوصل الى الرها في نهاية شهر يونيو سنة ١١١٠ . وحينما اقترب من المدينة (الرها) ، انحازت اليه قوات أرمنية ،

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٠٩ — ١١٢ .

Albert of Aix, XI. 3 - 13, pp. 664 - 668, 685 - 686.

Ibn al - Athir, p. 274.

أرسلها كواسيل ، أمير البيرة ، وأبو الغريب سيد البهلوان . ظل مودود يحاصر الرها مدة شهرين ، غير انه لم يستطع ان يخترق استحكاماتها . فلما تراءى له فرسان مملكة بيت المقدس ، ترفرف أعلامهم ، وتلمع أسلحتهم تحت أشعة الشمس ، تراجع الى حرّان ، أملاً في ان يغويهم بشن هجوم طائش [1] .

خرج بلدوين لى بور من حصنه فرحاً مسروراً للالتقـاء بسيده وابن عمه بلدوين (ملك بيت المقدس) ، وبادره بالشكوى من تانكرد . وعندئذ أرسل الملك بلدوين الى انطاكية يطلب من تانكرد القدوم على رأس جيش للانضمام الى الحلف المسيحي ، وللرد على هذه الاتهامات . تردد تانكرد في قبول الدعوة ، غير ان مجلسه الاعلى (المحكمة العليا) أصر على انه ينبغي عليه تلبية الدعوة . ولم يكد يصل الرها حتى رد بتهمة مماثلة وجهها الى بلدوين لى بور . اذ قال ان اقليم Osrhoene الذي تقع به الرها ، كان دائماً طوال التاريخ من توابع انطاكية ، ولذا يعتبر نفسه السيد الشرعي على هذا الاقليم . فأجاب الملك بلدوين في عنف وصلابة ، أنه حيث وقع عليه الاختيار ليكون زعيماً للعالم المسيحي في الشرق ، فإنه يطلب بهذه الصفة ان يتم الوفاق بين تانكرد وبلدوين لى بور . فاذا رفض تانكرد هذا الطلب ، وآثر المضي في الاشتراك مع الترك في تدمير المؤامرات ، فلن يعتبر اميراً مسيحياً ، ولا بد من قتاله دون رحمة او شفقة كأنه عدو مبين .

---

(١) انظر : Albert of Aix, XI. 16 - 18, pp. 670 - 672.
Matthew of Edessa, CCIV, pp. 270 - 273.
Ibn al - Qalanisi, p. 103.

وأقرّ الفرسان الحاضرون حديث الملك ، واضطر تانكرد لمصالحته [1] .

الجلاء عن بلاد الرها سنة ١١١٠ :

ثم سار جيش الفرنج المتحد لمطاردة مودود ، الذي أمعن في تقهقره ، لاجتذاب الفرنج الى ارض معادية ، كيما يطوق جناحهم بعد ان ينحرف فجأة الى الشمال . وتلقى الملك بلدوين التحذير في الوقت المناسب ، فتوقف عن حصار قلعة شناو ، التي تقع الى الشمال الغربي من حرّان . غير ان الحلف الفرنجي لم يلبث ان تفرق ، اذ سمع تانكرد شائعات بأن رضوان صاحب حلب ، يستعد لمهاجمة انطاكية . وقدمت الرسل من فلسطين تنهي الى الملك بلدوين ان بيت المقدس هدّدها تحرك المصريين ، فتقرر التخلي عن حملة الجزيرة . ولجأ تانكرد الى سميساط ، وبناء على نصيحة الملك ، اتخذ بلدوين لى بور قراراً بأنه لا جدوى من محاولة حماية الجهات الواقعة شرقي الفرات ، وبكى بلدوين لى بور لما شهده من التخريب الذي تعرض له هذا الاقليم على يد مودود بينما كان محاصراً في الرها . فأعد خطته على ألا يبقي الحاميات إلا في الحصنين الكبيرين ، الرها ومروج ، وفي بعض القلاع الصغيرة ، وألا يحاول حراسة الحدود . ونصح السكان المسيحيين بأن يغادروا البلاد الى الجهات الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، التي تعتبر اكثر امناً واستقراراً ، فأخذ الناس بالنصيحة . إذ ان سكان الريف ،

---

(١) Albert of Aix, XI. 20 - 24, pp. 672 - 674.
Fulcher of Chartres, II, XLIII. 1 - 6, pp. 532 - 541.
Ibd al - Qalanisi, p. 102.

ومعظمهم من الارمن ، جمعوا امتعتهم وتحركوا في بطء صوب الغرب غير ان الجواسيس أخطروا مودوداً بما تم تدبيره ، فأسرع الى اقتفاء أثرهم ، حتى اذا بلغ نهر الفرات ، شهد قادة الفرنج يجتازون النهر فعلاً . غير ان اثنين من قوارب العبور الكبيرة غرقا بالنهر قبل ان يعبره المدنيون ، نظراً لزيادة حمولتها من الجند . فانقض مودود على هؤلاء المدنيين وهم عزل من السلاح ، ولم ينج من القتل احد منهم ، رجل او امرأة او طفل . وما حدث من استئصال شأفـــة هؤلاء الارمن الفلاحين ، الذين استقروا في اومرهوين (الرها) ، قبـــل مستهل العصر المسيحي ، واشتهروا بالثراء والمثابرة والدأب على العمل ، برغم انهم ليسوا موطن ثقة من الناحيـــة السياسية ، أنزل بالاقليم ضربة لم ينهض منها مطلقاً . ومع ان كونتات الفرنج ظلوا يحكمون الرها بضع سنوات اخرى ، فالثابت ان سلطان الفرنج ، فيما وراء الفرات ، كان مصيره الفشل الذريع ، وأدى هـذا الفشل الى تعـــاسة السكان المسيحيين الوطنيين الذين خضعوا لحكومة الرها [(١)] .

وبلغ الغيظ من بلدوين لى بور انه قاد كتيبة من العساكر ، اجتاز بهـــا النهر عائداً للانتقام من مودود . غير ان تفوق العدو في العدد

---

(١) انظر :

Albert of Aix, loc. cit.
William of Tyre, XI. 7, p. 464.
Matthew of Edessa, CCLV, p. 273.
Ibn al - Qalanisi, pp. 103 - 104.

جعل اليأس يدب في نفوسهم ، وكاد بلدوين لى بور يتعرض للهلاك لولا ان بادر لانقاذه الملك بلدوين وتانكرد برغم نفوره [١] .

عاد الملك بلدوين الى الجنوب ، بينما انصرف تانكرد لإنزال العقـاب برضوان ، لأنه هاجم بلاده ، واعتبر تانكرد هـــذا الهجوم خيانة . فاستولى تانكرد عنوة على قلعة النقرة الواقعة على الحدود ، ثم زحف على الأثارب ، التي لا تبعد عن حلب إلا نحو عشرين ميلاً ، ولم يتلق رضوان مساعدة من سائر المسلمين . وحاول رضوان ان يحصل على هدنـة من تانكرد ، أياً كان الثمن ، غير ان تانكرد طلب ثمناً باهظاً . على ان المفاوضات توقفت حينما هرب الى معسكر تانكرد ، صاحب بيت مال رضوان ، بشطر من ثروة سيـــده . ولم تلبث الاثارب ان أذعنت في ديسمبر سنة ١١١٠ ، بعـــد ان دكت مجانيق تانكرد اسوارها . ولم يسع رضوان إلا أن يعقـــد الصلح مع تانكرد ، وخسر بمقتضاه الأثارب وزردنا التي تقـع على مسافة صغيرة الى الجنوب منهـا ، فضلاً عن تأدية مبلغ عشرين الف دينار ، وبذل عشرة من أجود خيوله [٢] . ثم مضى تانكرد لمنازلة شيزر وحماه . فطلب امير شيزر ، من بني منقذ ، عقد هدنة مع تانكرد لبضعة شهور ، مقابل ان يؤدي له اربعة آلاف

---

(١) Albert of Aix, XI. 25, p. 675.

(٢) انظر : Matthew of Edessa, CCIV, p. 274.
Bar Hebraeus trans. Budge, p. 243.
Ibn al - Qalanisi, pp. 105 - 106.
Kemal ad - Din, pp. 596 - 598.
Ibn al - Athir, p. 278.

دينار ، ويبذل له جواداً اصيلا . ولما انقضى اجل الهدنة في ربيع سنة ١١١١ ، تقدم تانكرد من جديد ، فشيّد على التل المجاور حصناً منيعاً في الموضع المعروف باسم ابن معشر ، ومنه يستطيع ان يراقب كل حركة تبدر من المدينة او تتجه اليهـا . ولم يلبث تانكرد بعدئذ ان استولى على حصن بكسرائيل الواقع على الطريق الممتد من شيزر الى اللاذقية ؛ وبذل امير حمص الفي دينـــار ، حتى يدعه تانكرد ينعم بالسلام والهدوء [١] .

ومـــا احرزه تانكرد من انتصارات اسهم فيها عاملان . الاول ان البيزنطيين لم يكونوا مستعدين للقيام بهجوم مناهض له . فمـــا حدث في سنة ١١٠٧ من وفـــاة قلج ارسلان جعل الموقف في الاناضول (آسيا الصغرى) مائعاً . إذ ان ملك شاه اكبر ابناء قلج ارسلان وقع اسيراً في معركة الخـــابور وأضحى في قبضة السلطان محـــمد السلجوقي . واستولت ارملة قلج ارسلان على ملطية والاقاليم الشرقية ، باسم اصغر ابنائها طغرل . وعاش مسعود ، من ابنـــاء قلج ارسلان ايضاً في بلاط الدانشمند . بينما استقر في قونيه ابن رابع له ، وهو عرب . وإذ خشي السلطان محمد ان ينفرد مسعود او طغرل بالملك ، زاد الموقف اضطراباً بأن اطلق سراح ملك شاه ، الذي استقر في قونية ، واتخذ لنفسه لقب

---

(١) انظر :
Albert of Aix, XI. 43 - 46, pp. 684 - 686.
Usama, ed. Hitti, pp. 95 - 96.
Kemal ad - Din, p. 599.
Ibn al - Qalanisi, p. 114.

السلطان [١] دون اعتراف بفضل السلطان . على ان انهيار حكومة السلاجقه المركزية في آسيا الصغرى لم يكن في صالح البيزنطيين ، نظراً لأنه جعل السلاجقة يشنون غارات عديدة هوجاء في داخل الأراضي البيزنطية ، ومع ذلك فان هــذا الانهيار هيأ للامبراطور البيزنطي الكسيوس الفرصة لأن يستولي على حصون عديدة على الحدود . على ان الامبراطور الكسيوس لم يشأ ان يغامر بالقيـام بحملة في قليقية او الشام [٢] . وهـــذا الركود الاجباري من قِبَل الكسيوس ، لم يفد منه تانكرد فحسب ، بل أفاد منه ايضاً كواسيل ، الذي استطاع بموافقة الامبراطور ، فيما يبدو ، ان يدعم مركز إمارته في جبال طوروس الأمامية ، وفي درء خطر هجمات الترك . أما أمراء بيت روبين في جبـــال طوروس ، وهم أشد تعرضاً لاعتداء السلاجقة ، فضلاً عن ان قوات تانكرد منعتهم من التوسع في قليقية ، فلم يستطيعوا ان يزيدوا من سلطانهم ، وبذا لم يعد لكواسيل منافس في عالم الارمن [٣] .

الباطنية (الحشيشية) :

ومـا هو اكثر عوناً لتانكرد ، وأشد خطراً على كل محاولة اسلامية

---

(١) انظر : Michael the Syrian, III. pp. 194 - 195.
Ibn al - Qalanisi, p. 81.
(اورد ابن القلانسي قصة غامضة) . Cahen : op. cit. pp. 253 - 254.
(٢) Anna Comnena, XIV. 1. V - VI. pp. 141 - 146, 166 - 172.
Chalandon, op. cit. pp. 254 - 256.
(٣) عن كواسيل ، انظر : Matthew of Edessa, CLXXXVII, pp. 258-259.
CCX, pp. 281 - 282.

لقتال الصليبيين ، مـــا حدث من ظهور مذهب جديد ، شديد الميل الى التدمير ففي أواخر القرن الحادي عشر ، أنشأ حسن بن الصباح ، من الفرس ، جماعة دينية ، اشتهرت فيما بعد باسم الحشيشية . والمعروف ان حسن بن الصباح اعتنق مذهب الاسماعيلية ، الذي يرعاه الخلفاء الفاطميون ، وبرع في عقائد الباطنية فألمّ بأصولها . وليس معروفاً ما اذا كانت تعاليمه أصلحت الجانب التصوفي والرمزي من المذهب الاسماعيلي . على أن أهم مـــا قام به من إنجازات ، غلب عليها الصفة العملية ؛ إذ كان لزاماً عليه ان يقيم طائفــة تتفق في ولائها الشديد له ، باعتباره زعيمها الاكبر ، فاستخدمها لتحقيق الأغراض السياسية ، ووجّهها لمناهضة الخلفاء العباسيين ببغداد ، الذين تحدى شرعية خلافتهم . وأكثر ما وجّه هذه الطائفة بصفة خاصة ، كان لمناوأة الأمراء السلاجقة ، إذ ان الخلافة العباسية لم يطل أجلها إلا بفضل قوتهم . وأهم ما استخدمه حسن الصباح من أسلحة سياسية هو الاغتيال Assassination ، ومنه جاء الاسم الذي نعت به أتباعه . فالقتل من أجل العقيدة الدينية ، طالما استخدمه أرباب النحَل المختلفــة في الاسلام ، غـير انه بلغ الغاية في الأثر والفعالية على يد حسن بن الصباح . فما اشتهر به أتباعه من التعلق المطلق به ، والاستعداد لأن يرحلوا الى جهات بعيدة ، والتضحية بأنفسهم ، متى أمرهم بذلك ، كل ذلك هيأ له ان يوجّه طعناته الى خصومه في العالم الاسلامي .

وفي سنة ١٠٩٠ ، اتخذ حسن بن الصباح مقر دعوته في خراسان ، في قلعة ألموت المنيعة ، المعروفة بوكر النسر . وأول ما حدث من الاغتيالات ما جرى سنة ١٠٩٢ من مصرع الوزير نظام الملك ، الذي كانت كفـــايته وقدرته الدعامة الأساسية للبيت السلجوقي في إيران . على ان رواية ترجع

الى عصر متأخر زادت في جسامة هذا العمل وخطورته ، إذ أعلنت ان نظام الملك وحسن بن الصباح والشاعر عمر الخيام ، كانوا جميعاً طلاباً للعـالم المشهور الموفق النيسابوري ، وأقسم كل منهم على ان ينهض لمساعدة صديقه طوال حياته . وأدرك سلاطين السلاجقة مـا يثيره الحشيشية من خطر ، غير ان كل مـا بذلوه من محاولات لإخضاع ألموت ، باءت بالفشل . ولم يكد القرن الحادي عشر ينتهي ، حتى صار للحشيشية معاقل في الشام . إذ بذل لهم الرعاية رضوان صاحب حلب ، لما كان بينه وبين أبناء عمومته من السلاجقة من عداء . ولعل عقائد الحشيشية استهوته ، فاشتد تأثره بها . كان زعيمهم بالشام ، واسمه ابو طاهر ، حداداً فارسياً ، وكان له نفوذ وسلطان كبير عند رضوان . ولم تكن كراهية الحشيشية للمسيحيين تزيد كثيراً على بغضهم للمسلمين السنيين . ولعل استعداد رضوان للتعـاون مع تانكرد يرجع الى حد كبير الى ميله الى مذهبهم . وأول حادث اغتيال قاموا به في الشام ، هو ما وقع سنة ١١٠٣ من اغتيال جنـاح الدولة امير حمص . ولم تمض ثلاث سنوات على هـذا الحادث ، حتى قتلوا خلف ابن ملاعب امير أفاميـة ، غير انه لم يفـد من مصرعه سوى الفرنج بأنطاكية . ومع ان الباطنية لم يكشفوا حتى ذلك الوقت عن سياستهم إلا بما أقدموا عليه من اغتيالات متفرقة ، فانهم أضحوا عاملاً في السياسة الاسلامية ، لم يسع المسيحيون انفسهم إلا تقديره [1] .

---

(١) عن الباطنية والحشيشية ، انظر :

Von Hammer, Histoire de l'Ordre des Assassins.

Browne : Literary History of Persia, vol. II. pp. 193.

Lewis, B. The Ismailites and the Assassins in Setton : History of the Crusades, I. pp. 99 - 134.

انظر ايضاً ما جاء من مقالات في دائرة المعارف الاسلامية في مادتي الاسماعيلية ، الحشيشية .

حلف اسلامي جديد سنة ١١١١ :

تجهز مودود ، مرة اخرى ، بناء على أمر سيده السلطان السلجوقي ، لأن يقود سنة ١١١١ جيشاً لقتال الفرنج . ذلك انه حدث في أوائل هذه السنة أن قدم الى دار الخلافة ببغداد وفد من أهل حلب ، أثار غضبهم ما اشتهر به امير حلب (رضوان) من الزيغ والانحراف ، والانقياد الى تانكرد ، وطلبوا الى الخليفة ان يدعو الى الجهاد ، لتخليصهم مما يتعرضون له من تهديد من قبل الفرنج . ولما لم يحصلوا إلا على وعود جوفاء ، أثاروا أهل بغداد ، وحملوهم على التظاهر في جامع السلطان . وفي نفس الوقت ، استقبل الخليفة سفارة من امبراطور القسطنطينية ، ولم يكن ذلك امراً غير مألوف ، إذ ان القسطنطينية وبغداد كان لديهما من الدواعي المشتركة ما يحملها على كراهية سلاجقة الروم . غير ان الكسيوس ، فيما يبدو ، أصدر الى سفرائه تعليمات تقضي بأن يتناقشوا مع السلطات الاسلامية في احتمال القيام بعمل مشترك ضد تانكرد[1] . هذه المفاوضات جعلت الثائرين يجهرون باتهام الخليفة على الملأ ، ويعتبرونه أبغض عند المسلمين من الكسيوس الامبراطور المسيحي .

---

(١) Ibn al - Qalanisi, op. cit. pp. 112 - 115.

يشير ابن القلانسي الى وصول رسول « متملك الروم » بهدايا وتحف ومراسلات ، يحذر فيها المسلمين من خطط الفرنج ، ويلوح من طرف خفي بأن السفارة زارت دمشق . والواقع ان الكسيوس لم يقترح ، فيما يبدو ، إلا القيام بعمل ضد تانكرد ، اذ انه لم يلق من بين قادة الفرنج من يسانده في محاولته لحمل تانكرد على تنفيذ معاهدة ديفول . انظر ما سبق ، ص ٨٥ – ٨٦ . وما اورده ابن الاثير عن السفارة نقله عن ابن حمدون ، ويشير الى ان أهل حلب قالوا السلطان : « أما تتقي الله ان يكون ملك الروم اكثر حمية منك للاسلام » .

Ibn al - Athir, pp. 279 - 280.

انزعج الخليفة المستظهر لكل هذا الحماس ، ولا سيما ان ما حدث من اضطراب الأمن والفتن ، منعه من استقبال زوجته بالمظهر اللائق بها ، عند عودتها من زيارة والدها السلطان محمد بأصبهان [١] . فأرسل الى صهره (السلطان) ينبئه بما حدث ، فبادر السلطان محمد بأن أمر مودوداً ، بإنشاء حلف اسلامي جديد ، وجعل القيادة الاسمية لابنه مسعود . ومن الذين دعاهم لمساعدته في هذا الحلف العسكري ، سكمان امير ميافارقين ، وايلغازي بن أياز ، والاميرين الكرديين احمديل صاحب مراغة ، وابو الهيجاء صاحب اربل ، فضلاً عن بعض أمراء فارس ، بزعامة برسق بن برسق امير همدان . وأضحى الحلفاء مستعدين في شهر يوليو سنة ١١١١ ، فأسرعوا باجتياز الجزيرة ، وحاصروا تل باشر ، معقل جوسلين . ولما ذاعت أخبارهم ، أرسل اليهم سلطان امير شيزر ، يلتمس منهم المبادرة الى نجدته . وظنّ رضوان انه من حسن السياسة ان يخطرهم بضرورة الإسراع لمساعدته ، إذ لم يعد بوسعه ان يصمد طويلاً امام تانكرد . وإذ تأثر مودود بما حدث من تغير عاطفة رضوان ، وبناء على اقتراح احمديل الذي قامت بينه وبين جوسلين علاقات سرية ، رفع الحصار عن تل باشر وقاد جيوشه لمساعدة حلب . غير ان رسالة رضوان الى مودود لم تكن صادقة ، فلم تكد القوات الاسلامية المتحالفة تقترب من حلب ، حتى أغلق رضوان في وجهها أبواب المدينة ، واتخذ من إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات أن أمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن . وإذ خاب أمل مودود ، لم يسعه إلا ان يتحرك بجيشه جنوباً الى شيزر ، بعد ان

---

(١) Ibn al - Athir, loc. cit.

خرب ونهب ما حول حلب من القرى . ولحق بمودود الى شيزر طغتكين أتابك دمشق ، الذي قدم الى بغداد ليطلب المساعدة لاستعادة طرابلس[1].

أمـــا تانكرد الذي عسكر امام شيزر ، فانه تراجع الى أفامية ، وأرسل الى الملك بلدوين يستنجد بـه . فاستجاب له الملك ، وأرسل الى سائر الفرسان بالشرق الفرنجي ، ليلحقوا به . فقدم معه البطريرك جبلين ، وكبار الأتباع بالمملكة ، أمثـــال جارنييه سيد صيدا ، ووالتر صاحب حبرون ، وبرتراند كونت طرابلس . ومن الشمال جاء بلدوين كونت الرها ، بصحبة تابعيه الكبيرين جوسلين سيد تل باشر ، وباجان صاحب سروج ، واستدعى تانكرد أتباعه من سائر جهات انطاكية ، فقـــدم اليه جاي الملقب بالمعزة ، من طرسوس والمصيصة ، ورتشرد صاحب مرعش ، وجاي المعروف باسم الزّانة سيد حـــارم ، وروبرت صاحب السويدية ، وروجر صاحب هاب ، ومارتن صاحب اللاذقية ، وبونابلوس صاحب سرمَدا ، وبونز صاحب تل مَنّس ، وانجيران صاحب أفاميـــة ، وأرسل كواسيل وآل روبين فصيلة أرمنية ، بل ان أوشين صاحب لامبرون ، بعث بجماعة من جنـــده ، والراجح ان عملهم اقتصر على التجسس لحساب الامبراطور . وتجردت بذلك الحدود الشمالية من العساكر ، وفي ذلك مصلحة لطغرل ارسلان امير ملطية ، الذي بادر بالاستيلاء على البستان والجهات المجاورة ،

---

(١) انظر :

Ibn al - Qalanisi, pp. 114 - 115.
Kemal ad - Din, pp. 600 - 601.
Ibn al - Athir, p. 282.
Albert of Aix, XI. 38, p. 681.

فانتزعها من حامية للفرنج قليلة العدد ، ثم قام بالغارة على قليقية [١] .

هزيمة مودود سنة ١١١١ :

على ان مودوداً ، تحصّن خلف أسوار شيزر ، قبل ان يكتمل حشد الفرنج الذين بلغ عددهم نحو ستة عشر ألف مقاتل ، ورفض ان يجرّه الفرنج للاشتباك في معركة حاسمة . على ان الامور لم تجرِ على نحو طيب في جيشه ، إذ ان طغتكين لم يشأ ان يبذل له المساعدة ، إلا بعد ان تعاهد مودود بالمضي بجملته الى الجنوب ، وهذه الحركة تعتبر بالغة الخطورة من الناحية العسكرية . أما برسق الكردي فأصابه المرض ، وأراد ان يعود الى بلاده . ومات سكمان فجأة ، فانسحبت قواته صوب الشمال حاملة جثمانه . وبادر احمديل الى الانسحاب بعساكره من جيش مودود ، كيما يحاول ان ينتزع له جانباً من إرث سكمان . وبقي ايلغازي الارتقي بعساكره ، بينما هاجم والده ايلغازي الجماعة التي تحمل جثمان سكمان ، أملاً في ان يحصل على شيء من ثروته ، ولكن لم يتحقق رجاؤه . ولم يعد بوسع مودود القيام بالهجوم ، نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم ، كما انه لم يكن راغباً في ان يقضي الشتاء بعيداً عن قاعدته . ولذا تراجع

---

(١) انظر : Albert of Aix, XI. 39 - 40, pp. 682 - 683.

وعن قائمة الخلفاء ، انظر :

Matthew of Edessa, CCVI. p. 275.
Michael the Syrian, III. p. 205.

(أشار متى الرهاوي الى سقوط البستان) .

في الخريف الى الموصل [1] .

ودلّ فشل مودود على انه لم يقم بين المسلمين من الاتحاد والتحالف ما يحملهم يشنون هجوماً مضاداً طالما اتحد الفرنج ، ونجح الملك بلدوين في فرض الاتحاد عليهم ، وبذا نجت إمارات الفرنج في الوقت الراهن . وما قام به مودود في الصيف التالي من غارة على بلاد الرها ، كانت مثمرة ، غير انها لم تؤدّ الى نتيجة حاسمة . وأصلح طغتكين امره مع رضوان ، بأن تعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال ، ولعل ذلك راجع الى ان رضواناً حاول ان يحرض أصدقاءه من الباطنية على اغتياله [2] . غير ان الخطر الاسلامي تضاءل وقلّ شأنه في الوقت الراهن . وكان لا بد ان يبدأ الشجار بين المسيحيين من جديد ، اولاً ، لأن الفرنج قرروا ان يهاجموا كواسيل ، الذي حسده بلدوين كونت الرها وتانكرد ، لما جرى من ازدياد نفوذه وسلطانه . فغزا تانكرد بلاده واستولى على

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, II. XLV. 1 - 9, pp. 549 - 557.
Albert of Aix, XI. 41 - 43, pp. 683 - 684.
Ibn al - Qalanisi, pp. 116 - 119.
Usama, ed. Hitti, pp. 97 - 98.
Kemal ad - Din, p. 600.
Ibn al - Athir, p. 83.

استمد ابن الاثير روايته من ابن القلانسي وابن حمدون ، غير انها وردت مضطربة عند ابن الاثير . انظر : Cahen : op. cit. p. 693, n. 33.

(٢) انظر : Kemal ad - Din, pp. 601 - 602.
Albert of Aix, XI. 43, p. 684.

يشير البرت الى استيلاء الفرنج على عزاز وقتذاك ، والواقع ان عزازاً ظلت بأيدي المسلمين حتى سنة ١١١٨ . انظر ما يلي ، الكتاب الاول ، الفصل السادس .

رعبان ، واستعد لحصار كيسوم ، قبل ان ينعقد الصلح بينها[١] . امـــا السبب الثـاني ، فهو ان بلدوين كونت الرها ، انقلب فجـأة على ابن عمته جوسلين . فحينما هـــاجم مودود الرها في صيف سنة ١١١٢ ، اكتشف جوسلين مؤامرة دبّرها الارمن لتسليم المدينة للمسلمين ، فأنقذ بلدوين بأن أنذره بالخطر ، وانحاز اليه واتخذا سوياً إجراء حاسماً ضد الخونة . غير انه حــدث في الشتاء التـــالي أن ترامى الى سمع بلدوين الشائعات التي تردد ان جوسلين تحدث في انتزاعه من الرها والحلول مكانه . والمعروف ان إقطاع تل باشر اشتهر بخصوبته ، في حين ان بلاد الرها لحقت بهـــا أضرار شديدة ، لما تعرضت له من الغارات ، والهجرة الاضطرارية منها . والواقع انه لم يكن في سلوك جوسلين ما يثير مخاوف بلدوين منه ، التي استندت ، فيما يبدو ، الى الغيرة والحقـــد . ففي نهاية سنة ١١١٢ ، تقرر استدعاء جوسلين الى الرهـا . وأشار بلدوين الى انه مريض ، ولا بد ان يتناقشا معاً في امر ولاية حكم الرها من بعده . ولم يكد جوسلين يصل الى الرها ، دون ان يظن انه مذنب ، حتى جرى اتهامه بأنه لم يمدّ الرها بالمؤن الكافية من أراضيه ، وصدر الامر بإلقـائه في السجن . ولم يُطلق سراحه إلا بعد ان وعد بالتنازل عن إقطاعه . وحوالي مستهل السنة التالية ، انسحب جوسلين نحو الجنوب الى بيت المقدس ، حيث منحه الملك بلدوين إمارة الجليل إقطاعاً له[٢] .

---

(١) انظر : Matthew of Edessa, CCIX. pp. 280 - 281.

(٢) انظر : William of Tyre, XI. 22, pp. 489 - 492.

Matthew of Edessa, CCVIII. p. 280.

يشير متى الرهاوي الى ما حدث أثناء حصار مودود من تدبير مؤامرة على الفرنج .

انظر ايضاً : Chron. Anon. Syr. p. 86.

Ibn al - Qalanisi, op. cit. p. 133.

وفاة تانكرد سنة ١١١٢ :

وشهدت سنة ١١١٢ تغييرات اخرى كثيرة بشمال الشام . إذ مات كواسيل في ١٢ اكتوبر ، فبادرت أرملته بإرسال الهدايا الى تانكرد ، ومن بينها تاجها الذي بذلته للاميرة سيسيليا ، كما يكفل لها المساعدة في ان يتولى العرش واسيل دغا الذي اتخذته ابناً لها . غير ان تانكرد نفسه كان يطمع في الملك [١] . ومن الذين ماتوا في هذه السنة من الفرنج ، رتشرد النرماني الذي قضى نحبه في الربيع [٢] ، وبرتراند كونت طرابلس الذي مات في يناير او فبراير . اما الشاب بونز ، ابن برتراند وخليفته في الحكم ، فانه لم يشارك أباه في الميل الى البيزنطيين ، ولا في الكراهية لتانكرد . والراجح ان مجلسه رأى انه لا بد من كسب رضى تانكرد ، اذا أراد الكونت الشاب ان يستقر في مركزه . فتمّ الوفاق بين بلاطي طرابلس وانطاكية ، وبذا زاد نفوذ تانكرد [٣] وتحققت سيادته ، بعد ان حلّ الهوان بجوسلين ، ومات كل من صديقه كونت طرابلس ، والامير الارمني الكبير . وبينما كان تانكرد يعدّ حملة لغزو بلاد كواسيل ، دهمه المرض فجأة . وكان لا بد ان تسري الشائعات ، عن دسّ السم له . والراجح ان

---

(١) انظر : Matthew of Edessa, CCX. pp. 281 - 289.
على ان تاريخ وفاة رتشرد ليس معروفاً ، اذ لم يكن حياً عند وفاة تانكرد ، غير انه كان عائشاً في الشتاء السابق .

(٢) Ibn al - Qalanisi, p. 127.
يشير ابن القلانسي الى ان نبأ وفاة برتراند وصل الى دمشق في اليوم الثالث من فبراير .

(٣) عاش بونز ، فيما يبدو ، زمناً في بلاط تانكرد ، الذي نصبه فارساً .

مرضه كان حمى التيفود . ولما تحقق تانكرد انه سوف لا يبرأ ، رشح ابن اخته روجر سالرنو ابن رتشرد النرماني ، ليكون وريثاً له في الحكم ، غير انه أجبر روجر على ان يحلف بأن يسلم الحكم الى الابن الاصغر لبوهمند ، متى قدم الى الشرق . وفي الوقت ذاته طلب الى بونز ان يتزوج من أرملته سيسيليا الفرنسية . ومات تانكرد في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ ، ولم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره [١] .

الواقع ان شخصية تانكرد لم يظهر لمانها من ثنايا سحب التاريخ . اشتهر تانكرد بوفرة نشاطه وشدة كفايته ، وبأنه سياسي بارع ، وجندي ثابه . وكان كلما تقدم في العمر ، ازداد تعقلاً وحكمة . غير انه لم يبلغ من ذيوع الصيت ما أحاط بخاله بوهمند ، كما انه لم يكن ، فيما يبدو ، محبوباً من رجاله ، باستثناء مؤرخ حياته رادولف كاين ، الذي أفرط في مدحه . وكان تانكرد معروفاً ايضاً بالشح ، والسعي لمصلحته ، وإغفال الضمير . وبرغم مـــا اشتهر به من الاستقامة ، لم يكن شديد الولاء لبوهمند ، ولم يكن رفيقـاً صادقاً لبلدوين كونت الرها . ولولا تدخل الملك بلدوين ، الذي يضارعه في القسوة ، ويفوقه في اتساع الأفق وبُعـد النظر ، لترتب على أنانيته وانفراديته دمار الشرق الفرنجي . جعل تانكرد هدفه توطيد بناء

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, II. XLVII. 1, pp. 562 - 563.
(جعل وفاته في ١٢ ديسمبر) .
Albert of Aix, XII. 8, p. 693. (جعلها في عيد البشارة) .
Ibn al - Qalanisi, pp. 131 - 132. (جعلها في ١١ ديسمبر) .
Michael the Syrian, III. p. 203. (جعلها في ٥ ديسمبر) .

إمارة انطاكيـــة ، وامتداد رقعتها ، وحقق في ذلك نجاحاً باهراً . فلو لم يقم بهذا العمل ، لأصاب الدمار الأساس الذي وضعه بوهمنـــد . ولم يكن تاريخ أمراء انطاكية الطويل ، إلا من ثمار نشاطه . فما من أحد من أمراء الحملة الصليبية الاولى ، باستثناء الملك بلدوين ، وهو مغـــامر مفلس مثله ، حظي بما حظي به تانكرد من حياة بالغة الإثارة . ومع ذلك فانه حينما جرى حمله الى مدفنه في مدخل كاتدرائية القديس بطرس (بأنطاكية) ، لم يصادف المؤرخون من مظاهر الأسى والحزن مـــا يصح روايته في تواريخهم . فلم يكتب بحرارة عنه وينعي وفـــاته سوى المؤرخ الارمني متى الرهاوي [1] .

وترتب على تولية روجر الحكم في انطاكية ان عاد الوفاق بين الفرنج . واتخذ روجر لقب امير ، على الرغم من اعترافه بدعاوى ابن بوهمند في الحكم . تزوج روجر من سيسيليا اخت بلدوين كونت الرها [2] . ومع ان

---

(١) انظر : Matthew of Edessa, loc. cit.
حيث أشار الى انه أعظم المؤمنين جميعاً .

(٢) اشتهر روجر بأنه صهر بلدوين ، حسبما ورد في :
William of Tyre, XI. 9, p. 523.
Walter the Chancellor, II. 16, p. 131.
وورد اسم سيسيليا في وثيقة ترجع الى سنة ١١٢٦ .
انظر : (Röhricht, Regesta, Additamenta, p. 9).
اما المؤرخ Orderic Vitalis, X. 23, IV, p. 158. ، فانه جعل لروجر زوجة تركية اسمها ميلاذ Melaz ، ابنة الامير الدانشمند ، وهي التي سعت لإطلاق سراح بوهمند . انظر ما سبق ، ص ٦٥ — ٦٦ .

روجر لم يكن زوجاً صالحاً ، فانه ظل دائماً محافظاً على أواصر المحبة مع صهره بلدوين كونت الرها . اما اخته ماريا فانهـا أضحت زوجة اخرى لجوسلين كورتيناي [1] . اما بونز كونت طرابلس ، فانه نفذ وصية تانكرد بأن تزوج من أرملته سيسيليا الفرنسية ، وظل صديقاً وفياً له [2].
واتفق الأمراء الثلاثة متحدين على اعتبار الملك بلدوين سيدهم الأعلى . هذا التماسك النادر ، وما يقابله من تجدد المنازعات بين الأمراء المسلمين ، أدّى الى ان يبلغ سلطان الفرنج الذروة في شمال الشام .

وفاة مودود ورضوان ، سنة ١١١٣ :

وفي سنة ١١١٣ شرع الملك بلدوين في القيـام بحملة لقتـال طغتكين أتابك دمشق ، الذي ظفر آخر الامر بمساعدة مودود وأياز الارتقي ، ونجح الحلفاء المسلمون في استدراج الملك بلدوين الى أراضي دمشق ، الى جسر الصنبرة ، الواقع بالمجرى الأعلى لنهر الاردن ، حيث تعرّض لهجوم المسلمين ،

---

(١) لم يُعرف شيء عن ماريا ، إلا حينما وقع فيما بعد شجار حول عائلتها . انظر مـا يلي ، الكتاب الثـاني ، الفصل الاول . وورد في التـاريخ السرياني المجهول ، ان جوسلين تزوجها سنة ١١٢١ . انظر : (Chron. Anon. Syr. p. 89).
والواضح ان زواجها جرى أثناء حيـاة روجر . والمعروف ان ابنتها ستيفاني كانت امرأة عجوزاً في سنة ١١٦١ . انظر ما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الرابع .

(٢) لم يتم الزواج حتى سنة ١١١٥ ، حسبما ورد في :
Albert of Aix, XII. 19, p. 701.
غير ان ريموند الثاني ، ابن بونز ، كان له من العمر ، فيما يبدو ، سنة ١١٣٦ ، نحو ٢٢ سنة.

وقد نسي لأول مرة ما اشتهر به من الحذر ، فنزلت به هزيمة ساحقة [١].
لقد استنجد بلدوين بكل من بونز وروجر ، وترتب على قدومهما بجميع فرسانهما ان استطاع ان يخلص نفسه . ومضى المسلمون في زحفهم حتى بلغوا طبرية ، غير انهم لم يخاطروا بمواجهة كل جيش الفرنج . وبعد ان ظل مودود وطغتكين على ترددهما بضعة أسابيع ، قررا الانسحاب الى دمشق . وبينما كان مودود يدخل المسجد الكبير مع مضيفه (طغتكين) لتأدية صلاة آخر يوم جمعة في شهر سبتمبر سنة ١١١٣ ، حتى طعنه احد الباطنية بخنجر ، فلقي مصرعه . فبادر طغتكين بقتل الجاني ، لتبرئة نفسه من جريمة القتل . واعتبره الرأي العام انه هو الجاني ، غير انهم التمسوا له العذر ، بما دبره مودود من خطط للاستيلاء على دمشق [٢] .

وتخلص الفرنج من عدو لدود لهم ، بوفاة مودود . ولم يمض شهران على مصرعه ، حتى لحق به رضوان امير حلب ، في ١٠ ديسمبر سنة ١١١٣ [٣].
وما اتسمت به علاقة رضوان مع سائر المسلمين من البرود والفتور ، أسهمت الى حد كبير في توطيد ملك الفرنج في الشام ، غير ان المسلمين لم يفيدوا كثيراً من وفاته . خلفه على الحكم بحلب ، ابنه ألب ارسلان ، ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، واشتهر بأنه ولد ضعيف ، سيء الخلق ، غليظ القلب ، فأضحى في حوزة طواشيه المحظوظ لؤلؤ . على ان

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 132 - 136.

(٢) Ibn al - Qalanisi, pp. 137 - 142.

(٣) Ibid, p. 144.
Kemal ad - Din, p. 602.

الباطنية الذين تولى رضوان حمايتهم ، لم يجدوا من الحكومة الجديدة المساندة والتأييد ، بناء على الأوامر العاجلة الصادرة من السلطان محمد . ذلك ان رسوله ، ابن بديع الفارسي ، أجبر ألب ارسلان على ان يصدر قراراً بإعدام ابي طاهر الصائغ وغيره من زعماء الباطنية . اما أهل حلب الذين كرهوا الباطنية منذ زمن طويل ، فأقاموا المذابح لكل من يقع في أيديهم منهم . وللدفاع عن انفسهم ، حاول الباطنية ، عند وفاة رضوان ، ان يستولوا على قلعة حلب ، غير انهم فشلوا في ذلك [1] . ولم تلبث جماعة منهم ان قامت بهجوم مفاجيء على قلعة شيزر ، أثناء خروج اسرة الامير لمشاهدة الاحتفال بعيد القيامة المسيحي ، غير ان سكان المدينة انحازوا الى الامير في قتالهم . وكل ما أحرزوه من انتصار لم يتجاوز الاستيلاء على حصن القليعة ، قرب بالس ، على الطريق الممتد من حلب الى بغداد عند اقترابه من نهر الفرات . ثم تفرقوا في البلاد ، فمنهم مَن مارس نشاطه خفية ، ومنهم مَن هرب الى الفرنج يلتمس حمايتهم . غير انهم لا زالوا أقوياء ، فأخذوا يوجّهون اهتمامهم الى لبنان [2] .

لم يستمر حكم ألب ارسلان فترة طويلة . قام أثناءها بزيارة ودية الى دمشق ، فاستقبله طغتكين بما يليق به من مظاهر التشريف . غير ان ما اشتهر به

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 145 - 146.
Kemal ad - Din, pp. 603 - 604.
Cahen : op. cit. pp. 267 - 268.

(٢) Ibn al - Qalanisi, pp. 146 - 148.
Usama, ed. Hitti, pp. 146 - 153.

(لم يشر الى تاريخ مهاجمة شيزر) .

ألب ارسلان من سوء الخلق ، حمل لؤلؤ الذي خاف على حياته ، ان يدبر في سبتمبر سنة ١١١٤م ، أمر مصرعه في فراشه ، وان يقيم على العرش أخاه سلطان شاه ، الذي لم يتجاوز السادسة من عمره . وأضحى الطواشي لؤلؤ ، وقائده شمس الخواص امير رفانية السابق ، يسيطران على قلعة حلب وجيشها بضع سنوات . والواقع ان السلطة الفعلية كانت بأيدي أعيان المدينة ، الذين لم يستطع لؤلؤ ان يتجاهل رغباتهم . غير ان ما افتقدته حلب من امير قوي ، وجيش كبير ، جعلها من الضعف انها لم يعد بوسعها إلا الدفاع عن أسوارها ، على حين ان السلطات الجديدة اعتبرها جيرانها انها ذات ميول شيعية خطيرة ، على الرغم من طرد الباطنية من حلب ، وذلك راجع الى نفوذ الفرس بالمدينة . وترتب على ذلك ان حرص لؤلؤ على ان ينتهج سياسة رضوان ، القائمة على مراعاة الصداقة مع الفرنج بأنطاكية والولاء لهم[١] .

وعند وفاة مودود ، جعل السلطان الموصل لممثله في دار الخلافة ، وهو أقسنقر البرسقي ، وهو جندي تركي نابه مثل سلفه (مودود) ، فأضحى من واجب أقسنقر ان يقوم بقتال الفرنج . ففي مايو سنة ١١٢٤ ، قاد جيشاً مؤلفاً من خمسة عشر الف رجل لمهاجمة الرها . وصحبه مسعود ابن السلطان السلجوقي ، وتميراك امير سنجار ، وصبي تركي اسمه عماد الدين زنكي ، بن أقسنقر ، الذي سبق ان تولى حكم حلب وحماه قبل سنوات من قدوم الحملة الصليبية الاولى . وتقررت دعوة ايلغازي امير ماردين ، لينحاز

---

(١) Ibn al - Qalanisi, pp. 148 - 149.
Kemal ad - Din, pp. 605 - 606.

الى الحملة ، غير أنه رفض الدعوة . ولذا كانت الخطوة الاولى للحملة ، هي ان ترحف على ماردين ، وعندئذ لم يسع ايلغازي إلا ان يوافق على إنفاذ ابنه أياز مع جماعة من الأجناد التركمان . وظل المسلمون مرابطين امام الرها نحو شهرين ، وإذ نزل بالمدينة حامية قوية ، وتوافرت بها المؤن ، على حين ان ما نهبه المسلمون من قرى المدينة من المؤن لم يكد يكفي لسد حاجة قواتهم ، كان لزاماً على أقسنقر البرسقي ان يرفع الحصار عن المدينة ، واكتفى بنهب القرى ، حتى هيأ له الأرمن مجالاً جديداً للحركة والعمل [١] .

سقوط واسيل دغا سنة ١١١٦ :

وما حـــدث سنة ١١١٢ من مؤامرة الارمن لتسليم الرها لمودود ، تكررت في السنة التالية ، بينما كان مودود على وشك الاغارة على أملاك الفرنج ، وكان بلدوين كونت الرها وقتذاك في تـل باشر ، يدير اقطاع جوسلين . واكتشفت المؤامرة الثانية في الوقت المناسب ، وأصر بلدوين على نقل جميع سكان الرها من الأرمن الى سميساط . على ان بلدوين أذن للأرمن بالعودة الى الرها سنة ١١١٤ ، بعد ان لقنهم درساً قاسياً . غير ان فريقاً منهم ارتحل الى بلاد واسيل دغا ، وريث كواسيل ، وقد ارتاع لمحاولات الفرنج المتكررة للاستيلاء على املاكه (كيسوم) . وعندئـــذ أرسل هو ووالدته الى البرسقي يدعوانه لتخليصها من الفرنج . فلم يسع

---

(١) انظر : Matthew of Edessa, CCXII. pp. 282 - 283.
CCXVI. p. 287.
Chron. Anony. Syr. p. 86.
Ibn al - Athir, pp. 292 - 293.

البرسقي إلا ان يرسل احـــد قادته ، وهو سنقر الطويل ، الى كيسوم للتفاوض مع واسيل دغا . سمع الفرنج بما حدث ، غير ان محاولاتهم لمهاجمة سنقر والارمن باءت بالفشل ولم تؤدِ الى نتيجة من النتائج . ولم يلبث النزاع ان نشب بين البرسقي وأياز ، فأمر البرسقي بحبسه ، وذلك قبل ان يفيد المسلمون من التحالف الجديد . وعندئذ استدعى ايلغازي ، والد أياز ، عشيرته وتركمانه ، وزحف بهم على البرسقي ، فأنزل به هزيمة ساحقة وأرغمه على العودة الى الموصل . وللمرة الثانية انتهت بالفشل حركة الجهاد الديني التي أثارها المسلمون على الفرنج [1] .

ودفع الارمن ثمن كل هـــذا باهظاً . اذ سار الفرنج لإنزال العقاب بواسيل دغا ، غير انهم لم يستطيعوا الاستيلاء على حاضرته ، حصن رعبان . فرأى واسيل انه من الحكمة ان يسعى للتحالف مع الامير ثوروس من بيت روبين . غير ان ثوروس لم يلبث ، بعد ان دعاه للقدوم للمناقشة في أمر تحالف مبني على المصاهرة ، أن امر بحبسه ، ثم باعه لبلدوين كونت الرها . ولم يتم اطلاق سراح واسيل إلا بعـد ان وعد بالتنازل عن كل أراضيه لبلدوين . وعندئذ سمح له بلدوين بالالتجاء الى القسطنطينية . ولما تم لبلدوين الاستيلاء على رعبان وكيسوم ، سنة ١١١٦ ، عزم على استئصال شأفة ما تبقى من الامارات الارمنية ، الواقعة بوادي الفرات . ففي سنة ١١١٧ ، بادر بلدوين بطرد امير البيرة ، ابي الغريب الذي سبق ان استقر بهذه الجهة ، بفضل مساعدة بلدوين أثناء الحرب الصليبية الاولى . وبذل بلدوين

---

(١) انظر : Matthew of Edessa, CCXII. pp. 282 - 284.
Michael the Syrian, III. pp. 216 - 217.
Ibn al - Athir, pp. 292 - 294.

البيرة إقطاعاً لابن عمه واليران لى بوزيه ، الذي تزوج من ابنة أبي الغريب ثم هاجم الصديق القديم لبلدوين الاول ، والذي صار فيما بعد عدواً له ، بفراط ، شقيق كواسيل ، الذي حكم وقتذاك خوروس ، وهي امارة صغيرة ، تقع في غرب الفرات . ثم غزا آخر الامر بلاد حليف آخر لبلدوين ، وهو الامير قنسطنطين صاحب كركر ، الذي أسره وأمر بحبسه في سميساط ، حيث راح ضحية وقوع زلزال . ولم يلبث الامير الروبيني ان اطمأن الى انه لم يبق سواه من امراء الارمن المستقلين . فإذا تركنا بيت روبين جانباً ، فقد الارمن الثقة في الفرنج [1] .

والواقع ان استيلاء بلدوين كونت الرها على الممتلكات الارمنية ، هيأه تضاؤل الخطر من جهة الشرق ، فالسنوات السابقة حفلت بالقلق والاضطراب . اذ ان الزلزال الذي وقع في نوفمبر سنة ١١١٤ خرّب اراضي الفرنج ، من انطاكية والمصيصة الى مرعش والرها . وبادر روجر امير انطاكية يتفقد حصونه الرئيسية ، وأمر بعمارة اسوارها ، نظراً لما تردد من شائعة ان السلطان محمد يُعد حملة جديدة [2] .

---

(١) Matthew of Edessa, CCXIII - CCXIV, pp. 293 - 295.
Chron. Anon. Syr. p. 86.
الراجح ان واليران كان أخاً لهيو لى بوزيه ، وكانت امها أليس خالة لبلدوين الثاني ، وابنة عم تانكرد . انظر ما يلي ، الكتاب الثاني الفصل الثاني .

(٢) انظر : Fulcher of Chartres, II. LII. 1 - 5, pp. 578 - 580.
Walter the Chancellor, I. pp. 83 - 84.
Matthew of Edessa, CCXVII. pp. 278 - 279.
Ibn al - Qalanisi, p. 149.
Kemal ad - Din, p. 607.

حملة برسق بن برسق سنة ١١١٥ :

يعتبر محمد آخر سلاطين السلاجقة العظام . تسلم من اخيه بركياروق دولة متداعية ، فأعاد الأمن الى نصابه في العراق وايران ، وقمع سنة ١١٠٨ ما حدث في الصحراء الشرقية من تمرد العرب وعصيانهم ، وكبح جماح الباطنية . أما الخليفة المستظهر الذي أخلد الى الدعة وكتابة شعر الغزل في قصره ببغداد ، فانه احترم ما للسلطان السلجوقي من نفوذ وسلطان . غير ان محاولات السلطان لإعداد حملة لطرد الفرنج من الشام باءت جميعها بالفشل . وأدرك السلطان محمد أنه لإحراز النجاح ، لا بد ان يفرض سلطته على سائر الامراء المسلمين بالشام ، غير أنه لم يفسد غرضه ويدمره ، إلا ما وقع بين الامراء المسلمين من أحقاد وفتن . ففي فبراير سنة ١١١٥ ، وبعد ان اطمأن الى ولاء الموصل بأن ارسل ابنه مسعوداً ليتولى امر حكومتها ، وجه جيشاً كثيفاً صوب الغرب بقيادة برسق بن برسق امير همدان ، ويسانده جيوش بك أتابك الموصل السابق وتميراك امير سنجار .

وارتاع لذلك الامراء المسلمون بالشام وكذا الفرنج . اذ لم يكن موالياً للسلطان من امراء الشام وقتذاك سوى بني منقذ في شيزر ، وابن قراجا امير حمص . واذ شاع خبر الحملة ، بادر ايلغازي الأرتقي بالقدوم الى دمشق لعقد التحالف مع طغتكين ، غير ان امير حمص ألقى القبض عليه وهو في طريق عودته ، ولم يطلق سراحه إلا بعد ان وعد بأن يرسل ابنه أياز ليحل مكانه في الاعتقال . وعاد ايلغازي الى ماردين ، فحشد عساكره ، وتوجه شطر الغرب لينحاز الى طغتكين . أما الطواشي لؤلؤ ،

متولي امر حلب ، فانه بعد ان بذل الوعود لكلا الجانبين بالمساعدة ، قرر ان انتصار السلطان سوف لا يفيده ، ولذا انحاز الى ايلغازي وطغتكين . وفي تلك الأثناء حشد روجر امير انطاكية جنده ، واتخذ له موقعاً عند جسر الحديد على نهر الاورنت . وفي هذا الموضع ، عقد روجر اتفاقاً مع طغتكين وحلفائه . وليس معروفاً أيهما اتخذ المبادرة الى عقد الاتفاق . ودعا روجر جيش طغتكين وحلفائه للانضمام الى قواته امام اسوار أفامية ، التي تعتبر موضعاً بالغ القيمة في ملاحظة تحركات برسق عند عبور الفرات ، والمسير نحو اصدقائه بشيزر . وبذل الفرنج نحو الفين من الفرسان والرجالة ، بينما أعد حلفاؤهم من المسلمين نحو خمسة آلاف مقاتل .

لم يلقَ برسق مقاومة حينما اجتاز الجزيرة بجيشه الضخم . كان يأمل في ان يتخذ من حلب مركزاً لقيادته ، غير انه لما سمع بأن لؤلؤاً انحاز الى خصومه وأن طغتكين تزعّمهم ، انحرف نحو الجنوب لقتال طغتكين . وبفضل مساعدة امير حمص ، قام برسق بهجوم مفاجيء على حماه ، التابعة للأتابك طغتكين والتي حوَت قدراً كبيراً من متاعه . وتمّ الاستيلاء على المدينة ونهبها ، مما أثار غضب المسلمين المحليين ، ثم مضى لمهاجمة كفرطلب من حصون الفرنج . وأحبّ روجر ان يغير اتجـاهه حتى يحوّل اهتمام خصمه الى جهة اخرى ، غير ان طغتكين أقنعه بخطورة ما يُقدم عليه . وعوضاً عن ذلك استنجد الحلفاء ببلدوين ملك بيت المقدس ، وبونز كونت طرابلس ، اللذين عجلا بالمسير صوب الشمال ، ومع بلدوين خمسمائة فارس وألف راجل ، وقاد بونز مائتي فارس وألفي راجل . ودخلا الى المعسكر بأفامية على دقات النقارات . على ان برسق الذي اتخـذ قاعدته وقتذاك في شيزر ، رأى ان من الحكمة التقهقر نحو الجزيرة . ونجحت حيلته ، اذ

ان كلا من بلدوين وبونز اعتبر ان الخطر قد زال ، فعاد الى بلده ، وتبدد الجيش المتحالف . وعنـدئذ انكفأ برسق فجأة راجعاً الى كفرطاب . لم يستغرق القتال إلا وقتاً قصيراً ، فاستولى على القلعة وسلمها الى بني منقذ . وكتب لؤلؤ ، سواء عن خيـانة او عن حيلة وخدعة ، الى برسق يعتذر له عمـا ارتكبه من ذنوب ، ويطلب منه ان يرسل اليه كتيبة لاحتلال حلب . فأرسل جيوش بك بقواته الى حلب ، فأضعف بذلك جيوشه . ولم يكن روجر امير انطاكية قـد صرف عساكره ، فلم ينتظر قدوم المساعدة من قبـل بلدوين او من جهة بونز ، او من طغتكين . ففي ١٢ سبتمبر غادر روجر انطاكية ، بعد ان دعا بلدوين كونت الرها لنجدته . وطلب من البطريرك برنارد ان يبـارك جنوده ، وان يبعث معهم بقطعة من الصليب المقدس ، فسار صوب الجنوب إزاء نهر الاورنت قاصداً مرج الروج Chastel Rouge ، بينما مضى برسق نحو الشمال ، موازياً له ، انما في داخل البلاد . ولم يعـلم كل من الجيشين موضع الجيش الآخر ، حتى قدم راكضاً الى مرج الروج من حملة استكشافية ، فارس اسمه تيودور برنفيل ، فروى أنه شاهد جيش السلطان يجتاز الغـابة في طريقه الى تل دانث قرب مدينـة سرمين . وفي صبيحة يوم ١٤ سبتمبر سنة ١١١٥ ، زحف جيش الفرنج على الحافة الفاصلة بين الجيشين ، فانقضّ على برسق ، بينما كان عساكره يسيرون مضطربين ، دون ان يحفلوا بالنظام . كانت الدواب التي تحمل الأمتعة تسير في مقدمة الجيش ، وتوقف بعض سرايا الجيش لإقامة الخيام ، يستظلون بهـا وقت الظهيرة ، وصحب بعض الأمراء جماعات من الجنـد للاحتطاب والحصول على العلف من المزارع المجاورة ، بينما توجّه آخرون للاستيلاء على الزراعة فلمـا نشبت المعركة لم يكن مع برسق خيرة قادته .

معركة تل دانث سنة ١١١٥ :

لم يكن هجوم الفرنج امراً متوقعاً ، اذ وثبوا فجأة من أعالي الاشجار ، وعجلوا باقتحام المعسكر الذي لم يكتمل إعداده . ولم يلبث الاضطراب والخلل ان ساد الجيش الاسلامي ، ولم يستطع برسق ان يجمع شمل رجاله ، بل انه أفلت من الأسر بأعجوبة ، فلجأ مع بضع مئات من رجاله الى نشز على تل دانث . ومن هذا الموضع ردّ العدو لفترة من الزمن ، وسعى الى الاستشهاد وهو يقاتل ، فذلك خير له من ان يواجه فضيحة الهزيمة ، على ان حرسه أقنعوه آخر الامر بأنه بذل كل مـا في وسعه ، ولن يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك ؛ فامتطى فرسه ولاذ بالفرار نحو الشرق . أما تميراك امير سنجار ، فكان اكثر توفيقاً اول الامر ، اذ ردّ الجناح الأيمن للفرنج على أعقـابه . غير ان جاي فريسنل سيد حارم ، جلبَ أمداداً جديدة ولم يلبث ان طوّق رجال سنجار ، ولم ينجُ بحيـاته إلا أمرع الفرسان عدواً . وحينما حلّ المساء ، عجّل الجيش الاسلامي بالمسير ، دون نظام ، نحو الجزيرة [١] .

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, II. LIV. 1 - 6, pp. 586 - 590.
Albert of Aix, XII. 19, p. 701.
Walter the Chancellor, I. 6 - 7, pp. 92 - 96.
(يعتبر اكثر المصادر تفصيلاً) .
Al - Azimi, p. 509.
Ibn Hamdun in Ibn al - Athir, pp. 295 - 298.
Usama, ed. Hitti, pp. 102 - 106.
Michael the Syrian, III. p. 217.
Chron. Anon. Syr. p. 86.

ومـــا أحرزه الفرنج من الانتصار في تل دانث ، أنهى آخر محاولات سلاطين السلاجقــة بايران لاستعادة الشام . ولم تمض بضعة شهور حتى مات برسق بعد ان اصابه الخزي والهوان. ولم يكن السلطان محمد مستعداً للمغامرة بحملة اخرى . وأما الخطر الوحيـــد الذي يتعرض له الفرنج من الشرق ، فأضحى مصدره الأمراء شبه المستقلين الذين لم يكونوا وقتذاك متحدين او اقوياء . وبلغت مكانة روجر امير انطاكية الذروة ، فاحتل رجاله كفرطاب من جديد ، وكان برسق سلمها الى بني منقذ امراء شيزر [١] . واشتد خوف اميري حلب ودمشق ، فبادر طغتكين الى مصالحة السلطان محمد فعفا عنه ، غير انه لم يبذل له مساعدة مادية [٢] . أما الطواشي لؤلؤ القائم على حكومة حلب الذي أضحى لا حول له ولا قوة ، فصار يرقب ما يدور حوله من قيام الفرنج بتوطيد مركزهم . سعى لؤلؤ الى ان يزيد في توثيق التحالف مع طغتكين ، غير انه لم يجد قبولاً . وفي مايو سنة ١١١٧ ، لقي لؤلؤ مصرعه على ايدي أتراك حاميته. وخلفه على حكومة حلب، طواش آخر، وهو أرمني اعتنق الاسلام ، واسمه ياروقتاش الذي بادر بالسعي للحصول على مساعدة من قبل الفرنج ، بأن تنازل لروجر عن حصن القبة الذي يقع على الطريق الممتد من حلب الى دمشق، والذي يستخدمه الحجاج عند المسير الى مكة ، وجعل له الحق في ان يتقاضى رسوماً من الحجاج [٣] . غير ان هذا الاتفاق لم يكن

---

(١) انظر : Usama, ed. Hitti, p. 106.

(٢) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 151 - 152.

يشير ابن القلانسي الى ان السلطان هو الذي بدأ مفاوضات الصلح .

Ibn Hamdun, loc. cit.

(٣) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 155 - 156.

في صالح يلووقتاش. اذ ان ما قام به قتلة لؤلؤ من اجراء إنما كان باسم سلطان شاه أصغر ابناء رضوان ، الذي لن يعترف به . واستنجد ياروقتاش بايلغازي الأرتقي ، غير انه لم تكد قوات ايلغازي تصل الى حلب ، حتى تبين لها ان ياروقتاش قد هوى ، وتولى الحكومة ابن الملحي الدمشقي وزير سلطان شاه ، فرجع ايلغازي بعساكره الى ماردين ، بعد ان ترك ابنه كزل تمرتاش ممثلاً له في حلب ، وبعـد ان استولى على حصن بالس على نهر الفرات ، الذي جرى بذله له مكافأة على مساعدته ، اذا حاول البرسقي تحقيق دعواه ، وقد استقر وقتذاك في الرحبة وزعم ان السلطان جعل له حلب . ثم قرر ابن الملحي ان ايلغازي لم يكن حليفاً صادقاً ، فسلم حلب وكزل الى خيرخان امير حمص ، وتجهز لاسترداد بالس بمساعدة الفرنج . غير ان التحالف المعقود بين ايلغازي وطغتكين لا يزال وثيقـاً . فبينا زحف طغتكين على حمص ، وأجـبر خيرخان على الانسحاب ، كان ايلغازي ينقذ بالس ويدخل حلب في صيف سنة ١١١٨ . وحل مكان ابن الملحي طواشي اسود ، اسمه ابن قراجة ، الذي أمر ايلغازي الارتقي ، بإلقائه في السجن ، مع ابن الملحي وسلطان شاه [١].

وفي أثناء كل هذه التحركات والمؤامرات ، سعت الاحزاب الى التماس تدخل الفرنج . ومع ان روجر لم يكن سيداً على حلب ، فانه استطاع ان يستولي على الجهـات التي تقع الى الشمال منها ، فاستولى على عزاز سنة ١١١٨ ، وعلى البزاعة في اوائل سنة ١١١٩ ، فعزل بذلك حلب عن نهر الفرات والشرق [٢].

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, loc. cit.
Kemal ad - Din, pp. 610 - 615.
Ibn al - Athir, pp. 308 - 309.

(٢) انظر : Matthew of Edessa, CCXXVII. pp. 297 - 298.
Kemal ad - Din, pp. 614 - 615.

وحوالي ذلك الوقت ، أصلح روجر الحد الجنوبي لانطاكية ، بأن استولى على قلعة المرقب، التي تقع على تل مرتفع، على البحر وراء بلنياس (بانياس — البلانة [1]) .

وبذا لم تنته سنة ١١١٨ ، حتى تم التوازن بين سائر القوى في شمال الشام . أضحى الفرنج يؤلفون شطراً معترفاً به في اطار هذا الاقليم . ومع انهم لم يؤلفوا حتى وقتذاك عدداً كبيراً من السكان ، فانهم تجهزوا بالسلاح ، وأخذوا يشيدون الاستحكامات ، وتعلموا كيف يهيئون انفسهم للحياة المحلية. يضاف الى ذلك انهم اضحوا متحدين . ويعتبر روجر امير انطاكية اعظم الامراء المسيحيين في الشمال دون منازع ،غير إذان سيادته لم يعترض عليها كل من بلدوين كونت الرها ، وبونز كونت طرابلس ، لأن روجر لم يحاول ان يجعل نفسه سيداً عليهما ، بل لم يختلف عنهما في الاعتراف بسيادة ملك بيت المقدس . وعلى الرغم من ان الامراء المسلمين يفوقونهم في القوة العددية ، فقد ساد بينهم الفرقة والحقد . ولم يمنع شيوع الفوضى إلا ما جرى من التحالف بين طغتكين أتابك دمشق ، وايلغازي الارتقي . وبذا رجحت كفة الفرنج قليلاً على كفة المسلمين . ولم يكن ثمة من قوة خارجية تستطيع ان تقلب وضع هذا التوازن . فلم يكن بوسع بلدوين ملك بيت المقدس ان يتدخل دائماً في امور الشمال ، نظراً لما تتعرض له مؤخرته من تهديد الفاطميين . أما

---

(١) عن المصادر العربية وأهميتها ، انظر :
Cahen : op. cit. p. 279, note 16.
بذل بونز ، فيما يبدو ، المساعدة لروجر ، بعد ان وقع بينهما شيء من الشجار حول بائنة سيسيليا ، زوجة بونز وأرملة تانكرد ، التي زعمت امتلاك جبلة ، غير انها اكتفت فعلاً بالروج وأرزجان . انظر :
William of Tyre, XIV. 5, p. 612.

سلطان السلاجقة بإيران فانه امتنع عن القيام بمحاولات جديدة لفرض سلطته في الشام ، بعد كارثة تل دانث . على حين ان الدولتين الرئيسيتين في آسيا الصغرى ، وهما الدولة البيزنطية ، ودولة سلاطين السلاجقة بالروم ، جرى في الوقت الراهن شيء من التوازن بينهما .

الانشقاق في الكنيسة اليعقوبية سنة ١١١٨ :

وحافظ المسيحيون الوطنيون على نوع من التوازن ايضاً . فالمعروف ان الرعايا الارمن بالرها وانطاكية لم يتأثروا بالخديعة ، ولم يتصفوا بالولاء لسادتهم ، غير ان الدولة الارمنية الحرة الوحيدة التي عاشت ، وهي امارة بيت روبين على جبال طوروس ، أبدت استعداداً للتعاون مع الفرنج . اذ ان اميرها ، ليو ، توجه في قوة عسكرية ليساعد روجر امير انطاكية في حصار عزاز[١]. على ان انشقاقاً أثار الانقسام في كنيسة اليعاقبة . اذ ان رئيسها ، البطريرك أثناسيوس الذي اتخذه مقره في انطاكية ، تشاجر ، حوالي سنة ١١١٨ ، مع المطران اليعقوبي بالرها ، واسمه بار سابوني على ملكية بعض الكتب المقدسة ، وأصدر قراراً بحرمانه من ممارسة الخدمة الدينية . فعمد بار سابوني الى إثارة المتاعب ، بأن استنجد بالبطريرك اللاتيني في انطاكية ، برنارد ، الذي استدعى أثناسيوس لعرض الامر للمناقشة في مجمع ينعقد بالكاتدرائية اللاتينية . قدم أثناسيوس وأعلن احتجاجه ، على ان عجز المترجم وضعفه ، أدى الى اعتقاد

---

(١) انظر : Mattew of Edessa, loc. cit.

عن تاريخ بيت روبين ، انظر : Tournebize, op. cit. pp. 163 ff.

برنارد بأن النزاع انما وقع على دين خاص ، بين رجلي الكنيسة الكبيرين ، وأعلن ان ما أقدم عليه اثناسيوس من عدم العفو عن المدين يعتبر من قبيل السمعانية . فاستشاط اثناسيوس غضباً لما صدر من قرار لم يعترف بسلامته وصحته ، ولم يفهم مغزاه . فازداد خشونة في احتجاجه ، فلم يسع برنارد إلا ان أمر بجلده . وبناء على نصيحة صديقه الارثوذكسي عبد المسيح الفيلسوف، استنجد أثناسيوس بروجر الذي كان وقتذاك غائباً عن انطاكية . على ان روجر اشتد في تعنيف برنارد ، لتدخله في امر لا يعنيه ، وسمح لأثناسيوس ان يغادر انطاكية الى مقره القديم ، دير مار برسوما . فأضحى اثناسيوس في بلاد الأرانقة الذين بذلوا له حمايتهم . فأعلن اثناسيوس قطع بار سابوني من الكنيسة ، وفرض قرار الحرمان على الكنيسة اليعقوبية بالرها . واذ تقرر منع اليعاقبة بالرها من ممارسة شعائرهم في كنيستهم ، اتبعوا شعائر الكنيسة اللاتينية ، على ان جماعة اخرى أعلنوا اذعانهم وطاعتهم للبطريرك ولم يعد السلام الى الكنيسة إلا بعد سنوات عديدة وبعد ان توفي اثناسيوس [١] .

وكره المؤمنون بالكنيسة الارثوذكسية في انطاكية والرها ، حكم اللاتين، غير انهم لم يحاولوا مطلقاً الاشتراك مع المسلمين في التآمر ، وهم في ذلك يختلفون عن الارمن واليعاقبة . غير انهم تنفسوا الصعداء عند عودة بيزنطة . غير انه حدّ من قوتهم ما حمله الارمن واليعاقبة متحدين لهم من الكراهية والبغضاء .

---

(١) انظر : Michael the Syrian, III. pp. 193 - 194 , 207 - 210.

بيزنطة ومفاوضاتها مع الغرب سنوات ١١١١ - ١١١٣ :

ومع ذلك فانه على الرغم من ان قد يصح للفرنج في الرها ، ان يخشوا ما قد يظهر في الشرق من خطر جديد ، فإن الفرنج في انطاكية لا يزالون يعتبرون بيزنطة العدو الأساسي لهم . فلم ينس الامبراطور الكسيوس ما له من دعاوى في انطاكية . على انه كان مستعداً للاعتراف بالمملكة اللاتينية في بيت المقدس ، وأظهر نواياه الطيبة بما بذله من افتداء أسرى الفرنج الذين وقعوا في قبضة الفاطميين في معركة الرملة سنة ١١٠٢ ، وباشتراك سفنه في حصار عكا الفاشل ، سنة ١١١١ . ومع ان الملك بلدوين لم يظهر للامبراطور إلا المودة والدماثة ، فانه رفض ان يمارس الضغط على تانكرد ، ليحمله على تنفيذ الشروط الواردة في معاهدة ديفول[1] . والواقع ان العلاقات بين الفرنج والبيزنطيين اخــذت تسوء منذ الحرب الصليبية في سنة ١١٠١ ، بسبب ما توافر عنــد الفريقين من الارتياب وسوء الظن . فلم تغتفر القسطنطينية ما حدث سنة ١١٠٦ من تدخل البابا باسكال لصالح بوهمند . على ان الكسيوس كان من المرونــة والمهارة السياسة ما جعله لا يسمح لسوء الظن ان يؤثر في سياسته. ففي أثناء سنتي ١١١١ ، ١١١٢ ، أجرى سلسلة محادثات مع البابا ، واستخدم رئيس دير مونتي كاسينو وسيطاً بينهما. واذ وعد الكسيوس بتسوية ما بين الكنيستين الرومانية واليونانية من اختلافات جوهرية ، حث السلطات الرومانية على ان تعرض التاج الامبراطوري عليه او على ابنه ، واقترح انه سوف يقوم بزيارة روما . ولما كان البابا باسكال يعاني متاعب ضخمة في ذلك

---

(١) انظر : Anna Comnena, XIV, II. 12 - 13, pp. 152 - 153.

الحين مع الامبراطور هنري الخامس ، اراد ان يظفر بمساعدة بيزنطة برغم ما يكبده ذلك من ثمن باهظ . ولم يمنع الكسيوس من تنفيذ مشروعه إلا ما نشب من الحرب مع الترك ، واعتلال صحته [1] . فلم تحقق المفاوضات شيئاً . وقدم لزيارة القسطنطينية سنة ١١١٣ بطرس كريسولان رئيس أساقفة ميلان ، لمناقشة الامور الكنسية ، على ان لجاجته في اصول الدين مع يوستراتيوس ، اسقف نيقية ، لم تعد الشعور الطيب بين الكنيستين [2] . والراجح ان الكسيوس لم يكن جاداً في مشروعه عن أطماعه في ايطاليا . اذ ان صداقته مع البابا ليس لها من وزن إلا باعتبارها أداة لوقف أطماع النرمان ، ولبسط سلطانه على اللاتين في الشرق .

وفي نفس الوقت لم يبذل البيزنطيون إلا قليلا من الجهد من اجل استرجاع انطاكية ، فالمعاهدة التي عقدها الامبراطور الكسيوس مع بوهمند ، لم يجر تنفيذها . ولم يغفلها تانكرد فحسب ، بل انه زاد في رقعة بلاده على حساب بيزنطة . وواصل روجر سياسة تانكرد . وكان الكسيوس يأمل في ان يصير كونتات طرابلس عملاء له بالشام ، ولذا أودع في طرابلس مبالغ كبيرة من المال للانفاق على حملات تشترك فيها معاً طرابلس وبيزنطة . غير انه حدث عند

---

(١) انظر : Chalandon, op. cit. pp. 260 - 263.
(اشتهر بوفرة مراجعه) .

(٢) انظر : Landolph, in Muratori, Ss. R. I. vol. V, p. 487.
وردت خطب كريسولان في :
M. P. L. vol. CXXVII. col. 911 - 919.
ووردت أحاديث يوستراتيوس في :
Demetracopoulos, Bibliotheca, Ecclesiastica, vol. I. p. 15.

وفات برتراند ، اذ اخـــذ ابنه بونز يعمل بالتعاون مع فرنج انطاكية . فلم يسع بوتوميتس سفير بيزنطة لدى الدول اللاتينية إلا ان يطلب إعادة ما بذله الكسيوس من أموال . ولم تسلم طرابلس الاموال له إلا بعد ان هدد السفير، بقطع ما يرد الى طرابلس من قبرص من المؤن . ثم رأى انـه من الحكمة ان يعيد الى بونز ما سبق ان وعد بـه برتراند شخصياً من الذهب والمنسوجات النفيسة . وجرى مقابل ذلك ان حلف بونز يمين الولاء للامبراطور ، والراجح انها اليمين التي سبق ان اتخذها جده ريموند ، والتي لا تعرض صاحبها للاهانة. وما استعاده بوتوميتس من المال ، أنفقه في شراء ما يلزم الجيش البيزنطي من الخيول ، من دمشق والرها وبلاد العرب [1] .

حروب السلاجقة مع بيزنطة سنة ١١١٢ – ١١١٥ :

والواضح انه ليس بوسع بونز ان يناوىء انطاكية ، على حين ان تصرّف الترك بآسيا الصغرى منع الامبراطور البيزنطي من التدخل المباشر في شؤون الشام . ذلك انه لم يظهر في آسيا الصغرى زعيم تركي قوي ، منذ وفاة الملك غازي انوشتكين الدانشمند سنة ١١٠٦ ، وموت السلطان قلج ارسلان سنة ١١٠٧ . وطالما لم يشغله الزمان ، استطاع الكسيوس ان يعيـــد في تؤدة سلطانه على المناطق الغربية من آسيا الصغرى وعلى امتداد الساحل الجنوبي لها. والمعروف ان حسن امير قبادوقيا كان أقوى الأمراء المسلمين، وقد حاول سنة ١١١٠ ان يغير على أملاك بيزنطة ، ومضى في زحفه نحو فيلادلفيـا ، قاصداً .

---

(١) انظر : Anna Comnena, XIV, II. 14, pp. 153 - 154.

الاستيلاء على أزمير. وتقرر وقتذاك تعيين يوستاتيوس فيلوكالس قائداً للقوات البرية في منطقة الجنوب الغربي من آسيا الصغرى ، وصدرت اليـــه الأوامر بتطهير الاقليم من الترك . وحرص فيلوكالس بمـا كان تحت قيادته من قوات قليلة، على الإيقاع بجيش الامير حسن، بعد ان انقسم الى جماعات صغيرة للإغارة على الأملاك البيزنطية، فأنزل بها الهزائم الواحدة بعد الاخرى . فبادر حسن بالتراجع ، وبذا سلمت شواطىء آسيا الصغرى المطلة على بحر إيجة من غارات اخرى . غير انه حدث في تلك السنة نفسها أن أطلق سراح ملك شاه اكبر أبناء قلج ارسلان من أسر السلاجقة بفارس، فاتخذ قونية عاصمة له. ولم يلبث ان حاز معظم أملاكه بعد ان هزم حسن، وأضاف اليه بلاده . وإذ اتعظ بما حاق بأبيه من مصير ، تجنب الانغماس في مشاكل الشرق ، غير انه لم يكد يحس بأنه بالغ القوة ، حتى نهض لاسترداد الأملاك التي فقـدها قلج ارسلان زمن الحرب الصليبيـة الاولى . ففي الشهور الاولى من سنة ١١١٢ شرع في توجيه الغارات الى داخل الامبراطورية البيزنطية ، بأن زحف على فيلادلفيا ، ولم يوقف تقدمه إلا القائد البيزنطي جابراس . فسعى الى عقـد هدنة ، غير أنه استأنف الهجوم من جديد، فعجل بارسال حملة ، اجتازت بثينيا ، وبلغت أسوار نيقية، بينا توغل قائده محمد الى اقصى الغرب ، فبلغ Poemamenum ، حيث أنزل الهزيمة بقائد بيزنطي ثم أسره ، على حين ان قائداً تركياً آخر ، اسمه مانالوك ، أغار على ابيدوس الواقعة على الدردنيل ، والتي يقع بها المكس (الديوان) الذي يدر دخلاً كبيراً. أما ملك شاه فهاجم بيرجاموم واستولى عليها. ونهض الامبراطور الكسيوس لقـاء الغزاة ، غير انه انتظر ريثما ينقض عليهم أثناء عودتهم وقد امتلأت أيديهم بالغنائم . وعند قدومهم مجتازين دوريليوم، انقض عليهم الامبراطور قرب Cotyaeum ، فأحرز انتصاراً باهراً استعـاد به كل ما أخذه الترك من الأسلاب والأسرى. وفي سنة ١١١٥ ترددت الأنباء

بأن ملك شاه يتجهز للإغارة من جديد ، فأمضى الكسيوس شطراً كبيراً من السنة في الطواف بتلال بيثينيا وتفقدها . وعلى الرغم من اشتداد العلة والمرض بالامبراطور الكسيوس في السنة التـالية ، فانه عزم على ان يبادر بالهجوم . فتوجه صوب الجنوب نحو قونيـــة ، والتقى بجيش تركي قرب فيلوميليوم ، فانتصر للمرة الثانية ، وكان لزاماً على ملك شاه ان يوقع معاهدة ، وعد فيها ان يحترم حدود الامبراطورية البيزنطية ، التي صار لهـا السيطرة وقتذاك على كل الساحل من اطرابزون الى سلوقية قليقية ، وعلى كل الاقليم الداخلي الواقع الى الغرب من أنقرة ، والصحراء المالحة وفيلوميليوم . وبذا باءت بالفشل كل المحاولات التي قام بها ملك شاه لاسترداد أملاكه . ولم تنقض إلا بضعة شهور، حتى عزله وقتله أخوه مسعود بعد تحالفه مع الدانشمند . على أن أقدام الترك ظلت راسخة في وسط آسيا الصغرى ، ولم تكن بيزنطة من القوة مـا تجعلها تقوم بعمل قوي في الشام . على ان الارمن بجبال طوروس وأمير انطاكية ، كانوا اكثر من أفاد من هذه الحروب [١] .

(١) انظر : Anna Comnena, XIV,V-VI, XV. i - ii, IV-VI. pp. 164-172, 187 - 194, 199 - 213.

Chalandon, op. cit. pp. 265 - 271.

الكتاب الثاني

مملكة بيت المقدس في ذروة قوّتها

الفصل الاول

الملك بلدوين الثاني

أغفل بلدوين الاول واجبه الاخير باعتباره ملكاً ، إذ لم يقم بتدبير أمر الوراثة من بعـده ، فبادر مجلس المملكة الى الانعقاد . فلم يكن من النبلاء ، سوى عدد قليل ، من تراءى له انه لا مجال للظن في ان ينتقل التاج من بيت كونت بولونيا . فالمعروف ان بلدوين الاول خلف أخاه جودفري في الحكم ، وكان لهما أخ ثالث ، وهو استيفن كونت بولونيا ، الذي يعتبر اكبر الاخوة جميعاً . وجرت المبادرة بإنفـــاذ الرسل عن طريق البحر ، لإخطار كونت بولونيا بوفاة أخيه ، وللتوسل اليه للقدوم لحيازة الإرث . ولم يشأ استيفن ان يغادر كونتيته الجميلة ، ليواجه مـا بالشرق من أخطار ومتاعب ، غير انهم أخبروه أن ذلك من واجباته ، فتوجه قاصداً بيت المقـدس . وحينا وصل الى أبوليا ، التقى برسل آخرين ، يحملون أنبـــاء بأن الامر قد انتهى ، إذ انتقلت وراثة الملك الى جهـة اخرى . ولم يقبل الاقتراح الذي يقضي بأنه لا بد له من المضي في طريقه ، والقتال في سبيل حقوقه ، فعـــاد أدراجه الى

بولونيا راضياً مطمئناً [١] .

والواقع انه لم يؤيد ولايته للحكم سوى عدد قليل من أعضاء مجلس المملكة، إذ كان استيفن يقيم في موضع بالغ البعد عن المملكة، فيؤدي ذلك الى استمرار شغور العرش شهوراً عديدة . وكان جوسلين كورتيناي، امير الجليل ، أقوى أعضاء المجلس نفوذاً وسلطاناً، فطلب انه لا بد من بذل العرش لكونت الرها، بلدوين لى بور . ولم يكن لدى جوسلين نفسه ما يدعوه لأن يحب بلدوين ، ولكنه حرص على ان يذكّر المجلس بهذه الحقيقة . غير ان بلدوين لى بور كان رجلاً تجلّت قدرته وشجاعته، كما انه كان ابن عم الملك الراحل، وهو الوحيد الذي بقي من كبار فرسان الحملة الصليبية الاولى. يضاف الى ذلك ان جوسلين قدّر أنه اذا تخلى بلدوين عن الرها ، بعد ان يتولى عرش مملكة بيت المقدس، فان أقل ما يكافىء به ابن عمه ، الذي سخى في تعويضه عن إساءته له ، هو ان يعهد اليه بحكم الرها . ولقي جوسلين مساندة من البطريرك أرنولف ، واستطاع الاثنان معاً ان يقنعا مجلس المملكة باختيار بلدوين . وفي نفس اليوم الذي تمّ فيه تشييع جنازة الملك ، ظهر بلدوين لى بور في بيت المقدس فجأة، فحسم بذلك ما دار من نقاش وجدال . ولعله سمع بما أصاب الملك من مرض في السنة الماضية ، واعتقد انه تهيأت له الفرصة ليحجّ الى الأماكن المقدسة في عيد القيامة . فجرى استقباله بمظاهر الفرح والسرور ، واختاره مجلس المملكة بالاجماع ملكاً على بيت المقدس . وفي يوم أحد القيامة ، في ١٤

---

(١) انظر : William of Tyre, XII. 3, pp. 513 - 516.
ليس من المحقق انه أجرى ترتيبات لبولونيا . والمعروف ان زوجته ماري الاسكتلندية ماتت في سنة ١١١٦ .

ابريل سنة ١١١٨ ، قام البطريرك أرنولف بتتويجه [١] .

ومن أوجه الاختلاف الشديد بين بلدوين الثاني ، وبين سلفه (بلدوين الاول) ، انه على الرغم من ان بلدوين الثاني كان بالغ الوسامة ، ذا لحية طويلة شقراء ، فانه افتقر الى ما اتصف به بلدوين الاول من قوة الشخصية والسلوك . ومع انه يفضل بلدوين الاول في لقياه ، وفي ميله الى المرح ، والمزاح ، فانه كان في نفس الوقت ماكراً قوي الحيلة ، يقل عن بلدوين الاول في صراحته ، وفي تهوّره ، ويفوقه في ضبط النفس . واشتهر بالكفاية في القيام بالاعمال الكبيرة ، ومع ذلك فانها في مجموعها تتصف بالوضاعة والحقارة. وبرغم ما يبديه من عنف وشدة نحو امور الكنيسة ، فانه كان صادق التقوى ، وقد تصلبت ركبتاه من أثر مداومته على الصلاة . ويختلف عن بلدوين الاول في ان حياته الخاصة خالية من كل شائبة ، اذ عاش مع زوجته الارمنية مورفيا في سعادة تامة ، وهو امر نادر الحدوث في الشرق الفرنجي [٢] .

وجرت مكافأة جوسلين بكونتية الرها في الوقت المناسب ، على ان يحكمها باعتباره من أتباع الملك بلدوين ، على نحو ما حازها بلدوين نفسه زمن بلدوين الاول . واعترف بالملك الجديد ايضاً سيداً أعلى ، كل من روجر امير انطاكية ، وصهر الملك ، وبونز كونت طرابلس . وكان لا بد للشرق الفرنجي ان يبقى

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III, i, I. pp. 615 - 616.
Albert of Aix, XII. 30, pp. 707 - 716.
William of Tyre, XII. 4, p. 517.

(٢) انظر : William of Tyre, XII. 2, pp. 512 - 513.
انظر ما سبق ، ص ٦٤ .

متحداً في ظل تاج بيت المقدس [1] . ومات البطريرك أرنولف بعد مضي اسبوعين على تتويج بلدوين . وخدم أرنولف الدولة بكل ما اتصف به من الكفاية والاخلاص . وبرغم إقدامه وشجاعته ، باعتباره مبشراً ، فانه بلغ من الانغماس في ارتكاب فضائح عديدة ، انه لم يلق الاحترام الجدير برجل الكنيسة . ومن دواعي الريبة والشك ، ان يأسف بلدوين كثيراً لموته . فأقرّ انتخاب قس بيكاردي ، وهو جورمون بيكيني ، الذي لم يكن معروفاً له تاريخ سابق ، ليحل مكانه . وكان ذلك اختياراً موفقاً ، اذ جمع جورمون بين ما اتصف به أرنولف من خلال عملية ، وبين ما اشتهر به من طبيعة نقية فاضلة ، لقيت التبجيل من جميع الناس . وهذا التعيين الذي تلى ما حدث أخيراً من وفاة البابا باسكال ، أعاد العلاقات الطيبة بين بيت المقدس وروما [2] .

الغارات على اقليم ما وراء الاردن سنة ١١١٩ :

ولم يكد الملك بلدوين يستقر في دست الحكم ، حتى سمع الأنباء التي تنبىء عن التحالف بين مصر ودمشق ، اذ حرص الوزير الفاطمي الأفضل على ان يُنزل العقاب ببلدوين الاول لتجاسره على غزو مصر ، على حين ان طغتكين أزعجه ازدياد قوة الفرنج ، فبادر بلدوين بإرسال سفارة الى طغتكين . وإذ وثق طغتكين في المساعدة من قبل مصر ، لم يسعه إلا ان يطلب من الفرنج

---

(١) حرص بلدوين ، عقب توليه الحكم ، على ان يدعو روجر وبونز للاشتراك معه في قتال المصريين . (انظر ما يلي) .

(٢) انظر : Albert of Aix, loc. cit.
William of Tyre, XII. 6, p. 519.

تسليمه كل ما يقع وراء نهر الاردن من الأراضي . وفي أثنـاء الصيف احتشد جيش مصري كثيف على الحدود ، واتخـذ موضعاً له خارج اسدود . وتلقى طغتكين الدعوة بأن يتولى قيادته . اما بلدوين فانه استدعى ما في انطاكية وطرابلس من قوات احتياطية ، لتكون مدداً لعساكر بيت المقـدس ، ثم زحف للقـاء خصومه . وظل الجيشان يواجه احدهما الآخر ، ثلاثة شهور ، دون ان يجرؤ كل منهما على التحرك من موضعه ، وذلك لأن كل جندي ، على حد عبارة فولشر ، كان يؤثر الحياة على الموت . ثم تفرق الجند من الجانبين ، آخر الامر ، وعادوا الى ديارهم [1] .

وفي تلك الأثنـاء تأجل رحيل جوسلين الى الرها ، اذ ان الحاجة اليه في الجليل لأشد إلحاحاً عنها في كونتية الرها بالشمال ، حيث لا زالت الملكة فيما يبدو تقيم ، ويدير شؤون الحكومة واليران سيد البيرة [2]. وباعتبار جوسلين اميراً على الجليل ، كان لزاماً عليه ان يدافع عن بلاده ، ويرد ما تتعرض له من هجمات من قِبل دمشق . وفي الخريف اشترك جوسلين مع بلدوين في شن غارة على أذرعات في حوران التي تعتبر جرين دمشق، فنهض بوري بن طغتكين لمقابلتها، غير انه تعرض لهزيمة قاسية بسبب تهوُّره وحماقته. ووجّه طغتكين اهتمامه ، بعد هذه الهزيمة ، الى الشمال من جديد [3] .

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III, ii, 1 - 3, pp. 617 - 619.
William of Tyre, XII. 6, pp. 518 - 519.
Ibn al - Athir, pp. 314 - 315.

(٢) انظر : Chron. Anon. Syr. p. 86.

(٣) انظر : Ibn al - Athir, pp. 315 - 316.

ففي ربيع سنة ١١١٩، سمع جوسلين أن قبيلة بدوية غنية، تنتجع بقطعانها المراعي في شرق الاردن، قرب نهر اليرموك. فنهض جوسلين، وبصحبته اثنان من كبار بارونات الجليل، وهما الأخوان جودفري ووليم بور، ونحو مائة وعشرين فارساً، لنهب القبيلة. وانقسمت الجماعة، كيما تطوق رجال القبيلة، غير ان الامور لم تجرِ حسب ما كانوا يشتهون، إذ ان شيخ القبيلة تلقى التحذير. وضلّ جوسلين طريقه في التلال، ووقع في الكمين جودفري ووليم، عند ركوبهما لمهاجمة المعسكر، فلقي جودفري مصرعه ووقع معظم أتباعه في الأسر. وعاد جوسلين الى طبرية حزيناً مغموماً، وأرسل الى الملك بلدوين يخطره بما حدث، فأقبل بلدوين في جيش، وخوّف البدو، فأعادوا الأسرى، ودفعوا ما طلبه من تعويض. وعندئذ أجاز لهم ان يمضوا الصيف في هذه الجهات في سلام (١).

ولما توقف بلدوين في طبرية أثناء عودته من حملته القصيرة الأمد، قدمت اليه الرسل من انطاكية، تلتمس منه المبادرة بالمسير بجيشه الى الشمال، بكل ما يقتضيه السفر من سرعة.

معركة ساحة الدم سنة ١١١٩:

على أن مدينة حلب المنكودة الحظ، أضحت بالغة العجز عن منع اعتداء الفرنج، منذ انتصار روجر امير انطاكية في تل دانث، اذ وضعت نفسها على كره منها، تحت حماية ايلغازي الارتقي. غير ان استيلاء روجر على

---

(١) انظر: Ibn al - Athir, pp. 325 - 326.

المزاعة سنة ١١١٩ ، أدّى الى تطويق حلب من ثلاث جهات ، فان ضياع المزاعة كان خسارة ، لم يكن بوسع ايلغازي ان يتحملها . ولم يكن ايلغازي او حليفه الدائم طغتكين أتابك دمشق، حتى وقتذاك ، مستعدين لأن يخاطرا بكل ما لديهما من قوة في قتال الفرنج ، نظراً لأنهما لا زالا بالغا الخوف والكراهية لسلاطين سلاجقة المشرق . غير ان السلطان محمد قضى نحبه في ابريل سنة ١١١٨ ، وترتب على وفاته ان انطلقت أطماع سائر الولاة والأمراء في جميع أنحاء الامبراطورية السلجوقية . وحاول ابنه الشاب محمود ، الذي خلفه على السلطنة ، السعي لتوطيد سلطته ، غير انه اضطر آخر الامر ، الى ان يسلم في اغسطس سنة ١١١٩ ، السلطة العليا الى عمه الملك سنجر، سلطان خراسان ، وأمضى ما تبقّى من حياته القصيرة في إشباع رغباته في الصيد والقنص . وعلى الرغم من ان سنجر ، الذي يعتبر آخر مَن تولى من بيت السلاجقة حكم الشطر الشرقي من أملاك السلاجقة ، كان بالغ القوة والنشاط ، فالواقع ان مصالحه تركزت في الشرق . فلم يحفل مطلقاً بما كان يجري في الشام ، كما ان أبناء عمومته ، سلاطين السلاجقة بالروم ، لم يكن بوسعهم ايضاً التدخل في امور الشام ، لانصرافهم لما وقع بينهم من منازعات داخلية ، ولما جرى من شجار بينهم وبين الدانشمند، ولما أنشبوه من حروب مع بيزنطة[١]. فتهيأت الفرصة آخر الامر لإيلغازي ، الذي يعتبر أقوى الأمراء المحليين وأشدهم صلابة . ولم تشتد رغبته في القضاء على إمارات الفرنج ، إلا لكي يستحوذ على حلب ، غير ان الغرض الاخير أضحى يتوقف ايضاً على تحقيق الغرض الاول .

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, pp. 318 - 323.

انظر ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية عن « سنجر » و « سلاجقة » .

وفي أثنـاء ربيع سنة ١١١٩ ، طاف ايلغازي بأملاكه ، يحشد عساكره من التركمان، ويتجهز لاستقبال ما يقدم عليه من الكتائب المؤلفة من الكرد النازلين بالشمال ، ومن القبائل العربية الضاربة ببـادية الشام . ورأى ايلغازي من النـاحية الشكلية ، ان يطلب المساعدة من السلطان محمود ، غير انه لم يتلق رداً على طلبه . على ان حليفه طغتكين وافق على ان يقدم عليه من دمشق ، ووعد بنو منقذ أمراء شيزر ، بأن يحملوا روجر امير انطاكية على الانصراف الى جهة اخرى ، بأن يزمعوا مهاجمة الاطراف الجنوبيـة لمتلكاته [1] . وفي نهاية شهر مايو ، زحف جيش الأراتقة ، الذي بلغ عدده ، فيما يقال ، اربعين ألفاً من الجند الأشداء . وتلقى روجر الأنبـاء في شيء من الهدوء ، غير ان البطريرك برنارد حثه على الاستنجاد بالملك بلدوين ، وبونز كونت طرابلس . فأرسل بلدوين من طبرية يخطر روجر ، بأنه سوف يسرع بالقـدوم اليه ، وسوف يصحب معه قوات طرابلس ، وفي نفس الوقت تحتم على روجر ان يلتزم بخطة الدفاع . ثم حشد بلدوين جيش بيت المقدس ، وحصنه بقطعة من الصليب المقدس ، كانت بحوزة رئيس أساقفة قيسارية [2] .

وبينما كان بنو منقذ يغيرون على أفامية، أنفذ ايلغازي فصائل من عساكر التركمان ، صوب الجنوب الغربي ، لتنحاز الى جيش بني منقذ ، والجيش القادم من دمشق . وقام ايلغازي على رأس جيشه الاسامي بالإغارة على بلاد الرها ، غير انه لم يحاول مهاجمة عاصمتها المنيعـة . فعبر نهر الفرات في منتصف شهر

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 156 - 157.
Kemal ad - Din, pp. 615 - 616.

(٢) انظر : Walter the Chancellor, II. 1, pp. 100 - 101.

يونيو سنة ١١١٩ ، عنـد بالس ، ومضى في سيره حتى أقـام معسكره في قنسرين ، التي تبعـد مسافة خمسة عشر ميلاً الى الجنوب من حلب ، ينتظر قدوم طغتكين . ولم يكن روجر أقل قلقـاً ، فعلى الرغم من الرسالة التي وجّهها اليه الملك بلدوين ، وبرغم التحذير الشديد الذي بذله البطريرك برنارد له ، وبرغم ما كان لأمراء الفرنج من تجارب سابقة ، قرر روجر المبادرة الى ملاقاة العدو . ففي ٢٠ يونيو قاد كل جيش انطاكية ، الذي بلغ عدده سبعمائة فارس وأربعـة آلاف راجل ، فاجتاز جسر الحديد ، وأقام معسكره امام حصن تل عفرين الصغير ، على الحافة الشرقية لسهل سرمدا . ومع ان جيشه يقل كثيراً عن جيش عدوه ، فانه كان يأمل الانتظار في هـذا الموضع حتى يصل بلدوين .

واكتملت لإيلغازي ، وهو بقنسرين ، الاخبار عن كل حركات روجر ، إذ تفقد معسكر الفرنج جواسيس تخفّوا في هيئة تجار ، وأخبروه بما كان عليه جيش الفرنج من الضعف من الناحية العددية . ومع ان ايلغازي أراد ان ينتظر قدوم طغتكين ، فان أمراء التركمان حثوه على القيام بالهجوم . فتحرك في ٢٧ يونيو جانب من جيشه لمهاجمة قلعة الأثارب ، التي كانت بحوزة الفرنج . على أنه توافر لروجر من الوقت ما يكفي لأن يدفع اليها بعض رجاله بقيادة روبرت فيبه بوتز ، حتى اذا أزعجه وأقلقه أنه لم يجد عدوه قريباً منه ، اغتنم فرصة حلول الظلام ، فأرسل الى قلعة أرتاح ، الواقعة على الطريق المؤدي الى انطاكية ، كل ما للجيش من أموال .

وظل روجر طوال الليل يترقب في شغف أنبـاء تحركات المسلمين ، بينما قطع راحة جنوده ، انتباه احد النائمين الذي طاف بأرجاء المعسكر صائحاً أن الكارثة قد أحدقت بهم . ففي فجر يوم السبت ٢٨ يونيو ، أنهت الكشافة

الى امير انطاكيــة انه تمّ تطويق معسكر الفرنج . وهبّت من الجنوب رياح الخماسين التي تثير الأعصاب . وتضاءل الطعـام والماء بالعسكر ، فقرر روجر انه لا بد ان يقتحم صفوف العـــدو ، وإلا تعرّض للهلاك . وصحب الجيش بطرس رئيس أساقفـة أفامية ، وكان من قبل اسقفاً للبـارة ، ويعتبر اول اسقف للفرنج بالشرق . فطلب الى العساكر ان يجتمعوا معـاً ، وألقى فيهم موعظة ، وتلقى اعترافاتهم . فتلقى اعتراف روجر في خيمتـه ، وأبرأه من كل مــا ارتكبه من الخطايا البدنية . وعندئذ صرح روجر في جرأة ، انه سوف يذهب للصيد ، غير انه بادر اولاً بإرسال طائفـة اخرى من الكشافة لم تلبث ان وقعت في كمين أعـده المسلمون . فرجع من سلم من الموت منهم ، وهم قلة ، ليروي أنه لا سبيل لاختراق الحصار . فقـام روجر بإعداد الجيش في أربعة فيالق ، وجعل فيلقاً آخر على سبيل الاحتياط . وعندئذ باركهم رئيس الأساقفة مرة اخرى ، فانطلقوا في أتم نظام لملاقاة العدو .

على انه لم يكن ثمـة امل منذ البداية ، فلا مجـال للنجاة من ثنايا جحافل فرسان التركمان ورماتهم . وكان اول من تملكه الذعر والخوف ، الرجالة الذين جرى تجنيدهم محلياً من السوريين والارمن ، غير انهم لم يلقوا موضعاً يفرون اليه ، فاشتد تزاحمهم بين الفرسان فعوقوا الخيل عن السير . ثم تغير هبوب الرياح فجأة الى الشمال ، فساقت غمامة ملبدة بالتراب الى وجوه الفرنج . وفي أوائل المعركة ، افترق عن الجيش مـا يقل عن مائة فارس ، وانحازوا الى روبرت فييه بوتز ، الذي لم يقـــدم من الأتارب إلا متأخراً ، فلم يشترك في القتال ، وهربوا جميعاً الى انطاكية . ثم حدث بعـــد فترة قصيرة ، أن فرّ رينالد مازوار في طائفة من الفرسان ، فوصلوا الى بلد صغير ، اسمه سرمدا ، يقع بالسهل . ولم ينج من جيش انطاكية من القتل ، غير هؤلاء ، اذ سقط

روجر صريعاً ، وهو يقاتل، عند قاعدة صليبه الضخم المحلى بالجواهر . ومن حوله هلك فرسانه ، فلم ينج منهم إلا عـــدد قليل ، واتاهم الحظ فوقعوا في الأسر . ولم تحل الظهيرة حتى انتهت المعركة . واشتهرت المعركة عند الفرنج باسم Ager Sanguinis (ساحة الدم) [١] .

وظل المسلمون في حلب، التي لا تبعد عن موضع المعركة إلا خمسة عشر ميلا ، يتلهفون لسماع الأنباء ، وحوالي الظهر ترددت شائعة أن النصر الكبير اضحى في جانب المسلمين ، وعنـد صلاة العصر اخذت طلائع الجند المظفرين تقترب من المدينة (حلب) . أما ايلغازي فانه لم يمكث بساحة المعركة إلا ريثما يوزع الغنيمة على رجـــاله ثم سار الى سرمدا ، حيث استسلم له رينالد مازوار . فأبقى ايلغازي على حياته ، لمـا تأثر به من اعتداده بنفسه ، بينما أمر بقتل رفاقه . وجرى تكبيل الأسرى بالاغلال، وجرّهم في عرض السهل

---

(١) اكثر الروايات تفصيلا عن هذه للمعركة ، ما ورد في :

Walter the Chancellor, II. 2 - 6, pp. 101 - 111,

انظر ايضاً : William of Tyre, XII. 9 - 10, pp. 523 - 526.

Fulcher of Chartres, III. iii, 2 - 4, pp. 621 - 623.

(يعتبر فولشر في روايته الموجزة ، ان سبب الكارثة يرجع الى غضب الله على ما اتصف به روجر من ارتكاب الفاحشة) .

Matthew of Edessa, CCXXVI. pp. 276 - 277.

Michael the Syrian, III. p. 204.

Ibn al - Qalanisi, pp. 159 - 161.

Kemal ad - Din, pp. 616 - 618.

Usama, ed. Hitti, pp. 148 - 149.

Ibn al - Athir, pp. 324 - 325.

ويقدر فولشر خسائر الفرنج بسبعة آلاف قتيل ، على حين ان الترك خسروا عشرين .

خلف المنتصرين . وبينا كان الحديث يدور بين ايلغازي ورينالد، اخذ التركمان ينكلون بالاسرى ويجهزون عليهم بين الكروم ، حتى منعهم ايلغازي ، رغبة منه في ألا يضيع هذه الفرصة على اهل حلب . فمن تبقى من الاسرى ، أمر بحملهم الى حلب ، التي دخلها في موكب الظافر ، عند غروب الشمس ، وفي شوارع حلب ، حلّ بهؤلاء من التعذيب ما أودى بحياتهم [1] .

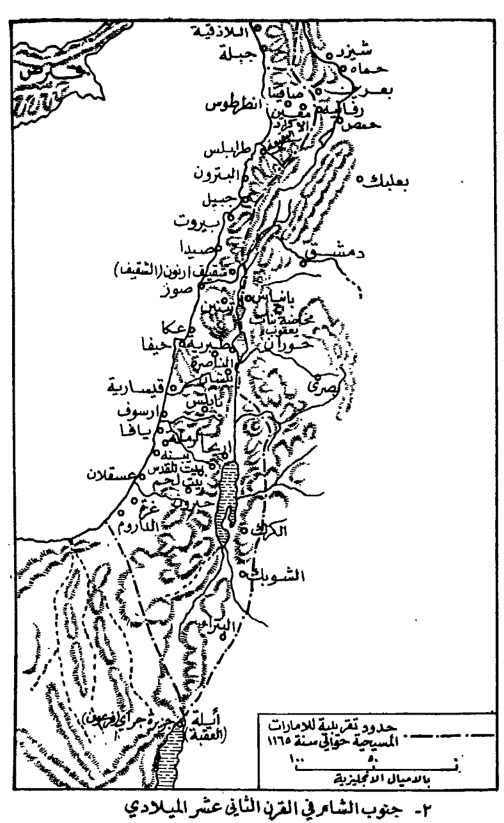
وبينا يحتفل ايلغازي في حلب بما احرزه من انتصار، وصلت الى انطاكية الانباء المروعة للمعركة . وتوقع الجميع ان التركمان سوف يبادرون بالقدوم لمهاجمة المدينة (انطاكية) ، فلم يكن بها من العساكر من يتولى الدفاع عنها . وفي هـــذه الأزمة تولى البطريرك برنارد القيادة . وأول ما كان يخشاه ، ما يصدر من خيانة عن السكان المسيحيين الوطنيين ، الذين أسهم في ابتعادهم عنه وتجنبهم له، ما سبق ان قام به من افعال. فبادر بإرسال من يقوم بتجريدهم من الاسلحة ، ويفرض عليهم حظر التجول . ثم وزع كل ما استطاع ان يجمعه من الاسلحة ، على رجال الدين والتجار الفرنج، وعهد اليهم بملاحظة الاسوار. فظلوا ساهرين على حراستها ليلاً ونهاراً ، على حين انه أنفذ رسولاً الى بلدوين يستحثه على الاسراع بالقدوم [2] .

أما ايلغازي فلم يواصل انتصاره ، واكتفى بأن كتب الى ملوك العـــالم الاسلامي،يخطرهم بما حازه من انتصار، فبعث اليه الخليفة بالخلع والتشاريف،

---

(١) انظر : Kemal ad - Din, loc. cit.
Walter the Chancellor, *II*. 7, pp. 111 - 113.

(٢) انظر : Walter the Chancellot, *II*.8, pp. 114 - 115.



٢- جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

ولقبه نجم الدين [١] . وفي تلك الاثناء زحف ايلغازي على أرتاح ، فسلّمها له اسقف كان يتولى حراسة احد الابراج ، مقابل الحصول على أمان بالتوجه الى انطاكية ، غير ان رجلاً ، اسمه يوسف ، والراجح انه أرمني ، كان موكولاً اليه امر القلعة ، التي حوت كنوز روجر وأمواله ، أقنع ايلغازي بأنه يميل الى المسلمين ، غير ان ابنـه كان رهينة بانطاكية . وتأثر ايلغازي بروايته ، وأبقى أرتاح بيدي يوسف ، واكتفى بأن ارسل احد امرائه ليقيم في المدينة على انه ممثل له [٢] . وعـاد ايلغازي من ارتاح الى حلب ، حيث انصرف الى اللهو والعبث حتى ساءت صحته . وتقرر ارسال عساكر من التركمان للإغارة على أرباض انطاكية ، ونهب ميناء السويدية ، غير انه ورد اليهم من الأنباء مـا يشير الى ان المدينة ترابط بها حامية قوية . وبذا بدّد المسلمون الثمار التي جنوها من معركة ساحة الدم [٣] .

ومع ذلك فان موقف الفرنج كان بالغ السوء ، اذ وصل بلدوين الى اللاذقية قبل ان يسمع بأنبـاء الكارثة ، وتلاه في القدوم بونز كونت طرابلس . فأمعن بلدوين في السير ، بل انه لم يتوقف أثناء سيره ليهاجم معسكراً للتركمان قرب الطريق ، وقد تجرد من أسباب الدفاع ، وبلغ انطاكية دون ان يعطله حدث من الأحداث ، وذلك في الايام الاولى من

---

(١) Ibn al - Athir, p. 332.

(٢) Walter the Chancellor, II. 8, p. 114.

(٣) انظر : Usama, ed. Hitti, pp. 148 - 149.
Ibn al - Athir, pp. 332 - 333.

يشير اسامة الى ان ايلغازي أفرط في تناول الخمر حتى ظل سكراناً لمدة عشرين يوماً .

شهر اغسطس . وكان ايلغازي قد أرسل جماعة من عساكره ، لمنع تقدم الجيش القادم لإنقاذ المدينة (انطاكية) . أما بونز الذي تأخر عن اللحاق ببلدوين مسيرة يوم ، فكان لزاماً عليه ان يدرأ هجومهم ، ومع ذلك لم يتأخر كثيراً . واستقبل الملك بكل مظاهر الفرح والسرور ، اخته الارملة الاميرة سيسيليا ، وبطريرك انطاكية وسائر السكان . وقامت في كنيسة القديس بطرس صلاة الشكر ، وأول ما قام به من أعمال ، انه طهّر الضواحي من المغيرين ، ثم اجتمع بأعيان المدينة للتشاور في أمر حكومتهم المقبلة . فالمعروف ان الامير الشرعي لأنطاكية ، بوهمند الثاني ، الذي اعترف روجر بسيادته ، كان صبياً لم يتجاوز العاشرة من عمره ، يقيم مع أمه في ايطاليا . ولم يبق بالشرق ممثل للبيت النرماني . وقد هلك كل فرسان النرمان في معركة ساحة الدم ، فتقرر ان يتولى بلدوين حكومة انطاكية ، باعتباره زعيم الفرنج بالشرق ، حتى يبلغ بوهمند سن الرشد ، وتقرر ايضاً ان يتزوج بوهمند عندئذ من احدى بنات الملك . ثم قام الملك بإعادة توزيع اقطاعات امارة انطاكية ، التي خلت بعد مصرع أربابها في المعركة . وتزوج أرامل الفرسان الذين هلكوا في المعركة بمن يليق بهن من الفرسان من جيش بلدوين ، او بمن قدم حديثاً من الغرب من الفرسان ، كلما تيسر ذلك . وبذلك أقامت كل من أرملة تانكرد ، التي أضحت كونتيسة طرابلس ، وأرملة روجر ، أتباعاً جدداً فيما ورثتاه من الأراضي . والراجح ان بلدوين أعاد في الوقت ذاته ، توزيع اقطاعات كونتية الرها . فاستقر جوسلين في الرها رسمياً ، وأصبح كونتاً لها ، بعد ان سار من فلسطين في اثر الملك بلدوين . وبعد ان اطمأن بلدوين الى إدارة البلاد ، وترأس موكباً ، وهو حافي القدمين ، الى الكاتدرائية ، قاد جيشاً مؤلفاً من سبعمائة

فارس وبضعة آلاف من الرجّالة لقتال المسلمين[1] .

معركة هاب سنة ١١١٩ :

انحاز طغتكين الى ايلغازي ، ونهض الزعيمان المسلمان في ١١ اغسطس ، للاستيلاء على مـــا يقع شرقي نهر الأورنت من حصون الفرنج ، مبتدئين بحصن الأثارب الذي بادرت حاميته الصغيرة الى الإذعان ، مقابل الحصول على أمان بالمضي الى انطاكية . وفي اليوم التالي توجه الاميران الى زردنا ، التي غادرها اميرها ، روبرت الأبرص الى انطاكية ، فاستسلمت الحاميـة ايضاً مقابل الابقاء على حياة رجالها ، غير انه لم يكد التركان يُطلون من أبواب المدينـة ، حتى قتلوهم . وكان بلدوين يأمل في انقاذ الأثارب ، غير انـه لم يكد يجتـــاز جسر الحديد ، حتى التقى بحاميتها في الطريق الى انطاكية . وحينما توجه نحو الجنوب ، سمع بحصار زَرْدَنا . وإذ ارتاب بلدوين في ان المسلمين يقصدون التحرك جنوباً ، للاستيلاء على القلاع الواقعة حول معرة النعمان وأفامية ، مضى في طريقه ، وعسكر في الثالث عشر من شهر اغسطس بتـــل دانث ، الذي شهد انتصار روجر سنة

---

(١) انظر : Walter the Chancellor, II. 9 - 10, pp. 115 - 118.
Fulcher of Chartres, III. vii. 1 - 3, pp. 633 - 635.
Orderic Vitalis, (XI. 25, vol. IV, p. 245).
يروي فيتاليس ما أقدمت عليه سيسيليا ، كونتيسة طرابلس ، من بذل الاقطاعات للفرسان.
وما حدث سنة ١١٢٦ ، من قيام ارملة روجر بتوزيع الاقطاعات على الفرسان ، ورد في :
Röhricht, Regesta, Additamenta, p. 9.
والراجح ان مرعش انتقلت وقتذاك من سيادة انطاكية ، وأضحت من توابع الرها .

١١١٥ . وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ، علم بسقوط زردنا ، فرأى انه من الحكمة ان يبتعد عنها قليلاً في اتجاه انطاكية . وفي تلك الاثناء قدم ايلغازي ، يراوده الامل في مباغتة الفرنج وهم نيام قرب قرية هاب . غير ان بلدوين استعد لكل ذلك ، إذ سبق ان بذل اعترافه ، ودعا رئيس اساقفة قيسارية العساكر للاجتماع ، وأمسك بالصليب المقدس ليباركهم ، وأضحى جيش الفرنج مستعداً للقتال .

على ان المعركة التي نشبت عقب ذلك ، سادها الاضطراب . فكلا الجانبين زعم لنفسه النصر . والواقع ان الفرنج لم يحققوا شيئاً من النتائج ، إذ ان طغتكين أجبر بونز كونت طرابلس ، في ميمنة جيش الفرنج ، على الارتداد ، ومع ذلك فان عساكر طرابلس حافظوا على مواقعهم ، أما روبرت الأبرص الذي كان يلي بونز ، فانه هاجم سرية من عساكر حمص ، وقد حرص على استعادة زردنا ، غير انه لم يلبث ان وقع في كمين ، فحمله المسلمون اسيراً . وصمد في القتال قلب جيش الفرنج وميسرته ، واستطاع بلدوين في اللحظة الحرجة ان يهاجم العدو بقوات جديدة . فلاذ بالفرار عدد كبير من التركمان ، غير ان معظم جيش ايلغازي غادر ساحة المعركة ، وقد ساده النظام . وانسحب طغتكين وايلغازي قاصدين حلب ، ومن خلفهما عدد كبير من الاسرى ، وأضحى بوسعهما ان يعلنا العالم الاسلامي بأن النصر كان حليفهم . وقرت أعين اهل حلب لما دار بالمسيحيين مرة اخرى من مذبحة ، بلغت من الشمول ما آثار قلق ايلغازي حينما توقف القتال ريثما يمتطي حصاناً آخر ، لما ضاع من الفديات الثقيلة . فحينما جرى سؤال روبرت الابرص عن مقدار فديته ، أجاب انها تبلغ عشر آلاف قطعة من الذهب ، وحينما بعث ايلغازي بروبرت الى

طغتكين ، كان يأمل من وراء ذلك ان يرتفع مقدار فديته . غير ان طغتكين لم يكن قد اشبع نهمه لسفك الدماء . ومع ان روبرت كان صديقاً قديماً لطغتكين منذ سنة ١١١٥ ، فان طغتكين قتله صبراً ، فانزعج لذلك ايلغازي ، نظراً لحاجته الماسة للأموال لدفع رواتب العساكر (١) .

على ان العساكر الذين فروا من جيش بونز حملوا معهم انباء الهزيمة الى انطاكية ، ولكن لم يلبث ان قدم رسول الى سيسيليا يحمل اليها خاتم الملك ، للدلالة على ما أحرزه من نجاح . غير ان بلدوين لم يحاول اقتفاء أثر الجيش الاسلامي ، بل تحرك جنوباً الى معرة النعمان ، والى الروج ، التي احتلها بنو منقذ اصحاب شيزر . فأجلاهم بلدوين عنها ، ثم عقد معهم معاهدة ، تعفيهم من الالتزام بما يؤدونه كل سنة من الضرائب التي سبق ان طلبها روجر منهم . وما تبقى من الحصون التي استولى عليها المسلمون عادت جميعها باستثناء البيرة والأثارب وزردنا . ثم عاد بلدوين الى انطاكية منتصراً ، فأرسل الصليب المقدس الى الجنوب ، الى بيت المقدس ، فبلغها يوم عيد ارتفاع الصليب ، في ١٤ سبتمبر سنة ١١١٩ ، بينما امضى بلدوين الخريف في انطاكية كيما ينجز التدابير التي بدأها قبل المعركة الاخيرة . وفي ديسمبر ارتحل راجعاً الى بيت المقدس ، بعد ان

---

(١) انظر : Walter the Chancellor, II. 10 - 15, pp. 118 - 119.
William of Tyre, XII. 11 - 12, pp. 527 - 530.
Kemal ad - Din, pp. 620 - 622.
Usama, ed. Hitti, pp. 149 - 150.

عهد الى البطريرك برنارد بإدارة انطاكية باسمه ، وبعد ان أقر جوسلين في كونتية الرها . وصحب بلدوين معه من الرها زوجته مورفيا ، وبناتها الصغار ، وتم تتويج زوجته ملكة اثنــاء الاحتفال بعيــد الميلاد في بيت لحم [١] .

فشل حملة ايلغازي الارتقي سنة ١١١٩ :

لم يجرؤ ايلغازي على ان يهاجم الفرنج من جديد بعد ان تفرق جيشه ، فلم يقبل التركمان على الانحياز اليه ، إلا من اجل النهب . فركنوا بعــد معركة تل دانيث الى الكسل ، واستبد بهم الملل ، وتأخر دفع رواتبهم ، وشرعوا في العودة الى مواطنهم ، وسار معهم زعماء عرب الجزيرة ، ولم يستطع ايلغازي منعهم . إذ أنه خرّ مريضاً مرة اخرى ، وظل مــدة اسبوعين معلقاً بين الحياة والموت . فلما أبَلّ من مرضه ، لم يتهيــأ له الوقت اللازم لإعادة حشد جيشه . فعاد من حلب الى عاصمته بالشرق ، ماردين ، بينما رجع طغتكين الى دمشق [٢] .

وبذا تلاشت حملة ايلغازي الكبيرة ، فلم تحقق للمسلمين شيئاً مادياً ، باستثناء الاستيلاء على بضعة حصون واقعــة على الحدود ، وتخفيف ضغط

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. vii. 4, p. 635.
William of Tyre, XII. 12, p. 531.

(٢) انظر : Walter the Chancellor, loc. cit.
Ibn al - Qalanisi, p. 161.
Kemal ad - Din, pp. 624 - 625.

الفرنج عن حلب . غير انها كانت انتصاراً معنوياً ضخماً للمسلمين . فما حدث من رد المسلمين في تـــل دانث لم يضارع ما حققوه في ساحة الدم من انتصار باهر . فلو ان ايلغازي كان أكثر كفاية ، وأشد حذراً ، لأضحت انطاكية في حوزته . على ان ما حدث من مصرع الفرسان النرمان ، وعلى رأسهم اميرهم ، شجع امراء الجزيرة وشمال العراق على القيـــام بهجوم جديد ، بعـــد ان تحرروا من وصاية سيدهم الأسمى ، السلطان السلجوقي بفارس . وكان لا بـد ان يظهر في الحال زعيم يفوق ايلغازي كفاية وقدرة . وأسوأ ما ترتب على حملة ايلغازي بن أرتق من نتائج ، عنـــد الفرنج ، ما حدث من خسارة بالغة الضخامة في القوة الضاربة . فليس من اليسير تعويض من سقط في معركة ساحة الدم من الفرسان ومن الرجالة ايضاً . غير انه بلغ من ادراك هـــذا الدرس ووعيه ان صار لزاماً على الفرنج في الشرق ان يجري دائماً التعاون بينهم ، وأن يتصرفوا متحدين . إذ ان مبادرة بلدوين الى التدخل أنقذ انطاكية ، كما ان حاجات الزمن أقرّها استعداد الفرنج لقبول بلدوين سيداً فعلياً عليهم . اذ ان الكارثة وحّدت بين إمارات الفرنج في الشام .

طوائف الفرسان الرهبان ١١١٨ — ١١٢٠ :

عكف بلدوين ، عقب عودته الى بيت المقدس ، على تنظيم إدارة مملكته ، فجعل ولاية إمارة الجليل لوليم بور ، فظل حكمها بيد أسرته . وفي يناير سنة ١١٢٠ ، وجه الملك بلدوين الدعوة الى رجال الكنيسة وكبار المقطعين بالمملكة ليشهدوا المجلس الذي انعقـــد في نابلس ، لمناقشة رفع المستوى الأخلاقي عند رعاياه ، والراجح أنه حاول بذلك ان يحد من ميل النزلاء

اللاتين في الشرق ، الى الأخذ بما صادفوه في الشرق من طباع التواكل والكسل ، وفي نفس الوقت اهتم برخائهم المادي . ففي زمن بلدوين الاول جرى تشجيع أعداد متزايدة من اللاتين على الاستقرار في مملكة بيت المقدس ، فظهرت بها طبقة برجوازية لاتينية الى جانب طبقتي المحاربين ورجال الدين بالمملكة . وصار لهؤلاء البورجوازية اللاتينية الحرية التامة في ممارسة التجارة داخل المدينة وخارجها ، كما انه جاز للمسيحيين الوطنيين وللتجار العرب ايضاً ، ان يجلبوا للمدينة ما تحتاجه من الخضروات والقمح ، التي تقرر اعفاؤها من الرسوم الجمركية ، حتى يكفل للمدينة كل ما يلزمها من المؤونة [1] .

ويعتبر إنشاء الطوائف الدينية العسكرية أهم حادث وقع في هذه السنوات . فالمعروف ان جماعة من المواطنين الأتقياء بأمالفي أنشأوا سنة ١٠٧٠ نزلاً في بيت المقدس يأوي اليه الحجاج الفقراء . وأذن والي بيت المقدس من قِبل مصر ، التي كانت وقتذاك تمتلك المدينة ، لقنصل أمالفي ان يختار موقعاً مناسباً . وتقرر تدشين الدار باسم القديس يوحنا المتصدق ، بطريرك الاسكندرية في القرن السابع الذي اشتهر بالاحسان . وكان جُل القائمين على هذه الدار من الرهبان الأمالفيين ، الذين خضعوا لإدارة مقدم يخضع بدوره للسلطات البنيدكتية التي استقرت بفلسطين . وكان مقدم هذه الدار عند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، رجلا اسمه جيرار ،

---

(١) انظر : Röhricht, Regesta, p. 20.
Mansi, Concilia, vol. XXI, pp. 262 - 266.
William of Tyre, XII. xiii, p. 531.

والراجح انه كان من الأمالفيين . وأمر حاكم بيت المقدس المسلم بنفيه مع سائر المسيحيين ، قبل ان يبدأ الصليبيون حصار المدينـة . وكان لدرايته بأحوال البلاد أهمية عنـد الصليبيين . فحث حكومة الفرنج الجديدة في بيت المقدس ، بأن تجعـل لهذه الدار أحباساً . وانحاز عدد كبير من الحجاج الى هيئته ، التي لم تلبث ان تحررت من ولائها وطاعتها للبنيدكتيين ، وأضحت طائفة مستقلة بذاتها ، اتخذت اسم الاسبتارية ، وتدين للبابا مباشرة بالطاعة . وزاد ما يجري بذله لها من الاراضي ، وجعل لها معظم رجال الكنيسة عشر ما يرد اليهم من دخل . توفي جيرار حوالي سنة ١١١٨ ، واشتهر خليفته الفرنسي ، ريموند لى بويه ، بالأفكار الكبيرة . فقرر أنه لا يكفي ان يقتصر عمل طائفته ، على إرشاد الحجاج وإيوائهم ، بـل ينبغي ان تكون وظيفتها الأساسية منذئذ إقامة طائفة من الفرسان ، عاهدوا الله على التقشف ، والطهارة ، والطاعة ، ونذروا أنفسهم لقتـال الوثنيين . وحوالي ذلك الوقت ايضاً ، جرى خلسة إحلال يوحنا الانجيلي مكان يوحنا المتصدق ، ليكون القديس الراعي لها ، وفي ذلك دليل على ازدياد مكانة الاسبتارية . واتخذ الفرسان الاسبتارية شارة تميزهم عن سائر الطوائف ، بأن جعلوا صليباً ابيض على ستراتهم التي يرتدونها فوق أدواتهم الحربية .

وساعد على هـذا التغيير ، ما حدث في نفس الوقت من إنشاء طائفة الفرسان الداوية Knights Templar . والواقع ان فكرة إنشاء طائفة تلتزم بالجانبين الديني والعسكري ، نبتت ترجيحاً من فكرة فارس من شمبانيا ، اسمه هيو باينز ، استطاع سنة ١١١٨ ، أن يقنع الملك بلدوين الاول ، بأن يسمح له ولفئة قليلة من رفاقه ، بالنزول في جناح بالقصر الملكي ، بساحة المعبـد ، وهو المسجد الاقصى . وخضع الداوية (فرسان المعبـد) ،

اول الامر لقاعدة البنيدكتيين ، مثلما فعل الاسبتارية ، على أنهم أضحوا طائفة مستقلة ، تتألف من ثلاث طبقات : الفرسان وكلهم من اصل نبيل ، ثم الأجناد من البورجوازية ، ويعتبرون سلسة الجماعة ومراقبيها ، وأما الطبقة الثالثة فتتألف من رجال الدين ، الذين شغلوا الوظائف الدينية وقاموا بكل ما لم يمت للعسكرية بصلة من الصلات . واتخذوا الصليب الاحمر شعاراً لهم ، فجعله الفرسان على أرديتهم البيضاء ، واتخذه الأجناد على ستراتهم السوداء . وأول الواجبات الدينية التي تعاهد بها الداوية ، الحرص على تطهير الطريق الممتد من ساحل البحر المتوسط الى بيت المقدس من قطاع الطرق ، غير انهم لم يلبثوا ان اشتركوا في كل حملة قامت بها المملكة . وأمضى هيو نفسه زمناً طويلاً في غرب اوربا ، يحشد متطوعين لطائفته .

وبذل الملك بلدوين للطائفتين العسكريتين كل مساندة وتأييد . اذ كانتا مستقلتين عن سلطانه ، فلم تدينا بالولاء والطاعة إلا للبابا . بل ان الضياع الكبيرة التي شرع الملك وأتباعه في حبسها على هاتين الطائفتين ، لم تنطو على ان يلتزم هؤلاء الرهبان الفرسان بالقتال مع جيش الملك . غير انهم لم يبلغوا من الثراء ما يكفي لتحدي سلطة الملك إلا بعد ان انقضى الجيل الاول للصليبيين . على انهم في الوقت ذاته أمدوا المملكة بما كانت في حاجة ماسة اليه ، وهو جيش منتظم ، يتألف من عساكر مدربين ، أضحى وجودهم الدائم امراً ثابتاً . فالمعروف انه في الاقطاعات التي يحوزها العلمانيون ، قد ينجم عن الوفاة الفجائية للسيد الاقطاعي ، وانتقال الإرث الى سيدة او طفل ، ان يضطرب نظام عساكر الملك ، فينغمس باستمرار في امر يثير القلق والضيق . كما انه ليس بوسعه ان يركن الى ان يحل مكان

السادة الذين فقدهم ، سادة جدداً قدموا حديثاً من الغرب ، كلما احتاج اليهم . على حين ان الفرسان الرهبان ، بما اشتهروا بـه من نظام قوي ، وبما ذاع لهم في العالم المسيحي بالغرب ، من صيت ومكانة ، يستطيعون ان يكفلوا للملك مدداً منتظماً من محاربين أوفياء ، لا يصرفهم عن واجبهم أفكار تتعلق بالطموح الشخصي والربح الذاتي [1] .

عاد بلدوين الى انطاكية سنة ١١٢٠ ، ذلك ان بلاق بن اسحاق والي الأثارب من قبل ايلغازي اخـذ يغير على بلاد انطاكية ، بينا زحف ايلغازي نفسه على الرها . ومع ان هـذه الغارات توقفت ، فان ايلغازي مضى في غاراته حتى بلغ الجهـات المجاورة لأنطاكية . فاشتدت ثائرة البطريرك برنارد ، فأرسل الى الملك بلدوين في بيت المقدس يطلب المساعدة . واستأنف بلدوين السير الى الشمال ، يحمل معه مرة أخرى الصليب المقدس ، على الرغم من قلق كنيسة بيت المقدس وتبرمها ، لأنها كرهت ان ترى أثرها المقدس القيم يتعرض لخطر الحرب . ولم يسع جورموند بطريرك بيت

---

(١) عن الطوائف الدينية العسكرية ، انظر :

William of Tyre, XII. 7, pp. 520 - 521. (the Templars) ; XVIII. 4, pp. 822 - 823. (the Hospitallers) .

ومن المراجع الهامة الحديثة :

Delaville Le Roulx, Les Hospitaliers en Terre Sainte.

Curzon, La Règle du Temple.

Melville, La vie des Templiers.

ووردت رواية مسهبة عن الداوية المعروفين باسم رهبان الفرنج (Frankish Phrer)

عند : Michael the Syrian, III. pp. 201 - 203.

انظر ايضاً : La Monte, Fendal Manarchy, pp. 217 - 225.

المقدس إلا ان يصحب جيش الملك للمحافظة على الصليب المقدس . ولما وصل بلدوين الى الشمال ، تبين له ان ايلغازي قد انسحب بجيشه بعد ان أضعفه كثرة الفارين من جيشه التركماني . وإذ اشتد الجزع بالمسلمين ، استدعوا طغتكين الى حلب . فاشتد الكر والفر فيما جرى من القتال بين الجانبين ، حتى أصاب المسلمين الملل والتعب ، فرجع طغتكين الى دمشق ، وعقد ايلغازي هدنة مع بلدوين . وتعين خط الحدود بين مناطق نفوذ الجانبين ، ففي موضع ، اقتسما رحى ، وفي موضع جرت المناصفة في قلعة ، فتقرر تدمير المباني بموافقة الجانبين ، وجرى تدمير أسوار زردنا التي تعتبر جيبا اسلاميا في داخل املاك الفرنج [1] . ورجع بلدوين في أوائل الخريف التالي الى بلاده ، بعد ان حقق نصراً ادبياً ، لم تسفك فيه الدماء . ذلك ان الحاجة كانت ماسة اليه في الجنوب ، نظراً لما شنه طغتكين من غارات واسعة النطاق على الجليل ، بعد ان اعتقد ان الملك بلدوين شغلته أحداث الشمال . على ان بلدوين ردّ على ذلك ، بأن عبر نهر الاردن في يوليو سنة ١١٢١ ، ونهب جولان ، بعد ان احتل الحصن الذي شيّده

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. IX. 1 - 7, pp. 638 - 642.
Walter the Chancellor, II. 16, p. 131.
Matthew of Edessa, CCXXX, pp. 302 - 303.
Michael the Syrian, III. pp. 205 - 206.
Kemal ad - Din, p. 627.
Ibn al - Qalanisi, p. 162.
Grousset, op. cit. I, p. 574.
يخلط ميخائيل السرياني بين بلاق ، وبلك ابن اخ ايلغازي ، الذي كان وقتذاك يغير في أقصى الشمال . انظر : (Ibn al - Qalanisi, loc. cit.) .

طغتكين في جرش ، ولم يلبث ان دمّره [1] . وفي تلك الأثنـــاء أغار جوسلين على بـلاد ايلغازي باقليم الجزيرة ، فوقع في يـده سبي وغنائم وافرة [2] .

حملة الكرج الصليبية سنة ١١٢١ :

وفي أثنـــاء صيف سنة ١١٢١ ، ظهر عامل جديد كان له أثره في السياسة الشرقيـة . والمعروف ان ملوك الكرج من اسرة بغراط فرضوا سيادتهم على أقوام المسيحيين الذين نزلوا في سفوح تلال القوقاز في الشمال ، وظلوا مستقلين عن السيطرة الاسلامية ، فأمدّ الملك داود الثـاني سلطانه حتى بلغ الجهات الواقعـــة الى الجنوب من وادي الرّس ، حيث وقع في صدام مع والي أرّان ، الامير طغرل السلجوقي . ولمـا أنزلت قوات داود الهزيمة بطغرل ، بادر بدعوة ايلغازي للاشتراك معه في جهاد الملك المسيحي الوقح . وأسفر القتال عن كارثة حاقت بالمسلمين ، ففي اغسطس سنة ١١٢١ ، دمّر الكرج جيش طغرل وايلغازي المتحد ، ولم يفلت ايلغازي بحياته إلا بأعجوبة أثناء فراره راجعاً الى ماردين . واستطاع داود بذلك ان يستقر في تفليس ، العاصمة السابقة لبلاد الكرج . ولم تحلّ سنة ١١٢٤ ، حتى حاز الشطر الشمالي من ارمينية ، وحاضرتها آني ، مسقط رأس امرته . ومنذ ذلك الحين اشتد إدراك كل العالم التركي لما يتعرض له من خطر من قبل

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. X. 1 - 6, pp. 643 - 645.

(٢) انظر : Ibn al - Qalanisi, op. cit. p. 163.
Kemal ad - Din, pp. 623 - 626.

بلاد الكرج ، بما كان لها من مركز استراتيجي رائع . ولم يقلل من شأن هذا الخطر ، ما حدث من وفاة الملك داود الثاني سنة ١١٢٥ [١] .

وهـــذه القوة استمرت زمن خلفـاء داود ، فـما اشتهر به الكرج من البسالة ، أثارت باستمرار حساسية المسلمين وقلقهم على جناحهم الشمالي ، وفي ذلك أهمية كبيرة عند الفرنج ، على الرغم من انه لم يكن ثمة فيما يبدو اتصال بين الدولتين المسيحيتين (الكرج والفرنج) . ولم يكن عند الكرج من الدواعي ما يحملهم يميلون الى الفرنج ، على حين انهم ارتبطوا بالبيزنطيين من الناحيتين الدينية والتقليدية . يضاف الى ذلك أن مـا تعرضت له مؤسساتهم الدينية في بيت المقدس من معاملة جافة غليظة ، يعتبر من الامور التي لا يرضى بها شعب معتز بنفسه [٢] .

---

(١) انظر : Georgian Chronicle (in Georgian), pp. 209 - 210, 215.
Mattew of Edessa, CCXXXI - ii, CCXLiii, pp. 303 - 305, 310 - 311, 313 - 314.
Ibn al - Qalanisi, p. 164.
Ibn al - Athir, pp. 330 - 332.
Kemal ad - Din, pp. 628 - 629.
Walter the Chancellor, II. 16, p. 130.
(يشير الى ان انتصار الكرج يرجع الى المرتزقة من الفرنج) .
Michael the Syrian, III. p. 206.
(٢) عن منشآت الكرج في بيت المقدس ، انظر :
Georgian Chronicle, pp. 222 - 223.
Brosset : Additions et Eclaircissements, X, pp. 197 - 205.
Rey : Les Colonies Franques, pp. 93 - 94.
(أشار الى هذه المنشآت في إيجاز) .
الراجح ان الكرج، بتهديدهم المستمر للأراتقة والسلاجقة في شرق ارمينيا ، اسهموا بطريق غير مباشر في نمو قوة زنكي .

ومع ذلك فان ما تعرض له ايلغازي من مصير على أيدي الكرج ، أتاح لبلدوين الفرصة ولم يدعها تفلت منه . ذلك ان سليمان بن ايلغازي الذي ولاه ابوه حديثاً حكومة حلب ، دفعه تهوره وحماقته الى الإفادة من هزيمة ابيه بأن اعلن استقلاله ، غير انه لما تبين أنه ليس بوسعه ان يرد الهجوم الذي بادر بلدوين بالقيام به ضده ، عقد الصلح مع الفرنج ، وبمقتضاه تنازل لهم عن زردنا والأثارب ، اللتين ظفر بهما ايلغازي بعد انتصاره على الفرنج . وبادر ايلغازي الى انزال العقاب بابنه سليمان الذي شق عصا الطاعة ، غير انه رأى ان من الحكمة ان يصدق على المعاهدة التي انعقدت مع بلدوين . ورجع بلدوين الى بيت المقدس فرحاً بما حققه من اعمال في تلك السنة [1] .

وقوع جوسلين في الاسر سنة ١١٢٢ :

حدث في اوائل سنة ١١٢٢ ان بونز كونت طرابلس رفض فجأة بذل الولاء للملك بيت المقدس . ولم يعرف سبب تمرده وعصيانه . ومن العسير ان ندرك ما كان يأمل الحصول عليه من مساندة تعينه على التمرد . غضب بلدوين لما حدث ، فبادر الى دعوة أتباعه للقدوم عليه ، لإنزال العقوبة بالمتمرد . وتقدم جيش الملك من عكا قاصداً طرابلس ، ولم يكد يقترب منها حتى أعلن بونز خضوعه ، فعفا عنه الملك [2] . غير ان

---

(١) انظر : Kemal ad - Din, p. 629.
Ibn al - Athir, pp. 349 - 350.

(٢) انظر : Fulcher of Chartres, III. XI. pp. 647 - 648.
William of Tyre, XII. 17, pp. 536 - 537.

خضوعه جاء في الوقت المناسب . ذلك ان ايلغازي نهض للقتـــال مرة اخرى ، بعد ان ألحّ عليه ابن اخيه بلك ، الذي سبق ان كان اميراً على سروج ، ثم اضحى اميراً على خانزيت . فلم يصدق بلدوين ما ترامى اليه من أنباء ذلك الاستعداد ، اذ انه سبق ان عقد معاهدة مع ايلغازي ، واعتقد ان هـــذا السيد (ايلغازي) ، او الشيخ على ما أورده المؤرخ العربي ، لم ينكث بعهده . غير ان ايلغازي لم يكن سيداً نبيلاً [١] ، وقد تلقى وعداً من طغتكين بالمساعدة . حاصر ايلغازي زَرْدَنا ، التي أعـاد الفرنج بناء استحكاماتها ، وحينما اقترب بلدوين ، كان ايلغازي قد استولى على جانب من هذه الاستحكامات . على ان ما حدث من الاعمال الحربية لم ينته بمعركة ، لأن بلدوين ، لم يشأ ان يقع في الفخ الذي درج الترك على ان ينصبوه لأعدائهم ، بما يتبعونه من خطة التظاهر بالهروب . على ان المسلمين كانوا اول من أرهقهم ، مرة اخرى ، الكر والفر ، فعادوا الى اوطانهم . أما بلدوين فانـه اكتفى بأن ارسل الصليب المقدس الى بيت المقدس ، بينما توجه الى انطاكية [٢] .

على ان أنباء سيئة جاءت من الرها ، قبل ان يصل الصليب الى بيت المقدس . اذ حدث في ١٣ سبتمبر سنة ١١٢٢ ، أنـــه بينما كان جوسلين

---

(١) هذه الرواية اوردها ابن العديم (كمال الدين) على النحو الآتي : قال بلدوين : « مذ حلفنا له وحلف لنا ، ما نكثنا ، وحفظنا بلده في غيبته ، ونحن شيوخ ، وما أظنه يغدر » . انظر ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، نشر الدهان ج ٢ ، ص ٥٦٨ .

(٢) انظر : Fulcher of Chartres, III. XI. 3 - 7, pp. 648 - 651.
Kemal ad - Din, pp. 632 - 633.
Ibn al - Qalanisi, p.1 66.

كونت الرها ، ووالبران صاحب البيرة راكبين في جماعة قليلة العدد من الفرسان ، بالقرب من سروج ، التقوا بجيش بلك . فهاجموا العدو ، غير ان ما هطل من مطر غزير ، أحـــال السهل الى طين ، فانزلقت الأفراس وتعثرت ، ولم يصادف التركان المتخففون صعوبة في تطويق الفرنج ، فوقع في الأسر ، جوسلين ووالبران وستون من رفاقهما ، على ان بلك بادر الى ان يعرض عليهم إطلاق سراحهم مقابل التنازل عن الرها . ولم يكد جوسلين يرفض الاستماع الى هذه الشروط ، حتى حمـل بلك الأسرى الى قلعته في خرتبرت [1].

ولم تتأثر القوة الضاربة في الإمارات الصليبية كثيراً بما جرى من أسر جوسلين ، إذ ان فرسان الرها ظلوا يقومون في الشهر التالي بغارات مثمرة على الاراضي الاسلامية ، ومع ذلـك فان وقوع جوسلين في الأسر كان ضربة أصابت كرامة الفرنج ، اذ أجبرت بلدوين على ان يضيف أعبـاء جديدة الى متاعبه ، بأن تولى مرة اخرى ادارة كونتية الرها . ومن حظ الفرنج الطيب ، ان مات ايلغازي في نوفمبر سنة ١١٢٣ في ميافارقين ، فاقتسم إرثه أبنـاؤه ، وأبنـاء اخوته ، فكانت ميافارقين من نصيب ابنه

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. XII. 1, pp. 651 - 652.
Matthew of Edessa, CCXXXIV, pp. 306 - 307.
Kemal ad - Din, p. 634.
Anon. Chron. Syr. p. 96.

يشير تاريخ السريان الى ان جوسلين كان يصحب زوجته الجديدة ، اخت روجر ، عائدين الى بلادهما . غير انه لم ترد اشارة عن أسرها ، واذ دفع روجر البائنة لأخته، فلا بد ان الزواج جرى قبل وفاة روجر .

الأكبر ، سليمان ، بينما ظفر ابنه الاصغر تمرتاش بماردين ، ونال حلب ، بدر الدولة سليمان ، ابن اخيه ، واتسعت رقعة ممتلكات بلك في الشمال ، فاستولى على حرّان الواقعة الى الجنوب من املاكه [١] .

احتل المسلمون حديثاً الأثارب مرة اخرى ، وفي شهر أبريل من السنة التالية ، أفاد بلدوين من الفوضى الناشبة وقتذاك ، فأرغم امير حلب الجديد (بدر الدولة سليمان) ، وقد كان ضعيفاً ، على ان يردّ له الأثارب نهائياً . وبعد ان استرد بلدوين البيرة ، مضى الى الرها لتدبير امر حكومتها . فجعل جفري الراهب ، صاحب مرعش على رأس ادارتها ، ثم توجه في قوة صغيرة نحو الشمال الشرقي ، للتعرف الى الموضع الذي وقع فيه جوسلين أسيراً . أقام معسكره في ١٨ ابريل سنة ١١٢٣ في موضع لا يبعد كثيراً عن كركر ، الواقعة على نهر الفرات وبينما أعدّ بلك الترتيب للخروج في الصباح بصقره يلتمس الصيد ، هبط على معسكر بلدوين ، ولم يكن بلك يعلم بأن المعسكر يقع على مسافة قريبة منه . فلقي معظم جيش بلدوين مصرعهم ، ووقع الملك نفسه اسيراً . فجرت معاملته بما يليق به من الاحترام ، وتقرر إرساله في حراسة ليلحق بجوسلين في أسره بقلعة

---

(١) انظر :
Ibn al - Qalanisi, p. 166.
Ibn Hamdun, p. 516.
Kemal ad - din, pp. 632 - 634.
Matthew of Edessa, loc. cit.
(ما أورده متى الرهاوي عن المواريث الارتقية يدل على جهل المؤلف في هذه الناحية) .

خرتبرت[1] .

بلدوين وجوسلين يحاولان الفرار سنة ١١٢٣ :

وللمرة الثانية اجتمع بلدوين وجوسلين معاً في الأسر . غير ان ما حدث هذه المرة كان أشد خطورة مما جرى سنة ١١٠٤ ، لأن بلدوين كان في هذه المرة ملكاً ، ودعامة كيان الفرنج بأمرهم . ومن الدليل على موهبته الادارية ، ان بناء المملكة ظل قائماً . فلا زال جفري الراهب يحكم الرها ، وحينما بلغت الأنباء انطاكيه ، بادر البطريرك برنارد ، مرة اخرى ، الى اعتبار نفسه السلطة المسؤولة عن حكومتها . أما في بيت المقدس ، فقد ترددت الشائعات اول الامر بأن الملك لقي مصرعه ، فدعا البطريرك جورمون مجلس المملكة للانعقاد في عكا . على ان حقيقة أمر الملك لم تلبث ان انكشفت عند انعقاد المجلس . ووقع اختيار المجلس على يوستاس جارنييه ، سيد قيسارية والجليل ، ليكون كندسطبل المملكة ونائباً عن الملك ، الى ان يُطلق سراحه . وظلت الحياة الادارية سائرة في طريقها دون توقف في الامارات الثلاثة[2] .

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. XVI. 1, pp. 658 - 659.
William of Tyre, XII. 11, p. 537.
Orderic Vitalis, XI. 26, vol. IV, p. 247.
Matthew of Edessa, CCXV, pp. 307 - 308.
Ibn al - Qalanisi, p. 167.
Ibn al - Athir, p. 352.

(٢) انظر : Fulcher of Chartres, III. XVI. 1 - 3, pp. 650 - 661.
William of Tyre, XII. 17, p. 538.

وذاع صيت الامير بلك ، غير انه لم يستخدمه في توجيه ضربة قاضية الى الفرنج ، بل أفاد منه في توطيد ملكه في حلب . على ان تحقيق ذلك كان أشد عسراً مما كان متوقعاً ، نظراً لما تعرض له بلك من كراهية أهل حلب . وبعد ان استقر له الامر في حلب في يونيه ، هاجم أملاك الفرنج الواقعة الى الجنوب من حلب ، فاستولى في اغسطس على البارة ، غير ان أنباء خطيرة من خرتبرت ، قضت باستدعائه للمضي مرة اخرى الى الشمال [1] .

المعروف ان جوسلين كان دائماً محبوباً من الأرمن . فلم يكد يصل الى الشرق ، حتى اتخذ له ، مثلما فعل بلدوين الاول ، وبلدوين الثاني ، زوجة أرمنية ، وهي اخت توروس الروبيني ، وكانت تختلف عن ملكتي بيت المقدس في انها لم تكن ارثوذكسية بمولدها ، بل انها كانت تنتمي الى الكنيسة الأرمنية المنفصلة ، ولذا كانت شديدة العطف على مواطنيها من الارمن . ولما ماتت ، تزوج جوسلين مرة اخرى . غير ان تعلقه بالأرمن ظل مستمراً ، ولم يظهر مطلقاً ازاءهم من الشدة والصرامة ، ما اشتهر به سلفه بلدوين الثاني . وكانت قلعة خرتبرت تقع في اقليم يسود فيه الارمن ، وقبل فلاح بهذه الجهة ان يحمل رسالة الى أصدقاء جوسلين من الأرمن . فقدم الى خرتبرت خمسون من هؤلاء الاصدقاء ، وقد تنكروا في هيئات

---

(١) انظر :

Kemal ad - Din, pp. 636 - 637.
Ibn al - Qalanisi, pp. 167 - 168.
Cahen, op. cit. p. 296, note 35.

(اورد كاهن الروايات المختلفة عن استيلاء بلك على حلب) .

مختلفة ، فجاز لهم ان يدخلوا البلاد على انهم رهبان وتجـــار بالمنطقة ، قدموا بشكوى يطلبون رفعها لحاكم القلعة . ولمـا أضحوا بداخل الحصن أخرجوا اسلحتهم من تحت ملابسهم ، واستطاعوا ان يتغلبوا على رجال الحامية . وصار لبلدوين وجوسلين فجأة السيطرة على السجن الذي كان يضمها ، وتقرر بعد نقاش قصير جرى بينها ، ان يبادر جوسلين بمغادرة الحصن قبل قدوم الجيش الأرتقي ، وأن يلتمس المساعدة ، بينا يحـــاول بلدوين المحافظة على الحصن في يده . وتسلل جوسلين مع ثلاثة من رفاقه الارمن الى خارج الحصن . ولمـا تيسر له اجتياز جموع القوات التركية ، أنفذ احـد رجاله الى الملك بلدوين يؤكد له وعده . ومضى جوسلين في طريقه في بلاد العدو المحفوفة بالخطر ، فصار يختبىء أثناء النهار ، ويسير متثاقلاً على قدميه اثنـــاء الليل . ووصل الفارون آخر الأمر الى نهر الفرات . ونظراً لأنه لم يكن لجوسلين معرفة بالسباحة ، أفاد من جرابين للنبيذ ، ثم استخدمها في حمل الماء . وبعد ان نفخها ، استعملها عائمتين . واستطاع رفيقاه اللذان اشتهرا ببراعتها في السباحة ، ان يدفعاه في عرض نهر الفرات في جنح الظلام . وفي اليوم التـالي ، عثر عليهم فلاح ، عرف الكونت ورحب به بكل مظاهر الفرح والسرور ، لأن الكونت سبق ان تصدق عليه . وبفضل مساعدة هذا الفلاح وأسرته ، واصل جوسلين سيره في حذر الى تل باشر ، حيث كشف عن نفسه لزوجته وبلاطه . غير أنه لم يمكث في تل باشر ، بل بادر بالسير الى انطاكية لحشد العساكر لإنقاذ الملك بلدوين . غير ان جيش انطاكية كان قليل العدد ، كما اشتدت ثائرة البطريرك برنارد . وبنـاء على اقتراح البطريرك ركب جوسلين في أقصى سرعة الى بيت المقدس . وأول ما قـام به من عمل ، عند بلوغه بيت المقدس ، ان قدّم أغلاله وقيوده قرباناً على مذبح الكنيسة التي قامت على

موضع صلب المسيح . ثم دعا مجلس المملكة للانعقاد ، وروى قصته ، وبفضل المساعدة الجادة من البطريرك جورمون والكندسطبل يوستاس ، جرى حشد العساكر ، وقد ارتفع فوق الرؤوس الصليب المقدس ، وتولى القيادة جوسلين ، وأغذوا السير الى تل باشر ، غير أنهم ما كادوا يصلون اليها حتى أدركوا ان الوقت قد فات .

ذلك انه حينما بلغت بلك أنباء الثورة في خرتبرت ، بادر باستدعاء جيشه من الجنوب ، فأقبل في سرعة أدهشت المعاصرين . ولما وصل بلك الى خرتبرت عرض على بلدوين الأمان بالخروج الى بلاده ، اذا سلّم اليه قلعة خرتبرت . غير ان بلدوين رفض هذا العرض ، إما لأنه لم يثق في الأمير بلك ، وإما لأنه لم يشأ ان يتخلى عن رفاقه . على ان القلعة لم تكن من المناعة ما قد تبادر الى ذهنه . فلم يلبث المهندسون (النقّابون) بجيش بلك ان أحدثوا ثغرة في احد الاسوار ، نفذ منها الجيش الارتقي . ولم يظهر بلك عندئذ شيئاً من الرحمة . اذ كان حريمه بالقلعة ، وجرى انتهاك حرمة القلعة . فأمر بأن يلقي من شرفات القلعة كل من دافع عنها ، من الفرنج او الارمن ، وكل امرأة بذلت لهن المساعدة ، والراجح انه كان في حريم بلك ، جواري أرمنيات فلقين حتفهن . ولم ينج من القتل سوى الملك بلدوين وابن اخته فضلاً عن واليران [1] ، فسيّرهم الى قلعة

---

(١) وفي رواية ابن العديم : « ولم يستبق سوى بغدوين الملك وقلران وابن اخت بغدوين ، وسيرهم الى حران وحبسهم بها » . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٥٧٧) .

حرّان [1] ، التي تفوق خرتبرت أمناً وسلاماً .

وفاة بلك سنة ١١٢٤ :

لم يكن بوسع جوسلين ان يتحمل الاخطار الناجمة عن حملة يهاجم بها حرّان . فاكتفى بأن أفاد من جيشه في القيام بغارة موفقة على الجهات المجاورة لمدينـــة حلب ، أمر على اثرها الجيش بالتفرق ، ثم عاد الى تل باشر . على ان بلك لم يستطع ان يفيد ايضاً من الموقف . اذ ان نائبه على حلب لم يرد على الفرنج إلا بتحويل الكنائس بحلب الى مساجد ، فأثار بذلك المسيحيين الوطنيين ولم يلحق الضرر باللاتين . وقدم بلك الى حلب لإعداد حملة جديدة ، على انه حدث في أوائل سنة ١١٢٤ ان تمرد والي

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. XXIII - XXVI. 6, pp. 676 - 693.
Orderic Vitalis, XI. 26, vol. IV, pp. 248 - 250.
يشير فيتاليس الى ان الملكة مورفيا الارمنية ، ابسهمت في حشد مواطنيها لتخليص الملك .
ويضيف انه جرى ارسال الاسرى الى فارس ، غير انه تقرر فيما بعد اطلاق سراحهم .
William of Tyre, XII. 18 - 20, pp. 538 - 541.
Matthew of Edessa, CCXXXVI. pp. 308 - 310.
Ibn al - Qalanisi, p. 169.
Kemal ad - Din, p. 637.
Michael the Syrian, III. p. 211.
والراجح انه ابن اخت بلدوين ، هوديرنا ، وشقيق مناسيس هيرجس . وأطلق عليه ميخائيل السرياني اسم بارتول (ارنولف) . اما مهالدا سيدة فيتري Mahalda of Vitry ، اخت بلدوين الاخرى ، فلم يكن لها الا ابن واحد ، تزوج من ابنة عمه ، وخلف ريتل على اقطاعه .
انظر : William of Tyre, XII. 1, pp. 511 - 512.
انظر ايضاً ما يلي ، الكتاب الثاني ، الفصل الرابع .

منبج على سلطان بلك ، فألقى تمرتاش بن ارتق القبض عليه ، بعد ان طلب منه بلك ان يسحق الفتنة ، غير ان عيسى شقيق الامير الثائر اعتصم بالقلعة وطلب النجدة من جوسلين . والتقى بلك بجيش جوسلين ، فأنزل بـه الهزيمة ، وقتل جفري الراهب . ثم مضى بلك الى منبج ليعيد اليها الامن ، غير انه لم يلبث ان تلقى طلبات عاجلة من الجنوب ، من صور ، على ان سهماً طائشاً انطلق من حصن منبج ، أودى بحياته في ٦ مايو سنة ١١٢٤ ، ومات بلك وهو يتمتم بأن وفاته تعتبر ضربة قاضية للإسلام [١] . وهو في ذلك على صواب ، اذ انه فاق سائر القـادة الترك الذين التقى بهم الصليبيون ، فيما أظهره من نشاط وافر وحكمة بالغـة . ولم تبقَ قوة الأراتقة طويلاً بعده [٢] .

على ان تغيب بلدوين في الأسر ، لم يكن له أثر سيء في مملكة بيت المقدس ، سوى انه اغرى المصريين مرة اخرى على الإغارة على البلاد . ففي

---

(١) أشار ابن العديم الى هذا الحادث : « بينما كان بلك قائماً يأمر وينهى ، اذ جاءه سهم من الحصن ، فوقع في ترقوته اليسرى ، فانتزعه وبصق عليه وقال : هذا قتل المسلمين كلهم » . انظر ابن العديم : زبدة الحلب . ج ٢ ، ص ٥٨٣ .

(٢) انظر : Fulcher of Chartres, III. XXXI. 1 - 10, pp. 721 - 727.
Orderic Vitalis, XI. 26, vol. IV, p. 260.
William of Tyre, XIII. 11, pp. 570 - 571.
Matthew of Edessa, CCXL, pp. 311 - 312.
Kemal ad - Din, pp. 641 - 642.
Usama, ed. Hitti, pp. 63, 76, 130.
Ibn al - Qalanisi, pp. 168 - 169.

مايو سنة ١١٢٣ تحرك جيش مصري كثيف من عسقلان قاصداً يافا . فبادر يوستاس جارنييه بقيادة جيش بيت المقدس لملاقاته ، وحمل معه الصليب المقدس ، بينما سار سكان بيت المقدس من المسيحيين الدنيين حفاة الاقدام في موكب الى الكنائس . والواقع ان هذه التدابير الدينية اقتضتها الحاجة الماسة ، اذ أنه حينما التقى الفرنج بالمصريين عند يبنه في ٢٩ مايو سنة ١١٢٤ ، ولى العدو الأدبار برغم تفوقـــه الكبير في العدد ، وترك معسكره نهباً للمسيحيين[1] . وتعتبر هذه المعركة آخر ما قام به يوستاس من انجازات ، ففي ١٥ مايو سنة ١١٢٤ توفي يوستاس . ووفقاً لما جرى بالمملكة من عرف وتقليد ، بادرت أرملته الثرية ايمّا ، ابنة اخت البطريرك أرنولف ، الى اتخـــاذ زوج آخر ، وهو هيو لى بيزيه كونت يافا ، حتى لا تفتقر أراضيها الى مقطع قوي . أمـا منصب كندسطبل المملكة ، فان المجلس قرر منحه ولّيم دي بور ، امير الجليل[2] .

اسطول للبنادقة يصل الى عكا سنة ١١٢٣ :

حدث سنة ١١١٩ ، عقب معركة ساحة الدم ، ان كتب الملك بلدوين الى جمهورية البندقية ، يلتمس منها المساعدة . ومع ان المصريين لم يكونوا

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. XVI. 3, XIX. 1, pp. 661 - 668.
William of Tyre, XII. 1, pp. 543 - 545.

(٢) انظر : Fulcher of Chartres, *III. XXII*, pp. 674 - 675.
William of Tyre, loc. cit.
عن هيولى بيزيه ، انظر ما يلي ، الكتاب الثاني ، الفصل الثاني . والمعروف انه تزوج من إيما قبل ابريل سنة ١١٢٤ . (Röhricht, Regesta, p. 25) .

من الخطورة في البر ، فلا زال اسطولهم يسيطر على الميـاه الفلسطينية . وعرض بلدوين على البندقية مقابل المساعدة التي تبذلها ، امتيازات تجارية . وأيّد البابا طلب الملك بلدوين ، فقرر الدوج دومينيكو ميكائيل الاستجابة له . على ان حملة البندقية لم يكتمل إعدادها إلا بعد مضي ثلاث سنوات . ففي ٨ اغسطس سنة ١١٢٢ ، أقلع من البندقية اسطول يتألف من اكثر من مائة سفينة حربية كبيرة ، تحمل أعداداً كبيرة من الرجال والفرسان ، فضلاً عن أدوات الحصار . على ان هـــذا الاسطول لم يبحر مباشرة الى فلسطين ، لأن شجاراً وقع مؤخراً بين البندقية وبيزنطة ، بسبب ما قام به الامبراطور يوحنا كومنين من محاولة لتخفيض ما حصلت عليه البندقية من امتيازات تجارية ، ولذا توقف البنـــادقة ريثما يهاجموا جزيرة كورفو البيزنطية . وألقى الدوج الحصار على مدينـة كورفو ، في شتاء ١١٢٢ — ١١٢٣ ، واستمر نحو ستة شهور دون جدوى . وفي آخر ابريل سنة ١١٢٣ ، انطلقت سفينة من فلسطين ، أنهت الى البنادقة بما حلّ بالملك بلدوين من كارثة ، فرفع الدوج الحصار عن المدينـة كرهاً ، ومضى بأسطوله صوب الشرق ، ولم يتوقف إلا لقتال ما يصادفه من السفن البيزنطية . وبلغ عكا في آخر مايو سنة ١١٢٣ ، ثم سمع ان اسطولاً مصرياً يرتاد البحر تجـاه عسقلان ، فأبحر جنوباً لملاقـــاته ، فسارت أمامه السفن الصغيرة ، خفيفة التسليح ، كيما تدفع الاسطول المصري للاشتباك في معركة . ووقع المصريون في الفخ ، فما كان من ظنهم إحراز انتصار سهل ، حملهم على ان يخرجوا بسفنهم الى عرض البحر ، فأضحوا بين اسطولين للبنادقة ، يفوقانهم عدداً . ولم تفلت سفينة مصرية واحـــدة من الكارثة ، إذ غرق بعضها ، ووقع بعضها الآخر في أيدي البنادقة . وأضاف البنادقة الى انتصارهم ، ما استولوا عليه من اسطول تجاري مؤلف من عشر سفن تحمل سلعاً ثمينة ، وذلك

عند التقائهم به أثناء إبحارهم راجعين الى عكا [1].

على أن قدوم البنادقة كان له من بالغ الأهمية ما لا يجوز إغفالها . وقد جرت مناقشة حول ما اذا كان لا بد من استخدام الاسطول للاستيلاء على عسقلان او صور ، وهما آخر ما تبقّى من المعاقل الاسلامية على ساحل البحر . فأيّد سادة يهودا شنّ الهجوم على عسقلان ، بينا أصرّ سادة الجليل على مهاجمة صور . وقرّر البنادقة آخر الامر ان ينازلوا صور ، ذلك أن ميناءها يعتبر خير الموانيء الواقعة على امتداد الساحل ، كما انه كان الميناء الذي ترد اليه خيرات بلاد دمشق ، يضاف الى ذلك انه يفوق ، في أهمية مركزه التجاري ، عسقلان ، بما لها من مجرى مائي مفتوح تجتازه السفن الى الشاطيء ، وبضآلة ما يقع خلفها من أراضي خصيبة . غير ان البنادقة أصرّوا على ان يتقاضوا ثمن الهجوم .

استغرقت المفاوضات طوال فصل الخريف . وفي يوم عيد الميلاد سنة ١١٢٣ ، لقي البنادقة حفاوة كبيرة في بيت المقدس ، وأدّوا الشعائر الدينية في بيت لحم . وفي أوائل السنة التالية (١١٢٤) ، تمّ توقيع المعاهدة في عكا ، بين ممثلين عن جمهورية البندقية من جهة ، وبين البطريرك جورمون والكندسطبل وليم ومستشار المملكة باجان من جهة اخرى ، باعتبارهم نواباً عن الملك الأسير . وبمقتضى هذه المعاهدة ، يصير للبنادقة في كل مدينة بالمملكة ، شارع بكنيسته وحماماته وفرنه ، وكل ذلك تقرر إعفاؤه من

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, *III. XX.* 1 - 8, pp. 669 - 672.
William of Tyre, *XII.* 23, pp. 546 - 547.
Historia Ducum Veneticorum, M. G. H. Ss. vol. *XIV*, p. 73.

لالتزامات العـادية . وتكون لهم الحرية في استخدام موازينهم ومكاييلهم
ب أعمالهم التجارية ، لا بين انفسهم فحسب ، بل مع سائر الذين يتعاملون
معهم . وينبغي ايضاً إعفاؤهم من كل الرسوم والضرائب الجمركية في سائر
نحاء المملكة . وتقرر ايضاً ان يحصلوا على دور إضافيـة في عكا ، وعلى
ثلث كل من مدينتي صور وعسقلان متى بذلوا المساعدة في الاستيلاء عليهما .
يضاف الى ذلك انه ينبغي ان يتقاضوا مبلغاً سنوياً قدره ثلاثمائة دينار
اسلامي ، يؤدّى مـــا يتحصل للملك من موارد بعكا . ووافق البنادقة
مقابل ذلك ، على ان يؤدوا للخزانة الملكية ما درجوا على دفعه ، وهو
ثلث ما يتقاضونه من الحجاج من الأجور . وطلب البنـــادقة ايضاً انه
ينبغي على مملكة بيت المقدس ألا تخفض ما تتقاضاه من رسوم جمركية
من الطوائف الاخرى إلا بموافقة البندقية . وأقسم البطريرك جورمون على
الانجيل بأن الملك بلدوين سوف يصدق على المعاهدة ، عند إطلاق سراحه .
وتحقق ذلك فعلاً بعد سنتين ، على ان الملك بلدوين لم يقبل الشرط الاخير ،
الذي يُخضع تجارة المملكة لمصالح البندقية [١] .

ولما تمّ إبرام المعاهدة ، سار جيش الفرنج إزاء الساحل قاصداً صور ،
بينما أبحر اسطول البنـــادقة موازياً له ، وبدأ حصار صور في ١٥ فبراير
سنة ١١٢٤ .

---

(١) انظر :
Tafel - Thomas, 1, pp. 84 - 89.
Röhricht, Regesta, pp. 23 - 25.
William of Tyre, *XII.* 4 - 5, pp. 547 - 553.
Fulcher of Chartres, *III. XXVII.* 1 - 3, pp. 693 - 695.

حصار صور سنة ١١٢٤ :

لا زالت صور حتى وقتذاك تابعة للدولة الفاطمية . وإذ ارتاع سكانها سنة ١١١٢ ، لضآلة ما تلقوه من المساعدة من مصر ، أثناء الحصار الذي تعرضوا له سنة ١١١١ ، لم يسعهم إلا ان يقبلوا الحاكم الذي يعينه طغتكين والياً عليهم ، فأنفذ اليهم أكفأ قادته ، واسمه مسعود ، ليتولى أمر المدينة . وفي الوقت نفسه ، اعترفت المدينة بسيادة مصر ، فجرى ذكر اسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة ، وكان الخليفة يتلقى من حين الى آخر الطلب من المدينة ، بإرسال نجدة بحرية اليها [١] .

وظل الوفاق سائداً في الحكومة الثنائية (بصور) لمدة عشر سنوات ، ويرجع ذلك الى حد كبير الى حرص الوزير الأفضل على الإبقـــاء على العلاقات الودية مع طغتكين ، الذي كانت الحاجـة ماسة الى صداقته لمناهضة الفرنج . على أنه حدث في ديسمبر سنة ١١٢١ ، أن لقي الأفضل مصرعه في شوارع القــاهرة ، بيد أحد الباطنية ، فأراد الخليفة الآمر ، بعد ان صار سيد نفسه ، ان يستعيد سلطانه على صور . فأرسل الى صور سنة ١١٢٢ ، اسطولاً ليزيد من قوة دفاعها . ووجّه قائد الاسطول دعوة الى والي مدينة صور ، الامير مسعود ، ليتفقد السفن . فلمـــا نزل اليها ، اختطفه وحمله الى القاهرة . ولقي الامير مسعود حفاوة كبيرة بهـا ، ثم تقرر إرساله بكل مظاهر التشريف الى طغتكين ، الذي وافق على ألا

---

(١) Ibn al - Qalanisi, pp. 128 - 130, 142.

ينـازع الفاطميين في استعادة سلطانهم على صور . ولما اقترب الفرنج من المدينـة ، قام الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي بتسليم المدينة رسمياً الى طغتكين ليتولى حمايتها ، بعـد ان صرّح انه ليس بوسعه ان يفعل شيئاً للمحافظة على المدينة ، لما حدث من تدمير اسطوله . فبـادر طغتكين بإرسال سبعمائة من الترك ومقادير وافرة من المؤن لمواجهة الحصار [1] .

والمعروف ان مدينـة صور لم يربطها بالبر إلا برزخ ضيق ، شيّده الاسكندر الكبير . على أن استحكاماتها جرى تشييدها على طراز سليم ، ومع ذلك فان بهـا نقطة ضعف ، وهي ان مياه الشرب تأتي اليها عن طريق سقاية ممتدة من البر ، فلم يكن بشبه جزيرة صور بئر تستمد منها الماء . وفي اليوم التالي لوصول الفرنج ، سدّوا هذه السقاية . غير ان أمطار الشتاء ملأت صهاريج المدينة ، ولم يحس السكان بوطأة قلة الماء إلا بعـد زمن . ونزل الفرنج بعسكر أقـاموه في الحدائق والبساتين حيث يتصل البرزخ باليابسة . وأرسى البنـادقة سفنهم على الساحل إزاءهم ، غير انهم أبقوا سفينة واحدة على الأقل في عرض البحر ، لمنع كل سفينة تحاول الدخول الى الميناء . وتولى القيـادة العليا للجيش البطريرك جورمون ، الذي تبين للناس انه يملك من السلطة ما يزيد على سلطة الكندسطبل ، فحينما قدم كونت طرابلس بجيشه للانحياز الى العساكر التي تحاصر المدينـة ، أظهر استعداده لإطاعة البطريرك في كل مـا يأمر به ، وليس من الراجح ان

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 165 - 166, 170 - 171.
Ibn al - Athir, pp. 356 - 358.

يقبل ذلك لوليم بور اذا كانت له القيادة العليا (١).

استمر الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف ، وظل الفرنج يقذفون أسوار المدينة عبر البرزخ ، عن الآلات التي جلب البنادقة مادتها معهم. وتجهز المدافعون من جهتهم بالآلات التي ترمي المهاجمين بالحجارة والنيران الإغريقية. استبسلوا في القتال ، غير انهم لم يكونوا من كثرة العدد ما يكفي لمحاولة القيام بهجمات لردّ الأعداء. ولما خشوا ان يؤدي ما أصابهم من الجوع والعطش والافتقار الى القوة الضاربة ، الى الاستسلام ، تسلل من المدينة رسلهم الى طغتكين والى المصريين ، يحثونهم على النهوض لنجدتهم. وحاول جيش مصري ان يصرف الفرنج عن صور ، بأن قام بمهاجمة بيت المقدس ، فبلغ ارباض المدينة المقدسة. غير ان سكانها من المدنيين والتجار ورجال الدين والقسس بادروا بالدفاع عن أسوارها الضخمة ، فلم يخاطر القائد المصري بمهاجمتهم. ثم قام جيش مصري آخر بنهب مدينة صغيرة اسمها بلين ، او المسجد La Mahomerie ، على مسافة بضعة أميال الى الشمال من بيت المقدس ، فقتلوا سكانها. غير ان هذه الغارات المتفرقة لم تنقذ صور ، بل ان طغتكين لم يشتد حماسه للاشتراك في الدفاع عنها ، فحينما بدأ الحصار ، توجّه في العسكر الى بانياس ، عند منبع نهر الاردن ، ينتظر ورود أنباء عن اسطول مصري ، للقيام بهجوم مشترك على معسكر الفرنج ، غير انه لم يظهر بالساحل اسطول مصري ،

---

(١) Fulcher of Chartres, *III. XXVIII.* 1 - *XXX.* 13, pp. 695 - 720.
(استطرد فولشر طويلا في الحديث عن تاريخ صور).
William of Tyre, *XIII.* 7, p. 565.

فلم يكن بوسع الخليفة الفاطمي ان يُعدّ اسطولاً . وكان الفرنج يخشون الاتصال بين القوتين البرية والبحرية ، ولذا ظل اسطول البنادقة في عرض البحر تجاه صور بضعة أسابيع ، ليمنع وصول المصريين . كما ان البطريرك وجّه بونز كونت طرابلس ووليم بور على رأس جيش كثيف لملاقـــاة طغتكين . فلما اقتربا من بانياس ، عزم طغتكين على ألا يغـامر بالدخول في معركة ، فتراجع الى دمشق . وأضحى الأمل الوحيد للمدينة المحاصرة معقوداً على بلك بن ارتق الذي اشتهر بأسر الملك بلدوين ، وتجهّز بلك للقدوم لمساعدتهم ، غير انه لقي مصرعه في منبج .

تحرّج الموقف بداخل صور في آخر يونيو ١١٢٤ ، إذ أخذت المؤونة والمياه في النفــــاد ، وهلك عدد كبير من رجال الحامية ، وجرى إنذار طغتكين بأنه لا بد للمدينـة (صور) ان تستسلم ، فأرسل الى معسكر الفرنج يعرض تسليم المدينـة بالشروط المألوفة ، بأن يؤمّن كل من أراد من السكان ان يغــادر المدينة بما يحمله من متاع ؛ ومَن أراد الإقامة بالمدينة ، احتفظ بحقه مواطناً . وقبل القادة الفرنج والبنادقة هذا العرض ، على الرغم من اشتداد ثائرة العساكر والبحّارة ، حين سمعوا بأنه لا مجال للنهب والسلب ، فهدّدوا بالتمرد والثورة . وفي ٧ يوليو سنـة ١١٢٤ ، فتحت المدينـة أبوابها ، وتولى أمرها الجيش المسيحي . فارتفع لواء الملك على المدخل الرئيسي للمدينة ، بينما ارتفع علمـــا كونت طرابلس ودوج البندقية على البرجين على جانبي المدينة . ووفى القادة بما وعدوا ، فلم يحدث شيء من النهب ، وخرج المسلمون في موكب طويل ، مجتـازين المعسكر الصليبي في أمن وسلام . وبذا انتقل الى أيدي المسيحيين آخر مدينـــة اسلامية على الساحل شمالي عسقلان . وعاد الجيش الصليبي فرحاً مسروراً

الى بيت المقدس ، وأقلع البنادقة راجعين الى البندقية ، بعد ان استخلصوا ما أرادوا من الامتيازات [1] .

وبلغت الملك بلدوين ، وهو بشيزر ، الاخبار الطيبة . إذ حدث بعد وفاة بلك أن صار بلدوين في حبس تمرتاش بن ايلغازي ، الذي كره ان يتحمل مسؤولية ذلك ، وآثر فكرة الحصول على فدية كبيرة ، فطلب الى امير شيزر ان يجري المفاوضات مع الفرنج . وكانت الملكة مورفيا قد ارتحلت الى الشمال ، حتى تكون قريبة من زوجها . وقامت الملكة وجوسلين بترتيب الشروط مع امير شيزر . على ان مقدار الفدية المطلوبة كان باهظاً ، إذ كان لزاماً على الملك ان يؤدي الى تمرتاش ثمانين الف ديناراً ، وان يعيد الى حلب التي خلفَّ بلك على حكمها ، مدن الأثارب وزردنا وعزاز وكفرطاب والجزر . وينبغي عليه ان ينهض لمساعدة تمرتاش في قمع الزعيم البدوي دبيس بن صدقة ، الذي استقر بالجزيرة . وينبغي ان يدفع عاجلاً عشرين الف ديناراً ، وان يودع الرهائن بشيزر حتى يتم تسديد ما بقي من الفدية ، فمتى جرى تسليم الرهائن للمسلمين ، يتمّ إطلاق سراح

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. XXXIV. 18, pp. 728 - 739.

حدد فولشر تاريخ الاستيلاء على صور ، على انه لم يكن منصفاً حين وجه اللوم الى سكان انطاكية لأنهم لم يتعاونوا مع سائر الفرنج .

William of Tyre, XIII. 13 - 14, pp. 573 - 576.

Ibn al - Qalanisi, pp. 170 - 172.

Ibn al - Athir, pp. 538 - 539.

Abu'l Feda, pp. 15 - 16.

Matthew of Edessa, CCXLIV, p. 314.

جعل ابن الاثير سقوط المدينة في ٩ يوليو ، بينما جعله ابو الفدا في ٥ يوليو .

بلدوين . وطلب تمرتاش ان يكون من الرهائن صغرى بنات الملك ، وهي الاميرة يوفيتا ، التي لم تتجاوز الرابعة من عمرها ، وابن جوسلين ووريثه ، وهو صبي يبلغ من العمر احدى عشرة سنة ، ثم عشرة من أبناء النبلاء . وأنفذ سلطان بن منقذ امير شيزر جماعة من أفراد اسرته الى حلب ، لإثبات نيته الطيبة . وفي نهاية يونيو سنة ١١٢٤ ، غادر بلدوين حرّان ، ممتطياً جواده الذي أعاده عليه تمرتاش ، مع ما بذله له من الهدايا القيّمة . توجّه بلدوين الى شيزر حيث بالغ أميرها في ضيافته وإكرامه ، إذ لم ينسَ فضله في إعفائه من الأموال التي كان على شيزر ان تؤديها الى انطاكية قبل خمس سنوات . والتقى بلدوين في شيزر بابنته ورفاقها من الرهائن . ولما وصلت الرهائن الى شيزر ، سمح أميرها لبلدوين بالمضيّ الى انطاكية ، فبلغها في الايام الاخيرة من شهر اغسطس سنة ١١٢٤ [١] .

ولم يكد بلدوين يصبح طليقاً ، حتى تنكّر لما سبق ان قَبِله من الشروط . ذلك ان البطريرك برنارد وجّه انتباهه الى انه ليس إلا سيداً أعلى ووصياً على انطاكية ، فلا حقّ له في ان يتخلى عن شيء

---

(١) انظر :
Usama, ed. Hitti, pp. 133 - 150.
Kemal ad - Din, pp. 643 - 644.
Matthew of Edessa, CCXLI, pp. 312 - 313.

ما أشار اليه متى الرهاوي من ان جوسلين والملكة دبرا الفدية ، وان تمرتاش أمر بإعدام وليران وابن اخت الملك ، كل ذلك راجع ، فيما يبدو ، الى ان الملك نقض شروط الفدية .

انظر ايضاً : Michael the Syrian, III. pp. 212, 225.

ورد اسم يوفيتا في صيغ مختلفة ، مثل : Ywetta, Ivetta, Juditta (ايفيتا ، آيفتا ، يوديتا) .

من أراضيها التي تعتبر ملكاً للامير الصبي بوهمند الثاني . اقتنع بلدوين عن طيب خاطر بهذا الاعتراض ، وأرسل الى تمرتاش يعتذر اليه ، ويشير الى انه لا سبيل الى مخالفة أمر البطريرك . وإذ كان اهتمام تمرتاش بالحصول على المال ، يفوق حرصه على الأراضي ، لم يلبث ان غفر لبلدوين ذنبه ، حتى لا يفقد ما تبقى من الفدية . ولما أنس بلدوين من تمرتاش الانصياع والإذعان ، بادر ايضاً الى نقض الشرط الذي تضمّن وعده بالنهوض لمساعدة تمرتاش على الامير البدوي دبيس بن صدقة . بل انه عوضاً عن ذلك ، استقبل سفارة من قِبل دبيس لإعداد هجوم مشترك على حلب ، فانعقدت محالفة بينهما . وفي اكتوبر انحازت جيوش انطاكية والرها الى عربان دبيس أمام أسوار حلب . ولم يلبث الحلف ان ازداد قوة ، حين وصل الى معسكرهما الامير السلجوقي ، المطالب بعرش حلب ، وهو سلطان شاه ابن رضوان ، الذي فرّ أخيراً من حبس الأراتقة ، مع ابن عمه طغرل ارسلان ، شقيق سلطان سلاجقة الروم ، الذي طرده حديثاً أمراء دانشمند من ملطية ، فخرج يلتمس الحلفاء .

لم يحاول تمرتاش ان يدافع عن حلب ، لأن أخاه سليمان امير ميافارقين قد مات ، فحرص تمرتاش على ان يظفر بامتلاك بلاده . فبقي تمرتاش في ماردين ، وترك أعيان المدينة (حلب) يبذلون كل ما في وسعهم من قوة للدفاع عنها ، فظلوا ثلاثة شهور على مقاومتهم ، على حين ان رسلهم ، الذين أساء تمرتاش استقبالهم ، لأنه لم يعد راغباً في الاهتمام بهم ، توجّهوا الى الموصل ، وأثاروا اهتمام الأتابك اقسنقر البرسقي ، الذي تولى سنة ١١١٤ ، قيادة جيوش السلطان لقتال الفرنج . ولما اشتهر به البرسقي من الكراهية للأراتقة ، أرسل من قِبله من القادة مَن تسلّم قلعة حلب . وعلى الرغم

من مرض البرسقي ، فانه مضى بجيشه ، وبتأييد السلطان ، فلما اقترب من حلب ، أمر خيرخان امير حمص ، وطغتكين امير دمشق ، بأن يلحقا به ، فبعثا اليه العساكر ، فانهار تحالف الفرنج مع دبيس ، بعد هـذا العرض العساكر . فتحرك دبيس مع قبيلتـه صوب الشرق ، بينما انسحب بلدوين الى حصن الأثارب . وفي نهـاية يناير سنة ١١٢٥ ، دخل البرسقي حلب ، ولم يحاول مطاردة الفرنج . وإذ شهد الملك بلدوين مـا حدث ، عاد الى انطاكية ، ومنها الى بيت المقدس ، التي بلغها في ابريل سنة ١١٢٥ ، بعد ان غاب عنها مدة سنتين[١] .

معركة عزاز سنة ١١٢٥ :

لم يمكث الملك بلدوين زمناً طويلاً في بيت المقـدس ، فالبرسقي كان عنده أشد خطورة من الأراتقة ، إذ كان بوسعه ان يوحّد المسلمين بشمال سوريا تحت سلطانه ، نظراً لكونه اميراً على الموصل وحلب ، ولمساندة حكومة السلطان له . وخضع لسلطانه طغتكين وأمير حمص . وتوجّـــه البرسقي في مارس سنة ١١٢٥ ، الى شيزر . وإذ حرص سلطان بن منقذ ،

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. XXXVIII - XXXIX. 9, 2, pp. 751 - 756.
William of Tyre, XIII. 15, pp. 576 - 577.
Ibn al - Qalanisi, pp. 172 - 173.
Kemal ad - Din, pp. 643 - 650.
Usama, ed. Hitti, p. 133.
Matthew of Edessa, CCXLV, pp. 314 - 315.

امير شيزر ، على ان يكون دائماً صديقاً لكل رجل عظيم الأهمية ، سلّمه رهائن الفرنج : الاميرة يوفيتا ، وجوسلين الصغير ، ورفاقها . ثم رحل على رأس جيش مؤلف من القوات الاسلامية المتحالفة ، فهاجم في مايو سنة ١١٢٥ ، حصن كفرطاب الذي كان بحوزة الفرنج ، فاستولى عليه ، ثم حاصر زردنا . وعجل الملك بلدوين بالمسير صوب الشمال ، وقـــاد جيوش انطاكية وطرابلس والرها ، التي تألفت من ألف ومائتي فارس ، وألفين من الرجالة ، لإنقاذ زردنا . وسار المسلمون الى عزاز ، وبها دارت في آخر مايو سنة ١١٢٥ ، معركة تعتبر من أشد المعارك عنفاً وسفكاً للدماء في تاريخ الحروب الصليبية . وإذ استند المسلمون الى تفوقهم العددي ، حاولوا الاشتباك وجهاً لوجه مع الفرنج ، غير انه كان للفرنج من التفوق في السلاح والقوة الضاربة ، ما لم يطق المسلمون مقاومته ، فحلّت بهم هزيمة ساحقة . ومن الغنائم الوفيرة التي حصل عليها بلدوين ، استطاع ان يجمع مبلغ ثمانين الف دينار ، الذي كان يدين به لافتداء الرهائن ، فتنازل كل فارس من الفرنج عن جانب من نصيبه في الغنائم ، لإطلاق سراح ابنة الملك . ومع ان المال كان من حق تمرتاش ، فان البرسقي قبله ، وأعـــاد الرهائن . وجرى إرسال مبلغ آخر من المال الى شيزر لافتــداء الأسرى والرهائن الذين لا زالوا محتجزين بهـــا . ولم يكد يطلق سراحهم ، حتى هاجمهم امير حمص ، فبادر بنو منقــذ بالنهوض لنجدتهم ، ووجّهوهم الى الطريق الذي يسلكونه .

وانعقدت الهدنة بين البرسقي والفرنج ، بعد المعركة . وبمقتضاها احتفظ المسلمون بكفرطاب ، التي صارت من نصيب امير حمص ، غير انه لم تحدث تغييرات اقليمية اخرى . ثم عاد البرسقي الى الموصل ، بعد ان أبقى بحلب

حاميــة عسكرية . وظل شمال سوريا ينعم بالسلام لمدة ثمانيــة عشر شهراً [١] .

رجع بلدوين الى فلسطين ، حيث أغار في صيف سنة ١١٢٥ على بلاد دمشق ، وقام بمظاهرة عسكرية امام عسقلان . وفي ينــاير سنة ١١٢٦ ، قرر بلدوين ان يقود حملة كبيرة لمهــاجمة دمشق ، فأغار على حوران ، وخرج طغتكين لملاقاته ، ووقع الصدام بين الجيشين عند تل الشقب ، على مسافة عشرين ميلاً الى الجنوب الغربي من دمشق . ورجحت كفة المسلمين في القتال اول الامر ، ونفذت سرية من تركمان طغتكين الى خيمة الملك ، غير ان بلدوين أحرز النصر آخر الامر ، فطارد العــدو حتى منتصف الطريق الى دمشق . على انه نظراً لما لحقه من خسائر جسيمة ، رأى انه من الحكمة ان يعدل عن القتال ، فعاد الى بيت المقدس بعــد ان أصاب غنائم وفيرة [٢] .

وفي مارس سنة ١١٢٦ ، هاجم بونز كونت طرابلس حصن رفنيه ، الذي تحكم في المنفــذ المؤدي الى البقيعة من جهة وادي نهر الاورنت .

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. XLII. 1 - XLIV, 4, pp. 761 - 771.
William of Tyre, *XIII.* 11, pp. 578 - 580.
Sigebert of Gembloux, M. G. H., Ss. vol. VI, p. 380.
Kemal ad - Din, pp. 315 - 318.
Michael the Syrian, III, p. 221.

(٢) انظر : Fulcher of Chartres, III. XLVI. 1 - 7, I. 1 - 15, pp. 77, 784 - 793.
William of Tyre, *XIII.* 17 - 18, pp. 581 - 585.
Ibn al - Qalanisi, pp. 574 - 577.

وكان هذا الحصن هدفاً للسيحيين ، منذ ان استردّه منهم طغتكين سنة ١١٠٥ وإذ استنجد حاكم الحصن بطغتكين وأقسنقر البرسقي ، لجأ بونز الى بلدوين ملك بيت المقدس يطلب مساعدته . على ان الاميرين المسيحيين أسرعا في زحفهما على الحصن قبل ان تنهض القوات الاسلامية لنجدته ، فاستسلم الحصن لهما ، بعد حصار استمر ثمانية عشر يوماً . وكان الاستيلاء على الحصن بالغ الأهمية عند الفرنج ، لا لأنه كفل الأمان والسلامة لطرابلس فحسب ، بل أمّن ايضاً طرق الاتصال بين بيت المقدس وانطاكية [١] .

وفي تلك الأثناء أعاد المصريون بناء اسطولهم . ففي خريف سنة ١١٢٦ ، أقلع الاسطول المصري من الاسكندرية ، وأغار على الساحل المسيحي . ولما سمع البرسقي بذلك ، أعدّ خطته على ان يقوم أثناء إغارة الاسطول المصري ، بهجوم من الشمال ، فألقى الحصار على الأثارب . وأصاب بلدوين في قراره بأن أقسنقر البرسقي لأشد خطراً ، فبادر بالمسير الى انطاكية . والواقع ان المصريين أدركوا ، بعد ان حاولوا القيام بغارة على أرباض بيروت كلفتهم خسائر جسيمة ، أن المدن الساحلية مشحونة بحاميات قوية ، فلم يسعهم إلا العودة الى وادي النيل [٢] .

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. Li. 4, Lii. 1, pp. 795 - 797, 798 - 799.
William of Tyre, *XIII*. 19, pp. 585 - 586.
Ibn al - Qalanisi, p. 180.
Kemal ad - Din, p. 652.

(٢) انظر : Fulcher of Chartres, III. LVI. 1 - 5, pp. 803 - 805.
William of Tyre, *XIII*. 20, pp. 587 - 588.

أما في الشمال ، فان بلدوين الذي انحـاز اليه جوسلين ، أرغم أقسنقر البرسقي على التراجع عن الأثارب . ولما لم يشأ كل من الجانبين ان يغامر في معركة ، لم تلبث الهدنة ان تجددت بينهما . ثم عاد البرسقي الى الموصل ، بعد ان نصّب ابنه عز الدين مسعود حاكماً على حلب . غير انه لم يكد يبلغ الموصل ، في ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ ، حتى عاجله أحد الباطنية بطعنة خنجره ، فمات على الفور [١] .

ترتب على وفاة البرسقي ، أن سادت الفوضى بين المسلمين ، وازدادت الاحوال سوءاً بمـا حدث من شجار بين ابنه مسعود وبين طغتكين ، ثم وفاة مسعود مسموماً فيما يبدو ، فتنازع حكم حلب أمراء كثيرون ، منهم تومان ، الذي ولي حلب من قِبل مسعود ، وختلغ أبه مملوك السلطان محمود السلجوقي ، وبدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وابراهيم ابن رضوان السلجوقي [٢] .

قدوم بوهمند الثاني سنة ١١٢٦ :

وحوالي ذلك الوقت ، أراح بلدوين نفسه من الوصاية على انطاكيـة ، إذ ان أميرها بوهمند الثاني بلغ وقتذاك الثـامنة عشرة من عمره ، وقدم

---

(١) انظر Fulcher of Chartres, III. LV. 5, pp. 80 - 83.
Ibn al - Qalanisi, pp. 177 - 178.
Kemal ad - Din, pp. 653 - 654.

(٢) انظر Ibn al - Qalanisi, pp. 181 - 182.
Kemal ad - Din, p. 654.
Michael the Syrian, III, p. 225.

ليتسلم إرثه . فبعد ان تخلى عن أملاكه في ايطاليا لابن عمه روجر الثاني ملك صقلية ، أبحر من اوترانتو في سبتمبر سنة ١١٢٦ ، في اسطول مؤلف من اربع وعشرين سفينة تحمل أعداداً كبيرة من العساكر والخيل . وهبط الى البر في ميناء السويدية (سان سيميون) في أوائل اكتوبر سنة ١١٢٦ ، وتوجه على الفور الى انطاكيـة ، حيث رحّب به بلدوين بكل مظاهر التشريف .

والواقع ان بوهمند أضفى على النفس تأثيراً كبيراً ، إذ حاز ما اتصف به أبوه من روعة المظهر ، فكان طويل القامة ، أشقر الشعر ، جميل الطلعة ، ودلّ بمظهره على أصالة النسب الذي ورثه عن عمته كونستانس ، ابنـة فيليب الاول ملك فرنسا . فبـادر الملك بلدوين الى ان يسلمه بكل دقة وأمانة ، إمارة انطاكية بما يتبعها من ممتلكات . واشتد التأثر برسول من شيزر ، حينما شهد الملك بلدوين يؤدي للامير ثمن كل ما استهلكته حتى وقتذاك خيول جيش مملكة بيت المقدس من الحبوب . وكان بصحبة الملك ابنته الاخرى الاميرة أليس ، وبناء على خطة سبق إعدادها ، تمّ زواج بوهمند من أليس . وكان استهلالاً رائعاً لحكمه حينما هجم بوهمند على كفرطاب ، فاستردّها من امير حمص ، ولم نلبث ان سمعنا عن فروسيته في مناوشاته مع جيش شيزر [١] .

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres, III. LVII. 1 - 4, LXI. 1 - 5, pp. 805 - 809, 819 - 822.

(يشير فولشر في الفقرات المتداخلة في الفقرات الواردة هنا ، الى أخطار البحر المتوسط ، وما قذف به على الشواطىء من انواع الحيات . ثم يقص في موضع آخر خبر ما سببته الجرذان من وباء سنة ١١٢٢) . =

أضحى بوسع بلدوين آخر الامر ، ان يعود الى الجنوب ، بعـــد ان أحس بما هيأته له وفاة البرسقي ، وقدوم بوهمنـد ، من الحرية النظر في أمر مملكته . وأمضى سنة ١١٢٧ في هدوء ، دون ان نسمع عن تحركاته سوى ما قام به في اغسطس [١] ، من حملة قصيرة الأمد في شرق البحر الميت . وفي أوائل سنة ١١٢٨ ، مات صديقه المخلص البطريرك جورمون ، فخلفه في البطريركية قس فرنسي آخر ، وهو ستيفن لافيرتيه ، رئيس دير سان – جان – ان – فاليه ، في شارتر Saint - Jean - en - Vallée ، الذي ينحدر من أسرة نبيـلة ، ويمت بصلة القرابة للملك بلدوين . غير انه اذا كان بلدوين يأمل فيما قد تفضي اليه أواصر القرابة من التعاون الصادق ، لم يلبث ان أدرك حقيقـة الامر دون خداع . إذ بادر البطريرك الجديد الى إحياء مسألة الاتفاق الذي سبق ان عقـــده جودفري مع البطريرك دايمبرت ، فطالب بأن تكون يافا من أملاك البطريركية التي تنعم بالحكم الذاتي ؛ ولم ينسَ ان يذكّر الملك بأنــه متى تمّ فتح عسقلان ، فلا بد للملك ان يتنازل له عن بيت المقدس ذاتها . ورفض بلدوين الاستماع لهذه الطلبات ، غير انه لم يعرف كيف يعـــالجها ، فازدادت العلاقات سوءاً ، طوال سنة ١١٢٩ ، بين البلاط الملكي والبطريركية ؛ ولم يمنع وقوع الشقاق

= انظر ايضاً : William of Tyre, *XIII*. 21, pp. 588 - 589.

Orderic Vitalis, *XI*. 9, vol. IV, p. 266.

Matthew of Edessa, CCL, p. 319.

(يذكر متى الرهاوي ان بلدوين وعد بوهمند بوراثة عرش بيت المقدس) .

Michael the Syrian, *III*. p. 224.

Usama, ed. Hitti, p. 150.

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, p. 182.

الصريح إلا وفاة البطريرك ستيفن في أوائل سنة ١١٣٠ ، بعد مرض قصير . وارتاب أصدقاؤه في انه مات مسموماً . ولما قدم الملك لزيارة البطريرك الذي أشرف على الموت ، وسأله عن حاله ، أشار البطريرك في مرارة قائلاً : « سيدي ، انني لأشعر بما تشتهي » . والواقع ان موته كان مرغوباً فيه . وحرص الملك بلدوين على ان يختار خلفاً للبطريرك ستيفن ، راعي كنيسة القيامة ولم ميسينز ، الذي اشتهر بالتقوى والصلاح وحب الخير ، فضلاً عن سذاجته وقصور تعليمه ، فلم تكن له أطماع سياسية ، بل كان يسره ان يفعل كل ما يريد الملك ، ولذا حظي بمحبة جميع الناس [١] .

مسألة وراثة العرش سنة ١١٢٨ :

والأمر الثاني الذي كان له أهمية بالغة عند بلدوين ، هو تدبير أمر وراثة العرش . فالملكة مورفيا لم تنجب لبلدوين أبناء ، إنما كان له اربع بنات : مليسند ، وأليس ، وهوديرنا ، ويوفيتا . أضحت أليس أميرة انطاكية ، وما زالت هوديرنا ويوفيتا طفلتين ، فكان لا بد تبعاً لذلك ، ان تخلفه مليسند على العرش ، بالاشتراك مع زوج يصلح لها . وبعد ان استشار بلدوين مجلسه ، سنة ١١٢٨ ، أنفذ ولم بور مع امير بيروت جاي بريسبار ، الى فرنسا ، ليطلبا من لويس السادس ملك فرنسا ، ان يختار من نبلاء فرنسا رجلاً يصلح لهذا المركز الرفيع ، فأوصى لويس بأن يكون ذلك النبيل

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIII*. 25 - 26, pp. 594 - 595, 598.
اشتهر ولم في بعض الاحوال باسم ولم مالين ، وتقع ميسينز في غرب الفلاندر .

فولك الخامس كونت أنجو . وكان فولك يناهز الاربعين من عمره ، وهو ابن فولك الرابع ريشين ، من زوجته برترادا مونتفورت المعروفة بارتكاب الزنا مع فيليب الاول ملك فرنسا . وكان فولك رأس بيت كبير ، استطاع أثناء القرنين السالفين ، ان يحمل له إقطاعاً يعتبر من أغنى وأقوى الاقطاعات بفرنسا . وزاد فولك في هذه المساحة ، بما أنشبه من حرب ، وعقده من زواج ، ودبّره من مكيدة . ففي تلك السنة ذاتهــا ، أحرز للأسرة انتصاراً باهراً ، بأن زوّج ابنه ووريثه جودفري من الاميرة الامبراطورة ماتيلدا ، آخر مَن بقي على قيد الحياة من سلالة هنري الاول ملك انجلترا ، وتعتبر وريثة عرش انجلترا ونورمنديا . وإذ أضحى فولك أرملاً ، عقــد العزم على ان يتخلى عن أملاك الاسرة الى ابنه ، وان يوطن نفسه على خدمة الصليب . فتوجه فعلاً سنة ١١٢٠ الى بيت المقدس ، فأدى الحج بها ، فأضحت له معرفة شخصية بالملك بلدوين

ولما كان فولك من أجدر المرشحين ، إذ يسانده ملك فرنسا ، ويؤيده البابا هونوريوس الثاني ، فانه لقي فعلاً القبول من الملك بلدوين ، الذي كان حريصاً على ان تلقى تدابيره لوراثة العرش القبول عند بارونات مملكته . ومن المستحيل ان ينازع أحد منهم دعاوى هذا الامير المحارب ، البالغ الرفعة ، في ان يتزوج كبرى بنات ملكهم .

وفي أوائل ربيع سنة ١١٢٩ ، غادر فولك فرنسا ، يصحبه وليم بور وجاي بريسبار ، فهبطوا الى عكا في مايو ومنها توجهوا الى بيت المقدس ، حيث تزوج بهــا فولك ومليسند في نهاية الشهر ، وسط مظاهر الفرح والسرور . ولقي هذا الاجراء الموافقــة من جميع المملكة ، ولم يشذ عن ذلك فيما يبدو إلا شخص واحد . إذ ان الاميرة مليسند نفسها ، لم يثرها

ذلك الرجل القصير القامة ، الشديد البأس ، الأصهب الشعر ، والذي كان في ربيع عمره ، والذي فرضته عليها مصالح سياسية [1] .

الباطنية في بانياس ، سنة ١١٢٦ :

وإذ استند بلدوين الى مساعدة فولك ، قام في سنة ١١٢٩ بإعداد ما اشتهر به حكمه من خطة كبيرة ، للاستيلاء على دمشق . مات طغتكين أتابك دمشق في ١٢ فبراير سنة ١١٢٨ . والمعروف ان طغتكين ظل سنوات عديدة سيداً على دمشق ، واكبر من ظفر بالمحبة والاحترام من أمراء المسلمين في غرب الشام [2] . وحدث منذ بضع سنوات ، أن هرب من فارس الى حلب ، داعٍ للباطنية اسمه بهرام الاستراباذي ، فجعل من نفسه زعيماً لحركة الاسماعيلية الارهابية بشمال الشام . ومع ان بهرام

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIII*. 24, p. 593, XIV. 2, p. 608.
Halphen et Poupardin, Chroniques des Comtes d'Anjou, Gesta Ambaziencium Dominorum, p. 115, and Gesta Consulum Andegavorum, pp. 69 - 70.

المعروف ان فولك سبق ان تزوج من ارنبورجا او جوبيرجا ، وريثة ماين ، حوالي سنة ١١٠٩ ، وظل يقاتل هنري الاول ملك انجلترا على إرثها. ولم يحل النزاع الا ما جرى من زواج جفري بن فولك من الامبراطورة ماتيلدا (في ١٧ يونيو ١١٢٨). اما ابنته سيبلا ، فتزوجت من تيبري الالزاسي كونت فلاندر . وقام فولك بالحج الى بيت المقدس سنة ١١٢٠ . (انظر : William of Tyre, p. 608) .

وما حمله من رسالة توصية من البابا هونوريوس الى الملك بلدوين اوردها :
Rozière, Cartulaire du Saint Sepulcre, pp. 17 - 18.

(٢) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 183 - 186.
Ibn al - Athir, pp. 317 - 318.

حظي بتأييد ايلغازي بن أرتق ، فان اهل حلب كرهوا مذهبه ، وكان لا بد لبهرام ان يرحل من حلب . وبعد ان حصل على توصية من ايلغازي ، قدم الى دمشق حيث استقبله طغتكين في مودة وإيناس . فاستقر بهرام بدمشق ، وصار يجمع حوله رويداً رويداً أنصار مذهبه ، ثم ظفر بعطف المزدقاني وزير طغتكين ، فازداد المذهب قوة على الرغم من كراهية اهل السنه بدمشق له . فطلب بهرام من المزدقاني ان يحميه ، وبناء على طلب الوزير (المزدقاني) ، وافق طغتكين على ان يبذل للباطنية ، في نوفمبر سنة ١١٢٦ ، حصن بانياس الواقع على الحدود ، والذي تعرّض لتهديد الفرنج ، وكان طغتكين يأمل بذلك الإفادة من جهود الباطنية . فأعاد بهرام عمارة استحكامات قلعة بانياس ، وجمع حوله كل أتباعه ؛ فلم يلبثوا ان قاموا بإرهاب الجهات المجاورة . ومع ان طغتكين لا زال يتولى حمايتهم من الناحية الرسمية ، فانه أخذ يُعدّ الخطة للتخلص منهم ، غير انه مات قبل ان تتهيأ له الفرصة المواتية . ولقي بهرام مصرعه بعد بضعة شهور ، في اشتباك وقع بينه وبين قبيلة عربية تنزل قرب بعلبك ، وذلك لأنه سبق ان قتل شيخ هذه القبيلة . وحلّ مكان بهرام في منصبه رجل فارسي آخر اسمه اسماعيل (العجمي) [1] .

وخلف تاج الملك بوري أباه طغتكين في أتابكية دمشق . وعزم بوري على ان يتخلص من الباطنية . وأول ما اتخذه من خطوات لتحقيق هذا الغرض ، ما حدث فجأة في سبتمبر سنة ١١٢٩ ، من اغتيال حاميهم

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 179 - 180.
Ibn al - Athir, pp. 382 - 384.

الوزير المزدقاني أثناء حضوره في المجلس في قبة الورد (من دار القلعة) بدمشق ، ولم تلبث الثورات التي دبّرها بوري ان اندلعت في دمشق ، فتعرّض للقتل كل من ظفر به الثـائرون من الباطنية ، فارتاع زعيمهم اسماعيل العجمي في بانياس ، ولم يجد سبيلاً لإنقاذ أتباعه ، سوى ان يشرع في المفاوضات مع الفرنج .

كانت هـذه هي الفرصة التي كان بلدوين ينتظر حدوثها . فلم يكد يسمع بوفاة طغتكين ، حتى أرسل من قبله هيو باينز ، مقدم الداوية ، الى اوروبا لتجنيد العساكر ، بعد ان شرح انه جعل دمشق هدفاً له . فلما قدمت رسل اسماعيل ، نهضت عساكر الفرنج لتسلم بانياس من الباطنية ، وإحلال اسماعيل وأتباعه بأراضي الفرنج . غير ان اسماعيل خرّ مريضاً بالدوسنطاريا ، ولم يلبث ان مات بعد بضعة شهور ، فتفرّق أتباعه [1] .

أمـا بلدوين فانه قدم الى بانياس في أوائل شهر نوفمبر ، على رأس جيش بيت المقدس بأكمله ، وقد ازداد عدداً بمن جاء حديثاً من الغرب من الرجال . فمضى في سيره دون ان يصادف مقاومة تذكر ، ثم عسكرَ عند جسر الخشب على مسافة ستة أميال الى الجنوب الغربي من دمشق . وتقدم بوري بجيشه حتى صار قبالة جيش الفرنج ، بينما كانت دمشق عند مؤخرة جيشه . وانقضت بضعة أيام ، دون ان يتحرك أي الجيشين من موضعه وفي تلك الأثناء أرسل بلدوين فصائل من جيش الفرنج ، تألف

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 191 - 195.
Ibn al - Athir, pp. 384 - 386.

معظمهم من القادمين حديثاً من الغرب ، بقيادة وليم بور ، لجمع ما يلزم الجيش من المؤن والمواد ، قبل ان يخاطر بالتقدم للإطباق على المدينة . غير ان وليم لم يستطع ضبط رجاله الذين زاد اهتمامهم بأن يصيبوا لأنفسهم الغنائم ، على ان ينتظموا لجمع المؤن . وعلم بوري بذلك ، فحدث في وقت مبكر من الصباح ، في أواخر نوفمبر ، أن انقضّ فرسان بوري من التركمان على وليم بور ، على مسافة عشرين ميلاً الى الجنوب من معسكر الفرنج . وعلى الرغم من بسالة الفرنج في القتال ، فإنهم غُلبوا على أمرهم ، فلم ينجُ منهم إلا وليم بور وخمسة واربعون من رفاقه ، ليرووا للملك أنباء القتال [١] .

على ان الملك بلدوين قرر المضي على الفور لمنازلة العدو ، أثناء احتفاله بما أحرزه من انتصار ، فأمر بالمسير قدماً ، غير انه حدث في تلك اللحظة أن أخذ المطر ينهمر ، فاستحال السهل بحراً من الطين ، وقطعت الطرق أنهار عميقة سببتها الأمطار ، فأضحى الهجوم مستحيلاً في هذه الاحوال . وإذ استبد بالملك اليأس ، لم يسعه إلا ان يتخلى عن كل فكرة لمواصلة حصار المدينة . وتهادى جيش الفرنج في ارتداده بنظام تام الى بانياس ، ومنها الى فلسطين ، حيث تفرّق الجند [٢] .

النزاع بين بوهمند الثاني وجوسلين سنة ١١٢٧ :

وما وقع في الشمال من أحداث ، زاد في قسوة الفشل ، إذ كان بلدوين

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 195 - 198.

(٢) انظر : William of Tyre, XIII. 26, pp. 595 - 597.
Ibn al - Qalanisi, pp. 198 - 200.

يأمل في ان يفيد بوهمند الثاني وجوسلين من الفوضى الناشبة بحلب ، في الاستيلاء آخر الامر على هذه المدينة الاسلامية الكبيرة . غير انه على الرغم من ان كلاً منهما على التوالي ، قـــام بغارات موفقة على أراضي حلب ، أثنـــاء خريف سنة ١١٢٧ ، فانه لم يجر بينهما شيء من التعاون ، وصار كل منهما يحقد على الآخر . فقد حصل جوسلين ، بمقتضى الهدنة التي عقدها مع البرسقي ، على المناطق التي حازتها انطاكية فترة من الزمن . ومما هو أسوأ من ذلك ، ان ماريا زوجة جوسلين الثـــانية ، وشقيقة روجر أمير انطاكية ، سبق ان ظفرت بوعد بأن تكون عزاز بائنة لهـــا . على ان بوهمند اعتبر ان روجر لم يكن إلا قيماً على انطاكيـــة ، يحكمها باسمه ، وليس له الحق في ان يتنازل عن شيء من أراضيها ، فنقض الاتفـــاق . ولم يسع جوسلين إلا ان يقود عساكره ، ومن سانده من المرتزقة من التركمان ، للإغارة على ما يتاخم أطراف بلاده من قرى انطاكية ، ولم يثنه عن عزمه مـــا أصدره برنارد ، بطريرك انطاكية ، من قرار الحرمان على كونتية الرها بأسرها . واشتد غضب الملك بلدوين لما بلغه من أنبـــاء النزاع بين بوهمند الثـــاني وجوسلين ، فأسرع بالمسير الى جهة الشمال ، في أوائل سنة ١١٢٨ ، وأجـــبر الأميرين على تحقيق الصلح بينهما . على انه جرى ، لحسن الحظ ، ان جوسلين ، الذي فاق ندّه ومنافسه ضراوة وعنفاً ، لم يلبث ان مرض فجأة ، وأدرك ان مرضه ليس إلا عقاباً إلهياً ، فوافق على ان يعيد الى بوهمند ما حازه من الغنائم . والواضح انه تخلى ايضاً عن دعواه في عزاز ، غير ان الوقت قد فات ، فما تهيأ من فرصة سانحة للاستيلاء على دمشق في السنة التالية ، قد أفلتت ، ولن تعود . إذ

ظفر المسلمون ببطل آخر بالغ القوة ، وهو عماد الدين زنكي [1] .

في أثنــــاء الشهور الاخيرة من سنة ١١٢٦ ، فكر الخليفة العبـاسي المسترشد ، الذي أعقب في سنة ١١١٨ المستظهر الخليفة الشاعر العذب ، في ان يفيد من المنازعات الأمَرية الناشبة بين سلاطين السلاجقة ، ليتخلص من سيطرتهم . وكان لزاماً على السلطان السلجوقي محمود ، الذي تقع بغداد في أملاكه ، ان يتوقف عن الصيد ، كيما ينفذ جيشاً الى بغـداد ، جعل على رأسه قائده عمـاد الدين زنكي . والمعروف ان أقسنقر والد زنكي ، كان يحكم حلب قبل قدوم الصليبيين ، وذاع صيت زنكي فيما نشب من الحروب مع الفرنج . ولم يلبث زنكي ان أنزل بقوات الخليفـــة هزيمة منكرة في واسط ، وألزم الخليفة بإعلان الخضوع للسلطان السلجوقي . على ان ما اشتهر به زنكي من دماثة الخلق واللباقة بعـــد انتصاره ، استهوى الخليفة المسترشد . فلما مات البرسقي ، كان لا بد من تعيين أتابك جديد على الموصل . على ان السلطان محمود ، الذي فكر أول الامر في ان يرشح الزعيم البدوي دبيس بن صدقة لهـذا المنصب ، اتفق مع الخليفـة المسترشد على ان زنكي خـــير مرشح لأتابكية الموصل . فتقرر تنصيب مسعود ، الابن الأصغر للسلطان محمود ، أميراً على الموصل ، على ان يكون زنكي أتابكاً له . وأمضى زنكي شتاء سنة ١١٢٧ بالموصل كيما ينظم حكومة المدينة ، ثم توجه في ربيع سنة ١١٢٨ الى حلب ، التي ادّعى

---

(١) انظر :
William of Tyre, XIII. 22, p. 590.
Michael the Syrian, III. p. 224.
Kemal ad - Din, p. 665.

انها ليست إلا جانباً من أملاك البرسقي ، فاستقبله أهل المدينة فرحين ، بعد ان سئموا الفوضى التي سادت مدينتهم (حلب) ، فدخلها زنكي في موكب حافل في ٢٨ يونيو سنة ١١٢٨ [١] .

اعتبر زنكي نفسه بطل المسلمين في منـازلة الفرنج ، غير انه لم يشأ ان يقاتلهم إلا بعـــد ان يتم استعداده . فوقّع هدنة مع جوسلين لمدة سنتين ، أخذ أثناءها يوطد سلطانه في الشام ، فبادر أميرا شيزر وحمص الى الاعتراف بسيادته . لم تساوره المخاوف من قبل امير شيزر ، أمـا امير حمص ، فان زنكي طلب منه ان ينهض لمساعدته في حملة لانتزاع حماه التي كانت من أملاك دمشق ، بعد ان وعده بردّها اليه عقب الاستيلاء عليها . غير انه لم تكد حمـــاه تسقط في يد زنكي ، حتى احتفظ بها لنفسه ، وأمر بحبس خيرخان امير حمص ، على الرغم من ان زنكي لم يستطع ان يستولي على حمص ذاتهـا . ومع ان بوري أتابك دمشق سبق ان وعد بالانحياز الى زنكي للاشتراك في جهاد المسيحيين ، غير انه بلغ من شدة انهاكه في قتال بيت المقدس ، انه لم يستطع ان يحتج على مـا حدث . ولم تنته سنة ١١٣٠ حتى امتدت سيادة زنكي المطلقة على الشام حتى جنوب حمص [٢] .

---

(١) عن تاريخ زنكي حتى سنة ١١٢٨ ، انظر :

Cahen, op. cit. pp. 306 - 307.

مع الحاشيتين ١٢ و ١٣ ، بما ورد فيها من المراجع .

(٢) انظر :

Ibn al - Qalanisi, pp. 200 - 202.
Kemal ad - Din, p. 658.
Matthew of Edessa, CCLII. p. 320.

مصرع بوهمند الثاني سنة ١١٣٠ :

وفي نفس السنة (١١٣٠) ، تعرض الفرنج لكارثة خطيرة . ذلك ان بوهمند الثاني كان يطمع في ان يعيد لإمارته ، انطاكية ، كل البلاد التي كانت تشملها . والمعروف ان سلطة انطاكية في قليقية قد تداعت ، بينما لا زالت طرسوس وأدنة بأيدي الفرنج ، إذ تألف منها إرث سيسيليا أرملة روجر ، وشقيقة الملك بلدوين ، ولا زالت حامية من الفرنج ترابط في المصيصة . وفي الداخل ، كانت عين زربة في حوزة الامير الارمني ثوروس الروبيني ، الذي اتخذ سيس حاضرة له . وتوفي ثوروس في سنة ١١٢٩ ، ثم لحق به بعد بضعة شهور ، ابنه قنسطنطين ، نتيجة لما وقع بالبلاط من مؤامرة . ومن الطبيعي ان الامير الذي يليها مباشرة في الحكم ، هو ليو الاول ، شقيق ثوروس .

وظن بوهمند الثاني ان الوقت قد حان كيما يستعيد عين زربة . ففي فبراير سنة ١١٣٠ ، سار بوهمند الثاني على رأس جيش صغير ، إزاء نهر جيحان ، نحو هدفه (عين زربة) . وإذ ارتاع ليو ، لم يسعه إلا الاستنجاد بالامير غازي الدانشمند ، الذي امتدت أملاكه وقتذاك الى جبال طوروس . لم يعلم بوهمند شيئاً عن هذا التحالف . وبينما كان بوهمند يتقدم دون اكتراث على امتداد النهر ، ولم يلقَ من الأرمن إلا مقاومة ضئيلة ، انقضّ عليه تركان الدانشمند ، وقتلوه مع جميع رجاله . وشاع انهم لو عرفوا الامير بوهمند لأبقوا على حياته ، لما قد يبذله لهم من فدية كبيرة . وكيفما كان الامر ، فانهم جاؤوا برأسه الى الامير الدانشمند ، فأمر

بتحنيطه وإرساله هدية الى الخليفة [1] .

على ان التركمان لم يمضوا قدماً بعــــد إحراز النصر ، وذلك لتدخل بيزنطة ، فظلت عين زربة في أيدي الأرمن [2] . غير ان مصرع بوهمنـــد كان كارثة حلـّت بأنطاكية . فالمعروف ان بوهمند تولـّى حكم انطاكية بمقتضى حق الوراثة ، واقتضى الرأي ان تنتقل حقوق بوهمند الى وريثه . على انه لم يُرزق من زواجه من أليس ، إلا بابنة طفلة اسمها كونستانس ، لم تتجاوز الثانية من عمرها . فبادرت أليس الى ان تتولى بنفسها الوصاية على انطاكية ، دون ان تنتظر مـــا يقوم به والدها بلدوين ملك بيت المقدس من تعيين وصي ، وفقاً لما له من حق باعتباره سيداً أعلى للفرنج في الشرق . غير انهــا كانت شديدة الطموح ، وسرعان ما ترددت شائعة في انطاكية بأن أليس أرادت ان تحكم على انها أميرة مستقلة ، لا مجرد وصية على العرش . وكان لا بد لكونستانس إما ان تحلّ بأحد الأديرة ، وإما ان تبادر بالزواج من رجل خامل . وفقدت هذه الأم الشاذة محبة

---

(١) انظر : William of Tyre, XIII. 27, pp. 598 599.
Orderic Vitalis, XI. 10, vol. IV, pp. 267 - 268.
Romuald, M. G. H. Ss. vol. XIV, p. 420.
Michael the Syrian, III. p. 227.
Chron. Anon. Syr. pp. 98 - 99.
Ibn Hamdun, p. 524.
Ibn al - Athir, p. 468.

(٢) انظر : Michael the Syrian, III. p. 230.
يشير ميخائيل السرياني الى ان يوحنـــا كومنين قام على الفور بمهاجمة التركمان . انظر ما يلي ، الكتاب الثاني ، الفصل الثالث .

أهل انطاكية ، حيث أحسّ الناس وقتذاك بشدة الحاجة الى فارس يتولى الوصاية . ولما علمت أليس برحيل الملك من بيت المقـدس ، أدركت ان السلطة أخذت تفلت من يدها ، فأقدمت على اتخاذ خطوة خطيرة ، إذ أنفذت الى حلب رسولاً ، بجواد أصيل بسرج مطهم ، هدية منها الى الأتابك زنكي ، وأخطرته انهـا على استعداد لأن تدين له بالتبعية ، اذا تكفل بإبقاء انطاكية في حوزتها .

لم يكد بلدوين يسمع بنبأ وفاة بوهمند الثاني ، حتى هرع صوب الشمال ، وبصحبته صهره فولك ، كيما يرعى وريثـــة انطاكية ، وليعين وصياً على الإمارة . وحينما اقتربت عساكره من المدينـة ، ألقت القبض على رسول أليس الى زنكي ، فأمر الملك على الفور بإعدامه . فلما ظهر بلدوين أمام أسوار انطاكية ، أمرت أليس بإغلاق أبوابها في وجهه ، فاستدعى جوسلين لمساعدته ، وعسكرا امام المدينـة . على ان أليس ظفرت بمساعدة عاجلة في داخل المدينة ، بمـا أغدقته من الأموال التي حصلت عليها من خزانة الامير على العساكر وأهل المدينة . والراجح ان ما يجري في عروقها من دماء أرمنية جعلها محبوبة عند المسيحيين الوطنيين ، غير ان نبلاء الفرنج لم يحبوا ان يساندوا امرأة على سيدهم . فلم تمضِ إلا بضعـة أيام ، حتى تقـدم فارس نرمندي اسمه وليم آفيرسا ، وراهب اسمه بطرس اللاتيني ، ففتحا لجوسلين باب الدوق ، وفتحا لفولك باب القديس بولس (من أبواب انطاكية) . وفي اليوم التالي دخل الملك بلدوين المدينة ، واعتصمت أليس بأحد الأبراج ، ولم تظهر إلا بعد ان تعاهد أعيان المدينة بضمان حياتها . وجرى لقاء أليم بين بلدوين وابنته التي ركعت أمامه في خجل مريع . ولم يسع الملك إلا ان يتجنب الفضيحة ، ولا شك ان قلب والدها رقّ

لخالها ، فعفا عنها ؛ غير انه عزلهـا عن الوصاية ، وأمر بنفيها الى اللاذقية وجبلة ، وهما البلدان اللذان جعلها بوهمند بائنة لهـا . وتولى بلدوين بنفسه الوصاية على انطاكية ، وحمل السادة المقطعين بأنطاكية على ان يحلفوا يمين الولاء له ولحفيدته سوياً . ثم عاد بلدوين الى بيت المقدس في صيف سنة ١١٣٠ ، بعد ان عهد الى جوسلين بالقوامة على انطاكية وأميرتها الطفلة كونستانس[1].

وفاة بلدوين الثاني وجوسلين الاول سنة ١١٣١ :

كانت هذه آخر رحلة للملك بلدوين . فحياته الطويلة الحافلة بالنشاط الذي لا حد له ، والتي لم يعترضها سوى فترتين تعرّض فيهما البؤس أثناء أسره ، قد أنهكته وحطمته ، فأخذت صحته في الانهيار في سنة ١١٣١ . ولم يكد يحلّ شهر اغسطس ، حتى أشرف بلدوين على الموت . وبناء على رغبته ، تمّ نقله من القصر في بيت المقدس الى مقر البطريركية ، الذي يتصل بمباني القبر المقدس ، كيما يموت بأقرب بقعة لجبل الجلجثة حيث صُلب المسيح . وإذ اقتربت منيته ، استدعى الى حجرته نبلاء المملكة ، وابنته ميليسند وزوجها فولك وابنهما الطفل الذي لم يتجـاوز السنة الاولى من عمره ، والذي اتخـذ اسم جده لأمه بلدوين . فمنح الملك بلدوين البركة كلاً من فولك وميليسند ، وأمر جميع الحاضرين بقبولهما ملكين عليهم . ثم ارتدى ثوب راهب ، ورسم كاهناً للقبر المقـدس . والواضح ان الاحتفال برسامته

---

(١) انظر :
William of Tyre, XIII. 27, pp. 599 - 601.
Michael the Syrian, III. p. 230.
Kemal ad - Din, pp. 660 - 661.

وقع قبيل وفاته ، في يوم الجمعـــة ٢١ اغسطس سنة ١١٣١ . وجرت مواراته في كنيسة القيامة ، وسط مظاهر الحزن اللائقة بملك عظيم[١] .

ولم يعش طويلاً بعــد وفاة بلدوين ، ابن عمه ورفيقه جوسلين كونت الرها . فحوالي الوقت الذي مات فيه بلدوين ، كان جوسلين متوجها لحصار حصن صغير ، يقع الى الشمال الشرقي من حلب . وبينما كان يتفقد خطوط القتـــال ، انهار من تحته الحفير (الجرف) الذي أجراه رجاله ، فأصابه جرح بليغ ، ولم يكن ثمة أمل في شفائه . وبينما كان مشرفاً على الموت ، وردت الأنباء بأن الأمير غازي الدانشمند توجه للاستيلاء على مدينـــة كيسوم ، وهي الحصن الكبير الذي نصّب عليه جوسلين أخيراً ، بطريرك انطاكية اليعقوبي . وإذ تعرضت كيسوم لضغط شديد من قبل التركمان ، أمر جوسلين ابنه بالمسير لنجدتها . غير ان جوسلين الصغير ردّ بأن جيش الرها من قلة العـــدد ، انه لا ترجى منه فائدة . وعندئذ نهض الكونت الشيخ من فراشه ، وجرى حمله في محفـة ، على رأس الجيش ، كيما يقاتل الترك . وارتاع غازي لسماعه خبر قدوم جوسلين ، بعد ان اعتقد انه مات فعلاً ، وإذ اشتد قلق غازي لم يسعه إلا ان يرفع الحصار عن كيسوم . فأسرع رسول الى امتطاء فرس ، ومضى لينهي ما حدث الى جوسلين ،

---

(١) انظر :

William of Tyre, XIII. 28, pp. 601 - 602.
Orderic Vitalis, XII. 23, vol. IV, p. 500.
Ibn al - Qalanisi, pp. 207 - 208.

(جعل ابن القلانسي وفاة بلدوين يوم الخميس ٢٥ رمضان سنة ٥٢٦ ﻫ . والواضح انه أخطأ في تحديد سنة الوفاة) .

الذي أمر بأن تُنزل المحفة الى الارض ، حتى يسجد لله شاكراً . على انه لم يحتمل كل ما بذله من جهد وما قام به من حركة ، فقضى نحبه بهذا الموضع الى جانب الطريق [1] .

وبوفاة بلدوين وجوسلين ، انقضى الجيل القديم للرواد الصليبيين . وفي السنوات التالية ، نصادف مثالاً جديداً للنضال بين الصليبيين من الجيل الجديد ، من الرجال والنساء ، أمثال جوسلين الثاني ، وأليس ، او كونتات طرابلس ، الذين كانوا على استعداد لأن يتلاءموا مع أساليب الحياة الشرقية ، ولم يسعوا إلا الى المحافظة على ما امتلكوه ، وبين القادمين الجدد من الغرب ، المشهورين بالميل الى الاعتداء والقتال ، ولم يكونوا قابلين لمواءمة الحياة الشرقية او إدراكها ، ومن هؤلاء فولك ، وريموند بواتييه ، او المغامر العنيف ريجنالد شاتيون [2] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XIV. 3, pp. 609 - 611.
Michael the Syrian, III. p. 232.
Chron. Anon. Syr. pp. 99 - 100.

(٢) انظر : Ibn al - Athir, pp. 389 - 390.
ادرك ابن الاثير ما حدث من تغير الاحوال ، بما جرى من اختفاء الصليبيين الأوائل من جهة ، ومن بوادر الوحدة الاسلامية زمن زنكي من جهة اخرى .

الفصل الثاني

الجيل الجـــديد

حدث في ١٤ سبتمبر سنة ١١٣١ ، أي بعد ثلاثة أسابيع مضت على خلود الملك بلدوين الثاني الى الراحة الأبدية في كنيسة القيامة ، أن شهدت نفس الكنيسة تتويج الملك فولك وللملكة مليسند ، وجرى الاحتفال بولاية الملك الجديد ، وسط مظاهر الفرح والسرور[١] .

على أنه بينما تَقبِلَ بارونات مملكة بيت المقــدس ، دون تردد ، الملك فولك ، لم يُظهر أمراء الفرنج بالشمال استعداداً كبيراً للاعتراف بسيادته العليا عليهم . ذلك ان بلدوين الاول وبلدوين الثـاني كانا يُعتبران سيدين على جميع إمارات الفرنج ، لأنه كان لهما من القوة والشخصية مـا يحملها على فرض سيادتها . غير ان الوضع القانوني لهذه السيادة لم يكن جلياً .

---

(١) انظر : William of Tyre, XIV. 2, pp. 608 - 609.

ففي حالة الرها ، بذل أميرها جوسلين الاول ، مثلما فعل بلدوين الثاني من قبله ، يمين الولاء لسلفه (بلدوين الثـــاني) ، حينما أضحى ملكاً على بيت المقدس ، فتنازل (لجوسلين) عن إقطاعه (الرها) . فهل جعل هـــذا التدبير من ورثة جوسلين أتباعاً للملك بلدوين الثاني ؟ وفي طرابلس خضع كونت برتراند لسيادة بلدوين كيما يحميه من اعتداء تانكرد ، غير ان ابنه بونز حاول فعلاً ان يتخلص من حقوق بلدوين الثـاني ، ولم يعترف بها إلا لأنه لم يكن من القوة ما يكفي لتحدّي جيوش الملك . أما في انطاكية ، فان بوهمند الاول اعتبر نفسه أميراً مستقلاً ذا سيادة مطلقة ؛ ومع ان تانكرد لم يكن إلا وصياً ، لا أميراً ، فانه رفض ان يعتبر نفسه من أتباع الملك ، إلا في إمارة الجليل . وعلى الرغم من ان روجر وبوهمند الثـاني اعترفا بسيادة بلدوين الثاني عليهما ، فيصح الاعتراض على ذلك ، بأنهما كانا مخطئين في قرارهما . وتعقّد الموقف بما زعمه الامبراطور البيزنطي لنفسه من حقوق شرعية في انطاكية والرها ، بفضل المعاهدة التي انعقدت بين الأمراء والامبراطور في القسطنطينية ، أثنـاء الحملة الصليبية الاولى ، ومن حقوق في طرابلس ، بسبب ما بذله الكونت برتراند من يمين الولاء للامبراطور .

وأثار المشكلة بأمرها ، ارتقـاء فولك للعرش . وقادت أليس ، شقيقة زوجته ، المعارضة لسيادته ، غير انها أذعنت لأبيها الملك بلدوين على كره منها ، ولكنها أصرّت من جديد في الوقت الراهن ، على دعواها بأن تكون وصية على ابنتها (كونستانس أميرة انطاكية) . ولم يكن هـذا الإدّعاء قائماً على غير أساس ، اذا ثبت ان ملك بيت المقـدس لم يكن سيداً على انطاكية ، فقد جرت العادة في بيزنطة وفي الغرب ، بأن تكون

الوصاية لأم الامير الطفل . فلما مات جوسلين الاول ، بعد مضي شهر على وفاة بلدوين ، تهيأت الفرصة لأليس لأن تكون وصية ، إذ كان جوسلين قيماً على الاميرة الصغيرة كونستانس ، ولم يشأ بارونات انطاكية ان ينصّبوا جوسلين الثاني في الوصاية مكان أبيه . وإذ استبد اليأس بكونت الرها الجديد (جوسلين الثاني) ، لم يسعه إلا ان يستمع الى ملق أليس ومداهنتها له . ولا شك انه لم يكن ايضاً راغباً في قبول فولك سيداً عليه . وعرض بونز كونت طرابلس ، مساندته لها . والمعروف ان سيسيليا زوجة بونز ، حصلت من تانكرد زوجها السابق ، على بائنة تشمل قلعة اليحمور (الروج) وأرزغان ، وبذا أضحى بونز بفضلها من كبار بارونات إمارة انطاكية . وأدرك بونز ان تحرُّر انطاكية من سيادة بيت المقدس ، سوف يجعل طرابلس تنتهج طريقها . استطاعت أليس فعلاً ، ان تتغلب على أقوى البارونات بجنوب إمارة انطاكيـة ، ومنهم الأخوان وليم وجارينتون سيدا زَرْدَنا ، وسادة صهيون ، وهي القلعة الكبيرة التي شيَّدها البيزنطيون في التلال الواقعة خلف اللاذقية . وكان لأليس ايضاً أنصارها في انطاكية ذاتها ، غير ان معظم نبلاء انطاكية ، كانوا يخشون حكم المرأة ، وحينما سمعوا بما تردَّد من شائعات عن المؤامرة ، أنفذوا من قِبلهم رسولاً يستنجد بالملك فولك .

بادر فولك بالخروج من بيت المقدس على رأس جيش ، إذ كان ذلك تحدياً لا يستطيع ان يتجاهله . فلما بلغ أطراف طرابلس ، رفض بونز ان يجتاز بلاده . كانت الكونتيسة سيسيليا زوجة بونز ، أختاً غير شقيقة لزوجة فولك ، غير ان ما لجأ اليه فولك من التوسل بواجبات القرابة لم يجدِ نفعاً ، فكان لزاماً على جيش بيت المقدس ان يتخذ طريق البحر

من بيروت الى السويدية . ولم يكد الملك فولك يهبط الى أرض انطاكية ، حتى توجه صوب الجنوب ، وأنزل الهزيمة بالحلفاء العصاة في الروج (اليحمور) . على انه لم يكن من القوة ما يكفي لأن يعاقب أعداءه . وإذ اعتذر بونز لفولك ، لم يلبث ان تم الوفاق بينهما . ولم تتعرض أليس لأذى أثناء إقامتها بالبلاد التي آلت اليها باللاذقية . وتقرر العفو عن الأخوين وليم وجارينتون صاحبي صهيون ، فضلاً عن جوسلين كونت الرها ، الذي لم يشهد المعركة . وما يدعو الى الشك ما اذا كان فولك حصل على يمين الولاء من كل من بونز وجوسلين ، كما انه لم ينجح في تحطيم حزب أليس . ولقي وليم صاحب صهيون مصرعه بعد بضعة شهور ، أثناء غارة صغيرة قام بها المسلمون على زردنا ، فبادر جوسلين بالزواج من أرملته بياتريس ، التي جاءت له بزردنا ، بابنتها من وليم . على ان السلام عاد في الوقت الراهن ، فاحتفظ فولك بالوصاية على انطاكية ، غير انه عهد بإدارتها الى كندسطبل الإمارة رينالد مازوار ، امير المرقب ، ثم عاد فولك الى بيت المقدس ليشترك فيما حدث بالبلاط من مأساة عنيفة [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIV.* 4 - 5, pp. 611 - 614.
Michael the Syrian, *III.* p. 233.
Kemal ad - Din, 664.
Ibn al - Qalanisi, p. 215.
يشير ابن العديم (كمال الدين) الى ان وليم صاحب زردنا ، لقي حتفه فيما نشب من حرب اهلية. اما ابن القلانسي فانه يذكر ان وليم جرى قتله في أوائل سنة ١١٣٣ . ويرجع زمن تمرد أليس ، فيما يبدو ، الى أوائل سنة ١١٣٢ .

هيو لى بويزيه والملكة ميليسند ، سنة ١١٣٢ :

كان بين نبلاء فولك ، شاب وسيم ، هو هيو لى بويزيه سيد يافا . وكان ابوه هيو الاول صاحب لى بويزيه في اورليانيه ، وابن عم بلدوين الثاني زعيم البارونات في معارضة لويس السادس ملك فرنسا ، الذي قام سنة ١١١٨ بتدمير قلعة لى بويزيه ، ثم حرمه من إقطاعه . وإذ توجه الى الشرق أخوا هيو ، وهما جيلدوان رئيس دير القديسة ماريا يوسفات ، ووالبران صاحب البيرة ، قرر هيو ان يلحق بهما مع زوجته مابيلا ، بعد ان أضحى بلدوين الثاني ملكاً على بيت المقدس[١] . فمضيا في طريقهما وبصحبتهما ابنهما الصغير هيو . وعند اجتياز أبوليا ، خرّ الصبي مريضاً ، فتركاه بها في بلاط بوهمند الثاني ، ابن عم مابيلا . فلما وصلا الى فلسطين ، منحهما بلدوين الثاني يافا إقطاعاً . ولم يلبث ان مات هيو الاول ، وعندئذ انتقلت مابيلا ، وإقطاع يافا الى فارس والوني اسمه ألبرت نامور . غير ان مابيلا وألبرت لم يلبثا ان لحقا بهيو الى القبر ، اما هيو الثاني الذي بلغ وقتذاك السادسة عشرة من عمره ، فانه أبحر من أبوليا

---

(١) المعروف ان أليس مونتيري، والدة هيو لى بويزيه ، كانت شقيقة ميليسند ، والدة الملك بلدوين الثاني . انظر :

Cuissard, Les Seigneurs du Puiset, p. 89.

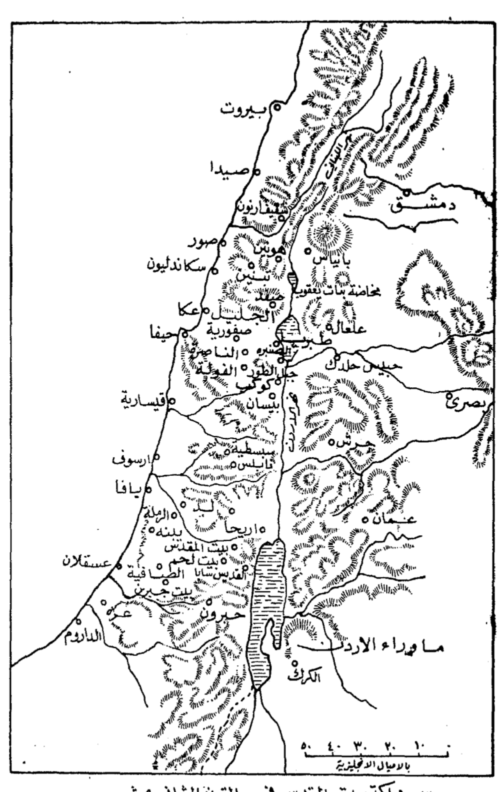
والواضح ان جيلدوان رئيس دير القديسة ماريا يوسفات ، ووالبران صاحب البيرة ، كانا شقيقي هيو . اما مابيلا فكانت ابنة هيو كونت رويه ، من سيبلا ابنة روبرت جويسكارد . انظر فيما يلي ، الملحق الثالث ، شجرة الانساب رقم ١ : أ ، ب . وأخطأ وليم الصوري في افتراضه ، ان هيو الثاني وُلد في ابوليا ، ففي هذه الحالة يكون قد تزوج وهو في السادسة من عمره ، وهذا غير معقول . انظر ما يلي .

الى فلسطين ليطالب بإرثه . فأحسن بلدوين الثاني استقباله وسلّمه إقطاع والديه ، وتقرر نقله الى البلاط الملكي للإقامة فيه ، حيث كان أهم رفيق له ، ابنة عمه الاميرة الصغيرة ميليسند .

وحوالي سنة ١١٢١ ، تزوج هيو من إيما ، ابنة اخت البطريرك ارنولف ، وأرملة يوستاس جارنييه ، وهي سيدة مكتملة الأنوثة والنضوج ، تحوز ممتلكات شاسعة . وشعرت بالغبطة والسرور ، لما اشتهر به زوجها من طول القامة والوسامة ، غير ان ولديها التوأمين ، (من زوجها السابق يوستاس جارنييه) ، وهما يوستاس الثاني الذي ورث صيدا ، ووالتر سيد قيسارية ، كرها زوج امها ، الذي لم يكبرهما في العمر إلا قليلاً [١] . وفي تلك الأثناء تزوجت ميليسند من فولك ، الذي لم تحفل به برغم هيامه

---

(١) ليس معروفاً على وجه التحقيق ، اسما ولدي يوستاس جارنييه . اذ ورد في وثيقة مؤرخة في ٢١ سبتمبر سنة ١١٣١ ، اسم والتر على انه سيد قيسارية وصيدا . انظر :
(Röhricht, Regesta, p. 35).
وجرت الاشارة الى ان يوستاس الثاني كان سيداً لصيدا في سنة ١١٢٦ . انظر :
(Röhricht, Regesta Additamenta, p. 8).
وفي وثيقة مؤرخة ايضاً في سنة ١١٢٦ ، جاء اسما يوستاس ووالتر على انهما ولدا يوستاس الاول . انظر : (Röhricht, Regesta, p. 28).
غير ان شجرة الانساب Lignages ، اوردت الولدين على انهما جيرار ووالتر . وجاء في وثائق مملكة بيت المقدس Assizes ، ما يشير الى ان جيرار كان يعرف باسم جاي . انظر :
La Monte : The Lords of Sidon in Byzantium , vol. *XVIII*, pp. 188 - 190.
وقد جعل لامونت جيرار ابناً ليوستاس الثاني ، وأشار الى ان وفاة يوستاس الثاني حدثت قبل سنة ١١٣١ ، حينما اضحى والتر وصياً على جيرار .



٣ـ مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر .

الشديد بها ، إذ ظلت بعـــد ان اعتلت العرش ، مقيمة على حب هيو . وذاع هذا الامر في البلاط ، فاشتدت غيرة فولك ، وتكاثر أعداء هيو ، وعلى رأسهم ابنا زوجته (يوستاس الثـاني ، ووالتر) ، فأثاروا ما يساور الملك من الشكوك ، فلم يسع هيو آخر الامر إلا ان يجمع حوله ، في سبيل الدفاع عن نفسه ، حزباً من أنصاره ، ومن أبرز رجاله رومان لى بويه ، سيد اقليم ما وراء نهر الاردن . ولم يلبث نبلاء المملكة ان اقتسمهم الملك (فولك) ، والكونت (هيو الثـــاني) ، الذي كان معروفاً بأنه يحظى بعطف الملكة (ميليسند) . وزاد التوتر في شهور صيف سنـة ١١٣١ ، إذ حدث ذات يوم في أواخر الصيف ، بينما كان القصر غاصاً بأعيان المملكة ، ان نهض والتر جارنييه ، فاتهم زوج امه (هيو الثاني) بالتآمر على حيـاة الملك ، وتحدّاه للمبارزة ، كيما يبرىء نفسه . غير ان هيو أنكر التهمة ، وأعلن قبوله للتحدّي . وحدّدت المحكمة العليـا تاريخ المبارزة ، فعـاد هيو الى يافا ، ورجع والتر الى قيسارية ، حتى يتجهز كل منهما للنزال .

مصرع هيو سنة ١١٣٢ :

ولما حلّ اليوم المحدد ، كان والتر مستعداً في ساحة النزال ، ولم يحضر هيو . ولعل الملكة طلبت الى هيو ان يتغيب ، بعـــد ان ارتاعت لأن الامور تجاوزت الحد ، او لعـل السبب يرجع الى الكونتيسة إيما ، التي جزعت لما قد يحدث مستقبلاً من فقـــد زوجها او ابنها ، او لعل هيو نفسه خشي انتقام الله ، بعد ان أدرك جرمه . وكيفما كان أمر تغيبه ، فان تخاذله جرى اتخاذه دليلاً على خيانته ، فلم يعد بوسع أصدقائه ان يمضوا في مساندته . وأعلن مجلس الملك انه مذنب ، لأنه فشل في الدفاع

عن نفسه . وإذ انزعج هيو لذلك ، هرب الى عسقلان ، يلتمس حماية القوات المصرية المرابطة بها . فتولت سرية مصرية مرافقته الى يافا ، ومن ثمّ أخذت تغير على سهل الشارون ، فأضحت خيانة هيو صريحة ، فانقلب عليه اكبر أتباعه باليان سيد يبنه وكندسطبل يافا . ولما قدم جيش الملك مسرعاً من بيت المقدس ، أذعنت يافا دون قتال ؛ بل ان المصريين تخلوا عن هيو ، بعد ان تبين لهم انه حليف لا جدوى منه ، فلم يسع هيو إلا ان يعلن خضوعه للملك .

على ان العقاب لم يكن صارماً ، إذ كانت الملكة صديقة له ، وأشار البطريرك وليم مسينيس باستعمال الرأفة معه . وحرص الملك من جانبه على تهدئة الامور ، بعد ان تجلى له ما ينجم عن الحرب الأهلية من أخطار . إذ حدث في ١١ ديسمبر سنة ١١٣٢ ، حينما تقرر استدعاء جيش الملك للزحف على يافا ، ان انقضّ أتابك دمشق على حصن بانياس ، واستردّه من الفرنج . امـا هيو فتقرّر نفيه لمدة ثلاث سنوات ، يعود بعدها الى أراضيه دون ان يلحقه ضرر .

وبينما كان هيو ينتظر سفينة تقلّه الى ايطاليا ، قدم الى بيت المقدس في أوائل السنة الجديدة (١١٣٣) لتوديع أصدقائه . ووقع مساء احد الايام ، حينما كان هيو يلعب النرد على باب حانوت بشارع الفرائين ، ان تسلل فارس بريتوني الى ان صار وراء ظهره ، فطعنه في رأسه وجسده . فجرى حمل هيو وهو ينزف من الدماء مـــا كاد يفضي به الى الموت . فحامت الشبهات على الفور حول الملك فولك ، غير ان فولك بادر بالتصرف العاجل الفطن ، إذ أمر ان تتولى المحكمة العليـا محاكمة الفارس . فاعترف هذا الفارس بأن ما فعله إنما كان من تدبيره ، وكان يأمل بذلك ان يحظى

بعطف الملك ، غير ان الحكم صدر بإعدامه ، بانتزاع أطرافه الواحد بعد الآخر . وتقرر تنفيذ الحكم علناً ، وبعد ان تمّ قطع ذراعيه وساقيه ، ولم يُقطع رأسه بعد ، جرى حمله على ان يكرر اعترافه ؛ وبذا تمّ إنقاذ سمعة الملك . غير ان الملكة لم تقتنع ، وبلغ حنقها على أعداء هيو من الشدة ، انهم ظلوا شهوراً عديدة يخشون الاغتيال ، ولم يجرؤ زعيمهم راؤرت سيد نابلس ان يسير في الشوارع إلا في حراسة ، بل ان الملك فولك نفسه كان فيما يروى خائفاً على حياته . على ان كل ما أراده الملك ، هو ان يظفر بعطف زوجته ، فانصاع اليها في كل شيء . وإذ خاب حظها في الحب ، لم تلبث أن لقيت السلوى في ممارسة القوة والسلطان [١] .

ولم يعش هيو طويلاً ، بعد هذا الاغتيال المدبر ، إذ لجأ الى بلاط ابن عمه روجر الثاني ملك صقلية ، الذي جعل له إقطاع جارجانو ، حيث لم يلبث ان مات به بعد فترة وجيزة [٢] .

ولا شك ان الملك فولك وجّه اهتمامه مرة اخرى الى الشمال ، بعد ان اطمأنت نفسه . على ان الوضع بالشمال كان ينذر بالخطر اكثر مما كان عليه زمن بلدوين الثاني . فلم يحكم انطاكية وقتذاك امير قوي ، وافتقر جوسلين الثاني كونت الرها الى ما اتصف به أبوه من النشاط والادراك

---

(١) وردت هذه القصة بالتفصيل في :

William of Tyre, *XIV*. 15 - 17, pp. 627 - 633.

اما ابن القلانسي فاكتفى بالاشارة الى « وقوع الخلف بينهم من غير عادة جارية لهم بذلك » .

انظر : Ibn al - Qalanisi, p. 215.

(٢) انظر : William of Tyre, *XIV*. 17, p. 633.

السياسي . ولم يكن شخصية جذابة ، فكان قصير القامة ، مكتنز الجثة ، أسود الشعر والبشرة ، وبوجهه آثار الجدري ، فضلاً عن أنفه الكبير ، وعينيه الجاحظتين . وعلى الرغم من شهرته بالسخاء والبذل ، فانه كان كسولاً ، يميل الى الترف والدعة ، ولا يصلح مطلقاً لأن يتولى قيادة أهم معقل لعالم الفرنج المسيحي[1] .

فولك ينقذ بونز كونت طرابلس ، سنة ١١٣٣ :

وما افتقر اليه الفرنج من الزعامة ، يعتبر أمراً بالغ الخطورة ، لأن المسلمين صادفوا وقتذاك في عماد الدين زنكي رجلاً قادراً على توحيد القوى الاسلامية . على ان زنكي كان حتى وقتذاك يترقب الفرصة الملائمة له ، إذ بلغ من شدة انغماسه في أحداث العراق ، انه لم يكن بوسعه ان يفيد من الوضع عند الفرنج . فقد مات السلطان السلجوقي محمود بن محمد سنة ١١٣١ ، وخلّف لابنه داود أملاكه في العراق وجنوب فارس ، غير ان سنجر ، أقوى زعماء البيت السلجوقي ، قرر ان ينتقل الإرث الى طغرل امير قزوين ، وشقيق محمود . غير ان أخوي محمود الآخرين ، وهما مسعود صاحب فارس ، وسلجوق شاه صاحب أذربيجان ، طالبا بحقهما في هذا الإرث . فلم يلبث مسعود ان انسحب ، لأنه لم يحظَ بمساندة الخليفة المسترشد ، او رعاياه . واستنجد مسعود بزنكي لتأييده ، فزحف

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIV*. 3, p. 610.

للمعروف ان جوسلين الثاني ولد سنة ١١١٣ .

(Chron. Anon. Syr. p. 35) .

زنكي على بغداد ، غير انه تعرض لهزيمة ساحقة قرب تكريت ، على يدي الخليفة وسلجوق شاه . ولو لم يقم والي تكريت الكردي ، نجم الدين أيوب ، بمساعدته على اجتياز نهر دجلة ، لوقع في الأسر ، او جرى قتله . وما حلّ بزنكي من الهزيمة ، شجع الخليفة على ان يحقق ما ظلّ يحلم به ، من بعث ما كان لبيته العباسي من سلطان غابر . بل ان سنجر ذاته جزع لما حدث ، وحاول زنكي ، باعتباره ممثلاً لسنجر ، ان يهاجم بغداد مرة اخرى ، في يونيو سنة ١١٣٢ ؛ غير انه تحالف هذه المرة مع دبيس بن صدقة ، زعيم البدو ، المعروف بتقلب أهوائه . وفي المعركة التي دارت ، أحرز زنكي النصر اول الامر ، غير ان الخليفة المسترشد تدخّل بنفسه في القتال ، فهزم دبيساً ، ثم انثنى على زنكي فانتصر عليه ، وأجبره على التراجع الى الموصل .

وفي الربيع التالي ، قدم الخليفة المسترشد الى الموصل على رأس جيش كثيف ، فتراءى كأن العباسيين يقومون باستعادة مجدهم القديم ، فلم يكن السلطان السلجوقي بالعراق بأكثر من تابع للخليفة . على ان زنكي فرّ من الموصل ، وظلّ يُنزل الضرر دون هوادة بمعسكر الخليفة ، ويقطع عنه المؤن ، فتراجع المسترشد عن الموصل ، بعد ثلاثة شهور [١] .

وبذا توقفت إفاقة الخلافة العباسية . ففي أثناء السنة التالية ، أخذ

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, pp. 398 - 399.
Ibn al - Athir, Atabegs of Mosul, pp. 78 - 85.
وانظر ايضاً ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية عن : مسعود بن محمد ، وطغرل الاول ، وسنجر .

الامير السلجوقي مسعود ، يحـــلّ رويداً رويداً مكان المطالبين بالسلطنة السلجوقية في العراق . وباء بالفشل ما قام به الخليفة المسترشد من محاولة لمنعــه من السلطنة . ولما نشبت المعركة في دايمرج ، بالعراق العجمي ، في يونيو سنة ١١٣٥ ، أنزل مسعود الهزيمة بجيش الخليفة ، الذي وقع أسيراً ايضاً ، فتقرر نفيه الى اذربيجان ، حيث اغتاله بها الباطنية ، والراجح ان ذلك جرى برضى مسعود . ولم يجدِ نفعاً ما أقدم عليه ابنه الراشد ، الذي وُلّي الخلافة من بعـــده ، من الاستنجاد بداود المطالب بالسلطنة السلجوقية ، وبزنكي ؛ إذ حصل مسعود على تصديق قضاة بغـداد بعزل الخليفة الراشد . وحاول خلفه المكتفي ، ان يغري زنكي بالوعود الجزيلة ، على الابتعاد عن الخليفة المعزول الراشد ، والامير السلجوقي داود . وبفضل ما حازه زنكي من ألقـاب التشريف الجديدة من المكتفي ومسعود ، أضحى بوسعه ، من سنة ١١٣٥ فصاعداً ، ان يحوّل اهتمامه الى الغرب[١].

وبينما كان زنكي منصرفاً الى مـــا يجري بالعراق ، اهتم بمصالحه في الشام أمير من دمشق اسمه سوار ، جعـله زنكي والياً على حلب . ولم يكن بوسعه ان يمدّه بعساكر كثيرة ، غير انه دخل في خدمة سوار ، جماعات مختلفـة من التركمان المغامرين ، بناء على تشجيع زنكي ، فتجهز سوار في ربيـع سنة ١١٣٣ ، لاستخدامهم في مهاجمـة انطاكية . على ان اهل انطاكية الذين استبد بهم الفزع ، استنجدوا بالملك فولك لإنقاذهم .

---

(١) انظر :
Abu'l Feda, pp. 21 - 23.
Ibn al - Athir, Atabegs of Mosul, pp. 88 - 91.
Ibn al - Tiqtaqa, al - Fakhri, pp. 297 - 298.

وبينما كان فولك يسير بجيشه صوب الشمال ، التقت به عند صيدا كونتيسة طرابلس ، فأنهت اليه ان زوجها بونز وقع في كمين نصبه له جماعة من التركمان بجبال النصيرية ، وانه هرب الى قلعة بعرين Monteferrand ، على حافة وادي نهر الاورنت . وبناء على طلبها توجه فولك على الفور الى بعرين ، فلما اقترب من القلعة انسحب التركمان . وأعاد هذا الحادث العلاقات الودية بين فولك وبونز ، اذ ان ريموند بن بونز ووريثه ، لم يلبث ان تزوج من هوديرنا اخت ملكة بيت المقدس ، بينما تزوجت ابنته أجنيس من ابن كندسطبل فولك في انطاكية ، وهو رينالد مازوار صاحب المرقب [١] .

ولم يكد فولك ينتهي من إنقاذ كونت طرابلس ، حتى مضى في طريقه الى انطاكية ، وبها علم ان سواراً نجح فعلاً في غاراته على مدينة تل باشر ، التابعة لكونتية الرها ، وحشد جيشاً لمنازلة انطاكية . على ان فولك تقدم نحو معسكر المسلمين في قنسرين ، بعد ان اقتضى الحذر ان يتمهل بضعة ايام ، وقام ليلاً بهجوم مفاجيء على المعسكر ، فأرغم سواراً على الانسحاب ، والتخلي عن خيامه . غير ان الانتصار لم يكن تاماً ، ففي الاشتباكات التي أعقبت ذلك ، دمّر المسلمون فصائل عديدة من جيش الفرنج ، غير ان فولك دخل الى انطاكية في موكب المنتصر ، قبل ان يعود الى فلسطين في صيف سنة ١١٣٣ . ولم يكد فولك يرتحل من

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIV*. 6, pp. 614 - 615.
Ibn al - Qalanisi, pp. 221 - 222.
Ibn al - Athir, pp. 399 - 400.

انطاكية ، حتى تجددت غارات سوار على الممتلكات المسيحية [١].

زنكي يهاجم دمشق سنة ١١٣٥ :

باستثناء مـا حدث من الغارات على الحدود ، انقضت سنة ١١٣٤ في هدوء وسلام . على انه وقع في العالم الاسلامي في السنة التالية (١١٣٥) من الثورات ما أضعفه . ففي مصر حاول الخليفة الفاطمي الحافظ ، ان يحدّ من نفوذ الوزارة ، بأن عيّن ابنه الحسن وزيراً . غير ان هذا الشاب أظهر من القسوة الغاشمة ، ما حمله على ان يأمر بإعدام اربعين اميراً بعد ان وجّه لهم تهماً تافهة ، فاندلعت الفتنة . ولم يُنج الخليفة إلا مـا دسّه من السم لابنه ، وتسليم جثته للعصاة . ثم عيّن في منصب الوزارة بهرام الارمني ، الذي زاد اهتمامه بإثراء أصدقائه واخوانه المسيحيين ، على القيام بمهاجمة الفرنج [٢] . أما دمشق فانها أضحت ايضاً عاجزة ، ذلك ان بوري ابن طغتكين مات سنة ١١٣٢ ، وخلفه في الأتابكية ابنه اسماعيل . استهل اسماعيل حكمه بأعمال رائعة ، فاسترد بانياس من أيدي الفرنج ، واستعاد بعلبك وحمـاه من أيدي منافسيه . غير انه لم يلبث ان جمع بين القسوة الطاغية ، وفرض الضرائب الجـائرة . وأدّى سلوكه الى محاولة لاغتياله ، فأصدر الأوامر بالاعدام جملة لأتفه الشبهات ، بل انه لم يُبقِ على حيـاة أخيه سونج . ثم دبّر أمر التخلص من يوسف بن فيروز ، حاجب أبيـه

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIV*. 7, pp. 615 - 616.
Ibn al - Qalanisi, pp. 222 - 223.
Kemal ad - Din, p. 665.

(٢) انظر : Ibn al - Athir, pp. 405 - 408.

وموضع ثقته . على ان الاميرة زمرد ، والدة اسماعيل ، تحملت ، في ثبات ، مصرع ابنها سونج ، غير ان يوسف بن فيروز كان عشيقها ، ولذا دبّرت أمر إنقاذه .

أدرك اسماعيل انه لم يعــد يأمن على نفسه ، حتى في داره . ودفعه الخوف الى ان يكتب الى زنكي ، عدو والده القديم ، يعرض عليه الانتماء اليه ، اذا سانده في البقاء في الحكم . فاذا لم يبذل له المساعدة ، فلن يسع اسماعيل إلا ان يسلم دمشق للفرنج . ولم يكن من اليسير ان يغـــادر زنكي الموصل ، ولما لم ينهزم بعد الخليفة المسترشد ، غير انه لا يستطيع ان يغفل نداء اسماعيل . تلقى زنكي الدعوة بعـد فوات الأوان ، فعبر نهر الفرات في ٧ فبراير ، غير انه حدث قبل سبعة ايام من هذا التاريخ ، ان فرغت زمرد خاتون من اغتيال ابنها اسماعيل ، وتنصيب ابنها الأصغر شهاب الدين محمود في الأتابكية . على ان الأتابك الجديد ، بتأييد قومه ، رفض في أدب ما عرضه الرسل الذين أنفذهم اليه زنكي ، يطلبون منه الإذعان والخضوع . فلما زحف زنكي على دمشق ، وقد أذعنت له حماه عند قدومه لهـا ، أدرك ان دمشق تتأهب للدفاع عن نفسها . وحبطت المحاولة التي قام بها زنكي لاقتحام أسوار المدينة ، ولم تلبث الأقوات ان نفدت في معسكره ، وتخلى عنه بعض العساكر . وفي تلك اللحظة ، قدمت اليه سفارة من قبل الخليفة المسترشد ، تطلب اليه في أدب ، ان يحترم استقلال دمشق . ولم يسع زنكي إلا ان يقبل راضياً هذا العذر ، الذي هيّـــأ له الانسحاب ، دون ان يتثلم شرفه . فانعقد الصلح بين زنكي ومحمود ، وقام زنكي بزيارة رسمية الى دمشق ، غير انه لم يتوافر عنـد محمود من الثقـــة في زنكي ما يكفي لردّ الزيارة بنفسه ، فأناب عنه

أخاه [1] .

هذه الأحداث ، وما يقابلها من ضعف مصر ، هيأت للفرنج فرصة نادرة لاسترداد بانياس ، والقيام بهجوم شديد . غير ان فولك جعل الفرصة تفلت منه ، اذ ان زنكي استخدم كل قواته ، بعد ان أراح نفسه من أمر دمشق ، في مهاجمة بلاد انطاكية . فبينما أخذ نائبه بحلب ، وهو سوار ، يهدد تل باشر وعينتاب وعزاز ، فمنع بذلك الاتصال بين جيوش انطاكية والرها ، تجاوز زنكي في زحفه ، ما يقع على الحد الشرقي لأنطاكية من الحصون ، امثال كفرطاب ، والمعرّة ، وزردنا ، والأثارب ، فاستولى عليها الواحد بعد الآخر . وواتى الفرنج الحظ بأنه اضطر للعودة الى الموصل ، غير ان انطاكية فقدت معاقلها على الحدود [2] .

على ان هذه الكوارث حملت الملك فولك على ان يسير من جديد الى الشمال . فلا زال يعتبر الوصي الأسمى على انطاكية ، غير ان سلطته بها كان يمثلها البطريرك برنارد ؛ لكن برنارد مات في أوائل الصيف . واشتهر برنارد بأنه كان سياسياً كفؤاً ، وافر النشاط ، شديد الصلابة ، بالغ

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 211 - 236, 329.
اورد ابن القلانسي رواية مسهبة عن هذا الحادث ، غير انه أشار الى ان ما قامت به زمرد خاتون من تدبير مصرع اسماعيل ، يرجع الى بواعث جديرة بالثناء ؛ فيذكر ان كبير وزرائه كان كردياً مسيحياً ، اسمه برتران (بدران) الكافر ، وفي موضع آخر ، جعل اسمه بستان .
انظر ايضاً : Kemal ad - Din, pp. 667 - 670.
Ibn al - Athir, pp. 403 - 405.

(٢) انظر : Kemal ad - Din, p. 670.

الشجاعة ، غير انه كان شديداً في ضبط نبلاء الفرنج ، ولم يكن متسامحاً مع المسيحيين الوطنيين . وعنـد وفاته ، بادر الناس الى اختيار الاسقف اللاتيني بالمصيصة رادولف دومفرون ، ليخلفه في البطريركية دون انتظار الانتخاب الكنسي . والواقع ان رادولف كان من طراز مختلف ، إذ كان وسيماً ، برغم الخنـــاءة صغيرة ، مُحباً للأبهة ، معروفاً بالسخاء ، يسهل الائتناس به ؛ ومع انه لم ينل من التعليم إلا قسطاً ضئيلاً ، فانــه كان خطيباً فصيحاً ، شديد التأثير في سامعيه ، غير انه كان يخفي وراء هذه الواجهة الجيلة ، مــــا ينزع اليه من الميول الدنيوية والطموح والمكر . لم يرغب البطريرك في ان يسيطر عليه الملك ورجال الملك ، ولذا فتح باب المفاوضات مع الاميرة أليس ، التي لا زالت تقيم بأملاكها في اللاذقيـة . فرأت أليس في ذلك فرصتها ، فاستنجدت بأختها الملكة ميليسند . وصل فولك الى انطاكية في اغسطس في زيارة قصيرة ، ولم يشعر انه من القوة ما يكفي للاعتراض على مخالفة انتخاب رادولف لقانون الكنيسة ، وليس بوسعه وقتذاك ان يرفض كل ما تطلبه منه زوجته . فتقرر السماح لأليس بالعودة الى انطاكية ، وظل فولك وصياً ، غير ان السلطة اقتسمها الاميرة والبطريرك بعد ان جرى بينهما تحالف قلق[1] .

دعوة ريموند بواتييه للقدوم الى انطاكية ، سنة ١١٣٥ :

لم يلبث رادولف ان وقع في شجار مع رجال الدين ، فأضحت أليس

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIV*. 9, 20, pp. 619 - 620. 636.
Röhricht, Regesta, p. 39.
أشار روهرخت الى ان فولك كان في انطاكية ، في اغسطس سنة ١١٣٥ .

سيدة على المدينـة (انطاكية) ، غير ان مركزها كان محفوفاً بالخطر . وأكبر ما تلقته من مساندة وتأييد ، جـاء من قِبل السكان المسيحيين الوطنيين ، غير ان مؤامراتها مع زنكي دلّت على انها لم تُولِ إحساس الفرنج وعاطفتهم شيئاً من الاعتبار . ثم انها أخذت تفكر في خطة تفضل ما سبق انتهاجه ؛ ففي نهاية صيف سنة ١١٣٥ ، أنفذت رسولاً الى القسطنطينية يعرض خطبة ابنتها الاميرة كونستانس لمانويل ، الابن الأصغر للامبراطور (يوحنا كومنين) . هـذا الاجراء يرجع الى تقلب أطماعها ، حسبما صرح الصليبيون الذين ارتاعوا لذلك . غير انه يعتـبر ، في الواقع ، خير حل للمحافظة على شمـال الشام . فالعنصر اليوناني كان قوياً في انطاكية ، وازداد تهديد المسلمين لهـا زمن زنكي . وتعتبر الامبراطورية البيزنطية الدولة الوحيدة التي كان لهـا من القوة ما يكفي لوقف هـذا التهديد ؛ إذ ان إمارة تابعة تحكمها تحت السيادة البيزنطية الاميرة أليس التي تجري في عروقها الدماء الارمنية ، ثم يقاسمها الحكم امير بيزنطي ، وأميرة من الفرنج ، كل ذلك كفيل بأن يدمج اليونانيين والفرنج معاً ، في سبيل الدفاع عن العـالم المسيحي . غير ان النبلاء الفرنج انزعجوا لذلك ، وأدرك البطريرك رادولف انه تقرر إقصاؤه عن منصبه ، ليحل مكانه يوناني بغيض .

وفي أثناء زيارة الملك فولك لأنطاكية ، يبدو ان البارونات استشاروه في أمر زوج مناسب للأميرة كونستانس . على انه حدث في الوقت الراهن ، ان توجه سراً رسول الى فولك ، لينهي اليه انه لا بد من العثور عاجلاً على عريس . وإذ استعرض فولك كل من يعرفه من الأمراء الفرنسيين ، استقر رأيه على ان يكون العريس ريموند بواتييه ، الابن الاصغر لوليم التاسع

دوق أكيتانيا ، والذي يقيم بانجلترا في بلاط الملك هنري الاول ، الذي تزوجت ابنته أخيراً من جفري بن فولك . فتقرر ارسال جيرار جيبار ، من فرسان الاسبتارية الى انجلترا ، لدعوته الى الحضور . وجرت مراعاة السرية التامة في ذلك ، فينبغي ألا تعلم أليس شيئاً عن هذا الامر ، بل انه ينبغي ألا تخطر به الملكة . على ان خطراً آخر يجثم فيما يكنه من عداوة ، روجر ملك صقلية ، الذي لم يغفر مطلقاً لملكة بيت المقدس ، ما ألحقته بأمه من إهانة ، والذي تمنعه مطامعه في البحر المتوسط من ان يأذن بالمرور ، لمطالب بيد اكبر وريثة للملك في الشرق . وصل جيرار الى البلاط الانجليزي ، وقبل ريموند ما تقدم به من اقتراح . غير ان الملك روجر وقف على السر ، لأن النرمان بانجلترا وصقلية كانوا دائماً على اتصال وثيق بعضهم ببعض ، فعزم روجر على ان يلقي القبض على ريموند ، الذي لن يعثر على سفينة تقله الى سوريا ، إلا من أحد موانىء جنوب ايطاليا . وكان لزاماً على ريموند ان يقسم حاشيته ، وان يتخفى تارة على انه حاج ، وتارة على انه خادم لأحد التجار . واستطاع ان يفلت من الحصار ، فوصل الى انطاكية في ابريل سنة ١١٣٦ .

على ان وصول ريموند الى انطاكية لم يعد خافياً على أليس ، ولذا بادر بالتوجه لزيارة البطريرك رادولف ، فبذل له المساعدة بشروط ، منها انه يتحتم على ريموند ان يحلف له يمين الولاء ، وان ينصاع له في كل شيء . وإذ وافق ريموند على هذه الشروط ، طلب رادولف الإذن بمقابلة أليس ، ليخطرها ان الشخص الغريب ، الساحر العينين ، جاء يطلب يدها . كانت القصة مقنعة ، لا ريبة فيها ، لأن ريموند كان وقتذاك في السابعة والثلاثين من عمره ، بينما كان عمر أليس يقل عن ثلاثين سنة ، ولم تتجاوز

كونستانس التاسعة من عمرها . ثم حدث حينما كانت أليس في قصرها تنتظر قدوم زوجها المقبل ، ان تمّ اختطاف كونستانس ونقلها الى الكاتدرائية ، حيث عجّل بعقد قرانها على ريموند . فانهزمت أليس ، ولم يعد لها حقوق من قِبل الزوج الشرعي لوارثة إمارة انطاكية . ولم يسع أليس إلا ان تلجأ مرة اخرى الى اللاذقية ، حيث عاشت بائسة ما تبقى لها من حياة قصيرة [1] .

الحرب مع الأرمن سنة ١١٣٦ :

كان ريموند في ربيع حياته ، جميل الخلقة ، بالغ القوة البدنية ، لم ينل إلا حظاً ضئيلاً من التعليم ، يهوى لعب القمار ، شديد التهوُّر والاندفاع ، ويميـل في الوقت نفسه الى الخمول ؛ ومع ذلك ، ذاع صيته في المروءة وطهارة السيرة والسلوك [2] . ولم تلبث محبة الناس له ان أخافت البطريرك ، الذي لم تتوقف متاعبه مع رجال الدين ، والذي أحسّ ان سلطته جرى انتقاصها ، برغم ما يلقاه من الاحترام والانقياد له . والواقع ان النبلاء

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIV*. 20, pp. 635 - 636.
Cinnamus, pp. 16 - 17.
Robert of Torigny, (*I*. p. 184).
يشير روبرت توريجني الى ان ريموند تزوج من ارملة بوهمند الثاني .

(٢) انظر : William of Tyre, *XIV*. 21, pp. 637 - 638.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 522.
يصف ابن العديم ريموند ، بأنه كان بوسعه ان يثني قضيباً من الحديد . اما كيناموس فيعقد مقارنة بينه وبين هرقل . انظر : Cinnamus, (p. 125).

أمعنوا في تأييد ريموند ، لأن الموقف بلغ من الخطورة انه لم يكن بوسعهم ان يفعلوا سوى ذلك ، إذ أخذت إمارة انطاكية تفقد ميزتها ، فلم تضع خطوط دفاعها الشرقية فحسب ، بل حدث ايضاً في الجنوب ، في جبال النصيرية ، أن استولى مغامر تركاني على قلعة بكسرائيل ، من صاحبها رينالد مازوار ، في سنة ١١٣١ ، ولم يمتنع هذا المغامر إلا بصعوبة ، في أوائل سنة ١١٣٦ ، عن الاستيلاء على بلاطنس . ولم تلبث بكسرائيل ان تمّ استردادها بعدئذ ، على انه حدث في الجنوب منها ، حيث حاز الفرنج قلعة قدموس سنة ١١٢٩ ، أن عادت هذه القلعة سنة ١١٣١ ، الى الامير سيف الدين بن عمرون ، صاحب قلعة الكهف ، فباعها في السنة التالية الى ابي الفتح زعيم الباطنية . وابتاع الباطنية ، في سنة ١١٣٥ ، قلعة الكهف من أبناء سيف الدين بن عمرون ، وفي شتاء سنة ١١٣٦ ، استولوا على حصن الخربة من الفرنج [١] .

أما قليقية فانها ضاعت فعلاً من انطاكية . ففي سنة ١١٣١ ، وعقب وفاة بوهمند الثاني ، هبط الى السهل الامير ليو الروبيني ، بعد ان تولى حماية مؤخرته ما عقده من تحالف مع الامير الدانشمند ، فاستولى على المدن الثلاثة : المصيصة ، وطرسوس ، وأذنة . والمعروف ان أخاه ثوروس ، الذي سبقه في الحكم ، قام منذ بضع سنوات ، بطرد الحاميات البيزنطية ، القليلة العدد ، من سيس وعين زربة ، الى داخل البلاد البيزنطية . وفي

(١) انظر :
Ibn al - Qalanisi, p. 241
Usama, ed. Hitti, p. 157.
Kemal ad - Din, p. 680.

سنة ١١٣٥ ، انتزع ليو من بلدوين صاحب مرعش ، قلعة مرفنتيكار الواقعة على منحدرات جبال الأمانوس . غير ان سيطرة الارمن على قليقية كانت ضعيفة ، إذ صارت ملاذاً لقطاع الطرق ، وأضحت سواحلها مرتعاً لقرصان البحر [١] .

لم تكن كونتيــة الرها بأحسن حالاً ، إذ ان تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق قد أضاف الى أملاكه مـا يقع من أراضي الرها في الشرق . والى الشمال من الرها ، لما أدرك ميخائيل ، امير كركر الارمني ، انه ليس بوسعه ان يحمي نفسه من الترك ، تنازل عن بلاده الى الكونت جوسلين (صاحب الرها) ، الذي دفعته حماقته الى تسليم هـذه الأراضي الى عدو ميخائيل اللدود ، وهو باسيل ، شقيق الجاثيليق الارمني ، فاندلعت الحرب الاهلية بين الاميرين الارمنيين . وكان لزاماً على جوسلين ان يشحن كركر بالعساكر ، غير انه لم يستطع ان يمنع عن قراها ما تعرضت له من النهب والتخريب على أيدي الارمن والترك سواء . إذ أغار سوار سنة ١١٣٥ ، على منطقة تل باشر ، وفي ابريل سنة ١١٣٦ ، أي حوالي الوقت الذي وصل فيه ريموند الى الشرق ، لم يكتفِ الأفشين التركي قائد سوار ، بأن يخترق أراضي انطاكية الى اللاذقية في الجنوب ، ويُنزل بمـا اجتازه من القرى الحريق والنهب ، بل انه توجه بعدئذ صوب الشمال ، فاجتـاز مرعش في طريقه

---

(١) انظر :

Gregory the Priest, p. 152.
Michael the Syrian, *III*. pp. 230 - 233.
Armenian Rhymed Chronicle, p. 499.
Sembat the Constable, p. 615.

الى كيسوم . وعجز بلدوين سيد مرعش وكيسوم ، والذي يعتبر اكبر أتباع كونت الرها ، عن الدفاع عن بلاده [1] .

عزم ريموند على ان يعتبر استرداد قليقية أول ما ينبغي ان يقوم به من أعمال ، غير انه لا بد من حمـاية مؤخرته ، قبل ان يخاطر بمواجهة زنكي . وتوجه ريموند مع بلدوين صاحب مرعش ، بموافقة الملك فولك ، لقتال أمراء بيت روبين . على ان التحالف لم يكن تاماً ، فعلى الرغم من ان جوسلين كونت الرها ، يعتبر تابعاً للملك فولك ، وسيداً لبلدوين صاحب مرعش ، فانه كان ابن اخت ليو الارمني (صاحب قليقيـة) ، وكانت عواطفه مع خاله . ولم تكن سلطة ملك بيت المقدس من القوة ما تكفي لإعادة الوحـدة بين الأمراء الفرنج . وبفضل مساعدة جوسلين ، استطاع ليو ان يرد جيش انطاكية على أعقابه . على ان ليو وافق بعـد إحراز النصر على ان يجتمع ببلدوين ، الذي غدر به وأخـذه أسيراً ، ثم أرسله الى الحبس بأنطاكية . ووقع الشجار بين أبناء ليو الثلاثة ، أثناء غيابه في الأسر . فأكبر أبنائه ، وهو قنسطنطين ، وثب عليه أخواه ، وأمرا بسمل عينيه . وفي تلك الأثناء لم يجن الفرنج شيئاً ، إذ أغار على قليقية ، الامير الدانشمند محمد الثاني بن غازي ، فدمَّر محصولاتها ، ثم تحرك الى بلدوين صاحب مرعش ، فأمعن في تخريب بلاده ونهبها حتى كيسوم . وإذ اهتز ليو لهذه الكوارث ، لم يسعه إلا ان يعرض على ريموند التخلي عن هذه المدن

---

(١) انظر :

Michael the Syrian, *III*. p. 244.
Ibn al - Qalanisi, pp. 239 - 240.
Kemal ad - Din, p. 672.

القليقية ، كيا يطلق سراحه . غير انه لم يكد يعود الى وطنه ، حتى نسي وعده ، فنشبت الحرب من جديد ، حتى استطاع جوسلين سنة ١١٣٧ ، ان يعقــد هدنة بين المتحاربين ، الذين راعهم ما جاءهم من أنبــــاء من الشمال ، دلّت على ان الاميرة أليس لم تكن مطلقاً غبية او حمقاء [١]

لم يكن بوسع الملك فولك ان يبذل مساعدة عملية لصديقه ريموند ، إذ كان لزاماً عليه ان يواجه أخطاراً بالغة القرب من مملكته . ذلك ان حكومة أتابك دمشق محمود ، الصغير السنّ ، سيطر عليها في هـــدوء ، الحاجب يوسف الذي وقع في غرام أمه . غير انه حدث ذات مساء في خريف سنة ١١٣٦ ، بينما كان الأتابك يسير بالميــــدان وبصحبته يوسف وقائد الغلمان الأتابكية بزواج ، أن تقدم بزواج من يوسف ، وباغته بطعنة نجلاء ، ثم هرب الى كتيبته في بعلبك . ومن بعلبك هدّد بالزحف على دمشق ، وبخلع الأتابك ، ما لم يتول الوزارة ، فاستجاب الأتابك محمود لرغباته . وبادر الدماشقة باظهار الميل الى مهاجمة الفرنج . ففي أوائل السنة التالية ، أغاروا على كونتية طرابلس . وإذ لم يكن المسيحيون الوطنيون موالين للفرنج ، قاموا سراً بإرشاد الدماشقة ، في دروب جبال لبنان ، الى السهل الساحلي ، فأخذوا بونز على غرة ، فلما نهض بجيشه الصغير للقائهم ، حلّت به هزيمــة ساحقة . وإذ فرّ بونز الى الجبال ، كشف أمره للمسلمين ، فلاح

---

(١) انظر : Gregory the Priest, loc. cit.

(راجع الحاشية التي اوردها ديلوريه) .

Sembat the Constable, p. 616.

Matthew of Edessa, CCLIII. pp. 320 - 321.

مسيحي ، فبادروا بقتله . أما اسقف طرابلس ، جيرار ، الذي وقع أسيراً اثناء المعركة ، فواتاه الحظ بأن احـــداً لم يفطن الى شخصيته ، فجرت مبادلته على انه شخص لا أهمية له . واستولى بزواج على قلعة او قلعتين على الحدود ، غير انه لم يغامر بمهاجمة طرابلس ، ولم يلبث ان تراجع الى دمشق ، وقد امتلأت يده بالغنيمة [١] .

ريموند الثاني يتولى كونتية طرابلس سنة ١١٣٧ :

أمضى بونز خمساً وعشرين سنة في حكم طرابلس ؛ ومع انه كان فيما يبدو حاكماً إدارياً كفؤاً ، فإن حظه من السياسة ضئيل ، اذ حرص دائماً على ان يتملص من سيادة ملك بيت المقدس ، غير انه لم يكن من القوة ما يجعله يحقق الاستقلال عنه . أما ابنه وخليفته في الحكم ، ريموند الثاني ، فانه كان سريع الثائرة . بلغ وقتذاك الثانية والعشرين من عمره ، وتزوج منذ عهد قريب ، من هوديرنا ، شقيقة ميليسند ملكة بيت المقدس ، واشتد تعلقه بها . وكان لزاماً عليه ، اولاً ، ان ينتقم لمصرع ابيه ، لا من الغلمان الأتابكية بدمشق ، الذين لم يكن نداً لهم في القوة ، بـل من المسيحيين بلبنان الذين خانوه . فزحف على القرى التي ارتاب في مساعدتها للعدو ، فقتل كل رجالها ، وسبى نساءها وأطفالها ، فباعهم رقيقاً بطرابلس . وعلى الرغم من ان هـــذه الصرامة والشدة ، أذلّت اللبنانيين ، فانها جعلتهم ينفرون من الفرنج [٢] .

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIV*. 23, p. 640.

(٢) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 240 - 241.
Ibn al - Athir, pp. 419 - 420.
William of Tyre, loc. cit.

لم يستهو زنكي ما كان ليزواج من نشاط . إذ لم يشأ ان يهاجم الفرنج ، وقد تعرض جناح جيشه لخطر دولة إسلامية مستقلة معادية . ففي نهاية شهر يونيو زحف على حمص ، التي حازها ، احد كبار المماليك ، وهو أنر ، إقطاعاً من أتابك دمشق . وظلّ زنكي مرابطاً امام المدينة ، حمص ، نحو اسبوعين ، حتى جاءته الأنباء بأنه يدنو منه ، جيش الفرنج قادم من طرابلس . ومهما يكن عند الكونت ريموند من نيّة ، فإن حركته حملت زنكي على رفع الحصار عن حمص ، والالتفات لقتال الفرنج . ولما تراجع ريموند امامه ، تقدم زنكي ، فحاصر قلعة بعرين الضخمة ، الواقعة على المنحدرات الشرقية لتلال النصيرية ، والتي تحرس المنفذ المؤدي الى البقيعة . وفي تلك الأثنــاء ارسل ريموند الى بيت المقدس ، يطلب النجدة من الملك فولك .

تلقى فولك وقتذاك استغاثة عاجلة من انطاكية ، غير انـه لم يكن بوسعه ان يتجاهل ما تتعرض له طرابلس من تهديد المسلمين . فهرع بكل ما استطاع ان يحشده من الرجال ، الحاق بريموند ، فتحاملا سوياً على الطواف حول سفوح تلال النصيرية ، حتى بلغا حصن بعرين . وإذ كانت الرحلة شاقـة ، لم يلبث جيشها ان أضحى في حالة بالغة السوء . وابتعد زنكي حينا اقتربا منه ، غير انه لما سمع بأحوالها السيئة ، عاد وأخذ يقترب منها عند خروجها من بين التلال القريبة من القلعة ، ففاجأ الفرنج الذين أصابهم التعب والارهاق. استبسل الفرنج في القتال ، غير ان المعركة لم تلبث ان انتهت . ولقي معظم المسيحيين حتفهم على ساحة المعركة ، ووقع في الأسر ،

آخرون ، منهم كونت طرابلس ، بينما فرّ الى الحصن ، فولك في حرسه ، قليل العدد [1] .

وقبل ان يتقدم زنكي لاقتحام حصن بعرين ، أنفـذ الملك فولك الرسل الى بطريرك بيت المقدس ، والى كونت الرها ، والى امير انطاكية ، يطلب منهم المبادرة الى بذل المساعدة . واستجاب هؤلاء الثلاثة لندائه ، وأغفلوا مـا سوى ذلك من أخطار ، إذ ان وقوع الملك وفرسانه في الأسر ، انما يعني زوال المملكة . وقام وليم بطريرك بيت المقدس بحشد من تبقّى من الحرس الوطني في فلسطين ، وتولى قيادته ، وتوجه به الى طرابلس ، وقد رفع الصليب المقدس في مقدمة الجيش . اما جوسلين كونت الرها ، فانه أغفل كل متاعبه الداخلية ، وقدم من الشمال ، وانحاز اليه في الطريق ريموند امير انطاكية ، الذي لم يكن بوسعه حتى وقتذاك ان يترك مقر حكمه . على ان من حسن حظ فلسطين التي خلت من كل محارب ، ان جيرانها لم يبادروا الى الاعتداء ، إذ شلّ حركة مصر ، ما نشب بالقصر من ثورة ، أطاحت بالوزير الارمني بهرام ، وأحلّت مكانه رضوان الولخشي ، المعروف بشدة كراهيته للمسيحيين ، والذي انصرف الى الإجهاز على أصدقاء سلفه (بهرام) ، والى النزاع مع الخليفة . وكل ما وقع من أحداث ، لم يتجاوز ما قامت به حاميـة عسقلان من الإغارة على اللد [2] . أمـا بزواج

(١) انظر : William of Tyre, *XIV.* 25, pp. 643 - 645.
Ibn al - Qalanisi, pp. 242 - 243.
(برع ابن القلانسي في اغفال الاشارة الى ما كان من تحالف بين الدماشقة والفرنج) .
Kemal ad - Din, pp. 672 - 673.
Ibn al - Athir, p. 420.

(٢) انظر : William of Tyre, XIV. 26, pp. 645 - 647.

وزير دمشق ، فكان أشد خطراً . فلم يكد البطريرك يغـادر البلاد (فلسطين) ، حتى أمعن في الغـارة في الجنوب الى ان بلغ مدينة نابلس المكشوفة ، فأجرى السيف في أهلها . غير ان خوفه وقلقه من النتائج التي تتعرض لهـا دمشق ، اذا ظفر زنكي بانتصار كامل ، بلغ من الشدة ما منعه من المضي في الضغط على الفرنج [١] .

استسلام حصن بعرين سنة ١١٣٧ :

وفي نهاية شهر يوليو سنة ١١٣٧ ، احتشدت في البقيعة القوة القـادمة لإنقـاذ الملك . وفي تلك الأثنـاء استبد اليـأس بالملك في بعرين ، إذ انقطعت عنه كل أنباء العالم الخارجي ، وأخذت مؤنه في النفاد ، بينما ظلت مجانيق زنكي العشرة تقـذف أسوار القلعة ليلاً ونهاراً . ولم يسع الملك آخر الامر إلا ان يبعث من قبله رسولاً الى زنكي يطلب منه شروطه . وكان من فرط مرور الملك ، ان زنكي لم يطلب سوى تسليم قلعـة بعرين ، وفي وسع الملك بعدئذ ان يمضي مع رجاله أحراراً كيفما شاءوا . يضاف الى ذلك انه تقرر اطلاق سراح مَن وقع في الأمر أثناء القتال من الفرسان البارزين ، ومنهم كونت طرابلس . ولم تفرض فدية ، فبـادر الملك فولك الى قبول هذه الشروط . والتزم زنكي بعهده ، ومثل الملك وحرسه في حضرة زنكي ، فعاملهم بكل مظاهر الشرف ، وأهدى الملك خلعة سنية ، وأعاد اليهم رفاقهم بعـد ان أخلى سبيلهم ، فالتقوا بجيش الإنقاذ في البقيعة ، أي في موضع أقرب مما كانوا يتصورونه . وحزن

---

(١) انظر : Ibid, XIV. 27, p. 647.

فريق منهم ، لأنهم لم يستمروا في الصمود والمقاومة حتى يخلصهم جيش الإنقاذ ، بينما اغتبط العقلاء منهم لنجاتهم في يسر وسهولة [1] .

والواقع ان مـا اشتهر به زنكي من الجلد والصبر ، لم يزل يثير دهشة المؤرخين . غير ان زنكي كان يعلم ما يفعله ، فلم تكن قلعة بعرين جائزة هينة او حقيرة ، إذ ان تملكها سوف يمنع الفرنج من ان ينفذوا الى أعالي وادي نهر الاورنت ، كما ان موقعهـا الرائع يجعلها تسيطر على حمـاه ، وعلى حمص التي كانت من توابع دمشق . فالاستيلاء عليها ، دون المضي في القتال ، يعتبر أمراً بالغ الأهمية . فلم يود زنكي ان ينشب القتال مع الجيش القـادم لإنقاذ الملك فولك ، والذي كان قريباً من أطراف دمشق ، فيفيد حكامها ممـا قد يتعرض له زنكي من هزيمة . يضاف الى ذلك ، انه أقلقه ، مثلما أقلق الفرنج ، ما ترامى اليه من أنباء من الشمال .

---

(١) انظر : William of Tyre, XIV. 28 - 29, pp. 545 - 551.
Ibn al - Qalanisi, loc. cit.
Kemal ad - Din, loc. cit.
Ibn al - Athir, pp. 421 - 423.

الفصل الثالث

دعاوى الامبراطور

الاوضاع في أواخر حكم الامبراطور الكسيوس الاول :

الواقع ان الأنباء التي أدّت الى عقد الصلح بين الفرنج والارمن ، والتي حملت الامير ريموند على ألا يغادر انطاكية ، والتي دعت زنكي ايضاً الى ان يترفق بأعدائه ، لم تتعلق إلا بأن جيشاً ضخماً يقوده الامبراطور يوحنا كومنين ، يزحف على قليقية (أرمينية الصغرى) . ذلك ان رجال السياسة بالشرق الفرنجي اخذوا يغفلون أمر بيزنطة ، منذ ان فشل الامبراطور الكسيوس كومنين في القدوم الى انطاكية أثناء الحرب الصليبية الاولى . ومع ان إقدام بوهمند على غزو الامبراطورية البيزنطية من جهة الغرب لقى الفشل الذريع ، فانه لم يكن بوسع الكسيوس ان يطمئن الى ان ما تضمنته معاهدته مع بوهمند من شروط كانت نهائية ، كما ان الفرنج بانطاكية أدركوا حقاً ان الامبراطور الكسيوس لم يصرفه عنهم سوى ما حدث من قلاقل فيما كان أقرب الى بلاده من

انطاكية [1] .

استمرت هذه المتاعب ما يقرب من ثلاثين سنة ، ظلت الحرب سجالاً أثنــاءها على سائر اطراف الامبراطورية ، فتكررت غــارات البجناك (البولفتسيين) ، النازلين وراء الدانوب الأدنى ، مثلما حدث سنتي ١١١٤ ، ١١٢١ ، ولم يلبث التوتر المستمر مع المجريين في وادي الدانوب المتوسط ، ان أفضى الى نشوب الحرب ، سنة ١١٢٨ ، فأغار المجريون على شبه جزيرة البلقان حتى بلغوا صوفية ، غير ان الامبراطور (يوحنا كومنين) ، ردهم على أعقابهم ، وأنزل بهم الهزيمة في داخل بلادهم . وأخــذت المدن الايطالية التجارية تهاجم الامبراطورية البيزنطية ، من حين الى آخر ، كيما تنتزع منهــا امتيازات تجارية . فحصلت بيزا ، سنة ١١١١ على معاهدة مجزية ، واستردت البندقية ، سنة ١١٢٦ ، جميع حقوقها بعــد حرب مع بيزنطة استمرت اربع سنوات ، بسبب امتنــاع الامبراطور يوحنــا كومنين عن تجديد الامتيازات التي سبق ان منحها أبوه لهــا . أما النرمنديون بجنوب ايطاليا ، الذين اخلدوا للسكون بعد ان لقي بوهمند الهزيمة في دورازو ، فأضحوا من جديد مصدر خطر وتهديد ، سنة ١١٢٧ ، بعــد ان اضاف روجر الثاني ملك صقلية الى ممتلكاته اقليم ابوليا . وتعلّق روجر الثاني ، الذي اتخذ سنة ١١٣٠ لقب ملك ، بما اشتهرت به أسرته من الكراهية لبيزنطة ، على الرغم من انه كان يهوى ان ينقل عنها طرائقها ، وان يرعى فنونها . غير ان اطماعه بلغت من الضخامة والاتساع ، ما دعا الى ان

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٧٧ ، ٢٢٢ .

يجتمع الخلفاء لمناهضته . فلم يسع روجر فحسب للسيطرة على ايطاليا ، بل طالب بانطاكية باعتباره آخر من تبقى من بيت هوتفيل من الذكور ، وزعم لنفسه الحق ايضاً في بيت المقدس ، وفقاً للمعاهدة التي عقدتها أمه أديلايد مع الملك بلدوين الاول [١] .

على ان الامن والسلام لم يستتبا في آسيا الصغرى . ففي أثناء الحرب الصليبية الاولى ، وفي اعقابها ، وطّد الامبراطور الكسيوس الاول سيطرته على ثلث الشطر الغربي من آسيا الصغرى ، وعلى ساحليها الشمالي والجنوبي ، ولو لم يتحتم عليه ان يقاتل الامراء الترك ، لظل محتفظاً بأملاكه متماسكة سليمة . اذ ان جموعاً من التركمان ما زالت تنساب الى الداخل ، حيث تكاثرت حشودهم ، وتزايدت قطعانهم ، وكان لزاماً عليهم ان يتدفقوا على الوديان الساحلية ليلتمسوا مناخاً اكثر اعتدالاً ، ولينتجعوا مراعي أغزر عشباً . ولا بد ان قدومهم دمّر حياة المسيحيين المستقرين الذين يمارسون حياة الزراعة . والواقع انه كلما ضعف الامراء ، اصبح رعاياهم المرتحلون اكثر ضراوة وأشد خطراً على الامبراطورية [٢] .

---

(١) عن روجر الثاني ، انظر :

Chalandon, Domination Normande en Italie, *II*. pp. 1 - 51.

اما غارة البولفتسيين سنة ١١٢١ ، فوصفها باسيل اليعقوبي الرهاوي ، ونقل عنه :

Michael the Syrian, *III*. p. 207.

(٢) عن غارات التركمان وأثرها ، انظر :

Ramsay : « War of Moslem and Christian for the Possession of Asia Minor », in Studies in the History of Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire, pp. 295 - 298.

واقتسم بلاد الاناضول التركية ، عند وفاة الامبراطور الكسيوس سنة ١١١٨ ، السلطان السلجوقي مسعود الذي حكم من مقره ، قونية ، الشطر الجنوبي من شبه الجزيرة ، ابتداء من نهر صنغاري الى جبال طوروس ، والامير الدانشمند غازي الثاني ، الذت امتدت بلاده من نهر هاليس الى نهر الفرات ، فابتلعا وأزالا ما يقع بينهما من امارات صغيرة ، ما عدا ملطية الواقعة الى الشرق منها ، والتي حكمها طغرل اصغر اخوة مسعود بوصاية امه ، وزوجها الثاني ، بلك الأرتقي . وعلى الرغم من الانتصار الذي احرزه البيزنطيون في فيلوميليون ، سنة ١١١٥ ، وما تلى ذلك من محاولة تعيين الحدود ، فقد استرد الترك في السنوات التالية فريجيا ولأوديقا ، وتوغلوا في وادي نهر الماندر ، وقطعوا الطريق المؤدي الى أضاليا ، وفي الوقت ذاته اشتد الدانشمنديون في ضغطهم صوب الغرب الى بافلاجونيا . وأعدّ الامبراطور الكسيوس خطة للقيام بحملة لاسترداد اطراف بلاد الاناضول ، لولا ان تعرض للمرض الذي مات فيه [١] .

يوحنا كومنين ، ولاية الحكم سنة ١١١٨ :

اقترنت ولاية يوحنا كومنين للحكم بتجدد قوة بيزنطة . إذ ان يوحنا الذي أطلق عليه رعاياه اسم يوحنا الصالح ، كالويوانس Kaloioannes [٢] ،

---

(١) انظر : Anna Comnena, XV. 1, 6 - VI. pp. 187 - 213.
Chalandôn, Règne d'Alexius I. Comnene, pp. 268 - 271.

(٢) ورد بهذا الرسم (كياليانى) في ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٨ . وورد باسم (كالياني) في ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٤ .

يعتبر يوحنا من الشخصيات النادرة التي لم يكن في وسع أحد من المؤرخين المعاصرين ، باستثناء مؤرخ واحد ، ان يلصق بها شيئاً من العيوب . ولم يكن المؤرخ المعاصر ، الذي شذّ عن سائر المؤرخين ، سوى اخته أنه كومنين . كانت أنه كبرى ذرّية الامبراطور الكسيوس ، خطبها ، وهي طفلة ، قنسطنطين دوكاس الصغير قسيم الامبراطور ، الذي سبق ان وعده الكسيوس بأن يخلفه على الحكم . على ان وفاته المبكرة ، عقب ميلاد أخيها يوحنا كومنين ، كانت ضربة قاسية لأطماعها ، ظلت بعدها تسعى دائماً لإصلاح ما أصابها من ظلم القدر ، بأن حثت أباها ، بموافقة أمها ، على ان يتخلى عن العرش لزوجها ، القيصر نقفور برينيوس . بل حدث ، بينما كان الامبراطور الكسيوس يدنو من منيته ، ان ألحت عليه زوجته وابنته (أنه) ، اللتان توافرتا على خدمته في مرضه ، بأن يحرم يوحنا من الإرث . غير ان الكسيوس قرر ان يليه في الحكم ابنه يوحنا ؛ ولما دخل يوحنا على ابيه ليودعه الوداع الاخير ، أعطاه الكسيوس خاتمه وختم الامبراطورية ، فعجل يوحنا بالخروج من عند ابيه المائت ، كيما يستولي على ابواب القصر الامبراطوري . وحققت له هذه السرعة ما يبتغيه من جائزة ، إذ بادر الجيش والسناتو الى المناداة به امبراطوراً . ولم يلبث البطريرك ان صدّق على قرار الجيش والسناتو ، بأن احتفل بتتويج يوحنا في كنيسة القديسة صوفيا . وبذا لم يتحقق أمل أنه كومنين والامبراطورة الأم . غير ان يوحنا خشي على حياته من أنصارهما ، ولذا لم يشهد تشييع جنازة ابيه ، لاعتقاده بأنه جرى تدبير أمر اغتياله أثناء مراسم الدفن . ومن الدليل على ذلك ما حدث بعد بضعة ايام ، من قيام أنه كومنين على إعداد مؤامرة التخلص من يوحنا أثناء نزوله بقصر فيلوباتيوم ، بضاحية العاصمة ، حيث يتوافر الهدوء . على ان هذه المؤامرة انطوت على

نقطة ضعف خطيرة ، إذ استهدفت جعـــل نقفور برينيوس على عرش الامبراطورية ، غير انه كان عازفاً عن ولاية العرش ؛ والراجح انه هو الذي حذّر الامبراطور ، ولذا كان يوحنا رفيقاً فيما أنزله بالمتآمرين من عقوبة . والراجح ان الامبراطورة الأم لم تدرِ شيئاً عن المؤامرة ، ومع ذلك لجأت الى أحد الأديرة . وتقرر مصادرة ممتلكات كبـار أنصار أنه كومنين ، غير ان كثيرين منهم استعادوها فيما بعد . اما أنه ، فتجردت من ممتلكاتها فترة من الزمن ، ومنذئذ عاشت في عزلة تامة . ولم يتعرض نقفور للعقاب ، والتمس هو وزوجته (أنه كومنين) العزاء عن الحكم ، باتخاذ مهنة المؤرخ التي يقلّ الإقبال عليها[١] .

أضحى يوحنا مطمئناً في مركزه . كان في الثلاثين من عمره ، ضئيل الجسم ، نحيلاً ، اسود الشعر والعينين ، والملحوظ ايضاً انه كان أسمر البشرة . يهوى التقشف ، فلم يشارك فيما اشتهر به معظم أفراد أسرته من الميـل الى الأدب والمناقشات الدينية . على انه فوق كل ذلك ، كان جندياً يؤثر النهوض الى القتال على البقاء في القصر الامبراطوري . ومع ذلك ، اشتهر بكفايته وعدالته في الادارة . وبرغم مـا التزم به من التقشف ، كان سخياً على أصدقائه وعلى الفقراء ، مستعداً لأن يبدو فيما ينبغي ان يكون

---

(١) انظر : Anna Comnena, XV, XI. 1 - 23, pp. 229 - 242.
Zonaras, *III*. p. 759.

يتضاءل اثر الانحياز الشخصي في رواية زوناراس .

انظر ايضاً : Chalandon, op. cit. pp. 273 - 276.
Les Comnènes, pp. 1 - 8.

عليه الأمبراطور من الأبهة والعظمة . كان مُحبّاً لأسرته ، رفيقاً بها ، مخلصاً لزوجته الهنغارية الاميرة بيريسكا ، التي تنصّرت من جديد باسم ايرين . ولم يكن لها نفوذ عليه ، برغم مشاطرتها له فيا اتصف بـه من التقشف والاحسان . وكان أقرب الأصدقاء الى قلبه ، الدمستق الكبير ، اكسوخ التركي ، الذي وقع في الأسر صبياً ، عند الاستيلاء على نيقية سنة ١٠٩٧ ، فتربى في البلاط البيزنطي .

أدرك يوحنا ضخامة ما يتحمله الامبراطور من مسؤولية . خلّف له ابوه اسطولاً قوياً ، وجيشاً احسن تنظيمه وإعداده بالأسلحة ، برغم من انه تألف من عناصر مختلفة ، فضلاً عن خزانة عامرة بالمال الذي يكفل له المضي في سياسة نشطة . لم يشأ يوحنا فحسب ان يحافظ على اطراف الدولة ، بل اراد ايضاً ان يعيدها الى حدودها السابقة ، وأن يحقق دعاوى الامبراطور في شمال الشام [١] .

قام يوحنا بأول حملة له ، في ربيع سنة ١١١٩ ، لمهاجمة الترك ، فزحف بجيشه ، مخترقاً فريجيا ، واستولى على لاوديقا ، غير ان امراً عاجلاً حمله على العودة الى القسطنطينية ، ولكنه رجع بعد شهر ، فاستولى على سوذوبوليس (اولوبُرْلو الحالية في الأناضول) ، فأعاد بذلك فتح الطريق المؤدي الى أضاليا [٢] . وبينما تولى مهاجمة السلاجقة في الغرب ، دبّر امر الهجوم على

---

(١) انظر : Chalandon, op. cit. pp. 8 - 11, 19.

(٢) اسمها في العصور القديمة اتاليا ، واسمها التركي انطالية . انظر :
Setton : History of the Crusades, *II*. Index.

الدانشمنديين في الشرق . اذ ان قنسطنطين جابراس ، دوق أطرابزون أفاد من الشجار الذي وقع بين الامير غازي ، وصهره الامير التركي ابن مَنجو ، الذي استقر في طارتاغي بأرمينية ، فنهض لمساندة ابن منجو . غير ان غازي الذي تحالف مع طغرل امير ملطية أنزل الهزيمة بجابراس وأسره ، فكان لزاماً على جابراس ان يفتدي نفسه بأن يؤدي لغازي ثلاثين الف ديناراً . على ان مـا حدث من نزاع بين غازي وطغرل منع الترك من مواصلة انتصارهم [1] .

لم يستطع يوحنا ان يتدخل في امر الأناضول في السنوات القليلة التالية . وشهدت هذه السنوات ازدياد قوة الدانشمنديين ، التي اضحت تثير القلق . فحينما مات بلك الأرتقي ، زوج والدة طغرل امير ملطية ، وهو يقاتل في الجزيرة سنة ١١٢٤ ، بادر الامير غازي بالإغارة على ملطية وإضافتها الى ممتلكاته ، وفرح لذلك المسيحيون الوطنيون بملطية ، لما صادفوه في حكمه من الطمأنينة والعدالة . وتلى ذلك ما حـــدث من تحوله صوب الغرب ، فانتزع من البيزنطيين انقرة وجنجرة وقسطمونية ، وأمدّ سلطانه حتى ساحل البحر الاسود ، وإذ انفصل قنسطنطين جابراس بذلك عن القسطنطينية ، أفاد من عزلته بأن اعلن نفسه اميراً مستقلاً على اطرابزون . ووجّه غازي اهتمامه الى الجنوب ، عند وفاة الامير ثوروس الروبيني سنة ١١٢٩ ، وفي السنة التاليـة تحالف غازي مع الارمن ، وصرع بوهمند الثـاني امير انطاكية على نهر جيحان . ومهما يكن عند يوحنا من أفكار عن انطاكية ، فإنه لم يود ان تنتقل الى يد امير مسلم قوي . ولذا فإن مبادرته الى غزو

---

(١) انظر : Chalandon, op. cit. pp. 35 - 48.

بافلاجونيا ، منعت غازي من المضي في انتصاره . ووافاه الحظ الطيب ، بما نشب بين سلاجقة الاناضول أثناء تلك السنوات ، من منازعات أسرية أقعدتهم عن التدخل في امر انطاكية . ففي سنة ١١٢٥ نزع عرب أخاه السلطان مسعوداً من الحكم وحلّ مكانه . فهرب مسعود الى القسطنطينية ، حيث استقبله الامبراطور بكل مظاهر التشريف . ثم مضى الى صهره الدانشمند غازي ، فبذل له من المساعدة ما جعلته يستعيد عرشه بعد نضال استمر اربع سنوات . أما عرب فانه بدوره لجأ الى القسطنطينية ، حيث مات بها[1] .

وظل يوحنا يمضي كل سنة لقتال الدانشمند في الفترة بين ١١٣٠ ، ١١٣٥ . ولم تنقطع حملاته إلا مرتين بسبب مؤامرات اخيه اسحاق السيباستوكراتر ، الذي فرّ من البلاط سنة ١١٣٠ ، وأمضى السنوات التسع التالية في الاشتراك في التآمر مع مختلف الامراء المسلمين والارمن ، كما ان ما حدث من وفاة الامبراطورة فجأة سنة ١١٣٤ حمل الامبراطور يوحنا على ان يعود من الحروب . فاذا تحسن الموقف بوفاة الامير غازي في سبتمبر سنة ١١٣٤ ، كان الامبراطور قد استرد كل ما فقد من بلاد ، باستثناء جنجرة ، التي استعادها في الربيع التالي . لم يكن بوسع محمد بن غازي وخليفته في الحكم ان يقوم بالهجوم ، اذ منعه من ذلك ما نشب من منازعات أسَرية . ولم يسع مسعود ، بعد حرمانه من مساعدة الدانشمند

(١) انظر :
Chalandon, pp. 77 - 91.
Nicetas Choniates, p. 45.
Michael the Syrian, III. pp. 223 - 224, 237.

إلا ان يعقد الصلح مع الامبراطور [١] .

يوحنا كومنين يستعد لغزو الشام سنة ١١٣٧ :

وإذ التزم الترك بالاناضول الهدوء والسكينة ، أضحى يوحنا مستعداً للتدخل في امور الشام . غير انه كان لزاماً عليه قبل كل شيء ان يحمي مؤخرة جيشه . ففي سنة ١١٣٥ قدمت سفارة بيزنطية الى المانيا ، الى بلاط لوثير ، امبراطور الدولة الرومانية الغربية ، وعرضت هذه السفارة بالنيابة عن الامبراطور يوحنا على لوثير مقداراً كبيراً من المال ، اذا شن هجوماً على روجر الثاني ملك صقلية . واستمرت المفاوضات بضعة شهور ، وأسفرت عن موافقة لوثير على ان يهاجم روجر في ربيع سنة ١١٣٧ [٢] . والمعروف ان الهزيمة حلّت بالمجريين سنة ١١٢٨ ، وخضع الصربيون بعد حملة سنة ١١٢٩ ، وأضحت اسباب الدفاع عن الحوض الادنى لنهر الدانوب بنجوة من الاخطار [٣] . وانفرط ما كان بين البيازنة والنرمان ، من تحالف بمقتضى معاهدة سنة ١١٢٦ . وتحسنت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وبين البندقية وجنوه [٤] .

وفي ربيع سنة ١١٣٧ احتشد في أضاليا الجيش الامبراطوري ، بقيادة

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 14 - 15.
Nicetas Choniates, pp. 27 - 29.
Michael the Syrian, III. pp. 237 - 249.

(٢) انظر : Peter Diaconus, in M. G. H. Ss. vol. VII. p. 833.

(٣) انظر : Chalandon, op. cit. pp. 59 - 63.

(٤) انظر : Chalandon, op. cit. pp. 158 - 161.

الامبراطور يوحنا وابنه ، ثم تقدم صوب الشرق الى قليقية . وتولى الاسطول الامبراطوري حراسة جناحه . والواقع ان الدهشة استبدت بالارمن والفرنج سواء ، عند سماع نبأ اقتراب الجيش . اذ ان ليو الروبيني الذي يسيطر وقتذاك على السهل ، بشرقي قليقية ، نهض محاولاً وقف تقدم الجيش بأن استولى على معقل سلوقية الواقع على الطرف البيزنطي . غير انه اضطر الى الارتداد . أما الامبراطور فمضى في زحفه ، فبادرت مرسين وطرسوس وأذنة والمصيصة بالاذعان له ، واعتمد الامير ليو الارمني في صموده للبيزنطيين على استحكامات عين زربة المنيعة . إذ ظلت الحامية تقاوم لمدة سبعة وثلاثين يوماً ، غير انها أذعنت آخر الامر ، بعـــد ان دمرت أدوات الحصار البيزنطية أسوار المدينة ، عين زربة ، وتراجع ليو الى جبـــال طوروس الشاهقة فلم يحفل الامبراطور باقتفاء أثره اليها . ولما فرغ الامبراطور من إزالة قلاع ارمينية عديدة كانت تجاوره ، قـــاد قواته صوب الجنوب ، فاجتاز إسوس واسكندرونة ، وعبر الدروب السورية الى سهل انطاكية ، فظهر امام اسوار المدينة في ٢٩ اغسطس ، وعسكر على الشاطىء الشمالي لنهر الأورنت [١] .

---

(١) انظر :

Cinnamus, pp. 16 - 18.
Nicetas Choniates, pp. 29 - 35.
William of Tyre, XIV. 24, pp. 341 - 342.
Matthew of Edessa, CCLIV. p. 323.
Sembat the Constable, pp. 616 - 617.
Gregory the Priest, pp. 152 - 153.
Michael the Syrian, III. p. 45.
Ibn al - Athir, p. 424.
Ibn al - Qalanisi, pp. 240 - 241.

ريموند يعلن انتماءه الى الامبراطور البيزنطي سنة ١١٣٧ :

لم يكن بانطاكية اميرها ريموند بواتييه ، اذ توجه لإنقاذ الملك فولك من معتقله في بعرين ، وصحبه جوسلين كونت الرها ، ولما وصلا الى البقيعة علما باطلاق سراح الملك فولك . وكان فولك قد عزم على المضي الى انطاكية للقاء البيزنطيين ، غير انه آثر ان يعود الى بيت المقدس بعد ان تعرض للتجارب الاخيرة . وعجل ريموند بالعودة الى انطاكية ، حيث شرع الامبراطور في حصارها . غير ان الحصار لم يكتمل ، فاستطاع ريموند ان ينفذ مع حرسه الى داخل المدينة ، بعد ان اجتاز جسر الحديد الواقع اسفل القلعة .

وظلت المجانيق البيزنطية ترمي الاستحكامات بقذائفها أياماً عديدة ، ولم يأمل ريموند في مساعدة من خارج المدينة ، ولم يطمئن الى ميل السكان داخل الأسوار . بل ان عدداً كبيراً من البارونات ، ومنهم باروناته ، أخذوا يدركون حكمة ما سلكته أليس من سياسية مناهضة . ولم يمض إلا وقت قصير حتى بعث ريموند برسالة الى الامبراطور يوحنا كومنين يعرض الاعتراف به سيداً ، اذا جعل له الإمارة إقطاعاً امبراطورياً . غير ان يوحنا طلب في رده على ريموند الإذعان بدون قيد ولا شرط . ولم يسع ريموند عندئذ إلا ان يقول بأنه لا بد ان يستشير الملك فولك . فنفذت الرسائل

= (اراد الناشر ان يغير لفظة كيالياني، الواردة في متن الكتاب،والتي يقصد بها اللقب الذي اشتهر به يوحنا مانويل (Kaloioannes)، الى ايماتيال، وايمانويل). والواقع ان ابن القلانسي انما يتحدث في هذا الموضع عن يوحنا ، انظر : Ibn al - Qalanisi, p. 240, n. 2.

على عجل الى بيت المقدس . غير ان اجابة فولك لم تدع الى الأمل . إذ قال الملك : « نحن جميعاً نعلم ، وعلمنا شيوخنا منـــذ زمن طويل ، ان انطاكية ظلت جانباً من امبراطورية القسطنطينية ، حتى انتزعها الترك من الامبراطور ، فظلت بحوزتهم اربع عشرة سنة ، وكل دعاوى الامبراطور فيا عقده أسلافنا من معاهدات تعتبر صحيحة وسليمة . فهل يجوز الآن ان ننكر الحق ، ونعارض ما يعتبر صحيحاً ؟ » . ولم يسع ريموند ان يمضي اطول من ذلك في مقاومته ، بعـــد ان بذل له النصيحة الملك فولك ، الذي يعتبره سيده الأعلى . وأنس رسله من الامبراطور يوحنا استعداداً لبذل امتيازات . وتقرر ان يقدم ريموند الى معسكر الامبراطور ، وان يبذل له يمين الولاء كاملة ، بأن يصير رجله ، وان يجيز للامبراطور حرية الدخول الى المدينة والقلعة . يُضاف الى ذلك انه اذا استولى البيزنطيون بمساعدة الفرنج على حلب والبلاد المجاورة ، فان ريموند يبادر الى ان يعيد انطاكية الى الامبراطورية ، على ان يحصل عوضاً عنها ، على إمارة تتألف من حلب وشيزر وحماه وحمص . فلم يعترض ريموند ، ثم أقبل وركع امام الامبراطور ، وبذل له التبعية . وعندئذ لم يصرّ الامبراطور يوحنـــا على الدخول الى انطاكية ، غير ان العلم الامبراطوري ارتفع بأعلى القلعة [١] .

---

(١) انظر :
William of Tyre, XIV. 30, pp. 651 - 653.
Orderic Vitalis, XIII. 34, pp. 99 - 101.
Cinnamus, pp. 18 - 19.
Nicetas Choniates, pp. 36 - 37.

دلّت المفاوضات على مـــا يشعر به الفرنج من الضيق والقلق نحو الامبراطور ، إذ ان إجابة فولك أملتها ، فيما يبدو ، ما تطلّبه الوقت من ضروريات مباشرة . كان يعلم جيداً أن زنكي هو العدو الاكبر لمملكة الفرنج ، ولذا لم يشأ ان ينزل الهوان بالقوة المسيحية الوحيدة القادرة على وقف تقدم المسلمين . ولعل الملكة ميليسند ايضاً بذلت نفوذها لمصلحة السياسة التي تذرّعت بها اختها أليس ، والتي تذلّ الرجل الذي مكر بهـا . على ان قرار فولك يعتبر ، فيما يبـدو ، إعراباً عن وجهة نظر رجال القانون عنده . فعلى الرغم من كل ما بذله بوهمند الاول من دعاية ، فان الصليبيين الأوفياء اعتقدوا ان المعـــاهدة التي انعقدت بين الامبراطور الكسيوس وآبائهم بالقسطنطينية ، لا زالت نافذة المفعول . وكان لا بد لأنطاكية ان تعود الى الامبراطورية . وما أقدم عليه بوهمنـــد وتانكرد ، من انتهاك الأيمان التي بذلاها ، أضاع منها كل ما التمساه من دعاوى . على ان هذه الفكرة الامبراطورية ، بلغت من التطرف ما لم يطرأ على خاطر الامبراطور ذاته . فالمعروف ان حكومة الامبراطور اشتهرت دائماً بالواقعية ، فأدركت انه ليس من الخير ، ولا من الامور العمليـة ، ان تحاول طرد الفرنج من انطاكية ، دون ان تبذل لهم تعويضاً . يضاف الى ذلك ، انها أرادت ان تقيم على امتداد الحدود إمارات تابعـــة ، يتحكم الامبراطور في سياستها العامة ، وتتحمل في الوقت ذاته صدمة هجمات العدو . ولذا لم يقم الامبراطور دعاويه على المعاهدة التي سبق ان انعقدت بالقسطنطينية ، بل أقامها على المعاهدة التي أبرمها مع بوهمند في ديفول . فطالب بإذعان انطاكية بدون قيد ولا شرط ، كأنه طلب ذلك من تابع متمرد ، غير انه كان مستعداً لأن يبقي

على انطاكية إمارة تابعة . وما كان يرمي اليه من غرض مباشر ، هو انه لا بد ان تتعاون معه في حملاته على المسلمين[1] .

وإذ صار الوقت متأخراً ليقوم يوحنا بحملته في هذه السنة ، عاد الى قليقية ليفرغ من فتحها ، بعد ان وّطد سلطانه ، ففرّ من وجهه أمراء بيت روبين الى جبال طوروس الشاهقة ، ولجأ ثلاثة من أبناء ليو ، وهم : مليح ، واستيفن ، وقنسطنطين الضرير ، الى ابن عمتهم جوسلين كونت الرها . اما قلعة الأسرة في فاهكا ، فظلت أسابيع تقاوم الحصار ، بزعامة قائدها الباسل قنسطنطين ، الذي أثار كل الجيش الامبراطوري ، باشتباكه في القتال مع قائد الفصيلة المقدونية . على ان ليو وولديه الكبيرين : روبين وثوروس ، وقعوا في الأسر عقب سقوط القلعة ، وجرى إرسالهم الى السجن بالقسطنطينية . ولم يلبث قنسطنطين ان لقي مصرعه ، بينما ظفر ليو وثوروس بعطف الامبراطور ، فأجاز لهما ان يعيشا في البلاط تحت إشرافه . ومات ليو بعد اربع سنوات ، اما ثوروس فهرب فعلاً من البلاط ، وعاد الى قليقية . ولما أتمّ الامبراطور يوحنا فتح الإقليم ، أمضى الشتاء في سهل قليقية ، حيث قدم بلدوين صاحب مرعش لبذل يمين التبعية له ، ولالتماس الحماية من الأتراك . وتوجهت في نفس الوقت سفارة من قبل الامبراطور الى زنكي ، لتوهمه ان البيزنطيين ليسوا راغبين في ان يبادروا بمهاجمته .

---

(١) انظر : Chalandon, op. cit. pp. 122 - 127, 130 - 133.
انظر ما يلي .

المسيحيون يلقون الحصار على شيزر ، سنة ١١٣٨ :

وفي فبراير ، في السنة التـالية (١١٣٨) ، وبمقتضى أوامر من الإمبراطور ، اعتقلت السلطات في انطاكية فجأة ، كل التجار والمسافرين القادمين من حلب والبلاد الاسلامية المجاورة ، حتى لا ينهوا الى أوطانهم ما شهدوه من التدابير الحربية . وحوالي نهـاية شهر مارس ، تحرك جيش الامبراطور الى انطاكية ، فانحاز اليه بها عساكر امير انطاكية وكونت الرها ، فضلاً عن كتيبـة من الداوية . وفي أوائل ابريل سنة ١١٣٨ ، عبرت القوات المتحالفة الى بلاد العدو ، فاحتلت مدينة البلاط . وفي اليوم الثالث من شهر ابريل ، ظهرت هـذه القوات امام البزاعة ، التي ظلت زوجة قائدها تقـاوم مدة خمسة ايام . وانقضى اسبوع آخر على تطويق المسلمين بالمنطقة ، فلجأ معظمهم الى مغائر الباب ، فأخذ البيزنطيون يثيرون عليها الدخان حتى هلك كل من فيها خنقاً .

كان زنـكي وقتذاك ينزل بعساكره امام حمـاه ، يحاول طرد حاميـة دمشق منها ، فأخطرته كشافته بغارات المسيحيين ، فعجّل بإرسال العساكر بقيادة سوار ، لتعزيز حامية حلب . وكان الامبراطور يوحنا يأمل في ان يباغت حلب ، غير انه لما صار امام أسوارها في ٢٠ ابريل ، وقـام بمهاجمتها ، تبين له انها منيعة الاستحكامات ، فعزم على ألا يتجشم متاعب حصارها . فتوجه صوب الجنوب ، واحتـل الأثارب في ٢٢ ابريل سنة ١١٣٨ ، ومعرة النعمان في ٢٥ ابريل ، وكفرطاب في ٢٧ ابريل . ثم أضحى جيشه عند ابواب شيزر في ٢٨ ابريل سنة ١١٣٨ .

وكانت شيزر للامير ابي العساكر سلطان ، من بني منقذ ، وقد حرص

على ان يحافظ على استقلاله عن زنكي . ولعل الامبراطور يوحنا كان يأمل ، تبعاً لذلك ، ألا يحفل زنكي بمصير المدينة . على ان تملك شيزر ، يجعل للمسيحيين السيطرة على الوادي الأوسط لنهر الاورنت ، ويمنع زنكي من مواصلة التقدم في الشام . استهل البيزنطيون حصار المدينة بهمة كبيرة ، وسرعان ما احتلوا جانباً من أسفل المدينة . وجلب الامبراطور المجانيق الكبيرة لتقذف المدينة العليا ، الواقعة على تل شديد الانحدار يطل على نهر الاورنت . وقد أطرت المصادر اللاتينية والاسلامية شجاعة الامبراطور ونشاطه ، وكفاية الرمي بالمجانيق ؛ فتراءى كأنما كان حاضراً في كل مكان ، بقلنسوته الذهبية ، يتفقد أدوات القتال ، ويشجع المهاجمين ، ويواسي الجرحى . وشهد أسامة ، ابن أخ امير شيزر ، ما ألحقته المجانيق اليونانية بالمدينة من أضرار بالغة ، إذ ان دوراً بأسرها دمّرتها قذيفة واحدة ، بينما هوَت السارية الحديدية التي ارتفع عليها لواء الامير ، فنفذت الى صدر رجل كان سائراً بالطريق ، فقضت عليه [1] .

على انه ، برغم ان التعب لم يحلّ بالامبراطور البيزنطي ومهندسيه ، تراجع الفرنج . ذلك ان ريموند خشي انه اذا سقطت شيزر في أيدي

---

(١) اورد اسامة ما يأتي :

« ولقد رموا داراً ، فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد. وكان على برج في دار الامير قنطارية فيها راية منصوبة، وطريق الناس في الحصن من تحتها، فضرب القنطارية حجر المنجنيق وكسرها من نصفها . وانقلب كسرها الذي فيه السنان تتكس ووقع الى الطريق ، ورجل من اصحابنا عابر، فوقع السنان من ذلك العلو ، وفيه نصف القنطارية ، في ترقوته خرج الى الارض وقتله ».

أنظر اسامة بن منقذ : الاعتبار – نشر حتي ، برنستون ١٩٣٠ ، ص ١١٣ .

المسيحيين ، يصح ان مُجبَر على ان يقيم بها على الخط الأمامي للعالم المسيحي ، وان يتخلى عن مباهج انطاكية وألوان الدعة بها . اما جوسلين الذي يكنّ في قرارة نفسه الكراهية لريموند ، فانه لم يودّ ان يراه مستقراً في شيزر ، وفي حلب فيما بعد . وما ردّده جوسلين من شائعات ، شجّع ما اشتهر به ريموند من الميل الى الكسل والخمول ، وزاد في ارتيابه في البيزنطيين . فصار الاميران اللاتينيان يقضيان الوقت في لعب النرد بخيمتيهما ، بدلاً من الاشتراك في القتال . وما وجّهه لهما الامبراطور من التقريع والتأنيب ، حملهما على ان يؤديا من الواجب والنشاط ما لم يستمر طويلاً . وفي تلك الأثناء تخلى زنكي عن حصار حماه ، ومضى الى شيزر ، وهرعت رسله الى بغداد ، حيث لم يشأ السلطان اول الامر بذل المساعدة ، حتى أجبرته ثورة الجماهير وصياحهم بالدعوة الى الجهاد ، على ان يرسل حملة لقتال الفرنج . ووعد الامير داود الارتقي ، بأن يرسل من الجزيرة جيشاً مؤلفاً من خمسين الف تركماني . وجرى إنفاذ الرسائل الى الامير الدانشمند ، تدعوه الى الإغارة في الأناضول حتى ينصرف البيزنطيون عن القتال في شمال الشام . يضاف الى ذلك ان زنكي أحاط علماً بما بين البيزنطيين والفرنج من منازعات ، إذ ان عملاءه في الجيش المسيحي ، أضرموا نار الحقد بين الأمراء اللاتين والامبراطور .

وبرغم ما بذله الامبراطور يوحنا من جهود ، فان صخور شيزر شديدة الانحدار ، وبسالة المدافعين عنها ، وكراهية الفرنج للامبراطور ، كل ذلك أنزل به الهزيمة . فاقترح عليه بعض حلفائه ان يمضي للقاء زنكي ، الذي يقلّ جيشه في العدد عن الجيش المسيحي . غير انه رفض ان يترك أدوات الحصار دون حراسة ، كما انه لم يعد يثق في الفرنج . كانت المخاطرة

بالغة الشدة ، حاول ان يستولي على كل المدينة السفلى ، ثم حدث في ٢٠ مايو ، ان امير شيزر أرسل يعرض عليه ان يدفع تعويضاً كبيراً ، وان يهديه أجود أفراسه ، وأثواباً من الحرير ، وأثمن تحفتين بحوزته ، وهما مائدة مرصعة بالجواهر ، وصليب مطعم بالياقوت أخذه من الامبراطور رومانوس ديوجنيس في معركة مانزيكرت قبل سبع وستين سنة . ووافق ايضاً على ان يعترف بالامبراطور سيداً أعلى ، وان يؤدي له الجزية كل سنة . وإذ اشتدت كراهية يوحنا للفرنج ، لم يسعه إلا قبول هذه الشروط ، فأمر برفع الحصار عن شيزر في ٢١ مايو سنة ١١٣٨ . ولما تحرك جيش الامبراطور الضخم عائداً الى انطاكية ، أقبل زنكي نحو شيزر ، غير انه لم يخاطر بالتدخل أثناء ارتداد البيزنطيين ، فيما عدا ما حدث من بعض مناوشات خفيفة (١) .

لما وصل الجيش البيزنطي الى انطاكية ، أصرّ الامبراطور يوحنا على ان يدخل المدينة في موكب كبير ، فامتطى صهوة جواده ، وسار في خدمته على

---

(١) انظر : William of Tyre, XV. 1 - 2, pp. 655 - 658.
Cinnamus, pp. 19 - 20.
Nicetas Choniates, pp. 37 - 41.
Michael the Syrian, loc. cit.
Usama, ed. Hitti, pp. 26, 124, 143 - 144.
Ibn al - Qalanisi, pp. 248 - 252.
Kemal ad - Din, pp. 674 - 678.
Ibn al - Athir, pp. 426 - 428.
وورد في القصيدة التي هنأ فيها الشاعر برودموس الامبراطور ، ان سوء الاحوال الجوية هي التي انقذت شيزر . انظر : (M. P. G. vol. CXXXIII. cols. 1344 - 1349).

جانبيه ، امير انطاكية وكونت الرها ، فاستقبله عند باب المدينة البطريرك ورجال الدين ، فشقوا شوارع المدينـة التي ازدانت بالأعلام ، حتى بلغوا الكاثدرائية حيث جرى القداس ، ثم توجه الامبراطور الى القصر الذي اتخذه مقراً له ، فاستدعى اليه ريموند . وبعد ان أشار الى ان الامير (ريموند) لم يفِ بواجباته على انه تابع ، في الأحداث الأخيرة ، طلب ضرورة السماح لجيشه بالدخول الى المدينـة (انطاكية) ، وتسليم القلعـة له . ثم قال ان الحملات المقبلة التي تتوجه لقتال المسلمين ، لا بد من رسم خطتها بأنطاكية ، وانه لفي حاجة الى القلعـــة ، ليودعها أمواله وذخائره . استبد الفزع بالفرنج ؛ وبينما التمس ريموند منه مهلة ليتدبر هذا الطلب ، تسلل جوسلين الى خـارج القصر . وإذ أضحى جوسلين بالخارج ، أخطر عساكره بأن يذيعوا بين سكان المدينة من اللاتين ، شائعة بأن الامبراطور يطلب طردهم من المدينة على الفور ، وطلب اليهم جوسلين ايضاً ان يحرّضوا السكان على مهاجمة السكان اليونانيين . ولم تكد الفتنة تشتعل ، حتى انطلق راجعاً الى القصر ، وأخذ يصيح منادياً الامبراطور يوحنا ، انه جاء ، وقد تعرضت حياته للخطر . لينذر الامبراطور بالخطر الذي يتهدده .

لا شك انـــه وقع في الشوارع اضطراب خطير ، وتعرض للذبح اليونانيون الذين لم يأخذوا حذرهم . وفي الشرق لا يُعرف على وجه الدقة متى تنتهي الثورة او الفتنة . لم يشأ يوحنا ان يتعرض اليونانيون بالمدينة للخطر ، ولم يحب من جانبه ان يبقى مع حرسه في القصر ، وقد انقطع الاتصال بجيشه الأساسي على الشاطىء الآخر لنهر الاورنت . يضاف الى ذلك ، انه بفضل دبلوماسية زنكي ، علم ان سلاجقة الروم غزوا قليقية ، وأغاروا على أذنة . لقـــد اكتشف سر مكر جوسلين ؛ غير انه لا بد

للامبراطور ان يتحقق من سلامة مواصلاته ، قبل ان يبـادر الى قطع صلته نهائياً باللاتين . فأرسل يدعو اليه ريموند وجوسلين ، وقـال لهما انه لن يطلب منهما في الوقت الراهن ، سوى تجديد يمين التبعية التي سبق ان أقسماها ، وانه لا بد ان يعود على الفور الى القسطنطينية . ثم غادر يوحنا القصر ليلحق بالجيش ، وبادر الاميران ريموند وجوسلين الى قمع الفتنة في الحال ، غير انهما مـا زالا ثائرين ، وشديدي الحرص على استعادة نيـة الامبراطور الطيبة . على ان ريموند عرض قبول موظفين من قبل الامبراطور بالمدينة (انطاكية) ، بعد ان صدق زعمه بأن الامبراطور سوف لا يقبل هذا العرض الذي لا ينطوي على شيء من الاخلاص والصدق . ولم يلبث الامبراطور بعدئذ ان ودّع ريموند وجوسلين ، بمـا أظهره من صداقة زائفة ، وبمـا كان من كراهية متبادلة . ثم قاد يوحنا جيشه راجعاً الى قليقية [١] .

وما هو جدير بالذكر انه لم تجرِ الاشارة الى الكنيسة في كل مفاوضات يوحنـا عن انطاكية . والمعروف انه تقرر في معاهدة ديفول ، إعادة البطريركية بأنطاكية الى البطاركة اليونانيين . والواضح ان سلطات الكنيسة اللاتينية كانت تخشى ان يصرّ الامبراطور على نص معـاهدة ديفول . ومن المحقق ان البابا أنوسنت الثاني ردّ على استنجاد اهل انطاكية به ، بمـا أصدره في مارس سنة ١١٣٨ ، من أمر يقضي بمنع كل من ينتمي

---

(١) انظر : William of Tyre, XV. 3 - 5, pp. 658 - 665.

لم يشر الى هذه المؤامرة مؤرخ آخر ، سوى العظيمي . Al - Azimi, p. 352.

لكنيسته من البقاء مع الجيش البيزنطي ، اذا اتخذ إجراء لمناهضة السلطات اللاتينية في انطاكية . ولا بد ان الامبراطور يوحنا لم يرغب في ان يثير أي اضطراب ديني إلا بعـــد ان يرتكز الى أرض صلبة من الناحيتين السياسية والاستراتيجية . فلو انه نجح في ان يجعل لريموند إمارة عوضاً عن انطاكية ، لأضحى بوسعه ان يعيد البطريرك اليوناني الى المدينة . غير انه في الواقع تجاهل وجود البطريرك اللاتيني ، حينما أقبل هذا البطريرك ، وهو رادولف دومفرونت ، يحييه ويرشده الى القداس بالكاثدرائية [١] .

الامبراطور يوحنا في بلاد الأناضول ، ١١٣٩ – ١١٤٠ :

ارتحل يوحنا في بطء عائداً الى القسطنطينية ، بعـد ان أنفذ جانباً من جيشه لتأديب مسعود السلجوقي ، لما قام به من الإغارة على قليقية . فطلب مسعود عقد الصلح ، وتعهّد بدفع التعويض . وفي سنتي ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، انصرف الامبراطور الى الامير الدانشمند ، الذي يفوق في الخطورة مسعوداً السلجوقي . لم يكتفِ محمد الدانشمند بأن يغزو ، في سنة ١١٣٩ قليقية العليا وينتزع قلعة فاهكا ، بل قاد ايضاً حملة ، سار بها صوب الغرب حتى نهر صنغاري . وحرس جنـــاحه الشمالي ، ما أجراه من تحالف مع

---

(١) انظر : William of Tyre, XV. 3, p. 659.
Ibn al - Qalanisi, p. 245.

يشير ابن القلانسي الى ان الامبراطور يوحنـــا طلب تنصيب بطريرك يوناني في انطاكية . والراجح انه خلط بين مطالب يوحنا ، وبين مطالب مانويل فيما بعد . اما رسالة انوسنت المؤرخة في ٢٥ مارس سنة ١١٣٨ ، فانها وردت في :

Cartulaire du Saint Sepulcre, ed. Rozière, p. 86.

قنسطنطين جابراس دوق اطرابزون المتمرد . على ان الامبراطور يوحنا استطاع في أثناء صيف سنة ١١٣٩ ، ان يطرد الدانشمنديين من بثينيا وبافلاجونيا ، ثم زحف في الخريف على امتداد ساحل البحر الأسود صوب الشرق . فلم يسع قنسطنطين جابراس إلا الإذعان والخضوع ، فاتجه جيش الامبراطور الى داخل البلاد ، ليحاصر نقصار حصن الدانشمند . كانت عملية شاقة ، إذ ان الطبيعة وهبت الحصن المتانة ومناعة الدفاع ؛ ففي تلك البلاد الجبلية الموحشة ، كان من العسير ان تبقى المواصلات سالكة . وحزن الامبراطور يوحنا لما تعرضت له عساكره من خسائر فادحة ، ولما حدث من انسحاب يوحنا ، ابن اخيه اسحاق ، الى صفوف العدو ، فأشهر اسلامه ، وتزوج من ابنة مسعود . وزعم السلاطين العثمانيون انهم ينحدرون منه . وفي خريف سنة ١١٤٠ ، تخلى يوحنا عن المضي بالحملة ، وعاد بجيشه الى القسطنطينية ، وقد عزم على ان يستأنف القتال من جديد في السنة التالية . غير انه حدث في السنة التالية ، أن مات الامير محمد ، وأن نشب من الفتن الداخلية بين الأمراء الدانشمند ، ما منع مؤقتاً القيام بإجراء تخومهم . وصار بوسع يوحنا كومنين ان يتفرغ الى مشروعاته الكبرى ، وان يلتفت مرة اخرى الى سوريا[1] .

على إن ما حازته حملته على المسلمين بالشام ، سنة ١١٣٧ ، من نتائج باهرة ، لم تلبث ان ضاعت . ذلك ان زنكي استرد كفرطاب من الفرنج في مايو سنة ١١٣٧ ، واستعاد معرة النعمان وبزاعة والأثارب في الخريف .

---

(١) انظر : Nicetas Choniates, pp. 44 - 49.
Michael the Syrian, III. p. 248.

وفي السنوات الاربع التالية ، التي انصرف فيها زنكي لمحاولة الاستيلاء على دمشق ، لم يحاول الفرنج ، لتواكلهم وكسلهم ، ان يفيدوا من المتاعب التي يعانيها . فعلى الرغم من تبادل الغارات كل سنة بين ريموند امير انطاكية ، وسوار صاحب حلب ، على بلاد كل منهما الآخر ، لم يقع بينهما اشتباك حاسم [1] . بينما نعمت كونتية الرها بهدوء وسلام نسبيين ، نظراً لما وقع بين الأمراء المسلمين من منازعات بالغة العنف على الحدود ، وزاد من حدتها وفاة محمد الدانشمند . وتراءى للامبراطور يوحنا ، الذي كان يرقب من القسطنطينية ما يجرى من الأحداث ، انه بات واضحاً انه لم يعد للفرنج بشمال الشام أهمية ، باعتبارهم جنود العالم المسيحي .

عزل البطريرك رادولف سنة ١١٣٩ :

كان استخفاف ريموند الظاهر يرجع من جهة الى افتقاره الى القوة الضاربة ، ومن جهة اخرى الى نزاعه مع البطريرك رادولف . فلم يحرص مطلقاً على الوفاء باليمين التي أقسمها على ان يطيع البطريرك في كل الامور . وما اتصف به رادولف من الغطرسة أثار غضبه وسخطه . وظفر بحلفاء بين هيئة الكاتدرائية ، يتزعمهم رئيس الشمامسة لامبيرت ، وقسيس من كلابريا اسمه ارنولف . وبتشجيع ريموند ارتحلا الى روما ، حوالي نهاية سنة ١١٣٧ ، ليرفعا شكواهما حول انتخاب رادولف المخالف لقانون الكنيسة . ولما اجتازا بلاد الملك روجر ، لجأ ارنولف ، الذي كان

---

(١) انظر : Kemal ad - Din, pp. 681 - 685.

من رعاياه منذ ولد ، الى إثارته على رادولف ، بأن أشار الى ان رادولف استخلص لريموند عرش انطاكية ، الذي كان روجر الثاني يطمع بالفوز به . وكان لزاماً على رادولف ان يقتفي أثرهما الى روما ليبرىء نفسه . فلما وصل رادولف الى جنوب ايطاليا ، ألقى روجر القبض عليه . غير ان ما اشتهر به رادولف من رقة الطبع ، وذلاقة اللسان ، أدى الى ان يكسب روجر الى جانبه . ثم مضى الى روما حيث انتصرت رقته مرة اخرى ، إذ ألقى من تلقاء نفسه بردائه الكهنوتي على منبح كنيسة القديس بطرس ، ثم تلقاه من جديد من البابا . ولما اجتاز جنوب ايطاليا ، في طريق عودته الى كرسي البطريركية بأنطاكية ، عامله الملك روجر على انه ضيف عزيز . غير انه لما وصل الى انطاكية ، رفض رجال الدين ، بتأييد ريموند ، ان يقدموا له التحية التقليدية عند الالتقاء به على ابواب المدينة . على ان رادولف الرجل الوديع الذي تعرّض للإهانة ، فطن الى الالتجاء الى دير قرب السويدية ، حيث بقي به الى ان دعاه جوسلين كونت الرها ، الذي يحرص دائماً على إحراج ريموند امير انطاكية ، الى ان يقوم بزيارة حافلة الى عاصمته ، الرها ، حيث استقبله رئيس الأساقفة ، باعتباره سيده الروحي . ولم يلبث ريموند ان رأى ان من الأسلم له ان يحمله على العودة الى انطاكية ؛ فلما عاد جرت تحيته بكل ما كان يبتغيه من التشاريف .

غير ان التحقيق في أمر وضعه بدأ من جديد في روما ، بفضل إثارة وتحريض ريموند . ففي ربيع سنة ١١٣٩ ، تقرر إرسال بطرس ، رئيس أساقفة ليون ، لينظر القضية في مكانها . غير ان بطرس الذي كان طاعناً في السن ، توجه اول الامر لزيارة الأماكن المقدسة ، ومات بعكا وهو في

طريقه الى الشمال . وأخجلت وفـــاته خصوم رادولف ، بل ان ارنولف الكلابري أعلن خضوعه له . غير ان رادولف رفض في كبرياء قبول هذا الإذعان ، وعندئذ استشاط ارنولف غضباً ، فعاد الى روما ، وحرض البابا على ان يبعث قاصداً آخر ، هو البريك ، اسقف اوستيا . ووصل المندوب البابوي الجديد الى انطاكية في نوفمبر سنة ١١٣٩ ، فبادر على الفور بالدعوة الى عقد سَينَوذ (مجمع) ، شهده جميع رجال الكنيسة اللاتينية بالشرق ، ومنهم بطريرك بيت المقدس . والواضح ان شعور السينوذ كان في جانب الامير ريموند ورجال الدين المنشقين . فرفض رادولف عندئذ ان يشهد جلسات السينوذ ، التي انعقدت في كاتدرائية القديس بطرس بأنطاكية ؛ ولما حاول نصيره الوحيد سيرلون ، رئيس أساقفة أفامية ، ان يدافع عن البطريرك ، تقرر طرده من المجمع .

ولما لم يستجب رادولف للدعوات الثلاث للمثول امام المجمع ، للرد على التهم الموجهة اليه ، تقرر عزله عن العرش البطريركي . وانتخب المجمع رئيس هيئـــة الكاتدرائية ، وهو ايمري من ليموج ، ليحل مكان رادولف في البطريركية ، وكان ايمري رجلاً غليظاً ، نشيطاً ، يكاد يكون أمياً . وعلى الرغم من ان ما أصابه من ترقية وتقـــدم في وظائف الكنيسة يدين بهما الى رادولف ، فانه رأى ان من الحكمــة ان يكون على وفاق مع ريموند . على ان ريموند ألقى في الحبس ، البطريرك السابق ، رادولف ، بعد عزله من البطريركية . غير ان رادولف استطاع ، فيما بعد ، ان يهرب من الحبس ، واتخذ طريقه الى روما ، حيث ظفر مرة اخرى بعطف البابا والكرادلة ؛ غير انه مات مسموماً فيما زعموا ، في سنة ١١٤٢ ، قبل ان يفيد من مساندتهم في عودته الى البطريركية . وهـــذا الحادث كفل لريموند اخلاص كنيسة

انطاكية في التعاون معه . غير ان ما تعرض له البطريرك من معاملة بالغة العنف ، خلفت وراءها أثراً بغيضاً ، ولا سيا بين رجال الكنيسة الذين كانوا أشد الناس كراهية لريموند [١] .

الامبراطور يوحنا يعود الى قليقية ، سنة ١١٤٢ :

في ربيع سنة ١١٤٢ ، كان الامبراطور يوحنا متأهباً للعودة الى الشام . وقام بحماية مؤخرة جيشه ، مثلما حدث سنة ١١٣٦ ، بعقد محالفة مع الملك الالماني ضد روجر الثاني ملك صقلية . إذ توجه رسله لزيارة بلاط كنراد الثالث الذي خلف لوثير في الحكم ، فأعدّوا الترتيبات اللازمة ، وأكدوا الصداقة بعقد مصاهرة . ثم عاد رسل الامبراطور يوحنا في سنة ١١٤٢ ، برفقة برثا سولتسباخ ، شقيقة زوجة الملك كنراد ، والتي اتخذت اسم ايرين ، بعد ان أضحت زوجة لمانويل ، أصغر أبناء الامبراطور يوحنا . واطمأن يوحنا ايضاً الى ما توافر من نية طيبة عند المدن الايطالية البحرية [٢] . وفي ربيع سنة ١١٤٢ ، قاد الجيش الامبراطور يوحنا وأبناؤه ، فاجتازوا بلاد الأناضول الى أضاليا ، فردّوا السلاجقة ورعاياهم من التركمان ، الذين حاولوا مرة اخرى ان يشقوا طريقهم الى فريجيا ، وان يعززوا وسائل الدفاع بها . على انه حلّت بالامبراطور يوحنا

---

(١) انظر : William of Tyre, XIV. 10, pp. 619 - 620.
XV. 11 - 16, pp. 674 - 685.

يعتبر وليم الصوري مصدرنا الوحيد في هذه النقطة .

(٢) انظر : Chalandon, op. cit. pp. 161 - 162, 171 - 172.

خسارة فادحة ، بينما كان ينتظر في أضاليا ؛ ذلك ان ابنه الاكبر ووريثه في الحكم ، الكسيوس ، خر مريضاً ومات بها . فتولى ولداه الثاني والثالث ، اندرونيق واسحاق ، مرافقة الجثة عند نقلها بحراً الى القسطنطينية ، غير ان اندرونيق مات ايضاً في الطريق [١] .

وبرغم حزن يوحنا وأساه ، اندفع نحو الشرق قاصداً قليقية العليا ، ليسترد الحصون التي سبق ان انتزعها الدانشمنديون ، إذ لم يشأ ان يثير مخاوف الفرنج [٢] . وسار الجيش متثاقلاً ، فاجتاز قليقيــة ، وسلسلة جبال الأمانوس العليا ، المعروفة باسم جياور داغ ، ثم ظهر فجأة في منتصف سبتمبر عند تل باشر ، الحاضرة الثانية لجوسلين كونت الرها . اما جوسلين الذي أذهلته المفاجأة ، فانه هرع الى الامبراطور ، يبذل له يمين التبعية ، ويعرض ابنته ايزابيلا لتكون رهينة عنده . وعندئذ استدار الامبراطور يوحنا نحو انطاكية ، حتى اذا كان يوم ٢٥ سبتمبر ، بلغ بغراس ، وهي

---

(١) انظر : Cinnamus, p. 24.
Nicetas Choniates, pp. 23 - 24.

يشير المؤرخ كيناموس الى مـا عزم عليه الامبراطور يوحنا من جعل الكسيوس وريثاً له في الامبراطورية ، غير انه حرص على ان يكون لمانويل ، اصغر ابنـائه ، امارة مؤلفة من انطاكية وأضاليا وقبرص .

(٢) انظر : William of Tyre, XV. 19, p. 688.

يشير وليم الصوري الى ان ريموند امير انطاكية لم يدعُ الامبراطور يوحنا للتدخل إلا لخوفه من زنكي . امـا نكيتاس جونياتس فيتحدث عن الامبراطور بأنه أخفى خططه ، وانه وصل فجأة الى الشام .

انظر : (William of Tyre, ibid, p. 689).

حصن كبير للداوية يتحكم في الطريق المؤدي من قليقية الى انطاكيـة . ومنها أرسل الى ريموند يطلب منه ان يسلم له كل المدينة (انطاكية) ، وكرر ما سبق ان عرضه عليه ، بأن يجعل من فتوحه المقبلة إمارة له .

انزعج ريموند ، إذ صار مؤكداً ان الامبراطور عزم وقتذاك على ان يقرن طلباته بالقوة ، وتراءى ان المسيحيين الوطنيين كانوا مستعدين لمساندة البيزنطيين . وحاول الفرنج ان يكسبوا الوقت ، فرد ريموند انـه لا بد ان يستشير أتباعه . فغيّر بذلك نهائياً وضعه القانوني ، الذي سبق ان استند اليه في سنة ١١٣١ . إذ انعقـــد مجلس في انطاكية ، أعلن فيه الأتباع ، بتحريض البطريرك الجديد فيما يبدو ، ان ريموند لم يحكم انطاكية إلا باعتباره زوجاً لوارثة الامــــارة ، ولذا ليس له الحق في التخلي عن بلادها ، بل انه ليس بوسع الامير والاميرة معاً ، ان يتنازلا عن الامارة ولا ان يستبدلا بها غيرها إلا بموافقة أتباعهما ، الذين سوف يقصونهما عن الحكم اذا حاولا الإقدام على ذلك . على ان اسقف جبلة ، الذي حمل الى الامبراطور يوحنـــا ردّ المجلس ، عزّز رفض طلب الامبراطور ، استناداً الى سلطة البـــابا ، غير انه عرض على الامبراطور يوحنا ان يدخل في موكب الى انطاكية . هـــذه الإجابة التي تناقض تماماً ما سبق ان اتخذه ريموند من اجراءات ، لم تترك للامبراطور يوحنا بديلاً عن الحرب . غير ان الزمن بلغ من التقدم ما يحول دون المبادرة الى القيام بعمل مباشر . وبعد ان قام يوحنا بنهب ما يجاور انطاكية من أملاك الفرنج ، انسحب الى قليقية لاستعادة القـــلاع التي سبق ان استولى عليها الدانشمنديون ،

وكيما يقضي بها فصل الشتاء[1] .

أرسل يوحنا من قليقية سفارة الى الملك فولك في بيت المقدس ، تنهي اليه رغبته في القيام بزيارة الأماكن المقدسة ، وحرصه على ان يناقش الملك في القيام بعمل مشترك لمناوأة المسلمين . استبدت الحيرة بالملك فولك ، لأنه لم يشأ ان يهبط جيش الامبراطور الكبير الى فلسطين ، إذ لا شك ان ثمن مساعدة الامبراطور لن يكون سوى الاعتراف بسيادته . فأنفذ الملك ، أنسلم اسقف بيت لحم ، وبصحبته رُورْد قسطلان بيت المقدس ، وجفري رئيس دير المعبد ، وهو عالم يوناني لامع ، كيما يشرح للامبراطور يوحنا ان فلسطين اقليم فقير ، ليس بوسعه ان يبذل من المؤن ما يكفي جيش الامبراطور الضخم ؛ اما اذا أحبّ الامبراطور ان يقدم في حاشية صغيرة ، فسوف يكون الملك سعيداً للترحيب به . غير ان الملك قرر ألا يمضي اكثر من ذلك في الوقت الراهن ، في إصراره على طلبه[2] .

ولما أتمّ الامبراطور ، في مارس سنة ١١٤٣ ، استعداده لمنازلة انطاكية ، التمس فرصة قصيرة ، للتوجه الى صيد الدب البري في جبال طوروس .

---

(١) انظر : William of Tyre, XV. 19 - 20, pp. 688 - 691.
Nicetas Choniates, pp. 52 - 53.
Gregory the Priest, p. 156.
Matthew of Edessa, CCLV, p. 325.

(٢) انظر : William of Tyre, XV. 21, pp. 691 - 693.
أعدّ الامبراطور يوحنا ما سوف يقدمه للقبر المقدس من الهدايا والعطايا .
انظر : Cinnamus, p. 25.

وتصادف أثنـاء مطاردته للدببة ، أن أصابه سهم أحدث به جرحاً ، فلم يُعِر الجرح شيئاً من الاهتمام . غير ان الجرح تسمم ، ولم يلبث الامبراطور ان داهمه الموت بسبب تسمم الدم . وواجه الامبراطور يوحنـا نهايته رابط الجأش ، إذ ظلّ حتى آخر لحظة من حيـاته يعمل لترتيب وراثة الملك ، وتسيير الحكومة على الوجه السليم . والمعروف ان ولديه الكبيرين قد ماتا ، اما الثالث وهو اسحاق ، فكان وقتذاك بالقسطنطينية ، وهو شاب مضطرب المزاج . ولذا قرر يوحنا ان يكون وريثه مانويل ، أصغر أبنائه سناً وألمعهم ، وحثّ صديقه العظيم اكسوخ ، الدمستق الكبير ، على ان يساند دعوى مانويل . وبيديه الضعيفتين ، وضع التاج على رأس مانويل ، ودعا اليه كبار قادته ليهتفوا للامبراطور الجديد . ومات يوحنـا في ٨ ابريل سنة ١١٤٣ [١] ، بعد ان بذل اعترافه لراهب من بامفيليا .

وأنقذ انطاكية مـا حدث من وفاة الامبراطور يوحنا . فبينا هرع اكسوخ الى القسطنطينية ، يحمل نبأ الوفاة ، كيا يحوز القصر والحكومة ،

---

(١) انظر : William of Tyre, XV. 22 - 23, pp. 693 - 695.
Cinnamus, pp. 26 - 29.
Nicetas Choniates, pp. 56 - 64.
Matthew of Edessa, p. 325.
Gregory the Priest, p. 156.
Michael the Syrian, III. p. 254.
Ibn al - Qalanisi, p. 264.
Bustan, p. 537.

ويحبط كل محاولة يقوم بهـــا اسحاق ابن الامبراطور يوحنا ، للمطالبة بالعرش ؛ فقاد مانويل الجيش عبر بلاد الأناضول ، في طريق عودته للعاصمة ، وإذ لن تتوجه حملات اخرى الى الشرق ، إلا بعد ان يطمئن مانويل في عاصمته، تقرّر طرح مشروع الامبراطور يوحنا جانباً ، إنما ليس لأجل طويل [1] .

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 29 - 32.

يشير كيناموس الى سفارة من انطاكيـة سألت مانويل في وقاحة عن أغراضه ، فأجاب بأنه سوف يعود الى انطاكية لتوكيد حقوقه .

انظر : Nicetas Choniates, pp. 65 - 69.

William of Tyre, XV. 23, p. 696.

الفصل الرابع

سقوط الرها

شعر الفرنج في الشرق بارتياح ، حين علموا بوفاة الامبراطور البيزنطي . غير انهم ، في سرورهم ، لم يلحظوا ان الأتابك زنكي ، أكبر أعدائهم ، كان اكثر سروراً وسعادة . إذ ظل زنكي[1] سنتين ، ابتداء من سنة ١١٤١ ، شديد الاضطراب ، لما أعرب عنه السلطان مسعود السلجوقي ، من رغبة في إعادة فرض سيادته عليه . ولم يدرأ زنكي غزو جيش السلطان لإقليم الموصل[2] ، إلا بعد ان أظهر له في الوقت المناسب الخضوع

---

(١) يتمثل اتجاه المسلمين نحو البيزنطيين فيما اورده ابن القلانسي عن ارتداد الامبراطور يوحنا عن شيزر ، سنة ١١٣٨ ، حين قال : « ولم يزالوا (الروم) على هذه القضية ، الى ان سئموا المقام عليها ، ويئسوا من بلوغ الغرض فيها ، ولطف الله تعالى بأهل الشام ، وتداركهم برحمته . وورد خبر رحيلهم من شيزر الى انطاكية ، واستبشر النـاس برحيلهم وعودتهم خاسرين غير ظافرين، ومفلولين غير فالين ، فلله تعالى الحمد على هذه النعمة دائماً ، والشكر متواصلاً متتابعاً ».

انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢٦٤ .

(٢) انظر : Ibn al - Athir, pp. 241 - 242.

والإذعان ، وما صحب ذلك من بذل المال له ، وإرسال ابنه رهينة لديه . فلو ان البيزنطيين غزوا الشام وقتذاك ، لتمّ القضاء على مشروعات زنكي في الغرب . على ان هذه الخطط تعرّضت ايضاً للخطر ، بما انعقد من تحالف بين ملك بيت المقدس وأتابك دمشق ، لما يشعران به من الخوف منه .

عاد زنكي سنة ١١٣٨ ، لمواصلة المحاولة للاستيلاء على دمشق ، بعد انهيار تحالف الفرنج مع البيزنطيين . إذ ان الحصار الذي فرضه زنكي على حمص ، تعرّض مرتين للتوقف : في المرة الاولى أوقفه زحف الفرنج على بعرين ، وفي المرة الثانية اعترضه حصار البيزنطيين لشيزر . فعاد زنكي في كامل قوته الى حمص ، وأرسل الى دمشق يطلب الزواج من الاميرة زمرد والدة أتابك دمشق ، على ان تكون له حمص . ولم يكن بوسع الدماشقة ان يرفضوا هذا الطلب ؛ ففي يونيو سنة ١١٣٨ ، تزوجت زمرد من زنكي ، ودخلت قواته مدينة حمص . وأعرب زنكي عن نيته الطيبة ، فأقطع معين الدين أنر ، حاكم حمص ، وكان مملوكاً طاعناً في السن ، ما فتحه حديثاً ، من حصن بعرين وبعض القلاع المجاورة [١] .

وواتى اسرة بوري في دمشق الحظ الطيب ، بأن أنر لم يذهب للإقامة في بعرين ، بل قدم الى دمشق . على انه حدث بدمشق ، ليلة ٢٢ يونيو سنة ١١٣٩ ، ان اغتال الأتابك شهاب الدين محمود ثلاثة من أقرب غلمانه

---

(١) انظر :
Ibn al - Qalanisi, p. 252.
Kemal ad - Din, pp. 278 - 279.

اليه . فلو ان زنكي الذي ارتاب الناس في اشتراكه في هذا الحادث ، كان يأمل بهذه الوسيلة ان يستولي على حكومة دمشق ، لما نجح في ذلك . إذ بادر أنر للاستيلاء على مقاليد الحكم ، فأمر بقتل الجناة . وتقرر استدعاء جمال الدين محمد ، حاكم بعلبك ، وهو أخ غير شقيق للأتابك شهاب الدين محمود ، كيما يتولى حكومة دمشق . فجعل محمـــد ، مقابل ذلك ، بعلبك لأنر ، الذي تزوج من أم الأتابك الجديد . على ان أنر أقـام في دمشق لمباشرة حكومتها . لم يكن ذلك في صالح زنكي ، الذي لقي التشجيع من زوجته زمرد ، ومن بهرام شاه شقيق الأتابك محمد ، وهو عدو شخصي لأنر . ففي أواخر صيف سنة ١١٣٩ ، ألقى زنكي الحصار على بعلبك بجيش كبير ، وبأربع عشرة من أدوات الحصار ؛ فاستسلمت المدينـــة (بعلبك) في ١٠ اكتوبر سنة ١١٣٩ ، كما أذعنت في ٢١ اكتوبر حامية القلعة ، التي جرى تشييدها من أنقاض المعبد الكبير للإله بَعَل ، وذلك بعد ان حلف زنكي على القرآن بأنه سوف يبقي على حياتهم . غير ان زنكي حنث بيمينه ، فأمر بقتــل جميع الرجال ، وبسبي النساء وبيعهن رقيقاً . ولم يقصد بالقتل سوى إثارة الخوف والرعب في نفوس الدماشقة ، غير ان ذلك زاد في صلابة مقاومتهم ، وأدّى الى اعتبار زنكي عدواً لهم خارجاً على الدين [١] .

وفي الايام الأخيرة من سنة ١١٣٩ ، عسكرَ زنكي قرب دمشق ، وعرض على الأتابك محمـــد ان يتنازل له عن بعلبك او حمص ، مقابل

---

(١) انظر :
Ibn al - Qalanisi, pp. 253 - 256.
Ibn al - Athir, p. 431.

الحصول على دمشق ؛ وربما قَبِل الأتابك الصغير هذا العرض ، اذا سمح له أنر بذلك . فلما رفض هذا العرض ، تحرّك زنكي لفرض الحصار على دمشق . وفي هذه الازمة ، توفي الأتابك محمد ، في ٢٩ مارس سنة ١١٤٠ . على ان دمشق ظلت على ولائها للبوريين ، فلم يصادف أنر صعوبة حينما جعل على أتابكية دمشق الشاب مجير الدين أبق ابن الأتابك محمد . وقرر أنر ايضاً ، في نفس الوقت ، انه لديه من المبررات الدينية والسياسية ما يحمله على التماس المساعدة من المسيحيين لدفع هذا العدو القادر ؛ فغادرت دمشق الى بيت المقدس سفارة برئاسة الامير اسامة بن منقذ[١] .

تحالف الفرنج مع الدماشقة سنة ١١٣٩ :

سبق ان حاول الملك فولك ان يفيد من الفتن التي وقعت بين أهل دمشق في توطيد سلطانه وراء نهر الاردن . ففي صيف سنة ١١٣٩ ، قدم لزيارة فولك ملك بيت المقدس ، تيبري الألزامي كونت فلاندر ، زوج سبيلا ابنة فولك من زوجته الاولى . وبفضل مساعدة تيبري أغار فولك على جَلْعاد[٢] ، واستولى على حصن صغير قرب عجلون ، بعد ان

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 256 - 259.
William of Tyre, XV. 6, pp. 665 - 668.

(٢) هوشع ٦ : ٨ . يطلق هذا الاسم اصلاً على منطقة صغيرة من الارض تقع جنوب نهر الزرقاء ، فيما وراء نهر الاردن ، ثم صار يطلق على كل الاقليم الممتد من نهر المرجب Arnon ، الى نهر اليرموك . انظر :
L. H. Grollenberg : Atlas of the Bible, Index.

بذل جهداً شاقاً ، فأمر بقتل للدافعين عنه . ولم يجنِ من هذا الجهد إلا ربحاً ضئيلاً ؛ فلما عرض أنر ان يؤدي له كل شهر عشرين الف دينار ، وان يعيد له حصن بانياس ، اذا ردّ زنكي عن دمشق ، لم يتردد في ان يغيّر سياسته . لم تكن فكرة تحالف من هذا القبيل أمراً جديداً ، إذ ان اسامة بن منقذ توجه فعلاً الى بيت المقدس ، سنة ١١٣٨ ، من قِبَل أنر ، للتشاور في أمر تحقيق هذا التحالف . ومع ان البلاط الفرنجي احتفل باستقباله ، فانه رفض ما عرضه من مقترحات . ثم تزايد إدراك الفرنج لما انطوى عليه تفاقم قوة زنكي من تهديد لهم ؛ فلما دعا فولك مجلسه للانعقاد ، للنظر في العرض الذي بذله أنر ، ساد الشعور بأنه لا بد من قبوله [١] .

سار جيش الفرنج في ابريل قاصداً الجليل ، بعد ان تعذر الحصول على رهائن من دمشق . على ان فولك تحرك في حذر ، وتوقف قرب طبرية ، بينما مضت طلائع جيشه في سيرها قدماً . اما زنكي فانه هبط الى الشاطىء الآخر لبحر الجليل ، ليرقب حركات فولك ولما رأى ان فولك لم يتحرك من موضعه ، عاد الى حصار دمشق . وعندئذ تقدم فولك نحو الشمال ، ولم يشأ زنكي ان يجازف بالوقوع بين الفرنج والدماشقة . ولما التقى فولك بقوات أنر ، في أوائل شهر يونيو ، بموضع يقع الى الشرق من بحيرة الحولة ، وليس بعيداً عنها ، أدركا ان زنكي انسحب الى بعلبك .

---

(١) انظر : William of Tyre, XV. 8, pp. 669 - 670.
Ibn al - Qalanisi, p. 260.
Kemal ad - Din, p. 682.

ومع ان جماعات من عساكر زنكي عادت في أواخر الشهر ، وأوغلت في الإغارة حتى بلغت أسوار دمشق ، فان زنكي تراجع بمعظم جيشه الى حلب التي لم تتعرض للضرر[١] .

والواقع ان التحالف بين الفرنج والدماشقة ، أنقذ دمشق دون ان ينشب القتال . وظلّ أنر وفياً لعهده ، إذ ان عساكره ظلت تتخبط ، لبضعة شهور ماضية ، في حصار بانيـــاس . واغتنم ابراهيم بن طرغت ، قائد زنكي ، فترة الهدوء التي سادت الحصار ، فأغار على ساحل البحر ، قرب صور ، غير انه تعرض فجأة لهجوم جيش قاده ريموند امير انطاكية ، الذي هبط به نحو الجنوب لمساندة فولك في حملته التي توجه بها لمساعدة دمشق ، فحلّت الهزيمة بابراهيم ، ولقي مصرعه . ولما ظهر أنر امام بانياس ، لحق به فولك وريموند ، اللذان شجعها ايضاً زيارة المندوب البابوي البريك بوفيه لها . فلم يلبث المدافعون عن بانياس ان قرروا الإذعان والاستسلام ، وحرص أنر على مكافأتها ببلاد قريبـة من دمشق . وعندئذ سلّم مدينة بانياس للفرنج ، الذين أعادوا تنصيب رينيه بروس والياً عليها ، بينما تقرر تعيين آدام ، رئيس شمامسة عكا ، اسقفاً لها[٢] .

وتأكد التحالف بين فولك وأنر ، بأن بادر معين الدين أنر وبصحبته اسامة بن منقذ ، بزيارة الملك فولك في بلاطه بعكا ، فاحتفل باستقبالها ،

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٦٥ .

(٢) انظر : William of Tyre, XV. 9 - 11, pp. 770 - 776.
Ibn al - Qalanisi, pp. 260 - 261.

وبالغ في إظهار التودد والاخلاص لهما . ثم توجّها الى حيفا وبيت المقدس ، واجتازا نابلس وطبرية في طريق عودتها الى دمشق . وجرت الرحلة في جو يسوده أعظم ما يُتصور من النية الصادقة ، على الرغم من ان اسامة لم يعجبه كل ما شهده من أحوال الفرنج [١] . على ان فولك أظهر رغبة خالصة في صداقة الدماشقة ، حينما شكوا اليه ما قام به راينيه بروس من بانياس ، من غارات على أغنامهم . فأمره الملك بأن يتوقف عن هذه الهجمات ، وان يؤدي التعويضات عما أتلف من غنمهم [٢] .

تشييد القلاع على الطرف الجنوبي لمملكة بيت المقدس ، سنة ١١٤٠ :

وتوافر لفولك ، حوالي سنة ١١٤٠ ، من الدواعي ما يجعله يقنع بحكومته في بيت المقدس . إذ تدهور الوضع في شمال الشام منذ زمن سلفه ، بلدوين الثاني ، ولم يكن له بهذه الجهات من المكانة والسلطة ما كان لبلدوين الثاني . وليس مؤكداً ما اذا كان جوسلين كونت الرها ، قد اعترف به سيداً أعلى . اما في أملاكه ، فكان مركزه وطيداً مستقراً . إذ تعلم الدرس ، الذي يقضي بأنه كيما يعيش الفرنج بتلك الجهات ، ينبغي عليهم ألا يصرُّوا على الامتناع عن التفاهم مع المسلمين ، بل يجب ان يُبدوا استعدادهم لأن يصادقوا مَن كان منهم أقل خطراً ، وحمل فولك نبلاءه على ان يسلكوا سياسته . على ان فولك دأب ، في نفس الوقت ،

---

(١) انظر : Usama, ed. Hitti, pp. 166 - 167, 168 - 169, 226.

(٢) انظر : Usama, ed. Hitti, pp. 93 - 94.

على عمـارة اسباب الدفاع عن بلاده . فعلى الطرف الجنوبي لمملكة بيت المقدس ، أمر بتشييد ثلاث قلاع ضخمة ، لدرء ما يتعرض له من الغارات التي يشنّها المصريون من عسقلان . ففي يبنه ، الواقعـة على مسافة عشرة أميال الى الجنوب الغربي من اللد ، وفي بقعة غزيرة المياه ، تتحكم في مفترق طريقين ، تمتدان من عسقلان الى يافا ، والى الرملة ، استعمل فولك أنقاض مدينة يمنيه (Jamnia) [١] الرومانية القـديمة ، في تشييد حصن منيـع ، عهد به الى باليان المعروف بالشيخ ، شقيق فيكونت شارتر . فحاز باليان البلاد ، منتمياً الى أمراء يافا ، وحظي برضى الملك فولك ، بعد ان سانده ونصره على هيو لى بويزيه . وباعتباره قسطلاناً لحصن يبنـه ، ارتقى الى صفوف كبار أرباب الاقطاعات ، وتزوج من هيلفيس ، وارثة الرملة ، وألفت سلالته أشهر أسرة ارستقراطية في الشرق الفرنجي [٢] .

والى الجنوب من يبنه ، قام على حراسة الطريق من عسقلان الى بيت المقدس ، حصن (Blanchegard) ، على التل الذي أطلق عليه العرب اسم تل الصافية [٣] . وأضحى قسطلان هذا الحصن ، ارنولف ، من أغنى وأقوى

---

(١) وردت في المصادر العربية بأسماء : يبنة ، وجبنة ، وجبليل . انظر :
Le Strange : Palestine Under the Moslems, p. 553.

(٢) انظر : William of Tyre, XV. 24, pp. 696 - 697.
عن أصل باليان ، انظر :
Ducange, Familles d'Outre Mer, ed. Rey, pp. 360 - 361.

(٣) أشار الجغرافيون العرب الى هـذا الحصن ، بأنه يقع في اقليم فلسطين ، قرب بيت جبرين ، في كورة الرملة . انظر : Le Strange : op. cit. p. 544.

البارونات في مملكة بيت المقدس[1] . اما الحصن الثالث فتمّ تشييده في بيت جبريل (Bethgibelin) ، بالقرية التي أطلق عليها الصليبيون ، من قبيل الخطأ ، اسم بير سبع ، ويقع هـــذا الحصن على الطريق الممتد من عسقلان الى حبرون ، وتولى أمره الفرسان الاسبتارية[2] . على ان هـذه الاستحكامات لم تبلغ من الاكتمال ما يكفي لمنع الغارات من عسقلان . ففي سنة ١١٤١ ، شنّ المصريون غارة ، وأنزلوا الهزيمة بقوة صليبية قليلة العدد ، التقوا بها في سهل شارون[3] . على ان هذه الاستحكامات صمدت لكل مـا تعرضت له من هجمات خطيرة موجهة من الجنوب الى بيت المقدس ، وصارت مراكز للادارة المحلية .

اتخذ فولك ، في نفس الوقت ، من الخطوات مـا يكفل له السيطرة التامة على الاقليم الواقع شرقي البحر الميت وجنوبيه . فإقطاع الشوبك ، بقلعته الواقعة بواحة وسط تلال الشراة (Edom) ، هيأ للفرنج سيطرة غـير محدودة على طرق القوافل ، المؤدية من مصر الى بلاد العرب والى الشام . غير ان القوافل ما زالت تجتاز الطرق ، دون ان تتعرض لخطر من الأخطار ، وما زال بوسع المغيرين من الصحراء ان ينفذوا الى يهوذا .

---

(١) انظر : William of Tyre, *XV*. 25, pp. 697 - 699.

(٢) انظر : Ibid, *XIV*. 22, pp. 638 - 639.

Martin : « Les premiers princes croisés et les chretiens jacobites de Jerusalem », Revue de l'Orient Latin, 8me Série, 13, pp. 34 - 35.

أشار مارتن الى انه تم تشييد القلعة سنة ١١٣٥ ، بناء على ما ساقه من أدلة سريانية .

(٣) انظر : Ibn al - Qalanisi, p. 263;

ولما تولى فولك العرش ، كان رومان لى بويه سيداً على الشوبك وعلى اقليم ما وراء نهر الاردن ، اللذين أقطعهما له ، سنة ١١١٥ ، بلدوين الاول ، ملك بيت المقدس . ولما نهض رومان لمساندة هيو لى بويزيه على الملك فولك ، لم يسعه ، حوالي سنة ١١٣٢ ، إلا ان ينتزع منه الاقطاع ، وان يحرم ابنه من وراثته. ثم بذل فولك الاقطاع الى باجان الساقي، من كبار موظفي البلاط . وبفضل ما اشتهر به رومان من كفاية ادارية ، حاول ان يوطّد سلطانه على الاقليم الشاسع الذي يحكمه . وقد نجح ، فيما يبدو ، في ضبط الاقليم الواقع الى الجنوب من بحر الميت . على انه حدث في سنة ١١٣٩ ، بينما كان فولك يغير على جلعاد[1] ، ان حاولت جماعة من المسلمين ان تعبر نهر الاردن ، قرب اتصاله بالبحر الميت ، للإغارة على يهوذا ، حيث دفعهم الى تخريبها ، ما لجأت اليه جماعة من فرسان الداوية ، توجهت لقتالهم ، من اتخاذ خطة حربية ، تقضي بالتظاهر بالارتداد امامهم . والراجح ان باجان لم ينقل مقره من الشوبك في الشراة الى مؤاب ، إلا ليضبط الطرفين الشمالي والجنوبي للبحر الميت . وفي مؤاب ، شيّد باجان ، في سنة ١١٤١ ، بعد موافقة الملك ، على تل أطلق عليه المؤرخون اسم حجر الصحراء (Petra Deserti) ، حصناً كبيراً بالغ المناعة ، اشتهر باسم كَرَك[2] مؤاب . وكان لموقعه من الأهمية ما هيأ له السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة ، الممتدة من مصر وغربي بلاد العرب ، الى بلاد الشام ، فضلاً عن

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٦٤ .

(٢) كرك : تصحيف كلمة كاركو Karko السريانية ، ومعناها الحصن . انظر :

Le Strange, op. cit. p. 479.

انه لم يكن شديد البعد عن مخاضات نهر الاردن الأدنى . والمعروف ان بلدوين الاول أقام في أيله ، على شاطىء خليج العقبة ، موقعاً للمراقبة . فأنزل باجان حامية بالغة القوة بهذا الموضع ، وفي حصن وادي موسى ، قرب البتراء القديمة . هذه القلاع ، بالاضافة الى الشوبك والكرك ، جعلت لسيد اقطاع بلاد ما وراء الاردن ، السيادة على تلال الشراة (ايدوم) ومؤاب ، بما اشتهرت به أراضيها من حقول القمح الوافرة الانتاج ، فضلاً عن ملّاحات البحر الميت . على ان الفرنج لم يَجِدُّوا في استغلال هذه الأراضي ، فظلت القبائل البدوية تمارس حياة الرعي في المناطق الصحراوية الجدباء ، وتؤدي الأتاوة للفرنج من حين الى آخر[1] .

تحسنت أحوال الأمن بداخل المملكة زمن فولك ، فالطريق الممتد بين يافا وبيت المقدس ، لم يكن مأموناً ، حتى اعتلائه العرش . ذلك ان قطاع الطرق لم يهاجموا الحجاج فحسب ، بل منعوا المؤن من الوصول الى

---

(١) انظر : William of Tyre, *XV*. 21, pp. 692 - 693.

عن محصولات هذه المنطقة ، انظر :

Abel, Geographie de la Palestine, I. p. 505.

وفيما يتعلق بأهمية تجارة المسلمين ، انظر :

Wiet, op. cit. pp. 320 - 321.

Rey : « Les Seigneurs de Montréal et de la Terre d'Oultre Jourdain », in Revue de l'Orient Latin, vol. IV, p. 19 ff.

وتقع قلعة وادي موسى على تل شديد الانحدار ، يعرف حالياً بلعم تل عويره ، على اطراف البتراء ، حيث تطل خرائب استحكامات الصليبيين التي تغطي مساحة كبيرة ، على وادي موسى . وفي هـذه الجهة ايضاً ، خرائب حصن صغير يرجع الى العصور الوسطى ، كان مشيداً على تل حبيس في جوف البتراء .

بيت المقدس . فبينا كان الملك فولك في الشمال ، بعيداً عن المملكة ، سنة ١١٣٢ ، أعدّ البطريرك وليم حملة لقتال قطاع الطرق ، وشيّد قلعة ، اشتهرت باسم (Chastel Ernault) ، قرب بيت نوبة ، حيث يسير الطريق من اللد ، مصعداً الى التلال . وترتب على إنشاء هذه القلعة ، ان تهيأ للسلطات ان تحرس الطريق ، ولما تمّ تشييد الاستحكامات على الحد المتاخم لمصر ، قلّ تعرُّض المسافرين للخطر ، أثناء قدومهم من الساحل[١] .

منشئات الملكة ميليسند سنة ١١٤٣ :

لم نعلم إلا النذر القليل عن حكومة مملكة بيت المقدس في السنوات الأخيرة من حكم فولك . إذ ان البارونات برهنوا على ولائهم الصادق بمساندتهم للملك ، بعد ان قمع فتنة هيو لى بويزيه ، وبعد ان هدأت ثائرة الملكة ورغبتها في الانتقام . وظلت العلاقات طيبة بين الملك وكنيسة بيت المقدس . اما البطريرك وليم ميسينس ، الذي سبق ان توّج فولك ، والذي عاش بعده ، فظلّ صديقاً وفياً ومبجلاً له . وكلما تقدمت الملكة ميليسند في العمر ، زاد شغفها بأعمال البرّ ، على الرغم من ان أهم مؤسسة لها ، لم تقصد من ورائها إلا ازدياد مجد أسرتها . اشتد تعلقها واهتمامها بأخواتها ، فأضحت أليس اميرة لأنطاكية ، وصارت هوديرنا كونتيسة لطرابلس ؛ اما يوفيتا ، وهي صغرى أخواتها ، التي أمضت من طفولتها سنة ، رهينة عند المسلمين ، فلم تجد زوجاً يناسبها ، فانصرفت الى التديُّن ، وأضحت راهبة بدير القديسة حنّة في بيت المقدس . وفي سنة

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIV*. 8, p. 617.

١١٤٣ ، ابتاعت الملكة ميليسند من كنيسة القيامة قرية بيثاني (العازارية الحالية) ، مقابل التنازل عن بعض الضياع بالقرب من حبرون ، فشيّدت بها ديراً ، تخليداً للقديس عازار ، وشقيقتيه مارتا ومريم ، وحبست عليه أريحا وكل ما بها من حدائق ، وما حولهـــا من ضياع ، وأقامت برجاً للدفاع عنه . وإذ حرصت على ألا يكون الباعث لهـا مكشوفاً ، عيّنت اول رئيسة لهذا الدير ، راهبة بالغة الصلاح والتقوى ، غير انها كانت من كبر السن ، ما يجعل وفاتها وشيكة الوقوع ، فلم تلبث ان ماتت بعـــد بضعة شهور . وعندئذ وَجبَ على الدير ان يختار لرئاسته يوفيتا ، التي لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها ، فظلت يوفيتا بقيــة حياتها الطويلة تحتل مركزاً جليلاً مرموقاً ، باعتبارها اميرة تنتمي الى الأسرة الملكية ، ورئيسة لأكثر أديرة فلسطين ثروة [١] .

كان هــذا هو أسخى ما بذلته ميليسند من أحباس على الخير ، غير انها حثّت زوجها على ان يجعل كنيسة القيامة . هبات كثيرة من الأراضي ، وظلت طوال حياتها بعد وفاة زوجها ، تشيد على نطاق كبير مؤسسات دينيــة [٢] . وتعتبر ميليسند مسؤولة ايضاً عن تحسين العلاقات

---

(١) انظر : William of Tyre, *XV*. 26, pp. 699 - 700.

تعتبر يوفيتا مسؤولة عن تعلم سبيلا حفيدة اختها ، التي صارت فيا بعد ملكة بيت المقدس . (انظر ما يلي ، الكتاب الخامس ، الفصل الاول) . وماتت يوفيتا قبل فترة قصيرة من حوالى سنة ١١٧٨ . وأشارت إيفا رئيسة دير بيثاني اليها على انها رئيسة الدير السابقة لها . انظر : (Cartulaire de St. Marie de Josephat, ed. Kohler, p. 122).

(٢) انظر : E. G. Röhricht, Regesta, p. 43, 44, 45.

مع الكنيستين اليعقوبية والأرمنية . ذلك ان اليعاقبة فرّوا جميعاً الى مصر ، قبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس (سنة ١٠٩٩) ، فلما عادوا الى بلادهم ، اكتشفوا ان ما لكنيستهم من ضياع بفلسطين ، حازها فارس من الفرنج اسمه جوفييه . ولما وقع جوفييه في أسر المصريين ، في سنة ١١٠٣ ، استردّ اليعاقبة أراضيهم . غير انه حدث في سنة ١١٣٧ ، ان رجع جوفييه من الأسر ، بعد ان ظنّ الناس انه مات ، فطالب بأملاكه . على انه تهيأ لليعاقبة ، بناء على تدخّل الملكة ميليسند ، ان يحتفظوا بامتلاك الأراضي ، على ان يؤدّوا لجوفييه ثلاثمائة دينار ، على سبيل التعويض . وفي سنة ١١٤٠ ، كان جاثليق الأرمن يشهد مجمعاً (سينوذاً) الكنيسة اللاتينية ، انعقد في بيت المقدس . وبذلت ميليسند ايضاً الأحباس لدير القديس سابا الارثوذكسي [١] .

أما سياسة فولك التجارية ، فليست إلا امتداداً لسياسة أسلافه من ملوك بيت المقدس . إذ حافظ على التزاماته للمدن الايطالية ، التي أضحت لها وقتذاك السيطرة على تجارة الصادرات بالاقليم . غير ان رفض ان يجعل لمدينة من المدن ان تحتكر التجارة . ففي سنة ١١٣٦ ، عقد معاهدة مع تجار مرسيليا ، وعدّ بمقتضاها ان يؤدي كل سنة اربعمائة دينار ، من

(١) انظر : Nau : « Le Croisé Lorrain, Godefroy de Ascha », in Journal Asiatique, IX. 14, pp. 421 - 431.
Röhricht, Regesta, pp. 106 - 107.
انظر ما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الاول .

خراج يافا ، لتنفق في صيانة ما لتجار مرسيليا من منشئات بها[1] .

وفاة الملك فولك سنة ١١٤٣ :

في خريف سنة ١١٤٣ ، كان البلاط بعكا ينعم بالهدوء والسكينة اللتين هيأهما ارتداد زنكي عن دمشق ؛ فأعربت الملكة ميليسند عن رغبتها ، في ٧ نوفمبر ، في الخروج للتريض . وبينما كان الركب الملكي في طريقه الى الريف ، انطلق فجأة أرنب جبلي ، فركض الملك لمطاردته . غير ان حصان فولك كبا به ، فقذف بالملك الى الارض ، ووقع سرج الحصان بثقله على رأسه ، فجرى نقل الملك الى عكا ، وقد غاب عن وعيه ، بعد ان اشتد نزيف الدماء من رأسه ، ولم يلبث ان قضى نحبه ، بعد ثلاثة أيام . وكان فولك ملكاً صالحاً لمملكة بيت المقدس ، غير انه لم يكن قائداً كفؤاً للفرنج في الشرق[2] .

ومع ان حزن ميليسند بلغ من الشدة ما أثار شجن كل البلاط ، فانه

---

(١) انظر : Röhricht, Regesta, p. 40.
La Monte, Feudal Monarchy, p. 272.
جعل الملك بلدوين الثالث ، بعد ست عشرة سنة مضت على المعاهدة التي انعقدت سنة ١١٣٦ ، لتجار مرسيليا حياً في بيت المقدس .
انظر : Röhricht, Regesta, p. 70.

(٢) انظر : William of Tyre, XV. pp. 700 - 702.
Matthew of Edessa, CCLVI. p. 325.
Ibn al - Qalanisi, p. 265.
وجه القديس برنارد الى الملكة ميليسند رسالة يعزيها فيها ، في الملك فولك .
انظر : M. P. L. vol. CLXXXII. Epist. 354, cols. 556 - 557.

لم يصرفها عن المبادرة الى ان تتولى مقاليد الحكم . ولم يبقَ من ذريتها من فولك إلا ولدان : بلدوين الذي كان في الثالثة عشرة من عمره ، وأملريك الذي لم يتجاوز السنة السابعة من عمره . والمعروف ان فولك تولّى الحكم باعتباره زوجاً للملكة ميليسند ، وان حقوق الملكة في وراثة العرش ، جرى الاعتراف بها كاملة . غير انه لم يخطر ببال البارونات فكرة انفراد الملكة بالحكم ، فلم تلبث ان نصّبت ابنها بلدوين قسيماً معها في الحكم ، وبذا تولت مقاليد الحكم . ومما اتخذته من اجراء ، يعتبر بالغ السلامة من الناحية الدستورية ، فأقرّه مجلس المملكة ، حينما قام وليم ، بطريرك بيت المقدس ، يوم عيد الميلاد ، بتتويج ميليسند وبلدوين معاً[١].

الواقع ان ميليسند كانت من القدرة والكفاية ما يجعلها تصيب نجاحاً كبيراً في أصلح أيام حكمها وأسعدها . اتخذت مستشاراً لها ابن عمها الكندسطبل منسيس هييرج ، وهو ابن سيد والوني ، سبق ان تزوج من هوديرنا ريثل ، شقيقة الملك بلدوين الثاني . قدم منسيس يافعاً الى بلاط ابن عمه ، حيث كفلت له مواهبه وصلاته بالأسرة الملكية ، الارتقاء المطرد في سلك الوظائف ولما مات باليان ابلين الشيخ ، سيد يبنة ، عقب وفاة الملك فولك ، تزوج منسيس أرملته هيلفيس ، التي ورثت إقطاع الرملة ، والتي صارت ، بفضل ما لها ولأبنائها من حقوق ، تسيطر على كل سهل فلسطين . على ان البارونات نفروا في الوقت المناسب من سلطة

---

(١) انظر : William of Tyre, *XVI*. 3, p. 707.

La Monte, Feudal Monarchy, pp. 14 - 18.

ناقش لامونت الوضع الدستوري للملكة ميليسند .

منسيس ، لنزوع الملكة ومنسيس نحو الاستبداد ، غير انه لم تحدث في الوقت الراهن معارضة للملكة [1] .

على ان ولاية ميليسند جلبت ضرراً خطيراً ، فما كان للملك بيت المقدس من مكانة ، باعتباره سيداً أعلى للإمارات الصليبية ، تغلبت فيها الناحية النظرية على الناحية العملية . وليس من الراجح ان يولي أمراء شمال الشام أهمية كبيرة لسيادة امرأة او طفل . فحينا كانت المنازعات تنشب بين أمراء انطاكية وكونت الرها ، بادر ملك بيت المقدس سواهما ، مثل بلدوين الثاني ، بالمضي بجيشه نحو الشمال ، وأجبرهما بالقوة على تسوية المنازعات . فليس بوسع الملكة ، او الملك الطفل ان يفعل ذلك ، وما من أحد سواهم أغفل هذه السيادة .

حصار الرها سنة ١١٤٤ :

استعاد ريموند امير انطاكية الثقة في نفسه ، منذ وفاة الامبراطور يوحنا ، وارتداد زنكي عن دمشق ، فأرسل على الفور الى الامبراطور الجديد مانويل ، يطلب منه إعادة قليقية الى إمارته ، فلما رفض مانويل طلبه ، بادر بغزو قليقية . وعلى الرغم من انه كان لزاماً على مانويل ان

---

(١) انظر : William of Tyre, ibid.
يشيد وليم الصوري بالملكة . وأشار ايضاً الى زواج منسيس من الملكة .
William of Tyre, *XVII*. 18, p. 780.
وتكرر ايضاً وورود اسم هيلفيس في الوثائق . انظر :
Röhricht, Regesta, pp. 22, 76.

يمكث بالقسطنطينية أثناء الشهور الاولى من حكمه ، فانه أرسل حملة برية بحرية بقيادة الأخوين كونتوستيفانوس ، وبرسق التركي المتنصر ، والقائد البحري ديمتريوس بارناس ، لم تؤد الى طرد ريموند من قليقية فحسب ، بل طاردت ايضاً عساكره حتى أسوار انطاكية [1] .

وحدث قبل شهور مضت ، ان أضاف ريموند الى إمارته من بلاد حلب ما امتد الى البزاعة ، على حين ان جوسلين كونت الرها ، زحف الى الفرات ليلتقي به . غير ان ما قام به جوسلين فجأة ، من عقد هدنة مع سوار والي حلب ، دمّر مـا وضعه ريموند من خطط ومشروعات ، فأخذت العلاقات بين ريموند وجوسلين تزداد سوءاً . إذ ان جوسلين ، فيما يبدو ، لم يقبل ، حوالي سنة ١١٤٠ ، ريموند سيداً أعلى إلا كرهاً ؛ فلم يكن بينهما محبة خالصة . وأثار ريموند ما كان من تدخل جوسلين لصالح رادولف بطريرك انطاكية ؛ فلما انعقدت الهدنة بين جوسلين ووالي حلب ، أضحى الشقاق الصريح بينهما وشيك الوقوع [2] .

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 33 - 34.

(٢) انظر : Azimi, p. 537.
Ibn al - Qalanisi, p. 266.
أرّخ جوسلين وثيقة سنة ١١٤١ ، بحكم ريموند امير انطاكية .
« Raimundo Antiochiae principe regnante ».
انظر : (Röhricht, Regesta, p. 51).
اورد وليم الصوري مـا يشير الى ان جوسلين ما زال سنة ١١٤٤ يعتبر ريموند سيداً أعلى .
انظر : William of Tyre, *XVI*. 4, p. 710.

أخذ زنكي يرقب هذه المنازعات ، بعد ان أراحته وفاة الامبراطور يوحنا من أشد أعدائه قوة وبأساً . فلن يقدم الدماشقة على القيام بعمل إزاءه إلا بمساعدة الفرنج ، وليس من الراجح ان تقوم مملكة بيت المقدس وقتئذ بمغامرات حربية ، فينبغي ألا تفلت من زنكي هـذه الفرصة . فهاجم في خريف سنة ١١٤٤ ، قره ارسلان الارتقي امير ديار بكر ، الذي تحالف منذ زمن قريب مع جوسلين . ولتعزيز التحالف بينهما ، خرج جوسلين من الرها بجيش كثيف ، قاصداً نهر الفرات . والواضح انه أراد بذلك قطع أسباب الاتصال بين زنكي وحلب . على ان عيون زنكي بحرّان أخطرته بحركات جوسلين ، فبادر زنكي بإرسال كتيبة بقيادة الياغيسياني امير حماه ، لمباغتة المدينة (الرها) . غير ان الياغيسياني ضلّ الطريق في ليلة من شهر نوفمبر ، حالكة الظلام ، غزيرة المطر ، فلم يبلغ الرها ، إلا بعد ان وصل اليها زنكي بجيشه الكثيف ، في ٢٨ نوفمبر سنة ١١٤٤ . على ان أهل الرها كانوا قـد أخذوا حذرهم ، وجرى شحن الاستحكامات بالرجال .

ظلّ الحصار مضروباً على الرها مدة اربعة أسابيع . كان جوسلين قد صحب معه كل قادته اللامعين ، فتولى امر الدفاع عن الرها هيو الثاني رئيس أساقفة اللاتين . وأخلص كل من يوحنـا اسقف الارمن ، وباسيل اسقف اليعاقبة ، في مساندة رئيس أساقفة اللاتين . وفشل كل أمل عند زنكي لإغراء المسيحيين الوطنيين على الخروج على ولائهم للفرنج . فلما اقترح باسيل طلب الهدنة ، أنكر ذلك الرأي العام . على ان عدد المدافعين عن الرها كان قليلاً ، برغم استبسالهم في القتال ، فالتجأ جوسلين الى تل باشر . وقسا المؤرخ وليم الصوري في انتقاده له ، فرماه بالكسل والجبن ، لأنه

رفض التوجه لنجدة عاصمته . غير ان جيش جوسلين لم يكن من القوة ما يكفي لخوض معركة مع جيش زنكي . واعتقد جوسلين ان استحكامات الرها الضخمة سوف تقاوم فترة من الزمن ، وفي وسعه ، وهو بتل باشر ، ان يقطع طريق الأمداد التي يطلبها زنكي من حلب . كما انه ركن الى ما يبـــذله له جيرانه من الفرنج من مساعدة ، إذ أرسل على الفور الى انطاكية وبيت المقدس ، يطلب المساعدة . وفي بيت المقدس ، دعت الملكة ميليسند الى عقد مجلس ، فوّضها بحشد جيش ، سيّرته بقيادة الكندسطبل منسيس ، وفيليب سيد نابلس ، والبيناند بورس امير الجليل . أمـــا في انطاكية ، فلم يشأ ريموند ان يفعل شيئاً ، إذ ضاعت هباء كل ما وجّهه جوسلين له من نداءات ، باعتبـاره سيده الأعلى ، فلم يحسر جوسلين على مهاجمة زنكي بدون مساعدته . وظلّ جوسلين في تل باشر ، ينتظر قدوم جيش الملكة ميليسند .

على ان الجيش لم يصل إلا بعد فوات الوقت ، بينما ازداد عدد جيش زنكي ، بمن انحاز اليه من الكرد والتركمان ، القادمين من أعالي نهر دجلة ، وتوافر عند زنكي عدد لا بأس به من أدوات الحصار الجيدة . على حين ان رجال الدين والتجار ، الذين ألـّفوا الجانب الاكبر من حامية المدينة (الرها) ، لم تكن لهم خبرة بأمور الحرب ؛ ولذا لم تنجح ما قاموا به من هجمات مضادة ، ومن محاولات لوقف اعمال النقابين . وظن النـــاس سوءاً ، ان رئيس الأساقفة هيو احتفظ بالمال الذي جمعه ، على الرغم من شدة الحاجة اليه في الدفاع . وفي عشية عيد الميلاد ، سنة ١١٤٤ ، انهار سور المدينة ، قرب باب الساعات ، فتدفق المسلمون الى داخل المدينة من هـذه الثغرة . وفرّ السكان فزعين الى القلعـــة ، فألفوا أبوابها موصدة دونهم ، بأمر رئيس

الأساقفة ، الذي ظل خارج المدينة يحاول عبثاً إعادة الأمن الى نصابه . وهلك في الفوضى الناشبة ألوف الناس تحت الأقدام . وفي أثناء المطاردة العنيفة للفارّين ، أجهزت عساكر زنكي على ألوف آخرين من النـــاس ومنهم الأسقف . ثم حدث آخر الامر ، أن دخل زنكي المدينـة راكباً في موكب ، فأمر بالكفّ عن القتل . وأبقى على حياة المسيحيين الوطنيين ، بينما تمّ تطويق جميع الفرنج ، وتقرر قتلهم ، وبيع نسائهم رقيقاً . وبعـد يومين ، استسلم لزنكي القسّ اليعقوبي برسوما ، الذي كان يتولى قيـــادة حامية القلعة [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XVI. 4 - 5, pp. 708 - 712.
Matthew of Edessa, CCLVII. pp. 326 - 328.
Michael the Syrian, III. pp. 259 - 263.
Chron. Anon. Syr. pp. 281 - 286.
ورد في هذا المصدر ، اوفى رواية عن سقوط الرها ، انطوت على تفاصيل لم ترد في المصادر الاخرى .
انظر ايضاً : Nerses Shnorhal, Elegy on the Fall of Edessa, pp. 2 ff.
Bar Hebraeus, trans. Budge, pp. 268 - 270.
Kemal ad - Din, pp. 685 - 686.
Ibn al - Qalanisi, pp. 266 - 268.
Ibn al - Athir, pp. 443 - 446.
وردت اشارات عن سقوط الرها في تواريخ اوروبيـة عديدة ، اذ اشار الى ذلك القـديس برنارد في رسالته رقم ٢٥٦ : (M. P. L. vol. CLXXXII. col. 463).
ويروي ابن الاثير قصة الرجل المسلم الذي كان ببلاط روجر ملك صقليـة ، وخطر له في الرؤية ما حدث من سقوط الرها .

سياسة زنكي في الرها ، سنة ١١٤٥ :

أظهر زنكي الرفق في معاملة المدينة ، بعد ان تخلّص من الفرنج ، فعيّن علياً كوجك صاحب اربل ، اميراً على الرها . غير ان زنكي جعل للمسيحيين الوطنيين من الارمن واليعاقبة ، فضلاً عن اليونانيين ، قدراً من الاستقلال الذاتي . ومع ان الكنائس اللاتينية تعرضت للدمار ، فان كنائس اولئك المسيحيين لم يمسها السوء ، بل جرى تشجيعهم ايضـــاً على دعوة اخوانهم في الدين الى النزوح الى المدينـــة والإقامة بها . وخصّ الفاتحون الاسقف السرياني باسيل بالعطف ، لما أظهره من الاعتزاز في ردّه ، عنـد سؤاله عمـا اذا كان جديراً بالثقة ، بأن ولاءه للفرنج دلّ على كفايته في ولائه . على ان الارمن ، الذين حظيت عندهم أسرة كورتيناي بالمحبـة ، لم يرضوا عن طيب خاطر ، عن نظام الحكم الجديد[1] .

توجّه زنكي من الرهـا الى مروج ، التي تعتبر ثاني حصون الفرنج الكبيرة الواقعة شرقي نهر الفرات ، فوقعت في يده في شهر يناير التـالي (سنة ١١٤٥) . ثم تقدم الى البيرة ، المدينة التي تتحكم في أهم مخاضة في نهر الفرات ، غير انه لقي مقاومة عنيفة من حامية الفرنج بها . والمعروف ان جوسلين يقيم قرب هذا الموضع ، بينما أخذ جيش المملكة في الاقتراب . وفي تلك اللحظة ، ترددت الشائعات عند زنكي ، بما وقع من الاضطرابات في الموصل . فأمر برفع الحصار عن البيرة وعجّل بالمسير صوب الشرق ؛

---

(١) انظر : Michael the Syrian, loc. cit.
Chron. Anon. Syr. loc. cit.

إذ لا زال زنكي ، من الناحية الاسمية ، أتابك الموصل ، للامير السلجوقي الشاب ألب ارسلان بن مسعود . ولما عـاد زنكي الى الموصل ، اكتشف ان ألب ارسلان قتل جقر نائب الأتابك ، محاولاً بذلك ان يوطد سلطته . غير ان ألب ارسلان أساء اختيـار الفرصة ، لأن زنكي بلغ وقتذاك ذروة مجده في العالم الاسلامي ، بعد ان فتح حاضرة مسيحية (الرها) ؛ فتقرر عزل ألب ارسلان عن الإمارة ، وإعدام مستشاريه . أما الخليفـة فأرسل الى زنكي سفارة تحمل الهدايا النفيسة ، وتمنحه لقب الملك الغازي[1] .

تردد صدى أنباء سقوط الرها في جميع أنحاء العالم ، إذ تجدّد الأمل عند المسلمين ، بعـد ان تحطمت إمارة مسيحية قامت دخيلة في جوف بلادهم ، واقتصر الفرنج على البـلاد التي تقع على ساحل البحر المتوسط . وجرى تطهير الطرق الممتدة من الموصل الى حلب من العدو ، وتمّ انتزاع الاسفين الذي دقّه الفرنج بين الترك في ايران ، والترك بالأناضول ، وحاز زنكي عن جدارة ، لقب الملك المنصور . على ان سقوط الرهـا زاد في إضعاف الروح المعنوية عند الفرنج ، وأثار خوفهم وقلقهم . كما انه كان صدمة كبيرة للمسيحيين في غرب اوروبا ، إذ أدركوا ، لأول مرة ، ان

---

(١) انظر : Chron. Anon. Syr. pp. 286 - 288.
Ibn al - Qalanisi, pp. 268 - 269.
Ibn al - Athir, pp. 445 - 448.

وانظر ايضاً ابن الفرات فيما اورده كاهن :
Cahen, La Syrie du Nord, p. 371, note 11.

كان من ألقاب عمـاد الدين زنكي : المؤيد ، المظفر ، المنصور ، قاهر الكفرة والمتمردين ، قامع الملحدين والمشركين . انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ .

الامور لم تسِرْ على نحو سليم في الشرق ، فنهضت حركة تدعو الى حملة صليبية جديدة .

والواقع ان الحاجة كانت ماسة الى القيام بحملة صليبية جديدة . فعلى الرغم من الخطر الذي تعرض له أمراء الفرنج في الشرق ، فانهم لم يحرصوا على ان يتعاونوا سوياً ، إذ حاول جوسلين ان يعيد بناء إمارته في البلاد التي بحوزته ، في غربي نهر الفرات ، وان يتخذ من تل باشر حاضرة له[1]. ومع انه كان واضحاً ان زنكي سوف يبادر الى قتاله ، فانه لم يشأ ان يغفر لريموند امتنـــاعه عن بذل المساعدة له ، فأعلن جوسلين صراحة خروجه عليه ، ورفض سيادته عليه . وكره ريموند من جانبه الوفاق مع جوسلين ، غير انه أدرك مـا يترتب على عزلته من خطر . ولذا قرر في سنة ١١٤٥ ، بعد ان أنزل الهزيمة بجماعة من التركمان المغيرين ، ان يرتحل الى القسطنطينية ، ويلتمس المساعدة من الامبراطور البيزنطي . فلما وصل ريموند الى القسطنطينية ، لم يشأ الامبراطور مانويل ان يستقبله ، ولم يأذن له بأن يحظى بمقابلته ، إلا بعـــد ان ركع ذليلاً عند قبر الامبراطور يوحنا . وعندئذ عامله مانويل في لطف واحترام ، وغمره بالهدايا ، ووعده بمساعدة مالية ؛ غير انه لم يعـــده بمساعدة حربية عاجلة ، نظراً لأن البيزنطيين أوشكوا ان يشتبكوا في حرب مع الترك . على ان الحديث دار حول إرسال حملة حربية في المستقبل . وعلى الرغم من ان زيارة ريموند لمانويل أذلّت كبرياءه ، وأفقدته محبة باروناته ، فانهـا أفضت الى نتيجة لهـــا

(١) ما زال بحوزة جوسلين البلاد الممتدة من سميساط ، والتي تجتاز مرعش ، (التي أقطعها لتابعه بلدوين) ، الى ما يقع بالجنوب من المدن : البيرة ، وعين تاب ، ورواوندان ، وتل باشر .

أهميتها . ولم يكن زنكي غافلاً عن هـذه الزيارة ، إذ قرر ان يؤجل القيـام بهجوم آخر على الفرنج بالشمال ، وان يوجه اهتمامه من جديد الى دمشق [١] .

مصرع زنكي سنة ١١٤٦ :

تحرك زنكي الى حلب في مايو سنة ١١٤٦ ، ليتجهز للحملة الحربيـة على الشام (دمشق) . وفي أثناء اجتيازه الرها ، علم ان الارمن يحاولون التخلص من حكمه ، وإعادة جوسلين . على ان الامير علي كوجك أحبط هذه المحاولة في يسر وسهولة . فأمر زنكي بقتل مدبري المؤامرة ، وبإبعاد جانب من السكان الارمن ، وأحلّ زنكي مكانهم ثلاثمائة اسرة يهودية ، لما اشتهر به اليهود من الاستعداد لمساندة المسلمين على المسيحيين [٢] . وفي الصيف قاد زنكي جيشه صوب الجنوب ، الى قلعـة جعبر ، على الطريق من الفرات الى دمشق ، والتي رفض أميرهـا الاعتراف بسيادة زنكي عليه . وبينما كان زنكي يحاصر المدينـــة ، حدث ليلة ١٤ سبتمبر سنة ١١٤٦ ، ان تشاجر مع خادم ينتمي أصلاً الى الفرنج ، بعـد ان فاجأه وهو يشرب الخمر من كأسه . وإذ غضب الخـــادم لتأنيب زنكي له ،

---

(١) انظر : Cinnamus, p. 35.
Michael the Syrian, III. p. 267.

(٢) انظر : Michael the Syrian, III. pp. 267 - 268.
Chron. Anon. Syr. p. 289.
Ibn al - Qalanisi, p. 270.
Ibn al - Fourat, loc. cit.

فانتظر حتى نام ، ثم قتله[1] .

تلقى جميع أعداء زنكي بالغبطة ، نبأ اختفاء زنكي المفاجىء ، إذ كانوا يأملون في ان مـا يعقب عادة وفاة الأمراء المسلمين من منازعات أسرية ، سوف تؤدي الى تمزق مملكته . وإذ بقي زنكي وحده ، لم توارَ جثته بعـد ، هرع الى الموصل اكبر أبنائه سيف الدين غازي ، وبرفقته الوزير جمال الدين الاصفهاني فتولى الحكومة بها ، بينما أخذ ابنه نور الدين خاتم الملك من يده ، وتوجه الى حلب ، حيث نادى به سلطاناً ، أسد الدين شيركوه الكردي ، شقيق نجم الدين أيوب الذي أنقذ حياة زنكي ، بعد ان تعرض للهزيمة سنة ١١٣٢ ، على يد الخليفة العباسي . ولم يكن انقسام المملكة إلا إشارة لأعدائها للإقدام على غزوها . ففي الجنوب ، احتلت بعلبك من جديد ، قوات معين الدين أنر التي ارسلها من دمشق ، وأجبرت امير حمص ، والياغيسياني امير حمـاه على إعلان التبعية لدمشق . أما في الشرق ، فتطلع ألب ارسلان السلجوقي لفرض سلطته ، غير انه باء بالفشل ، بينما استرجع أراتقـة ديار بكر المدن التي سبق ان فقدوها[2] . وفي

---

(١) انظر : William of Tyre, XVI. 7. p. 714.
Michael the Syrian, III. p. 268.
Chron. Anon. Syr. p. 291.
Ibn al - Qalanisi, pp. 270 - 271.
Kemal ad - Din, p. 688.

(٢) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 272 - 274.
Ibn al - Athir, pp. 435 - 436.
Cahen, « Le Diyarbekr », in Journal Asiatique. 1935. p. 352.

الوسط ، مضى ريموند امير انطاكية في غاراته حتى بلغ اسوار حلب ، بينما أعـــدّ جوسلين خطة لإعادة احتلال الرها . فاتصل عملاؤه بالأرمن بداخل المدينة (الرها) وظفروا بتأييد اليعاقبة . ثم خرج جوسلين على رأس جيش قليل العـدد ، فانحاز اليه بلدوين سيد مرعش وكيسوم ، على ان ريموند أبى للمرة الثانية ان يبذل المساعدة ، وكان لهـذا الرفض ما يبرره ، إذ لم تستند الحملة الى خطة سليمة ، فقـد كان جوسلين يأمل في ان يهاجم الرها بغتة ، غير ان المسلمين تلقوا الانذار عن هـذه الخطة . فلما وصل جوسلين بجيشه الى اسوار المدينة (الرها) ، في ٢٧ اكتوبر ، استطاع ان يشق طريقه الى داخل المدينة بفضل مساعدة السكان الوطنيين ، غير ان حامية القلعة تأهبت لمواجهة جوسلين . وكان عساكر جوسلين من القلّة ما تمنعه من اقتحام استحكاماتها . فظل جوسلين بالمدينـــة لا يدري ماذا يفعل . وفي تلك الاثنـاء قدمت الرسل الى نور الدين بحلب . وكان جيشه وقتذاك يتصدى لقتال ريموند في بلاد انطاكية ، غير ان نور الدين أمر على الفور باستدعاء هـــذا الجيش ، وطلب المساعدة من جيرانــه من الامراء المسلمين . وفي ٢ نوفمبر ظهر نور الدين بجيشه امام الرها . فوقع جوسلين بين قوات نور الدين وحامية قلعـة الرها ، فأدرك ألا سبيل الى النجاة إلا بالجلاء المباشر عن المدينة . واستطاع أثناء الليل ان يتسلل الى خارج المدينة برجاله وبأعداد كبيرة من المسيحيين الوطنيين ، واتخذ طريقه صوب نهر الفرات . واقتفى نور الدين أثرهم ، ونشبت المعركة في اليوم التالي ، وظل الفرنج صامدين في القتـــال ، حتى دفعت الحماقة جوسلين الى ان يأمر الفرنج بالقيام بهجوم مضاد ، غير ان المسلمين ردّوا هذا الهجوم ، ولم يلبث عساكر الفرنج ان تفرقوا وولوا الأدبار فزعين ، ولقي بلدوين سيد مرعش مصرعه في ساحة القتـــال . وأصابت جوسلين

الجراح في رقبته ، فهرب مع رجال حرسه الى ميساط ، حيث لحق به باسيل ، أسقف اليعاقبة ، ووقع يوحنا اسقف الارمن اسيراً ، فحملوه مع الاسرى الى حلب . واستحر القتل بالمسيحيين الوطنيين ، بعد ان تخلى عنهم الفرنج ، فلم يبق على قيد الحياة منهم ، إلا مَن وقع في السبي من نسائهم وأطفالهم . وتقرر إخراج كل سكان الرها المسيحيين وإبعادهم الى المنفى . فأضحت المدينة الكبيرة ، الرها ، التي زعم المسيحيون أنها اقدم المدن المسيحية في العالم ، خاوية موحشة ، ولم تسترد مكانتها حتى الوقت الحاضر (١) .

الشقاق بين الفرنج وأثر سنة ١١٤٧ :

دلّ سير الاحداث على ان أعداء زنكي لم يجنوا من وفاته إلا شيئاً ضئيلاً . يضاف الى ذلك ان أبناءه كانوا من الحكمة ما يكفي لمنع وقوع الشجار بينهم ، على الرغم من انه لم يكنّ اخدهم للآخر شيئاً من المحبة ، وإذ انصرف سيف الدين غازي الى النزاع مع الاراتقة ، بادر الى تدبير اجتماع مع اخيه ، نور الدين ، جرى فيه التصديق على اقتسام إرث زنكي .

---

(١) انظر : William of Tyre, XVI. 14 - 16. pp. 728 - 732.
Matthew of Edssa, CCLVIII. pp. 328 - 329.
أخطأ المؤرخ متى الرهاوي في تحديد التاريخ ، فجعله سنة ١١٤٧ — ١١٤٨ .
انظر ايضاً : Michael the Syrien, III. pp. 270 - 272.
Basil the Doctor, Elegy on Baldwin. p. 205.
Anon. Chron. Syr, pp. 292 - 297.
Ibn al - Qalanisi, pp. 274 - 275.
Ibn al - Athir, pp, 455 - 458. Atabegs, p. 156. Bustan, p. 541.

فصار لسيف الدين ما كان لزنكي بالعراق من بلاد ، بينما أختص نور الدين بممتلكاته بالشام . وحوالي ذلك الوقت ازداد مركز نور الدين قوة نظراً لما ارتكبه الفرنج في بيت المقدس من حماقة لم تكن متوقعة . إذ حدث في اوائل سنة ١١٤٧ ان خرج على أنر ، احد أمرائه ، وهو التونتاش ، امير بُصرى وصلخد في اقليم حوران ، وهو في الاصل ارمني اعتنق الاسلام ، فأعلن استقلاله عن دمشق ، وقـــدم الى بيت المقدس يلتمس المساعدة . وعرض ان يتنازل للفرنج عن بصرى وصلخد ، اذا جعلوا له إقطاعاً في حوران . فبادرت الملكة ميليسيند الى دعوة المجلس للانعقاد لمناقشة هذا الاقتراح ، اذ ان اتخاذ القرار في هـــذا يعتبر امراً بالغ الأهمية ، لأن النهوض لمساندة التونتاش ليس معنـاه سوى فصم التحالف مع دمشق . غير ان العرض كان مغرياً ، إذ كان معظم سكان حوران من المسيحيين الملكانيين الذين ينتمون للمذهب الارثوذكسي . وبفضل مساعـــدة هؤلاء المسيحيين ، يتيسر استغلال اقليم حوران ، كما ان السيطرة على هذا الاقليم تجعل دمشق تحت رحمـة الفرنج . تردد البارونات ، وأمروا بحشد الجيش في طبرية ، غير انهم أرسلوا سفارة الى أنر تخطره باقتراحهم باعادة التونتاش الى وظيفته ، فاستشاط أنر غضباً وغيظاً ، غير انه أراد ان يتجنب نقض التحالف مع الفرنج ، لخوفه من نور الدين . وفي رده اخـــذ أنر يذكر الملكة انه وفقاً لقانون الاقطاع عندها ، لا يجوز للأمير الفرنجي ان يساند تابعاً لدولة صديقة ، على سيده ، غير ان أنر عرض ان يؤدي لها كل النفقات التي تكلفتها الحملة التي اقترحت توجيهها لمساندة التونتاش . وعندئذ أرسلت الملكة ميليسيند الى دمشق فارساً اسمه برنارد فاشر ، يخطر أنر ان الملكة التزمت ، لسوء الحظ ، بمساندة التونتاش ، الذي سوف يعيده جيشها الى بصرى ، غير انها تعاهدت ألا تمس دمشق بضرر بحال من الاحوال . ولم

يلبث برنارد ان عاد ، بعد ان أقنعه أنر ان الاقتراح قـــام على اساس خاطىء ، وليس سليماً . واستطاع برنارد ان يحمل الملك الشاب بلدوين على قبول آرائه ، فلما جرت مناقشة الامر من جديد في الجنس ، تقرر التخلي عن الحملة . غير ان ثائرة الجند وحماستهم اشتدت وقتذاك . وإذ استبد الغضب برعاع الجند بسبب التخلي عن غارة مثمرة على بلاد العدو ، اتهموا برنارد بالخيانـــة ، وأصرّوا على المضي الى القتال ، فارتاع الملك والبارونات ، ولم يسعهم إلا النزول على إرادتهم .

وفي مايو سنة ١١٤٧ ، سار جيش الفرنج ، يقوده الملك بلدوين الثالث ، فعبر نهر الاردن ، وزحف على إقليم جولان . غير انـــه لم يكن ذلك ما يأمله العساكر من الزحف المظفر . إذ سبق لأنر ان تلقى تحذيراً بذلك ، فاجتمعت قواته الخفيفة من التركمان بالعرب النازلين في المنطقة ، لمضايقة الفرنج ، أثناء معاناتهم لالتماس الطريق بوادي اليرموك الى درغا . أما أنر فإنه ارسل فعلاً سفارة الى حلب ، يلتمس العون والمساعدة من نور الدين . وفرح نور الدين عندما تلقى هذا الطلب من أنر ، فانعقد التحالف بينهما ، وخطب نور الدين لنفسه ابنة أنر لتكون زوجة له ، ووعد بأنه سوف ينهض على الفور لنجدته ، وتقرر ان تعود الى نور الدين حمـــاه ، على ان يحترم استقلال دمشق . وفي نهاية مايو ، وصل الفرنج الى ذرعا التي تقع في منتصف الطريق بين الحدود وبصرى . وفي تلك الاثنـــاء أمر أنر بالمسير الى صلخد (صرخد) ، التي تقع بعيداً جهة الشرق . وظلت حامية التونتاش في صرخد عقد الهدنة . أمـــا أنر فتحرك بجيشه صوب الغرب للانحياز الى نور نور الدين ، الذي أسرع بالقدوم من حلب . فزحفا سوياً على بصرى ، فبادرت زوجة التونتاش بتسليمها لهما .

على ان خبر تسليم بصرى لم يبلغ الفرنج إلا في المساء ، وقد أضناهم التعب والارهاق ، ونفدت المياه ، وأضحت بصرى على مرمى نظرهم . ولما لم تسمح حالتهم بالمضي لقتال المسلمين ، لم يسعهم إلا الارتداد ، على انهم صادفوا من العناء والمشقة أثناء عودتهم ما يزيد كثيراً على ما لقوه عند قدومهم . اذ نفد القوت ، وانطمرت آبار عديدة ، وألحّ العدو في مضايقة مؤخرة جيشهم ، وقتل من صادفه من العساكر الذين ضلوا الطريق . وأظهر الملك الطفل بطولة فائقة ، بأن رفض الاقتراح بأن يتخلى عن الجيش الرئيسي ، وأن يبادر بحرسه الخاص الى التماس النجاة . على ان ما ضربه من مَثل رائع كان كفيلاً بالإبقاء على النظام ورفيع الشأن . على ان البارونات قرروا آخر الامر عقد الصلح مع أنر ، وأنفذوا من قِبلهم رسولاً ، يتحدث باللغة العربية ، والراجح انه برنارد فاشر ، ليلتمس الهدنة ، غير ان الرسول لقي مصرعه في الطريق . ومع ذلك فإنه حينما بلغ الجيش الرحبة على حافة جبل عجلون ، قدم رسول من قِبل أنر يعرض إمداد جيش الفرنج بالمؤن . وإذ ادرك أنر ان نور الدين اضحى بالغ القرب منه ، لم يشأ ان يتعرض جيش الفرنج للتدمير الشامل . ورفض الملك بلدوين الثالث ما عرضه أنر . وتجلى للناس ان فارساً اجنبياً غريباً يمتطي حصاناً ابيض ، ويمسك بلواء احمر ، ظهر فجأة ، وتولى قيادة الجيش الى جدر[1] . فبلغها سالماً . وبعد ان دارت المناوشة الاخيرة في هذا الموضع ، عبر جيش الفرنج نهر الاردن ، عائداً الى فلسطين ، والواقع ان هذه الحملة كانت

---

(١) أوردها رنسيمان Gadara ، ربما هنا من :
Le Strange : op. cit. p. 54.

باهظة التكاليف ، ولم يكن لها هدف معين . ودلّت على حماقة الفرنج في أمورهم السياسية وخططهم العسكرية ، برغم ما أثبتوه من انهم محاربون أكفّاء [1] .

ظهور نور الدين سنة ١١٤٧ :

لم يفد من هذه الحملة إلا رجل واحد ، هو نور الدين . استعاد أنر فعلاً حوران ، ولمـــا قدم التونتاش الى دمشق ، يأمل في عفو أنر عنه ، تقرر سمل عينيه وإلقائه بالحبس ، والتشهير بأصحابه . على ان أنر كان شديد الإدراك لمـا اصبح عليـه نور الدين من قوة . واشتد حذره لمـــا يخبئه المستقبل من اخطار ، وتطلع الى إعادة التحالف مع الفرنج . أما نور الدين فالتزم بالمعاهدة التي عقدها مع أنر . عاد نور الدين صوب الشمال ليواصل ما أقدم عليه من انتزاع كل بـلاد انطاكية الواقعة شرقي نهر الاورنت . فلم تنته سنة ١١٤٧ حتى أضحى في يديـــه ، ارتاح ، وكفرلاثا ، والبلاط ، وبسرفوت [2] .

وعلى هذا النحو ، ظهر نور الدين على انه أكبر عدو للمسيحيين . كان وقتذاك في التاسعة والعشرين من عمره ، وما اتصف بـــه من رجاحة العقل ، تجاوزت سنوات عمره ، فأثار إعجاب أعدائه ما اشتهر بـــه من

---

(١) انظر : William of Syre, XVI. 8 - 13. pp. 715 - 728.
Ibn al - Qalanisi, pp. 276 - 279.
Abu Shama, pp. 50 - 53.

(٢) انظر : Kemal ad - Dun, ed. Blochet, pp. 515 - 516.
Ibn al - Athir, pp. 461 - 462.

العدالة ، والاحسان ، والتقوى الصادقة . ومع انه ، فيما يبدو ، لم يكن من النباهة في الجندية مثلما كان ابوه زنكي ، غير انه كان يقل عنه في القسوة وفيما اتصف به زنكي من أساليب الغدر والانتقام ، وفاقه نور الدين في الحكم على الرجال ، واختيارهم . فاشتهر وزراؤه وقادته بالكفاية والإخلاص . على ان موارده المادية كانت تقل عن موارد ابيه ، إذ كان بوسع زنكي ان يستند الى خيرات اقليم أعالي العراق ، الذي أضحى بحوزة سيف الدين . غير ان سيف الدين ورث ايضاً ما كان لزنكي من متاعب مع الأراتقة ، ومع الخليفة العباسي ، والسلطان السلجوقي . على حين ان نور الدين اضحى له من الحرية ، ما يحمله على ان يوجه كل اهتمامه للغرب . يضاف الى ذلك ان ولدي زنكي ، ظلا مخلصين في الحفاظ على عهـــد الأسرة . فيبذل سيف الدين المساعدة لنور الدين عند الحاجة اليها ، دون ان يخضع للرغبة في ان يضيف شيئاً الى نصيبه من أملاك الأسرة . أما الاخ الثالث ، وهو نصر الدين ، فانــه استقر في حرّان ، من قبل اخيه نور الدين ، على حين ان قطب الدين ، وهو اصغر الاخوة الاربعة سناً ، ترعرع في بلاط اخيه الاكبر في الموصل . وإذ صار نور الدين بنجوة من الخطر من قبل سائر الامراء المسلمين ، بفضل علاقاتــه الأسَرية ، وتحالفه مع أنر ، اضحى من الكفاية والاستعداد ما يجعل له قيادة المسلمين في الرد على هجوم الفرنج . فاذا تهيأ للمسيحيين ان يبقوا في الشرق ، فلا بد ان يركزوا كل جهودهم وطاقاتهم لمقاومته [١] .

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, p. 546. Atabags, pp. 152 - 158.

الكتاب الثالث

الحرب الصليبية الثانية

الفصل الاول

حشود الملوك

لم يكد نبأ سقوط الرها يصل الى بيت المقدس، حتى أرسلت الملكة ميليسيند الى انطاكية تستشير حكومتها في إرسال سفارة الى روما، لتنهي هذا النبأ الى البابا، وتطلب حملة صليبية جديدة. تقرر ان يكون السفير الى البابا، هيو اسقف جبلة، الذي ذاع صيته بين المسيحيين اللاتين، بسبب ما أقـدم عليه من معارضة طلب الامبراطور البيزنطي، يوحنا كومنين. وبرغم ما تنطوي عليه سفارة الاسقف من أهمية ملحة، فانه لم يصل الى المقر البابوي إلا في خريف سنة ١١٤٥. كان البابا، يوجينيوس الثالث، وقتذاك في فيتيربو، نظراً لأن روما كانت في قبضة حكومة (قومون)، تبغض الحكم البابوي. وصحب اسقف جبلة، المؤرخ الالماني أوتو فرَيْزنجين، الذي سجّل كيف تلقى البابا النبأ المروّع، على الرغم من ان اوتو نفسه كان اكثر اهتماماً بما جاء به من معلومات اسقف امير مسيحي، يقيم في شرقي فارس، أحرز النصر فيما شنه من حروب على

الكفار . كان اسمه يوحنا ، وكان من النساطرة . استولى هذا الامير فعلا على Ecbatama (همدان) العاصمة الفارسية ، غير انه توجه صوب الشمال الى إقليم يكسوه الثلج والجليد ، حيث بلغ عدد من فقده من الرجال من الكثرة ، ما حمله على العودة الى وطنه . كانت هذه اول إشارة وردت في في صفحات التاريخ عن اسطورة بريستر يوحنا (١) .

على ان البابا يوجينيوس الثالث لم يشارك المؤرخ الالماني الامل في ان بريستر يوحنا سوف ينهض لإنقاذ العالم المسيحي . استبد القلق والضيق بالبابا ، اذ قدم اليه حوالي ذلك الوقت وفد من الاساقفة من الارمن من قليقية ، حرص على ان يحصل على مساندته لمناهضة بيزنطة (٢) . ولم يكن بوسع البابا ان يهمل واجباته في الشرق . وبينما كان الاسقف هيو في طريقه الى بلاط كل من فرنسا وألمانيا ، لينبىء بخبر سقوط الرها ، قرر البابا يوجينيوس الثالث الدعوة الى الحرب الصليبية (٣) . غير ان البابوية لم تكن في وضع يهيء لها توجيه الحركة الصليبية مثلما سبق للبابا اربان الثاني ان حاول توجيهها . إذ لم يستطع يوجينيوس ان يدخل روما منذ ان تولى البابوية في فبراير . ولم يكن بوسعه حتى وقتذاك ان يطوف بالبلاد الواقعة وراء جبال الالب . ومن قبيل الحظ الطيب ان ارتبط يوجينيوس

---

(١) انظر : Otto of Freisingen, Chronicas, pp. 363 - 7.
Gleber, Papst Eugen, III. p. 36.

(٢) انظر : Tournebize, Histoire Politique Religieuse de l'Armenie, pp. 235 - 9.

(٣) انظر : Chronicon Mauriniacense, R. H. F. vol. XII. p. 88.
Otto of Freisingen, Gesta Friderici, pp. 54 - 57.

بعلاقات ودية مع اثنين من أقوى الامراء في غرب اوربا . ذلك ان كنراد هوهنشتاوفن ، ملك ألمانيا كان يدين بتوليه العرش ، الى ما تلقـــاه من مساعدة من قبل الكنيسة ، وقام بتتويجه المندوب البابوي . أمـا لويس السابع ملك فرنسا ، المعروف بتقواه ، فإن علاقة البابا بـه لأكثر مودة وصداقة . وبعد ان انغمس لويس في اوائل عهـده في النزوات التي يرجع السبب فيها الى تأثير زوجته إليانور صاحبة اكيتانيا ، أعلن توبته وندمه ، وقرر ان يهتدي في كل الامور بمستشارين من رجـال الكنيسة ، ولا سيما القديس برنارد رئيس دير كليرفو . وقرر البابا ان يطلب الى الملك لويس السابع ان يبذل المساعدة للشرق ، بينما احتـــاج الى مساعدة كنراد في ايطاليا ، لإخضاع اهل روما ، والحد من أطماع روجر الثاني ملك صقلية . لم يشأ البابا لكنراد ان يؤدي التزامات اخرى . وإذ يعتبر لويس السابع ملكاً على البلاد ، التي جـاء الى الشرق منها ، معظم امراء وسادة الفرنج ، كان من الطبيعي ان يتولى قيـادة الحملة التي تقرر توجيهها لإنقاذهم . وفي اول ديسمبر سنة ١١٤٥ ، وجّه البـــابا يوجينيوس مرسوماً الى الملك لويس وسائر الأمراء والمؤمنين بمملكة فرنسا ، يحثهم فيـــه على النهوض لنجدة الشطر الشرقي من العـالم المسيحي ، ويعدهم بتأمين ممتلكاتهم في الدنيا ، وغفران ذنوبهم في الآخرة [١] .

---

(١) انظر : Jaffé - Wattenbach, Regesta, no. 8796. vol. II. p. 26.
Caspar : « Die Kreuzzugbullen Eugens, III. » , in Neues Archiv, vol. XLV. pp. 285 - 306.

أثبت كاسبار ان مرسوم البابا يوجينيوس مؤرخ في اول ديسمبر سنة ١١٤٥ ، فدحض بذلك النظرية الفرنسية التي تعتبر الملك لويس السابع هو الذي أثار هـذه الحرب الصليبية (الثانية) .

حروب صليبية عابرة :

الواقع ان أنباء سقوط الرها أثارت الرعب في الغرب . وما بعثته الحرب الصليبية الاولى من اهتمام وحماس ، قد هدأت ريحه . إذ ان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ألهب خيال الناس ، فلم تلبث الأمداد الضخمة بعدئذ ، ان نهضت لتلبية الاستغاثات من الشرق ، مثلما دلّ على ذلك حملة سنة ١١٠١ . على ان حملة سنة ١١٠١ انتهت بكارثة ، ومع ذلك ظلت إمارات الفرنج في الشرق قائمة ، ودعمت مركزها . ولا زالت الأمداد تتوالى ، غير انها جاءت ارسالاً . إذ ان سيل الحجاج لم ينقطع ، وبلغ مقام عدد كبير منهم من طول الوقت ما يكفي للاشتراك في حملة حربية في شهور الصيف ، ومن هؤلاء الحجاج أمراء امثـــال سيجورد ملك النرويج ، ومنهم ايضاً جـماعة كبيرة تنتمي لأقوام اكثر تواضعاً ، امثال الانكليز والفلمنكيين والدانيين الذين قدموا في سنة ١١٠٦ . وأخذت المـدن الايطالية البحرية ترسل من حين الى آخر ، اسطولاً ليسهم في الاستيلاء على مينـــاء من الموانى ، والواضح ان الباعث لهم لم يكن سوى المصلحة التجارية الخالصة ، التي دعت الى ازدياد عدد القادمين من التجار الايطاليين . على أنه لم يقدم ، منذ زمن بلدوين الاول إلا قلة من هذه الجماعات المسلحة من الحجاج . ففي السنوات الاخيرة لم يكن من الجماعات الجديرة بالاهتمام ، سوى الجماعة التي قادها تيري كونت فلاندر ، وصهر الملك فولـــك . وتوالى قدوم المهاجرين ، إما من الأبناء الصغار ، امثال باليان شارتر ، مؤسس بيت ابلين ، وإما من البارونات امثـال هيو لى بويزيه او مَنسّيس هيرج اللذين كانا يأملان في ان يفيدا من صلة القرابة التي تربطهما بالبيت الملكي . على ان عنصراً بالغ الأهمية ، شديد الولاء ، تمثل في الفرسان الذين جاءوا ليلحقوا

بالطائفتين الدينيتين العسكريتين الكبيرتين ، الاسبتارية والداوية . اخذت هاتان الطائفتان تقومان رويداً رويداً بدور الجيش الثابت للمملكة . وما بذله لهم الملك وأتباعه من ضياع عديدة دلّت على ما حظيت به هاتان الطائفتان من بالغ التقدير . إذ لم يبق بالشرق ، منذ ان تفرقت جيوش الحرب الصليبية الاولى ، جيش للفرنج كان له من القوة ما يكفي للقيام بهجوم كبير على المسلمين[1] .

كان الغرب في حاجة الى ما حلّ بالرها من كارثة كيما ينهض من جديد . إذ تراءى لأوربا الغربية ، في تلك الأثناء ، ان الامارات الصليبية بالشام لم تقم ، فيما يبدو ، إلا لتؤلف الجناح الأيسر لحملة حربية لقتال المسلمين على امتداد البحر المتوسط ، أما الجناح الايمن فكان باسبانيا ، حيث ما زال بها من الأعمال ما ينبغي ان يؤديه الفارس المسيحي ، غير ان تقدم المسيحيين في اسبانيا توقف أثناء العشرينات والثلاثينات من هذا القرن (الثاني عشر) ، نظراً لما نشب من منازعات بين أوراكا ملكة قشتالة ، وزوجها ألفونسو الاول ملك أرَجون . غير ان ابنها وولي عهدها ، ألفونسو السابع الذي أنجبته من زوجها البرجندي السابق ، بعث النهضة في قشتالة . ففي سنة ١٠٣٢ ، أي بعد ست سنوات مضت على توليه العرش ، شن سلسلة حملات على المسلمين ، بلغت ، في سنة ١١٤٧ ، أبواب قرطبة حيث جرى الاعتراف بسيادته . والمعروف ان الفونسو اتخذ في سنة ١١٣٧ لقب الامبراطور ، للدلالة على انه السيد الأعلى لشبه الجزيرة

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٤٩ — ١٥٠ ، ٣٦٤ .

(ايبيريا) ، وليس تابعاً لأحد . وفي تلك الأثناء ، أمضى الفونسو الاول ، السنوات الاخيرة من حياته ، بعد ان خلصه موت أورّاكا من مشاكل قشتالة ، في اتخاذ خطة الهجوم في مُرسْيه ، التي تفاوت نجاحه فيها بين حملة واخرى . أما ريموند برنجار الثالث كونت برشلونة ، فأمدّ سلطانه على الساحل صوب الجنوب . مات الفونسو الاول في سنة ١١٣٤ ، وخلفه على الحكم اخوه راميرو الذي كان راهباً ، غير ان سنوات حكمه الثلاث طفحت بالأخطار والكوارث . على انه حدث سنة ١١٣٧ ، ان ابنة راميرو الملكة بترونيلًا ، التي لم تتجاوز السنة الثانية من عمرها ، تزوجت من ريموند برنجار الرابع ، كونت برشلونة ، فاتحدت بذلك قطالونية وأراجون ، وتألفت منها مملكة استطاعت بفضل قوتها البحرية ان تستكمل الاستيلاء من جديد على الجزء الشمالي الشرقي من اسبانيا[1] . وبهذا لم تحل سنة ١١٤٥ ، حتى سارت الامور على نحو سليم في المجال الاسباني ، على ان العاصفة أوشكت ان تهب . ذلك ان المرابطين الذين ظلوا يحكمون اسبانيا في منتصف القرن السابق ، أصابهم الانهيار الذي لا امل في النهوض منه ، وقد سبق ان حلّ مكانهم في افريقية الموحدون ، الذين يؤلفون مذهباً من المصلحين الزاهدين ، يكاد يكون غَنُوصياً في فقه دينه ، وفي حرصه على قيام طبقة من الصفوة ، ودعا الى هذا المذهب ، ابن تومرت ، من البربر . ويرجع الى عبد المؤمن خليفة ابن تومرت ، ما بلغه هذا المذهب من تطور ، وما انطوى عليه من الحث على الجهاد . أنزل عبد المؤمن الهزيمة بسلطان المرابطين ، تاشفين بن علي قرب تلمسان ، حيث أجهز عليه ،

---

(١) انظر : Bellasteros, Historia de Espana, II. pp. 247 - 262.

سنة ١١٤٥ . وإذ أتمّ عبـــد المؤمن فتح مراكش سنة ١١٤٦ ، أضحى بوسعه ان يعبر الى اسبانيا [١] . كل هـــذه الامور التي شغلت الفرسان المسيحيين باسبانيا ، جعلتهم لا يحفلون بكل ما جاء اليهم من الشرق من من استغاثة . فلمـــا اطمأنت الممالك الاسبانية في مستقرها ، لم تعد مثلما كانت في القرن السابق ، الهدف الذي يجتذب فرسان فرنسا وأمراءها .

روجر الثاني ملك صقلية :

احتل روجر الثاني ملك صقلية بؤرة الساحة التي تدور عليها المعركة مع المسلمين . إذ قام روجر بتوحيد كل الممتلكات النرمانية في ايطاليا ، وأضحى ملكاً في سنة ١١٣٠ . كان روجر شديد الادراك لما لمملكته من أهمية استراتيجية ، وبمـــا تحتله من موقع مثالي يكفل لها الاشراف على البحر المتوسط . غير انه كان لا بـــد ان يكون له موضع على الساحل الافريقي المواجه لجزيرة صقلية ، حتى يكتمل له التحكم في البحر المتوسط . وتهيأت الفرصة للملك روجر ، بمـــا نشب من المنازعات والمنافسات بين الأمرات الاسلامية الحاكمـــة في مراكش ، والتي زاد في حدّتها ما جرى من تداعي سلطة المرابطين في مراكـش ، وتضعضع سيادة الفاطميين في تونس ، فضلاً عن اعتماد المدن الافريقية على ما تستورده من حبوب من صقلية . غير ان حملاتـــه الاولى ، بين ١١٢٣ ، ١١٢٨ ، لم يجن منها سوى

---

(١) عن الموحدين ، انظر :
Godera, Decadenzia Desuparicion de los Almoravides en Espana.
وانظر ايضاً ما كتبه بل Bel عن « الموحدين » في دائرة المعارف الاسلامية .

الاستيلاء على جزيرة مالطة . على ان ما بذله في الوقت المناسب من مساعدة للحسن امير المهدية ، حمله على ان يقبله سيداً له . وفي السنة التالية احتل جزيرة جربة في خليج قابس . وما احرزه من انتصارات في غاراته على السفن الاسلامية ، زادت في إغرائه ، فأخذ يهاجم المدن الساحلية . ففي يونيو سنة ١١٤٣ ، دخلت عساكره مدينة طرابلس ، غير انها أجبرت على الانسحاب منها . على ان روجر استطاع بعد ثلاث سنوات ان يستولي على المدينة من جديد ، حينما أدّت ثورة داخلية الى تنصيب امير من المرابطين حاكماً عليها . وفي هذه المرة رسخت أقدامه فأضحت طرابلس نواة لمستعمرة نورمانية في افريقية [١] .

وبذا صار الملك روجر في وضع يبلغ من الصلاحية ما يجعله يسهم في حرب صليبية جديدة ، غير أنه كان موضع الريبة والشك ، فلم يولّ البابوية ما هي جديرة به من الاحترام ، وقلما استجاب لرغباتها . فإقدامه على تتويج نفسه ملكاً أثار نفور سائر أمراء اوربا وملوكها ، وأشار القديس برنارد في كتابه الى لوثير ملك المانيا الى « أن مَن يجعل من نفسه ملكاً على صقلية ، يهاجم الامبراطور » [٢] . ومما لم يوافق عليه القديس برنارد ، ينكره الرأي العام الفرنسي . وما زال الأمراء في الشرق يكنون الكراهية البالغة لروجر ، إذ أنه صرح بأنه لم يغفر مطلقاً لمملكة بيت

---

(١) انظر : Chalandon, Domination Normande en Italia, pp. 158 - 165.

(٢) انظر : Saint Bernard, letter no. 139. in M. P. L. vol. CLXXXII. col. 294.

المقدس ما لقيته منها أمه أذيلايد من سوء المعاملة ، وما أصابه من فشل في ان يتولى عرش بيت المقدس ، وفقاً للوعد الوارد في عقد الزواج ، على حين انه يطالب بانطاكية باعتباره الوريث الوحيد من الذكور لابن عمه بوهمند . غير ان اشتراكه في الحرب الصليبية لم يكن امراً مرغوباً فيه ، ومع ذلك كان الامل معقوداً عليه في ان يباشر قتال المسلمين في قطاعه الخاص[1] .

اجتماع فيزيلاي سنة ١١٤٦ :

من اليسير إدراك السر الذي دعا البابا الى ان يختار لويس السابع ملك فرنسا ، لتنظيم الحرب الصليبية الجديدة ، واستجاب الملك لويس في لهفة وشغف لنداء البابا . إذ ان لويس اصدر فعلاً الدعوة لكبار مقطعيه للاجتماع به يوم عيد الميلاد في بورج ، عندما وصله قرار البابا ، إثر الأنباء التي حملها اليه اسقف جبلة . فلما اجتمع بكبار المقطعين ، أنهى اليهم أنه قرر الاشتراك في الحرب الصليبية ، والتمس منهم ان يحتذوا به . غير انه ساءه ما تلقى من اجابة مخيبة لأمله . فلم يُبد النبلاء العلمانيون شيئاً من الحماس لهذا القرار . فأهم رجل سيامي بالمملكة ، سوجر ، رئيس دير سان دنيه ، لم يقر ما ينويه الملك من التغيب عن بلاده . ولم يتحدث في جانب الملك سوى اسقف لانجر[2] .

---

(١) انظر : Odo of Deuil, pp. 22 - 23.

(٢) انظر : Vita Sugerii Abbatis, pp. 293 ff.
Odo of Deuil, p. 121.

وإذ خذله اتباعه بما أظهروه من الاستخفاف ، قرر لويس أن يؤجل الاستجابة للبابا مدة ثلاثة شهور ، ثم دعا كبار المقطعين مرة أخرى للاجتماع به في عيد القيامة في فيزيلاي . وفي الوقت ذاته ، كتب الى البابا يعرب عن رغبته في ان يتولى قيادة حملة صليبية ، وأرسل يدعو الشخص الوحيد في فرنسا ، الذي يفوق الملك في السلطة ، وهو القديس برنارد رئيس دير كليرفو . كان القديس برنارد وقتذاك في ذروة مجده وشهرته . ومن العسير هنا ان نعود الى القرون الخالية ، بروت ما كان لشخصيته من أثر شديد القوة على كل من عرفه . فحرارة فصاحته بردت فيما بقي مدوناً من اقواله . وباعتباره من علماء الدين ومن رجال المناظرة فيه ، كان فيما يبدو بالغ الصلابة ، وفيه شيء من الخشونة والقسوة . على انه منذ ان ولي رئاسة دير كليرفو سنة ١١١٥ ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، حتى وفاته بعد نحو اربعين سنة ، ظل يسيطر على الحياة الدينية والسياسية في غرب اوربا . فهو الذي وهب طائفة السيسترشيان الدينية القوة والعزم ، وهو وحده ، الذي انقذ البابوية من انشقاق انا كليتوس . وما اقترنت به دعوته من الحماس والصدق ، فضلاً عما اشتهر به من الشجاعة والنشاط ، ونقاء حياته وخلوها من كل نقيصة ، كل ذلك كفل له النصر في كل دعوى يساندها ، باستثناء موقفه من المتهرطقين الكاثاريين في لانجدوك ، الذين يكنون له كراهية مريرة . واهتم القديس برنارد منذ زمن طويل بمصير الشطر الشرقي من العالم المسيحي ، وأسهم في سنة ١١٢٨ في وضع قاعدة طائفة فرسان المعبد . فلما التمس كل من البابا والملك ، مساعدته في الدعوة الى الحرب الصليبية ، حرص على الاستجابة لهما[١] .

---

(١) انظر : = Odo of Deuil, p. 21.

انعقدت الجمعية في فيزيلاي ، في ٣١ مارس سنة ١١٤٦ ، ولما ترددت الأنباء ان القديس برنارد سوف ينهض للدعوة لحرب صليبية ، قدم الزائرون من جميع أرجاء فرنسا ، وحدث مثلما جرى في كليرمونت ، قبل خمسين سنة ، أن الزحام بلغ من الشدة ، ما لم تتسع له الكاتدرائية . فتحدث القديس برنارد من منصة اقاموها في حقل خارج المدينة الصغيرة . لم يصل الينا نص خطبته ، وكل ما نعلمه انه قرأ الأمر البابوي الذي يدعو الى حملة مقدسة ، ويعد بالتحلل كل من اشترك في هذه الحملة ، ثم أفاد من فصاحته التي لا يباريه فيها احد ، في شرح الضرورة الملحة لطلب البابا . ولم يلبث سامعوه أن وقعوا تحت سحر بيانه ، فأخذ الناس يصيحون طالبين الصلبان ، إذ هتفوا : « اعطونا الصلبان » ، ولم يمض إلا زمن قصير حتى نفد كل القماش الذي سبق إعداده ، لتخاط منه الصلبان ، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديته الخارجية ، وطلب تقطيعها وحياكتها صلباناً . وظل القديس برنارد ومساعدوه ، حتى المساء ، يخيطون الصلبان لأولئك المؤمنين الذين ازداد عددهم ، والذين وطنوا أنفسهم على الاشتراك في الحرب الصليبية [1] .

= يشير المؤرخ اوتو فرايزنجين الى ان البارونات أحبوا ان يستشيروا القديس برنارد، قبل ان يلتزموا بشيء للملك لويس . انظر :

Otto of Freisingen, Gesta Friderici, p. 58.

وعن القديس برنارد والداوية انظر :

Vacandard, Vie de Saint Bernard, I. pp. *227* - *249*.

(١) انظر :

Odo of Deuil, p. *22*.

Chronicon Mauriniacense, loc. cit.

Suger, Vita Ludovici, VII. ed. Molinier, pp. 158 - 160.

كان الملك لويس اول من اتخذ الصليب ، ونسي أتبـــاعه في غمرة حماسهم لمرافقته ، ما سبق ان اظهروه من البرود في الاستجابة الى طلبه . وكان من بين هؤلاء الاتباع روبرت كونت دريه شقيق الملك ، والفونسو جوردان كونت تولوز الذي ولد فعلاً في الشرق ، ووليم كونت نيفر الذي قاد والده سنة ١١٠١ ، احدى الحملات الصليبية المنكودة الحظ ، وهنري وريث كونتية شامبانيا ، وثييري كونث فلاندر ، الذي سبق ان حارب فعلاً في الشرق ، وتزوج من ابنة (فولك) زوج الملكة ميليسند ، وأماديوس كونت سافوي ، عم الملك ، وأرشيمبالد كونت بوربون ، وأساقفة لانجر وأراس ، وليزييه ، فضلاً عن عدد كبير من نبلاء يلون هؤلاء في المرتبة . على ان الاستجابة الكبرى جاءت من المستضعفين من الناس [١] .

واستطاع القديس برنارد ان يكتب للبابا بعد بضعة ايام رسالة يقول فيها : « لقد أمرت ، فأطعتُ ، وما كان لمن اصدر الأمر من سلطة ،

---

(١) كان اسقف لانجر ، جودفري دى لاروش فاييه ، من رهبان دير كليرفور ، ومن أقارب القديس برنارد . ولا نعرف إلا القليل عن الفيسوس ، اسقف أراس ، الذي كان من قبل رئيساً لدير انشين.ولم يقم على اساس سليم ما رددته الروايات المتأخرة من انه شقيق سوجر. أما ارنولف سيز اسقف ليزييه ، فكان من علماء الدراسات القديمة ، واشتهر بنزعاته وميوله الدنيوية ، اعتبر اسقفا لانجر وليزييه ، انهما مندوبا البابا ، على حين ان المندوبين البابويين فعلاً كانا ثيودوين الالماني، كاردينال بورتو ، والكاردينال جويدو الفلورنسي . على ان المؤرخ يوحنا سالسبوري
John of Salisbury (Historia Pontificalis, pp. 54 - 55.
رأى ان ما نشب من منازعات بين الاسقفين ، وكراهيتهما المشتركة للكاردينالين ، أسهمت الى حد كبير في فشل الحرب الصليبية الثانية . واعتقد يوحنا سالسبوري ان جودفري اسقف لانجر أكثر اتزاناً من ارنولف اسقف ليزييه .

جعلت طاعتي مثمرة ، فلم أكد افتح فمي ، وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون ، فلا حصر لعددهم ، فالقرى والمدن هجرها سكانها ، فلا تكاد تجد رجلاً واحداً لكل سبع نساء ، ويصادفك في كل مكان الأرامل اللائي لا زال ازواجهن احياء »[1] .

القديس برنارد في ألمانيا سنة ١١٤٦ :

وإذ تشجع القديس برنارد بما احرزه من نجاح ، قام بالطواف في برجنديا ، واللورين ، والفلاندر ، يبشّر أينما سار بالحرب الصليبية . وبينما كان في الفلاندر ، تلقى رسالة من رئيس اساقفة كلونيا ، يلتمس منه القدوم على الفور الى بلاد الراين . وما أثارته اخبار حركته من الحماس ، تحول الى مهاجمة اليهود ، مثلما حدث ايام الحرب الصليبية الاولى . أما في فرنسا ، فإن بطرس المبجّل ، رئيس دير كلوني ، جأر بالشكوى بأن اليهود لن يسهموا بالمال لإنقاذ العالم المسيحي . على ان كراهية اليهود في المانيا اتخذت صورة بالغة الشدة . إذ ان راهباً متعصباً من السيسترشيين ، اسمه رودولف اخذ يدعو في سائر أنحاء بلاد الراين ، وفي كلونيا ، وماينز ، وفورمس ، واشبير ، واستراسبورج ، الى اجراء مذابح في اليهود . وبذل كل من رئيسي اساقفة كلونيا ومانيز ، كل ما بوسعها من جهد لإنقاذ الضحايا ، ودعا رئيس اساقفة ماينز ، القديس برنارد الى ان يتصرف مع الراهب السيسترشي ، فعجل القديس برنارد بالقدوم من الفلاندر ، وأمر رودولف بالعودة الى ديره . ولما عاد الهدوء والسكينة ، مكث القديس برنارد في المانيا ، إذ

---

(١) انظر : St. Bernard, letter no. 247. in op. cit. col. 447.

رأى ، فيما يبدو ، أنـــه لا بـد للألمان ايضاً ان يشتركوا في الحرب الصليبية [١] .

لم يكن للالمان حتى وقتذاك دور هام في الحركة الصليبية ، بل ان حماسهم المسيحي كان موجهاً لتنصير الصقالبة الوثنيين النـــازلين على أطرافهم الشرقية ، فمنذ بداية هــذا القرن (الثاني عشر) اخذت جهود المبشرين ، والتوسع الالماني ، تسير قدماً في المناطق الصقلبية في بوميرانيا ، وبراندنبرج ، واعتبر السادة الاقطاعيون من الالمان أن هذا الامتداد للعالم المسيحي لأكثر اهمية من قتال المسلمين ، الذين يعتبر تهديدهم بعيداً عنهم ، وليس حقيقيـــاً . ولذا لم يميلوا الى الاستجابة لدعوة القديس برنارد . ولم يكن ملكهم ، كنراد الهوهنشتاوفني ، حريصاً على ان يصغي للقديس برنارد ، برغم اعجابه الشديد به . والمعروف انه كان لكنراد مصالح في البحر المتوسط ، غير ان هذه المصالح اقتصرت على ايطاليا ، حيث وعد البابا بأن يسانده على اهل روما العصاة المتمردين ، وعلى روجر الثـــاني ملك صقلية ، مقابل تحقيق رغبته القوية في أن يتم تتويجه امبراطوراً . على ان وضعه في المانيا ذاتها مـــا زال قلقاً مضطرباً . فعلى الرغم من

---

(١) انظر : St. Bernard, letters, nos. 363, 356. in op. cit. cols 564-568

Otto of Freisingen, Gesta Friderici, pp. 58 - 59.

Joseph ben Joseph ben Meir, Chronicle trans. Biellablotzky, pp. 116 - 129.

Vacandard, op. cit. pp. 274 - 281.

أشار فاكندار الى ان ما تردد من الشائعات عن مصرع طفل مسيحي، أسهم في إثارة الشعور على اليهود .

انتصاره في فاينزبورج سنة ١١٤٠ ، فإنه ما زال يواجه عداوة مؤيديه ، بيت الولفيين ، على حين ان الحمقى والسفهاء من أخوته وأخواته الذين لم يكونوا أشقاء له ، وينتمون الى بيت بابنبيرجر ، أثاروا له المتاعب على امتداد جانبه الشرقي ، فلما التقى القديس برنارد بالملك كنراد في خريف سنة ١١٤٦ ، في فرانكفورت على نهر الماين ، بعد ان كتب يطلب التعاون مع الأساقفة الالمان ، تجنب كنراد ان يناقشه في امر الحرب الصليبية . وأعرب القديس برنارد عن رغبته في العودة الى ديره في كليرفو ، لو لم يتوسل اليه الاساقفة بالمضي في دعوته للحرب الصليبية . ولم يسعه عندئذ إلا ان يتحول صوب الجنوب للتبشير بالحرب الصليبية في فرايبورج ، وبازل ، وشافهاوزن ، وكونستانس . وحازت رحلته نجاحاً باهراً ، على الرغم من ان مواعظه كان لا بد لمترجم ألماني ان ينقلها الى الالمانية . فهرع الفقراء والمساكين الى اتخاذ الصليب . على انه حدث في تلك السنة ان خابت المحصولات في المانيا ، وحلت المجاعة بالبلاد . على ان الهلاك جوعاً يولد السمو التصوفي ، والراجح ان عدداً كبيراً من المستمعين للقديس برنارد ظنوا ، مثلما فعل حجاج الحرب الصليبية الاولى ، ان الرحيل الى الشرق سوف يحملهم الى كنوز بيت المقدس الجديدة [١] .

---

(١) انظر : Bernhardi, Konrad III. pp. 563 - 578.

يورد خلاصة للحرب الصليبية على الصقالبة .

Bernhard's letter, no. 457 (op. cit. coll. 651 - 652).

تنطوي هذه الرسالة على ما اصدره برنارد من امر للمسيحيين في المانيا بالاشتراك في حرب صليبية في الشرق . بينما تضمنت رسالته رقم ٤٥٨ (coll. 652 - 54) الامر الموجه الى ملك وسكان بوهيميا عن هذا الغرض . ومع ان المؤرخين القدامى أمثال ولم الصوري ، وأودو دييل ، ومعظم المؤرخين المحدثين ، يشيرون الى كنراد على انه امبراطور ، فالواقع انه لم يتوج مطلقاً امبراطوراً .

وافق الملك كنراد على ان يجتمع مرة اخرى بالقديس برنارد في عيد الميلاد ، سنة ١١٤٦ ، حينما يعقد الديات (Diet) الالماني في شبيرز . على ان الموعظة التي ألقاها القديس برنارد يوم عيد الميلاد ، والتي طلب فيها من كنراد مرة اخرى ان يشترك في الحرب الصليبية ، لم تحرك الملك ايضاً . غير ان القديس برنارد عاد الى التبشير في البلاط ، بعد يومين . وإذ تحدث كما لو انه كان المسيح ذاته ، أخذ يضيق على الملك من كل جانب ، بأن أعاد الى ذاكرته ما غمره به الله من النعم ، فصاح : أيها الرجل ، ما الذي كان ينبغي ان أؤديه لك ، ولم أفعله ؟ فاشتد تأثر الملك ، ووعد ان يتبع امر القديس برنارد [١] .

غادر القديس برنارد المانيا راضياً بما أداه من عمل . فطاف بالجهات الشرقيــة من فرنسا ، يشرف على الترتيبات اللازمة للحرب الصليبية ، ويكتب الى الأديرة السيسترشية في جميع انحاء اوربا ، يطلب اليها تشجيع الحركة الصليبية . ثم عاد الى المانيا ، في شهر مارس ، ليشهد مجمعاً انعقد في فرانكفورت ، تقرر فيه توجيه حملة صليبية لقتال الصقالبة الوثنيين

---

(١) انظر : Otto Freisingen, Gesta Friderici, pp. 60 - 63.
Vita Bernhardi, coll. 381 - 383.

الراجح ان كنراد لم يتأثر إلا بعد ان سمع ان منافسه ويلف الرابع ملك بافاريا عزم على الاشتراك في الحرب الصليبية . غير ان ويلف لم يتخذ قراره إلا قبل قرار كنراد بفترة وجيزة ، لا تهيء لكنراد ان يسمع به . انظر :

Cosack : « Konrad III. Entschlusszum Kreuzzug » in Mittheilungen des Instituts fur osterreiche Geschichtsforschung, vol. XXXV.
Gleber, op. cit. pp. 53 - 54.

النازلين الى الشرق من اولدنبورج ولم يكن القصد من شهود المجتمع إلا ليثبت انه على الرغم من دفاعه عن حرب صليبية في الشرق ، فإنه لم يود للالمان ان يغفلوا واجباتهم في الجهات بالغة القرب منهم ، على أن هذه الحرب الصليبية الالمانية لم تجن إلا الفشل الذي أسهم الى حد كبير في تأجيل تحوّل الصقالبة الى المسيحية ، على الرغم من ان البابا اجاز للمشتركين فيها اتخاذ الصليب شعاراً لهم . وعجّل برنارد بالعودة من فرانكفورت الى ديره في كليرفو ليستقبل البابا الذي قدم لزيارته [1] .

البابا يوجينيوس في فرنسا ، سنة ١١٤٧ :

أمضى البابا يوجينيوس عيد الميلاد ، سنة ١١٤٥ ، في روما . غير ان ما صادفه من متاعب من اهل روما ، ارغمه على ان يبادر الى الالتجاء مرة اخرى الى فيتيربو ، بينما خضعت روما ذاتها لنفوذ ارنولد بريشيا ، المعروف بثورته على رجال الدين ، وأدرك البابا يوجينيوس أنه ما لم يحصل على مساعدة من قِبل الملك كنراد ، فلن يأمل في أن يستقر من جديد في المدينة المقدسة (روما) . وعزم في الوقت نفسه على ان يجتاز جبال الألب الى فرنسا ، ليقوم بزيارة الملك لويس (السابع) ، وليشرف على اعداد الحملة الصليبية . فغادر فيتيربو في يناير سنة ١١٤٧ ، ووصل الى ليون في ٢٢ مارس سنة ١١٤٧ . وفي اثناء سفره تلقى الانباء عن جهود القديس برنارد ، فلم يكن راضياً مطلقاً عنها . فما اتصف به البابا

---

(١) انظر : St. Bernhard, op. cit. loc. cit.
Vacandard, op. cit. II, pp. 297 - 298.

يوجينيوس من ادراك للواقع حمله على ان يركز تفكيره في حملة صليبية فرنسية خالصة ، تخضع لقيادة ملك فرنسا العلمانية ، فلا يجري بهـا انقسام القيادة الذي كاد يودي بالحرب الصليبية الاولى . امـا القديس برنارد فإنه حوّل الحركة الصليبية ، الى مشروع دولي ، غير ان ما كان لفكرته من روعة وبهاء ، طغى عليها ما حدث فعلاً من المناقشات بين الملوك . يضاف الى ذلك ان لم يكن للبابا ان يستغني عن الملك كنراد الذي حرص على مساعدته له في ايطاليا . ولذا لم يعر البابا نبأ اشتراك الالمان في الحرب الصليبية إلا البرود الشديد . غير انه ليس بوسعه ان يوقفها [1] .

والتقى البابا يوجينيوس ، اثنـاء مسيره في فرنسا ، بالملك لويس (السابع) في ديجون ، في أوائل شهر ابريل سنة ١١٤٧ ، ووصل الى كليرفو في ٦ ابريل . وأنفذ اليـه بكليرفو ، الملك كنراد سفارة تطلب اليه ان يجري اللقاء بينهما في ستراسبورج ، في ١٨ ابريل ، غير ان البابا يوجينيوس سبق ان وعد بأن يقضي عيد الفصح ، ٢٠ ابريل سنة ١١٤٧ ، في سانت دينيه ، ولا يود أن يغير خططه .

وتجهز كنراد للرحيل الى الشرق دون ان يحظى من البـابا ببركته الشخصية . وفي تلك الاثنـاء اجتمع البابا يوجينيوس مرات عديدة ، برئيس دير سانت دينيه ، سوجر ، الذي كان لزاماً عليه ان يحكم فرنسا اثناء غياب الملك لويس . وعقد البـابا مجمعاً في باريس للنظر في زندقة

---

(١) انظر : Gleber, op. cit. pp. 22 - 27, 48 - 61.

جيلبرت دي لابوريــه ، ثم اجتمع بالملك لويس السابع مرة اخرى في سانت دينيه ، في ١١ يونيو سنة ١١٤٧ . غير ان البابا يوجينيوس تحرك في بطء نحو الجنوب ، في طريق عودته الى ايطاليا ، بعد ان أتم الملك لويس السابع ترتيباته الاخيرة [١] .

وبينما يستعد ملكا فرنسا والمانيــا للحرب الصليبية ، ويعدان الخطة لحملة برّية طويلة ، كانت حمــلة صغيرة تألفت من انكليز ، وجماعات من الفلمنكيين والفريزيين ، بعــد ان استهوتهم دعوة وكلاء القديس برنارد ، تتأهب للسير بحراً الى فلسطين ، إذ أن السفن غادرت انكلترا في اواخر فصل الربيع ، سنة ١١٤٧ ، على ان الأحوال الجوية السيئة ارغمتها في اوائل شهر يونيو على الالتجاء الى مصب نهر دورو ، على ساحل البرتغال ، فالتقى رجال الحملة في ذلك الموضع برسل من قِبل الفونسو هنري ، كونت البرتغال . والمعروف ان الفونسو هنري وطّد منذ زمن قريب استقلال بلاده ، وأخذ يتفاوض مع البــابوية كيما يحصل على لقب ملك ، وجعل من مبررات طلبه ، ما أحرزته حملاته من انتصارات على المسلمين . ذلك انه افــاد من مشاكل المرابطين ومتاعبهم ، فأحرز انتصاراً باهراً عليهم في عريق سنة ١١٣٩ ، وبلغ شواطىء نهر التاجه في مارس سنة ١١٤٧ ، فاستولى على شنترين . وأراد وقتذاك أن يهاجم لشبونة ، العــاصمة الاسلامية المحلية ، غير انــه احتاج الى مساعدة بحرية لتحقيق ذلك . وجاء قدوم الصليبيين في الوقت المناسب ، فأشار عليهم اسقف اوبورتو ،

---

(١) انظر : Odo of Deuil, pp. 24 - 25.

ورئيس سفارته لهم ، انه لا داعي للقيام برحلة طويلة الى فلسطين ، اذا ارادوا ان يحاربوا من اجل الصليب ، إذ صار المسلمون ، في متناول ايديهم ، وليس بوسعهم هنا ، وعلى الفور ، ان يحوزوا ، فحسب المجد الروحي ، بل ايضاً الضياع الغنية . فلم يتردد الفلمنكيون والفريزيون في الموافقة ، اما الكتيبة الانجليزية فترددت ، إذ أقسم رجالها على ان يتوجهوا الى بيت المقدس ، ولم يحملهم على البقاء إلا بعد ان استخدم نفوذه عليهم ، قائدهم ، هنري جلانفيل ، كندسطبل سافوك (انجلترا) الذي كسبه الى جـانبه اسقف اوبورتو . ولم يكد يتم الاتفاق على الشروط ، حتى نفذ الاسطول الى نهر التاجه ليلحق بالجيش البرتغالي ، فابتدأ بذلك حصار لشبونة . واستبسل المسلمون في الدفـاع عن مدينتهم ، ولم تستسلم الحامية إلا في اكتوبر ، بعد اربعة شهور ، بشرط الابقاء على حياة رجالها وأمتعتهم . ولم يلبث الصليبيون ان نقضوا الشروط ، وانغمسوا في اجراء مذبحـة حافلة في المسلمين ، لم يكن فيهـا للانكليز ، بعد ان هنأوا انفسهم على تأدية واجباتهم ، إلا نصيب صغير .

وبعـد ان انتهت الحملة ، واصل جماعة من الصليبيين رحلتهم الى الشرق ، غير ان اكثرهم نزلوا بالبرتغال في ظل التاج البرتغالي . وعلى الرغم من ان هذا الحادث يعتبر سابقة لما انعقد من تحالف طويل الأمد بين انجلترا والبرتغال ، ولما ارمى من القواعد لنشر المسيحية فيما وراء المحيطات ، فإنه لم يؤد إلا مساعدة ضئيلة للمسيحيين في الشرق ، حيث كان للقوة البحرية أهمية بالغة القيمة لقتال المسلمين [1] .

---

(١) انظر : Orbon, De expugnatione Lyxbonensi.
للنشور في سلسلة ستبز : =

وبينما توقفت حملة اهل الشمال البحرية في البرتغال ، توجه ملكا فرنسا والمانيا بطريق البر الى الشرق . وكان قد سبق لروجر الثاني ملك صقلية ان ارسل الى كليهما يعرض نقلهما مع جيوشهما بطريق البحر . والواضح ان كنراد لم يقبل العرض ، نظراً لأن روجر يعتبره ، عدواً لدوداً له منذ زمن طويل ، كما ان لويس رفض هذا الطلب . ولم يود البابا تعاون روجر ، على ان ما يدعو للشك ، ما اذا كانت البحرية الصقلية فعلاً من الضخامة ما يكفي لنقل كل العساكر المتوجهين للحرب الصليبية . ولم يشأ الملك لويس ، بعد ان ينفصل عن نصف جيشه ، ان يتولى امره رجل اشتهر بالنفاق ، وبأنه يكنّ عداوة مريرة لخال ملكة فرنسا ، فالارتحال بطريق البر يعتبر اكثر أمناً وأقل نفقة [1] .

الملك كنراد يغادر المانيا ، سنة ١١٤٧ :

عزم الملك كنراد على ان يغادر المانيا يوم عيد القيامة ، سنة ١١٤٧ . وقد استقبل في ديسمبر ١١٤٦ في شبير سفارة بيزنطية ، فبادر بإخطارها

= Stubbs, Memorials of the Reign of Richard, I. vol. I. pp. CXLIV - CLXXXII.

يعتبر المصدر الاصلي لحملة البرتغال الصليبية . انظر ايضاً :

Erdmann : « Die Kreuzzugegedanke in Portugal », in Historische Zeitschrift. vol. 141, pp. 23 - 33.

(١) أعلن الملك لويس لروجر امر الحروب الصليبية ، ولما عرض روجر اشتراكه الفعلي ، رفض لويس مساعدته ، وحزن المؤرخ أودو لما وقع . انظر :

Odo of Deuil, pp. 22,24.

بأنه سوف يرحل مباشرة الى الشرق . والواقع انــه لم يبدأ في الرحيل إلا في نهـــاية مايو سنة ١١٤٧ ، فغادر راتيزبون في الايام الاخيرة من مـــايو ، ونفذ الى المجر . وتألف جيشه من أعداد بالغة الضخامة ، فالمؤرخون الذين هالهم هــذا الجيش ، جعلوه مليون محارب . والراجح ان كل الحشد ، من الرجال المسلحين والحجـــاج ، يبلغ عددهم حوالي عشرين الف . وقدم مع كنراد ملكان من اتباعه ، همـــا فلاديسلاف ، ملك بوهيميا ، وبوليسلاف الرابع ملك بولندة ، وتزعّم النبلاء الالمان ، فردريك دوق سوابيا ، ابن اخ كنراد ووريث ملكه . ومن هذا الجيش ايضاً كتيبة من اللورين بقيادة ستيفن ، اسقف متز ، وهنري اسقف تول . والواقع انه كان جيشاً شديد القلق والاضطراب ، إذ ان الزعماء الالمان ، كان يحسد الواحد منهم الآخر ، ووقع الاحتكاك المستمر بين الالمـان والصقالبة وأهـــل اللورين الذين يتحدثون الفرنسية . ولم يكن كنراد بالرجل الذي يستطيع ضبط هذا الجيش . فقد كان كنراد وقتذاك قــد تجاوز الخمسين من عمره ، معتل الصحة ، مضطرب المزاج . وشرع في ان يتنازل عن قــدر كبير من سلطته الى ابن اخيه فردريك ، الذي برغم قوته وفتوته لم يكن له خبرة في ممارسة السلطة [١] .

اخذ الجيش الالماني يجتار بلاد المجر اثناء شهر اغسطس . ولم يلق من الملك الشاب جيزا إلا الاهتمام والعناية بأمره ، فلم يقع شيء من الأحداث المؤسفة . والتقت بكنراد في بلاد المجر ، سفارة بيزنطية يرأسها ديمتريوس

---

(١) انظر : Otto of Freisingen, Chronica, p. 354.
Gesta Friderici, pp. 63 - 65.

ماكريمبلوليتس ، والاسكندر جرافينـــا الايطالي ، فسألته بالنيابة عن الامبراطور البيزنطي مـــا اذا كان قادماً على انـه صديق او عدو ، والتمست منه ان يحلف يميناً بألا يفعل مـا يسيء الى راحة الامبراطور ومصالحه . هذه اليمين ، التي تقضي بعدم انزال الضرر ، كانت خير مـا يصح اتخاذها ، لأنها كانت اليمين المألوفة التي درج التابع على ان يقسمها لسيده في بعض ارجـــاء اوربا ، وكانت هي اليمين التي اقسمها ريموند كونت تولوز للأمبراطور الكسيوس ، اثناء الحرب الصليبية الأولى ، ومع ذلك فإن صياغتها بلغت من الدقة انه اذا رفض كنراد ان يقسمها فإنه يدمغ نفسه بأنه عدو الامبراطور . وأقسم كنراد اليمين ، ثم وعـده السفراء البيزنطيون ببذل كل مساعدة له اثناء اجتيازه الاراضي البيزنطية [1] .

الالمان في شبه جزيرة البلقان سنة ١١٤٧ :

وحوالي ٢٠ يوليو عبر كنراد الى ارضي الامبراطورية البيزنطية ، عند برانيتشيفو ، وأسهمت السفن البيزنطية في نقل رجاله عنـــد اجتياز نهر الدانوب . وفي نيش ، استقبـــله ميخائيل براناس ، حـــاكم إقليم بلغاريا ، فأمدّ الجيش لدى وصوله بما اختزنه من المؤن . ولما وصل كنراد الى صوفية بعـد بضعة ايام ، ناب عن الامبراطور في استقباله والترحيب به ، حاكم سالونيك ، ميخائيل باليولوجوس ، ابن عم الامبراطور . جرت الامور حتى وقتذاك على نحو سلم . وكتب كنراد الى اصدقائه في المانيا بأنه مطمئن الى كل شيء . غير انه حدث بعد مغادرة صوفية ، ان اخذ

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 67 - 69.

رجاله ينهبون القرى ، ويمتنعون عن ان يؤدوا لأهل القرى أثمـــان ما اخذوه منهم ، بل انهم أجهزوا على اولئك الذين احتجوا عليهم . ولمـا رفعت الشكاوى الى كنراد ، اعترف بأنه ليس بوسعه ان يضبط الرعاع . ووقع في فيليبوبوليس من الاضطرابات ما هو أسوأ من ذلك . إذ سلبوا كميات كبيرة من المؤن ، وحدثت الفتنة حينما اتهم الالمان بالسحر احـد الحواة ، الذي كان يأمل كسب بعض المال من العساكر بمـا يعرضه من الحيَل . فاشتعلت النيران في الضواحي ، غير ان اسوار المدينة بلغت من المتانة ما جعل الالمان يعجزون عن مهاجمتها . وتقـــدم رئيس الاساقفة ميخائيل ايتاليكوس الى كنراد باحتجاج بلغ من الشدة انه خجل لإنزال العقوبة بمثيري الفتنة . وعندئذ ارسل الامبراطور مانويل العساكر لتصحب الصليبيين وتحملهم على التزام الطريق . ولم يؤدِ هذا إلا لتفاقم الاضطرابات ، فتبادل الجرمان والبيزنطيون الضربات في معظم الأحوال . وبلغ الاضطراب الذروة قرب أدرنة ، حينما هاجم بعض قطّاع الطرق البيزنطيين احـــد أعيان الالمان ، الذي تأخر عن الركب لمرضه ، فسلبوه ثم قتلوه . ولم يسع فردريك دوق سوابيا إلا ان يأمر بإشعال الحريق في الدير الذي وقعت الجريمة قربه ، وأجهز على كل النازلين بـه . أما التائهون السكارى ، الذين توافر عددهم بالجيش الالمـاني ، فإن من وقع منهم في أيدي البيزنطيين ، تعرضوا للقتل على سبيل الانتقام . ولمـــا أعاد القائد البيزنطي بُروسوخ الامن الى نصابه ، واستأنف الجيش سيره ، قدمت سفارة من قِبـــل الامبراطور مانويل الذي اشتد وقتذاك قلقه ، فألحت على كنراد ان يتخذ الطريق الى سيستوس الواقعة على بوغاز الدردنيل ، ويعبر منها الى آسيا . على ان هذا الاجراء يصح ان يعتبر عملاً عدائياً ، لو كان الالمان يزحفون على القسطنطينية . لم يوافق كنراد على طلب الامبراطور ، وعندئذ عزم

مانويل فيما يبدو على استخدام القوة في مقاومة الصليبيين . غير انـه في اللحظة الاخيرة ألغى الاوامر التي اصدرها الى بروسوخ . ولم يلبث الالمان ان تعرضوا لعقاب إلهي ، إذ حدث أثناء إقامتهم بالمعسكر في خيرافاس بسهل تراقيا ، ان اجتاح خيامهم فيضان مفاجيء فأغرق عدداً كبيراً من العساكر ، ودمّر قدراً كبيراً من امتعتهم . ولم يلحق الضرر بسرية فردريك ، لأنهـا اتخذت معسكرها في موضع كان أكثر ارتفاعاً . على انه لم تجر أحداث خطيرة اخرى ، حتى بلغ الجيش في ١٠ سبتمبر القسطنطينية [١] .

الفرنسيون يصلون الى القسطنطينية سنة ١١٤٧ :

اتخذ الملك لويس وجيشه طريق السير ، متأخرين نحو شهر عن مسير كنراد . إذ ان الملك لويس خرج بمفرده من سان دينيه ، في ٨ يونيو سنة ١١٤٧ ، ودعا أتباعه للاجتماع به بعـد ايام في متز . والراجح ان حملته تقلّ عدداً عن جيش كنراد ، وقدم اليه كل النبلاء ، الذين سبق ان اشتركوا معه في اتخـاذ الصليب في فيزيلاي ، للوفاء بوعودهم . وصحب الملك معه زوجته ، إليانور كونتيسة اكيتانيا ، وأعظم وريثة للملك في فرنسا ، وابنة أخت امير انطاكية (ريموند) . وارتحل مع أزواجهن كل من كونتيسة فلاندر ، وتولوز ، فضلاً عن غيرهن من العقيلات الكبيرات . وانحـاز الى

---

(١) انظر :

Cinnomus, pp. 69 - 74.
Nicetas Choniates , pp. 82 - 87.
Otto of Deuil, p. 38.
Otto of Freisingen, Gesta Friderici, pp. 65 - 67.

أشار المؤرخ اودو دييلالى الحاوي ، انظر ما اورده عنه في ص ٣٦ من كتابه .

الجيش الفرنسي ، مقدم فرسان المعبد ، ايفيرار بار ، بكتيبة من المتطوعين ليلحقوا بطائفته [1] . كان الملك لويس في السادسة والعشرين من عمره ، وأكثر ما اشتهر به كانت التقوى ، لا الشخصية القوية ، خضع لتأثير زوجته وأخيه ، ولم تكن له خبرة بالقيادة العسكرية ، ولم يكن حاسماً [2] . وفي الحملة ، كان جنوده يفوقون الجيش الالماني في التزام النظام ، ويقلّون عنهم في التهور ، على الرغم من الاضطرابات التي وقعت في فورمز عند اجتياز نهر الراين [3] .

ولما اكتمل انحياز الكتائب الفرنسية الى الملك ، سار الجيش مخترقاً بافاريا ، وكان في انتظاره في راتيزبون التي بلغها في ٢٩ يونيو سنة ١١٤٧ ، سفيران من قِبل الامبراطور البيزنطي مانويل . وكان احدهما ديمتريوس ماكريبوليتس الذي سبق ان اجتمع بكنراد في بلاد المجر، وكان السفير الآخر اسمه ماوروس ، فطلبا من الملك الضمانات التي تكفل بـــأن يتصرف على انه صديق ، اثناء اجتياز الاراضي الامبراطورية ، وأن يعد بأن يرد للامبراطورية ما يستولي عليه من الأملاك التي كانت تابعة لها . والواضح

---

(١) انظر : Suger, Vita Ludovici, VII. ed. Molinier, pp. 158 - 160.
أورد سوجر قائمة بالصليبيين . أما الحكاية التي تشير الى ان الملكة اليانور جاءت على رأس طائفة من الفتيات المحاربات (الأمازون) ، فقامت على ما لحظه المؤرخ نكيتاس بأنه كان بالجيش الألماني عدد من النساء ، اللائي اكتملت أسلحتهن . انظر :
Nicetes, p. 80.

(٢) ما جاء في كتاب سوجر عن حياة لويس السابع ، وما ورد في رسائل لويس نفسه ، من وصف لشخصيته لا يدل على انه كان رجلاً حاسماً .

(٣) انظر : Odo of Deuil, p. 27.

انهما لم يطلبا منه ان يقسم اليمين بألا ينزل الأذى ، نظراً لدرايته التامة بأهميتها . أعلن لويس رسمياً انه قادم على انه صديق ، غير انه لم يعد بشيء حول فتوحاته المقبلة ، بعد ان اكتشف ما في الطلب من غموض بالغ الخطورة [1] . ومن راتيزبون ظل الفرنسيون خمسة عشر يوماً يسيرون في هدوء ، مجتازين بلاد المجر ، حتى وصلوا الى الطرف البيزنطي في نهاية اغسطس ، سنة ١١٤٧ [2] . ثم عبروا نهر الدانوب عند برانيتشيفو ، وسلكوا الطريق الرئيسي الذي يجتاز شبه جزيرة البلقان . على انهم صادفوا بعض العقبات في الحصول على المؤن الكافية ، نظراً لأن الالمان استهلكوا كل ما تيسر لهم الحصول عليه من المؤن ، وما ارتكبه الالمان من اعمال العنف ، جعل السكان المحليين يرتابون في سائر الجيوش ، ويمتنعون عن مساعدتهم . كما ان التجار لم يبيعوا شيئاً إلا بعد اصرارهم على ان يتقاضوا الثمن سلفاً . أما الموظفون البيزنطيون فإنهم اظهروا المودة والصداقة ، وأمر القادة الفرنسيون عساكرهم بالتزام النظام ، ولم يحدث شيء من الاضطرابات الخطيرة حتى اقترب الجيش الفرنسي من القسطنطينية ، ومع ذلك فإن الفرنسيين اخذوا يشعرون بالكراهية نحو البيزنطيين والالمان . ففي أدرنه حاولت السلطات البيزنطية ان تقنع لويس ، مثلما حاولت مع كنراد من قبل ، بأن يتجنب اجتياز العاصمة ، القسطنطينية ،

---

(١) انظر : Cinnamus, p. 82.

أطلق كيناموس على الجرمان اسم « Alemanoi » وعلى الفرنسيين اسم « Germaoi » .

يشير المؤرخ اودو الى ان لويس أناب ممثلين عنه في حلف اليمين . انظر :

Odo of Deuil, pp. 28 - 30.

(٢) انظر : Odo of Deuil, pp. 30 - 34.

وأن يعبر الدردنيل الى آسيا ، غير انها لم تحرز في ذلك ايضاً شيئاً من النجاح . وفي تلك الاثناء هرعت جماعة من الفرنسيين الى السير قدماً ، حتى لحقت بالالمان ، بعد أن نفذ صبرهم من البطء الشديد الذي التزمه الفرنسيون في سيرهم ، غير ان الالمان لم يتوددوا اليهم ، فرفضوا ان يمنحوهم ما استغنوا عنه من المؤن . ولما لم تكن علاقات كتائب اللورين طيبة فعلاً مع زملائهم من الالمان ، انحازوا الى هؤلاء الفرنسيين ، وأثاروا الرأي العام الفرنسي على الالمان [1] . وعلى هذا النحو ، حدث قبل ان يصل ملك فرنسا الى القسطنطينية ، ان اضحت العلاقات بين الجيشين الالماني والفرنسي تتسم بالريبة والمرارة . كما أن الفرنسيين والالمان سواء ، نفروا من بيزنطة ، ولم يكن ذلك فالاً حسناً لما تنتظره الحملة الصليبية من نجاح .

(١) انظر : Odo of Deuil, pp. 35 - 44.

الفصل الثاني

الشقاق بين المسيحيين

لما بلغت القسطنطينية أنباء قدوم الحملة الصليبية ، كان الامبراطور مانويل منصرفاً الى امور بلاد الاناضول ، إذ ما زال الموقف في الاقاليم الآسيوية يثير القلق ، برغم ما وجهه اليها أبوه وجدّه من حملات حربية . فلم ينج من غارات الترك إلا المناطق الساحلية . وكاد يحدث كل سنة أن توغل قوة تركية في داخل البلاد ، فتجتاح الممتلكات البيزنطية ، وقد تجنبت الحصون الكبيرة ، وتحاشت الجيوش الامبراطورية . ولم يسع سكان البلاد الواقعة على الحدود ، إلا ان يهجروا قراهم ، وأن يفرّوا الى المدن او الى الساحل . وقضت سياسة مانويل بتعيين خط ثابت للحدود ، تحرسه سلسلة من الابراج ، وثيقة الارتباط فيما بينها ، فاستهدفت دبلوماسيته وحملاته ، تأمين خط الحدود .

حملات مانويل على قونية سنة ١١٤٦ :

حدث في ديسمبر سنة ١١٤١ ، أن مات الامير محمد بن غازي الدانشمند ،

الذي يعتبر اقوى الامراء المسلمين في آسيا الصغرى ، غير انه اعقب وفاته ، نشوب الحرب الداخلية بين أبنائه واخوته . فانقسمت الامارة ثلاثة اقسام ، قبل نهاية سنة ١١٤٢ ، حاز ابنه ذو النون قيصرية مازاكا ، بينما نال أخواه ، يعقوب ارسلان بن غازي ، وعين الدولة بن غازي ، سيواس وملطية على الترتيب . وهيأ هذا التقسيم الفرصة لمسعود ، سلطان السلاجقة بقونية ، لتوطيد سيطرته على الترك ببلاد الاناضول ، فأغار على بلاد الدانشمند ، وبسط سلطانه على سائر الاقاليم التي تمتد شرقاً الى نهر الفرات . واذ انزعج الاخوان يعقوب ارسلان وعين الدولة لما حدث من اعتداء السلطان مسعود ، سعياً الى التحالف مع بيزنطة . وبمقتضى معاهدة انعقدت ترجيحاً ، في سنة ١١٤٣ ، اضحى الاميران السلجوقيان ، الى حد ما ، من أتباع الامبراطور البيزنطي . وعندئذ وجّه الامبراطور مانويل اهتمامه الى السلطان السلجوقي مسعود ، الذي توغل رجاله في اغارتهم حتى بلغوا ملاجينة ، الواقعة على الطريق الممتد من نيقية الى دوريليه (دوريليوم) فردهم على اعقابهم . ولكن لم يلبث الامبراطور البيزنطي ان عاد الى القسطنطينية ، لاعتلال صحته ، ولما دهم اخته العزيزة ، ماريا ، من مرض مميت ، وهي التي برهنت على اخلاصها له ، حينما دبر زوجها القيصر يوحنا روجر ، النرماني المولد ، مؤامرة للوصول الى العرش ، بعد ان تولاه الامبراطور مانويل . وأغار مسعود على الامبراطورية مرة اخرى ، سنة ١١٤٥ ، فاستولى على حصن براكانا الصغير في ايزوريا ، ومن هذا الموضع صار يهدد الطرق التي تصل بيزنطة بسوريا ، ولم يلبث مسعود بعدئذ ان اغار على وادي نهر الماندر ، وأوغل في الاغارة حتى كاد يبلغ البحر . وقرر مانويل ان الوقت قد حان للإقدام على قتال مسعود والزحف على قونية . تزوج مانويل منذ زمن قريب ، وتشير الرواية الى انه اراد ان

يثبت لزوجته الالمانية ، ما اشتهرت به الفروسية البيزنطية من أمجـــاد وروائع . ففي صيف سنة ١١٤٦ ارسل الى السلطان يعلنه رسمياً بالحرب ، وخرج في هيئة عسكرية رائعة ، على امتداد الطريق الذي يجتاز دوريليوم ، الى فيلوميليوم ، فحاولت القوات التركية وقف زحفه ، غير انها ارتدّت على اعقابها ، وانسحب مسعود راجعاً الى عاصمته (قونية) ؛ ومع انــــه عزّز حامية العاصمة ، فانه اتخـــذ مواقعه في القرى المكشوفة ، وأرسل يطلب في إلحاح أمداداً من الشرق . ظل الجيش البيزنطي شهوراً عديدة يعسكر امام قونية ، التي تولى السلطان الدفاع عنها . أظهر مانويل الدماثة في معاملة اعدائه ، فلما ترددت الشائعات ان السلطان مسعود لقي مصرعه . بادر باخطار السلطانة ان هذا الخبر ليس صحيحاً . وحاول عبثاً ان يحمل عساكره على احترام مقابر المسلمين الواقعة خارج المدينة (قونية) . على ان مانويل اصدر الاوامر ، فجأة ، بالانسحاب .

تردد القول ، فيما بعـد ، ان مانويل سمع شائعات عن الحملة الصليبية المقبلة ، غير انه لم يكن بوسعه ، حتى وقتذاك ، ان يقف على ما اتخذ من قرار ، في ذلك الربيع ، في فيزيلاي . ومن المحقق انه ساورته الشكوك عن نوايا روجر الثاني ملك صقلية ، ولعله ادرك فعلاً ، ان شيئاً ما يجري على قدم وساق . وعلم ايضاً ان مسعوداً تلقى مدداً ضخماً لجيشه ، فخشي ان يقع فريسة لخطوط مواصلاته الطويلة ، شديدة التعرض للخطر . فارتدّ في بطء وفي نظام تام ، راجعاً الى بلاده [١] .

---

(١) انظر : Chalandon, Les Comnenes, pp. 248 - 258.
Michael the Syrian, III. p. 275.
يشير المؤرخ ميخائيل السرياني الى أن مانويل عقد الصلح مع الترك ، خوفاً من الصليبيين ، والى أنه حرص على ان يلزم الترك بالسكون ، لمدة سنتين .

واجه مانويل ما تتطلع اليه الحملة الصليبية فعلاً من أمل في المستقبل ، وتوافر له من الدواعي ما يبرر قلقه ، إذ ان تجربة البيزنطيين مع الصليبيين أفقدتهم الثقة فيهم . ولذا وافق مانويل على الاقتراح الذي بعث به السلطان اليه في ربيع سنة ١١٤٧ ، بعقد هدنة ، وبأن يعيد اليه حصن براكانا وسائر ما فتحه حديثاً من البلاد . وبسبب هـــذه المعاهدة ، جرى اتهام مانويل بخيانة العالم المسيحي ، على ان عداوة كنراد التي ظهرت قبل ان تصل الى الالمان أنباء المعاهدة ، تدل على ان احتياطات مانويل كانت سليمة . فما من التزام يربطه الى كل مسيحي يفكر فعلاً في مهاجمة القسطنطينية . وما كان لمانويل ان يفرح لقدوم حملة سوف تشجع حتماً امير انطاكية على ان يتخلى عن كل ما بذله حديثاً من يمين التبعية للامبراطور والانصياع له . فإذا اشترك مع الترك في حرب مريرة ، فقد تفيد هـــذه الحرب الصليبيين في اجتياز بلاد الاناضول ، غير انها سوف تهيء لهم ان يلحقوا ضرراً ، لا حدّ له ، بالامبراطورية التي تعتبر سياجاً للعالم المسيحي . ولذا آثر ألا يخلق لنفسه من المشاكل ما يضعفه في ذلك الوقت الحرج ، ولا سيما ان الحرب مع صقلية اضحت وشيكة الوقوع[١] .

الجيش الالماني يعبر الى آسيا الصغرى سنة ١١٤٧ :

لم تكن علاقات مانويل بكنراد سيئة حتى ذلك الحين ، إذ وحّد بينهما

---

(١) انظر : Chalandon, op. cit. pp. 266 - 267.
الواقع ان الحرب مع صقلية نشبت فعلاً في صيف سنة ١١٤٧ ، انظر :
Chalandon, op. cit. p. 318, n. 1.
Odo of Deuil, p. 53.

اشتراكهما في الخوف من روجر الثاني ملك صقلية ، وما حدث اخيراً من زواج مانويل من اخت زوجة كنراد[1] . غير ان الذي أقلق مانويل ، ما كان من سلوك الجيش الالماني في شبه جزيرة البلقان ، وامتناع كنراد عن اتخـــاذ الطريق المؤدي الى عبور الدردنيل . فلما وصل كنراد الى القسطنطينية ، خصّه مانويل بقصر فيلوباتيوم ، الذي يقع بالضاحية قرب الأسوار التي تطل على البر ، ليتخذه مقراً له ، بينما عسكر جنده حوله . غير ان الالمان أنزلوا بالقصر ، في بضعة ايام ، من النهب والتخريب ، ما لم يجعله صالحاً للسكنى بعد ذلك ، فتحول كنراد الى قصر بيكريديوم الواقع على رأس القرن الذهبي ، مقابل حي الفنــار . وفي تلك الأثناء ارتكبت عساكره اعمال العنف مع السكان المحليين ، فتقرر إرسال العساكر البيزنطية لقمعهم . وتبع ذلك حدوث سلسلة من الاشتباكات . ولمـا طلب مانويل اصلاح الخلل ، أشار كنراد اول الامر الى انــه لم تقع اضرار بليغة ، ثم هدّد في غضب وغيظ بأنه سوف يعود في السنة التاليـة ، ويستولي على العاصمة (القسطنطينية) . على ان الامبراطورة ، شقيقة زوجة كنراد ، استطاعت فيما يبدو ان توفق بين الملكين . فمانويل الذي سبق ان حثّ العساكر الالمان على اجتياز البوسفور ، لما كان يخشاه من عواقب اجتماعهم بالفرنسيين ، أدرك فجأة انصياع الالمان وسهولة قيادتهم ، حينما اخذوا فعلاً في الشجار مع طلائع القادمين من الفرنسيين .

عاد الوفاق في الظاهر بين الملكين ، وعبر كنراد بجيوشه البوسفور الى

---

(١) انظر ما سبق ص ٣٥٥ ، ثم عقد الزواج في يناير سنة ١١٤٦ .
Chalandon, op. cit. p. 262, note 3.

خلقيدونية ، بعد ان غمره الامبراطور بالهدايا الثمينة ، وأصاب كنراد من الهدايا ايضاً بعض الجياد الفائقة . غير انه رفض الاقتراح الذي يقضي بأن يترك وراءه بعض رجاله ، ليقوموا على خدمة الامبراطور ، مقابل الحصول على جماعة من العساكر البيزنطية في قليقية ، واعتبر مانويل هذا الترتيب ملائماً لما قد ينشب من حرب مع روجر الثاني ملك صقلية [١] .

ولما وصل كنراد الى خلقدونية ، طلب الى مانويل ان يمده بالأدلاء ليصحبوه اثناء اجتياز بلاد الاناضول ، فعهد مانويل بهذا الامر الى ستيفن قائد حرس الورنك . وفي الوقت ذاته نصح الالمان ان يتجنبوا الطريق المستقيم الذي يخترق شبه الجزيرة ، وأن يتخذوا الطريق الساحلي الى أضاليا ، وبذا يلتزمون بلاداً خاضعة للامبراطور . واقترح ايضاً أنه لمن الخير لهم ان يعيدوا الى اوطانهم كل الحجاج الذين لن يشتركوا في القتال ، لما يترتب على بقائهم من ارتباك وتعطيل للجيش ، على ان كنراد لم يحفل

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 74 - 80.
Nicetas Choniates, p. 87.
Jaffé, Bibliothéca, I. p. 166.
أورد هذا المصدر رسالة كنراد الى ويبالد ، يشير فيها الى ما لقيه من استقبال حافل من الامبراطور .
انظر ايضاً . Annales Herbipolenses, pp. 4 - 5.
Romuald of Salerno, p. 424.
Odo of Deuil, pp. 39 - 40.
يذكر المؤرخ اودو دييه انه وفقاً لتقدير اليونانيين عبر البوسفور ٩٠٠٥٦٦ من العساكر والحجاج الالمان ، والراجح ان العدد الصحيح هو ٩٥٦٦٠ . كما انه يشير الى انه لم تجر مقابلة شخصية بين كنراد والامبراطور مانويل .

بهذه النصيحة ، بل مضى الى نيقية ، فلما بلغها الجيش ، قرر كنراد ، بعد ان فكر من جديد ، ان يُقسّم الحملة ، فيتولى اوتو فرايزنجين امر شطر منها ، يشمل معظم الذين لن يشتركوا في القتال ، ويتخذ طريق لأوديفا على نهر ليكوس ، الى اضاليا ، بينما يسلك كنراد والجيش الرئيسي الطريق الذي يخترق جوف آسيا الصغرى ، والذي سبق ان اتخذته الحملة الصليبية الاولى [1] .

غادر جيش كنراد نيقية في ١٥ اكتوبر سنة ١١٤٧ ، وتولى إرشاده ، كبير الأدلاء ، ستيفن قائد الورنك . توافرت لهم المؤن في الايام الثانية التالية ، التي اجتازوا أثناءها الاراضي البيزنطية ، على الرغم من انهم شكوا ، فيما بعد ، بأن وكلاء الامبراطور خلطوا ما كان يقدم اليهم من الدقيق بالجير ، وأعطوهم نقوداً ، منخفضة القيمة . على انهم لم يحصلوا أثناء عبور الأراضي التركية على شيء من المؤن ، وافتقروا بوجه خاص الى الماء . فلما بلغوا ، في ٢٥ اكتوبر ، نهر باتيس ، قرب دوريليوم ، أي قرب الموضع الذي أحرز فيه الصليبيون النصر قبل خمسين سنة ، انقضّ عليهم الجيش السلجوقي بأكمله . كان الرجالة الالمان قـــد استبد بهم التعب والظمأ ، كما ان عدداً كبيراً من الفرسان ترجلوا عن افراسهم المنهوكة القوى ، كيما تنال قدراً من الراحة ، فأخذتهم على حين غرة فرسان الترك الخفاف ، بمـا قاموا به من هجمات سريعة مفاجئة متتالية . والواقع انهـا لم تكن إلا مذبحة لا معركة ، وحاول كنراد عبثاً ان يجمع شتات رجاله ، غير انـــه لم يحل

(١) انظر : Cinnamus, pp. 80 - 81.

المساء حتى أمعن في الفرار مع من تبقى من رجاله ، عائدين الى نيقية . وفقد كنراد تسعة اعشار جيشه ، فضلاً عن كل محتويات معسكره . وما وقع في ايدي الترك المظفرين من غنيمة ، باعوها في كافة اسواق الشرق الاسلامي ، حتى فارس [١] .

الفرنسيون يعبرون الى آسيا سنة ١١٤٧ :

وفي تلك الأثناء كان الملك لويس يمضي بالجيش الفرنسي الى القسطنطينية ، فبلغوها في ٤ اكتوبر سنة ١١٤٧ ، حيث لمـَسَ امتعاض طليعة جيشه وجيش اللورين لما ارتكبه الالمان من وحشية من جهة ، ولما بلغهم من أنباء الهدنة التي عقدها مانويل مع الترك من جهة اخرى . وحرصت السلطات البيزنطية على ان تقيم من العقبات ما يمنع اتصال جيش اللورين بالجيش الفرنسي ، برغم توسل رسول لويس ، ايفيرار بار مقدم الداوية [٢] . فاقترح اسقف لانجر ، بكل ما اتصف به راهب دير كليرفو من تعصب

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 81 - 82.
Nicetas Choniates, p. 89.
Epistolae Wibaldi, p. 152.
(منها رسالة موجهة من كنراد الى ويبالد) .
Annales Palidenses, p. 82.
Annales Herbipolenses, loc. cit.
Odo of Deuil, pp. 53 - 56 - 58.
William of Tyre, XVI. 21 - 22, pp. 740 - 744.
Michael the Syrian, III. p. 276.

(٢) انظر : Odo of Deuil, pp. 40 - 41.

مخالف للمسيحية ، على ملك فرنسا ، بأنه لا بد له ان يغيّر سياسته ، وأن يتحالف مع روجر ملك صقلية على اليونانيين الناكثين للإيمان. غير ان لويس حرص على ألا يستمع لما يخيب امل باروناته . إذ أنه ارتاح لمـــا جرى من استقباله في البلاط البيزنطي ، وآثر ان يأخذ بالنصيحة الصادقة التي بذلها اسقف ليزيبه ، المعروف بدراسة الآداب القديمة . فأقام في قصر فيلوباتيوم ، الذي تم تنظيفه بعد نزول الالمان به . ولقي لويس الترحيب في المآدب التي أقامها له الامبراطور بقصر بلاشيرنا ، وصحبه الامبراطور في زيارة معالم المدينة الكبيرة (القسطنطينية) . وارتاح عدد كبير من النبلاء الفرنسيين ، لاهتمام البيزنطيين بهم [1] . غير ان الامبراطور مانويل رأى انه لا بد للجيش الفرنسي ان يبادر الى اجتياز البوسفور ، حتى اذا استقر في خلقيدونية ، استغل دعوى نشوب فتنة أثارها احـــد الحجاج الفلنكيين ، لمـا ظنه انه وقع ضحية خداع وغش ، فعمد الى قطع المؤن عن الفرنسيين . ومع ان لويس امر على الفور باعدام المذنب ، فإن مانويل لم يشأ القيام بتموين المعسكر مرة اخرى ، إلا بعد ان اقسم لويس بأن يعيد الى الامبراطورية ما قد يسترجعه من الأملاك التي سبق ان فقدتها ، ووافق ايضاً على ان يبذل باروناته يمين التبعية سلفاً عن كل ما سوف يستولون عليه من بلاد . غير ان النبلاء الفرنسيين أعلنوا اعتراضهم ، أما لويس فاعتبر الطلب معقولاً ، نظراً لحاجته الماسة لمساعدة بيزنطة ، ولا سيما

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 82 - 83.

Odo of Deuil, pp. 45 - 46, 47 - 48.

وردت رسالة لويس السابع الى سوجر في : R. H. F. vol. XV, p. 488.

بعد ان ترددت الشائعات بما حلّ بالألمان من كارثة [١] .

وصل الجيش الفرنسي الى نيقية في اول نوفمبر سنة ١١٤٧ ، وفيها تحقق لهم خبر هزيمة كنراد ، إذ ان فردريك دوق سوابيا قدم الى المعسكر الفرنسي ، فأنهى اليهم بالقصة ، وطلب الى لويس ان يبادر بالتوجه لزيارة كنراد . فعجل لويس بالذهاب الى مقر القيادة الألمانية ، وتشاور الملكان ، فقررا معاً ان يتخذا الطريق الساحلي صوب الجنوب ، ملتزمين في ذلك ان يظلا في داخل الاراضي البيزنطية . وسادت المحبة بين الجيشين فترة من الزمن . ولما لم يلقَ الالمان مؤونة في المنطقة التي كانوا يعسكرون بها ، نظراً لأن الفرنسيين استحوذوا على كل ما استطاعوا الحصول عليه من المؤن ، اخذوا يغيرون على القرى المجاورة . فبادرت قوات الشرطة العسكرية البيزنطية الى شن الهجوم على الالمان ، الذين لم ينقذهم إلا فصيلة من العساكر الفرنسية ، بقيادة كونت سواسون ، الذي هرع الى كنراد بناء على طلبه . على ان كنراد استطاع في الوقت ذاته ان يعيد النظام بين جنده . ومعظم من بقي على قيد الحياة من الحجاج ، تخلوا عن كنراد ، وأخذوا يناضلون في سبيل العودة الى القسطنطينية ، على ان تاريخهم بعدئذ ليس معروفاً [٢] .

تحرك الجيشان الالماني والفرنسي سوياً ، فعسكرا في ١١ نوفمبر سنة ١١٤٧ في إيسّيرون قرب مدينة باليق سراي الحالية . وفي هذا الموضع ،

---

(١) انظر : Odo of Deuil, pp. 48 - 51.

(٢) انظر : Odo of Deuil, pp. 60 - 61.
William of Tyre, XVI. 23, pp. 744 - 745.

قام الملكان بإجراء تغيير آخر للخطة . والراجح انه وردت اليها التقارير عن الرحلة التي قام بها أوتو فرايزنجين ، وسلك فيها الطريق المباشر الى فيلادلفيا ولأوديقيا . ولم نعلم من امر هذه الرحلة ، سوى ان حملته وصلت آخر الامر الى أضاليا ، بعد ان حلّ بها الإنهاك الشديد ، وتناقص عدد رجالها . وخلّفت وراءها على جانبي الطريق عدداً كبيراً من الرجال الذين لقوا حتفهم ، نتيجة لافتقادهم ضروريات الحياة ، او لإجهاز الترك عليهم . وقرر الملكان ان يزدادا اقتراباً من الساحل ، فيسيران في ارض بالغة الخصوبة ، ويظلان على اتصال بالاسطول البيزنطي . ومضى الملكان في طريقهما ، مجتازين أدراميتيوم ، وبرجاموم ، وأزمير ، حتى بلغا إفيسوس . سار جيش لويس في المقدمة ، بينما اخذ الجرمان يشقون طريقهم متأخرين يوماً عنهم . أورد المؤرخ البيزنطي ، كيناموس ، الهتاف الذي كان الفرنسيون ينادونهم به على سبيل الزراية والاحتقار : « أقبلوا أيها الالمان »[1] .

ولما بلغ الملكان إفيسوس ، أضحت صحة كنراد من السوء مـا حمله على البقاء بها . ولم يكد الامبراطور مانويل يسمع بذلك ، حتى بعث اليه بالهدايا النفيسة ، وحثه على العودة الى القسطنطينية ، حيث استقبله الامبراطور البيزنطي باهتمام بالغ ، وأنزله بقصره . واشتد شغف مانويل بالدواء ، وأصر على ان يكون الطبيب الخاص لضيفه (كنراد) . واستعاد كنراد صحته ، وازداد تأثراً لما حظي به من اهتمام الامبراطور والامبراطورة .

---

(١) انظر : Odo of Deuil, pp. 61 - 63.
Cinnamus, p. 84.

يناقش كيناموس ما كان من اختلاف بين الجيشين . فالفرنسيون يتفوقون في ركوب الخيل واستخدام الرمح ، بينما يشتهر الالمان بقتالهم راجلين وباستخدام السيوف في الحرب .

وحدث اثناء تلك الزيارة ، ان تم تدبير زواج هنري دوق اوستريا ، شقيق كنراد ، من تيودورا ، ابنة اندرونيق ، شقيق الامبراطور مانويل ظلّ الملك الالماني ، كنراد ، وحاشيته بالقسطنطينية ، حتى أول مارس سنة ١١٤٨ ، فنقلهم اسطول بيزنطي الى فلسطين [١] .

الفرنسيون في آسيا الصغرى ، سنة ١١٤٧ :

في أثناء الايام الاربعة التي امضاها لويس في افيسوس ، تلقى رسالة من مانويل ، يخطره ان الترك نهضوا للقتال ، وينصحه ان يتجنب نزالهم ، بل يبذل كل ما بوسعه من جهد بألا يبتعد عن كل ما تهيؤه له الحصون البيزنطية من مأوى . والواضح ان مانويل خشي ان يتعرض الفرنسيون للاعتداء من قِبل الترك ، فتحل به اللائمة ، كما انه لم يشأ ان يحدث ما يفض الصلح الذي عقده مع السلطان ، بعد ان اضحت الحرب مع صقلية وشيكة الوقوع . لم يردّ لويس على رسالة الامبراطور مانويل ، ولم يجب عليه ، حين كتب اليه يحذره بأنه ليس بوسع السلطات البيزنطية ان تمنع قومها من الانتقام لما سببه لهم الصليبيون من ضرر وأذى ، أخذ نظام الجيش الفرنسي في الانهيار ، ووصل الى العاصمة شكاوى عديدة بما يرتكبه

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 85 - 86.
Wibaldi Epistalae, p. 153.
(من بينها رسالة كنراد الى ويبالد) .
Annales Herbipolenses, p. 6.
Odo of Deuil, pp. 63 - 64.
William of Tyre, XVI. 23, pp. 745 - 746.

الجيش الفرنسي من الاعمال التي لا يقوم بها إلا الخارجون عن القانون[1].

اتخذ الجيش الفرنسي طريقة المستدير بوادي نهر الميـــاندر ، وفي ديكيرفيوم التي امضى فيها الفرنسيون عيد الميلاد ، ظهر الترك ، وأخذوا يناوئون الصليبيين ، حتى بلغوا الجسر المقام على النهر ، عنـد انطاكية بسيديا . فنشبت في هذا الموضع معركة حامية ، غير ان الفرنسيين شقوا طريقهم على الجسر ، وتراجع الترك الى داخل اسوار انطاكية بسيديا . على ان الأحوال التي هيـــأت للترك أن يلتمسوا لهم ملاذاً في الحصن البيزنطي ، لا زال امرها خافياً . ومن الطبيعي ان يرى الفرنسيون في ذلك خيانة للعالم المسيحي ، فسواء انصاعت القوة المحلية لأمر سلطة عليا ، او انهـــا اتخذت تدبيراً خاصاً مع المسلمين ، فالراجح ان الامبراطور لم يقرّ الخطة[2] .

والمعروف ان المعركة التي نشبت عنـــد الجسر في انطاكية بسيديا ، وقعت في اول يناير سنة ١١٤٨ . ووصل الصليبيون بعد ثلاثة ايام الى لأوديقيا فألفوها خالية من السكان ، لأن شهرة الصليبيين دفعت النـــاس الى التماس التلال ، بكل ما معهم من المؤن . وتعذر على الجيش ان يجمع المؤن اللازمة له في المرحلة الشاقة التي تواجهه[3]. فالطريق الى اضاليا ،

---

(١) انظر : Cinnamus, loc. cit.
Odo of Deuil, pp. 63 - 65.

(٢) انظر : Odo of Deuil, pp. 64 - 66.
William of Tyre, XVI. 24, pp. 746 - 747.

(٣) انظر : Odo of Deuil, loc. cit.

يدور حول جبال شاهقة موحشة . ويعتبر اجتيازه من أشق الرحلات ، حتى في أحسن الاوقات ملائمة . إذ تعتبر الرحلة كابوساً مفزعـــاً لجيش جائع ، يشق طريقه اثنـــاء عواصف يناير الهوجاء ، ولم ينثن الترك عن الضغط على جنـــاحيه ، فخطفوا الشاردين والمرضى . وشهد العساكر الفرنسيون ، على امتداد الطريق ، جثث الحجاج الالمان الذين هلكوا اثناء سيرهم ، منذ بضعة شهور . فلم تجرِ محاولة لحفظ النظام ، باستثناء مـــا التزمت به طائفة فرسان الداوية . واقشعرت الملكة ووصيفاتها في محفاتهن من شدة البرد ، وقد اقسمن ألا يعدن لمواجهة هذه المحنة مرة اخرى . وحدث بعـــد ظهر يوم من الايام ، وبينما اخذ الجيش الفرنسي يهبط نحو البحر ، أن كشافة الملك بقيادة جيوفري رانسون ، عصت اوامر الملك التي تقضي بأن تعسكر على قمة الدرب ، فهبطت الى سفح التل ، فانقطعت صلتها بالجيش الرئيسي ، الذي بادر الترك الى مهاجمته . صمد الصليبيون في القتال ، على انه لم ينقذ حياة الملك إلا حلول الظلام ، وكانت خسائر الفرنسيين فادحة [١] .

---

(١) انظر : Odo of Deuil, pp. 67 - 68, 71 - 72.

William of Tyre, XVI. 25, pp. 747 - 749.

وعن الرواية التي لا اساس لها من الصحة ، والتي تشير الى ان الملكة اليانور تعتبر مسؤولة عن الكارثة ، انظر :

Walker : «Eleanor of Aquitaine and the Disaster at Cadmus Mountain», in American Histoucal Review, vol. IV. pp. 857 - 861.

وما بذله اودو دييه نفسه من جهد صادق في توفير المؤن للجيش لم يشأ ، من قبيل التواضع ، ان يشير اليه . انظر :

Dialogus Apologeticus du Moine Geffror, p. 106.

الفرنسيون يبلغون اضاليا ، سنة ١١٤٨ :

ومنذئذ اضحى الطريق اكثر سهولة ويسراً ، فلم يغامر الترك بالهبوط الى السهل ، ووصل الجيش الصليبي في اول فبراير ، سنة ١١٤٨ ، الى اضاليا . وكان حاكم اضاليا البيزنطي ، رجلاً ايطالياً اسمه لاندولف ، فبذل كل ما بوسعه من جهد ، بناء على اوامر الامبراطور ، لمساعدة الصليبيين القادمين من الغرب . غير ان اضاليا لم تكن مدينة كبيرة ، تتوافر بها المؤن . إذ انها تقع في اقليم قروي فقير ، تعرّض حديثاً لغارات الترك المخرّبة . وما ادخرته من مؤن للشتاء اخذت تتناقص ، واستولى الحجاج الالمان على كل ما جرى ادخاره . فلا عجب انه لم يتيسر للجند إلا قدر ضئيل من المؤن ، وأن تنزع الاسعار الى الارتفاع . غير ان الفرنسيين الذين استبد بهم الغضب واليأس ، اعتبروا كل هذا دليلاً جديداً على خيانة البيزنطيين . وعندئذ قرر الملك لويس ان تتم الرحلة بطريق البحر ، وتفاوض مع لاندولف حاكم اضاليا في أمر السفن . وليس من السهل في هذه الفترة من السنة ، إعداد اسطول في ميناء يقع بساحل كارامانيا الوعر . وبينما يجري إعداد السفن وجمعها ، هبط الترك ، وشنوا هجوماً مفاجئاً على معسكر الصليبيين . ووجه الفرنسيون اللوم مرة اخرى الى البيزنطيين . والراجح ان البيزنطيين لم يبذلوا جهداً في الدفاع عن ضيوفهم الذين ليسوا مرغوباً فيهم ، إذ ان غارات الترك لم تقع إلا بسبب وجودهم . ولما وصلت السفن ، تبين انها كانت من القلة مما يجعلها لا تتسع لكل الجيش . ولم يسع لويس عندئذ إلا أن يشحنها بحاشيته ، وبكل ما تتسع له من الفرسان ، وأقلعت بهم الى السويدية ، التي بلغوها في ١٩ مارس ١١٤٨ . وكيما يرضي لويس ضميره ، بسبب تخليه عن جيشه ، دفع الى

لاندولف مبلغاً من المال ، قدره خمسمائة مارك ، وطلب اليه ان يرعى المرضى والجرحى ، وأن يرسل اليه ، عن طريق البحر ، من تبقى من الجيش متى استطاع الى ذلك سبيلا . وأناب عنه كونت فلاندر ، وكونت بوربون ، اللذين خلفهما وراءه . على انه لم يمض إلا يوم واحد على رحيل الملك ، حتى هبط الترك الى السهل وهاجموا المعسكر الصليبي .

استحال على الصليبيين ان ينجحوا في ردّ الترك ، نظراً لأنه لم يتوافر عندهم الفرسان ، ولذا حصل الصليبيون على اذن بالاحتماء داخل الاسوار ، حيث لقوا معاملة طيبة ، وظفر مرضاهم بالعلاج السليم ، وبادر لاندولف بالإكثار من جمع السفن ، ومع ذلك لم يتوافر منها ما يكفي لنقل كل رجال الحملة . وعندئذ احتذى ثيري كونت فلاندر ، وارشيمبالد كونت بوربون ، نهج الملك ، فاستقلا السفن مع اصدقائهم ومن تبقى من الفرسان ، بعد ان طلبا الى الرجالة والحجاج ان يبذلوا كل جهدهم في اتخاذ الطريق البري [١] .

على ان هذه البقية من الرجالة والحجاج التعساء رفضوا ، بعد ان تخلى عنهم قادتهم ، المكوث في المعسكر الذي أعده لهم لاندولف الذي أراد بذلك ان يخرجهم من المدينة . إذ اعتقدوا انهم سوف يكونون أشد تعرضاً للهجمات من قبل رماة الترك . ولذا بادروا ، عوضاً عن ذلك ، الى

---

(١) انظر : Odo of Deuil, pp. 73 - 6.

حاول اودو في تعليقه ان يلقي باللائمة على الملك لتخليه عن جيشه . انظر ايضاً :
William of Tyre, XVI. 26, pp. 749 - 751.

ان يسلكوا الطريق الشرقي . ولما اشتهروا بـه من الجهل ، والافتقار الى النظام ، والإرتياب في أدلائهم ، واستمرار مناوءة الترك لهم ، واعتقادهم في تواطؤ البيزنطيين معهم ، كل ذلك حمل هؤلاء الفرنسيين التعساء ، ومن تبقى من الرجالة الالمان الذين تثاقلوا وراءهم في سيرهم ، على ان يمضوا في طريقهم الشاق الى قليقية . ولم يصل الى انطاكية منهم في أواخر الربيع إلا أقل من نصف عددهم [١] .

سياسة بيزنطة أثناء الحملة الصليبية سنة ١١٤٧ — ١١٤٨ :

وفي رسالة من الملك الى رئيس الدير سوجر ، والـتي لم تختلف عن سائر الرسائل فيما انطوت عليه من غرض واحد لا يختلف ، وهو طلب مزيد من المـــال ، عزا كل ما وقع في بلاد الأناضول من كوارث « الى خيانة الامبراطور ، والى ما ارتكبناه من خطأ » . على ان التهمة الموجهة الى مانويل ، صار اودو دييه الفرنسي الذي يعتبر المؤرخ الرسمي للحملة الصليبية ، يرددها باستمرار ، ويوليها قـدراً كبيراً من العاطفة ، وظل مؤرخو الغرب حتى اليوم ، يرددون صداها ، ولم يغفلوا منها إلا بعض الاستثناءات [٢] . وما اصاب الحملة الصليبية من كوارث ، جعلت العلاقات بين العالمين المسيحيين في الشرق والغرب ، من السوء والمرارة ، ما يبتغي معه الاهتمام الشديد بفحص هذا الاتهام . إذ ان المؤرخ اودو يشكو بأن

---

(١) انظر : Odo of Deuil, pp. 76 - 80.

(٢) انظر رسالة لويس السابع الى سوجر في: R. H. F. vol. XV. pp. 495 - 496.
الواضح ان المؤرخ اودو كان شديد البغض اليونانيين (البيزنطيين) .

البيزنطيين لم يقدموا مؤناً كافية ، على الرغم من انهم تقاضوا عنها أثماناً باهظة ، كما انهم لم يوفروا للحملة وسائل النقل الكافية ، والأدلاء الأكفاء ، وأسوأ من ذلك انهم تحالفوا مع الترك على اخوانهم المسيحيين . والواقع ان التهم الاولى بعيدة عن التصديق . فما من دولة في العصور الوسطى ، حتى بيزنطة ذاتها المعروفة بقوة نظامها ، حازت من فائض كميات المؤن ما يكفي لبذلها لجيشين بالغي الضخامة ، قدما دون دعوة ، ودون سابق إنذار ، وكلما شحّت الأقوات ، لا بـد ان تنزع الأسعار الى الارتفاع . ومن المحقق ان عدداً كبيراً من التجار المحليين ، وبعض موظفي الحكومة ، حاولوا ان يغشوا الغزاة ولم يكن هذا السلوك ظاهرة نادرة الحدوث في التجارة ، ولا سيما في العصور الوسطى وفي الشرق . وليس معقولاً ان نتوقع من لاندولف ان يجهز من السفن اعداداً تكفي لنقل كل الجيش من ميناء أضاليا الصغير ، في وسط الشتاء . كما انه لا يصح توجيه اللوم الى الأدلاء ، الذين قلّ الأخـذ بنصيحتهم ، إذا لم يعلموا بآخر ما دمره الترك من الجسور او طموه من الآبار ، او اذا لم يفروا امام تهديدات وعداوة الرجال الذين تولوا إرشادهم .

أما التحالف مع الترك فيعتبر اشد التهم خطورة ، غير انه ينبغي ألا نغفل وجهة نظر الامبراطور مانويل . اذ ان مانويل لم يَدْعُ الصليبيين للقدوم ، ولم يكن راغباً في حملة صليبية ، وتوافر لديه من الدواعي السليمة ما يمنعه من إقرارها . إذ أدركت الدبلوماسية البيزنطية ، كيف تستطيع في الوقت الراهن ان توقع بين سائر الأمراء المسلمين ، بأن تنحاز الى احدهم منهم ازاء الآخر ، وبذلك تنجح في عزل كل منها عن الآخر . فإعداد حملة منظمة ، كهذه الحملة الصليبية ، سوف يؤدي حتماً الى إعادة توحيد الجبهة

الاسلامية ضد العـــالم المسيحي . يضاف الى ذلك انه كان لزاماً على الاستراتيجية البيزنطية ، ازاء المسلمين ، ان تسيطر على انطاكية . وحققت بيزنطة آخر الامر هذه السيادة ، حينا خضع ريموند امير انطاكية ذليلاً للامبراطور في القسطنطينية . على ان قدوم حملة صليبية ، على رأسها ابنة اخته (إليانور) وزوجها (لويس السابع) ، لا بـد ان تغريه بالتخلص من تبعيته لبيزنطة ، كما ان سلوك الصليبيين ، باعتبارهم ضيوفاً بالأراضي البيزنطية لم يؤد إلا الى ازدياد كراهية الامبراطور لهم ، بعد ان نهبوا البلاد ، وهاجموا رجال الشرطة ، ولم يحفلوا بطلبات الامبراطور بما ينبغي ان يتخذوه من الطرق ، بل ان كثيرين من رجالهم البارزين تحدثوا صراحة عن مهاجمة القسطنطينية . وفي ضوء ما سبق الاشارة اليه ، اتسمت معاملة الامبراطور لهم فيما يبدو ، بالسخاء وضبط النفس ، واعترف بذلك بعض الصليبيين انفسهم . غير ان القادمين من الغرب لم يدركوا هذه المعاملة ، ولم يغفروا للامبراطور المعاهدة التي عقدها مع الترك . والواقع ان الحاجات الأساسية للسياسة البيزنطية تجاوزت حدود ادراكهم ، فاختاروا لأنفسهم ان يتجاهلوا ، برغم إدراكهم الأكيد للحقيقة ، انه حينما طلبوا من الامبراطور ان يساندهم على المسلمين ، كانت بلاده تتعرض لهجوم عنيف من قبل دولة مسيحية اخرى . ففي خريف سنة ١١٤٧ استولى روجر ملك صقلية على جزيرة كورفو ، ومنهـــا ارسل جيشاً ليغير على شبه الجزيرة اليونانية . فتعرضت طيبة للنهب ، وجرى اختطاف الألوف من عمالها وصناعها ، ليبذلوا المساعدة لصناعة الحرير الناشئة في بلرم ، بل ان كورينثة ذاتها ، المعقل الرئيسي بشبه الجزيرة ، سقطت في ايديهم ، وتجردت من كل ما تحويه من كنوز . وبعـد ان امتلأت ايدي نرمان صقلية بالغنيمة ، قفلوا راجعين الى كورفو ، التي وطدوا العزم على الاحتفاظ بها ، لتكون مصدر

تهديد مستمر للامبراطورية ، ولتصير معقلاً لهم على البحر الأدرياتي فما تعرض له الامبراطور من تهديـــد بهجوم النرمان ، هو الذي حمله على الارتداد عن قونية في سنة ١١٤٦ ، وعلى قبول الدخول في مفاوضات مع السلطان ، في السنة التالية ، لعقـد الصلح ، فاذا جرى اعتبار مانويل خائناً للعالم المسيحي ، فمن المحقق ان روجر ملك صقلية يفوقه في ذلك .

سياسة الامبراطور مانويل سنة ١١٤٧ — ١١٤٨ :

وعلى الرغم من ضخامة الجيش البيزنطي ، فانه لم يكن سريـع التحرك الى كل مكان ، واقتضت الحرب مع روجر ، الاستعانة بخـــيرة العساكر البيزنطية . ثم ترددت الشائعات عمـا ساد في البراري الروسية من القلق والاضطراب الذي نجم عنه ما قام به البولفتسيون (البجناك) من الغارة على شبه جزيرة البلقـــان ، في صيف سنه ١١٤٨ . وإذ اضحت الحرب الصليبية قريبة منه ، لم يستطع مانويل ان يجرد حدود قليقية من العساكر ، وتطلب اجتياز الصليبيين لأراضي الامبراطورية ، ضرورة زيادة عـــدد رجال الشرطة العسكرية . وإذ خطر كل ذلك ببال الامبراطور ، لم يكن بوسعه ان يبذل من قوات الحدود ما يكفي لاتخاذ مواقعها على امتداد حدوده بالأناضول . ولذا آثر مانويل ان يعقد هدنة تكفل لرعاياه بالأناضول ان يعيشوا بعيدين عن خطر الغارات التركية . غير ان الصليبيين عرّضوا هـذه الهدنة للخطر ، فلم يكن زحف كنراد على دوريليوم إلا استثارة مباشرة للترك . أما لويس ، فانـــه على الرغم من التزامه المسير بداخل الاراضي البيزنطية ، فقد صرّح علناً انه عدو لجميـع المسلمين ، ورفض طلب الامبراطور بالبقاء في داخل النطاق الذي تتولى حراسته الحاميات البيزنطية .

والراجح ان مانويل ، حينما واجهته هذه المشكلة ، عقد اتفاقاً مع الترك ، تغاضى بمقتضاه عن غاراتهم على اراضيه طالما لم يهاجموا إلا الصليبيين ، والتزموا بعهدهم ، وبـــذا هيأ الصليبيين ان يدركوا في جلاء ان الترك متواطؤن مع السكان المحليين الذين لم يحفلوا بما اذا كانت قطعان أغنامهم ومواشيهم ، سرقها الصليبيون او الترك . ومن الطبيعي في هـذه الأحوال ان يؤثروا الترك [1] . على انه من المستحيل ان نصدق المؤرخ اودو دييه بأن البيزنطيين انحـازوا فعلاً الى جانب الترك في مهاجمة الصليبيين . وجّه اودو هذه الاتهامات الى سكان أضاليا ، إثر قوله انهم تعرضوا فيما بعد للعقاب من قِبل الامبراطور ، لما اظهروه من العطف على الصليبيين [2] .

على ان المسؤولية الأساسية عمـا حلّ بالصليبيين من كوارث ببلاد الاناضول ، ترجع حتماً الى ما ارتكبوه من حماقات . والواقع انـه كان بوسع الامبراطور ان يؤدي لهم ما يزيد على ما قدمه لهم من مساعدة ، غير ان ذلك يعرض امبراطوريته للخطر . على ان المسألة كانت أبلغ عمقاً من كل ذلك فهل كان خيراً للعالم المسيحي ، ان تقدم الى الشرق من حين الى آخر حملات من هذا القبيل ، تثير الاهتمام ، ويتولى قيادتها خليط من

---

(١) عن مشاغل مانويل في هذه الفترة انظر :

Chalandon, op. cit.

Michael the Syrian, III. p. 276.

يردد المؤرخ ميخائيل السرياني ما وجهه الفرنج من اتهامات اليونانيين (البيزنطيين) . غير ان المصادر الاسلامية تشير الى ما كان من وفاق بين مانويل والفرنج . انظر :

Abu Shama, p. 54.

(٢) انظر : Odo of Deuil, p. 79.

المثالين الحمقى ، والمغامرين الجفاة ، لتبذل المساعدة لدولة دخيلة ، يتوقف بقاؤها على تفرق كلمة المسلمين ؟ أم هل تمضي بيزنطة ، التي ظلت زمناً طويلاً حارسة للطرف الشرقي ، في القيام بدورها دون ان تتعرض للمتاعب من الغرب ؟ على ان قصة الحروب الصليبية الثانيـــة فاقت قصة الحروب الصليبية الاولى جلاء في ان السياستين متعارضتان . على انه لم يتبين أية السياستين كانت الصادقة ، إلا بعـــد سقوط القسطنطينية ، سنة ١٤٥٣ ، وبعد هدير الترك وزعدمم على ابواب فيينا .

الفصل الثالث

فشل الحرب الصليبية الثانية

لمـــا بلغت انطاكية الانباء بهبوط الملك لويس السابع الى مينـاء السويدية ، في ١٩ مارس ، سنة ١١٤٨ ، ركب اليها الامير ريموند وجميع رجال بلاطه للترحيب به ، وليكونوا برفقته الى المدينـة (انطاكية). وانقضت الايام التـالية في احتفالات وأفراح ، إذ بذل شباب النبلاء في انطاكية كل ما بوسعهم ، لإدخال السرور على ملكة فرنسا ، ومن بصحبتها من العقيلات . ونسي الزائرون المتاعب التي تعرضوا لهـا اثناء الطريق ، بما صادفوه في فصل الربيع بسوريا من طقس منعش ، وفي وسط فخامة بلاط انطاكية وبذخه . ولم يكد يستعيد الضيوف نشاطهم ، حتى اخذ ريموند يناقش القادة الفرنسيين خطط توجيه حملة لقتال المسلمين . كان ريموند يأمل فيما يترتب على قدوم الحملة الصليبية ، من نتائج باهرة ، إذ كان مركزه بانطاكية بالغ الخطورة ، بعـد ان وطد نور الدين وقتذاك ملكه على امتداد الطرف المسيحي الممتد من الرها الى حماه ، وقـد أمضى

خريف سنة ١١٤٧ في انتزاع ما يقع شرقي نهر الاورنت من الحصون ، الواحد بعد الآخر . اما الكونت جوسلين فوجّه كل اهتمامه الى المحافظة على حصنه بتل باشر . فاذا اقدم المسلمون على مهاجمة انطاكية ، في قوة كبيرة ، فما من دولة سوى بيزنطة تستطيع ان تبذل المساعدة لريموند ، على ان العساكر البيزنطية قد تصل متأخرة ، ومع ذلك قد تصرُّ على التشدد في إذلال ريموند . على ان الجيش الفرنسي ، برغم ما ترتب على أحداث الرحلة ، من ضعف قوة الرجالة ، يهذل من امداد الفرسان الضخمة ما يهيء لفرنج انطاكية ان يهاجموا المسلمين . وألح ريموند على الملك لويس بأن يشتركا معاً في توجيه ضربة الى مدينة حلب مقر سلطة نور الدين ، كما أنه أغرى عدداً كبيراً من الفرسان الفرنسيين على الانحياز له للقيام بغارة استطلاعية ، وصلوا فيها الى اسوار حلب ، فاشتد ذعر سكانها[١] .

لويس واليانور في انطاكيه سنة ١١٤٨ :

على ان الملك لويس تردد ، حينما جرت مناقشة اقتراح ريموند ، إذ قال ان يمين المحارب الصليبي ألزمته بأن يتوجه اولاً الى بيت المقدس ، قبل النهوض بأية حملة عسكرية ، غير انه لم يتخذ هذا العذر إلا ليخفي امتناعه عن اتخاذ قرار . والواقع ان كل أمراء الشرق الفرنجي كانوا يطلبون منه المساعدة ، فالكونت جوسلين كان يأمل الافادة منه في استرجاع الرها ، ألم يؤد سقوط الرها الى إثارة الحرب الصليبية بأكملها ؟ أما ريموند كونت

(١) انظر : William of Tyre, XVI. 27, pp. 751 - 753.
William of Nangis, I. p. 44.

تولور فالتمس مساعدة الملك لويس لاسترجاع حصن بعرين ، بما زعمه من حق له باعتباره ابن عم الملك ، نظراً لأن امه كانت اميرة فرنسية . ثم وصل الى انطاكية في ابريل ، سنة ١١٤٨ ، بطريرك بيت المقدس ، مبعوثاً من قِبل المحكمة العليا في بيت المقدس ، ليطلب من الملك لويس ايضاً ان يعجل بالمسير صوب الجنوب ، وكيا يخطره ان الملك كنراد اضحى فعلا في البلاد المقدسة [١] . على ان باعثاً شخصياً خالصاً حمل الملك آخر الامر على ان يقرر الاستجابة له . ذلك ان الملكة اليانور كانت اكثر ذكاء من زوجها ، إذ ادركت على الفور ما تنطوي عليه خطة ريموند من حكمة ، غير ان ما اشتهرت به من شدة العاطفة ، وإعلانها صراحة مساندة خالها (ريموند) لم تؤد إلا الى اثارة غيرة زوجها الملك لويس ، فأخذت الألسنة تتناقل اخبارهما ، فلم تجر رؤية الملكة عادة إلا بصحبة الأمير . وتهامس الناس ان غرام الامير ريموند تجاوز حد محبة الخال . وإذ قلق لويس على شرفه ، صرح برحيله المباشر ، على حين ان الملكة اعلنت انها وحدها على الاقل سوف تبقى بانطاكية ، وسوف تسعى للطلاق من زوجها ، وردّ لويس على ذلك بأن جرّ زوجته قسراً من قصر خالها ، وسار بكل عساكره الى بيت المقدس [٢] .

---

(١) كان هذا البطريرك هو فولشر انجوليم ، رئيس اساقفة صور السابق ، الذي عينته الملكة ميليسند بطريركاً عقب وفاة وليم ميسينيس في سنة ١١٤٧ .

(٢) انظر : William of Tyre, loc. cit.

اتهم وليم الصوري الملكة إليانور بالغباء ، غير انه لم يشر الى انها لم تكن وفية لزوجها . أما شكوك الملك فأوردها المؤرخ يوحنا سالسبوري في كتابه (Historia Pontificalis, p. 53).

هبط كنراد مع كبار أمرائه الى عكا في منتصف ابريل ، فاستقبلته الملكة ميليسند وابنها بكل مظاهر المودة والتشريف ، في بيت المقدس [1] . وظفر الملك لويس بهذه التشاريف والاحتفالات عند دخول الارض المقدسة بعد شهر . فلم تشهد بيت المقدس ما شهدت وقتذاك من حفل رائع للفرسان والعقائل [2] . غير انه تغيب عن هذا الحفل كثير من الأمراء المشهورين . وإذ اشتد غضب ريموند امير انطاكية لسلوك الملك لويس ، نفض يديه من كل الحملة الصليبية ، فليس بوسعه بحال من الاحوال ان يغادر امارته التي تعرضت للضغط الشديد ، للاشتراك في مغـــامرة بالجنوب . ولم يستطع جوسلين ايضاً ان يترك تل باشر . أما تغيّب كونت طرابلس فيرجع الى وقوع كارثة عائلية خطيرة . ذلك ان كونت تولوز ، الفونسو جوردان كان من المحاربين الصليبيين الذين أقسموا مع الملك لويس اليمين في فيزيلاي على الاشتراك في حرب صليبية . وأبحر الفونسو جوردان مع زوجته وأبنائه ، من القسطنطينية ، فوصل الى عكا ، بعد ايام قليلة مضت على قدوم كنراد . وبوصوله في كتيبة عسكرية قوية ، انتعشت آمال الفرنج في الشرق ، لمـا هو معروف به عندهم من الميل الى المغامرة . فالمعروف انـه ابن محارب صليبي عتيق ، هو ريموند كونت تولوز ، وجرت ولادته في الشرق في جبل الحجاج ، بينما كان ابوه يلقي الحصار على طرابلس . غير ان قدومه أثار الارتباك والحرج لكونت طرابلس القائم في الحكم فعلاً ، وحفيد برتراند ،

---

(١) انظر : Ibid, XVI. 28, pp. 753 - 754.
Otto of Freisingen, Gesta Friderici, pp. 88 - 89.

(٢) انظر : William of Tyre, XVI. 29, pp. 754 - 756.

الذي لم يكن ابناً شرعياً للكونت ريموند . فاذا طالب الفونسو جوردان بحقـــه في طرابلس ، فمن العسير انكار حقه ، ويبدو انه كان يميل الى الاشارة الى حقوقه ففي طريقه من انطاكية الى بيت المقدس ، توقف في قيسارية ، فصرعه الموت فجأة بهـا . ولعل سبب الوفاة يرجع الى مرض حاد كالزائدة الدودية ، غير ان الناس ساورهم الشك على الفور بأنه مات مسموماً ، بل ان برتراند ابن الامير الراحل ، اتهم صراحة ابن عمه ، ريموند كونت طرابلس ، بأنه هو الذي حرّض على قتله ، بينما اعتقـــد آخرون ان الملكة ميليسيند هي التي ارتكبت الجريمـة ، لصالح اختها العزيزة ، هوديرنا ، زوجة ريموند كونت طرابلس . لم يثبت شيء من هذه الاتهامات ، غير ان ريموند في ثورة غضبه لما تعرض له من الاتهام ، امتنع عن الاشتراك في الحرب الصليبية [1] .

الصليبيون يقررون مهاجمة دمشق سنة ١١٤٨ .

لما اكتمل وصول جميع الصليبيين الى فلسطين ، دعتهم الملكة ميلسيند وبلدوين الثالث لحضور مجلس كبير ينعقد بعكا في ٢٤ يونيو سنة ١١٤٨ . كان اجتماعاً بالغ الروعة . اشترك في الترحيب بالضيوف ، الملك بلدوين ، وفولشر بطريرك بيت المقدس ، فضلاً عن رئيسي اساقفة قيسارية والناصرة ، ومقدمي الداوية والاسبتارية وكبـار موظفي الكنيسة والباروناث بمملكة

---

(١) انظر : William of Tyre, XVI. 28, p. 745.

يرى وليم نانجيس ان الملكة ميليسيند تورطت في جريمة القتل : William of Nangis, p. 43.

بيت المقدس . وحضر مع كنراد اخوه ، غير الشقيق ، هنري باسمبير كوت دوق اوستريا ، وابن اخيه اوتو فرايزنجين ، وفردريك دوق سوابيا ، وولف دوق بافاريا ، وعدد كبير من الأمراء يلونهم في الرتبة . أما اللورين فكان يمثلها اسقفا متز وتول . وقدم مع الملك لويس ، شقيقه روبرت كونت دريه ، وصهره المقبل هنري كونت شمبانيا ، وثييري كونت فلاندر ، فضلاً عن برتراند الصغير ، وهو ابن غير شرعي لألفونسو جوردان . ولا نعلم ما جرى من المناقشة في المجلس ، وعمّن عرض الاقتراح النهائي . وقرر المجلس آخر الامر ، بعد شيء من المعارضة ، ان يركز كل قوته على الهجوم على دمشق [1] .

والواقع أن هذا القرار اتسم بالحماقة المطلقة ، فقد تكون دمشق فعلا جائزة سنية ، ويؤدي تملك الفرنج لها الى قطع الصلة نهائياً بين المسلمين في مصر وافريقية ، وبين اخوانهم في شمال الشام والشرق . غير ان مملكة البوريين بدمشق هي التي انفردت عن سائر الممالك الاسلامية بالحرص على الابقاء على الصداقة مع الفرنج ، وهي تضارع في ذلك ابعد الفرنج بصراً ، في اعتبار نور الدين اكبر عدو لها . وتقضي مصالح الفرنج بالمحافظة على الصداقة مع دمشق ، حتى يتم سحق نور الدين ، باستمرار القطيعة بين دمشق وحلب . فإذا جرت مهاجمة دمشق ، فإن أسلم وسيلة لحكامها ، هي ان يرتموا في ايدي نور الدين ، مثلما دلّ على ذلك ، ما وقع من احداث في

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 1, pp. 758 - 759.
أورد وليم الصوري قائمة بأسماء من حضر من كبار رجال الكنيسة والأعيان الألمانيين .
Otto of Freisingen, Gesta Friderici, p. 89. Gesta Ludovici, pp. 403-404.

السنة السابقة . غير ان بارونات بيت المقدس طمعوا في الحصول على البلاد الخصيبة التي تدين بالولاء والتبعية لدمشق ، واشتد تأثرهم كلما تذكروا ما تعرضوا له اخيراً من ذلة وهوان ، لا بد ان تطلع للانتقام لها ملكهم الشاب بلدوين ، بما امتلأ به من فتوة ونشاط . ولم تكن لحلب اهمية عند الصليبيين القادمين من الغرب . أما دمشق فجرى تبجيلها في الكتاب المقدس ، ولذا فإن استخلاصها من أيدي المسلمين سوف يردد مجد المسيح في سائر الأنحاء . ومن العبث ان نخص القرار باللوم والتقريع ، على ان البارونات المحليين الذين ادركوا الموقف يتحملون من المسئولية ما يتحمله البارونات القادمون حديثاً ، الذين يعتبرون المسلمين عندهم سواء [١] .

أما الجيش المسيحي الذي يعتبر اضخم ما قذف به الفرنج من جيوش الى ساحة المعركة ، فإنه سار في منتصف يوليو سنة ١١٤٨ ، من الجليل ، الى بانياس . وفي يوم السبت ، الموافق ٢٤ يوليو ، عسكر على حافة الحدائق والبساتين التي تحيط بدمشق . ولم يحفل أنر اول الأمر بما تردد اليه من انباء الحملة الصليبية . وسبق ان سمع بما تكبدته من خسائر فادحة في بلاد الأناضول ، وكيفما كان الأمر ، لم يتوقع أنر من الحملة ان تتخذ دمشق هدفاً لها . فلما اكتشف الحقيقة ، بادر بإصدار الأوامر الى ولاة الأقاليم بأن يبعثوا اليه كل من يستغنون عنه من الرجال ، وهرع رسول الى نور الدين بحلب يطلب منه النجدة ، وتوقف الفرنج اول الأمر بالموضع المعروف باسم منازل العساكر ، الذي يقع على نحو اربعة اميال

---

(١) انظر : William of Tyre, loc. cit.

الى الجنوب من دمشق التي لاحت لهم اسوارها وأبراجها البيضاء من ثنايا الاشجار الكثيفة بالبساتين ، غـــير انهم عجّلوا بالسير الى قرية المزة ، لتوافر الماء بها . وحاول جيش دمشق منع تقدمهم ، غير انه اضطر الى الارتداد الى مـــا وراء الاسوار . وإذ انتصر الصليبيون ، ارسل قادتهم جيش بيت المقدس الى البساتين لتطهيرها من المقاتلين الذين يشنون حرب العصابات . على ان البساتين الواقعة الى الجنوب من دمشق اضحت بعد الظهر في ايدي الفرنج ، الذين اقاموا المتاريس من الاشجار التي قطعوها . وتلى ذلك ما قام به الفرنج بفضل بسالة كنراد الشخصية ، بشق طريق لهم الى الربوة الواقعة على نهر بردى تحت اسوار المدينة مباشرة وظن اهل المدينة وقتذاك انهم خسروا كل شيء ، فشرعوا في إقامة المتاريس بالشوارع استعداداً للاستماتة في القتال الاخير . غير ان المد لم يلبث ان تحوّل في اليوم التالي . فما طلبه أنر من امداد ، اخذت تتدفق على المدينة من ابوابها الشمالية ، وبفضل مساعدتهم قام أنر بهجوم مضاد ، ردّ بـــه المسيحيين عن الأسوار . وأعـــاد الكرة بمهاجمـــة المسيحيين في اليومين التاليين ، بينما توغل رجال العصابات مرة اخرى في الحدائق والبساتين . وأضحت هجماتهم من الخطورة على المعسكر مـــا دعا كنراد ولويس وبلدوين الى الاجتماع معاً ، وقرروا الجلاء عن البساتين بجنوب المدينة ، والتحرك صوب الشرق ، وإقامة معسكرهم في بقعة لا يتهيأ فيهـــا للعدو هذا الستار . وفي ٢٧ يوليو تحرك كل الجيش الصليبي الى السهل الواقع خارج السور الشرقي . والواقع ان هذا القرار كان بالغ الخطورة ، اذ افتقر الموضع الجديد الى المـــاء ، كما انه واجه أمتن وأقوى قطاع في السور . وتوافر لجماعات الدماشقة من الحرية مـــا يكفي لأن تنطلق حول البساتين . واعتقد عدد كبير من عساكر الفرنج فعلاً ان بارونات

فلسطين الذين نصحوا الملوك ، لا بد انهم تقاضوا من أنر الرشوة حتى يسدوا هذه النصيحة ، إذ ضاعت آخر فرصة للاستيلاء على دمشق ، بفضل تحرك الجيش الى الموضع الجديد ، وإذ ازداد عدد عساكر أنر ، الذي علم ايضاً ان نور الدين في الطريق صوب الجنوب ، جدّد أنر هجماته على معسكر الفرنج . وأضحى الجيش الصليبي ، لا المدينة المحاصرة ، يتخذ وقتذاك خطة الدفاع [1] .

وقوع الشجار في المعسكر المسيحي ، سنة ١١٤٨ :

وبينما تردد بين الجيش المسيحي ، التخاذل والهمسات عن الخيانة ، تشاحن القادة صراحة حول مستقبل دمشق ، اذا استولوا عليها . وكان بارونات بيت المقدس يأملون بألا تكون دمشق سوى إقطاع للمملكة ، واتفقوا على ان يكون سيد هذا الإقطاع ، جاي بريسيبار ، سيد بيروت ، وأقرّ هذا الترشيح ، فيما يبدو ، الملكة ميليسند والكندسطبل مَناسيس . غير ان ثيري كونت فلاندر كان يطمع في دمشق ، التي أراد أن يحوزها اقطاعاً شبه مستقل ، على مثال امارة طرابلس . وظفر ثيري بتأييد كنراد ولويس ، والملك بلدوين ، نظراً لأن ثيري متزوج من اخت غير شقيقة لبلدوين . ولما علم البارونات المحليون بأن الملك يصانع ثيري ، اشتد غضبهم ونزعوا الى التواكل في بذل

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 2 - 5, pp. 760 - 767.
Ibn al - Qalanisi, pp. 282 - 286.
Abu Shama, pp. 55 - 59.
Usama, ed. Hitti, p. 124.

جهودهم . أما مَن لجــأ من البارونات المحليين الى الاستمرار في مقاومة الهجوم على دمشق ، فإنهم ظفروا بأنصار جدد عديدين . ولعلهم اتصلوا سراً بأنر ، إذ دارت الهمسات ، أن ما جرى فعلاً دفعه من مبالغ ضخمة من النقود التي تبين أنهــا كانت زائفة ، انتقلت بين دمشق وبلاط بيت المقدس ، وإليناند امير الجليل . ولعل أنر أخطرهم بأنهم متى تراجعوا على الفور ، فسوف يتخلى عن التحالف مع نور الدين ، وسواء حرص أنر أم لم يحرص على الإفادة من هــذا العرض ، فلا شك انــه أثار التردد بين بارونات مملكة بيت المقدس . كان نور الدين فعلاً بحمص ، يتفاوض في شروط مساعدته لأنر . وطلب نور الدين أنه ينبغي السماح لعساكره بدخول دمشق . غير ان أنر كان يعمل لكسب الوقت . إذ كان جيش الفرنج في وضع حرج امام دمشق ، ولم يتوقع قدوم إمدادات ، على حين انه لن تمر ايام قليلة حتى يصير جيش نور الدين في ساحة المعركة ، فاذا وصلت قوات نور الدين ، فلن يحل الدمار فحسب بكل الجيش الصليبي ، بل صار من المحقق ان تنتقل دمشق الى حوزة نور الدين [١] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 6. pp. 767 - 768.

Rey : « Les Seigneurs de Beirut » in Revue de l'Orient Latin, vol. IV. pp. 14 - 15.

يورد راي، نقلاً عن وثائق مملكة بيت المقدس (Assises II. p. 458) ، خبر ترشيح جاي سيد بيروت كيما يكون اميراً على دمشق .

Michael the Syrian, III. p. 276.

يشير ميخائيل السرياني الى ما تردد من شائعات عن الأموال التي جرى بذلها للملك بلدوين وإليناند امير الجليل ، والتي قبلاها خوفاً من اطماع كنراد . أما ابن العبري فيقول انه لم يعثر على هذه القصة في المصادر العربية .

= (Bar Hebraeus, trans. Budge, p. 274) .

اقتنع بارونات فلسطين ، بعد ثرات الوقت ، أنه من الحماقة المضي في مهاجمة دمشق ، وفرضوا آراءهم على الملك كنراد والملك لويس . وارتاع القادمون من الغرب لما حدث ، فليس بوسعهم تتبع ما يجري من مناقشات سياسية بارعة ، غير انهم أدركوا أنه لا يتحقق عمل من الاعمال إلا بمساعدة الفرنج المحليين . وتجار الملكان بالشكوى لما اكتشفاه من خيانة ، والافتقار الى الحماس للقضية ، غير أنهما أمرا بالارتداد عن دمشق[1] .

وفي فجر يوم الاربعاء ، ٢٨ يوليو سنة ١١٤٨ ، أي في اليوم الخامس لوصولهم امام دمشق ، قام الصليبيون بإزالة المعسكر ، والمسير نحو الجليل . ومع ان أموال أنر هي التي حملتهم على الارتداد ، فانه لم يدعهم يرتحلون في هدوء وسلام . إذ ان الفرسان التركمان الخفاف ، ظلوا طوال ذلك اليوم ، وبضعة ايام تالية ، يضغطون على جناحي الجيش الصليبي ويمطرون الجموع بوابل من السهام . وتناثرت جثث الرجال والخيل على امتداد الطريق ، وأفسدت رائحتها السهل لشهور عديدة تالية . وفي اوائل اغسطس عادت الى فلسطين الحملة الحربية الكبيرة ، ورجعت العساكر المحلية الى اوطانها .

= ويشير ابن القلانسي الى ان الفرنج ارتاعوا عند اقتراب الجيوش الاسلامية .

Ibn al - Qalanisi, p. 268.

ويروي ابن الأثير انه من المحقق ان أنر حذر الفرنج المحليين من قدوم قوات نور الدين ، ووضع بذور المنازعات بين الفرنج وبين ملك المانيا .

Ibn al - Athir, pp. 469 - 470.

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 7. pp. 768 - 770.

ورد في الترجمة الفرنسية لتاريخ وليم الصوري فقرات انطوت على شن الهجوم على (البولاني) ، أي الفرنج الذين نشأوا في الشرق . فألقى كنراد التبعة على البارونات المحليين — انظر الرسالة الواردة في :

Wibaldi Epistolae, pp. 225 - 226.

وكل ما حققته هـذه الحملة ، انها فقدت عدداً كبيراً من رجالها ، وقدراً كبيراً من عتادها ، وتعرضت لهوان شديد . والواقـــع ان ما حدث من إرغام جيش ، في هذه الضخامة والروعة ، على التخلي عن تحقيق هدفه ، ولم ينقض على القتـــال سوى اربعة ايام ، يعتبر ضربة قاصمة لكرامة المسيحيين . وبذا تبددت نهائياً اسطورة فرسان الغرب الذين لا يقهرون ، التي نمت وترعرعت أثنـاء مغامرة الحرب الصليبية الاولى ، بينما انتعشت آمال العالم الاسلامي [١] .

كنراد يغادر فلسطين سنة ١١٤٨ :

لم يمكث كنراد طويلاً في فلسطين بعد العودة من دمشق ، فأبحر مع رجالة بلاطه من عكا في ٨ سبتمبر على سفينة متوجهة الى سالونيك . ولم يكد يهبط اليها ، حتى تلقى دعوة عاجلة من مانويل ، كيما يقضي عيـــد الميلاد بالبلاط الامبراطوري ، فاكتمل الوفاق والانسجام بين الملكين . ومع ان فردريك الشاب ، ابن شقيق كنراد ما زال يكنّ الكراهية للبيزنطيين ، بأن وجه اليهم اللوم على ما لحق الالمان من خسائر في بلاد الأناضول ، فان كنراد لم يفكر إلا في اهميـة التحالف مع مانويل لمناهضة روجر ملك صقلية ، وقـد جذبه سحر شخصية مانويل وضيافته التي تبعث السرور . وفي أثناء هذه الزيارة تم احتفال بالغ الأبهة والعظمة ، بزواج اخيه هنري دوق اوستريا بثيودورا ابنة اخ مانويل . واستبد الجزع بالبيزنطيين فبكوا حينما شهدوا اميرتهم الصغيرة الجميلة ، تبذل لمصير بالغ الوحشية والهمجية ،

---

(١) انظر : William of Tyre, loc. cit.
Ibn al - Qalanisi, pp. 286 - 287.

او « تقدم قرباناً لحيوان من الغرب » حسبما كتب شاعر بالبلاط لأمها يبثها عطفه وعزاءه ، غير ان الزواج ليس إلا دليـــلاً على الوفاق بين البلاطين الالماني والبيزنطي . ولم يغادر كنراد القسطنطينية في فبراير سنة ١١٤٩ عائداً الى المانيا ، إلا بعـــد عقد محالفة بين الملكين ضد روجر ملك صقلية ، يقضي باقتسامها اراضي روجر في شبه جزيرة ايطاليا [١] .

وبينما كان كنراد ينعم بدواعي الراحة والسرور في القسطنطينية ، ظل الملك لويس مقيماً بفلسطين . ومع ان سوجر ، رئيس الدير ، ظل يكتب له ، المرة بعـــد المرة ، يتوسل اليه العودة الى فرنسا ، فإن الملك لويس لم يتخذ بعد قراراً . ولا شك انه اراد ان يقضي عيد القيامة في بيت المقدس ، بعد ان ادرك ان عودته سوف تقترن بطلاق زوجته ، وما يترتب على ذلك من نتائج سياسية ، ولذا سعى الى تأجيل اليوم المشؤوم . وفي الوقت نفسه ، بينما جـــدّد كنراد صداقته مع الدولة البيزنطية ، ازداد نفور لويس من الامبراطور مانويل كلما فكر في ذلك . فغيّر سياسته ، وسعى الى التحالف مع روجر الثاني ملك صقلية . وما وقع بينه وبين ريموند امير انطاكية من شجار ، أزال العقبة الأساسية التي تحول دون التحالف ، الذي سوف

(١) انظر :
William of Tyre, XVII. 8. pp. 770 - 771.
Cinnamus, pp. 87 - 88.
Annales Palidenses, p. 83.
Otto of Saint Blaise, p. 305.
Otto of Freisingen, Gesta Friderici, p. 96. R. H. C. Grec. II. p. 772.
ورد في هذه المجموعة القصيدة التي نظمها الشاعر ، برودروموس ، للاشادة بزواج ثيودورا. غير انه أشار في قصيدة اخرى لأمها ، عن التضحية بها من أجل حيوان من الغرب . انظر :
Ibid, p. 768.

يساعده على المضي في كراهية بيزنطة . وحدث آخر الامر في اوائل صيف سنة ١١٤٩ ، ان غادر لويس فلسطين على سفينة صقلية ، لم تلبث ان انحازت الى الاسطول الصقلي الذي يجوب المياه الشرقية للبحر المتوسط . فما زالت الحرب مستمرة بين صقلية وبيزنطة ، وبينما كان الاسطول يطوف بشبه جزيرة البيلوبونيز ، هاجمته سفن الاسطول البيزنطي . فبادر الملك لويس باصدار الاوامر برفع العلم الفرنسي على السفينة ، وبذا تهيأ لسفينته ان تمضي في طريقها . غير ان سفينة اخرى تقل عدداً كبيراً من أتباعه ، وكل امتعته ، جرى الاستيلاء عليها باعتبارها غنيمة حربية ، وتقرر توجيهها الى القسطنطينية . ولم يوافق الامبراطور البيزنطي على إعادة الرجال والأمتعة الى فرنسا إلا بعد مضي شهور عديدة [١] .

نزل الملك لويس في كالابريا في نهاية شهر يوليو سنة ١١٤٩ ، فاستقبله في بوتنتزا ، الملك روجر . فاقترح ملك صقلية على الفور توجيه حملة صليبية جديدة ، لا بد ان يكون غرضها الاول الانتقام من بيزنطة ، فبادر لويس ومستشاروه الى الموافقة ، ثم واصلوا الرحيل الى فرنسا ، وصاروا ينهون الى كل من يلقاهم في الطريق بما ارتكبه البيزنطيون من خيانة وغدر ، وضرورة انزال العقوبة بهم . على ان البابا يوجينيوس الذي اجتمع به

---

(١) انظر : Cinnamus, p. 87.

Suger Opera, ed. de la March. pp. 258 - 260.

وردت في هذا المصدر رسالة سوجر . انظر ايضاً :

William of Nangis, I. p. 46.

أما السفينة التي كانت تقل الملكة إليانور فاحتجزها البيزنطيون فترة من الزمن .

John of Salisbury, Historia Pontificalis, p. 61.

لويس في تيفولي لم يحفل بالأمر ، غير ان كثيرين من رجال المجلس البابوي رحّبوا بالمشروع . فالكاردينال ثيودوين اخـــذ يلتمس المبشرين للدعوة للحملة ، وعرض بطرس المبجل بذل المساعدة . ولما وصل لويس الى فرنسا ، حثّ سوجر على الموافقة على مشروع الحملة . أما القديس برنارد الذي كان أهم من هؤلاء جميعاً ، فقد حيّره ما قضت بـه الأقدار بأن تحلّ بحملته الصليبية الضخمة هذه الخاتمة الفاجعة ، ولم يسعه إلا ان يقر بأن بيزنطة تعتبر مصدر كل ما لحق الحملة من كوارث ، وبذل كل طاقته في الدأب على استنزال الانتقام الالهي بالامبراطورية الآثمة . غير انه اذا قدر للحركة النجاح ، فلا بـد من الحصول على مساعدة كنراد ملك المانيا ، على ان كنراد لن يتعاون ، بعد ان تجلت له عداوة روجر ، ولم يرَ ما يدعو الى نقض التحالف مع مانويل ، حتى يزيد من قوة روجر . ولم تجد نفعاً ما بذله له من توسلات الكاردينـال ثيودوين وبطرس المبجل ، وضاع سدى توسل القديس برنارد له ، وما وجهه له من تهديد . فالمرة الاخيرة التي اخذ فيها كنراد بنصيحة القديس برنارد ، هي التي جرت حول الحملة الصليبية الثانية ، فلا ينبغي له ان يقع في الفخ مرة اخرى . وإذ رفض كنراد بـــذل المساعدة ، كان لا بد من اغفال مشروع الحملة . وما أصر عليه القديس برنارد ، من تعرض العـــالم المسيحي لخيانة كبيرة ، تأجل خمسين سنة اخرى [1] .

---

(١) للإلمام بهذه المفاوضات في ايجاز ، انظر :

Bernhardi, op. cit. p. 810.

Vacandard, op. cit. II. pp. 425 - 428.

أما رسائل القديس برنارد وثيودوين التي انطوت عن دفاعها عن حملة صليبية لمناهضة البيزنطيين ، فإنها ضاعت ، غير ان معناها يصح العثور عليه في رسالة ويبالد (no. 252, p. 377) .

برتراند كونت تولوز سنة ١١٤٩ :

لم يبق بالشرق ، من امراء الحملة الصليبية الثانية إلا امير وأحد ، ولم يمكث به طواعية . إذ ان برتراند الصغير ، كونت تولوز ، وهو ابن غير شرعي للكونت الفونسو ، لم يحتمل ان يرى امارة طرابلس الوافرة الغنى ، ما زالت بيد ابن عم له ، يرتاب برتراند في انـــه هو الذي قتل أباه . فظل مقيماً بفلسطين حتى غادرها الملك لويس ، ثم سيّر رجاله من لانجدوك صوب الشمال ، كأنما يقصد الابحار من ميناء بشمال سورية . ثم حدث بعد ان اجتاز برتراند السهل ، حيث تنفرج البقيعة نحو البحر ، ان تحول فجأة الى الداخل ، واستولى على حصن العريمة . وفي ذلك الموضع تحدى العساكر الذين ارسلهم الكونت ريموند من طرابلس لطرده . والواقـــع ان حصن العريمة احتــل موقعاً منيعاً ، إذ تحكم في الطريق الممتد من طرابلس الى انطرطوس ، وفي الطريق الذي يتجه من طرابلس الى داخل البلاد ، الى البقيعة . ولمـــا لم يلقَ الكونت ريموند شيئاً من العطف عند زملائه من الأمراء المسيحيين ، ارسل الى دمشق يطلب المساعدة من أنر ، فاستجاب له أنر عن طيب خاطر ، ودعا نور الدين للانحياز اليه ، ودلّ بذلك على رغبته في ان يتعاون مع نور الدين لقتال المسيحيين ، دون ان يضير بذلك محاولته لإعادة العلاقات الطيبة مع مملكة بيت المقدس . والواقع ان أنر أحب ان يرضي الملكة ميليسيند ، بأن يبذل المساعدة لصهرها (ريموند كونت طرابلس) . وهبط الأميران المسلمان الى العريمة ، التي لم تستطع الصمود طويلاً لجيش بالغ الضخامة ، فخرّب المسلمون الظافرون القلعة حتى تساوت بالارض ، بعد ان نهبوا كل ما بها . ثم تركاها ليحتلها من جديد الكونت ريموند ، وانسحبا ، وفي اثرهما عدد كبير من الأسرى ، ربطوا الى حبل طويل ، وكان برتراند وأخته من نصيب نور الدين ، فحملها الى حلب ،

حيث أمضيا في الأمر اثنتي عشرة سنة [1] .

كانت خاتمة ملائمة للحرب الصليبية الثانية ، التي وقع آخر امير صليبي بهـا في ايدي الاميرين المسلمين اللذين تحالفا مع زميله الامير المسيحي ، الذي حاول ان يحطمه . فما من حملة في العصور الوسطى تضارع تلك الحملة التي خرجت ، وانعقدت عليهـا آمال بالغة الروعة . وإذ وضع خطتها البابا ، ودعا اليها وأوحى بها ، القديس برنارد بما اشتهر به من فصاحة ، وقادها اعظم ملكين بغرب اوربا ، كانت تبشر بمجد العـالم المسيحي وخلاصه . غير انه لما بلغت نهايتها المشينة الذليلة بارتدادها المضني عن دمشق ، كان كل ما أنجزته ، انها جعلت العلاقات بين المسيحيين في الغرب والبيزنطيين من المرارة ما كاد يؤدي الى القطيعة بينهم ، وأنهـا بذرت الشكوك بين الصليبيين القادمين حديثاً من الغرب ، وبين الفرنج النازلين بالشرق ، وأنها أوقعت بين امراء الفرنج الغربيين ، فعزلت كل منهم عن الآخر ، وأنهـا حملت المسلمين على ان يزدادوا تقارباً ، وأنها أنزلت ضرراً خطيراً بما اشتهر به الفرنج من الإقدام في القتال . وقـد يسعى الفرنسيون الى إلقاء اللوم في فشل الحملة الصليبية الثانية على غيرهم ، على الامبراطور مانويل الخائن ، او على بارونات فلسطين لاستخفافهم ، وقد يثور القديس برنارد على اولئك الرجال التعساء الذين تدخلوا في امر الله . والواقع ان قادة الحملة يعتبرون المسؤولين عن فشلها ، لمـا وقع بينهم من خصام ، ولجهلهم ، ولحماقتهم التي لا جدوى منها .

---

(۱) انظر :

Ibn al - Qalanisi, pp. 287 - 288.
Ibn al - Athir, pp. 470 - 471.
Atabegs, p. 162.
Kemal ad - Din. ed Blochet, p. 517.

ترددت قصة عن الفرنج ، بأن اخت برتراند تزوجت من نور الدين ، وأنجبت له ابنه الصالح الذي خلفه في الحكم ، انظر :

Robert of Torigny, II. p. 53.

الكتاب الرابع

تحوّل المــــدّ

الفصل الاول

حياة الفرنج في الشرق

يعتبر فشل الحرب الصليبية الثانية نقطة تحوّل في تاريخ الفرنج بالشرق الأدنى ، إذ ان سقوط الرها أتم المرحلة الاولى في الإفاقة الاسلامية ، وما جناه المسلمون من أرباح ، أكدها الانهيار الفاجع الذي تعرضت له الحملة الكبيرة ، التي كانت تهدف الى إعادة سيادة الفرنج .

ومن أهم اسباب هذا الفشل ، ما كان من التباين والاختلاف في العادات والاتجاه بين الفرنج النازلين بالشرق وبين بني عمومتهم القادمين من الغرب . إذ ان الصليبيين في الحملة الثانية ، صدمهم ما اكتشفوه في فلسطين من قيـام مجتمع غيّر أفراده ، في جيل واحد ، أسلوب حياتهم ، إذ صاروا يتحدثون باللهجة الفرنسية ، غير أنهم ظلوا أوفيـــاء للكنيسة اللاتينية ، وجرت حكومتهم على ما هو معروف بالتقاليد الاقطاعية . غير ان هذه الأحوال الظاهرية ، جعلت الاختلافات تزيد في حيرة القادمين حديثاً من الغرب .

فلو ان النزلاء كانوا أكثر عدداً ، لاستطاعوا المحافظة على أساليبهم

الغربية ، غير انهم لم يكونوا إلا أقلية ضئيلة في بـــلاد ، يعتبر مناخها وأسلوب حياتها غريباً عليهم . أما الأعداد الحقيقية لهؤلاء النزلاء فلا نعرفها إلا على سبيل التخمين ، غير انهم فيما يبدو ، لم يزيدوا في وقت من الاوقات على الف بارون وفارس ، استقروا بصفة دائمة في مملكة بيت المقدس . أما أقاربهم من النساء والشيوخ الذين لم يشتركوا في القتال ، فلم يتجاوز عددهم الألف ايضاً . كثر عدد المواليد ، غير انه لم يعش منهم إلا عدد قليل . والخلاصة ، انه اذا أسقطنا من اعتبارنا طبقة رجال الدين ، الذين لم يتجاوز عددهم بضع مئات ، وطوائف الفرسان الرهبان ، فإن عـــدد البالغين من طبقات الفرنج العالية ، يتفاوت من الفين الى ثلاثــة آلاف [1] . والراجح ان مجموع عـــدد فئــات الفرسان في إمارة انطاكية وكونتيتي طرابلس والرها ، لم يزد على ذلك [2] .

---

(١) الراجح أن جيش الفرنج الضخم الذي انهزم في معركة حطين لم يتجاوز عدده الف ومائتي فارس ، منهم ثلثمائة من الداوية ، والراجح ان الاسبتارية لم يتجاوزا هـــذا العدد . ولم يزد البارونات العلمانيون والفرسان على سبعمائة . والمعروف أنـــه شهد المعركة كل من استطاعوا العثور عليه من الفرسان ، فيما عدا فارسين بقيا في بيت المقدس . ولم يشمل هـــذا الجيش سوى بضعة فرسان من طرابلس وانطاكية . على انه غادر المملكة منذ رقت قريب جماعة من الفرسان بصحبة بلدوين سيد يبنة . انظر ما يلي ، الكتاب الخامس ، الفصل الثاني . وقدّر يوحنا ابلين انه كان بوسع مملكة بيت المقدس ، زمن بلدوين الرابع ، ان تحشد ٥٧٧ فارساً ، ٥٠٢٥ من السرجندارية ، عدا الفرسان الرهبان ، انظر :

Ibelin, pp. 422 - 427.

(٢) وليست أرقام القوات في انطاكية وطرابلس إلا افتراضية ، والراجح أنه لم يكن بالرها ما يزيد على مائة أسرة من النبلاء والفرسان . وكان بكونتية طرابلس فيما يبدو نحو مائة أسرة ، أما انطاكية فإنها لم تزد على طرابلس إلا قليلاً في عدد أسرات النبلاء والفرسان . ويروي المؤرخ البرت آخن (XI. 40 - 1. pp. 182 - 3) أن تل باشر بذلت ، سنة ١١١١ ، مائة فارس ، وأن الرها قدمت مائتي فارس، غير ان عدداً كبيراً من هؤلاء الفرسان لا بد ان كانوا من الارمن.

وظلت هــذه الطبقات نقية العنصر ، على حين انه حدثت في الرها وانطاكية مصاهرات مع الارستقراطية المحليـة من اليونانيين والأرمن . فالمعروف ان كلاً من بلدوين الاول ، وبلدوين الثـاني ، حينما صار كونتاً للرها ، تزوج ارمنية تدين بالمذهب الارثوذكسي ، واحتذى مثلهما ، فيما يقال ، جماعة من نبلائها . أما زوجة جوسلين الاول ، وزوجة واليران سيد البيرة فكانتا ارمنيتين تنتميان الى الكنيسة الأرمنية المنشقة . ولم يكن بأقصى الجنوب (بيت المقدس) طبقة ارستقراطية محلية . فالعامل الشرقي الوحيد لم يكن سوى مـا يجري من الدم الأرمني في الأسرة المالكة ، وبيت كورتيناي ، ثم فيما بعد في سلالة الملكة البيزنطية ، ماريا كومنينا ، من الملوك وأمراء يبنة [١] .

التركبولية :

كانت طبقة الأجناد (السرجندارية) وفيرة العدد ، فلم يكن السرجندارية في الاصل سوى الرجالة في كامل عدتهم الحربية ، وينتمون في أصولهم الى الفرنج ، وينزلون باقطاعات سادتهم ، ونظراً لأنه لم يكن لديهم من شرف المولد ما يعتزون به ، تزوجوا من المسيحيات الوطنيات . وأخـذ السرجندارية ، منذ سنة ١١٥٠ ، يؤلفون طبقة البولانية (Poulains) التي أخذت فعلاً تندمج في المسيحيين الوطنيين . وفي سنة ١١٨٠ ، جرى تقدير عدد السرجندارية بما لا يزيد على خمسة آلاف ، غير اننا لا نستطيع ان نقرر نسبة ما تبقى من الدم الخالص للفرنج . والراجح ايضاً ان الجند

---

(١) انظر أنساب الأسرات المالكة ، في نهاية الكتاب .

المرتزقة (Sodeers) زعموا لأنفسهم ايضاً انهم ينحدرون من اصل الفرنج .
أما التركبولية ، فجرى تجنيدهم محلياً ، واحتذوا بالخيالة البيزنطية الخفيفة
فيا اتخذوه من سلاح ، وبالوه من تدريب . وما اتخذوه من اسم التركبولية ،
يدل على انهم تألفوا من جهة من المسيحيين الوطنيين ، ومن الذين تحولوا
عن دياناتهم ، ومن جهة اخرى من الذين تحللوا من قيود طبقتهم - على
ان كان ثمة فرق ، فيا يبدو ، في هذه الفئة بين الذين يتحدثون لغة آبائهم ،
وبين اولئك الذين يتحدثون لغة أمهاتهم . والراجح ان التركبولية جاءوا
من الفئة الاخيرة [1] .

المسيحيون الوطنيون ، والمسلمون ، واليهود :

كاد جميع النزلاء ينتمون الى اصل فرنسي ، باستثناء ما حدث في المدن
الكبيرة . فلم تكن لغة التخاطب في مملكة بيت المقدس وامارة انطاكية
سوى لغة شمال فرنسا Langue d'oeil الشائعة عند سكان شمال فرنسا
والنرمنديين . والراجح ان لغة الأوك Langue d'Oc جرى استخدامها اول
الامر في كونتية طرابلس التي ترجع أصولها الى تولوز . على ان الحاج
الالماني ، يوحنا فورتزبورج الذي زار بيت المقدس حوالي سنة ١١٧٥ ، أبدى

---

(١) انظر : La Monte, Feudal Monarchy, pp. 160 - 162.
Munro : The Kingdon of the Crusaders, pp. 106 - 107 , 120 - 121.
أشار اليهم ابن منقذ على انهم رماة الفرنج (الاعتبار ص ٥١) وكانوا أتراكاً او عرباً، وأمهاتهم يونانيات . انظر :
Hitti, An Arab - Syrian Gentleman in the Period of the Crusades, p. 79. note 42.

الاستياء حين اكتشف انـــه لم يكن للالمان دور في مجتمع الفرنج ، على الرغم من ان جودفري وبلدوين الاول ينتميان ، على حد زعمه ، الى اصل الماني . وانشرح صدره حينما عثر آخر الأمر على دير ، تألف كل القائمين عليه من الالمان [1] .

وزخرت المدن بالجاليات الايطالية ، فحـاز كل من البنادقة والجنويين شوارع في بيت المقدس ذاتها ، وكفلت المعاهدات للجنويين ، إقامة منشآت في يافا ، وعكا ، وقيسارية ، وأرسوف ، وصور ، وبيروت ، وطرابلس، وجبيل، واللاذقية ، والسويدية ، وانطاكية ، بينما اقتصرت مؤسسات البنادقـة على المدن الكبيرة من بين التي سبق ذكرها . ونزلت جاليات بيزا في صور ، وعكا ، وطرابلس ، والبترون ، واللاذقية ، وانطاكية ، وحلّ الأمالفيون في عكا ، واللاذقية . ولم تكن هذه المستعمرات سوى قومونات ، ذات حكومة مستقلة ، يتحدث اهلها اللغة الايطالية ، ولم يختلطوا بجيرانهم من الناحية الاجتماعية ، وشبيه بهـــا ما حازه تجار مرسيليا من منشآت في عكا ، ويافا ، وصور ، وجبيل ، وما تملّكه تجار برشلونة من مؤسسات في صور . على ان المستعمرات التجارية في كل المدن ، باستثناء عكا ، لم يتجاوز عدد أفراد الواحدة منها بضع مئات من الأشخاص [2] .

---

(١) انظر : John of Wurzburg, (P. T. T. S. vol. V).

(٢) انظر : Cahen : « Notes sur l'Histoire des Croisades, III. Orient Latin et Commerce du Levant », in Bulletin de la Faculté des Lettres de Strassburg, 29me Onnée, no 7.

يشير كاهن الى ان الايطاليين ركزوا كل نشاطهم التجاري في القرن الثـــاني عشر على مصر والقسطنطينية ، ولم يكن لمواني ساحل الشام عندهم إلا أهمية قليلة .

أما الغالبية الساحقة من السكان فتألفت من المسيحيين الوطنيين . ففي مملكة بيت المقدس ، لم يرجع المسيحيون الوطنيون الى اصل واحد ، على ان معظمهم يتحدثون العربية ، ويعرفون تجاوزاً بالعرب المسيحيين ، وجلهم ينتمون الى الكنيسة الأرثوذكسية . وفي كونتية طرابلس يدين جماعة من سكانها ، ويعرفون بالمارونيين ، بالمذهب المونوثليتي [1] . على ان معظم السكان الاصليين بالشمال ، اعتنقوا المونوفيزتية التي تنتمي الى الكنيسة اليعقوبية ، غير انه كان بهذه الجهات جاليات ارمنية كثيرة العدد ، تكاد تنتمي كلها الى الكنيسة الأرمنية المنشقة . ونزل بانطاكية واللاذقية وقليقية جماعـــات ارثوذكسية كثيرة العدد تتحدث باللغة اليونانية . يضاف الى ذلك انه كان بالاراضي المقدسة جماعات دينية ، تمثل سائر المذاهب المسيحية . فمعظم الأديرة تنتمي الى المذهب الارثوذكسي ، وتعتبر اليونانية لغة أربابها . غير انه قامت ايضاً أديرة أرثوذكسية للكرج ، ونزلت ، ولا سيما في بيت المقدس ذاتهـا ، جاليات مونوفيزتية من الأقباط المصريين والاثيوبيين سواء ، ومن اليعاقبة السوريين ، فضلاً عن جماعات قليلة من اللاتين الذين استقروا في بيت المقدس قبل الحروب الصليبية [2] . ولما قامت مملكة بيت المقدس ،

---

(١) تعرض المونوفيزتيون (اليعاقبة) الذين يقولون بالطبيعة الواحـــدة للمسيح الى اضطهاد كنيسة القسطنطينيه . وحرص الامبراطور هرقل على معالجة الانشقاق في الكنيسة لتوحيـــد الكلمة ، فتقرر اتخاذ صيغة جديدة للتوفيق بين المذاهب المختلفة ، وهـــذه الصيغة هي المعروفة بالمونوثليتية ، التي تقر بالطبيعتين (الالهية والبشرية) في السيد المسيح ، مع فعل واحد (المشيئة الواحدة) ، غير ان هذه المحاولة لم تلق القبول عند كثير من البطاركة ، فضلاً عن البابا ، انظر:
Vasiliew : History of the Byzzantine Empire, p. 222.

(٢) لم تتوافر أدلة مباشرة عن المسيحيين الوطنيين في فلسطين ، أثنـاء القرن الثاني عشر . انظر ما يلي :

Rey, Les Colonies Franques, pp. 74 - 94.
Gerulli, Etiopi in Palestina, pp. 8. ff.
(جيرولي يعالج موضوع الأقباط والاثيوبيين) .

غادرها عدد كبير من الجماعات الاسلامية . ومع ذلك فلا زالت القرى الاسلامية قائمة حول نابلس [1] . واحتفظ بالاسلام ، سكان جهات كثيرة استولى عليها فيما بعد الفرنج ففي شمال الجليل ، وعلى امتداد الطريق من بانياس الى عكا ، كان الفلاحون جميعاً مسلمين . وفي أقصى الشمال ، في البقيعة ، وفي جبال النصيرية ووادي نهر الاورنت ، اعترف بحكم الفرنج من نزل بها من أرباب النحل الدينية الاسلامية المخالفة [2] . وعلى امتداد الطرف الجنوبي ، وفيما وراء نهر الاردن ، نزلت قبائل عربية بدوية . وتناقص عدد اليهود في فلسطين ، وفي سوريا المسيحية ، بسبب مـا تعرّضوا له من المذابح ، وخوفهم من القتل . وحزن الرحالة بنيامين التطيلي لما شاهده من ضآلة عدد اليهود بفلسطين حينما زارها حوالي سنة ١١٧٠ [3] . على أن بدمشق وحدها من اليهود ما فـاق في العـدد من نزل منهم ، في كل الامارات المسيحية [4] . على ان اليهود اشتروا من المملكة ، في وقت من الاوقات ، احتكار صناعة الصباغة . وكان بأيديهم [5] ايضاً معظم صناعة

---

(١) كان المسلمون حول نابلس مصدر قلق الفرنج بعد معركة حطين . انظر :
Abu Shama, p. 302.
ويصف ابن جبير أحوال المسلمين في عكا وفيما يجاورها من الجهات وعلاقتهم بالصليبيين. انظر :
Ibn Jubayr, ed. Wright, pp. 304 - 307.

(٢) انظر : Cahen : La Syrie du Nord, pp. 170. ff.
ويشير بورخارد راهب دير جبل صهيون الى النحل الاسلامية المختلفة بشمال سوريا . انظر :
(P. T. T. S. vol. XII. p. 18.

(٣) انظر : Benjamin of Tudela, ed. Adler Hebrew text, pp. 26 - 47.

(٤) انظر : Ibid, pp. 47 - 48.

(٥) وعن احتكار اليهود لصناعة الصباغة في بيت المقدس ، وقيامهم بصناعة الزجـاج في انطاكية وصور ، انظر :
Ibid, pp. 35. 26 - 47.

الزجاج ، وعاشت على هذه الصناعة في نابلس جالية صغيرة من السامرة .

الاقطاعات بمملكة بيت المقدس :

هذه الجاليات المختلفة ألفت اساس سكان امارات الفرنج ، ولم يزعجهم السادة الجدد ، وجاز لهم الاحتفاظ بأراضيهم كلما اثبتوا تملكهم لها . ومع ان كل ملاك الاراضي بفلسطين وطرابلس كانوا من المسلمين ، باستثناء الضياع التي بحوزة الكنائس المحلية بها ، فإن الغزو الصليبي حملهم على الهجرة ، فخلفوا وراءهم اراضي شاسعة ، أنزل بها الحكام الجدد اتباعهم من مواطنيهم . غير انه ، فيما يبدو ، لم يكن بتلك الاراضي قرى حرة ، كالتي قامت بالأزمنة البيزنطية المبكرة ، حين ارتبط كل سكان القرية بالأرض ، وأدوا الى السيد شطراً من محصول الارض . على أن النسبة المقررة من المحصول لم تكن متحدة . والراجح انه في الشطر الاكبر للبلاد ، حيث جرى اهل القرية على الاخذ بالزراعة البسيطة المختلطة ، توقع السيد ان ينال من المحصول ما يكفي لإعاشة حاشيته ، والبولانية ، والتركبولية ، الذين ينزلون حول قلعته ، نظراً لأن المواطن الفلاح لم يكن صالحاً للجندية . على ان الزراعة بالسهول الخصيبة ، جرت على اساس تجاري واسع النطاق . فاحتكر السيد لنفسه ، الحدائق والكروم ، فضلاً عن زراعات قصب السكر ، والراجح ان الفلاح لم يجن من كده إلا ما يقيم أوده . ولم يسخر الرقيق في العمل ، إلا في دار السيد الاقطاعي ، برغم ما حدث بصفة موقتة من استخدام الاسرى المسلمين في ضياع الملك او كبار السادة المقطعين . اما علاقات اهل القرى بالسيد ، فكانت تجري عن طريق رئيس القرية ، الذي احتفظ ، في بعض الاحوال ، بالاسم العربي « رئيس » بينما كان معروفاً في أحوال اخرى عند اللاتين باسم الوسيط

(Regulus) . ويستخدم السيد من جانبه احد مواطنيه ليكون مرشداً له ، وكاتباً ملماً باللغة العربية ، يتولى امر سجلاته [1] .

وعلى الرغم من انه لم يطرأ إلا تغيير ضئيل في حياة الفلاحين ، فان مملكة بيت المقدس أجرت ظاهرياً ، إعادة تنظيمها ، على اساس الاقطاعات ، حتى يصح نعتها بأنها مملكة اقطاعية . فما حازه الملك من ممتلكات ، شملت المدن الثلاثة : بيت المقدس ، وعكا ، ونابلس ، ثم مدينة الدارون الواقعة على الحدود التي جرت اضافتها الى هذه البلاد فيما بعد ، فضلاً عن الاراضي المحيطة بهذه المدن . فكأن حيازه الملك احتلت شطراً كبيراً من اراضي المملكة . على ان الملوك الاوائل ، ولا سيا الملكة ميليسند ، كانوا اسخياء فيما بذلوه من المنح من الاراضي لأصدقائهم ، وللكنيسة ، وللطوائف الدينية . وجرى في بعض الاحوال اقتطاع اجزاء اخرى من الاراضي لتكون معاشاً للملكة الأرملة . وشملت الاقطاعات الاربعة الرئيسية بمملكة بيت المقدس ، كونتية يافا ، التي درج الملوك على الاحتفاظ بها ، للابن الصغير بالاسرة المالكة ، ثم امارة الجليل ، التي لم تحصل على اسم الامارة الطنان إلا بفضل طموح تانكرد ، ويلي هذين الاقطاعين ، بارونية صيدا ، وبارونية ما وراء نهر الاردن . وكان ارباب هذه الاقطاعات يضارعون الملك ، بما كان لديهم من كبار الموظفين . ولم يختلف

(١) انظر : Cahen : « Notes sur l'Histoire des Croisades, II. Le Régime rural Syrien au temps de la domination franque », in Bulletin de la Faculté des Lettres de Strassburg, 29me Annee, no 7.

يعتبر هذا المقال من احسن الدراسات عن هذه المشكلة البالغة الغموض .

عنهم سيد قيسارية الذي لم يقلّ عنهم في اهمية اقطاعه ، على الرغم من اعتباره في مكانة الاقطاعات الثانوية ، وعددها اثني عشر اقطاعاً . على ان حيازة الاقطاع ارتكنت على حق الوراثة بعد وفاة الملك بلدوين الثاني ، وبذا حاز الاناث الاقطاع ، نظراً لانقطاع سلالة الملك المباشرة من الذكور . ولا يصح طرد حائز الاقطاع من ارضه إلا بقرار من المحكمة العليا ، يدينه بسلوك بالغ السوء . على ان حائز الاقطاع التزم بأن يبذل للملك ، او لسيده الأعلى ، عدداً معيناً من العساكر ، كلما طلب منه ذلك ، ولم يكن لخدمتهم فيما يبدو حد زمني . وكان على كل من كونت يافا ، وسيد صيدا ، وأمير الجليل ، أن يقدم للملك مائة وخمسين فارساً بكامل عدتهم ، بينما لم يبذل سيد اقطاع ما وراء نهر الاردن سوى ستين فارساً [1] .

وتفاوتت الاقطاعات في مساحاتها ، فالاقطاعات العلمانية اقامها غزو الفرنج ، فألفت كتلة متماسكة من الاراضي ، على حين أن ضياع الكنيسة والطوائف الدينية العسكرية ، التي يرجع نموها وكثرتها اساساً ، الى المنح والوصايا الخيرية ، او نتيجة لدواعي استراتيجية ، كما في حالة اقطاعات الطوائف الدينية العسكرية ، انتثرت في جميع ارجاء اراضي الفرنج . وتعتبر القرية (Casal) هي وحدة القياس في الاقطاع ، وقلّ استخدام نصف القرية او ثلث القرية . على ان القرى اختلفت ايضاً فيما بينها في عدد السكان ، إذ لم يتجاوز متوسط سكان القرية حول صفد في شمال الجليل

---

(١) انظر : La Monte, Feudal Monarchy, pp. 138 - 165.
Rey, op. cit. pp. 1 - 56, 109 - 164.

اربعين ساكناً ، غير اننـــا نسمع عن قرى حول الناصرة تزيد حجماً ، على الرغم من ازدياد كثافة سكانها [1] .

وحاز كثير من السادة الاقطاعيين العلمانيين ، اقطاعات نقـــدية ، والمقصود بذلك انهم حازوا خراجاً نقدياً ثابتاً من بعض المدن والقرى ، وكان لزاماً عليهم مقابل ذلك ان يبذلوا من الجند ما يتناسب في العدد مع هذا الخراج . وهذه المنح ، الاقطاعات النقدية ، يصح توارثها ، ويكاد يكون مستحيلاً على الملك ان يلغيها [2] . وكل مـــا كان يأمله الملك ، مثلما يحدث في اقطاعات الاراضي ، هو ان يموت حائز الأقطاع ، دون ان يترك ورثة ، او على الاقل لم يترك سوى ابنة ، إذ كان للملك الحق في ان يختار لهـــا زوجاً ، او يصر على ان يقع الاختيار على واحد من بين ثلاثة يرشحهم للزواج منها [3] .

والتزمت مدن الملك بأن تجهز العساكر وفقـــاً لثروتها ، فكان على بيت المقدس ان تقدم واحداً وستين جندياً ، بينما تبذل نابلس خمسة وسبعين

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 201 - 208.

(٢) انظر : La Monte, op. cit. pp. 144 - 151.

(٣) انظر : Grandclaude : « Liste d'Assizes de Jerusalem », in Mélanges Paul Fournier, p. 430.

ووفقاً لجراندكلارد ، صدر بعد سنة ١١٧٧ ، القانون الذي يجيز لوارثة الاقطاع ان تختار لها زوجاً من بين الثلاثة الذين يرشحهم الملك . على ان بلدوين الثالث عرض ، في سنة ١١٥٠ ، على كونستانس اميرة انطاكية ان تختار واحـــداً من بين ثلاثة رجال تقدموا لخطبتها . ومع ذلك لم يجبرها على ان تقبل احداً منهم ، انظر ما يلي ، الباب الرابع ، الفصل الثاني .

جندياً ، وتقدم عكا ثمانين جندياً . والمعروف ان هؤلاء الأجناد لم تبا.لهم الطبقة البورجوازية ، بل النبلاء الذين يقيمون بالمدينة ، او الذين يملكون مساكن بها . كما التزم كبار رجال الكنيسة بأن يقدموا من العساكر ما يتناسب مع اقطاعاتهم من الاراضي او مع ما يمتلكون من مساكن .

أما البورجوازية فأدوا نصيبهم للحكومة ، بما بذلوه نقداً من الضرائب . ودرجت الحكومة على فرض الضرائب على كل ما يرد الى الموانىء ، والصادرات ، والبيوع ، والمشتريات ، وعن رسو السفن ، وعن الحجاج ، واستخدام الأوزان ، والأكيال . ومن الضرائب ايضاً ما كان معروفاً باسم العوائد Terraticum ، المقررة على املاك التجار (البورجوازية) ، والتي لم يعرف عنها إلا شيء ضئيل . يضاف الى ذلك ما ينبغي أن يؤدى من ضريبة خاصة لتجهيز حملة حربية . ففي سنة ١١٦٦ تحتم على غير المحاربين ان يؤدوا العشر من قيمة املاكهم المنقولة ، وفي سنة ١١٨٣ تقرر على جميع السكان ان يؤدوا ضريبة بالغة الأهمية ، قدرها واحد في المائة عن املاكهم وديونهم بالاضافة الى ٢ ٪ عن كل ما يتحصل من خراج من المؤسسات الكنسية والبارونية . وكان لزاماً على الفلاح ان يؤدي الى سيده ضريبة شخصية ، وهي ضريبة الرأس ، بالإضافة الى ما التزمت به القرى ، من نصيب من انتاجها . وخضع الرعايا المسلمون لضريبة العشر ، التي تؤدى للكنيسة . ودأب موظفو الكنيسة اللاتينية على ان تمتد ضريبة العشر ، فيطبقونها على المسيحيين الذين ينتمون الى الكنائس المخالفة . غير انهم لم ينجحوا في ذلك ، ومع ذلك فانهم أجبروا الملك أملريك على أن يرفض العرض الذي تقدم به الامير الارمني ، ثوروس الثاني ، بأن يرسل من قبله نزلاء يحلّون بمناطق في فلسطين ، هجرها سكانها ، إذ أصروا على أن يلتزموا بدفع ضريبة

العشر [1]. على أن المسلمين ، برغم ما تقرر عليهم من ضريبة العشر ، ادركوا ان المستوى العام للضرائب ، في ظل حكم الفرنج ، يقل عما هو معروف عند الأمراء المسلمين المجاورين . كما انه لم يجر استبعاد المسلمين من شغل الوظائف الحكومية الصغيرة ، فتقرر استخدامهم ، مع المسيحيين الوطنيين ، موظفين في الديوان (الجمرك) وفي جباية الضرائب [2] .

دستور مملكة بيت المقدس :

من المستحيل ان نورد عرضاً دقيقاً لدستور امارات الفرنج ، لأنه لم يكن لها ، في وقت من الأوقات ، دستور ثابت . إذ ان التقاليد والعرف ، لم تتطور او تتعدل إلا بما يصدر من اعلانات او قرارات خاصة . وحينما اصدر رجال القانون ، فيما بعد ، المصنفات ، امثال كتاب الى الملك (Livre au Roi) او قوانين مملكة بيت المقدس (Assizes de Jerusalem) ، لم يحاولوا في الواقع سوى ان يكتشفوا المواضع التي غيّرت فيها قرارات معينة ، عُرفاً مسلّماً به ، لا أن يضعوا قانوناً ثابتاً للحكومة . على ان الاحوال المحلية اقتضت وضع قوانين مختلفة ، إذ أن امير انطاكية وكونتي الرها وطرابلس لم يصادفوا عناء كبيراً من اتباعهم ، على حين ان ملك بيت المقدس ازداد ضعفاً في مركزه ، إذ أن السيد المسيح هو الذي رسمه ملكاً ، ويعتبر زعيم الفرنج

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 299 - 302.
Ernoul, pp. 27 - 30.
أورد ارنول خبر العرض الذي تقدم به ثوروس .

(٢) انظر : Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 503.

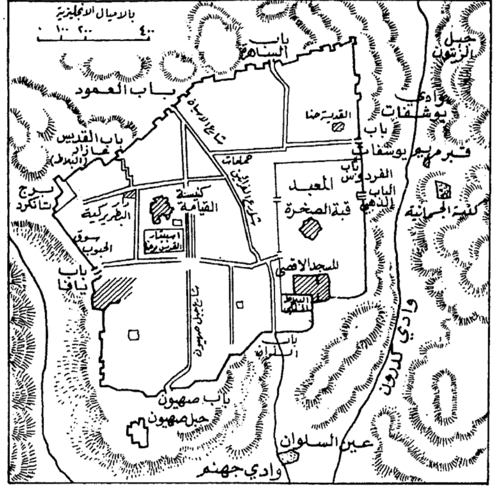
في الشرق دون منازع ، فلم يعد له منافس ، بعد أن دمّر الملك بلدوين الاول كل ما للبطريركية من مزاعم . غير أنه اذا كان لسيدّي انطاكية وطرابلس ان تنتقل سلطتها بالوراثة ، بمقتضى ما هو مسلّم به من قواعد ولاية العرش ، فإن ملكية بيت المقدس كانت انتخابية ، على ان الشعور العام قد يساند دعوى الوراثة في الحكم . ففي سنة ١١٧٤ لم يلقَ بلدوين الرابع مطلقاً معارضة حينما خلف أباه في الحكم ، على الرغم من انه لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره ، فضلاً عن كونه أبرص . غير ان التصديق على ما حدث فعلا اقتضى اجراء الانتخاب . ولجأ الناخبون ، في بعض الأحوال الى فرض شروطهم ، مثلما حدث حينما أجبروا أماريك الاول على ان يطلق زوجته أجنس قبل ان يجيزوا له ان يتلقى التاج . وازدادت الامور تعقيداً ، اذا كان الوارث الطبيعي للحكم امرأة ، إذ قد يجري انتخاب زوجها ملكاً ، غير انه فيما يبدو كان يستمد حقوقه عن طريق زواجه منها . وليس معروفاً على وجه التحقيق ماذا كان الوضع القانوني في حالة الملكة ميليسيند وابنها بلدوين الثالث ، إذ ساء تفسير كل المشكلة الدستورية بعد وفاة بلدوين الخامس سنة ١١٨٦ [١] .

ومع ان الملك يحتل قمة الهرم من الناحية الاجتماعية ، غير ان هذه القمة لم تكن شامخة . وإذ رسمه المسيح ملكاً ، أضحى له مكانة وكرامة ، فإلحاق الأذى به يعتبر خيانة عظمى . ويتولى الملك رئاسة المحكمة العليا ،

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 87 - 137.

انظر ما سبق ص ٣٧٦ ، وما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الثاني ، والكتاب الخامس ، الفصل الثاني .



٤ ـ بيت المقدس زمن ملوك اللاتين

ويعتبر القائد الاعلى لقوات المملكة ، وهو المسؤول عن الادارة المركزية ، فيقوم بتعيين موظفيها ، ولما له من السيادة على الأتباع ، جاز له ان يمنعهم من التصرف في اراضيهم ، وأن يختار الازواج لمن يرثهم من الاناث . ولما لم يكن له سيد أعلى ، صار بوسعه ان يبذل من ضياعه من المنح ، متى شاء ، على الرغم من انه لم يختلف عن نبلائه في التصرف في اراضيهم ، بأن درج على إشراك زوجته وأبنائه في بذل الهبة ، حتى لا تحدث فيما بعد شكوى تتعلق بمعاش الأرملة ، او إرث الابن . غير ان سلطة الملك تنتهي عند هذا الحد إذ ان السخاء في بذل المنح أدى الى تحديد موارد الملك وتخفيضها ، وأضحى الملك دائماً مفتقراً الى المال . فمع انه كان على رأس المملكة ، غير انه خضع لقانون المملكة ، ويمثل القانون المحكمة العليا . وتألفت المحكمة العليا من كبار المقطعين بالمملكة ، وهم السادة الذين يدينون بالولاء المباشر للملك . أما كبار موظفي الكنيسة ، فيشهدون المحكمة ، باعتبارهم حائزين لإقطاعات من الأراضي ، كما ان الجاليات الأجنبية ، كالبنادقة والجنويين ، الذين امتلكوا اراضي ، ترسل عنها ممثلين لحضور المحكمة العليا . ويصح ان توجه الدعوة لكبار الزائرين لحضور المحكمة ، على الرغم من انهم لا يؤلفون جانباً منها ، وليس لهم فيها حق التصويت [1] .

المحكمة العليا :

تعتبر المحكمة العليا أساساً محكمة للقانون ، وبهذه الصفة ، كان لها

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 87 - 104.

وظيفتان أساسيتان : الوظيفة الاولى ، هي ان تلتزم شرح حكم القانون في موضوعات معينة ، ومعنى ذلك أنها تقرّ التشريع ، إذ ان كل حكم Assize ليس من الناحية النظرية إلا تقريراً للقانون ، على انه من الناحية الواقعية يعتبر تعريفاً لقانون جديـد . أما الوظيفة الثانية ، فإن للمحكمة ان تحاكم من اعضائها من ارتكب احدى الجرائم ، وأن تنظر في القضايا التي يرفعها اليها احدهم على الآخر . والمحاكمة عن طريق الأسوياء تعتبر مظهراً جوهرياً لعرف الفرنج . فالملك بين كبار المقطعين ليس إلا مقدماً بين أسويائه ، إذ يعتبر رئيسهم ، وليس سيدهم . وما ينطوي على ذلك من نظرية ، ان المملكة لم يفتحها ملك ، بل جماعة من الأسوياء ، اختاروا وقتذاك ملكهم . وهذه النظرية بررت ما لجأت اليه المحكمة من اختيار الملوك الذين تعاقبوا على ولاية العرش ، واختيار وصي على الملك او نائب له ، في حالة حداثة سن الملك ، او وقوعه في الأسر . وجرت ايضاً استشارة المحكمة العليا في المسائل الكبرى المرتبطة بالسياسة ، ويعتبر هذا تطوراً لا بد منه . فلو لم يلقَ الملك تعاوناً من أتباعه ، لما استطاع ان يمضي في سياسته . وفي سنة ١١٦٦ اتسع تشكيل المحكمة العليا ، فدخل فيه أتباع كبار المقطعين ، وكان ذلـك جانباً من خطة الملك أمالريك الاول كيما يلقى منهم الملك المساندة على كبار الأتباع . والمعروف انه سبق ان أجبر المحكمة ، سنة ١١٦٢ ، على ان تسن قانوناً يجيز لأتباع كبار المقطعين الالتجاء الى المحكمة العليا لانصافهم من سادتهم ، فاذا رفض السيد الاقطاعي الاستجابة لدعوة المحكمة ، صار لأتباعهم الحق في ان يجعلوا انفسهم في خدمة الملك . ومع ان هـــذا القانون أمدّ الملك بسلاح فعال يشهره على النبلاء ، فانه بمضي الزمن زاد في سلطة المحكمة العليا ، وجـــاز استخدامه لمناهضة الملك نفسه . ومع ان المحكمة فيما يبدو أولت القضايا التي تنظرها بالغ العناية

والأمانة ، فانها أعتبرت نتيجة المحاكمة عن طريق المبارزة دليلاً لا بد من الاخذ به وليس للمحكمة العليا مقر ثابت ، بل قد يدعوها الملك للانعقاد ، كلما تيسر له ذلك .

وفي زمن المملكة الاولى انعقدت المحكمة عادة في بيت المقدس او في عكا ، ولحرص النبلاء على حضور المحكمة ، اخذوا يهملون إقطاعاتهم ، واتخذوا لهم سكناً بإحدى هاتين المدينتين[1] . على ان سلطة النبلاء ، باعتبارهم فئة من فئات المجتمع ، اضعفها ما وقع بينهم دائماً من المنازعات والعداوات الأسرية ، التي ازدادت بمضي الزمن حدة وتعقيداً ، على ان معظم البيوت النبيلة ارتبطت فيما بينها بأواصر المصاهرة .

ووفقاً لمبدأ المحاكمة عن طريق الأسوياء كان لنزلاء الفرنج الذين لم ينتموا لفئة النبلاء محكمتهم الخاصة ، وهي المعروفة باسم محكمة البورجوازية . وقامت هذه المحاكم البورجوازية بكل المدن الكبرى ، وتولى رئاستها دائماً فيكونت المدينة ، وبكل محكمة بورجوازية اثني عشر محلّفاً ، يختارهم السيد من رعاياه اللاتين الذين ولدوا احراراً ، ويؤدون اعمال القضاة ، على الرغم من انه يصحّ لأحد الخصوم ان يتخذ منهم مدافعاً عنه ، وفي هذه الحالة ليس لهذا المحلّف ، الذي تولى الدفاع عن الخصم ، أن يشترك في اصدار الحكم . ومن واجبات المحلفين ايضاً ان يشهدوا على كل ما يجري بالمحكمة من عقود ووثائق .

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 106 - 113.
أورد أسامة بن منقذ أمثلة على المحاكمة عن طريق المبارزة ، والمحاكمة بطريق الماء ، انظر :
Usama, ed. Hitti, pp. 167 - 169.

وتختلف المحكمة البورجوازية عن المحكمة العليا ، في حرصها على اثبات كل الاجراءات في سجلات . وتنعقد المحكمة البورجوازية بانتظام ، في أيام الاثنين والاربعاء والجمعة من كل اسبوع فيما عدا ايام المواسم والأعيـاد . وما كان من دعوى بين احد النبلاء وأحد البرجاسية ، تنظرها المحكمة البورجوازية . وأقرت المحكمة البورجوازية المحاكمة عن طريق المبارزة او عن طريق الماء [1] .

والسكان الوطنيين محاكمهم الـتي تنظر في القضايا الصغيرة ، ويتولى رئاستها الرؤساء المحليون ، الذين يعيّنهم الفيكونت ، ويجري بها تطبيق قانون العرف عندهم . على انه حدث زمن الملك امالريك الاول ان تقرر انشاء محكمة المدينة (Cour de la Fonde) في كل واحـدة من المدن الرئيسية ، التي يبلغ عددها ثلاثاً وثلاثين مدينة ، والتي تنعقد بها الاسواق . وتنظر هذه المحكمة في القضايا التجارية ، وتعالج ايضاً كل القضايا ، حتى الجنائية منها ، التي تتعلق بالسكان الوطنيين . ويرأسها نائب (bailli) يعيّنه السيد المحلي ، ويساعده ستة محلفون ، اثنان من الفرنج ، وأربعة من السكان الوطنيين . ويحلف كل من المتقاضيين الوطنيين اليمين على كتابه

(۱) انظر : La Monte, op. cit. pp. 105 - 108.

وصف أسامة الاختبار بالمـاء : « عملوا لرجل متهم بالقتل حكم الافرنج ، بأن حلـسوا بتية عظيمة ، وملأوها ماء ، وعرّضوا عليها دف خشب ، وكتفوا ذلـك المتهم ، وربطوا في كتافه حبلاً ، ورموه في البتية . فإن كان بريئاً غاص في الماء ، فرفعوه بذلك الحبل كي لا يموت في الماء ، وان كان له الذنب ما يغوص في الماء . فحرص ذلك لما رموه في الماء ان يغوص ، فما قـدر ، فوجب عليه حكمهم » .

انظر أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ١٣٩ — ١٤٠ .

المقدس ، ويحلف المسلمون على القرآن . وأعجب الزائرون المسلمون بإنصاف اجراءات المحكمة .

وتتولى محكمة المدن ايضاً تسجيل عقود البيع ، وهبات الملك ، بعد اثبات صحتها ، وتعتبر ايضاً ادارة لجباية ضرائب الشراء . ويصح استئناف أحكامها الى المحكمة البورجوازية التي نقلت عنها اجراءاتها العامة . وأقام امالريك الأول ايضاً محكمة المرفأ (Cour de la Chaine) في كل المدن الساحلية ، للنظر في كل القضايا المتعلقة بشحن السفن ، وتعتبر سجلاً لما يتحصل من الديوان (الجمرك) ورسو السفن من رسوم . ويختار محلفوها من بين التجار والبحارة . يضاف الى ذلك ما اتخذته الجاليات التجارية الايطالية والبروفنسالية من محاكم قنصلية ، للنظر في امورها الداخلية . ولكبار المقطعين محاكمهم الخاصة (محاكم البارونات) ، التي تنظر فيما ينشب من منازعات بين اتباعهم الفرسان ، وبلغ عددها اثنتين وعشرين محكمة ، فضلاً عن اربع منها خاصة باقطاع الملك . ولكل من هذه المحاكم العديدة مجال بالغ التحديد ، اما اذا كان المتقاضون من فئات مختلفة ، فتنظر القضية المحكمة التي ينتمي اليها ادنى المتقاضين مكانة [1] .

ووفقاً لما جرى في العصور الوسطى من ادراك القانون ، الذي لم يتطلب قوانين معينة إلا اذا دعت الحاجة الى التعريف بنقطة محددة ، اضحى النشاط التشريعي للحكومة فيما يبدو ، تحكمياً وعارضاً . ومن القوانين الواردة في مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس ، التي ترجع الى

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 108 - 109.

القرن الثالث عشر ، ستة قوانين ، والراجح انهـــا صدرت زمن الدوق جودفري ، كما انه يصح اجمالاً تحديد زمن احد عشر من بين تسعة عشر قانوناً آخر ، بالفترة الممتدة حتى سنة ١١٨٧ [١] .

النظام الاداري :

تركزت الادارة في أيدي كبار موظفي البلاط ، الذين يختارهم الملك من بين كبار المقطعين بالمملكة ، وأسبق هؤلاء في الرتبة ، هو الصنجيل ، المكلف بما يجري من الاحتفالات ، وبهذه الصفة يحمل الصولجان عنـــد التتويج ، ويتقدم الملك في الموكب ، ويعتبر رئيس الادارة المدنية . على انه يتحدث بصفة خاصة في بيت المال Secréte ، وهو الديوان الذي يؤدي له كل ما يستحق للملك من اموال ، ويصرف منه المرتبات ، ويحتفظ بسجل لكل العمليات المالية المرتبطة بالحكومة . ولم يكن بيت المال إلا ادارة مفككة التنظيم ، نقلها الفرنج عن العرب ، الذين اخذوها بدورهم عن البيزنطيين . ويلي الصنجيل في المكانة ، الكندسطبل الذي فاقه في السلطة

---

(١) انظر : Grandclaude, op. cit. pp. 322 ff.

أورد جرانكلاود قائمـــة بالقوانين التي يصح تحديد زمن صدورها بالفترة الممتدة من ١٠٩٩ حتى ١١٨٧ ، فخص زمن جودفري بستة قوانين ، وزمن الملوك ، ابتداء من بلدوين الاول حتى بلدوين الرابع ، بأحد عشر قانوناً ، (على الرغم من اعتقاده بأن القانون ، الذي يقضي ببيع اقطاعات من لا وارث لهم ، لاقتداء الملك ، يرجع الى تاريخ لاحق لوقوع الملك جاي في الأسر في معركة حطين ، على ان هذا القانون قد يشير الى أمر الملك بلدوين الثاني) . ولم يتحدد ايضاً تاريخ صدور ثمانية قوانين .

الفعلية ، اذ كان يلي الملك في قيادة الجيش ، ويعتبر مسؤولاً عن كل مـا يتعلق بنظامه وإدارته . وفي حفلة التتويج ، يحمل لواء الملك ، ويمسك بلجام حصان الملك ، وكان ذلك من الاعمال الاضافية التي يتقاضى عنها اجراً ، ويتحمل ايضاً المسؤولية عن المؤن العسكرية والقضاء العسكري ، ويخضع لقضائه الخاص كل العساكر المرتزقـة ، سواء استأجرهم الملك او السيد الاقطاعي ، فيراعي ما اذا كانوا يتقاضون اجورهم على وجه سليم . فاذا لم يشهد الحملة الملك او نائبه ، صار للكندسطبل السلطة التامة على الحملة . ويساعده المارشال الذي ينوب عنه في كل الأمور . أمـا الحاجب فكان مسئولاً عن حاشية الملك الشخصية وأمواله . وفي اوقات المواكب، يؤدي دور الامين الخـاص . وتعتبر وظيفته من الوظائف التي تعود على صاحبها بربح وفير ، نظراً لما يبذله الاتباع له من الهدايا حينما يحلفون يمين الولاء . واختصت الوظيفة ايضاً ببعض الاراضي ، غير أن الحاجب يوحنا بلّليسم باع هذه الاراضي ، سنة ١١٧٩ ، دون أن يكدر خاطر الملك . ولم تكن اختصاصات الساقي معروفة ، والراجح أن واجباته ارتبطت فحسب بالاحتفالات . اما كبير كتّاب الانشاء (Chancellor) فكان دائماً من رجال الكنيسة ، على الرغم من انه لم يكن كاهن الملك ، مثلمـا جرى عـــادة في الغرب المسيحي . وباعتباره رئيس ديوان الانشاء ، كان من اختصاصه ان يحرر كل الوثائق ويسجلها ، وأن يضع عليها خاتم الملك ، فظل ديوان الرسائل ديواناً للمحفوظات الملكية . ولما لم يكن للملك قضاء خاص ، ولا قانون عام ، فلا داعي لإصدار القوانين وإقامة محكمة للبلاط . وعلى الرغم من الاهتمام بالمحافظة على سجلات هذا الديوان ، فانه لم يبق منها إلا القليل . وكانت اللاتينية هي لغة ديوان الرسائل في القرن الثاني

عشر ، وجرى تأريخ الوثائق بالتاريخ الميلادي والدورات الرومانية ، وفي بعض الحالات تجري إضافة السنة التي استهل فيها الملك حكمه او السنة التي سقطت فيها بيت المقدس بأيدي الفرنج . وتستهل السنة بعيد الميلاد ، ويحسب الملوك بالعدد ، لا بالاسماء ، ابتداء من بلدوين الاول ، ولم يتخذ لقب الملوك أول الأمر صيغة معينة ، غير انه جرى فعلاً اتخـــاذ صيغة موحدة ، وهذا نصها [1] :

« Per Dei gratiam in Sanctae Civitate Jerusalem Latinorum Rex ».

ويعتبر الفيكونت اهم موظفي الادارة المحلية ، فهو يمثل الملك في كل المدن التي تقع في اقطاعات الملك ، ويمثل السيد في مـــدن بارونيته . ويتولى جباية الضرائب المحلية ثم يرسلها الى بيت المال ، بعـد استقطاع ما احتاج اليه منها لنفقات الحكومة المحلية . وكان الفيكونت مسئولاً ايضاً عن المحاكم المحلية ، وعن حفظ الأمن بوجه عام في مدينته . ويصير اختياره من أسرة نبيلة ، غير ان وظيفته ليست وراثية . ويليـــه في المكانة ، المحتسب ، الذي ظلّ محتفظـــاً بالاسم العربي ، وفي بعض الاحوال كبير السرجندارية ، الذي كان أصلاً المسئول الرسمي عن لوائح الأسواق [2] .

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 114 - 137.
أورد لامونت احسن خلاصة لاختصاصات موظفي الحكومة. وترجمة هذه الصيغة : « بفضل الله ، ملك اللاتين بمدينة بيت المقدس المقدسة » .

(٢) انظر : La Monte, op. cit. pp. 135 - 136, 167 - 168.

الامارات التوابع :

ادعى ملك بيت المقدس لنفسه السيادة على سائر امـــارات الفرنج بالشرق ، ورأى ان من حقه ان يطلب من امرائها ان يرسلوا العساكر للانحياز اليه في حملاته . والواقع ان السيادة لم تظهر إلا حينما كان الملك من القوة مـــا يكفي لفرضها ، بل لم تعتبر انطاكية او طرابلس ، من الناحية النظرية ، جزءاً من مملكة بيت المقدس . إذ أن ملوك بيت المقدس الاوائل لم يحققوا إلا سيادة شخصية على طرابلس . فبذل كونت برتراند يمين الولاء عن بلاده للملك بلدوين الاول سنة ١١٠٩ . وحاول كونت بونز ان ينكر ولاءه للملك بلدوين الثاني ، في سنة ١١٢٢ ، غير أن محكمته العليـــا اجبرته على الرضوخ له . على أنه في سنة ١١٣١ لم يسمح للملك فولك ان يجتاز بلاده ، غير ان الملك أنزل بـــه العقاب ، وأرغمه مرة اخرى على الاذعان . وتولى الملك امالريك الاول الوصاية على كونتية طرابلس باسم الكونت ريموند الثالث الطفل ، في الفترة المتــدة من سنة ١١٦٤ الى سنة ١١٧١ . ولعل ذلك راجع الى كونــه اقرب الأمراء الذكور الى الملك لا على انه سيده الأعلى . فلمـــا شبّ ريموند الثالث وبلغ سن الرشد ، لم يقبل هذه السيادة ، على الرغم من انه يعتبر من اتباع الملك ، نظراً لأنه كان لزوجته امارة الجليل . وفي اثناء حملة سنة ١١٨٧ التي اشترك فيها ريموند الثالث باعتباره امير الجليل ، اعلنت كونتية طرابلس التزام الحياد .

ولملوك بيت المقدس صلة شخصية بكونتية الرها ، فحينما قـــام بلدوين الاول بتعيين بلدوين الثاني ليخلفه على حكم الرها ، حصل منــه على يمين التبعية . وجرى بلدوين الثاني على هـــذا النحو مع جوسلين

كورتيناي . غير ان جوسلين في ايامه الاخيرة اعترف ايضاً بأمير انطاكية سيداً أعلى .

ولأنطاكية وضع مختلف ، فلم يقرّ بوهمند لأحد بالسيادة عليه ، ولم يقرّ سيادة ملك بيت المقدس ايضاً الوصيان تانكرد وروجر ، اللذان عينتهما المحكمة العليا بإمارة انطاكية . وتولى بلدوين الثاني الوصاية على الامير الصغير ، بوهمند الثاني بين سنتي ١١١٩ ، ١١٢٦ ، غير ان الوصاية لم تستند ، فيما يبدو ، الى حق شرعي ، بل جرت بناء على دعوة المحكمة العليا بانطاكية . وتلقى بلدوين الثاني الدعوة للوصاية مرة اخرى سنة ١١٣١ ، مع سبب اضافي ، وهو انه كان جداً للأميرة الصغيرة كونستانس ، التي تبين للمحكمة العليا ان مصالح كونستانس تتعرض للخطر من قبل أمها أليس . وحدث بعد وفاة بلدوين الثاني ، وحينما حاولت أليس مرة اخرى ان تنتزع السلطة ، ان دعت المحكمة العليا الملك فولك ليتولى الوصاية مكان بلدوين الثاني . على ان الملك هنا ايضاً كان اقرب فرع الذكور للأميرة الصغيرة ، باعتباره زوج خالتها ، فلو انه كان بالشرق امير من بيت هوتفيل النرماني ، لوقع الاختيار عليه . وشبيه بذلك ، انه حينما اختار الملك زوجاً للأميرة كونستانس ، لم يتصرف إلا بناء على طلب المحكمة العليا ، لا باعتباره سيداً . وسبق للملك بلدوين الثاني ان طلب الى ملك فرنسا ان يختار زوجاً لوريثة عرشه ميليسند دون ان يشير الى انه يقبل السيادة الفرنسية . وحينما حان الوقت الذي اتخذت فيه كونستانس زوجاً آخر ، لم تقم بهذا الاختيار إلا باعتبارها اميرة حاكمة ، ولم تطلب الاذن من الملك بلدوين الثالث ، إلا لأن ريجنالد ، الزوج الذي وقع اختيارها عليه ، كان من اتباعه .

وفي سنة ١١٦٠ طلب اهل انطاكية الى الملك بلدوين الثـالث ان يتولى الوصاية ، على ان الملك هنا كان ايضاً اقرب الى امير انطاكية الصغير من فرع الذكور . والواقع أن الوضع القانوني لم يتحدد في وضوح . والراجح ان امير انطاكية أقرّ ما للملك بيت المقدس من التقدم عليه ، ولكنه لا يقبل تفوقه عليه [١] .

واختلفت انطاكية ايضاً عن كل من طرابلس والرهـا ، في نظامها الحكومي . ولم نعلم إلا قليـلاً عن النظام الحكومي بالرها ، إذ ضاعت الوثائق التي اصدرها كونت الرها . والراجح انه كان له ما لكل امير اقطاعي كبير ، من محكمة مؤلفة من اتباعه . غير ان وضع الامارة في اقصى طرف العالم المسيحي حال دون كل تطور دستوري . وعاش كونت الرها اشبه بالأمراء الترك الذين يحيطون به ، فلم يكن في الرها إلا عدد قليل من نزلاء الفرنج ، ولم يكن بها ايضاً إلا عدد قليل من الاقطاعات الكبيرة . وجعل الكونت كل اعتماده على موظفين من الارمن ، تدربوا على الطرق البيزنطية . وإذ كادت الحروب لم تنقطع في كونتية الرها ، كان لزاماً على الكونت ان يبلغ في طغيانه فيها ، مـا لم يتهيأ له في بلد اكثر هدوءاً . أما دستور طرابلس فإنه ، فيما يبدو ، شبيه بدستور بيت المقدس ، فللكونت محكمته العليا ، التي التزم بقواعدها . غير انـه

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 187 - 202.
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 436 - 437.
ومع ذلك كان بوهمند الثاني امير انطاكية تابعاً للملك أملريك الارل،لما تحصل عليه من اقطاع نقدي بعكا .

تولى الحكم بمقتضى الوراثة لا بالانتخاب ، وما يحوزه من املاك خاصة لأكبر مساحة ممـــا يملكه تابع من اتباعه . وفيا سوى امر او امرين خطيرين يتعلقان بسياسة الكونت ، كالذي حدث حينا تحدى بونز ، ملك بيت المقدس ، لم يلق كونت طرابلس إلا عنـــاء قليلاً من اتباعه الذين انحدروا جميعاً ، باستثناء سادة جبيل الجنوبيين ، من أتبـــاع اسلافه التولوزيين . واتخذ كبار موظفي بلاطه من الالقاب والوظائف ما اتخذه امثالهم في بيت المقدس . وتولى ادارة المدن ايضاً الفيكونتات ، على النحو المعروف في مملكة بيت المقدس[1] .

امارة انطاكية :

لم تكن النظم في امارة انطاكية شبيهة بنظم مملكة بيت المقدس إلا من الناحية الظاهرية ، إذ كان بها ما في بيت المقدس من محكمة عليا ، ومحكمة بورجوازية ، وكبار الموظفين . ومع أن لأنطاكية قوانينها ، فان اتجاهها العام يتفق مع اتجاه قوانين مملكة بيت المقدس ، ومع ذلك فانه يختفي تحت سطح هذا الاتفاق ، اختلافات عديدة ، إذ ان ولاية العرش كانت وراثية ، ولم تتدخل المحكمة العليا إلا عند تعيين وصي ، اذا اقتضت الحاجة ذلك . على أن امير انطاكية احتفظ في يده منذ البداية بالمدن الرئيسية ، وبقدر كبير من اراضي الامارة ، وكان حذراً عند بذل المنح من الاراضي ، إلا في مناطق الحدود . وكان يؤثر بـذل اقطاعات

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. loc. cit.
Richard, La Comté de Tripoli, pp. 30 - 43.

المال (النقود) . ويبدو ان المحلفين الذين يعينهم امير انطاكية اتخذوا مراكزهم بالمحكمة العليا ، بينما خضعت المحكمة البورجوازية لممثليه الشخصيين . ولإدارة المدن والضياع الاميرية ، اتخذ امير انطاكية النظام البيزنطي بما اتصف به موظفو المكاتب من كفاية ، وبما اشتهروا به من اساليب بارعة في جباية الضرائب . فلكل من انطاكية واللاذقية وجبلة دوق خاص ، له مطلق السلطة في ادارة البلدية ، ويعيّنه الامير ويعزله كيفما شاء ، غير انه في اثناء خدمتة يتخذ ، فيما يبدو ، مكانه في المحكمة العليا . ويجري عادة اختيار دوق كل من اللاذقية وجبلة من بين السكان الوطنيين . أما دوق انطاكية فانه ينتمي الى نبلاء الفرنج ، على ان الفيكونت الذي يساعده يصح اختياره من الوطنيين . وعمد امراء انطاكية ، مثلما فعل بنو عمومتهم في صقلية ، الى زيادة قوتهم إزاء طبقة النبلاء ، بأن أفادوا من الموظفين الذين ينتمون الى اصل وطني ، والذين توقف بقاؤهم في الوظائف على رضى الامير . وصادف الامراء في انطاكية منذ البداية ما تخلف عن الأزمنة البيزنطية من مجتمع محلي متعلم ، مؤلف من عناصر يونانية ، وسريانية ، وأرمنية الاصل . وكفل للامراء ايضاً السيطرة على المحكمة العليا ، ما لجأوا اليه من تعيين المحلفين ، الذين يشتركون ، مثلما جرى في المحكمة البورجوازية ، في الفصل في مسائل قانونية خالصة . وورث امراء انطاكية النظام البيزنطي في تقدير الضرائب وجبايتها . ولبيت المال عندهم جهازه الاداري ، ولا يعتمد في تحصيل الخراج على المحاكم المحلية مثلما كان حادثاً في بيت المقدس . وقام امراء انطاكية بتوجيه سياستهم كيفما شاءوا ، دون ان يحفلوا بالمحكمة العليا ، فعقدوا معاهداتهم مع الدول الأجنبية . والواقع ان نظام الامارة بأكمله كان أشد تماسكاً وأكبر تأثيراً من كل نظام في سائر امارات الفرنج . ولو لم تنشب بانطاكية الحروب المستمرة ،

ولو لم يجر على امرائها من حداثة السن والوقوع في الأسر ، ولو لم تستبدل بالأسرة الحاكمة النرمانية أسرة حاكمة فرنسية ، لقام بها حكومة تضارع في القوة حكومة صقلية [1] .

السيادة البيزنطية :

وما كان لانطاكية من وضع غريب ، بلغ ذروته ، بما ارتبطت به انطاكية بالامبراطور البيزنطي من علاقة خاصة . فوفقاً للنظرية البيزنطية ، يعتبر الامبراطور رأس الامم المسيحية . وعلى الرغم من ان الامبراطور لم يحاول مطلقاً فرض سيادته على ملوك الغرب ، فانه اعتبر الشطر الشرقي من العالم المسيحي مجال نفوذه وسلطانه . فالمسيحيون الارثوذكس ببلاد الخلافة ، كانوا يخضعون لحماية الامبراطور البيزنطي ، واعترف المسلمون بالتزاماته نحوهم . ولم يكن في نيته ان يتخلى عن واجباته ، بسبب غزو الفرنج . على ان ثمة اختلاف بين انطاكية والرها من جهة ، وبين بيت المقدس وطرابلس من جهة اخرى . ذلك ان بيت المقدس وطرابلس لم تكونا منذ القرن السابع الميلادي من أملاك الامبراطورية البيزنطية ، على حين ان انطاكية والرها كانتا اقليمين بيزنطيين أثناء حياة الامبراطور الكسيوس الاول . وحينما طلب الكسيوس الى قادة الحملة الصليبية الاولى ، ان يبذلوا له يمين الولاء ، كان يفرق بين البلاد البيزنطية السابقة التي ينبغي ان يردوها له ، ومنها انطاكية ، وبين الفتوح الاخرى التي زعم ان له

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 435 ff.
أورد كاهن في تفصيل دستور انطاكية وتطوره .

سيادة عليها ، غير ان هذه السيادة لم تكن في الواقع محددة . على ان الصليبيين لم يوفوا بأيمانهم ، ولم يكن بوسع الكسيوس ان يلزمهم بهـــا . فالسياسة البيزنطية اتسمت دائماً بالواقعية ، ولذا لجأ الكسيوس الى تعديل طلباته بعد انتصاره على بوهمند . فوفقا لمعاهدة ديفول ، أجاز الكسيوس للأسرة النرمانية ان تمضي في حكم انطاكية ، على ان تلتزم بالتبعية له ، وطلب الكسيوس ضمانات معينة ،مثل تنصيب بطريرك يوناني بها. وتعتبر معاهدة ديفول الأساس الذي قامت عليه الدعاوى البيزنطية ، غير ان الفرنج تجاهلوها . كان الرأي العـــام عند الفرنج ، فيما يبدو ، يندد بتصرف بوهمند مع الامبراطور ، غير ان الامبراطور خسر قضيته بامتناعه عن القدوم بشخصه ؛ ومع ذلك فقد جرى الاعتراف بالحقوق الامبراطورية حينما ظهر امبراطور آخر في انطاكية ، أي انـــه وفقاً لنصيحة الملك فولك ، في سنة ١١٣٧ ، تقرر اقرار دعوى الامبراطور في السيادة على انطاكية ، لاستنادها الى اساس قانوني سليم كلما كان الامبراطور في وضع يكفل له تحقيق هذه السيادة ، فاذا لم يشأ ان يفعل ذلك ، تعرضت هذه الدعوى للإغفال . ولم تتهيأ إلا فرص قليلة ، جرت فيها معاملة الامبراطور البيزنطي على انه سيد أعلى ، مثلما حدث حينما طلبت الاميرة كونستانس الى الامبراطور مانويل ان يختار لها زوجاً . وبذا لم تكن السيادة الامبراطورية إلا سيادة طارئة ، وخفيفة الوطأة . على ان امراء انطاكيه ورجال القانون بها اشتد قلقهم من جانبها . وظلت هذه السيادة عاملاً قوياً في الحد من استقلال امير انطاكية .

واعترف كونت الرها سنة ١١٣٧ بالسيادة البيزنطية ، غير ان الرها تقع بعيداً عن طرف الامبراطورية . ولم تكن هـــذه المسألة عند الرهـــا بالغة الاهمية . فأقر الرأي العام عند الفرنج ما لجأت اليه كونتيسة الرها

من بيع ما تبقى من بلاد الرها الى الامبراطور البيزنطي ، في سنة ١١٥٠ .
على ان ما حدث يرجع الى ان هذه البلاد لم تكن من القوة والقدرة ما يجعلها تصمد لهجمات المسلمين . أما ريموند كونت تولوز فكان ينزع الى قبول سيادة الامبراطور البيزنطي، وبذل ابنه برتراند يمين الولاء للأمبراطور الكسيوس ، عن كونتيته المقبلة ، في سنة ١١٠٩ . وكرر ريموند الثاني هذا الولاء للأمبراطور يوحنا كومنين ، في سنة ١١٣٧ . وعلى الرغم من ان ريموند الثالث هاجم بيزنطة ، سنة ١١٥١ ، فانه تلقى في سنة ١١٦٣ من البيزنطيين مساعدة تعتبر إشارة من مانويل تدل على ما له من سيادة . غير ان هذا الولاء قد يكون قاصراً على انطرطوس وما يجاورها من الجهات التي تعتبر ، من الناحية التقليدية ، شطراً من ثغر اللاذقية ، التابع لأنطاكية .

أما العلاقات القانونية البيزنطية مع مملكة بيت المقدس ، فانها ظلت غير محددة ، إذ أن بلدوين الثالث حلف يمين الولاء للامبراطور مانويل في انطاكية سنة ١١٣٨ ، وقدم امالريك سنة ١١٧١ الى القسطنطينية لزيارتها باعتباره من اتباع الامبراطور البيزنطي ، برغم ما حظي به هذا التابع من بالغ التشريف . واعتبر بلدوين وأماريك الصداقة البيزنطية أمراً جوهرياً لسياستها ، ولذا كانا مستعدين لبذل ولائهما ، غير ان رجال القانون عندهما ، فيما يبدو ، لم يعتبروا التبعية سوى وسيلة مؤقتة لا غاية في ذاتها [1] .

---

(١) عن العلاقات بين انطاكية وبيزنطة ، انظر :

= Cahen, op. cit. pp. 437 - 438.

واذا كان لملك بيت المقدس سيد أعلى ، فليس هذا السيد سوى البابا ، فالحرب الصليبية توقعت ان تقوم في فلسطين دولة ثيوقراطية ، ولو عاش ادهيمر ، لصح لهذا النظام أن ينمو ويتطور . والراجح ان هذه الفكرة هي التي منعت جودفري من قبول التاج الملكي . اما دايبرت الذي خلف ادهيمر فانه تصور قيام دولة تخضع لسلطان بطريرك بيت المقدس . ورد بلدوين على ذلك بأن اتخذ التاج ، وبأن أفاد من خصوم دايبرت بداخل الكنيسة . والواضح ان البابوية لا تقر أن يكون في بيت المقدس بطريركية بالغة القوة ، تستطيع بفضل ما لها من مركز خاص ، وثروتها المتزايدة ، ان تجعل من نفسها نداً في الشرق لروما في الغرب ، حسبما كان يأمل دايبرت . وبذا تيسر لملك بيت المقدس ان يوقع بين البابا والبطريرك . إذ كان لزاماً على الملك ، من الناحية التقليدية ، ان يحلف عند تتويجه ، يمين الولاء للبطريرك ، غير انه سعى للحصول من البابوية على التصديق على ولايته الحكم . ولم تكن التبعيه أكثر من تبعية اسمية ، ولم تزد على تلك التبعية التي ادعاها البابوات على الممالك الاسبانية ، غير انهما كانت بالغة النفع لمملكة بيت المقدس ، لأن البابوات ظلوا يعتبرون انفسهم مسؤولين عن ان يوفروا للبلاد المقدسة ما يلزمها من الأمداد من الرجال والمال ،

= وعن العلاقات بين طرابلس وبيزنطة ، انظر :

Richard, op. cit. pp. 26 - 30.

وعن كل الموضوع الذي يتعلق بما لبيزنطة من دعاوى السيادة على الامارات الصليبية ، انظر :

La Monte : « To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Crusading States ? in Byzantion, vol. II.

انظر ايضاً ما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الرابع .

وعن بذل كل مساعدة دبلوماسية ، عند الحاجة اليها . ويصح الافادة ايضاً من البابوية في الحد من سلطة البطريركية ، وفي ممارسة بعض السيطرة على طوائف الفرسان الرهبان . غير ان البابا من جهة اخرى يصح ان يساند الطوائف الدينية العسكرية على الملك ، وطالما تدخل البابا كلما حاول الملك التضييق على المدن الايطالية التجارية (١) .

نظام الكنيسة :

خضعت الكنيسة بمملكة بيت المقدس لسلطة بطريرك بيت المقدس ، على ان البطريرك اضحى فعلاً خادماً للملك ، بعد اول فتنة أثارها طموح دايمبرت . وتولى اختيار البطريرك هيئة رجال الدين بكنيسة القيامة ، فتعرض على الملك مرشحين ، ليختار احدهما . ويخضع لسلطة البطريرك رؤساء الأساقفة الأربعة ، في صور ، وقيسارية ، والناصرة ومآب ، فضلاً عن تسعة اساقفة ، وتسعة رؤساء اديرة ، وخمسة مقدمي أديرة ، غير ان من الاديرة ما استندت مباشرة الى البابوية ، وكذا كان شأن الطوائف الدينيه العسكرية . واشتهرت كنيسة فلسطين بضخامة ثروتها من الاراضي والاقطاعات النقدية . ودرج كبار موظفي الكنيسة على ان يلتزموا ببذل خدمات الجند الرجالة ، لا خدمات الفرسان . إذ التزم كل من البطريرك وهيئة رجال الدين بكنيسة القيامة ببذل خمسمائة جندي ، بينما تعاهد اسقف بيت لحم بتقديم مائتي جندي ، وتولى رئيس اساقفة صور تقديم مائة وخمسين جندي ، وجرى على نهجه رئيسا ديري القديسة

---

(١) انظر : La Monte, Feudal Menarchy, pp. 203 - 216.

ماريا يوسيفات ، وجبل صهيون . وملك دير بيثاني الذي أقامته الملكة ميليسيند لأختها ، كل مدينة أريحا . يضاف الى ذلك ما حازته البطريركية وعدد كبير من الاديرة بالغة الشهرة من الضياع الشاسعة في جميع أنحاء غرب اوربا ، وما تحصل منها من موارد كانت ترسل الى فلسطين . وكان للكنيسه محاكمها الخاصة التي تنظر في القضايا المتعلقة بالإلحــاد والنظام الديني ، والزواج وما انطوى عليه من الطلاق والزنا ، والوصايا . وجرت المحاكم على اللوائح والاجراءات التي التزمت بهــا محاكم الكنيسة في الغرب [1] .

وخضع لسلطة بطريرك انطاكية ، من الناحية الكنسية ، بلاد انطاكية وطرابلس والرها . على ان تحديد مناطق نفوذ البطريرك أدى الى إثارة المشاكل ، إذ جرى العرف بأن تدخل صور في نطاق بطريركية انطاكية ، مع انها بحكم الفتح تعتبر جزءاً من مملكة بيت المقدس . وقرر البابا باسكال الثاني أنه لا بد ان تنتقل الى بيت المقدس ، كنيسة صور بمـا يتبعها من أسقفيات عكا ، وصيدا ، وبيروت ، وجرى تنفيذ ذلك لاتفاقه مع الوقائع السياسية . على ان كل المحاولات التي بذلهـا بطاركة بيت المقدس لبسط سلطانهم على اسقفيات طرابلس وانطرطوس وجبلة الواقعة في كونتية طرابلس ، باءت بالفشل برغم ما تلقوه من حين الى آخر من مسانــدة البابوية . وكان ريموند كونت تولوز يأمل في ان تكون له كنيسة مستقلة في كونتيته المقبلة (طرابلس) ، غير ان أخلافه اعترفوا بسيادة كنيسة

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 215 - 216.
Rey, op. cit. pp. 268 - 269.

انطاكية ، فلم تكن هـــذه السيادة شديدة الوطأة عليهم ، لأنهم عينوا أساقفتهم دون ان يتعرضوا لشيء من التدخل .

وحدث بانطاكية ما حدث في بيت المقدس ، بأن تولى انتخاب البطريرك هيئة رجال الكنيسة الكاتدرائية بها ، والواقع ان الامير (الحاكم الزمني) هو الذي نصّبه ، وبوسعه ايضاً ان يعزله . ونعلم ان بعض الامراء بذلوا الولاء للبطريرك ، عند تتويجهم ، ولكن الراجح ان ذلك لم يحدث إلا لظروف استثنائية . وخضع لسلطة بطريرك انطاكية ، رؤساء أساقفة البارة ، وطرسوس ، والمصيصة ، والرها . أما رئاسة اسقفية تل باشر فانها لم تقم إلا في زمن لاحق ، وصار متوليها يعرف رسمياً برئيس اساقفة منبج (Hierapolie) . وتغير عدد الأسقفيات وفقاً للأحوال السياسية . إذ كان بولاية كنيسة انطاكية ، تسعة أديرة للاتين ، وديران رئيسيان . ومن أهم الأديرة ، ديرا القديسين بولس وجورج ، اللذان حلّ بهما الرهبان البنيدكتيون ، مكان الرهبان اليونانيين ، ودير القديس سمعان ، الذي جرت به شعائر نوعي الأديرة جنباً الى جنب . ولم يتوافر لكنيسة انطاكية من الثروة ما توافر لكنيسة بيت المقدس . والواقـــع ان أديرة فلسطينية كثيرة حازت ضياعاً بامارة انطاكية .

الطوائف الدينية العسكرية :

الواقـع ان الطوائف الدينية العسكرية تفوقت على الكنيسة بامارات الفرنج ، قبل زمن طويل من نهاية القرن الثاني عشر . فمنذ قيامها ، اضطرد نموها في كثرة عدد رجالها ، ووفرة ثروتها ، حتى غدت سنة ١١٨٧ أكبر ملاك الاراضي بالشرق الادنى ، وازدادت ضياع هذه الطوائف ، بما ظفرت

به من الهبات ، وبما دأبت عليه باستمرار من شراء الاراضي . وانحاز الى صفوف هذه الطوائف عدد كبير من النبلاء الفلسطينيين، واضطرد قدوم المتطوعين من الغرب لينضموا إليها . وحققت هذه الطوائف ما افتقر اليه الزمن من الوجدان والعاطفة ، حين حرص عــدد كبير من الرجال على الالتزام بالحياة الدينية ، غير انهم أحبوا ان يبقوا على نشاطهم ، وأن يخوضوا المعركة من اجل الايمان . وسدت هذه الطوائف ايضاً حاجة سياسية ، إذ كان بالشرق قصور مستمر في العساكر وبالغ النظام الاقطاعي في الاعتماد على ما تتعرض له حياة الأسرة في بيوت النبلاء من أحداث ، حين عوّضت من لقي حتفه من الرجال في المعركة او نتيجة للمرض . وبوسع الصليبيين الزائرين ان يقاتلوا لموسم او موسمين ، غير انهم لن يلبثوا ان يعودوا الى بلادهم . أما طوائف الفرسان الرهبان فكفلت مدداً دائمـاً من العساكر الأتقياء المحترفين ، الذين لم يكلفوا الملك شيئاً من النفقات ، والذين توافر لهم من الثروة ما يكفي لأن يقيموا من القــلاع وينفقوا عليها ، ما لم يتيسر إلا لقلة من سادة الاقطاع العلمانيين . ولولا مساعدة هذه الطوائف ، لمــا بقيت الامارات الصليبية فترة طويلة . ليس لدينا دليل ثابت عن الأعداد الحقيقية لرجال هــذه الطوائف . فالمعروف ان طائفة الاسبتارية أرسلت في الحملة التي توجهت الى مصر ، سنة ١١٥٨ ، خمسمائة فارس ، مع عدد آخر من العساكر من غير فئة الفرسان . أما الفرسان الداوية الذين اشتركوا في حملة ١١٨٧ (معركة حطين) ، فكانوا حوالي ثلثمائة فارس . وفي كلتا الحالتين ، الراجح ان هــذه الأعداد لم تمثل إلا الفرسان الذين أرسلتهم مملكة بيت المقدس وحدها ، على ان عدداً من فرسان هــذه الطوائف جرى ، فيما يبدو ، الاحتفاظ به للقيام بما تقتضيه الحاميات من واجبات . والراجح ان الاسبتارية كانت أكبر الطائفتين وأكثرهما ثروة ،

غير ان الاسبتارية ظلوا يولون اهتماماً بالغاً بالاعمال الخيرية . اذ اتسع نزلهم في بيت المقدس لإيواء الف حاج ، وتولوا الانفاق على مستشفى لعـــلاج المرضى الفقراء الذين ظلوا على قيد الحياة بعد ان استعاد المسلمون البلاد . ودرجوا على ان يوزعوا على الفقراء كل يوم من الصدقات ما أثار سخاؤهم بها دهشة الزائرين .

وتولى الاسبتارية والداوية حراسة الطرق التي يسلكها الحجاج ، ووجهت الطائفتان اهتماماً خاصاً الى المواضع المقدسة للاغتسال في نهر الاردن ، وقام الداوية ايضاً بتوزيع الصدقات ، غير انهم لم يضارعوا الاسبتارية في البذل والعطاء . إذ ان الامور الحربيـــة كانت أكثر ما جذب اهتمامهم . وما حازوه من الشهرة ، يرجع الى شدة بأسهم في الهجوم ، والى أنهم نذروا انفسهم للحرب الهجومية ، وشغفوا ايضاً بأعمال المصارف ومرعان ما جعلوا من انفسهم وكلاء للانفـــاق على الصليبيين الزائرين . وبرغم ما تعرضوا له ، فيما بعد ، من الكراهية ، لمـــا دار حولهم من شبهات بأنهم يمارسون شعائر خفية ، فمـــا زالوا يلقون من العـــالم التقدير على بسالتهم وفروسيتهم [١] .

على ان ما كان للطوائف الدينية العسكرية من مزايا ، إنمـــا يقابلها مساوىء خطيرة ، إذ لم يكن للملك عليهم سلطان ، لأنهم لم يدينوا بالسيادة إلا للبابا . وما حازوه من اراضي ، احتفظوا بهـــا على انهم يمثلون ديوان المواريث الحشرية [٢] ، فلا يؤدون ما هو مقرر عليها من خدمات ، ولم

---

(١) عن المراجع عن الفرسان الرهبان ، انظر ما سبق ، ص ٢٠١ ، حاشية ١ .

(٢) المقصود بالمواريث الحشرية (Mortmain) هو ما يؤول الى بيت المـال ، من أملاك وأموال وأمتعة ، ليس لها مالك او حائز .

يسمحوا للحائزين على اراضي منهم بأن يؤدوا ضريبة العشر للكنيسة .
ولم يحـــارب فرسانهم مع جيوش الملك إلا على انهم حلفاء متطوعون فتارة كان الملك او السيد الاقطاعي ، يعهد اليهم بالإشراف المؤقت على احدى القلاع ، وتارة يطلب اليهم ، ان يتكفلوا امر صبي حدث . وفي هاتين الحالتين يلتزمون بأن يؤدوا الخدمات المقررة . ويعتبر مقدمو الفرسان الرهبان او ممثلوهم اعضاء بالمحكمة العليـا في مملكة بيت المقدس ، ويشهد ممثلوهم جلسات المحكمة العليا لكل من امير انطاكية وكونت طرابلس . غير ان ما يبذلونه من نصيحة بتلك المحاكم ، لم تلزمهم تحمل المسؤولية . وإذ كرهوا السياسة الرسمية ، جاز لهم الامتناع عن التعاون ، مثلما حدث حينما اعلن الداوية مقاطعتهم للحملة الحربيــة التي توجهت الى مصر سنة ١١٥٨ . ويعتبر من الاخطار الدائمة ، المنافسة المستمرة بين طائفتي الداوية والاسبتارية ، وقلما جرى حملهم على الاشتراك معاً في حملة حربية واحدة . إذ حرصت كل طائفة على ان تلتزم ما وضعته من خطة لدبلوماسيتها ، دون ان تحفــل بالسياسة الرسمية لمملكة بيت المقدس . إذ ان الطائفتين عقدتا المعاهدات مع الامراء المسلمين ، وليست قصة مفاوضات الداوية مع الحشيشية في سنة ١١٧٢ إلا دليـلاً على استعداد الداوية للتضحية باتفاق كانت الحاجة ماسة لإبرامه في سبيل تحقيق مزايا مالية خاصة ، كما انها دلت على نفورهم الصريح لما لمحاكم الملك من سلطة . أما الاسبتارية فكانوا دائماً اكثر اعتدالاً ، وأقل شراهة ، على انــه بفضلهم ظفرت الطائفة بالصدارة في كل المملكة .

المدن التجارية الايطالية :

وكان لهـــذا التوازن بين المزايا والمساوىء ما يماثله في العلاقات بين

إمارات الفرنج والمـــدن التجارية الايطالية والبروفنسالية [1] ، فلم يكن النزلاء الفرنج إلا جنداً لا ملاحين . غير ان كلاً من انطاكية وطرابلس أنشأت فيما بعـــد اسطولاً صغيراً ، وأقامت الطوائف الدينية العسكرية الأساطيل الصغيرة ، أما مملكة بيت المقدس فلم تكن لهـــا قوة بحرية كافية ، نظراً لقلة الموانئ الصالحة ، وافتقارها الى الأخشاب اللازمة لصناعة السفن . ولذا كان لا بـــد من التماس مساعدة دولة بحرية ، في كل حملة تتطلب قوة بحرية ، كالتي تلزم للاستيلاء على المدن الساحلية او التي تحتاج اليها الحملات الموجهة الى مصر . وكانت مصر والدولة البيزنطية أكبر دولتين بحريتين في الشرق . غير ان مصر كانت دائماً دولة قوية ، وتعتبر بذلك عدواً خطيراً للفرنج . أما بيزنطة فكانت دائماً موطن الريبة عندهم . وقد يكون لأسطول صقلية أهمية ، غير ان سياسة صقلية لم تكن ايضاً موضع الثقة ، عند الفرنج ، ولذا يعتبر الايطاليون وفرنسيو الجنوب خير حلفـاء الفرنج . واشتدت الحاجـة الى مساعدتهم للإبقاء على الطرق البحرية الى الغرب مفتوحة ، ولنقل الحجاج ، والعساكر ، والنزلاء الفرنج على سفنهم الى الشرق الادنى . غير انه لا بد للمدن التجارية ان تتقاضى اجورها . ولذا طلبت هذه المدن تسهيلات وحقوقاً تجارية ، كأن يكون لها أحياء خاصة في المدن الكبرى ، والاعفاء التـام او الجزئي من مكوس الديوان (الجمرك) ، ولا بـد لجالياتهم ان تحصل على امتيازات اقليمية اضافية . وفي الجملة لم تلقَ هـــذه الامتيازات نفوراً من قِبل سلطات الفرنج . فكل ما يلحق بالفرنج من خسارة في مواردهم ، يقابلها بما أثارته هـــذه

---

(١) انظر الفصلين التاليين (الثاني والثالث) .

المدن من نشاط تجاري . ولم تشأ محاكم الملك أن تأخذ بقانون جنوة او البندقية ، ولا سيما انهـــا اختصت بالنظر في القضايا التي يكون المواطن بالمملكة طرفاً فيها ، او القضايا التي تتعلق بجريمة كبيرة ، مثل القتل . على ان المنازعات بين المدن التجارية كانت تقع من حين الى آخر . إذ كان البنادقة في عـداء مستحكم مع رئيس اساقفة صور ، واستمرت الخصومة بين الجنويين والملك أملريك الاول زمناً طويلاً ، وفي كلتا الحالتين ساندت البابوية الايطاليين ، والراجح ان الحق الشرعي كان في جانبهم . على ان المدن التجارية لم تخرج من اجل مصالح العالم المسيحي ، بل لتحقيق كسب تجاري لها ، على ان المصالح تطابقت عادة ، فاذا تصادمت ، رجحت كفة المصلحة التجارية المباشرة . ولذا لم يكن الايطاليون والبروفنساليون اصدقاء ثابتين لملك بيت المقدس . يضاف الى ذلك ، ان ما كان بين الطائفتين الدينيتين العسكريتين من حقد وكراهية ، ليتضاءل إزاء ما كان من كراهية بين سائر المدن التجارية . مما جعل البندقية تبادر الى مساندة المسلمين ، لا الى مساعدة جنوه او بيزا ، او مارسيليا ، ولم يختلف أندادها عنها في وجهة النظر . فعلى الرغم من ان لما تبذله هذه المدن من مساعدة ، أهمية جوهرية في المحافظة على بقاء الفرنج بالشرق الأدنى ، فان قدراً كبيراً من أهمية هذه المساعدة ، قضى عليه ما وقـــع بين نزلاء المدن الايطالية من مؤامرات وفتن ، واستعدادهم لخيانة المصلحة العامة مقابل ربح طارىء[1] .

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. pp. 129 - 163.

أورد هايد موجزاً وافياً لما حدث من هذه المنازعات .

وتراءت هذه المدن التجارية للحجاج بصفة خاصة ، على أنهـا شديدة النهم ، مجافية للروح المسيحية . والواقـع ان حركة نقل الحجاج نشطت بعد قيام الامارات الصليبية ، وأضحى نزل الاسبتارية الضخم يعج دائماً بالحجاج . على ان الطريق عبر بـلاد الاناضول ما زال معرضاً للخطر ، برغم ما كانت الحرب الصليبية تهدف أصلاً اليه ، فلا يستطيـع ان يسلكه ويواجه اخطاره إلا جماعة جيدة التسليح . على ان الحاج المتوسط الحـال كان يؤثر الابحار الى الأماكن المقدسة ، وفي هـذه الحالة كان لزاماً عليه ان يحصل على مكان له في سفينة ايطالية ، وكانت أجور السفر بحراً بالغة الارتفاع . وقد يجتمع عدد من الحجاج سوياً ، فيستأجرون السفينة بأكملها ، على انهم يتكلفون نفقات كبيرة في استئجار قائد السفينة وبحارتها . على ان الحاج القـــادم من شمال فرنسا او انجلترا ، يعتبر أنه لأوفر له ان يرتحل في قافلة صغيرة من السفن التي تبحر سنوياً من مواني القنـــال (الانجليزي) الى الشرق . على ان هـــذه الرحلة كانت تستغرق زمناً طويلاً ، وتتعرض لأخطار شديدة ، إذ لا بـد ان تواجه عواصف المحيط الاطلنطي ، كما ان القرصان المسلمين كانوا يتربصون لهـــا في بوغاز جبل طارق ، وعلى امتداد الساحل الافريقي . ولم يقع بين اوبورتو ولشبونة وبين صقلية من المواني التي يطمئن المسافر ان يحصل على ما احتاجه من الماء والمؤن ، وكان من العسير شحن السفينة بما يكفي ما عليها من الرجال والأفراس من المؤن . وكان لأيسر للمسافر ان يتخذ الطريق البري الى بروفانس او ايطاليا ، ومنها يستقل احدى السفن التي درجت على الابحار الى الجهات التي يقصدها . ويستطيـع الحاج بمفرده ، ان يجد مكاناً له ، في سهولة بالغـــة وبأجور زهيدة ، في احدى السفن الراسية بمواني ملك

صقلية . غير ان الجماعات الكبيرة من الحجاج اعتمدت على أساطيل المدن التجارية الكبيرة [1] .

ومتى هبط المسافر في عكا او في السويدية ، أدرك لأول وهلة أنه في جو غريب ، إذ سرعان ما يلمس تحت التركيب الاقطاعي بلداً شرقياً . فما اتسمت به حياة هذه البلاد من البذخ والترف ، أثار دهشة القادمين من الغرب . فلا زالت الحياة في غرب اوربا يغلب عليها البساطة والتقشف ، إذ جرت صناعة الملابس من الصوف ، وقلما اهتم النـــاس بغسلها ، إذ لم تتوافر وسائل الغسيل والنظافة إلا في بعض المدن القديمة ، التي ما زال قائماً فيها تقليد الحمامات الرومانية . بل ان الأثاث في اكبر القلاع وأضخمها كان خشناً ، وكافياً لسد الحاجة ، أما البسط فلا تكاد تُعرف . وكان الطعام غليظاً ، مفتقراً الى التنوع ، ولا سيما أثناء شهور الشتاء الطويلة ، ولم يكن بالغرب إلا التعب والشقاء ، وليس للحيــاة الخاصة إلا نصيب ضئيل ، على حين ان الشرق اللاتيني كان على النقيض من ذلك . على أنه فيما يبدو لم يكثر بـــه الدور التي تضارع في الفخامة والضخامة القصر الذي أقامه في اوائل القرن الثالث عشر أسرة ابلين في بيروت ، بمـــا اشتهر به من الفسيفساء بأرضية الحجرات ، ومن الجدران المصنوعة من الرخام ، ومن السقوف التي تحلّت بالتصاوير ، ومن النوافذ الكبيرة التي يطل بعضها غرباً على البحر ، ويطل بعضها الآخر شرقاً على الحدائق

---

(١) انظر : Cahen: «Notss sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin»,III. «l'Orient Latin et Commerce du Levant», in Bulletin de la Faculté des Lettres de Strassburg, 1951, p. 333.

والبساتين الممتدة حتى الجبـــال . أما القصر الملكي في بيت المقدس الذي احتل جانباً من المسجد الاقصى ، فلا شك أنه كان أكثر تواضعاً وبساطة ، على حين ان القصر الملكي بعكا امتاز بفخامته . غير ان كل نبيل وتاجر ثري ، جعل داره بمدينته لا تقل عن ذلك رواء وجمالاً ، بما ازدانت به من الطنافس والستائر المصنوعة من الدمقس ، والموائد والصناديق ، التي اتصفت بدقة الحفر والتكفيت ، فضلاً عن نصاعة بياض فرش الأسرّة والموائد ، والصحون والاطباق المصنوعة من الذهب والفضة ، والسكاكين ، يضاف الى ذلك ما كان مجلوباً من الشرق الاقصى من أدوات المائدة ، والأواني الخزفية الرائعة ، وبعض الاطباق الفخارية . وفي انطاكية نقلت السقايات والأنابيب المياه من عيون دافنه Daphna الى الدور الكبيرة ، بينما حصلت الدور الواقعة على امتداد ساحل لبنان على ما يسد حاجتها من الماء . ونظراً لأنه لم تتوافر المياه بفلسطين ، اهتمت المدن بإقامة صهاريج للماء ، وما أنشأه الرومان قديماً من نظام للمجاري ما زال يسير على احسن وجه . وما شيّده الفرنج من حصون على الاطراف ، توافر بهـا من اسباب الراحة ما توافر بالدور في المدينة ، على الرغم من قسوة الحيـــاة وصرامتها خارج أسوارها ، إذ جعلوا بها الحمامات ، وأعدّوا بها الحجرات الجميلة لسيدات البلاط ، فضلاً عن قاعات الاستقبال الفسيحة الرائعـــة . أما قلاع الطوائف الدينية العسكرية ، فغلب عليها التقشف والصرامة ، على حين ان القلاع التي أقام بها أربابها ، كالكرك بمؤاب ، وطبرية ، بلغت حياة القسطلّان بها من الأبهة ما لم يحظ به احد من ملوك غرب اوربا[١] .

---

(١) انظر : Rey, op. cit. pp. 3 - 10.
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 129 - 132.
يصف كاهن ما اشتهرت به انطاكية من اسباب الدعة والمتعة .

الملابس :

وما اتخذه النزلاء من الملابس لم تلبث ان اضحت من الفخامة والأبهة ، وصار لها من الصفة الشرقية ما كان لأثاث دورهم . فإذا لم يكن الفارس في عدّته وسلاحه ، ارتدى برنساً من الحرير ، واتخذ عادة العمامة . وعند الخروج للقتال ، ارتدى فوق درعه سترة من الكتّان لوقاية الزرد من حرارة الشمس ، كما جعل على خوذته كوفية على نحو ما يفعل العرب . أما السيدات فاتبعن الزي الشرقي التقليدي فيما اتخذنه من قميص طويل وسترة قصيرة او رداء بكمّين ، وكلها موشّاة بخيوط الذهب ، وأحياناً بالجواهر . وفي الشتاء يرتدين الفراء مثلما يفعل ازواجهن ، فاذا خرجن من الدور اتخذن الحجاب ، شأن النساء المسلمات ، لا من قبيل الاحتشام ، بل لوقاية الطلاء الذي غطّى وجوههن ، يضاف الى ذلك ما جرين عليه من التأنق في سيرهن . على انه مهما اتصفن بالرقة والوداعة ، فإنهن ضارعن ازواجهن واخوتهن في الشجاعة ، فكم من امرأة نبيلة جرى الالتجاء اليها لتتولى الدفاع عن قلعتها أثناء غياب سيدها .

وانتهجت زوجات التجار حذو سيدات الطبقة الارستقراطية ، بل انهن في احوال كثيرة تفوقن عليهن في وفرة الملابس وارتفاع أثمانها . أما رجال البلاط الذين يؤلفون طبقة لم تكن معروفة حتى وقتذاك في المجتمع الغربي فاشتهروا ايضاً بالأبهة والعظمة . ويتحدث احد المؤرخين عن باشيا دى ريفييري ، زوجة صاحب حانوت ، من نابلس ، والتي بلغ من سحرها انه وقع في غرامها البطريرك هرقل ، بأنه قد لا يظنها الناظر اليها إلا انها كونتيسة او احدى البارونات ، لما ارتدته من ملابس

حريرية ، وما اتخذته من جواهر نفيسة [١] .

على ان هذا الترف الذي يبدو غريباً للحاج القادم من الغرب ، كان امراً طبيعياً ، للزائر القادم من الشرق الاسلامي او من بيزنطة . وكان لزاماً على النزلاء الفرنج ان يحاولوا المواءمة مع البيئة الجديدة ، اذ لم يكن بوسعهم ان يتجنبوا الاتصال برعاياهم وجيرانهم . يضاف الى ذلك انه ينبغي تقدير المناخ في هذه الجهات . فالشتاء في فلسطين وسوريا كاد يضارع في برودته القارسة اللاذعة ما هو معروف في غرب اوربا ، غير انــــه كان قصير الامد . أما الصيف بمـا اتصف بـه من الطول وشدة الحرارة ، فلم يلبث ان حمل النزلاء الفرنج على اتخاذ ما يخالف ما كان مألوفاً لهم من الملابس والأطعمة والساعات التي يلزمون فيها دورهم . فلم تعد طباع الشمال القوية صالحة في الشرق ، ولا بـــد لهم ان ينتهجوا بدلاً منها أساليب الوطنيين ، اذ تحتم عليهم اتخاذ الخدم ، وقامت المربيات الوطنيات على رعاية اطفالهم ، وتولى سياس وطنيون تدريب أفراسهم . وما كان بهذه الجهات من امراض تعتبر غريبة عليهم ، فلم يصلح لعلاجها اطباؤهم ، وكان لزاماً

---

(١) ظهر تانكرد على نقوده مرتدياً عمامة ، انظر ما سبق ص ٥٩ . ووجه هنري شامبانيا ، سنة ١١٩٢ ، الشكر الى صلاح الدين على الهـــدية التي ارسلها اليه ، وكانت عبارة عن عمامة ، وأعلن ان مواطنيه يقدرون هذه الأشياء ، وسوف يحرص دائماً على ارتدائها . انظر :

Rey, op. cit. pp. 11 - 12.

Ibn Jubayr (ed. Wright) , p. 309.

يصف ابن جبير الملابس ، حينما شهد عرساً للفرنج في عكا ، سنة ١١٨٤ . عن هذا ، انظر ما يلي ، الباب الخامس ، الفصل الاول .

عليهم ان يبادروا الى الاعتماد على الطب الوطني [١] . وكان حتماً عليهم ان يتعلموا كيف يفهمون السكان الوطنيين ، وأن يتعاونوا معهم في العمل . والواقع ان هذا الامر لم يكن عسيراً في مملكة بيت المقدس وطرابلس ، نظراً لأنه لم يكن بها ، بعد فرار المسلمين ، من الارستقراطية المحلية ما يناهض الحكم بها . ففي أقصى الشمال ، اشتدّ حقد الارستقراطية اليونانية والأرمنية على الفرنج ، وتدخلت السياسة في التفاهم المتبادل بينهم ، على الرغم من ان الارمن التقوا بالفرنج آخر الامر ، في منتصف الطريق ، ونقلوا عنهم عادات كثيرة [٢] .

الصداقة مع المسلمين :

لم يكن بين الفرنج والمسلمين المجاورين لهم سلام دائم ، بل ازداد الصدام بينهم . وتحصلت معظم موارد الامارات الصليبية من الرسوم المقررة على التجارة القادمة من داخل البلاد الاسلامية الى الساحل . فتقرر السماح للتجار المسلمين بالقدوم بمتاجرهم الى الموانئ الواقعة على الساحل ، وكان لا

---

(١) جرى الزعم بأن الطبيب الذي حاول وضع السم للملك بلدوين الثالث ، كان من الوطنيين (انظر ما يلي ، الكتاب الرابع ، الفصل الثالث). على ان الاطباء الوطنيين أثبتوا تفوقهم على أطباء الفرنج ، عند معالجة أماريك الاول في مرضه الاخير . (انظر ، الكتاب الرابع ، الفصل الرابع) اتخذ أماريك من الاطباء الوطنيين ، سليمان بن داود وابنه الاكبر ، بينما كان الابن الثاني لسليمان رائضاً لأفراس الملك . انظر :

Cahen, «Indigénes et Croisés», Syria, 1934.

نفر أسامة بن منقذ من الطب عند الفرنج ، انظر ما يلي :

(٢) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 561 - 568.

بد ان تحسُن معاملتهم . ونجم عن الصلات التجارية ان نمت الصداقة . فطائفة الداوية بما اشتهرت به من نشاط مصرفي ضخم ، أبدت استعدادها للتوسع في اعمالها المصرفية ، حتى تحمل العملاء المسلمين على الاشتراك فيها ، واتخذت عمالاً وموظفين اختصوا بأمور المسلمين . وحدث في الوقت ذاته ان عقلاء رجال السياسة من الفرنج أدركوا ان مملكتهم لن تبقى إلا اذا ظل العالم الاسلامي منشقاً على نفسه ، ولهذا السبب ترددت السفارات بين الفرنج والمسلمين . ولقي كل من السادة من الفرنج والمسلمين عادة الترحيب والتشريف في بلاط كليهما ، على الرغم من الاختلاف في الدين . وطالما اقام الاسرى والرهائن سنوات عديدة في حصون وقصور أعدائهم . ومع انه لم يحفل بتعلم لغة الفرنج (الفرنسية) ، إلا عدد قليل من المسلمين ، فان كثيراً من الفرنج ، من النبلاء والتجار ، كانوا يتحدثون العربية . بل ان منهم فئة قليلة شغفت بدراسة الآداب العربية ، ومن هؤلاء رينالد سيد صيدا . وحرص كل من الجانبين ، أثناء القتال ، على مراعاة قواعد الدماثة والفروسية ، وقد يحدث في زمن السلام ، ان يشترك سادة الاطراف من الجانبين معاً في حملات الصيد [1] .

ولم يكن التعصب الديني بالغ الحدة ، فالديانتان الكبيرتان (الاسلام والمسيحية) اشتركتا في اصول واحدة . ولم يكن المؤرخون المسلمون بأقل اهتماماً من المؤرخين المسيحيين ، حين حدث في حبرون اكتشاف المخلفات

---

(١) عن رينالد سيد صيدا ، انظر ما يلي ، الكتاب الخامس ، الفصل الثاني .

التي اعتقدوا أنها لابراهيم واسحاق ويعقوب[1] . بل حدث في أوقات العداوة ، ان صار بوسع حجاج الفرنج ان يتوجهوا الى ضريح السيدة ساردينااي ، في التلال الواقعة خلف دمشق[2] . وما بذله البدو من حماية لدير القديسة كاثرين في شبه جزيرة سيناء ، امتدت ايضاً الى الزائرين[3] . وما اقدم عليه رينالد شاتيون من إساءة معاملة المسلمين أثار المسيحيين مثلما اغضب صلاح الدين . وأعرب وليم الصوري عن استعداده لتقدير ما اتصف به نور الدين من التقوى ، برغم اختلافهما في العقيدة . وطالما أظهر المؤرخون المسلمون إعجابهم بفروسية الفرنج[4] .

وخير ما يصوّر احوال ذلك العصر ، كتاب الاعتبار الذي ألّفه أسامة ، الذي ينتمي الى بني منقذ امراء شيزر . ولم يكن بنو منقذ سوى اسرة حاكمة صغيرة ، ظلت دائماً تخشى أن يستولي على امارتهم من يجاورهم من الامراء المسلمين الأقوياء . ولذا كانوا دائماً مستعدين لأن يتفاهموا

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, p. 161.

يشير ابن القلانسي الى هذا الكشف . انظر ايضاً :

Kahler : « Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac, et Jacob à Hebron », in Revue de l'Orient Latin, vol. IV. pp. 477 ff.

(٢) انظر : Rey, op. cit. pp. 291 - 296.

(٣) انظر : Ibid, pp. 287 - 291.

(٤) انظر : William of Tyre, XX. 31. p. 1000.

إذ نعت نور الدين بأنه :

« Princeps justus, vafer et providus, et secundum gentis suae traditiones religiosus ».

مع الفرنج ، وأمضى أسامة سنوات عديدة في بلاطي دمشق والقاهرة ، حينما دارت اتصالات دبلوماسية بينها وبين بيت المقدس . وتردد أسامة على بلاد الفرنج ، على انـه رسول او سائح او صياد ، وكان له من بين الفرنج اصدقاء يرتاح الى الحديث معهم ؛ مع انه عند الكتابة عنهم ، حملته تقواه على ان ينعتهم بأن جهنم مثواهم . وأزعجه ما كان لديهم من طب بدائي ساذج ، ومع ذلـك فانه تعلم منهم علاجاً ناجعـاً للسل ، واشتدت دهشته لما أطلقوه لنسائهم من الحرية والإستهتار . وزادت حيرته حين عرض عليه احد معارفه من الفرنج ، بأن يبعث معه ابنه الى غرب اوربا ، ليتلقى العلم . اذ ظن اسامة انهم متبربرون ، فصار هو وأصدقاؤه من المواطنين المسيحيين يسخرون منهم . غير انهم (الفرنج) كانوا قوماً يسهل التفاهم معهم ، ولم تكن العقبة الوحيدة التي تحول دون التفاهم ، سوى الفرنج القادمين حديثاً من الغرب . ويروي أسامة انـه بينما كان يقيم مع الداوية في بيت المقدس ، وبينما كان يؤدي الصلاة في ركن بالمسجد الاقصى بعد استئذانهم ، تعرّض لإهانة جـُـافة من احد الفرسان ، فهرع اليه فارس آخر وشرح له ان هذا الفارس الغليظ قدم حديثاً من اوربا ، ولم يدر حتى الآن ماذا يفعل خيراً من ذلك[١] .

الكنيسة الارثوذكسية :

الواقع ان المهاجرين الذين قدموا للقتـال من اجل الصليب والذين عزموا على ألا يتوانوا عن ذلك ، هم الذين أدى غلظهم وقسوتهم باستمرار

---

(١) انظر : Usuma, ed. Hitti, passim, esp. pp. 161 - 170.

الى تدمير سياسة الشرق الفرنجي . اذ اشتهروا ، بصفة خاصة ، بقوة نفوذهم على الكنيسة . فلم يلِ بطريركية بيت المقدس من اللاتين في القرن الثاني عشر ، بطريرك ولد في فلسطين ، ولم ينشأ بفلسطين من كبـار موظفي الكنيسة ، سوى وليم ، رئيس اساقفة صور ، الذي رفضوا ترشيحه لبطريركية بيت المقدس ، وقلما كان نفوذ الكنيسة في صالح التفاهم مع المسلمين . بل انه كان أبلغ في خطورته ، في العلاقات مع المسيحيين الوطنيين ، وكان للمسيحيين الوطنيين نفوذ كبير في قصور الامراء المسلمين ، فكان منهم كثيرون من أشهر كتّاب العرب وفلاسفتهم ، وكاد الاطباء ان يكونوا جميعاً من المسيحيين ، وكان بوسعهم ان يقيموا جسراً بين العالمين الشرقي والغربي .

وقبلت الفئـات الأرثوذكسية بفلسطين الخضوع لهيئة الكنيسة اللاتينية لما تعرض له كبار رجال الدين الارثوذكس من النفي زمن قدوم الفرنج واستيلائهم على البلاد . وحاول البطريرك دايمبرت ان يحرم رجـال الدين الارثوذكس من وظائفهم بكنيسة القيامة ، غير ان ما وقـع سنة ١١٠١ عند الاحتفال بيوم سبت النور من احداث غريبة ، فضلاً عن نفوذ الملك (بلدوين الاول) ، أعاد رجـال الدين اليونانيين الى الكنيسة ، وأجاز لهم مباشرة الشعائر الارثوذكسية بها . وظل الملوك يتوددون الى الارثوذكس . إذ كانت الملكة مورفيا زوجة بلدوين الثـاني ، ووالدة ميليسند ، أميرة ارثوذكسية ، وكذا كان شأن الملكتين زوجتي ولدي ميليسند . ولقي رئيس دير القديس سابا ، الذي يعتبر اهم من بقي بفلسطين من رجـال الدين الارثوذكس ، معاملة طيبة من بلدوين الاول ، وأوقفت ميليسند الاراضي على دير القديس سابا ، والراجح ان الدير كان يؤدي بعض الخدمات للملك .

ومن الدليـــل على ان الامبراطور مانويل استطاع ان يحافظ على الاهتمام بحماية الارثوذكس ، ما أجراه من اصلاحات في الكنيستين الكبيرتين ، كنيسة القيامة ، وكنيسة المهد . والراجح ايضاً انـــه بفضل مساعدته ، جرت ، حوالي ذلك الوقت ، إعادة بناء وزخرفة دير القديس يوثيميوس في بادية يهودا ، غير ان المودة بين رجال الدين اللاتين واليونانيين لم تزد على ذلك . فلقي الحاج الروسي ، دانيال ، الحفاوة في الأديرة اللاتينية ، سنة ١١٠٤ ، على حين ان الحاج اليوناني ، فوكاس ، الذي زار الاديرة اللاتينية سنة ١١٨٤ ، لم يعجبه من رجال الدين اللاتين ، سوى راهب اسباني ، عاش فترة من الزمن في بـــلاد الاناضول ، وفرح فوكاس حين روى قصة المعجزة التي أثارت الارتباك والحيرة لأحد الكنسيين اللاتين ، الذي نعته بأسقف اللـّد « المتطفل » . والراجح ان محاولة هيئة الكنيسة اللاتينية لحمل الارثوذكس على ان يؤدوا ضريبة العشر ، فضلاً عن سخط الارثوذكس لما كان من اغفال شعائرهم بكنائسهم الكبيرة ، اضعف ميل الارثوذكس ورضاهم عن حكم الفرنج ، وجعلهم مستعدين ، متى انتهت حماية مانويل ، لقبول فتوح صلاح الدين ، والترحيب بها . وما كان بانطاكية من جاليـــة يونانية قوية ، وما حدث بها من تطور سياسي ، أدى الى العداء الصريح بين اليونانيين واللاتين ، الذي زاد في ضعف الامارة [1] .

---

(١) انظر ما أورده دانيال هيجمين ، ويوحنا فوقاس ، عن حجهما ، انظر ايضاً .
Rey, op. cit. pp. 75 - 93.
Cahen, loc. cit.
ولما أشرفت على الموت بفلسطين الحاجة الروسية ، يوفروسين بولوتسك ، طلبت الى رئيس دير القديس سابا ، باعتباره كبير الموظفين الكنسيين الارثوذكس ، ان يعد لها مقبرة مناسبة لها ، انظر :=

أما المذاهب الدينية المخالفة بمملكة بيت المقدس ، التي أقامت لهـــا مواضع بكنيسة القيامة ، فلم يكن لها إلا أهمية ضئيلة خارج بيت المقدس ، ولم ينجح البطريرك دايمبرت في محاولة طردهم منها ، وتولى ملوك بيت المقدس حماية حقوقهم . والواقع ان الملكة ميليسند ساندت السوريين اليعاقبـة ، حينما أقاموا دعواهم على فارس فرنجي [1] . وتعتبر الكنيسة المارونية في كونتية طرابلس اكبر الكنائس المنشقة ، ويعتبر المارونيون آخر من تبقى من المؤمنين بالمذهب المونوثيلي . وحرصت الكنيسة الغربيـة على مراعاة شعور المارونيين والرفق بهم . وحوالي سنة ١١٨٠ وافق المارونيون على قبول سيادة المقرّ الرسولي بروما ، بشرط ان يظلوا محافظين على شعائرهم

Khitrovo : « Pilgrimage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne » , in = Revue de l'Orient Latin, vol. III. pp, 32 - 35 .

وإذ كره الكتاب الارثوذكس المتأخرون ، مثل دوسيثيوس في القرن السابع عشر ، ان يقروا بأن الارثوذكس قبلوا سلطة البطاركة اللاتين بين ١٠٩٩ ، ١١٨٧ ، أعدوا قائمة تشمل ستة او سبعة بطاركة من الارثوذكس في الفترة بين ١٠٩٩ ، ١١٨٧ ، انظر :

(Dositheus, II. p. 1243, Le Quien Oriens Christianus, III. pp. 498-503).

ومن هؤلاء البطاركة ، يوحنا ، بطريرك بيت المقدس الذي اشترك في إدانة سوتيريكوس سنة ١١٥٧ ، ويوحنا بطريرك بيت المقدس ، ولعله هو البطريرك السابق ، الذي كتب رسالة حوالي ذلك الوقت عن اللاتين ، انظر :

Krumbacher, Gesch. der Byz. Literatur, p. 91.

والراجح ان الامبراطور مانويل أعد بطريركاً ارثوذكسياً ليشغل وظيفة بطريرك بيت المقدس متى تم استرجاعها .

وعن الكهنة اليونانيين في كنيسة القيامة ، انظر :

Cartulaire du Saint Sepulchre ed. Roziére, p. 177.

(١) انظر ما سبق ص ٣٧٤ .

وتقاليدهم السريانية ، كما انهم لم يتخلوا عن مذهبهم ، الذي يحمل للمسيح إرادة واحدة . وتولى امر المفاوضات ، التي لم نعلم عنها إلا شيئاً ضئيلاً ، بطريرك انطاكية ، ايمري ، المعروف بكفايته . على ان قبول اول كنيسة انفصالية (مونوثيلتية) ، دلّ على استعداد البابوية لإقرار التقاليد المتفرقة ، فضلاً عن اللاهوت الذي كانت ترتاب فيه ، بشرط ان يتم الاعتراف بسلطتها العليا [١] .

وتعتبر كنيسة الارمن الانفصالية بإمارة انطاكية بالغة القوة ، ولقيت التشجيع من امراء انطاكية ، الذين اتخذوها أداة للإفادة منها في مناهضة الارثوذكس . وعلى الرغم من ان الارمن بكونتية الرها لم يكونوا موطن ثقة بلدوين الاول وبلدوين الثاني ، فانهم نعموا بصداقة بيت كورتيناي . فاعترف عدد كبير من اساقفة الارمن بسيادة البابوية ، وشهد جماعة منهم مجامع الكنيسة اللاتينية ، وتغاضوا عما في العقائد اللاتينية من امور لا تقرّها الكنيسة اليونانية . أما السوريون اليعاقبة فكانوا اول الامر من اشد الناس عداء للصليبيين ، وكانوا يؤثرون الحكم الاسلامي . ثم حدث بعد سقوط الرها ، ان تمّ الوفاق بينهم وبين امير انطاكية ، والسر في ذلك يرجع من الناحية الشكلية الى ما حدث من معجزة في ضريح القديس برسوما ، على انه يرجع فعلاً الى اشتراكهم مع امير انطاكية في كراهية بيزنطة . فبطريرك اليعاقبة ، ميخائيل السرياني ، الذي يعتبر من كبار مؤرخي عصره ، كان صديقاً للبطريرك ايمري ، وقام بزيارة ودّية الى بيت

---

(١) انظر : Dib : « Maronites », in Vacard et Mangenot, Dictionnaire de Théologre Catholique, vol. X. 1.

المقدس. لم يكن بامارات الفرنج سوى هذه الكنائس المخالفة الهامة [1].

وقبل رعايا الفرنج من المسلمين، في هدوء، الخضوع للحكام الجدد، وأقرّوا عدالة إدارتهم، غير انه كلما ساءت امور المسيحيين، كان واضحاً انهم لم يكونوا موضع ثقة الفرنج. أما اليهود فقد توافر لهم من الأسباب القوية ما يجعلهم يؤثرون حكم العرب، الذين أحسنوا دائماً معاملتهم وأظهروا الرفق بهم، برغم ما يشوب ذلك من الازدراء والاحتقار [2].

الترف والبذخ في الشرق الفرنجي:

ارتاع حجاج الغرب المعاصرون لما شهدوه في الشرق الفرنجي من الترف والاستهتار، واشتد أسى المؤرخ الحديث لما ارتكبه الصليبيون من الوحشية المنافية للشرف والمبنية على التعصب. على ان كلا المظهرين يفسرهما الجو السائد في تلك البلاد. إذ ان حيـاة النزلاء الفرنج لم تكن هيّنة سهلة، ولم تكن بنجوة من الاخطار. عاشوا في بلاد ترعرع فيها التآمر والاغتيال، وقد تربص بهم الأعداء عبر الحدود المتاخمة لهم. فما من احد منهم يدري ما سوف يتعرض له من طعنة خنجر بيد احد الفداوية، او ما يتجرّعه من سم من يد احد خدامه. يضاف الى ذلك ما ساد بهذه الجهات من امراض

---

(١) انظر ما يلي، الكتاب الرابع، الفصل الرابع.

(٢) انظر: Ibn Jubayr, ed. Wright, pp. 304 - 305.

اورد الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي احصائيات تثبت ما اصابه اليهود من الرخاء في ظل الحكم الاسلامي.

غريبـــة عليهم ، ولم يعلموا عنها إلا شيئاً ضئيلا . وبرغم نهوض الاطباء المحليين لإسعاف الفرنج ، لم يعمّر الواحد منهم طويلا في الشرق . وكان النساء احسن حظاً من الرجال ، إذ أنهن لم يتعرضن لأخطار المعركة ، ونظراً لتقدم الدراية بالطب ، لم تتعرض حالات الولادة في الشرق ، لمـــا كان معروفاً في الغرب من اخطار . على ان نسبة وفيات الاطفال كانت عالية ، ولا سيما بين الصبيان ، وترتب على ذلك ان اخذت الاقطاعات ، بتوالي وقوعها ، الواحد بعد الآخر ، في ايدي النساء الوريثات ، اللائي أغرين بإرثهن الشبان المغامرين على القدوم من الغرب . على انه حدث في احوال بالغة الكثرة ، ان افتقرت البارونيات الكبيرة الى سيّد ، لحظة وقوع ازمة ، فأضحت المصاهرة موضع نزاع وتآمر . على ان الزيجات كانت في معظمها مجــــدبة ، لم تنجب ذريّة . إذ ان الكثيرين من أشد المحاربين مراساً لم يستطيعوا ان ينجبوا اطفالاً . وما حدث من التصاهر بين الأسرات النبيلة القليلة زاد في المنافسات الشخصية . فاندماج الاقطاعات او تقسيمها لم يخضع للوضع الجغرافي . ووقع الشجار باستمرار بين المستحقين للإقطاع .

وما نقله الفرنج معهم من الغرب من نظام اجتماعي تطلـّب قيام نظام ثابت للوراثة ، وإقامة قوة بشرية كبيرة ، على ان الانهيار البدني للعامل البشري ، كان بالغ الخطورة ، اذ أن الخوف جعل منهم رجالاً قساة يميلون للغدر والخيانـــة ، كما ان القلق شجعهم على الانغماس في اللهو والمباذل . وكلما ضعف اقطاعهم ، أسرفوا في منازلاتهم وتداريبهم العسكرية ، وارتاع الزائرون والوطنيون سواء ، لمـــا شهدوه حولهم من مظاهر البذخ وسوء

الخلق ، وكان البطريرك هرقل من أسوأ المرتكبين لهذه الموبقات [1] .
على ان الزائر العاقل يستطيع ان يدرك ما يختفي تحت هـــذا الغشاء البرّاق من احوال سيئة . فبرغم ما يتحلى به الملك من الحرير والذهب ، كان يفتقر دائماً الى المال لدفع نفقات عساكره . أما فارس الداوية المعتزّ بنفسه ، الذي انصرف الى إحصاء أكياس المال ، فإنه يصح استدعاؤه الى ان يخوض المعارك التي تبلغ من الضراوة والعنف ما لم يشهد لهـــا الغرب مثيلاً . وقـــد ينفض الاحتفال بعرس مثلما حدث في الكرك سنة ١١٨٣ ، حينما نهض عن الموائد الضيوف ، عند سماع قذائف مجانيق المسلمين تدكّ أسوار القلعة . فما غلب على حياة الفرنج بالشرق من المرح والبذخ والدعة ، لم ينفصل إلا قليلاً ، عن الاضطراب والقلق والخوف ، وحقّ للزائر ان يعجب ما اذا كانت المغامرة سوف تعيش طويلاً ، حتى في ظل خيرة الملوك والحكام .

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracle, II. p. 88.
Ernoul, pp. 83 - 87.
Itinerarium Regis Ricardi, pp. 5 - 6.
Caesarius of Heisterbach, Dialogus Miraculorum, I. p. 188.
(يرجع المؤرخ كايزاريوس سقوط بيت المقدس الى فساد الفرنج في الشرق) .

الفصل الثاني

نور الدين

كان ريموند امير انطاكية على حق حينما حثّ قـادة الحملة الصليبية الثانيـة على الزحف على حلب على ان فشله في تحريضهم كلفه ضياع حياته . فالمعروف ان نور الدين كان اكبر عدو للعالم المسيحي ، وكان بوسع جيش كبير ان يسحقه في سنة ١١٤٧ . وعلى الرغم من انه يملك حلب والرها ؛ فلن ينهض لنجدته أنر امير دمشق ، والأمراء الصغـار المستقلون بوادي نهر الاورنت ، كما انه لن يعول على المساعدة من قِبل اخيه سيف الدين ايلغازي بالموصل ، نظراً لما يصرفه عنه من المتاعب في العراق . غير ان حماقة الصليبيين حملت أنر على التحالف مع نور الدين ، طالما استمر الخطر ، وما تهيأ له من الفرصة للتدخل في امور طرابلس ، وطّد سيطرته على وسط بلاد الشام .

على ان دواعي أخرى تذرّع بهـا ريموند للامتناع عن الانحياز الى الحملة الصليبية . اذ ليس بوسعه ، ولا بوسع جوسلين كونت الرها ، ان

يتركا بلادهما مكشوفة لنور الدين . بـــل حدث ان عسكراً من حلب أغاروا على بلاد المسيحيين ، بينما كان الصليبيون ينزلون امام أسوار دمشق . وتوجه كونت جوسلين بنفسه ، بعـد الحصول على الأمان ، الى معسكر نور الدين ، يلتمس منه الرحمـة . على ان كل ما حصل عليه ، لم يتجاوز هدنة مؤقتة [1] . وفي تلك الأثناء ، أفـــاد مسعود سلطان قونية ، الذي انعقد الصلح بينه وبين بيزنطة ، من هزيمة الفرنج ، فهاجم مرعش . وتجهز ريموند امير انطاكية لقتاله ، فلم يسع مسعود إلا ان يطلب من نور الدين ان يصرفه عنه ، بأن يهاجم ممتلكاته ، فاستجاب نور الدين لطلبه ، غير ان ريموند الذي تحالف مع علي بن وفا الكردي زعيم الحشيشية ، الذي أضمر لنور الدين من الكراهية ما يزيد على ما يكنّه للمسيحيين ، قام بهجوم مفاجىء على نور الدين في نوفمبر سنة ١١٤٨ ، في أفامية الواقعـــة على الطريق الممتد من انطاكية الى مرعش ، أثناء قيام نور الدين باجتياح القرى الواقعة في السواد . ووقع الشجار بين اثنين من أكبر قوّاد نور الدين ، وهما شيركوه الكردي ، وابن الداية من اعيـان حلب . ورفض شيركوه ان يشترك في القتال ، واضطر الجيش الاسلامي بأكمله الى المبادرة بالتقهقر المهين . على ان نور الدين أغار من جديد في الربيـع التـالي على البلاد ، وأنزل الهزيمة بريموند في بغراس ، التي لا تبعد كثيراً عن ساحة المعركة السابقة . ثم توجـه جنوباً لينازل حصن إنب ، وهو من الحصون القليلة الواقعة شرقي الاورنت ، والتي ظلت بأيدي الفرنج ، فنهض لنجدة الحصن ، ريموند في جيش صغير ، وجماعة من حلفائه الباطنية بزعامة علي بن وفا .

---

(١) انظر : Cahen : La Syrie du Nord, p. 382.

غير ان نور الدين لم يلبث ان ارتد ، بعد ان وردت اليه أنبـاء خاطئة عن قوة ريموند . والواقـــع ان الجيش الاسلامي المؤلف من ستة آلاف فارس ، كان يفوق في العدد جيش الفرنج الذي تألف من اربعة آلاف فارس ، والف راجل . وقرر ريموند أن يرسل مدداً الى حامية إنب ، ولم يحفل بنصيحة علي بن وفا ، فأدرك نور الدين ما أضحى عليه ريموند من الضعف . وفي ٢٨ يونيو سنة ١١٤٩ ، عسكر الجيش المسيحي ، في منخفض ، قرب عين مراد ، في السهل الواقع بين انب ومستنقع الغاب . وفي أثنـاء الليل زحفت عساكر نور الدين وطوّقت جيش الفرنج وفي صبيحة اليوم التالي أدرك ريموند أنه لا سبيل للنجاة إلا باقتحام صفوف المسلمين . غير ان طبيعة الارض لم تكن في صالحه ، فبينما كان الفرسان يحثون خيولهم لترتقي المنحدر ، هبّت الرياح فأثارت التراب في عيون الفرسان ، ولم تمض إلا ساعات قليلة حتى تعرض جيش ريموند للدمار ، وكان من بين القتلى رينالد سيد مرعش ، وعلي بن وفا زعيم الباطنية (الحشيشية) ، أما ريموند فلقي مصرعه على يد شيركوه ، الذي استعاد بذلك مـا فقده في اقامية من رضي سيده . وأرسل نور الدين ، جمجمة الامير ريموند في صندوق من الفضة ، هدية الى زعيمه الديني الخليفة ببغداد [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 9, pp. 771 - 772.
R. H. F. vol XV. p. 541.
وردت في هذه المجموعة رسالة صنجيل الداوية الى مقدمهم ايفيرارد .
Cinnamus, pp. 122 - 123.
Michael the Syrian, III. pp. 288 - 289.
Chron. Anon. Syr. (Syriac edition) , p. 296.
= Matthew of Edessa, CCLIX. p.329.

جوسلين يقع في اسر نور الدين ١١٥٠ :

وإذ نعم جوسلين كونت الرها بهدنة قلقة مع المسلمين ، رفض الانحياز الى منافسه القديم ، ريموند ، غير ان دوره لم يلبث ان حلّ . إذ توغل نور الدين في اراضي انطاكية كيما تتم له السيطرة على الوادي الاوسط لنهر الاورنت بالاستيلاء على ارزجان وتل كشفان ، ثم تغلب على حاميتي ارتاح وحارم بأقصى الشمال ، ثم توجه نحو الغرب حيث ظهر أمام اسوار انطاكية ذاتها ، وامتدت غاراته حتى بلغت السويدية [1] . ولم يحاول جوسلين ان ينهض لنجدة رفاقه الفرنج ، بل مضى الى مرعش ، يراوده الأمل في الاستحواذ على امارة رينالد ، الذي كان صهراً له ، فدخل المدينة (مرعش) ، غير انه لم يلبث ان انسحب منها حينما اقترب السلطان مسعود بقواته . وأذعن السلاجقة ، الحامية التي خلفها جوسلين في مرعش ، بعد ان ظفرت بالوعد بالإبقاء على حياة المسيحيين ، غير ان رجال الحامية ورجال الدين في مرعش لقوا مصرعهم في مذبحة تعرّضوا لها اثناء اتخاذهم

= Gregory the Priest, p.142.
Ibn al - Qalanisi, pp. 288 - 292.
Abu Shama, pp. 10 - 12.
Ibn al - Furat, loc. cit. (quoted by Cahen, op. cit. p. 382).
أشار الى هذا الموضع بأنه ارض الحطم .

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 10. pp. 774 - 775.
ورسالة ايفيرار التي سبق الاشارة اليها .
Chron. Anon. Syr. (Syriac edition), p. 299.
Ibn al - Qalanisi, p. 293.
Ibn al - Athir, Atabegs, p. 180.

الطريق المؤدي الى انطاكية ، وظل مسعود يطارد جوسلين حتى أطراف تل باشر ، على أن الأمداد المسيحية أخذت تقترب ، ولم يودّ نور الدين ، أن يرى بلاد جوسلين ، الذي مـــا زال يعتبره من اتباعه ، تنتقل الى السلاجقة ، ورأى السلطان مسعود أن من حسن السياسة ان ينسحب من مرعش ، يضاف الى ذلك ان الاراتقــة بالجزيرة ، الذين اوقف نور الدين وأخوته توسعهم جنوبـــاً ، سعوا للتوسع على امتداد نهر الفرات ، على حساب الارمن بكركر ، الذين كانوا من اتباع رينالد سيد مرعش . وبدّد جوسلين جهوده هباء ، بما كان يبذله من مساعدة الى باسيل سيد كركر . إذ أن قره ارسلان الارتقي استولى على كل منطقــة كركر وخرتبرت ، وفرح لذلك المسيحيون اليعاقبة الذين آثروا حكمه على حكم رينالد بمـا اتسم به من محاباة شديدة للأرمن ، وكراهية عنيفة لليعاقبة [١] .

وفي شتاء سنة ١١٤٩ وقع الشقاق بين نور الدين وجوسلين . ولم تثمر هجمات نور الدين الاولى على تل باشر . على انـــه حدث في ابريل سنة ١١٥٠ ، بينما كان جوسلين متوجهاً على متن فرسه الى انطاكية ، للتشاور مع حكومتها ، أن ابتعد عن حرسه ، فوقع في ايدي بعض التركمان المغامرين ، الذين اعربوا عن استعدادهم لإطلاق سراحه ، متى دفع فدية ثقيلة . ولما سمع نور الدين بأمر جوسلين ، ارسل ثلة من الفرسان لانتزاعه من ايدي

---

(١) انظر : Matthew of Edessa, pp. 330 - 331.
Gregory the Priest, p. 162.
Michael the Syrian, III. pp. 209 - 211,

انظر النسخة الأرمنية ص ٣٤٦ .

الذين امروه . فأمر بسمل عينيه وبإلقائه في الحبس بحلب ، حيث ظل به الى ان مات بعد تسع سنوات ، سنة ١١٥٩ [١] .

وبذا لم يحلّ صيف سنة ١١٥٠ ، حتى فقدت سيدها كل من امارة انطاكية وما تبقى من كونتية الرها . على ان نور الدين لم يخاطر بالمضي الى ابعد من ذلك . فحينما بلغ انطاكية نبأ مصرع الامير ريموند ، تولى

---

(١) انظر :
William of Tyre, XVII. 11. pp. 776 - 777.
Matthew of Edessa, CCLIX. pp. 331 - 332.
Michael the Syrian, III. p. 295.
Chron. Anon. Syr. p. 300.
Ibn al - Furat, quoted by Cahen, op. cit. p. 386.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, pp. 523 - 524.
Bustan, p. 544.
Ibn al - Qalanisi, p. 300.
Ibn al - Athir, p. 481.
Sibt ibn el - Djauzi, p. 122.

اختلفت روايات كل هؤلاء المؤرخين عن مصير جوسلين . اذ ان وليم الصوري يشير الى ان جوسلين كان في طريقه الى انطاكية لتلبية طلب البطريرك ، بينما يذكر متى الرهاوي وابن الفرات ان جوسلين توجه الى انطاكية لالتماس المساعدة منها ، وورد في التاريخ المجهول ان جوسلين سار الى انطاكية ليتولى الوصاية على العرش . ويعتبر وليم الصوري ان مقتضيات طبيعة البلاد هي التي عزلته عن حرسه ، بينما يذكر سبط بن الجوزي ان جوسلين وقع في غرام فتاة تركمانية . أما ابن الفرات فأشار الى انه سقط عن ظهر جواده بعد ان اصطدم بشجرة ، اعتبر ميخائيل السرياني هذه الرواية أنها من اوهام ابن الفرات . علما ان المؤرخين السريان اعتبروا أسر جوسلين انتقاماً إلهياً لما أجراه من اضطهاد اليعاقبة ، فيقول المؤرخون السريان ، ان يهودياً عرف هويته . وانفرد التاريخ المجهول بالاشارة الى سمل عينيه ، وأضاف ميخائيل السرياني بأنــه لم يسمح له بأن يتلقى اعترافه كاهن لاتيني ، بل تلقى اعترافه وهو على فراش الموت الاسقف اليعقوبي بالرها .

البطريرك ايمري امر الدفاع عن المدينـــة ، وبعث على الفور الى الملك بلدوين يطلب اليه القدوم لنجدة انطاكية ، ثم حصل من نور الدين على هدنة قصيرة الأمد ، بعد ان وعده بأنه سوف يسلم له انطاكية اذا لم يصل بلدوين . ولقي هذا التدبير استجابه من نور الدين ، نظراً لنفوره من محاولة فرض الحصار على انطاكية ، بينما كان بوسعه في تلك الاثناء أن يستولي على افـــامية ، آخر معقل لأنطاكية بوادي نهر الاورنت . وعجّل بلدوين بالمسير صوب الشمال ، في جيش صغير ، تألف معظمه من الداوية . على ان قـــدوم بلدوين حمل نور الدين على ان يقبل امتداد اجل الهدنة ، وساعـد على منع السلطان مسعود من مهاجمة تل باشر . وعلى الرغم من أنه جرى انقـــاذ انطاكية ، فان امارتها لم تعـد تتجاوز سهل انطاكية ذاتها ، وساحل البحر المتوسط الممتد من اسكندرونة الى اللاذقية [١] .

التنازل عن تل باشر لبيزنطة سنة ١١٥٠ :

لم يبق وقتذاك سوى إقامة حكومة في الامارتين اللتين أضحتا مجردتين من سيديها . إذ ان نور الدين سبق ان هاجم تل باشر عقب أسر جوسلين ، غير ان ما أعدّته زوجته الكونتيسة بياتريس من دفـاع عن المدينة بلغ من القوة ، ما دعا نور الدين الى الانسحاب . ومع ذلك فالواضح انه ليس بوسع تل باشر ان تستمر في صمودها ، إذ اكتظّت بمن لجأ اليها من

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 15, pp. 783 - 784.
Ibn al - Qalanisi, pp. 293 - 294, 300 - 301.

المناطق المتاخمة من اللاجئين الفرنج والارمن . ولم يكن المسيحيون اليعاقبة موالين للفرنج ، كما ان فتوح نور الدين عزلت كل المنطقة عن انطاكية . وإذ تهيأت الكونتيسة للتخلي عن بلادها ، جاءتها رسالة من الامبراطور البيزنطي مانويل . أدرك مانويل الوضع في تل باشر ، فعرض ان يشتري من الكونتيسة ما تبقى من بلاد كونتية الرها . ورأت الكونتيسة بياتريس انه لا بد ان ترفع هذا الطلب الى الملك بلدوين ، الذي كان وقتذاك بانطاكية . وتناقش في هذا العرض ، من كان برفقته من بارونات مملكة بيت المقدس فضلاً عن بارونات انطاكية . وكرهوا جميعاً تسليم البلاد الى يوناني بغيض عندهم ، غير انهم قرروا بأنه اذا فقدَ العالم المسيحي هـــذه المواضع ، فسوف يكون ذلك راجعاً على الاقل الى خطأ الامبراطور . على ان توماس ، حاكم قليقية البيزنطي حمـل الى الكونتيسة بياتريس بانطاكية ، أكياساً كثيرة من المال ، ليس معروفاً عددها على وجه التحقيق ، فسلمت الكونتيسة لجنوده مقابل ذلك المعاقل الستة : تل باشر ، وراوندان ، وسميساط ، وعين تاب ، ودُلوك ، والبيرة . وصحب جيش الملك الحاميات البيزنطية أثنـاء سيرها الى هـــذه المعاقل ، وتولى حراسة عدد كبير من اللاجئين الفرنج والارمن الذين نفروا من الحكم البيزنطي ، وآثروا عليه السلامة الكبرى في انطاكية . واستبقت الكونتيسة حصناً واحداً لم تعرضه للبيع ، وهو قلعة الروم ، عـلى نهر الفرات قرب سميساط ، إذ منحته للجاثليق الارمني ليتخذه مقراً له . وبقيت قلعة الروم مقراً له نحو قرن ونصف في ظل السيادة التركية . وبينما كان الجيش الملكي واللاجئون يتخذون طريق العودة ، حاول نور الدين ان يباغتهم في عين تاب ، غير ان ما بلغه تنظيم الجيش الملكي من الروعة والتفوّق كفل المحافظة عليهم . ولم تجـــد نفعاً

توسلات اثنين من كبار بارونات الملك ، وهما همفري سيد تبنين ، وروبرت سيد سورديفال ، في ان يسمح لهما بامتلاك عين تاب باسمه . اذ انه التزم بما بذله من عهد للامبراطور [1] .

على انه ليس معروفاً على وجه التحقيق السر الذي حمل الامبراطور البيزنطي على شراء هذه الحصون . اعتقد الفرنج ان الامبراطور بما اتصف به من الكبرياء زعم انه بوسعه الاستيلاء عليها . وليس من الراجح ان مصادر معلوماته لم تكن سليمة ؛ بل تطلع الى ما هو ابعد من ذلك ، إذ كان يأمل قبل زمن طويـل في القدوم على رأس جيش الى الشام ، حتى اذا فقد هـــذه الحصون ، أضحى بوسعه عندئذ ان يستردها ، فلا ينازعه احد في دعواه . والواقع انه في اقل من سنة اضاع هذه الحصون ، بعد ان انعقد التحالف بين نور الدين والسلطان مسعود السلجوقي . اذ تمّ هـــذا التحالف غداة أسر جوسلين ، وأكـّده زواج نور الدين من ابنة

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 16 - 17, pp. 784 - 789.
لم يشر المؤرخون البيزنطيون الى هذه الصفقة .
عن تحديد تاريخ هذه الصفقة ، والأدلة الاسلامية انظر :
Cahen, op. cit. p. 388, n. 24.
Michael the Syrian, III. p. 297.
(ولا سيا النسخة الارمنية ، ص ٣٤٣) .
Vartan, p. 435.
Vahram, Rhymed Chronicle, p. 618.
يشير بهرام الى التنازل عن قلعة الروم الى جاثليق الأرمن . أما ميخائيل السرياني فيقول ان الكونتيسة طلبت الى الجاثليق ان يبذل المساعدة لأمير أرمني في قلعة الروم ، غير ان الجاثليق استطاع بالخديعة والحيلة ان يستقر بها .

مسعود ، ولم يكن المهر سوى تل باشر . غير ان مسعوداً لم ينحاز الى صهره ، نور الدين ، حين هاجم بياتريس ، بينما اكتفى بالاستيلاء على كيسوم وبهسنا بشمال كونتية الرها ، ثم بذلها لابنه قلج ارسلان . على انه حدث في ربيع سنة ١١٥١ ان اشترك مسعود مع نور الدين في شن الهجوم على الحاميات البيزنطية ، وهرع اليها الأمراء الأراتقة ، ليأخذوا بنصيبهم في هذا الهجوم ، فسقطت عين تاب ودلوك في يدي مسعود ، بينما استولى تمرتاش الأرتقي امير ماردين على حميساط والبيرة ، ووقعت راوندان في يدي نور الدين . على ان البيزنطيين في تل باشر ظلوا على مقاومتهم فترة من الزمن ، وإذ أوشكوا ان يهلكوا جوعاً ، لم يسعهم إلا الاستسلام ، في يوليو سنة ١١٥١ [١] ، الى حسان صاحب منبج ، نائب نور الدين . فزال بذلك كل مـــا تبقى من أثر لكونتية الرها . ولجأت الى بيت المقدس الكونتيسة بياتريس بطفليها جوسلين وأجنس اللذين سوف يقومان في الوقت المناسب بدور بالغ الخطورة في سقوط بيت المقدس [٢] .

---

(١) انظر : William of Tyre, loc. cit.
Bar Hebraeus, trans. Budge, p. 277.
Michael the Syrian (النسخة الأرمنية), p. 297.
Ibn al - Qalanisi, p. 309.
Ibn al - Athir, Atabegs, p. 132.
(أخطأ ابن الأثير في تحديد التاريخ) .

(٢) الراجح ان ازابيلا ابنة جوسلين الثاني الاخرى،قد ماتت. (انظر ما سبق ص ٣٠٥)، على الرغم من ان وليم الصوري (ص ٧٧٧) يشير عند وفاة جوسلين الى أنهـــا لا زالت على قيد الحياة .

كونستانس اميرة انطاكية وخطّابها سنة ١١٥٠ :

وإذ اختفت كونتية الرها ، ما زالت انطاكية قائمـــة . مات ريموند امير انطاكية ، وخلّف وراءه ارملة ، الاميرة كونستانس بأطفالها الاربعة . أضحت كونستانس اميرة على انطاكية بحكم حقها الشرعي ، غير أنه ساد الشعور بأنه لا بد لأنطاكية ، في هذه الأحوال ، ان يحكمها رجل . إذ لم يتجاوز ابنها بوهمند الثالث ، عند وفاة ابيه ، الخامسة من عمره . فلا بد ان يتولى الوصاية على العرش رجل ، حتى يبلغ بوهمند سن الرشد . على ان ايمري بطريرك انطاكية تولى ادارة الحكومة في وقت الأزمة ، غير ان رأي العلمانيين يكره فكرة ان يتولى الوصاية احـــد رجال الدين . والواضح ان الاميرة كونستانس الشابة لا بد ان تتزوج من جديد ، وفي الوقت ذاته ، يعتبر ابن خالتها بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس أصلح وصي على العرش ، باعتباره أدنى الأقرباء الذكور لهـا ، لا على انه سيد أعلى . عجّل بلدوين بالمسير الى انطاكية عنـد سماعه بخبر وفاة ريموند . والتزم بلدوين في معالجة الموقف من الحكمة ما يندر عند شاب لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره ، فلقيت سلطته القبول من جميع الناس . عاد الى بيت المقدس في أوائل صيف سنة ١١٥٠ ليصدّق على ما أجرته الكونتيسة بياتريس من بيع بلادها . غير ان المتاعب والمضايقات بالجنوب بلغت من الكثرة ، ما يحول دون تحقيق رغبته في المضي في تحمّل المسؤولية عن حكم انطاكية . فألحّ على كونستانس التي لم تتجاوز الحادية والعشرين من العمر ، ان تختار زوجاً آخر ، واقترح عليها ثلاثة عرسان تختار واحـداً منهم ، الأول : إيفز نِسْل ، كونت سواسون ، وهو نبيل فرنسي ثري ، قدم الى فلسطين عقب الحرب الصليبية الثانية ، وأعرب عن استعداده لأن يتخذ

مقامه بهـا . أما المرشح الثاني فكان والتر فولكونبيرج الذي ينتمي الى أسرة سانت أومر ، التي كان لها في الماضي إمرة اقليم الجليل ، وكان المرشح الثالث ، رالف ميرل ، وهو بارون لامـــع من بارونات كونتية طرابلس . غير ان كونستانس لم تقبل أياً من هؤلاء المرشحين ، وكان لزاماً على بلدوين ان يعود الى بيت المقدس ، بعد ان ترك بجوزتها حكومة انطاكية [1] .

وإذ أثار كونستانس إلحاح ابن خالتها (بلدوين الثالث) في الطلب ، بادرت الى تغيير سياستها ، فأنفذت سفارة الى القسطنطينية تطلب من الامبراطور مانويل ، باعتباره سيدها الأعلى ، ان يختار لها زوجاً [2] . كان مانويل حريصاً على ان يستجيب لرغباتها ، إذ ان النفوذ البيزنطي أخـذ يتداعى على الطرف الجنوبي الشرقي للامبراطورية . فحوالي سنة ١١٤٣ هرب الامير الارمني ، ثوروس الروبيني من القسطنطينية ، ولجأ الى بلاط ابن خاله ، جوسلين الثاني كونت الرها ، وحشد حوله جماعة من مواطنيه الارمن ، استطاع بهم ان يسترد فاهكا ، معقل أسرته ، الواقع في جبـال طوروس الشرقية . وانحاز اليه أخواه ، ستيفن ومليح ، وعقد الصداقة مع سيد فرنجي مجاور ، هو سيمون صاحب رعبان ، فتزوج من ابنته . وفي سنة ١١٥١ اغتنم فرصة انصراف البيزنطيين الى ما وقع من هجوم المسلمين

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 18, pp. 789 - 791.
يشير وليم الصوري الى ان البطريرك ايمري هو الذي شجع كونستانس على ان ترفض الذين تقدموا للزواج منها ، حتى لا تضعف سلطته .

(٢) انظر : Cinnamus, p. 178.

على تل باشر ، فانساب في سهل قليقية ، وأنزل الهزيمة بالحاكم البيزنطي توماس وذبحه على ابواب المصيصة . فأرسل مانويل على الفور جيشاً بقيادة ابن عمه ، اندرونيق ، ليسترد الاراضي التي استولى عليها ثوروس ، وحانت وقتئذ الفرصة المناسبة ليفرض مرشحه على عرش انطاكية .

على ان كلتا الخطتين باءتا بالفشل . فعلى الرغم من ان اندرونيق كومنين كان ألمع افراد أسرته الموهوبة وأكثرهم جاذبية ، فإنه اشتهر بالطيش والاهمال . فحينما تحرّك لحصار ثوروس في المصيصة ، شنّ الارمن هجوماً مفاجئاً ، فأخذوه على غرة . فحلّت بجيشه هزيمة ساحقة ، وولى اندرونيق الأدبار الى القسطنطينية خاسراً . والواقع ان مانويل حرص عند اختيار زوج لكونستانس على ان يظهر من براعته في التدبير والكياسة ما يزيد على تقدير الاحساس والشعور . فأنفذ الى كونستانس صهره القيصر يوحنا روجر ، الذي ترمّل على اخته ماريا الأثيرة عنده . وكان يوحنا روجر نرمانياً بحكم المولد ، وعلى الرغم من انه تآمر ذات مرة من اجل الاستحواذ على عرش الامبراطورية البيزنطية ، فإنه أثبت وقتذاك على انه صديق مخلص للامبراطور ، الذي أدرك ان بوسعه ان يركن الى ولائه وإخلاصه ، غير انه اعتقد ايضاً ان أصله اللاتيني سوف يجعله مقبولاً عند نبلاء الفرنج ، على انه نسي كل شيء عن كونستانس ذاتها . كان يوحنا روجر في ربيع العمر فعلاً ، وفقد كل ما ينطوي عليه الشباب من سحر وجاذبية . أما الاميرة الصغيرة (كونستانس) ، التي اشتهر زوجها السابق بالوسامة ، فلم تحفل بهذا الرفيق الذي تجرّد من الجاذبية والجمال . فأمرت القيصر يوحنا روجر بالعودة الى الامبراطور . وكان خيراً لمانويل لو أنه بعث بأندرونيق

الى انطاكية ، ووجه يوحنا روجر للقتال في قليقية [1] .

مصرع ريموند الثاني كونت طرابلس سنة ١١٥٢ :

كان الملك بلدوين يرحّب بأي زوج لابنة خالته كونستانس ، لأنـــه تحمّل منذ زمن قريب مسؤولية جديدة . ذلك ان ريموند الثاني كونت طرابلس لم يكن سعيداً في حياته الزوجية مع هوديرنا ، احدى اميرات بيت المقدس . إذ لم تختلف هوديرنا عن شقيقتيها ميليسيند وأليس في العناد والميل الى المرح . وتهامس الناس بالشكوك حول شرعية ابنتها ميليسيند . وإذ اشتدّت غيرة ريموند عليها ، حاول ان يفرض عليها التزام الدار على ما هو معروف بالشرق . على ان حدث في اوائل سنة ١١٥٢ ان بلغت العلاقات بينهما من السوء ، ما جعل الملكة ميليسيند تدرك ان من واجبها ان تتدخل . فارتحلت مع ابنها الملك الى طرابلس لإعادة الوفاق بينهما . واغتنم بلدوين الفرصة فدعا كونستانس للقـــدوم الى طرابلس ، حيث تعرّضت للتأنيب والتقريع ، من خالتيها ، على عنادها في البقـاء أرملة . غير ان دروس الخالتين لم تجدِ نفعاً ، ولعل ذلك راجع الى ان كلاً منهما لم تحرز نجاحاً ملموساً في حياتها الزوجية . عادت كونستانس الى انطاكية

---

(١) انظر :

Cinnamus, pp. 121 - 124, 178.
Matthew of Edessa, CCLXIII. pp. 334 - 336.
Gregory the Priest, p. 166.
Sembat the Constable, p. 619.
Vahram, Rhymed Chronicle, pp. 504 - 506.
Michael the Syrian, III. p. 281.

دون ان تبذل شيئاً من الوعود . غير ان الملكة ميليسيند كانت شديدة التأثير على ريموند وهوديرنا ، إذ وافقا على تسوية ما وقع بينهما من شجار ، غير انه تراءى انـــه من الخير ان تنعم هوديرنا بإجازة طويلة في بيت المقدس . وقرّر بلدوين ان يبقى في طرابلس فترة من الزمن ، لمـا تردد من شائعات بأن نور الدين يزمع الهجوم على كونتية طرابلس . أما الملكة ميليسيند والكونتيسة هوديرنا ، فاتخذتا طريقهما صوب الجنوب ، ورافقهما الكونت (ريموند الثاني) نحو ميل او اكثر . وبينما كان الكونت يجتـاز عند عودته المدخل الجنوبي لعاصمته ، وثب عليه جماعة من الحشيشية ، فطعنوه فأصابوا منه مقتلاً . ولما حاول رالف ميرل وفارس آخر ، اللذان كانا بصحبته ، ان يدافعا عنه ، لقيا ايضاً مصرعهما . وانتهى كل شيء في سرعة عجز معها حرسه عن القبض على الجناة . وكان الملك يلعب النرد في القلعة حينما تعالت الصيحات من تحته من المدينة . واندفع رجـــال الحاميـــة بسلاحهم ، وتدفقوا على الشوارع يذبحون كل من يشاهدونه من المسلمين . غير ان الحشيشية لاذوا بالفرار ، ولم يُعرف الباعث على اقترافهم هذه الجريمة [١] .

وجرى إنفـــاذ الرسل لإعادة الملكة والكونتيسة ، فتولت هوديرنا الوصاية باسم ابنها ريموند الثالث ، الذي ناهز الثانية عشرة من عمره . غير انه حدث في طرابلس مثلما حدث في انطاكية ، ان الحاجة كانت ماسة لرجل ليتولى الاشراف على حكومتها ، وكان لزاماً على بلدوين ان يتولى

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 18 - 19, pp. 789 - 792.

الوصاية ، باعتباره أدنى الأقـــارب الذكور . وبادر نور الدين على الفور فأوغل في غاراته حتى بلغ انطرطوس التي احتفظ بها عساكره فترة من الزمن ، غير انهم لم يلبثوا ان طُردوا منها ، ثم قام بلدوين بموافقة هوديرنا بتسليم انطرطوس الى فرسان الداوية [1] .

الملكة ميليسيند تنصاع لابنها سنة ١١٥٢ :

فرح بلدوين بعـــد ان صار بوسعه ان يعود الى بيت المقدس ، وإذ اشتد إحساس الملكة ميليسيند بحقها في وراثة الحكم ، لم تشأ ان تتنازل عن السلطة لابنها . على ان ابنها بلدوين تجاوز وقتذاك الثانية والعشرين من عمره ، وطالب الرأي العـــام بتتويجه ملكاً رشيداً . غير ان الملكة اتفقت مع البطريرك فولشر على ان يتوّجها من جديـد الى جانب ابنها بلدوين ، حتى يتجلى الاعتراف باشتراكها في الحكم . وتقرر ان يجري التتويج في يوم احـد القيامة ، ٣٠ مارس ، سنة ١١٥٢ ، غير ان بلدوين أرجأه . ولما لم يساور الملكة شيء من الريبة ، دخل بلدوين يوم الثلاثاء الى كنيسة القيامة في حرس من الفرسان ، وأجبر البطريرك الذي استبدّ به الغضب ، على ان يتوّجه وحده . كان ذلك إيذاناً بالقطيعة الصريحة . إذ كان للملكة أصدقاء عديدون ، منهم مناسيس هييرج ، الذي لا زال كندسطبلا ، وشملت صلات أسرته ، عشيرة ايبلين الكبيرة ، التي صارت لها السيطرة على كل السهل الفلسطيني ، يضاف الى ذلـــك ان عدداً كبيراً من نبلاء جنوب

---

(١) انظر : Ibid, loc. cit.
Ibn al - Qalanisi, p. 312.

فلسطين ينتمون الى حزبه . والملحوظ أنه حينما توجه بلدوين الى انطاكية ، سنة ١١٤٩ ، لم يقبل إلا عــدد قليل من النبلاء على الاشتراك في حملة لم ترضَ عنها الملكة . أما اصدقاء الملك بلدوين فجاؤوا من الشمال ، بقيادة همفري سيد تبنين ووليم فولكونبيرج ، اللذين تقع ضياعهما بالجليل . لم يجسر الملك على الالتجاء الى استخدام القوة ، فدعا الى عقـــد مجلس المملكة الكبير ، ودافع امامه عن دعاويه . وبفضل نفوذ رجال الدين ، كان لزاماً عليه ان يقبل حلاً وسطاً ، بأن تتألف مملكته من الجليل والشطر الشمالي (من مملكة بيت المقدس) ، على ان تحتفظ ميليسيند لنفسها ببيت المقدس ذاتها ونابلس، فحازت بذلك اقليمي يهوذا والسامرة ؛ أما الساحل، حيث تولى كونتية يافا اماريك ، الأخ الاصغر للملك بلدوين ، فخضع لسيادتها . لم يكن ذلك حلاً مقبولاً . فلم تمض إلا شهور قليلة ، حتى طلب الملك من امه التنازل عن بيت المقدس . إذ قال انه ليس بوسعه ان يتولى الدفاع عن المملكة ما لم تكن بيت المقدس بحوزته . وإذ أخذت قوة نور الدين تزداد يوماً بعد يوم ، اشتد النزاع ، فأخذ يتخلى عن مساندة الملكة خيرة أنصارها . غير ان الملكة أصرّت على موقفها ، وشرعت في تحصين بيت المقدس ونابلس لمناوأة ابنها . على انه لسوء حظ الملكة ، شنّ جند الملك هجوماً فجائياً على الكندسطبل مناسيس فأسروه في قلعته ، ميرابل [١]

---

(١) يشير جاي ليسترانج الى ان كفر سلام التي تقع على مسافة أربعة فراسخ من قيسارية على الطريق الى نابلس، تطابق‌ما كان معروفاً في‌التواريخ الصليبية بإسم قلعة ميرابل (Mirabel) ، ومكانها حالياً رأس العين . انظر :

Guy Le Strange, Palestine under the Moslems, p. 472.

(كفر سلّام) ، على حافة السهل الساحلي . ولم يبقِ على حياته إلا وعده بمغادرة الشرق ، على ألا يعود اليه مطلقاً . وعندئذ استسلمت نابلس للملك ، وحاولت ميليسيند ان تمتنع في بيت المقدس ، بعد ان تخلى عنها النبلاء العلمانيون ، ولم يبق على مساندتها سوى البطريرك . غير ان اهل مدينة بيت المقدس خرجوا على طاعتها ، وأجبروها على ان تكف عن النضال ، فسلمت المدينة بعد ايام قليلة الى ابنها . على ان الملك لم يتخذ معها اجراء عنيفاً ، وذلك لأن رجال القانون رأوا فيما يبدو ان الحق ، إن لم تكن الفطانة ، كان في جانبها . فأجاز لها ان تحتفظ بنابلس وما يجاورها من الجهات ، معاشاً لها . وعلى الرغم من ان الملكة انسحبت من امور السياسة الدنيوية ، فإنها احتفظت برعايتها للكنيسة . أما بلدوين الذي صارت له وقتذاك السيادة العليا على الحكومة ، فإنه جعل صديقه همفري سيد تبنين كندسطبلا مكان مناسيس[1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 13 - 14, pp. 779 - 783.

صارت نابلس بحوزة فيليب ميلي احد انصار الملكة . غير انه حاز بارونية شرقي الاردن بدلاً من نابلس ، قبل اسابيع قليلة من وفاة الملكة ميليسيند . انظر :
Röhricht, Regsta, p. 96.

ولم تستشر الملكة في هذا الموضوع نظراً لاشتداد المرض عليها ، غير ان اختها هوديرنا أرملة كونت طرابلس أقرّت ما حدث . والراجح ان فيليب حاز اراضيه من الملكة ميليسيند لا من الملك ، ولم يستطع بلدوين ان يجري التغيير إلا حين كانت الملكة على فراش الموت . وكان يقصد من وراء ذلك ان يحرمها من صديقها ومن أكبر تابع لها . وكانت ايزابيلا او اليزابيت زوجة فيليب ، ابنة اخ لباجان سيد شرقي الاردن ، وبذا تعتبر وريثة لخلفه موريس . فلما ماتت التحق فيليب بالداوية . أما ولتر بريسيبار الثالث زوج ماريا اخت ايزابيلا وسيد بيروت ، فأضحى فيما بعد سيد بارونية شرقي الاردن ، التي استبدلها ببيروت . والراجح أنه فقد الاقطاع (شرقي الاردن) عند وفاة زوجته وابنتها الطفلة ، فانتقل هذا الاقطاع الى يد ستيفاني ابنة فيليب ، انظر :
Rey : Les Seigneurs de Montreal .
Les Seigneurs de Beirut, passim .

اشتد فرح نور الدين لما وقع في أسرات الفرنج الحاكمة من اضطرابات أسرية . على انه لم يحفل بتوجيه هجمات عنيفة أثناء تلك السنوات ، الى المسيحيين ، اذ كان لزاماً عليه ان يتم عملاً يفوق ذلك أهميـــة ، وهو الاستيلاء على دمشق . ظل أنر ، بعـد فشل الحرب الصليبية الثانية يشن حرباً عشوائية على المسيحيين ، لبضعة شهور ، غير ان خوفه من نور الدين جعله يرحب بقبول الدخول في مفاوضات للصلح مع بيت المقدس . فتقرر في مايو سنة ١١٤٩ عقد هدنة لمدة سنتين ، غير ان أنر لم يلبث ان مات بعد فترة قصيرة ، في اغسطس سنة ١١٤٩ ، فتولى زمام الحكم مجير الدين ، ابن بوري ، حفيد طغتكين ، الذي كان أنر يحكم باسمه [1] . على ان ضعف مجير الدين هيأ الفرصة لنور الدين ، ولكنه لم يبادر الى القيام بعمل من الاعمال ، نظراً لوفاة اخيه سيف الدين في نوفمبر ، وما تلى ذلك من إعادة تنظيم أملاك الأسرة . إذ ورث اصغر اخوته ، قطب الدين ، الموصل وما يقع من اراضيهم في العراق ، غير انــه ، فيما يبدو ، اعترف بزعامة نور الدين [2] . وفي شهر مارس من السنة التالية زحف نور الدين على دمشق ، غير ان هطول الامطار عطّل سيره ، وأتاح الفرصة لمجير الدين لأن يطلب المساعدة من بيت المقدس . ولم ينسحب نور الدين إلا بعـد ان حصل على وعد من مجير الدين بأن ينقش اسمه على النقود ، ويذكر

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, p. 295.

مات أنر بالدوسنطاريا .

(٢) انظر : Ibn al - Athir, Atabegs, pp. 171 - 175.
Ibn al - Qalanisi, pp. 295 - 296.
Cahen, op. cit. p. 393. note 12.

اسمه في خطبة الجمعة بدمشق بعد اسم الخليفة العباسي واسم السلطان السلجوقي بفارس ، وبهذا جرى الاعتراف له بحقوق في سيادة عليا غامضة [1] .

وفي مايو سنة ١١٥١ ظهر نور الدين مرة اخرى امام دمشق ، وقدم الفرنج من جديد للنجدة . وبعد ان أمضى نور الدين نحو شهر في حملته قرب دمشق ، انسحب الى الجهات المجاورة لبعلبك ، التي كان يحكمها ايوب شقيق قائده أسد الدين شيركوه . وفي تلك الأثناء تحرّك الملك بلدوين بالفرنج الى دمشق . وحصل عدد كبير من الفرنج على إذن بزيارة الأسواق بداخل أسوار المدينة ، بينما قام مجير الدين بزيارة ودّية للملك في المعسكر المسيحي . غير ان الحليفين لم يكونا من القوة ما يكفي للمضي لمطاردة نور الدين . فاستعاضا عن ذلك بالزحف على بصرى ، التي قبل اميرها ، سرخاك في تمرّده على دمشق ، المساعدة من نور الدين . ولم تظفر الحملة بشيء من النجاح ، غير ان سرخاك ، الذي لم يختلف عن سائر صغار الأمراء المسلمين فيما اتصفوا به عادة من الخفة وسرعة التقلّب ، لم يلبث ان اتخذ من الفرنج اصدقاء ، وكان لزاماً على مجير الدين ان يلتمس من نور الدين المساعدة لإرغامه على الإذعان والخضوع . غير انه لما توجّه نور الدين نحو الشمال مرة اخرى ، تبعه مجير الدين في زيارة الى حلب ، حيث تم توقيع معاهدة صداقة بينهما [2] . على ان اهل دمشق ما زالوا

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 97 - 300.

(٢) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 302 - 311.

يرفضون التخلي عن تحالفهم مع الفرنج . ففي ديسمبر سنة ١١٥١ حاولت جماعة من التركمان الإغارة على بانياس ، والراجح ان جرى ذلك بناء على أوامر ايوب (امير بعلبك) . وردّت حامية بانياس بأن أغارت على بلاد بعلبك ، فردّها ايوب على اعقابها . وحرص مجير الدين على ان ينكر كل صلة له بالحرب [١] . واستبدت الحيرة بمجير الدين حين ظهر فجأة في خريف سنة ١١٥٢ ، تمرتاش بن ارتق امير ماردين ، بجيشه من التركمان ، الذين أرهقهم بالسير حول حافة الصحراء ، فطلب المساعدة من مجير الدين للقيام بهجوم مفاجيء على بيت المقدس . والراجح ان تمرتاش سمع بما حدث من شجار بين بلدوين وميليسيند ، واعتقد ان ضربة جريئة قد تصيب ، ووافق مجير الدين على ان يشتري ما يريد من المؤن ، غير انه سعى لمنعه من المضي في سيره . وعندئذ اندفع تمرتاش عبر الاردن ، وأقام معسكره على جبل الزيتون ، بينما كان بارونات الفرنج يشهدون مجلساً في نابلس ، لا بد انه كان ينظر في تدبير معاش ميليسيند . غير ان حامية بيت المقدس شنت هجوماً مفاجئاً على التركمان الذين انسحبوا الى الاردن بعد ان تبين لهم فشل هجومهم المباغت . وعلى هذا النهر انقض عليهم جيش مملكة بيت المقدس وأحرز النصر النهائي [٢] .

المؤامرات في مصر سنة ١١٥٠ :

في أثناء الشهور التالية تحوّل اهتمام المسلمين والمسيحيين سواء الى

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 311 - 312.

(٢) انظر : William of Tyre, XVII. 20, pp. 792 - 794.

مصر . إذ ان الخلافة الفاطمية كانت فيما يبدو على وشك الإنهيار التام . فلم يلِ الوزارة رجل كفء منذ مصرع الوزير الافضل . وظل الخليفة الآمر يحكم حتى لقي مصرعه ايضاً في اكتوبر سنة ١١٢٩ ، غير ان الحكومة سيّرها طائفة من الوزراء الضعاف . وأثبت الحافظ ابن عم الآمر الذي تولى الخلافة بعده ، بأنه لأقوى شخصية ، فحاول ان يتخلص من قيود الوزارة بأن عيّن ابنه الحسن في هذا المنصب . وإذ لم يكن الحسن مخلصاً ، أمر ابوه ، في سنة ١١٣٥ ، بإعدامه . فتلاه في الوزارة بهرام ، الأرمني الاصل ، فملأ المناصب الإدارية بأهل وطنه ، الارمن ، وأثار بذلك في سنة ١١٣٧ ردّ فعل ، فظلت دماء المسيحيين تجري اياماً في شوارع القاهرة . ولم يكن الحافظ بأحسن حظاً مع الوزراء المتأخرين ، على الرغم من انه ظل شديد التعلق بعرشه المحفوف بالخطر ، حتى مات سنة ١١٤٩ . واستهل حكم ابنه الظافر بما نشب من حرب اهلية بين اكبر قائدين عنده ، على ان الامير ابن السلار هو الذي ظفر فأضحى وزيراً ، ولكنه لقي مصرعه ايضاً بعد ثلاث سنوات [١] .

والواقع ان هذه القصة التي لا نهاية لها عن التآمر وسفك الدماء أنعشت آمال أعداء مصر . ففي سنة ١١٥٠ شرع الملك بلدوين في عمارة استحكامات غزة . والمعروف ان عسقلان ما زالت من معاقل الفاطميين ، وما زالت حاميتها تدأب على شن الاغارات على البلاد المسيحية . وكان لا بد من اتخاذ غزة قاعدة لتوجيه الأعمال الحربية الى عسقلان . فاشتد حذر

---

(١) انظر : Wiet, l'Egypte Arabe, pp. 190 - 195.

الوزير ابن السلاد ، وقد لجأ الى البلاط الفاطمي الأمير أسامة بن منقذ الذي سبق ان كان في خدمة زنكي . فتقرر إنفاذه الى نور الدين الذي أقام معسكره وقتذاك امام دمشق ، ليطلب اليه أن يهاجم الجليل حتى يصرف الفرنج عن مصر ؛ على ان يقوم الاسطول المصري في تلك الاثناء بمهاجمة مواني الفرنج . لم تفلح السفارة ، لانصراف نور الدين الى أمور اخرى . وتوقف أسامة اثنــــاء عودته في عسقلان ، وظل سنتين يقود العمليات الحربية على الفرنج المحليين ، ثم عـــاد الى مصر ، كيما يشهد المؤامرات التي تلت مصرع ابن السلار على يـــد ابن زوجته عباس ، بتواطؤ الخليفة [1] .

سقوط عسقلان في أيدي الفرنج سنة ١١٥٣ :

هذه المأساة التي تلت مباشرة انتصار الملك بلدوين على أمه ، حملته على أن يقرر مهاجمة عسقلان . اشتد اهتمام بلدوين فيما أعـده من تدابير واستعدادات ، حتى اذا كان يوم ٢٥ يناير سنة ١١٥٣ ، ظهر أمام اسوار عسقلان جميع جيش مملكة بيت المقدس ، بكل ما استطاع الملك أن يجمعه من ادوات الحصار . وصحب الملك في هذه الحملة ، مقدمـــاً الاسبتارية والداوية بفرسانها المختارة ، وكبار السادة الاقطاعيين العلمانيين بالمملكة ،

---

(١) انظر : Usama ed. Hiti, pp. 40 - 43.
Ibn al - Qalanisi, p. 314.
أورد ابن القلانسي رواية الغارة المصرية على الساحل الفرنجي في سنة ١١٥١ ، كما أشار الى غارة المصريين من عسقلان في أبريل ١١٥٢ ، انظر :
Ibn al - Qalanisi, pp. 307 - 308 , 312.

وبطريرك بيت المقدس ، ورؤساء اساقفة صور وقيسارية والناصرة ، وأسقفا بيت لحم وعكا . واصطحب البطريرك أثر الصليب المقدس .

وتعتبر عسقلان من امنع الحصون ، بامتدادها من البحر في هيئة نصف دائرة كبيرة ، وبفائق عمارة استحكاماتها ، فضلاً عن حرص الحكومة المصرية على أن توفر بها دائماً الذخائر والمؤن . وعلى الرغم من أنه كان بوسع جيش الفرنج ان يفرض عليها حصاراً كاملاً ، غير أنه ظل شهوراً لم يستطع اثناءها ان يلحق شيئاً من الضرر بأسوارها . وما وصل في عيد القيامة من سفن تقل الحجاج اضافت امداداً الى صفوف جيش الفرنج . غير أنه حدث مقابل ذلك ان وصل الاسطول المصري الى عسقلان في يونيه سنة ١١٥٣ . لم يغامر الفاطميون بمحاولة انقاذ عسقلان من جهة البر ، غير انهم ارسلوا اليها اسطولاً مؤلفاً من سبعين سفينة شحنوها بالرجال والسلاح والمؤن على اختلاف انواعها . ولم يجرؤ على مهاجمة السفن المصرية جيرار سيد صيدا ، الذي قاد عشرين سفينة ، هي كل ما استطاع المسيحيون أن يحشدوها ، ونجحت السفن المصرية في ان تنفذ الى الميناء (عسقلان) . وارتفعت الروح المعنوية عند المدافعين ، غير ان السفن أقلعت من الميناء بعد أن افرغت حمولتها ، واستمر الحصار قائماً . وكان أقوى ما عند الفرنج من ادوات الحصار ، برج ضخم من الخشب يتجاوز الارتفاع اسوار المدينة ، ومنه كانت تنطلق رأساً الى شوارع المدينة الاحجار والأسياخ الملتهبة . وحدث ذات ليلة في اواخر شهر يوليه ان نفراً من رجال الحامية تسلل الى خارج الأسوار وأشعل النيران في هذا البرج . غير أن الرياح هبّت ، فقذفت بالبرج المشتعل بالنيران الى اسوار المدينة . وترتب على اشتداد الحرارة أن اخذ البناء في التفتت ، ولم يحلّ

الصباح حتى حدثت ثغرة في السور . وعزم الداوية الذين كان موكولاً اليهم أمر هذا القطاع ، أنه لا بد أن يكون لهم الفضل في احراز النصر . وبينا وقف جماعة من رجالهم يمنعون غيرهم من المسيحيين من الاقتراب من الحصن ، نفذ اربعون من فرسانهم (الداوية) الى داخل المدينة . وظن رجال الحامية اول الأمر ان الحصن قد سقط ، غير انه حينما تبين لهم أنه لم يدخل الى المدينة إلا عدد قليل من الداوية ، قاموا بتطويقهم والإجهاز عليهم . وبادروا الى اصلاح الثغرة ، وعلّقوا جثث الداوية على اسوار المدينة .

وإذ انعقدت هدنة كيما يتيسر لكل فريق أن يدفن موتاه ، عقد الملك بلدوين مجلساً في خيمته ، أمام الصليب المقدس . اراد النبلاء العلمانيون رفع الحصار ، بعد ان ثبطت الهزيمة عزيمتهم ، غير ان البطريرك ، ومقدم الاسبتارية ، ريموند لى بويه ، حثا الملك على المضي في الحصار ، وأثارت فصاحتهما شعور البارونات ، فبلغ الهجوم في هذه المرة من القوة ما لم يبلغه من قبل .

وفي ١٩ اغسطس سنة ١١٥٣ ، وبعد أن تعرضت المدينة للقذف الشديد ، قرر جند الحامية التسليم ، بشرط أن يبذل الفرنج للسكان الوطنيين الأمان عند مغادرة المدينة بأمتعتهم . وقبل بلدوين الشروط والتزم الوفاء بها . وبينا تدفق من المدينة سيل كبير من المسلمين ، قاصدين مصر براً وبحراً ، دخل الفرنج المدينة في موكب رسمي ، وتسلموا القلعة بما زخرت به من المال والسلاح . وتقرر جعل عسقلان اقطاعاً لكونت يافا ، اماريك ، شقيق الملك (بلدوين) . فأضحى المسجد الجامع كاتدرائية القديس بولس ، ورسم البطريرك القس أبسالوم أسقفاً في عسقلان . وحصل

جيرار اسقف بيت لحم ، فيما بعد ، على قرار من روما بتبعية كنيسة عسقلان له [١] .

يُعتبر الاستيلاء على عسقلان آخر ما أحرزه ملوك بيت المقدس من انتصارات باهرة ، وبفضله ازدادت مكانتهم ارتفاعاً ، إذ أن الفوز ، آخر الأمر ، بالمدينة المعروفة بعروس الشام يعتبر من الإنجازات التي ذاع صيتها ، وتردد صداها ، على أنه في الواقع لم يجن كسباً مادياً كبيراً . فمع ان الحصن كان قاعدة ، تنطلق منها غارات ضئيلة على أراضي الفرنج ، فإن مصر لم تعد مصدر تهديد شديد على المسيحيين . غير أن الفرنج ، بعد ان أضحت عسقلان بأيديهم ، صاروا موطن إثارة للمغامرين الخطرين بوادي النيل . ولعل ذلك كان السبب في أن نور الدين ، بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر ، لم يحاول التدخل في الحملة ، إلا بما أزمع القيام به من حملة على بانياس ، بعد ان دبرها مع مجير الدين امير دمشق ، غير أنها لم تسفر عن شيء نظراً لما نشب بينهما من منازعات . لم يأسف نور الدين لما حل بمصر من الضعف ، ولم يحفل بتحول اهتمام الفرنج الى الجنوب . أما مجير الدين امير دمشق فكان سريع التأثر ، إذ بادر الى ان يؤكد لبلدوين صداقته الوثيقة ، ووافق على ان يؤدي له إتاوة سنوية . وبينما يجوب سادة

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 1 - 5 , 27 - 30 , pp. 794 - 802. 804 - 813.
Ibn al - Qalanisi, pp. 314 - 317.
Abu Shama, pp. 77 - 78.
Ibn al - Athir, p. 490.

الفرنج اراضي دمشق ويغيرون عليها كيفما شاءوا ، قدم رسل الفرنج الى المدينة (دمشق) لجباية الأموال لملكهم [١] .

استيلاء نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤ :

كان مجير الدين ومستشاروه ، لحرصهم على سلامتهم ، يؤثرون حماية الفرنج ، على ما يتعرضون له من مصير ، اذا صار نور الدين سيداً عليهم . أما المواطن العادي بدمشق فضاق ذرعاً بوقاحة المسيحيين . إذ برهنت الأسرة البورية على خيانتها للدين ، وأفاد أيوب امير بعلبك من هذا الشعور ، إذ تغلغل عملاؤه في داخل المدينة يبثون روح الكراهية لمجير الدين . وحدث وقتذاك أن شحّت الاقوات في دمشق ، وعندئذ منع نورالدين القوافل التي كانت تجلب القمح من الشمال ، وردد عملاء ايوب الشائعة بأن ما حدث نجم عن خطأ مجير الدين ، لأنه رفض التعاون مع اخوانه المسلمين . ثم أقنع نور الدين مجير الدين بأن جماعة من أعيان دمشق يتآمرون عليه ، فاستبد الذعر بمجير الدين فأنزل بهم العقاب . ولما فقد مجير الدين بذلك عطف الأغنياء والفقراء سواء ، قدم الى دمشق شيركوه شقيق ايوب ، رسولاً من قِبل نور الدين ، غير أن شيركوه جاء على رأس جيش مهدداً ، ولم يكن ذلك مألوفاً لسفارة مودة وصداقة . فلم يسمح له مجير الدين بالدخول

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 315 - 316.
(أظهر ابن القلانسي قدراً من التحفظ عن نفوذ الفرنج في دمشق) .
Ibn al - Athir, p. 496.
Atabegs, p. 189.

الى المدينة ، كما أنه لم يخرج لاستقباله . فاعتبر نور الدين ما حدث إهانة لرسوله ، وزحف بجيش كثيف على دمشق . وإذ استبد اليأس بمجير الدين ، أرسل ، بعد فوات الأوان ، يستنجد بالفرنج . وأقام نور الدين معسكره أمام اسوار دمشق ، في ١٨ أبريل سنة ١١٥٤ . وحدث بعد اسبوع ، وبعد مناوشة قصيرة دارت خارج السور الشرقي ، أن أذنت امرأة يهودية لجماعة من عساكر نور الدين بالدخول الى حي اليهود ، فبادر العوام بفتح الباب الشرقي لسائر الجيش ، فهرب مجير الدين الى القلعة غير أنـه لم تمض إلا بضع ساعات حتى أذعن واستسلم ، فأبقى عليه نور الدين ، وجعل له حمص إقطاعاً . غير أنه تقرر طرده بعد بضعة اسابيع من حمص ، للارتياب في تآمره مع أصدقائه القدامى بدمشق . ولم يقبل مجير الدين إقطاع مدينة بالس على نهر الفرات ، فلجأ الى بغداد .

وفي تلك الأثناء استقبل اهل دمشق نور الدين بكل مظاهر الفرح والسرور . فمنع جنده من النهب ، وبادر على الفور بإغراق الأسواق بالمواد الغذائية ، وألغى الضريبة المقررة على الفاكهة والخضروات . ولما عاد نور الدين الى حلب ، أناب عنه ايوباً في حكومة دمشق ، بينما جعل بعلبك لأحد أعيان المدينة ، وهو الضحاك ، الذي أعلن فيما بعد العصيان على نور الدين ، وكان لا بد من قمع ثورته [1] .

---

(١) انظر :
Ibn al - Qalanisi, pp. 318 - 321.
Ibn al - Athir, pp. 496 - 497.
Atabegs, pp. 191 - 192.
Kemal ad - Dun, ed. Blochet, pp. 527 - 528.

الواقع ان استيلاء نور الدين على دمشق فــاق في رجحانه ميزان استيلاء بلدوين على عسقلان . إذ اضحت أملاكه تمتد من الرها الى شرقي الاردن ، ازاء كل الطرف الشرقي لإمارات الفرنج . ولم يبق في سوريا الاسلامية سوى بضعة امارات صغيرة ، مثل شيزز ، حافظت على استقلالها . وعلى الرغم من أن ممتلكات الفرنج تفوق في المساحة وفي الثروة ممتلكات نور الدين ، فقد كان لنور الدين ميزة توحيد هذه الممتلكات تحت زعامة سيد واحد ، يقل عن سائر أمراء الفرنج فيما يتعرض له من مناوءة من قِبل الاتباع المتغطرسين . والواقع ان نجمه اخذ في الصعود ، غير انه كان من شدة الحـــذر ما منعه من المضي في ملاحقة انتصاراته ، إذ يبدو أنه أكّـد من جديد ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس ، وأنه جدّد في سنة ١١٥٦ الهدنة لمدة سنتين اخريين ، وذلك حين دفع ثمانية آلاف دينار ، استمراراً لمـا كان يؤديه مجير الدين . على أن شدّة تحمّله ترجع اساساً الى تنافسه مع سلاجقة الأناضول ، إذ أراد ان ينتزع منهم نصيبهم في كونتية الرها السابقة [١] .

مات السلطان مسعود في سنة ١١٥٥ ، فلم يلبث ان تنـازع الأرث ولداه قلج ارسلان الثاني وشاهنشاه . وحظي قلج ارسلان بتأييد الاميرين الدانشمنديين ، ذي النون صاحب قيصرية ، وذي القرنين صاحب ملطية ، وظفر شاهنشاه بمساندة ياغي سيان صاحب سيواس ، أكبر بيت دانشمند سناً . وطلب ياغي سيان المساعدة من نور الدين ، فاستجاب له فعـلا

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 322 , 327.

بأن هاجم واستحوذ على نصيب السلاجقة من مدن الرهــا ، أمثـال عين تاب ، ودلوك ، فضلاً عن سميساط . وأنزل قلج ارسلان الهزيمة بأخيه ، على أنه اضطر أن يقبل ضياع البلاد الفراتية [1] برغم محاولته إقـامة تحالف مع الارمن والفرنج لمناوءة نور الدين .

وإذ توطـد مركز نور الدين في الشمال ، التفت الى الجنوب . ففي فبراير سنة ١١٥٧ نقض بلدوين الهدنة مع نور الدين . وارتكاناً للهدنة ، جاءت أعداد كبيرة من التركمان بقطعانهم من الأغنام وبأفراسهم لانتجاع المراعي الغزيرة القريبة من الحد عند بانياس . وإذ وقع الملك بلدوين في ديون ثقيلة نظراً لميله الى حياة الترف والأبهة ، لم يستطع مقاومة ما تثيره القطعان من إغراء ، هاجم الرعاة على حين غرة ، وساقهم مع ماشيتهم . ومـا أقدم عليه من نقض مشين لعهده ، هيأ له أن يحصل على أثمن وأنفس غنيمة شهدتها فلسطين لمدة عشرات السنوات ، غير انهـا أثارت نور الدين للانتقـام . وبينما توقف نور الدين في حمص للقضاء على ثورة اميرهـا ، أنزل قائـده شيركوه الهزيمة بجماعة من المغيرين اللاتين بالبقيعة ، كما أن نصرة الدين شقيق نور الدين دحر جماعة من الاسبتارية قرب بانياس . وفي مـايو خرج نور الدين من دمشق لمنازلة بانياس . فألحق شيركوه الهزيمة بقوة صغيرة كانت في طريقهـا لنجدتها ، ثم لحق بسيده (نور الدين) امـام اسوار المدينة (بانياس) . ولم تلبث المدينة

---

(١) انظر : Ibn al - Qalanisi, pp. 324 - 325.
Nicetas Choniates, pp. 152 - 154.
Gregory the Priest, p. 176.

السفلى ان سقطت ، أما القلعة التي تقع على مسافة ميلين ، على جبل شديد الانحدار ، فإن الكندسطبل همفري سيد تبنين صمد في الدفاع عنهـــا . وكاد همفري يستسلم لولا أن جاءته الانباء باقتراب الملك منـه . فأشعل نور الدين الحريق بالمدينة السفلى ، ثم انسحب ، وقد ترك بلدوين يدخل بانياس ويصلح اسوارها . وبينما كان الفرنج يهبطون مع نهر الاردن عائدين الى الجنوب ، انقض عليهم نور الدين ، في شمـــال بحر الجليل وأحرز انتصاراً باهراً . ولم يفلت الملك الى صفد إلا بأعجوبـة ، وقد استطاع المسلمون أن يعودوا لمواصلة حصار بانياس . ولم تمض إلا ايام قليلة حتى تخلى نور الدين عن محاولته وعجّل بالمسير الى حلب ، لما جاءه من الشمال من أنباء بأن قلج ارسلان يعدّ هجوماً على املاكه بالشمال [١] .

وقوع زلازل في الشام سنة ١١٥٦ :

على أن اسبابـاً اخرى جعلت نور الدين يتجنب الاشتباك في الحرب في تلك الأونة . ففي اوائل خريف سنة ١١٥٦ أحس الناس في سائر انحاء الشام بوقوع هزات ارضية . ولم تتعرض دمشق لأضرار خطيرة ، غير أن انباء التخريب وردت من حلب وحماه ، بينما انهارت الباشورة من تحصينات افامية . وفي نوفمبر وديسمبر وقعت هزات جديدة ، أضرّت بشيزر ، وتأثرت جزيرة قبرص والمدن الساحلية شمالي طرابلس بمـا وقع اثناء الربيع التالي من الهزات . على ان وادي نهر الاورنت تعرّض في

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 11 - 15, pp. 834 - 845.
Ibn al - Qalanisi, pp. 325 - 326, 330 - 337.

اغسطس سنة ١١٥٧ لهزة بالغة العنف، ولقي عدد كبير من الناس حتفهم في حمص وحلب. وبلغ الضرر في حماه من العنف ما حمل المؤرخين على أن يطلقوا على الزلزال اسم زلزال حماه. وبينما كان افراد اسرة بني منقذ في شيزر يحتفلون بختان امير صغير، انهارت اسوار القلعة عليهم. ولم ينج من كل افراد الاسرة إلا اميرة شيزر، التي جرى انقاذها من بين الانقاض، فضلاً عن اسامة الذي كان غائباً في سفاراته الدبلوماسية. وانصرف كل من المسلمين والمسيحيين الى عمارة ما تخرب من القلاع، فكفوا فترة من الزمن عن التفكير في القيام بحملات حربية [1].

وفي اكتوبر سنة ١١٥٧، بعد شهرين انقضيا على عودة نور الدين من بانياس دهمه في سرمين مرض خطير. وإذ ظن أنه مائت، أصرّ على ان يحمل في محفة الى حلب. ووضع بحلب وصيته، التي تقضي بأن يخلفه اخوه نصرة الدين في كل أملاكه، على ان يتولى شيركوه حكومة دمشق تحت سيادته. ولما دخل نصرة الدين الى حلب استعداداً لتسلم الإرث،

---

(١) انظر : Robert of Torigny, 1. p. 309.
Michael the Syrian, III. pp. 315 - 316.
(النسخة الارمنية ، ص ٣٠٦).
Chron. Anon. Syr. (Syriac edition), p. 362.
Ibn al - Qalanisi, pp. 338 - 341.
Ibn al - Athir, p. 503.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 549.
وفقاً لما أورده ابن القلانسي ، أبقى نور الدين على تعبئة جيشه ، حتى يمنع الفرنج من مهاجمة حصونه الضعيفة الاستحكامات . وأورد ابو شامة طبعة القاهرة (ج ١ ، ص ١١٢) ، قصيدة أسامة في رثاء أسرته ، التي سبق ان تشاجر معها .

لقي معارضة من حاكمها ابن الداية . ووقعت اضطرابات في شوارع حلب ، لم تخمد إلا بعد ان تمّ استدعاء أعيان حلب للقدوم الى مخدع الامير ، فتحققوا من أنه ما زال على قيد الحياة . ومضت هذه الأزمة ، وأخذ نور الدين يتماثل الى الشفاء في بطء ، غير أنه فيما يبدو فقد شيئاً من الاقدام والنشاط . فلم يعد المحارب الذي لا يقهر . على أن قوى أخرى أخذت تظهر في الشام لتتحكم في الموقف[1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 17 , pp. 847 - 848.
Ibn al - Qalanisi, p. 341.
Kemal ad - Din, ed. Blochet pp. 531 - 532.
Abu Shama, p. 110 (in R. H. C. Hist. Or.).

الفصل الثالث

عودة الامبراطور البيزنطي

حدث سنة ١١٥٣ ، بينما كان نور الدين يركز اهتمامه على دمشق ، وكان الملك بلدوين يرابط بجيشه امام عسقلان ، أن اتخذت اميرة انطاكية قرارها في أمر مصيرها . فمن الفرسان الذين تبعوا لويس السابع ملك فرنسا الى الحرب الصليبية الثانية ، رينالد شاتيون الابن الأصغر لجيوفري كونت جيين وسيد اقطاع شاتيون سير لوانج . ولما لم يكن لرينالد آمال في وطنه ، فانه مكث بفلسطين بعد عودة الصليبيين الى بلادهم ، فدخل في خدمة الملك الشاب ، بلدوين ، الذي صحبه الى انطاكية سنة ١١٥١ . ولم تلبث الاميرة الأرملة أن لحظته ، فأقام فيما يبدو في امارتها ، ولا شك أنه حاز اقطاعاً صغيراً بها . ولعل اقامته في امارة انطاكية ، هي التي حفزت الاميرة الى ان ترفض الفرسان الذين اقترحهم الملك والامبراطور عليها . وفي ربيع سنة ١١٥٣ قررت الاميرة ان تتزوج من رينالد ، غير أنها قبل أن تفصح عن عزمها ، استأذنت الملك في هذا الأمر ، نظراً لأنه يعتبر من الناحية الرسمية فيما على إمارتها وسيداً أعلى لعريسها . عجّل

رينالد بالذهاب الى عسقلان ، وقــد تمّ نصب معسكر الملك ، فسلمه رسالة كونستانس . لم يعترض الملك على طلب الاميرة ، لمـــا يعرفه عن رينالد بأنه جندي باسل ، فضلاً عن ارتياحه للتخلص من تحمل المسئولية عن انطاكية ، فلم يكد رينالد يصل الى انطاكية حتى انعقـد الزواج ، وتمّ تنصيب رينالد اميراً . لم يكن زواجاً متكافئاً ، إذ اعتقدت الأسرات الكبيرة في انطاكية وسائر رعايا الاميرة بها ، أنها انحدرت وانحطت بأن وهبت نفسها لهذا المُحدَث [1] .

كان ينبغي على كونستانس ، من قبيل اللياقـة والصواب ، ان تلتمس ايضاً الاذن من الامبراطور مانويل . إذ ان نبأ زواجها لم يلق قبــولاً طيباً في القسطنطينية . غير ان مانويل كان وقتذاك منصرفاً الى إعداد حملة لقتـــال السلاجقة ، فلم يظهر شيئاً من علامات السخط . وإذ أدرك مانويل أهمية حقوقه ، أرسل الى انطاكية يعرض اعترافه بالامير الجديد ، إذا نهض معه الفرنج بانطاكية لقتال الامير ثوروس الارمني ، ووعد بأن يسهم

---

(١) انظر : William of Tyre, XVII. 26 , p. 802.

يشير وليم الصوري الى ان الاميرة تزوجت سراً قبل ان تحصل على اذن من الملك ، بينما ورد عن رينالد في المراجع البيزنطية على أنه ليس إلا مجرد رينالد ، انظر:

Cinnamus, p. 178.

اهتم بأصله كل من :

Michael the Syrian, Armenian version, p. 310.

Schlumberger, Renaud de Chatillon, p. 3.

وتم الزواج قبل شهر مايو سنة ١١٥٣ ، الذي أقر فيه رينالد مـــا حصلت عليه البندقية من امتيازات في انطاكية . انظر :

Röhricht, Regesta. p. 72.

بالمال اذا تم العمل على أحسن وجه ، وقبل رينالد هذا العرض عن طيب خاطر . إذ ان اعتراف الامبراطور به يزيد من قوته ، يضاف الى ذلك أن الارمن توغلوا في اقليم اسكندرونة ، الذي اعتبره الفرنج جزءاً من امارة انطاكية . واستطاع رينالد بعد معركة قصيرة قرب اسكندرونة ، ان يرد الارمن الى قليقية ، وأهدى الإقليم الذي استرده الى طائفة الداوية . فتولى الداوية أمر اسكندرونة ؛ ولحماية الدروب الموصلة اليها ، أعاد الداوية بناء قلعتي قسطون وبغراس ، اللتين تتحكمان في الدروب السورية . فقرر رينالد فعلاً ان يتعاون مع الداوية ، وبذا استهل صداقة سوف تودي ببيت المقدس[1] .

وإذ حاز رينالد شاتيون ما كان يبتغيه من البلاد ، طلب من الامبراطور أن يؤدي له المساعدات المالية . غير ان الامبراطور رفض بذلها ، وأشار الى انه لا بد من تحقيق الغرض الاساسي ، فلم يسع رينالد إلا أن غيّر سياسته . ولما لقيه من الداوية من تشجيع ، عقد صلحاً مع ثوروس وإخوته ؛ وبينما كان الارمن يهاجمون ما تبقى في ايدي البيزنطيين من حصون في قليقية ، قرر رينالد شاتيون القيام بحملة لمهاجمة جزيرة قبرص المشهورة بثروتها . غير انه احتاج الى المال اللازم لهذا

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 10 , pp. 834 - 835.
(النص الارمني ، ص ٣٤٩) .
Michael the Syrian, III. p. 314.
أورد ميخائيل السرياني رواية في صالح ثوروس . انظر ايضاً :
Bar Hebraeus, trans. Budge, p. 285.

المشروع . وإذ اشتهر البطريرك ايمري بثروته الطائلة ، وبمعارضته الصريحة لزواج رينالد من كونستانس ، عزم رينالد على ان ينزل بـه العقاب كيما يجني من وراء ذلك كسباً وربحـاً . على أن ايمري حاز احترام أهل انطاكية ، لما أبداه من الشجاعة والنشاط في الايام الحالكة التي أعقبت وفاة الامير ريموند . غير أنـه أضرّ بسمعته وصيته ، وجعله عرضة للتجريح ، مـا اشتهر به من الأمّية وانحلال الخلق . طلب منه رينالد المال ، فلما رفض ، اشتدّت ثائرة رينالد وأمر بإلقائه في السجن ، حيث تعرّض للضرب المبرح على رأسه ، ثم جرى طلاء جراحه بالعسل ، وبقي يوماً كاملاً من ايام الصيف تحت اشعة الشمس ، مكبلاً بالحديـد ، فوق سقف القلعة ، فريسة لما دبّ من حشرات الجهات المجاورة . وحققت هذه المعاملة غرضها ، إذ بادر البطريرك البائس الى دفع المال ، حتى لا يواجه يوماً آخر من التعذيب . وفي تلك الاثناء بلغت القصة بيت المقدس ، فارتاع الملك بلدوين ، وأرسل على الفور رئيس ديوان رسائله ، رالف ، وأسقف عـكا فأصرا على اطلاق سراح البطريرك دون تأخير . فأمر رينالد ، بعـد الحصول على المال ، بإخلاء سبيله ، وصحب البطريرك ايمري الرسولين ، اللذين انقذاه ، الى بيت المقدس حيث استقبله بأعظم مظاهر التشريف ، الملك بلدوين والملكة ميليسند ، وبطريرك بيت المقدس . ورفض ايمري في تلك الاثناء العودة الى انطاكية [١] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 1 , pp. 816 - 817.
Cinnamus, p. 181.

غارة رينالد شاتيون على جزيرة قبرص سنة ١١٥٦ :

ما تعرّض له البطريرك من محنة أثارت دوائر الفرنج المسئولة ، غير ان رينالد لم يخجل لما حدث ، إذ أضحى بوسعه ان يهاجم جزيرة قبرص ، ففي الربيع من سنة ١١٥٦ ، هبط رينالد وثوروس فجأة الى الجزيرة. والمعروف ان قبرص لم تتعرض لمـــا اضطربت به القارة الاسيوية من الحروب والغزوات أثناء القرن الماضي ، إذ اصابها الرخاء والسعادة زمن حكامها البيزنطيين. وما أرسلته جزيرة قبرص ، قبل نصف قرن ، من المؤمن أسهمت الى حد كبير في إنقاذ الفرنج الذين كادوا يهلكون جوعاً في انطاكية ، وظلت العلاقات ودية بين الفرنج وحكومة الجزيرة ، برغم ما كان يحدث من حين الى آخر من منازعات ادارية . ولم يكد الملك بلدوين يسمع بخطة رينالد ، حتى عجل بانفاذ رسالة الى الجزيرة ينذرها بما دبره رينالد. غير انــه لم يجر ذلك إلا بعد فوات الوقت ، إذ ليس بوسع الأمداد ان تصل الى الجزيرة في الوقت المناسب. كان حاكم الجزيرة وقتذاك يوحنا كومنينوس ، ابن اخ الامبراطور البيزنطي ، ويسانده بالجزيرة الجندي اللامع ميخائيل بَراناس. فلما وردت الأنبـــاء بنزول الفرنج الى الجزيرة هرع براناس بحرس الجزيرة الى الساحل ، فأحرز اول انتصار ، غير ان المغيرين كانوا في أعداد بالغة الضخامة ، فلم يلبثوا أن تغلبوا على عساكر براناس ، وأن أمروه. ولما قدم يوحنا كومنينوس لنجدته ، وقع ايضاً في الأمر ، وصار الفرنج والارمن يذرعون الجزيرة من أقصاها الى أقصاها ، ينهبون ويسلبون كل ما أبصروه من العمائر ، من الكنائس والأديرة والدكاكين والمنـــازل الخاصة . وأشعلوا الحرائق في المحصولات الزراعية ، وقاموا بتطويق قطعان وساقوها مع جميع سكان الجزيرة الى

الساحل ، فانتهكت أعراض النساء ، وتعرض للقتل الأطفال والشيوخ ، لعجزهم عن المسير ، وما أجروه من القتل والنهب بلغ من اتساع نطاقه ما قد يحسدهم عليه الهون او المغول . واستمر هـذا الكابوس نحو ثلاثة أسابيع . ولما ترددت الشائعة بأن اسطولاً بيزنطياً يقترب من الساحل ، أصدر رينالد شاتيون أمراً بركوب السفن ومغادرة الجزيرة ، ووسقت السفن بالغنائم ، ولما لم تتسع السفن لحمل كل ما نهبوه من الماشية والأغنام ، باعوا ما تبقى منها لأصحابها بأسعار باهظة . وجرى إرغام كل قبرصي على افتداء نفسه ، غير أن لم يبق بالجزيرة من المـال ما يصح الافتداء بـه ، ولذا تقرر ان يُنقل الى انطاكية حاكم الجزيرة البيزنطي وبراناس وكبار رجال الكنيسة ، وكبار الملاك والتجار ، بأسراتهم ، على ان يظلوا بالسجن حتى تؤدى الأموال المطلوبة لافتدائهم ، باستثناء جماعة منهم تعرضت للتنكيل ، والزراية والاحتقار عند إرسالهم الى القسطنطينية [1] .

ولم تنتعش أبداً جزيرة قبرص من التخريب الذي أحدثه الفرنسيون وحلفاؤهم من الارمن ، واكتمل بؤسها بما وقع سنة ١١٥٧ من هزّات أرضية كانت بالغة الشدة . على ان المصريين ، الذين لم يجرؤ أسطولهم على ان ينفذ الى المياه القبرصية ، منذ عشرات السنوات ، قاموا بغارات على

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 10 , pp. 834 - 835.
Cinnamus, pp. 78 - 79.
Michael the Syrian, III. p. 315.
(النسخة الارمنية ص ٢٨٤) .
Gregory the Priest, p. 187.
يشير الى ان رينالد جدع أنوف القسس اليونانيين الذين أسرهم .

الجزيرة المجردة من أسباب الدفاع ، والراجح أنهم لم يحصلوا على اذن رسمي من حكومة الخليفة ، إذ كان من الأسرى الذين وقعوا في أيدي المصريين ، أخ لحاكم الجزيرة ، لقي استقبالاً حافلاً بالقاهرة ، ثم تقرر على الفور إعادته الى القسطنطينية [1] .

الفرنج يهاجمون شيزر سنة ١١٥٧ :

في سنة ١١٥٧ عاد الى فلسطين ، ثيبري ، كونت فلاندر ، في جماعة من الفرسان ، وعزم الملك بلدوين في خريف هذه السنة على الافادة من وصوله ، ومن مرض نور الدين ، في استعادة سلطان الفرنج على المجرى الاوسط لنهر الاورنت . وجرى تحريض رينالد شاتيون على الانحياز الى جيش الملك لشن هجوم على شيزر . على ان جماعة من المغامرين الحشيشية استولوا على القلعة بعد الزلزال الفاجع الذي حدث في شهر اغسطس سنة ١١٥٧ ، ولم يصل الجيش المسيحي اليها إلا في نهاية السنة ، ولم تلبث المدينة السفلى أن وقعت في أيديهم ، وكادت القلعة الحربية ان تستسلم لولا حدوث الشجار بين المحاصرين ، إذ وعد بلدوين بأن يبذل المدينة وما يحيط بها من الاراضي الى ثيبري كونت فلاندر ، كيما تكون نواة لإمارة يتولاها باسم ملك بيت المقدس ، على حين أن رينالد الذي زعم أن بني منقذ كانوا يؤدون الإتاوة لانطاكية ، طلب الى ثيبري أن يبذل له الولاء عن شيزر . لم يجـــل بخاطر الكونت فكرة بذل الولاء لرجل ليس عريق النسب . ولم يسع بلدوين ان يحل المشكلة إلا بالتخلي عن الاراضي المتنازع

(١) انظر : Ibn Moyessar, p. 473.

عليها . تحرك الجيش المسيحي صوب الشمال ليحتل خرائب أفامية ثم يلقي الحصار على حارم ، فما من احد ينكر ان حارم كانت من املاك انطاكية ، غير ان بلدوين وثييري أعلنا استعدادهما لمساعدة رينالد في استعادتها ، نظراً لما لها من اهمية استراتيجية ، فأذعنت حارم في فبراير سنة ١١٥٨ ، بعد ان تعرضت للقذف الشديد من المناجيق ، وتقرر بذلها بعد فترة قصيرة الى رينالد سانت فاليري ، من فرسان ثييري فتولاها باسم امير انطاكية (١) .

على أن سلوك امير انطاكية لم يكن مقبولاً ، فقرر الملك بلدوين الثالث أن يعيد النظر في سياسته . وأدرك ما كان من علاقات سيئة بين رينالد شاتيون والامبراطور ، الذي لم يكن ليغفر له الغارة على جزيرة قبرص ، وعلم ايضاً أن الجيش البيزنطي ما زال يعتبر اقوى جيش في العالم المسيحي . ففي صيف سنة ١١٥٧ ، أنفذ سفارة الى القسطنطينية تلتمس عروساً من الاسرة الامبراطورية . وترأس هذه السفارة ، اشارد ، رئيس اساقفة الناصرة ، الذي قضى نحبه اثناء الطريق ، وهمفري الثاني سيد تبنين وأحسن الامبراطور مانويل استقبال السفارة . وبعد ان دارت

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 17 - 19 , pp. 847 - 853.

Robert of Torigny, 1 , p. 316.

Michael the Syrian, the Armenian version, pp. 351 - 353.

Ibn al - Qalanisi, pp. 342 , 344.

Rohircht, Regesta, p. 94.

يشير رورخت الى ان رينالد سانت فالبر كان سنة ١١٦٠ من بارونات بيت المقدس ، غير أنه لم يلبث أن عاد الى الغرب . وانفرد روبرت توريجني بأنه أورد خبر حصوله على حارم .

المفاوضات ، عرض الامبراطور ، ابنة اخيه ثيودورا لتكون عروساً للملك بلدوين ، وجعل صداقها مائة الف ديناراً ذهبياً ، وخص عشرة آلاف ديناراً ذهبياً ايضاً لنفقات العرس ، فضلاً عن الهدايا التي يضارع ثمنها ثلاثين الف ديناراً ايضاً ، على ان تحصل مقابل ذلك على عكا وما يتبعها من الاراضي لتكون معاشاً لها ، ولتحتفظ بها اذا مات زوجها دون عقب . فلما عادت السفارة وأقر الملك بلدوين الشروط ، أبحرت الاميرة الصغيرة من القسطنطينية ، فبلغت عكا في سبتمبر سنة ١١٥٨ ، وتوجهت في موكب رسمي الى بيت المقدس ، حيث عقد قرانها على الملك ، ايمري بطريرك انطاكية ، نظراً لأن البابا لم يصدّق حتى وقتذاك على البطريرك الذي تمّ انتخابه لبيت المقدس . كانت ثيودورا في الثالثة عشرة من عمرها ، غير انها كانت بالغة الأنوثة ، فائقة الجمال ، وأعرب بلدوين عن فرحه وسعادته بها ، وكان زوجاً وفياً مخلصاً ، فتخلى عما اشتهرت به ايام عزوبته من الانحلال الخلقي [١] .

وفي اثناء المفاوضات ، يبدو أن مانويل وعد بالاشتراك في حلف لمناهضة نور الدين ، ووافق بلدوين على انه ينبغي إذلال رينالد شاتيون . وفي تلك الاثناء توجه بلدوين بحملة الى اطراف دمشق ، ثم قام مع كونت فلاندر ، في مارس سنة ١١٥٨ ، بزحف مفاجيء على دمشق ذاتها ، وفي اول ابريل فرضا الحصار على قلعة داريا بضواحي دمشق .

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 16 , 22 , pp. 846, 857 - 858.
Gregory The Priest, pp. 186 - 189.
Matthew of Edessa, CCLXXIII, pp. 352 - 353.

وإذ استعاد نور الدين عافيته ، اتخذ طريقه فعلاً صوب الجنوب للقضاء على المؤامرات التي ترعرعت اثناء مرضه . ولما وصل الى دمشق في ٧ ابريل ، اعرب سكانها عن سعادتهم وفرحهم به ، وأدرك بلدوين انه من الحكمة أن ينسحب . على ان نور الدين لم يلبث أن قام بمهاجمة الفرنج . وبينما كان قائده شيركوه يغير على اراضي صيدا ، هاجم قلعة الحبيس جلدك ، التي شيدها الفرنج معقلاً لهم على ضفاف نهر اليرموك ، الى الجنوب الشرقي من بحر الجليل . وتعرضت الحامية لضغط بلغ من الشدة انها لم تلبث ان وافقت على التسليم اذا لم تصلها المساعدة في فترة عشرة أيام . وعندئذ نهض الملك بلدوين مع كونت ثيبري لنجدة القلعة ، غير انهما اتخذا الطريق الذي يقع شمالي البحيرة ، ويؤدي الى دمشق ، بدلاً من التوجه اليها مباشرة . ونجحت الحيلة ، إذ أن نور الدين خاف على مواصلاته ، فرفع الحصار عن القلعة . والتقى الجيشان عند قرية البطيحة ، الواقعة الى الشرق من الوادي الأعلى لنهر الاردن . ولم يكد الفرنج يلمحون المسلمين حتى هاجموهم ، بعد ان اعتقدوا أنهم ليسوا إلا جماعة من الكشافة ، حتى حدث أن بغلاً كان بلدوين بذله لشيخ كان معروفاً انه بصحبة نور الدين ، شمّ رائحة ما كان بين دواب الفرنج من البغال ، فدلهم على ان العسكر الاسلامي بأسره قد وصل . وبلغ الباعث عند الفرنج على القتال من القوة ما هزّ قوة المسلمين . وإذ لا زالت صحة نور الدين ضعيفة ، جرى اقناعه بأن يغادر ساحة القتال ، على أنه حدث عند رحيله ، أن انصرف كل جيشه وانسحب في اضطراب وخلل . على ان انتصار الفرنج كان من الاكتمال ما حمل نور الدين على ان يطلب عقد هدنة . ولم يقع في بضع سنوات تالية على الحدود السورية الفلسطينية شيء من الحروب

الخطيرة . وأضحى بوسع كل من بلدوين ونور الدين ان يوجّـه اهتمامه صوب الشمال [1] .

الامبراطور مانويل يدخل قليقية سنة ١١٥٨ :

في خريف سنة ١١٥٨ ، خرج الامبراطور مانويل من القسطنطينية على رأس جيش كثيف ، متوجهاً الى قليقية ، وبينما سارت القوة الرئيسية في بطء على امتداد الطريق الساحلي الوعر صوب الشرق ، مضى مانويل قدماً بقوة لم تتجاوز خمسمائة فارس . والواقع أنه ما من احد في قليقية علم بقدومه ، نظراً لما اتسمت به تدابيره من السرّية ، ولما اتصفت بـه حركاته من الكتمان . وكان الامير الارمني ، ثوروس ، وقتذاك في طرسوس ، ولم يساوره شيء من الشكوك ، حتى حدث فجأة ، ذات يوم في اواخر اكتوبر سنة ١١٥٨ ، أن حاجاً من اللاتين كان ثوروس قـد استضافه ، انطلق عائداً الى بلاط ثوروس ، فأخطره بأنه شهد عساكر الامبراطور على مسيرة يوم واحد من طرسوس . فجمع ثوروس اهل بيته وأصدقاءه المقربين ، فضلاً عن امواله ، وبادر بالهروب الى الجبال . وفي اليوم التـالي دخل مانويل سهل قليقية . وإذ احتل طرسوس ، صهره ثيودور فاتاتس ، اسرع مانويل بالزحف ، وأضحت في قبضة يده ، في خلال اسبوعين ، كل

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 21, pp. 855 - 856.
Ibn al - Qalanisi, pp. 346 - 348.
Abu Shama, pp. 97 - 100.
يشير ابو شامة الى ان بلدوين هو الذي طلب عقد الهدنة ، والراجح انه ارتكن الى ما ورد في ابن القلانسي من عبارة تحتمل التأويل .

مدن قليقية حتى عين زربة . على ان ثوروس حرص على ان يتجنبه . وبينما كانت الكتائب البيزنطية تتدفق على الوديان ، اخذ ثوروس يهرب من قمة تل الى قمة تل آخر ، حتى اتخذ آخر الأمر ملاذاً له بأعلى صخرة شديدة الانحدار ، اسمها داجيج قرب منابع نهر البردان ، والتي ظلت خرائبها اجيالاً خالية من السكان . ولم يعرف مخبأه إلا اثنان من اخلص خدامه وأكثرهم ولاء له (١).

وارتاع رينالد شاتيون لقدوم الامبراطور ، إذ ادرك أنه ليس بوسعه ان يقاوم هذا الجيش الامبراطوري الضخم . على أن هذا الادراك أدى الى خلاصه وإنقاذه ، لأنه يستطيع بإذعانه المباشر ان ينال من الشروط ما يعتبر خيراً من تلك التي ينالها اذا لحقت بـــه الهزيمة في معركة . وألمع اليه جيرار ، أسقف اللاذقية ، وأكثر مستشاريه بياناً أن كل ما كان يبتغيه الامبراطور هو الهيبة لا الفتح . وعندئذ بادر رينـالد فأرسل الى الامبراطور مانويل ، يعرض تسليم قلعة انطاكية لحامية بيزنطية . ولمـــا أخطر رسوله بأن ذلك ليس كافياً ، ارتدى رينالد ثوب التوبة وعجّل بالمسير الى معسكر الامبراطور ، خارج اسوار مدينة المصيصة . وقـدم الترحيب بالامبراطور الرسل من قِبل الأمراء المجاورين، امثال نور الدين ، وأمراء الدانشمند ، وملك الكرج ، فضلاً عن الخليفة العباسي . وحرص مانويل على ألا يسمح لرينالد بالمثول بحضرته إلا بعد ان انتظر فترة من

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 179 - 181.
Matthew of Edessa, loc. cit.
Gregory the Priest, p. 187.

الزمن . ويبدو أنــه حدث في تلك اللحظة أن تلقى الامبراطور رسالة من البطريرك ايمري المنفي خارج انطاكية ، تدعو بأنــه ينبغي ألا يمثل ريتالد امامه إلا مقيداً بالأغلال ، ولا بد من عزله . غير ان الامبراطور رأى أنه من الخير له أن يحمل منه تابعـــاً ذليلاً . وفي جلسة حافلة بالاتزان والوقار ، جلس فيهــا الامبراطور على عرشه بالخيمة الكبيرة ، وحفّ به رجال البلاط والسفراء الأجانب ، واصطف رجــال الكتائب بأسلحتهم على الطرق المؤدية الى مجلسه ، أعلن رينالد خضوعه وإذعانه ، إذ سار هو وحاشيته ، حفاة الاقدام ، حاسري الرؤوس ، مخترقين المدينة ، الى المعسكر الواقع خارجها ، فانبطح على وجهه في التراب امام منصة الامبراطور ، بينما رفع رجاله ايديهم متضرعين ، ولم يحفل مانويل بالالتفات اليه إلا بعد لحظات عديدة . ثم أعلن عفوه عنه بثلاثة شروط ، إذ ينبغي كلما طلب اليه ، أن يبادر بتسليم القلعة الى حامية الامبراطور ، وينبغي أن يمدّ الجيش الامبراطوري بكتيبة من عنده ، ولا بد أن يقبل أن يكون بطريرك انطاكية يونانياً لا لاتينياً . وأقسم رينالد على احترام هذه الشروط . ثم أذن له الامبراطور بالانصراف ، فعاد الى انطاكية .

الامبراطور مانويل في انطاكية سنة ١١٥٩ :

وما ذاع من أنباء اقتراب مانويل من انطاكية ، أدى الى أن يعجّل بالقدوم من الجنوب ، الملك بلدوين ، وأخوه امالريك ، والبطريرك إيمري ، فبلغوا انطاكية عقب عودة رينالد شاتيون اليها . أظهر بلدوين شيئاً من خيبة الأمل عند سماعه بالعفو عن رينالد ، فبــادر بالكتابة الى مانويل

يلتمس منه الاذن بالمقابلة . تردد مانويل في اجابة طلبه ، والواضح أنه اعتقد ان بلدوين اراد امارة انطاكية لنفسه ، ويصح ان يكون هذا جانباً من اقتراح ايمري . غير انه لما أصر بلدوين على المقابلة ، لم يسع مانويل إلا ان يستجيب له . فخرج بلدوين من انطاكية ممتطياً جواده ، يرافقه جماعة من سكان المدينة ، توسلوا اليه أن يصلح امرهم مع الامبراطور . كان اللقاء بالغ النجاح ، إذ بهر مانويل شخصية الملك الشاب بلدوين ، فاستبقاه في ضيافته عشرة ايام . وبينما كان الملكان يتناقشان في عقد تحالف بينهما ، استطاع بلدوين أن يحمل الامبراطور مانويل على الصفح عن ثوروس ، الذي جرى على نهج رينالد في إظهار الخضوع ، فأجاز له الامبراطور ان يحتفظ بأملاكه في الجبال . والراجح انه بفضل بلدوين ، لم يصرّ مانويل على المبادرة بتنصيب بطريرك يوناني في انطاكية . فعاد ايمري الى الكرسي البطريركي ، وتم الوفاق ظاهرياً بينه وبين رينالد . وعاد بلدوين الى انطاكية وقد غمره الامبراطور بالهدايا ، بعد أن خلف أخاه أملريك عند الامبراطور .

—

وفي يوم احد الفصح ، ١٢ ابريل سنة ١١٥٩ ، قدم مانويل الى انطاكية ، فدخلها في موكب رائع . وحاولت السلطات اللاتينية ان تمنعه من الدخول ، بأن أشارت الى تدبير مؤامرة لاغتياله بأنطاكية ، غير انه لم ينثن عن عزمه ، واكتفى بأن ألح على ان يبذل سكان المدينة له الرهائن ، وأنه لا بد ان يتجرّد من السلاح الأمراء اللاتين الذين تقرر أن يشتركوا في الموكب . وارتدى الامبراطور درعاً تحت ثيابه ، على أنه

لم يحدث شيء يفسد الاحتفال . فبينا كانت اعلام الامبراطور ترفرف على القلعة ، كانت حاشية الملك تجتاز الجسر المنيع الى المدينة ؛ فكان اول من قدم منهم جماعة الورنك من الحرس الامبراطوري في أبهة زائدة ، ثم تلاهم الامبراطور ، ممتطياً جواده ، مرتدياً ملحفة ارجوانية وجعل على رأسه تاجاً مرصعاً بالجواهر . اما رينالد شاتيون ، فسار حافياً ، ممسكاً بعنان فرس الامبراطور ، بينما سار حول الحصان سائر السادة الفرنج . ثم جاء من بعده بلدوين راكباً حصانه ، حاسر الرأس ، متجرداً من سلاحه ، ثم تلاهم كبار موظفي الامبراطورية . والى الداخل ، عند ابواب القلعة ، انتظر البطريرك ايمري ، في الزي الكهنوتي ، مع سائر رجال الدين ، كيما يتولى قيادة الموكب في جميع الشوارع ، المفروشة بالبسط ، والتي تناثرت فيها الازهار، الى كاتدرائية القديس بطرس اول الامر ، ثم الى القصر الاميري .

ظلّ مانويل بأنطاكية ثمانية ايام ، توالت فيها الاحتفالات الواحد بعد الآخر، وعلى الرغم مما أظهر الامبراطور من التعالي والعظمة في المواكب ، فإن ما صدر عن شخصه من الجاذبية والمودة ، أسر قلوب العامة ، وما غمر به النبلاء والعوام سواء من المنح ، اشاع السرور والسعادة . وكيما يلفت نظر الغرب ، أعدّ مانويل حفل مبارزة ، اشترك فيها معه رفاقه . وكان مانويل يعتبر من ابرع الفرسان ، وحاز الشرف في هذا المجال ، امـــا رفاقه الذين اتخذوا الفروسية وسيلة لا غاية في ذاتها ، فإنهم لم يضارعوا فرسان الغرب في البراعـــة وشدة الأثر . وتوثقت الصلة بين الامبراطور وصهره ، الملك بلدوين ، فلما تعرض ذراع الملك للكسر اثنـاء خروجه

للصيد ، أصر مانويل على أن يتولى علاجــه بنفسه ، مثلما فعل من قبل مع كنراد ملك المانيا ، حين بذل له النصائح الطبية [1] .

الهدنة بين مانويل ونور الدين سنة ١١٥٩ :

يعتبر هذا الاسبوع الحافل انتصاراً لهيبة الامبراطور ومكانته . وكان جيرار اسقف اللاذقية مصيباً في قوله ، بأن الامبراطور لم يكن يبتغي الغزو والفتح ، إنما اراد اظهار الهيبة والمكانة . فلم تكد الاحتفالات تنتهي حتى لحق الامبراطور بجيشه خـــارج اسوار انطاكية ، فتحركوا جميعاً صوب الشرق الى الطرف الاسلامي ، فاجتمع به على الفور رسل من قِبل نور الدين ، موكلون بالتفاوض معه لعقد هدنة . على ان اللاتين استشاطوا غضباً حينما استقبل الامبراطور السفارة . وبدأت المناقشات بين الجانبين ، بعد ان توقعوا منــه ان يزحف على حلب . ووافق الامبراطور مانويل

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 23 - 25, pp. 859 - 864.
Cinnamus, pp. 181 - 196.
Nicetas Choniates, pp. 141 - 145.
Prodromus, in R. H. C. Grecs, II. pp. 752 - 766.
Matthew of Edessa, CCLXXIV. pp. 354 - 355.
Gregory the Priest, pp. 188 - 189.
Vahram, Rhymed Chronicle, p. 505.
Ibn al - Qalanisi, pp. 349 , 353,
La Monte : « To What extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Latin States ? » in Byzantion, vol. VII,

على تأجيل حملته ، بعد ان عرض نور الدين اطلاق سراح ستة آلاف من الاسرى المسيحيين الذين كانوا معتقلين بسجونه ، فضلاً عن توجيه حملة لقتال السلاجقة .

والراجح أن مانويل لم يقصد المضي في الهدنة ، وعلى الرغم من ان الصليبيين والمؤيدين المحدثين لهم ، قد يعتبرون ذلك خيانة ، فمن العسير أن يتبين ماذا يفعل الامبراطور سوى ذلك ، إذ أن سوريا كانت بالغة الاهمية للصليبيين ، بينما لم تكن عند مانويل سوى واحدة من مناطق الحدود العديدة ، ولم تكن اكثرها اهمية ، وليس بوسعه ان يتحمل البقاء شهوراً عديدة في الطرف البعيد لخط مواصلات طويل ، يسهل انتهاكه ، كما أنه ليس باستطاعته ، مهما بلغ جيشه من الضخامة أن يخاطر بأن تلحق به خسائر فادحة دون مبرر . ويضاف الى ذلك أنه لم يشأ ان يتسبب في تحطيم قوة نور الدين . إذ عرف من تجاربه المريرة أن الفرنج لم يرحبوا به إلا عندما ينتابهم الخوف ، فمن الحماقة ان يزيل المصدر الأصلي لخوفهم . ويعتبر التحالف مع نور الدين ميزة بالغة القيمة فيما ينشب من حروب مع عدو شديد الخطورة على الامبراطورية ، يتمثل في سلاجقة بلاد الاناضول . غير انه ، كما دلت الأحداث التالية ، سوف يبذل المساعدة لمنع نور الدين من الاستيلاء على مصر ، لأن ذلك سوف يؤدي الى الاختلال النهائي في ميزان القوى . ولو لم يتعجل مانويل ، لحصل فيما يبدو على شروط افضل ، غير أنه تلقى انباء مزعجة عن تدبير مؤامرة في القسطنطينية ، وعن اضطرابات على الطرف الاوربي لبلاده . وكيفما كان

الأمر لم يعد بوسعه أن يبقى في سوريا اطول مما أقام [1] .

ومع ذلك تعتبر الهدنة التي عقدها مانويل مع نور الدين من الأخطاء السيكلوجية . إذ أن الفرنج لم يكونوا مستعدين لقبوله قائداً لهم إلا لفترة وجيزة . غير أنـه دل ، شأن الرجال العقلاء ذوي البصيرة النافذة ، على أنه أكثر اهتماماً بمصير امبراطوريته لا بمصيرهم . كما ان اطلاق سراح الأسرى المسيحيين لم يجدوا فيه عزاء كبيراً . وشمل هؤلاء الأسرى فئـة من كبار المحاربين المحليين ، مثل مقدم الداوية ، برتراند بلانكفورت ، غير ان معظمهم كانوا من الالمـان الذين وقعوا في الأسر في أثنـــاء الحرب الصليبية الثانية ، ومن بينهم المطالب بكونتية طرابلس ، برتراند التولوزي ، الذي قـد يؤدي اطلاق سراحه الى إثارة الحيرة والارتباك لو لم يحطم الأسر صحته [2] .

ولما انعقدت الهدنة ، ارتدّ مانويل في بطء اول الأمر مع جيشه صوب

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII, 25, p. 864.
(يوجه وليم الصوري اللوم ، دون مبرر ، الى الامبراطور) .
Otto of Freisingen, Gesta Friderici, p. 229.
Cinnamus, pp. 188 - 196.
Gregory the Priest, pp. 190 - 191.
Matthew of Edessa, CCLXXV. pp. 355 - 358.
Ibn al - Qalanisi, pp. 353 - 355.

(٢) انظر : William of Tyre, loc. cit.
Cinnamus, p. 188.
يشير كيناموس بصفة خاصة الى ابن الصنجيل (Saint Gilles) .

الغرب ، ثم أغذ السير حينما بلغته أنباء بالغة القلق من عاصمته . وحاول بعض أتبـاع نور الدين ان يعوقوا سيره ، على غير رضى سيدهم . وحينما اجتاز جيش مانويل بلاد السلاجقة اختصاراً للوقت ، وقعت اشتباكات مع عساكر السلطان السلجوقي ، غير انـه وصل متماسكاً الى القسطنطينية في أواخر الصيف . على ان مانويل عبر مرة اخرى الى آسيا ، بعـد ثلاثة شهور ، لمهاجمة السلاجقة ، بما اتخذه من خطة حربية جديدة ، بالغة المرونة والحركة . وفي تلك الأثناء أقام رسله حلفاً لمناهضة السلطان السلجوقي ، قلج ارسلان الثاني . وإذ اشتد ارتياح نور الدين لارتحال مانويل ، زحف من أواسط الفرات على أمـلاك السلاجقة ، على حين ان الامير يعقوب ارسلان الدانشمند شنّ من جهة الشمال الشرقي هجوماً صادف من النجاح ما أجبر السلطان السلجوقي على ان يتنازل له عن البلاد الواقعة حول البستان في جبل اللكام . وفي تلك الأثناء حشد القائد البيزنطي يوحنا كونتوستيفانوس ، العساكر الذين التزم بتقديمهم بمقتضى المعاهدة رينالد شاتيون وثوروس ، ثم اجتاز دروب جبـال طوروس بكتيبة من البجناك ، الذين أنزلهم مانويل بقليقية . على حين ان مانويل والجيش الامبراطوري الرئيسي ، والعساكر الذين أمده بهم امير الصرب ، فضلاً عن حجاج الفرنج الذين تجندوا حينما قدمت سفنهم الى جزيرة رودس ، اجتاحوا نهر المياندر ، وكان لزاماً على السلطان ان يقسم عساكره . ولمـا اكتمل انتصار كونتوستيفانوس على العساكر التركية ، التي تصدّت لمقاومته ، لم يسع قلج ارسلان إلا ان يتخلى عن القتـال ، فكتب الى الامبراطور يعرض عليه ، مقابل الحصول على السلام ، أن يرد له سائر المـدن اليونانية التي احتلها المسلمون منذ زمن قريب ، وأن يحترم الحدود الفاصلة بينهما ، وأن تنقطع الغارات ، وأن يقدم فصيلة من الجنـد لتقاتل مع الجيش الامبراطوري ، متى اقتضت الحـاجة

ذلك . ووافق مانويل على الشروط ، غير انـه استبقى عنده شاهنشاه ، شقيق السلطان ، والذي التمس حماية مانويل . وللتصديق على المعاهدة ، أرسل قلج ارسلان ، مستشاره المسيحي ، كريستوفر ، الى القسطنطينية يقترح القيام بزيارة رسمية الى البلاط الامبراطوري . وتوقفت العداوات في صيف سنة ١١٦١ ، وفي الربيع التـــالي جرى استقبال قلج ارسلان في القسطنطينية ، واتسمت الاحتفالات بالأبهة والفخامة ، إذ حظي السلطان بكل مظاهر التشريف ، وغمره الامبراطور بالهدايا ، غير ان هذه المعاملة لم يحظ بها إلا على أنه من أتباع الامبراطور . وتأثر كل أمراء الشرق لما بلغهم من أنباء هذه الزيارة[١] .

وفي هذا الاطار العام ، ينبغي ان نحكم على سياسة مانويل الشرقية ، إذ حقق نصراً باهراً لمكانته وهيبته ، وأخضع ، لفترة طارئة على الأقل ، السلاجقة الذين كانوا يعتبرون الخطر الاساسي الذي يهدد الامبراطورية . وأفاد الفرنج من هـــذا النجاح فيما حصلوا عليه من مزايا عديدة . فعلى الرغم من ان نور الدين لم ينهزم ، فإنه لم يعد موطن خوف وإزعاج . فلن يحاول ان يوجه هجومـــاً على البلاد المسيحية ، كما ان الصلح مع

---

(١) انظر :
Cinnamus, pp. 191 - 201 , 204 - 208.
Nicetas Choniates, pp. 152 - 164.
Gregory the Priest, pp. 193 - 194 , 199.
Matthew of Edessa, CCLXXXII. p. 364.
Michael the Syrian, III. p. 320.
Chron. Anon. Syr. p. 302.
Ibn al - Athir, p. 544.

السلاجقة اعاد فتح الطريق للحجاج القادمين من الغرب ، فازداد عددهم ، على أنه اذا لم تصل أعداد كبيرة من الحجاج ، فيرجع سبب ذلك الى الاوضاع السياسية في الغرب ، والى ما نشب من الحروب بين ملوك الهوهنشتاوين وأنصار البابوية في المانيا وايطاليا ، وبين أسرتي كابيه وبلانتاجينيت في فرنسا . ومع أن بيزنطة ظلت في السنوات العشرين التالية أهم عامل في شمال الشام ، فإنه لم يكن لها إلا عدد قليل من الاصدقاء الأوفياء من الفرنج .

وقوع رينالد شاتيون في الأسر سنة ١١٦٠ :

دلّت أحداث سنة ١١٦٠ على طبيعة وقيمة السيادة البيزنطية على انطاكية . عاد بلدوين الى الجنوب ، وقام ببعض الغارات على بلاد دمشق بعد أن افاد من انصراف نور الدين الى امور الشمال ، حتى سمع بوقوع رينالد شاتيون اسيراً في يدي نور الدين . إذ حدث في نوفمبر سنة ١١٦٠ أن الحركة الموسمية لقطعان الأغنام من جبال اللكام الى سهل نهر الفرات ، أغرت امير انطاكية ، رينالد ، على ان يغير على وادي نهر الفرات . وفي اثناء عودته ، حمله على البطء في السير ، قطعان الماشية والإبل والأفراس التي ساقها امامه ، فوقع في كمين نصبه له والي حلب مجد الدين ، الذي تربى مع نور الدين . واستبسل رينالد في القتال ، غير ان القوات الاسلامية تفوقت في العدد على رجاله ، فأسقطوه عن جواده وأسروه . فأرسلوه مع رفاقه مقيدين بالحبال على ظهور الإبل الى حلب ، حيث بقي في الحبس ستة عشر عاماً . ولم يحرص الامبراطور ، او ملك بيت المقدس ، او سكان انطاكية على المبادرة الى افتدائه . فالتقى رينالد في السجن بجوسلين كورتيناي الصغير ، صاحب الرها ، الذي وقع اسيراً قبل بضعة شهور ،

اثناء غارة قام بها [1] .

أثار ابعاد رينالد شاتيون مشكلة دستورية في انطاكية ، حيث كان يحكم على انه زوج الاميرة كونستانس . إذ زعمت ان السلطة عادت اليها ، غير ان الرأي العام سائد حقوق ابنها ، من زوجها الاول ، وهو بوهمند المعروف بالألثغ ، الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره . كان هـــذا الوضع شبيهاً بوضع الملكة ميليسيند وبلدوين الثـالث في بيت المقدس منذ بضع سنوات . لم تتعرض انطاكية لخطر مباشر ، لأن خوف نور الدين من مانويل منعه من مهاجمة انطاكية ذاتها . غير انـــه لا بد ان تقوم بأنطاكية حكومة قوية ، وأضحى لزاماً على الامبراطور بما له من سيادة قاطعة على انطاكية أن يسوي المشكلة . على ان الامبراطور مانويل كان بالغ البعد ، ولم يقبـــله اهل انطاكية إلا بتحفظات . فأمراء النرمان بأنطاكية اعتبروا انفسهم امراء مستقلين ذوي سيادة ، غير ان كثرة صغار السن بـــين الذين تولوا منهم الحكم ، اجبروا ملوك بيت المقدس على ان يتدخلوا على أنهم اقارب لا سادة . ومع ذلك نبتت في انطاكية نزعة جعلت الملك سيداً أعلى ، ولا شك أنه تقرر الاعتراف بمانويل سيداً

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 28, pp. 868 - 869.
Matthew of Edessa, CCLXXXI. pp. 363 - 364.
Chron. Anon. Syr. p. 302.
Gregory the Priest, p. 308.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 533.
Cahen, op. cit. p. 405 n 1.
(يورد كاهن مصادر اخرى ، ويصف طبيعة البلاد) .

أعلى ، لأن الملك بلدوين اشترك في التصديق على هـذا التدبير . فتطلع اهـل انطاكية الى الملك بلدوين ، لا الى الامبراطور مانويل ، لحل المشكلة . وبناء على دعوتهم قدم بلدوين الى انطاكية ، فأعلن بوهمند الثالث اميراً شرعياً ، وعهد بالحكومة الى البطريرك ايمري حتى يبلغ الامير سن الرشد . ولم يرض هذا القرار الاميرة كونستانس ، كما ان الطريقة التي تم بها لم يقبلها مانويل ، فبادرت الاميرة بالاستنجاد بالبلاط الامبراطوري[١].

ميليسيند كونتيسة طرابلس سنة ١١٦١ :

حوالي نهاية سنة ١١٥٩ ، ماتت الامبراطورة ايرين ، التي كانت معروفة عنـد ولادتها باسم برتا سولتسباخ ، ولم تترك إلا ابنة وحيدة . وفي سنة ١١٦٠ وصلت الى بيت المقدس سفارة برئاسة يوحنا كونتوستيفانوس ، يصحبه كبير المترجمين بالبلاط البيزنطي ، ثيوفيلاكت الايطالي ، فطلبت الى الملك بلدوين ان يرشح اميرة بالشرق الفرنجي تليق بأن تكون عروساً للامبراطور الارمل . والواقع انه لم يكن جديراً بالترشيح سوى اميرتين، الاولى ماريا ابنة كونستانس اميرة انطاكية ، أما الثانية فكانت ميليسيند، ابنة ريموند الثاني كونت طرابلس ، وكلتاهما كانتا ابنتي خالتي الملك بلدوين ، واشتهرتا بالجمال الفائق . واقترح بلدوين ترشيح ميليسيند، نظراً لأنه لم يثق في قيام تحالف أسري وثيق بين الامبراطور وانطاكية . وتوجـــه السفراء الى طرابلس

---

(١) انظر : William of Tyre, XVIII. 30 , p. 874.
Michael the Syrian, III. p. 324.
يشير ميخائيل السرياني الى ان ثوروس طرد كونستانس من حكم انطاكية .

لإخطار الاميرة ، التي حيّاها كل الشرق الفرنجي على أنهـا الامبراطورة المقبلة . وعزم ريموند كونت طرابلس في كبرياء ، على ان يعطي شقيقته معاشاً جديراً بها ، وأنفق أموالاً طائلة في تجهيزها ، وتدفقت عليها الهدايا من امها هوديرنا ، وخالتها الملكة ميليسيند ، وتقاطر الفرسان من سائر الجهات الى طرابلس ، أملاً في ان يحظوا بالدعوة لحفلة الزفاف . غير أنه لم يرد من القسطنطينية ما يشير الى موافقة الامبراطور . وأرسل السفراء الى مانويل تقارير حافلة بالعاطفة والمودة عن شخصية ميليسيند ، غير أنهم أثبتوا ايضاً في تقاريرهم شائعة عن ميلادها ، استندت الى ما كان معروفاً من شجار وقع بين امها وأبيها . والواقع أنـــه لم يكن ثمة شك حول شرعية مولدها ، غير ان حديث الناس قد حمل الامبراطور على التردد . ثم سمع بتدخل بلدوين في انطاكية ، وتلقى طلباً من كونستانس تدعوه للنهوض لمساندتها . واذ اشتد القلق بريموند في اوائل صيف سنة ١١٦١ ، أنفذ الى القسطنطينية احد فرسانه ، أوتو ريزبرج يستوضح الامر . وحوالي شهر اغسطس سنة ١١٦١ عاد اوتو يحمل نبأ بأن الامبراطور عدل عن الخطبة [١] .

---

(١) انظر : William of Tyre, *XVIII*. 30 , p. 874 - 876.
Cinnamus, pp. 208 - 210.

يشير كيناموس الى اعتلال صحة ميليسيند ، فضلاً عن الشائعات حول شرعية بنوتها . على أنه جرت الاشارة الى ميليسيند في وثيقة مؤرخة في ٣١ يوليو ١١٦١ ، على أنها الامبراطورة المقبلة القسطنطينية ، وذلــــك حين تقرر بذل شرق الاردن اقطاعاً لفيليب ميللي . كانت هي وأخوها بصحبة الملك وقتذاك في الناصرة . انظر :
Röhricht, Regesta, p. 96.

كانت الصدمة والاذلال من الشدة ما لم يكن بوسع ميليسيند ان تتحملها ، فأصابها الانهيار ولم تلبث ان ذبلت . مثلما ورد في القصص الفرنسي في العصور الوسطى عن الاميرة في الجهات النائية (Princesse Lointaine) .

اشتد غضب اخيها ريموند ، وطلب في غيظ وحنق تعويضاً عن الأموال التي أنفقها في تجهيز اخته ، ولما لم يُجب الى طلبه ، أمر باعداد الاسطول المؤلف من اثنتي عشر سفينة ، الذي جهزه لمرافقتها الى القسطنطينية ، فقاده للإغارة على سواحل جزيرة قبرص [1] . أما الملك بلدوين الذي أقام مع ابنتي خالتيه ينتظر الأنباء ، فازداد قلقه واضطرابه ، ولا سيما حينما تلقى السفراء البيزنطيون الأوامر بالتوجه الى انطاكية ، فاقتفى أثرهم اليها ، حيث صادف سفارة رفيعة الشأن من قِبل الامبراطور ، يرأسها الكسيوس بريني‍وس كومنينوس ، ابن أنه كومنينا ، ويوحنا كاماتروس والي مدينة القسطنطينية . أجروا المفاوضة فعلاً في عقد الزواج بين سيدهم وماريا اميرة انطاكية . ويعتبر حضورهم كافياً لإقرار ماريا اميرة على انطاكية ، وكان لزاماً على بلدوين ان يقبل الوضع . فأقلعت من السويدية في سبتمبر ، الاميرة ماريا التي كانت أجمل من ابنة خالتها ، فخورة بأن تكون امبراطورة وسعيدة يجهلها بمصيرها النهائي . تزوجت ماريا من الامبراطور في ديسمبر ، بكنيسة القديسة صوفية في القسطنطينية ، بحضور البطاركة الثلاثة : لوقا بطريرك القسطنطينية ، وصوفرونيوس بطريرك الاسكندرية ،

---

(١) انظر : William of Tyre, *XVIII*. *31*, 33, p. *8*67, 868 - 869.

وأثناسيوس الثاني بطريرك انطاكية الأسمى [1].

أدرك بلدوين قيمة التحالف مع بيزنطة . على ان ما أحرزه مانويل من النجاح بالامارة المسيحية في شمال سوريا (انطاكية) تجاوز ما كان يأمله ، بينما لم يكن بالغ الأثر إزاء نور الدين ، برغم أنه ألزم المسلمين بالخلود الى السكينة في السنتين التاليتين . ثم عاد بلدوين الى مملكته ، بعد هذه الهزيمة الدبلوماسية حول زواج الامبراطور . ظلت حكومة مملكة بيت المقدس تسير على نهج مقبول ، منذ إقصاء امه عن السلطة . إذ أنهـــا تولت رياسة مجلس الوصاية ، سنة ١١٥٧ ، بينما كان بلدوين منصرفاً الى الحروب ، واحتفظت في يدها برعاية الكنيسة . فلما مات البطريرك فولشر في نوفمبر سنة ١١٥٧ ، ظفرت بترشيح كاهن ساذج ، اسمه أملريك نسله ، كانت تعرفه من قبل فتولى البطريركية ، وعلى الرغم من علمه وثقافته ، فانه لم يـــدر شيئاً عن أمور الدنيا ، ولم يكن له خبرة عملية . واعترض على تعيينه هيرنس رئيس أساقفة قيسارية ، ورالف اسقف بيت لحم . وكان لزاماً على أملريك ان يبعث الى روما ، فردريك اسقف عكا ، ليلتمس مساندة البـــابا . وبفضل كياسة فردريك وحذقه ، وبفضل ما بذله من رشاوى حسبما شاع ، استطاع ان يحصل على

---

(١) انظر : William of Tyre, *XVIII*. 31 , pp. 875 - 876.
Cinnamus, pp. 210 - 211.
Nicetas Choniates, p. 151.

يشيد خونياتس بجمال الامبراطورة الجديدة .

تصديق المجلس البابوي [1] . ولقيت ميليسيند في رعايتها للكنيسة المساندة من ابنة زوجها ، سبيللا كونتيسة الفلاندر ، التي رفضت ان تعود الى اوربا سنة ١١٥٨ مع زوجها ثيري ، بل عاشت راهبة في الدير الذي شيّدته ميليسيند في بيثاني . ولما ماتت ميليسيند في سبتمبر سنة ١١٦١ ، بينما كان بلدوين في انطاكية ، خلفتها سبيللا فيما كان لها من نفوذ في الأسرة الملكية ، وفي الكنيسة الى ان ماتت بعد اربع سنوات (١١٦٥) [2] .

وفاة بلدوين الثالث سنة ١١٦٢ :

وخرّ بلدوين مريضاً أثناء اجتياز طرابلس في طريقه الى بيت المقدس . فأرسل كونت طرابلس طبيبه الخاص ، وهو سوري اسمه البرّاق ليقوم على علاجه ، غير ان حالة بلدوين ازدادت سوءاً ، ومع ذلك مضى في طريقه حتى بلغ بيروت ، فمات بها في ١٠ فبراير سنة ١١٦٢ . كان بلدوين رجلاً طويل القامة ، متين البناء ، وما اتسمت بـه بشرته من البياض المشرب بالحمرة ، وما اتصفت به لحيته من الكثافة والشقرة ، دلّت على أنه ينعم بصحة سليمة ، ورجولة فائقة ، فاعتقد جميع الناس أن عقاقير الطبيب

---

(١) انظر : William of Tyre, *XVIII*. 20 , p. 854.
Rohricht, Regesta, pp.
أورد مثالين على ما رصدته ميليسيند من أعمال خيرية سنتي ١١٥٩ — ١١٦٠ .

(٢) انظر : William of Tyre, loc. cit.
يشير وليم الصوري الى اشتراك سبيلا مع ميليسيند ، ويورد ارنول رواية عن امتناع سبيلا عن مغادرة الارض المقدسة . انظر :
Ernoul, p. 21.

البرّاق هي التي أدّت الى موته متأثراً بالسم لم يتجاوز بلدوين الثالثة والثلاثين من عمره عند وفاته . ولو طال به العمر ، لأضحى ملكاً عظيم الشأن ، نظراً لما ادّخره من نشاط ، ولما اشتهر به من بصيرة نافذة ، ولما اتسم به من جاذبية ، لا سبيل الى مقاومتها . تلقى قـدراً كبيراً من التعليم ، فدرس التاريخ والقانون . واشتد حزن رعاياه لموته ، بـل ان الفلاحين المسلمين هبطوا من التلال ، لإظهار الاحترام لجثمانه عند تشييع الجنازة الى بيت المقدس . وعرض بعض أصدقاء نور الدين أن الوقت قد حان للقيام بهجوم على المسيحيين . غير ان نور الدين الذي عاد منذ وقت قريب من مكة بعد ان أدى فريضة الحج التي سبق أن أجّلها ، رفض ان يزعج قوماً يندبون فقدان اميرهم الكبير [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XVI. 2, pp. 705 - 706.

يورد وليم الصوري وصفاً لأخلاق وطباع بلدوين الثالث .

الفصل الرابع

التسابق للاستيلاء على مصر

لم ينجب بلدوين الثالث ذرية ، ولم تتجاوز الملكة اليونانية ثيودورا السادسة عشرة من عمرها حينما اضحت ارملة . وورث المملكة اخوه امالريك كونت يافا وعسقلان . ولم تمض على وفاة بلدوين ثمانية ايام حتى قام البطريرك امالريك بتتويج امالريك ملكاً . ومع ذلك فان ولايته الحكم تعرضت لمشكلة ، إذ لم يرض البارونات بالتخلي عن حقهم في انتخاب الملك ، على الرغم من انه لم يكن ثمة إلا مرشح واحد . إذ كان لديهم شكوى قانونية . فمنذ اربع سنوات تزوج امالريك من أجنيس كورتيناي ، ابنة جوسلين الثاني كونت الرها . وهي في المرتبة الثالثة من بنات عمومته ، وبذا تقع في نطاق درجات القرابة التي حرمت الكنيسة الزواج منها ، وسبق للبطريرك أن رفض التصديق على الزواج . على ان اسباباً اخرى ادت لكراهية اجنيس ، منها انها كانت اكبر سناً من امالريك ، ولقي زوجها السابق رينالد سيد مرعش مصرعه سنة ١١٤٩ ، حين كان امالريك في الثالثة عشرة من عمره . ولم تكن محمودة السمعة في عفتها . وطالب

البطريرك والباروناث بإلغاء الزواج . فبادر اماريك الى الموافقة ، غير انه اصرّ على الاعتراف بشرعية طفليه منها ، بلدوين وسبيللا ، وبحقوقهما في وراثة الحكم [1] .

الملك اماريك الاول سنة ١١٦٢ :

كان اماريك عند وفاة اخيه بلدوين في الخامسة والعشرين من عمره . كان كأخيه طويل القامة ، جميل الخلقة ، ذا بشرة فائقة البياض ، ولحية كثيفة شقراء ، على الرغم من ان النقاد يشيرون الى تكور صدره وترهله . ومع أنه لم ينل من التعليم ما ناله اخوه ، فانه كان واسع الإلمام بالأمور القانونية . وإذ اشتهر اخوه بالميل الى الحديث ، كان اماريك يتلعثم في الحديث ، ويلوذ بالصمت ، على ان انسياقه في الضحك بصوت مرتفع في احوال كثيرة انتقص قدراً من هيبته ومكانته . ولم يلق اماريك من المحبة عند الناس ما لقيه

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 1,4. pp. 883 - 884.
Robert of Torigny, I. p. 309.

حدد روبرت تاريخ زواج اماريك فجعله سنة ١١٥٧ عن زوج اجنيس السابق ، انظر ما سبق ص ٥٢٦ ، وتوافر عند المذيلين على تاريخ وليم الصوري من الدواعي ما حملهم على كراهية اجنيس ، انظر الكتاب الخامس من الفصل الاول . لقد بالغوا فيما نسبوه اليهـا من اخطاء ، غير ان ليس من الراجح ان شدة القرابة كانت العامل الوحيد الذي جعل الباروناث يصرون على طلاقها . ووفقاً لما ورد في تاريخ وليم الصوري ، اشار الى صلة القرابة ، رئيسة الدير ، ستيفاني ابنـة جوسلين الاول ، وماريا سالرنو ، غير انه ينبغي ان يكون معروفاً بأن بلدوين الاول وجوسلين الاول كانا ايضاً ولدي عم مباشرين،وأن البطريرك سبق ان رفض اقرار الزواج. والراجح ان اجنيس ولدت في سنة ١١٣٣، وتوفى الزوج السابق لأمها بياتريس في سنة ١١٣٢،ولم تلبث ان تزوجت بياتريس بعد وفاته ، من جوسلين كونت الرها .

أخوه، وافتقر الى ما كان لأخيه من جاذبية وخلال واضحة صريحة، يضاف الى ذلك ان حياته الخاصة لم تكن مقبولة [1] . وظهرت موهبته باعتباره رجلاً سياسياً، ولم تمض شهور قليلة على اعتلائه العرش، حين استنجد بالملك، جيرار سيد صيدا وشقيف ارنون، بعد ان انتزع اقطاع احد اتباعه دون مبرر . وأصر امالريك على أن لا بد للمحكمة العليا بالمملكة أن تنظر في هذه القضية . ثم اصدر قانوناً استند الى سوابق من هذا القبيل، أجاز فيه للأتباع الالتجاء الى المحكمة العليا في خصومتهم مع سادتهم . فاذا امتنع السيد عن حضور المحكمة العليا تقرر اعتبار تصرف السيد خاطئاً، ولا بد من اعادة التابع الى اقطاعه . وهذا القانون الذي بمقتضاه أضحى اتباع كبار المقطعين على صلة مباشرة بالملك، الذي كان لزاماً عليهم أن يبذلوا له يمين التبعية، زاد في نفوذ الملك القوي الذي سيطر على المحكمة العليا . على ان المحكمة العليا ذاتها، كانت مؤلفة من هذه الطبقة التي صدر القانون لمناوئتها . فاذا كان الملك ضعيفاً، يصح استخدام هذا القانون لمناهضته، بأن يلجأ الى استخدامه مقطعو الضياع الملكية [2] . وتلى هذا القانون صدور قوانين اخرى لتنظيم العلاقات بين الملك وأتباعه .

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIX*. 2, 3, pp. 884 - 888.

(٢) عن هذا القانون الهام، انظر ما سبق ص ٤٨٢ . انظر ايضاً :

La Monte, Feudal Monarchy, pp. 22 - 23 , 99, 153,

Grandclaude : « Liste d'Assises de Jerusalem », in Mélanges Paul Fournier, pp. 329 ff.

حدد جراندكلاود صدور هذا القانون بأن جعله سنة ١١٦٦، وأورد كل القوانين المنسوبة الى أمالريك .

وإذ وطّد امالريك سلطته في داخل البلاد ، صار بوسعه ان يلتفت الى الأمور الخارجية . ففي الشمال كان مستعداً بـــأن يضحي بأنطاكية للبيزنطيين ، إذ حدث حوالي نهاية سنة ١١٦٢ ، ان وقعت اضطرابات في قليقية ، عقب مصرع ستيفن شقيق ثوروس ، بينما كان سائراً لحضور مأدبة أقامهـا الحاكم البيزنطي اندرونيقوس ، فاتهم ثوروس ، برغم توافر الأدلة على رغبته في التخلص من ستيفن ، الحـــاكم البيزنطي بتعقيد الأمور ، فزحف على المصيصة وعيّن زربه وفاهكا ، ففاجـأ الحاميات اليونانية ، وأنزل برجالهـا القتل والذبح . وبادر امالريك الى مساندة الامبراطور ، الذي عزل اندرونيقوس وأحلّ مكانه قائداً كفئاً بجري الاصل ، وهـــو قنسطنطين كولومان . فقدم كولومان بقوات لتعزيز حاميـــات قليقية ، وانسحب ثوروس الى الجبال منتحلاً الأعذار[1] .

كان بوهمند امير انطاكية في الثـــامنة عشرة من عمره ، فبلغ بذلك السن التي يباشر فيهـــا الحكم . على ان كونستانس التمست النجدة من كولومان ، نظراً لحرصها على الاحتفاظ بسلطتها ، وما تردد من شائعة بطلب النجدة أثار الفتنة في انطاكية . فتقرر نفي كونستانس ، وإحلال بوهمند

---

(١) انظر : Cinnamus, p. 227.
Gregory the Priest, p. 200.
Sembat the Constable, p. 621.
Michael the Syrian, III. p. 319. Armenian version, pp. 349 - 356.

مكانها ، ولم تلبث كونستانس أن ماتت [1] . ولم يعترض الامبراطور على مـا حدث من تغيير في الحكم . ولعل ذلك يرجع الى ان اماريك بذل ضمانات باحترام سيادة الامبراطور على انطاكية . غير انـه اكمالاً لهذا الضمان ، دعا الامبراطور ، الابن الثـاني لكونستانس ، وهو بلدوين ، ثم ابناءها من رينـالد للقدوم الى القسطنطينية . فالتحق بلدوين بالجيش الامبراطوري ، ولقى حتفه في احدى المعـارك [2] . ومع أن الملك اماريك ساند البيزنطيين صراحة ، فانه كتب وقتذاك الى لويس السابع ملك فرنسا يسأله ما اذا كان ثمة أمل في بذل المساعدة للاتين بالشام [3] .

---

(١) انظر : Michael the Syrian, III. p. 324.
Chron. Anon. Syr.
اتفق هذان المؤرخان فيا أورداه من أحداث سنة ١١٦٠ ، وسنتي ١١٦٢ — ١١٦٣ .
Ughelli, Italia Sacra, *VII*. p. 203.
أشار أوجيللي الى وثيقة مؤرخة في سنة ١١٦٧ ورد فيها أن بوهمند الثالث اتخذ لنفسه لقب امير انطاكية ، وسيد اللاذقية وجبلة . ولما كانت اللاذقية وجبلة من أملاك امه ، فالراجح أنهـا ماتت .

(٢) انظر ما يلي ، الكتاب الخامس، الفصل الاول . أما أجنيس ابنة كونستانس من رينالد فتزوجت فيا بعد من الكسيوس او بيلا الثالث المطالب بعرش المجر ، والذي صار ملكاً على بلاد المجر سنة ١١٧٣ . انظر :
Nicetas Choniates, p. 221.

(٣) وردت رسائل أماريك في :
Bouquet, R. H. F. vol. *XVI*. pp. 36 - 37, 39 - 40.
أشار في الرسالة الثانية الى ما تتعرض له انطاكية من خطر من قبل البيزنطيين.وكتب بوهمند الثالث حوالي ذلك الوقت الى لويس السابع ايضاً . انظر :
Ibid, pp. 27 - 28.

المؤامرة في القاهرة سنة ١١٥٤ :

الواقع أن النية الطيبة عند البيزنطيين كانت بالغة الاهمية عند امالريك ، كما يحقق أكبر هدف سياسي له ، وهو السيطرة على مصر . إذ ان بقاء الامارات اللاتينية توقف ، حسب ادراكه السليم ، على ما يقع بين جيرانه المسلمين من اختلاف وتفرقـــة . على ان سوريا الاسلامية أضحت فعلاً متحدة ، غير انـــه طالما استمر العداء بين مصر ونور الدين ، فلن يتحرج الموقف . على ان الخلافـة الفاطمية اضحت من الضعف ما يؤذن باقتراب زوالها ، فلا ينبغي ان تقع في يدي نور الدين . ازدادت الفوضى في البلاط الفاطمي منذ ضياع عسقلان . ولم يعش الوزير عباس إلا سنة واحدة بعد وقوع الكارثة . ولقي ابنه نصر الحظوة عند الخليفة الظافر ، وما كان بينهما من صلة افتضح امرها بين الناس ، فأثار ذلـك عباساً ، لا لأسباب خلقية ، بل لمخاوفه التي بناها على اساس سليم ، بأن الظافر قصد الايقاع بين الابن وأبيه . وعلم أسامة الذي ما زال بالبلاط الفاطمي ، ان نصراً وافق فعلاً على قتل ابيه عباس ، فبـادر الى التوفيق بينهما ، ولم يلبث ان اقنع نصراً بأنـــه لمن الخير ان يغتال الخليفة عوضاً عن ابيه . فدعا نصر الخليفة الى مجلس لهو في داره في منتصف الليل ، ولما استقر به المجلس ، طعنه فقتله ، وأشاع عباس ان القتلة لم يكونوا سوى اخوة الخليفة ، فأمر بإعدامهم ، وعهد بالخلافة الى الفائز بن الظافر ، وهو صبي لم يتجاوز الخامسة من عمره ، شهد مصرع اعمامه ، فتعرض منذئذ لنوبات صرع مزمن . وارتابت اميرات القصر في صحة ما شاع ، فأرسلن يستدعين ابن رزّيك حاكم الصعيد ، وهو ارمني الاصل ، لإنقاذهن ، فزحف على القاهرة ، وظفر بتأييد قادة الحامية . أما عباس ونصر فجمعا ما لديهما من

مال وتحف، وهربا من العاصمة في ٢٩ مايو سنة ١١٥٤، واصطحبا اسامة الذي شرع ايضاً في التآمر مع ابن رزيك . وما كادوا يخرجون من صحراء سيناء، حتى انقضّت عليهم قوات من الفرنج من حصن الشوبك . واستطاع اسامة ان يفلت، فوصل سالماً الى دمشق، بينما لقي عباس مصرعه ووقع نصر بكل ما معه من مال في ايدي الفرنج . وتسلم الداوية نصراً، الذي بادر الى الاعراب عن رغبته في التحوّل الى المسيحية . غير ان بـــلاط الفاطميين بالقاهرة عرض على الداوية ستين الف دينار، مقابل رده اليهم، وعندئذ توقف حديثه معهم، وجرى ارساله مكبّلاً بالأغلال الى القاهرة، حيث أخذ أرامل الخليفة الحافظ الاربعة ينكلن به، ثم تمّ شنقه، وظلت جثته معلقة على باب زويلة مدة سنتين (١) .

ظل ابن رزيك في الحكم حتى سنة ١١٦١ . على أن الخليفة الصبي، الفائز، مات سنة ١١٦٠، فخلفه ابن عمه العاضد الذي لم يتجاوز وقتذاك التاسعة من عمره، والذي أجبر على ان يتزوج في السنة التالية من ابنة ابن رزيك . غير أن عمة الخليفة، اخت الظافر ساورها الشك في طموح الوزير، فحرّضت اصدقاءها على ان يطعنوه اثناء سيره في رواق القصر . على ان ابن رزيك استطاع قبل وفاته في سبتمبر سنة ١١٦١، أن يدعو

---

(١) انظر : Usama, ed. Hitti, pp. 43 - 54.
لم تخف روايته تقلب أهوائه وتغير ولائه .
Ibn al - Athir, pp. 492 - 493.
William of Tyre, *XVIII*. 9, pp. 832 - 834.
Wiet, l'Egypte Musulmane, pp.191 ff.

الاميرة للالتقاء به ، وأن يقتلها بيديه . وتولى الوزارة بعده ، ابنه العادل الذي ظلّ يحكم خمسة عشر شهراً ، ثم طرده من الوزارة ، وأمر بقتله ، حـــاكم الصعيد ، شاور ، الذي بقي في الوزارة بعده ثمانية اشهر ، حتى طرده في اغسطس سنة ١١٦٣ ، الحاجب ضرغام ، وهـــو من العرب . وكيما يوطد ضرغام سلطانه ، أمر بإعدام كل من خشي طموحه ، فكاد الجيش يخلو من كبار القادة [١] .

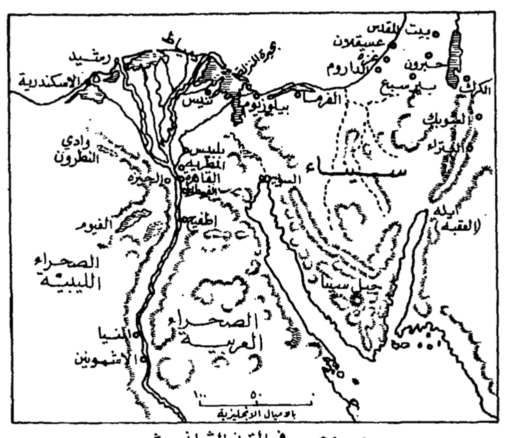
حدث سنة ١١٦٠ أن هدد الملك بلدوين الثالث بغزو مصر ، ولم يمنعه من ذلك إلا ما حصل عليه من وعد بأن يؤدي له الخليفة الفاطمي اتاوة سنوية قدرها مائة وستون الف دينار . على أن هذه الأتاوة لم يجر دفعها مطلقاً ، فاتخذ اماريك من ذلك ذريعة ليهبط فجأة على مصر في سبتمبر سنة ١١٦٣ . فاجتاز برزخ السويس في سهولة ويسر ، ثم القى الحصار على الفرمـــا . وإذ كان النيل في موسم الفيضان ، استطاع ضرغام أن يجبر اماريك على الانسحاب ، بأن حطم بعض سدود النيل [٢] .

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, p. 529.
Abu Shama, p. 107.

(٢) انظر : William of Tyre, *XIX*. 5, pp. 890 - 891.
R. H. F. vol. XVI. pp. 59 - 60.

وردت في هـــذه المجموعة رسالة أماريك ، التي أكد فيها للملك لويس أنه بفضل مساعدة بسيطة منه يتيسر فتح مصر . انظر ايضاً :
Michael the Syrian, *III*. p. 317.



٥- مصر في القرن الثاني عشر

نور الدين يتعرض للهزيمة في حصن الاكراد سنة ١١٦٣ :

راقب نور الدين ما حدث من تدخل امالريك في أمر مصر ، فاغتنم فرصة غيـــاب امالريك ، فهاجم طرابلس التي تعتبر اضعف الامارات الصليبية . فأغار على البقيعة ، كما يحاصر حصن الاكراد الذي كان يشرف على السهل الضيق . وواتى الفرنج الحظ الطيب ، بأن تصادف أن هيو كونت لوزيجنان ، وجفري مارتل شقيق كونت انجوليم ، كانا يجتـــازان طرابلس بأتباعهما عائدين من بيت المقدس بعـد تأدية الحج . فانحازا الى ريموند كونت طرابلس ، وترتب على الاستنجاد العاجل بأنطاكية ، أنه لم يقدم فحسب من الشمال ، بوهمند الثالث امير انطاكية ، بل جاء ايضاً القائد البيزنطي قنسطنطين كولومان . فأسرع الجيش المسيحي المتحـد بالسير ، مجتازاً التلال ، حتى فاجأ المسلمين في معسكرهم اسفل حصن الاكراد . وبعد معركة لم تستمر طويلاً ، اشتهر فيها كولومان وعساكره بما بذلوه من البلاء في القتـــال ، هرب نور الدين الى حمص وقد اضطرب نظام جيشه ، فأعاد بها نور الدين تنظيم صفوف الجيش وتلقى الامداد ، فتخلى المسيحيون عن المطاردة [١] .

لم يلبث شاور ، الوزير السابق الذي فرّ من مصر ، ان ظهر بعدئذ

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 8 , pp. 894 - 895.
Ibn al - Athir, p. 531. Atabegs, pp. 207 - 209.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 534.
Michael the Syrian, III. p. 324.
يشير ابن الاثير الى ان البيزنطيين كانوا أشد العناصر تأثيراً في الجيش المصري .

في بلاط نور الدين ، وعرض على نور الدين اذا ارسل جيشاً لإعادته الى الحكم بالقاهرة ، ان يدفع نفقات الحملة ، وأن يتنازل له عن المناطق الواقعة على الحدود ، وأن يعترف بسيادة نور الدين ، وأن يؤدي جزية سنوية قدرها ثلث خراج مصر . فتردد نور الدين في قبول العرض ، اذ خشي ان يخاطر بجيش على امتداد الطرق التي يسيطر عليها الفرنج وراء الاردن . ولم يقدم على هـذه الخطوة إلا في ابريل سنة ١١٦٤ ، بعـد ان استخار القرآن ، فأمر اقرب القادة اليه وأكثرهم ثقة عنده ، وهو شيركوه ، بأن يسير على رأس جيش كثيف عبر الصحراء ، بصحبة شاور ، بينما يصرف الفرنج عنه بمهاجمة بانياس . وتوجه مع شيركوه ، صلاح الدين ابن اخيه نجم الدين ايوب ، وهو شاب كان يناهز السابعة والعشرين من عمره ، لم يكن حريصاً على الاشتراك في الحملة . وإذ ارتاع ضرغام لما حدث ، ارسل في طلب المساعدة من أملريك . غير ان مسير شيركوه بلغ من السرعة أنه اجتاز برزخ السويس ، قبل ان يستعد الفرنج للتدخل . وحلت الهزيمة قرب الفرما بأخ لضرغام مع كل من استطاع ان يحشده من عساكر قليلة العدد . ولم ينقض شهر مايو سنة ١١٦٤ حتى عـاد شاور الى الوزارة بالقاهرة ، ومات ضرغام[١] .

على ان شاور نقض عهده بعد ان عاد الى الحكم ، وطلب الى شيركوه

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 5, 7. pp. 891 - 892.
Abu Shama, p. 107.
Ibn al - Athir, p. 533. Atabegs, pp. 215 - 216.
Beha ad - Din, P. T. T. S. pp. 46 - 48.

الرجوع الى سوريا ، فرفض شيركوه الاستجابة له ، واستولى على بلبيس .
ولم يسع شاور إلا ان يستنجد بالملك امالريك ، وطلب اليه التعجيل
بالقدوم ، بعد ان عرض عليه ان يؤدي الف دينار عن كل مرحلة من
مراحل الرحلة من بيت المقدس الى نهر النيل التي يبلغ عددها سبعاً
وعشرين مرحلة ، وبعد ان وعد بأن يبذل هدية اخرى لمن يصحبه من
فرسان الاسبتارية ، وأن يتكفل بنفقات علف أفراسهم . وبعد ان هيأ
امالريك لمملكته اسباب الدفاع القوية ، بادر بالمسير في اوائل اغسطس
الى فاقوس الواقعة على نهر النيل [١] . فلحق به عندها شاور ، ثم تحركا
معاً ، لحصر شيركوه في بلبيس . وظل حصن بلبيس صامداً للحصار مدة
ثلاثة شهور ، والراجح انه كاد يسقط حينما قرر امالريك ، بعد ان تلقى
أنباء من سوريا ، رفع الحصار ، بشرط جلاء شيركوه عن مصر . ووافق
شيركوه على هذا الشرط ، وسار الجيشان الفرنجي والشامي ، في طريقين
متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء ، بعد ان تركا شاور يسيطر على مقاليد
الحكم . وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه ، وحينما ودّع
الفرنج ، سأله فرنجي قدم حديثاً الى الشرق : ألم تخشَ الخيانة ؟ فأجاب
في اعتزاز ، بأن كل جيشه سوف ينتقم له ، وعندئذ ردّ الفرنجي في
شهامة أنه ادرك الآن السر في ذيوع صيت شيركوه بين الصليبيين [٢] .

---

(١) الواقع أن فاقوس لا تقع على نهر النيل ، إنما كانت تقع على فرع قديم من فروع النيل .

(٢) انظر : William of Tyre, XIX. 7, pp. 893 - 894.
Ibn al - Athir, pp. 534 - 536. Atabegs, pp. 217 - 219.
Abu Shama, p. 125.

هزائم الفرنج في ارتاح سنة ١١٦٤ :

أما الانباء التي جعلت اماريك يعجل بالعودة من مصر الى بلاده ، فانها جاءت من انطاكية . ذلك ان نورالدين حينما علم بأن اماريك توجه الى مصر ، هاجم الامارة الشمالية (انطاكية) ، فحاصر حارم التي تعتبر معقلها الرئيسي . وانحاز الى نور الدين ، جيش اخيه من الموصل ، وعساكر الأمراء الأراتقة بديار بكر ، وماردين وديرت ، وكِر . وبينما كان رينالد سانت فاليري سيد حارم يستبسل في الدفاع ، دعا بوهمند الثـالث امير انطاكية كلاً من ريموند كونت طرابلس ، وثوروس صاحب ارمينيـة ، وقنسطنطين كولومان القائد البيزنطي للنهوض لنجدته . فخرجوا جميعاً لمساندته في منتصف شهر اغسطس سنة ١١٦٤ . فلما سمع نور الدين بقدومهم ، رفع الحصار عن حارم . وتشير الرواية الى ان اشد ما كان يخشاه نور الدين ، هو أن يشترك في الحرب جيش بيزنطي . فلما انسحب نور الدين ، عزم بوهمند بفرسانه البالغ عددهم نحو ستمائة ، ان يقتفي اثره ، مخالفاً بذلك نصيحة رينالد سانت فاليري ، لأن الجيش الاسلامي يفوقهم عدداً . ووقع الصدام بين الجيشين في ١٠ اغسطس ، قرب ارتاح . وإذ تجاهل بوهمند تحذير ثوروس له ، بادر بالهجوم ، ولما تظاهر المسلمون بالفرار ، اندفع وراءهم ، فلم يلبث ان وقع في كمين نصبوه له ، فأطبق جيش الموصل عليه وعلى فرسانه من كل الجهات ، وهرب من ساحة المعركة ثوروس وأخوه مليح لما اشتهر به من شدة الحذر . أما بقية الجيش المسيحي فإنه لم ينج من القتل منه إلا من وقع في الأسر . وكان من الذين وقعوا في الأسر ،

بوهمند ، امير انطاكية ، وريموند كونت طرابلس ، وقنسطنطين كولومان ، وهيو لوزيجنان ، فجرى ربطهم سوياً في الحبال وحملهم الى حلب [1] .

وحثّ الناصحون نور الدين على ان يزحف على انطاكية التي أضحت مجردة من اسباب الدفاع ، غير انه رفض ، لأنه اذا تحرك نحو انطاكية فسوف يبادر البيزنطيون ، حسبما قال ، الى إنفاذ حامية الى القلعة ، ومع أنه قد يستولي على المدينة ، فإن بوسع القلعة ان تستمر على المقاومة حتى يصل الامبراطور البيزنطي ، واعتقد نور الدين أنه لئن تبقى بهذه الجهات امارة صغيرة للفرنج ، خير من ان يتركها لتؤلف جانباً من امبراطورية كبيرة . وبلغ من شدة حرص نور الدين على ألا يغضب بيزنطة ، أنــه أطلق على الفور سراح القائد الامبراطوري قنسطنطين كولومان ، مقابل

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 9, pp. 895 - 897.
أخطأ وليم الصوري في تحديد التاريخ ، بأن جعله سنة ١١٦٥ .
Robert of Torigny, I. p. 355.
R. H. F. vol. XVI. pp. 60 - 62.
(وردت بهذه المجموعة رسائل اماريك الى لويس السابع ملك فرنسا) .
(أورد كيناموس رواية قصيرة عن أسر كولومان) . Cinnamus, p. 216.
Michael the Syrian, III. p. 324.
Chron. Anon. Syr. p. 304.
Bustan, p. 559.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 510.
Abu Shama, p. 133.
Ibn al - Athir, Atabegs, pp. 220 - 223.

مائة وخمسين ثوب من الحرير . وبـذا أنقذ انطاكية مرة اخرى ما كان للامبراطورية من هيبة ومكانة .

وبينما كان أملريك يهرع نحو الشمال ، لحق بـه ثييري كونت فلاندر الذي قدم الى فلسطين لتـأدية الحج للمرة الرابعة . وبهذه الامداد توقف املريك عند طرابلس لتوطيد حقه في الوصاية على طرابلس اثناء غياب الكونت في الأسر ، ثم مضى في سيره الى انطاكية . فلما بلغها دخل في مفاوضات مع نور الدين الذي وافق على اطلاق سراح بوهمند الثالث امير انطاكية وثوروس مقـابل فدية كبيرة . غير ان نور الدين لم يوافق على ذلك إلا لكونهما من أتباع الامبراطور البيزنطي ، إذ أنه لم يطلق سراح ريموند كونت طرابلس، او رينالد شاتيون الذي سبق ان وقع في اسره [1] .

على أن املريك انزعج حينما قدم اليه رسول من قِبَل الامبراطور يسأله مـاذا يفعل في انطاكية ، فردّ املريك بأن ارسل الى القسطنطينية رئيس اساقفة قيسارية ، والساقي اودو سانت أماند ، فطلبا من الامبراطور يد اميرة امبراطورية واقترحا عقد محالفة ، للاستيلاء على مصر [2] . على

---

(١) انظر : William of Tyre, *XIX*. 10, 11, pp. 898, 900 - 901.
Bustan, p. 561.
Michael the Syrian, III. p. 326. Armenian version, p. 360.
يشير ميخائيل السرياني الى ان ثوروس حرص على ان يطلق سراح بوهمند ، بعـد ان تم الإفراج عنه .

(٢) انظر : Cinnamus, pp. 237 - 238.
William of Tyre, *XX*. 1, p. 942.

ان الامبراطور مانويل استبقى السفارة مدة سنتين دون ان يردّ عليها . وكان لزاماً على امالريك ، في تلك الاثناء ، ان يعود صوب الجنوب ؛ إذ ان نور الدين لم يهاجم انطاكية ، بل ظهر فجأة في اكتوبر امام بانياس ، وكان سيدها همفري الثاني تورون وقتذاك بصحبة جيش امالريك . أطلق نور الدين من قبل الشائعات بأنه يقصد طبرية ، فتركزت بها قوات الفرنج المحلية . واستبسلت حامية بانياس اول الأمر في المقاومة ، وانعقد الامل على ان ينهض لنجدتهـا ثيبري كونت فلاندر الذي قدم وقتئـذ الى فلسطين ، غير ان الحامية استسلمت فجأة ، ولعل ذلك يرجع الى حدوث خيـانة . فاحتل نور الدين البلاد المحيطة ببانياس ، وهدّد بالزحف على الجليل ، فلم يسع البارونات إلا أن يعدوا ببذل الاتاوة [1] .

بطريرك يوناني لانطاكية سنة ١١٦٥ :

لم يكد يطلق سراح بوهمند امير انطاكية ، حتى توجه الى القسطنطينية ليقوم بزيارة اخته ، وليلتمس من صهره (الامبراطور) المال اللازم لتسديد ما تبقى عليه من الفدية لنور الدين ، فمنحه مانويل ما طلب من المال ، وفي مقابل ذلك صحب بوهمند معه عند عودته الى انطاكية ، البطريرك اليوناني اثناسيوس الثاني . امـا البطريرك اللاتيني ، ايمري ، فإنه توجه الى

(١) انظر : William of Tyre, *XIX.* 10, pp. 898 - 900.
Ibn al - Athir, p. 540 - 542. Atabegs, p. 234.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 541.

منفاه بقلعة القصير [١] ، بعد ان أعلن احتجاجه وسخطه . وظل اليونانيون يسيطرون على كنيسة انطاكية في السنوات الخمس التالية . على انه يبدو ان الاساقفة اللاتين لم يطردوا نهائياً ، غير ان الاساقفة اليونانيين شغلوا الوظائف الشاغرة . ولم تتأثر بذلك كنيسة طرابلس اللاتينية التي تنتمي الى بطريركية انطاكية . على ان قدوم اليونانيين حمل الكنيسة اليعقوبية على ان ترتمي في احضان اللاتين . وقد سادت المودة بين اليعاقبة واللاتين منذ سنة ١١٥٢ حينما ظفر طفل فرنجي اعرج بالشفاء عند ظهور معجزة عند ضريح القديس برسوما السرياني . وفي سنة ١١٥٦ تهيأ لليعاقبة ان يشيّدوا كاتدرائية جديـــدة ، شهد تدشينها الاميرة كونستانس والأمير ثوروس الارمني ، ممـــا أثلج صدر البطريرك اليعقوبي المؤرخ ميخائيل السرياني . ثم توجه البطريرك ميخائيل الى القصير كيما يزور ايمري ويبثه عطفه . وبلغت كراهية ميخائيل لليونانيين من المرارة ما جعله يرفض في سنة ١١٦٩ دعوة وديّة وجّهها اليه الامبراطور للقدوم الى القسطنطينية ، ليشترك في احدى المناظرات الدينية التي كان يهتم بهـــا الامبراطور مانويل [٢] .

أمضى نور الدين سنتي ١١٦٥ ، ١١٦٦ في القيام بهجمات مفاجئة على

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 11, p. 901.
Michael the Syrian, III. p. 326.

المعروف ان اثناسيوس الثاني جرى تعيينه بطريركاً على انطاكية في سنة ١١٥٧ ، حينما اتهم بالاتحاد البطريرك بانتوخيتينس سوتيريكوس .

(٢) انظر : Michael the Syrian, III. p. 301 - 304, 332, 334 - 336.

الحصون الواقعة على منحدرات جبال لبنان ، بينما أغار شيركوه على اقليم ما وراء نهر الاردن ، فدمر قلعة أقامها الداوية في كهف بجنوب عمان [1] . وفي نهاية سنة ١١٦٦ ، حصل شيركوه آخر الامر على اذن من سيده ، نور الدين ، بالتوجه مرة اخرى لغزو مصر . وأقنع الخليفة العباسي ببغداد بأن يعتبر الحملة موجهة لقتال الخلافة الفاطمية الشيعية ، والراجح ان هذه الحجة أثرت في نور الدين الذي اشتد ورعه منذ مرضه . فأرسل من حلب أمداداً الى شيركوه وجيشه . وخرج شيركوه من دمشق في يناير سنة ١١٦٧ ، وصحبه ايضاً في هذه الحملة صلاح الدين . ولم يخف شيركوه هذه المرة نواياه . وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد للمرة الثانية بأماريك . كان أماريك وقتذاك بنابلس ، فدعا باروناته للاجتماع به . وبعد ان اشار اماريك الى ما تتعرض له فلسطين من خطر ، اذا استولى السوريون السنّيون على مصر ، وافقت المحكمة العليا على توجيه حملة كاملة العدة والعدد لإنقاذ شاور . ولا بد أن تشترك في الحملة كل القوة الضاربة بالمملكة ، فضلاً عن

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 11, pp. 901 - 902.
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 501.
حدد بهاء الدين بن شداد تاريخ الاستيلاء على المنيطرة بعد الحملة المصرية في سنة ١١٦٧ .
Ibn al - Athir, pp. 545 - 546. Atabegs, pp. 235 - 236.
استولى نور الدين على المنيطرة الواقـــعة على الطريق الممتد من جبيل الى بعلبك ، بينما انتزع شيركوه شقيف طيطون او شقيف تيرون الذي اعتبره راي حصن نيها ، الذي يبعد حوالي ثلاثة عشر ميلاً الى الشرق من صيدا. أما موقع حصن الداوية بالقرب من عمان فليس معروفاً ، أطلق عليه بهاء الدين اسم أكاف ، ولعله مغارة الكهف الواقعة الى الجنوب الشرقي من عمان ، التي حوت خرائب رومانية ، غير أنه ليس بها ما يدل على عمائر ترجع الى العصور الوسطى . انظر ايضاً :
Rey, Les Colonies Franques p. 513.

اتخاذ مواقعها على الحدود لدرء ما يجري من هجمات أثناء غياب الملك. وكل من لم يشترك في الحملة، التزم بأن يؤدي عُشر دخله. غير أنه حدث قبل ان يكتمل استعداد جيش الفرنج، أن وردت الأنباء بأن شيركوه يجتاز فعلاً صحراء سيناء، فلم يسع املريك إلا ان يرسل ما تيسر الحصول عليه من العساكر، لعرقلة مسيره، غير ان ذلك جاء متأخراً[1].

سفيران للفرنج بالقاهرة سنة ١١٦٧ :

وعلى الرغم من ان عاصفة رملية شديدة كادت تودي بجيش شيركوه، فإنه وصل سالماً الى برزخ السويس في اوائل شهر فبراير سنة ١١٦٧، وهنا علم شيركوه ان جيش الفرنج شرع في السير في ٣٠ يناير ١١٦٧، وعندئذ اجتاز شيركوه الصحراء صوب الجنوب الغربي حتى بلغ نهر النيل عند اطفيح على مسافة اربعين ميلاً جنوبي القاهرة. ثم عبر النيل عند اطفيح الى الضفة الغربية، فالتزمها في سيره حتى عسكر في الجيزة تجاه القاهرة. وفي تلك الأثناء اقترب جيش الفرنج من القاهرة، وقد قدم اليها من جهة الشمال الشرقي. فالتقى به شاور على مسافة من القاهرة، وأرشده الى معسكر على الضفة الشرقية للنيل، على مسافة ميل واحد من اسوار القاهرة. وعقد شاور عهداً مع املريك، بعد ان رفض اقتراحاً تقدم به شيركوه يقضي بالاتحاد لمناوءة المسيحيين. وتقرر ان يؤدي شاور

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 13, 16, pp. 902 - 904, 907 - 908.
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 48.
يشير ابن شداد الى ان نور الدين ألزم صلاح الدين بالمسير مع شيركوه. انظر ايضاً :
Ibn al - Athir, p. 547. Atabegs, p. 236.

للفرنج اربعمائة الف دينار (بيزنت) ، يدفع نصف هذا المبلغ على الفور ، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد ، بشرط ان يقسم امالريك بألا يغادر مصر إلا بعد طرد شيركوه منها . وأنفـذ الملك امالريك الى القاهرة كلا من هيو سيد قيسارية ، وجفري احد فرسان الداوية ، الذي كان فيما يبدو يجيد التحدث باللغة العربية ، للحصول من الخليفة الفاطمي على الموافقة الرسمية على المعاهدة . ولقي الرسولان استقبالاً حافلا ، إذ اجتاز الرسولان في طريقهما صفوف الاعمدة ، والنافورات ، والحدائق التي قامت بها حظائر الحيوانات والطيور الضارية ، فصارا يسيران من قاعـــة الى قاعة ازدانت بالستائر المصنوعة من الحرير وخيوط الذهب ، وترصعت بالجواهر ، حتى انفرجت أمامهما آخر الامر ستارة كبيرة مزركشة بالذهب ، فكشفت عن الخليفة الصبي وقــد تلثم واتخذ مجلسه على سرير الملك المصنوع من الذهب . فتمّ أخـــذ الايمان على الوفاء بالمعاهدة ، ثم أراد هيو ، باعتباره ممثلا للملك امالريك ، ان يختم العقد على نحو ما هو معروف في الغرب ، بأن يصافح يد الخليفة . فارتاع رجـــال البلاط المصري ، غير ان الخليفة ابتسم ساخراً ، آخر الأمر ، ونزع قفازه ، وصافح هيو . ثم انسحب الرسولان وقد اشتد تأثرهما ، بما تكدّس من ثروة الامبراطورية الفاطمية ، وهو ما كان يقصد اليه رجال البلاط الفاطمي[1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 17 - 19. pp. 908 - 913.
Ernoul, p. 19.

يشير ارنول الى انه لم يفق بلاط القاهرة في الثروة سوى بلاط الامبراطور البيزنطي بالقسطنطينية .

Abu Shama, p. 130.

يواصل وليم الصوري روايته بما اورده عن الفرق بين المذهبين السني والشيعي .

وظل الجيشان شهراً يرقب احدهما الآخر ، ولم يستطع كل منهما ان يجتاز النهر ، قبالة الآخر . ثم استطاع امالريك ان يعبر الى جزيرة (وراق الحضر) تقع عند رأس الدلتا ، على مسافة قصيرة الى الشمال ، ومنها عبر الى الضفة اليسرى للنيل ، حيث فاجأ وحدة من جيش شيركوه . فانسحب شيركوه صوب الجنوب ملتزماً النيل في سيره ، بعد ان تبين له تفوق جيش الفرنج والمصريين في العدد . فاقتفى أثره أماريك وشاور ، غير أنهما خلفا على سبيل الاحتياط ، حامية قوية بالقاهرة بقيادة الكامل بن شاور وهيو ابلين . على ان دخول قوة هيو الى القاهرة ، والسماح للقادة بالتردد على القصر ، أقلق خاطر الدوائر الاسلامية بالقاهرة ، المعروفة بشدة تزمتها .

تجهز شيركوه لعبور النيل من جديد ، على مسافة غير بعيدة من مدينة المنيا في مصر الوسطى ، بعد ان فكر في العودة الى مهاجمة الحدود السورية . عسكر في الأشمونين في خرائب مدينة هيرموبوليس القديمة ، وفي هذا الموضع ضيق جيش الفرنج والمصريين الخناق عليه ، وقد تفوق عليه في العدد ، والواضح ان الحامية المرابطة بالقاهرة لم تشترك في القتال . وتألف جيش شيركوه أساساً من الفرسان الترك ، بينما كان المصريون من الرجالة ، ولم يكن لدى الفرنج إلا بضعة مئات من الفرسان . وعزم شيركوه على ان ينشب معركة ، برغم تحذير امرائه له . أما اماريك فأظهر التردد ، على ان القديس برنارد أحل سوء الطالع بتاريخ الحركة الصليبية ، إذ ظهر للملك اماريك في رؤية ، ووجه اليه اللوم بأنه ليس جديراً بقطعة الصليب المقدس التي يتخذها حول عنقه . ولم يبارك القديس برنارد الأثر الديني إلا بعد ان اقسم بأن يكون مسيحياً صالحاً . وإذ تشجع الملك بهذه الرؤية ، شن في صبيحة اليوم التالي ، ١٨ مارس سنة ١١٦٧ ، هجوماً

على القوات السورية. انتهج شيركوه ما هو مألوف عند الترك من خطط حربية ، إذ ان قلب الجيش بقيادة صلاح الدين تخلى عن مواقعه ، ولما ركض الملك امالريك وفرسانه لمطاردته ، قذف شيركوه بجناحه الأيمن لقتال الجناح الأيسر للجيش الفرنجي المصري ، الذي تبدد وتحطم. فألفى اماريك نفسه محصوراً من جميع الجهات ، وجرى الظن ان بقاءه على قيد الحياة إنما رجع الى الأثر الديني الذي باركه القديس برنارد. غير ان عدداً كبيراً من خيرة فرسانه لقوا مصرعهم ، بينما وقع آخرون في الأسر ، ومنهم هيو سيد قيسارية. وتراجع اماريك وشاور بمن تبقى من جيشها الى القاهرة ، للانحياز الى قوات الحامية بالقاهرة [1].

صلاح الدين وحصار الاسكندرية سنة ١١٦٧ :

أحرز شيركوه انتصاراً باهراً ، غير أنه لا زال بساحة المعركة جيش متحالف. اجتاز شيركوه النيل مرة اخرى وعجل بالمسير صوب الشمال الغربي الى الفيوم ، ولم يحاول مهاجمة القاهرة. ولم تمض إلا ايام قليلة حتى

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 22 - 25, pp. 917 - 928.
(اورد وليم الصوري وصفاً لمصر والنيل).
Ibn al - Athir, pp. 547 - 549. Atabegs, p. 23.
اورد ابن الاثير تاريخ معركة الاشمونين (١٨ مارس) ، غير انه جعلها في تاريخ الاتابكة في ١٨ ابريل.
انظر ايضاً :
Vita St. Bernardi, M. P. L. vol. CLXXXV, cols. 366 - 367.
جعل القديس برنارد تاريخ المعركة ١٩ مارس.

ظهر امام الاسكندرية ، ففتحت له المدينة الكبيرة أبوابها ، نظراً لما تكنه من الكراهية لشاور . وفي تلك الاثناء أعاد امالريك وشاور تنظيم جيشهما بظاهر القاهرة ، إذ ما زال جيشهما يفوق في الضخامة جيش شيركوه ، برغم ما لحق به من خسائر ، ثم اقتفيا أثر شيركوه الى الاسكندرية ، فألقيا الحصار على المدينة ، وقدمت بعض الأمداد من فلسطين ، وأقلعت سفن الفرنج كيما تتم الحصار . وبعد ان مضى نحو شهر على الحصار ، تعرّض شيركوه للهلاك جوعاً . وحدث ذات ليلة في شهر مايو سنة ١١٦٧ أن تسلل شيركوه من المدينة بالجانب الاكبر من الجيش ، بعد ان ترك بها صلاح الدين في نحو الف رجل ، فاجتاز شيركوه معسكر امالريك واتخذ طريقه الى الصعيد . فاشتد غضب امالريك وأراد ان يمضي لمطاردته ، غير ان شاور نصحه بأن يترك شيركوه وشأنه ، إذ لم يرد سوى نهب المدن بالوجه القبلي ، كما ان استعادة الاسكندرية لأكثر اهمية . ولم ينته شهر يونيو حتى بلغ مركز صلاح الدين بداخل المدينة من الحرج أنه أرسل الى عمه شيركوه يلتمس منه العودة . على ان شيركوه أدرك أنه لم يعد بوسعه ان يفعل أكثر مما فعل . فلما اقترب من الاسكندرية ، ارسل اسيراً من الفرنج ، هو ارنولف سيد تل باشر ، بعد ان رفض القيام بهذا الامر ، هيو سيد قيسارية ، الى معسكر امالريك ، يعرض عقد الصلح على اساس ان يجلو عن مصر ، شيركوه والفرنج معاً ، وأن يعد شاور بألا يعاقب رعاياه بالاسكندرية وغيرها من الجهات التي ساندوا فيها الغزاة . فقبل امالريك الشروط ، نظراً لاشتداد ثائرته لما حدث من الامور بفلسطين وطرابلس . ودخل الى الاسكندية في ٤ اغسطس سنة ١١٦٧ ، الملك امالريك على رأس جيش الفرنج . أمـا صلاح الدين وجيشه فخرجوا من المدينة في موكب عسكري حافل ، على الرغم من أن السكان الوطنيين كانوا يودون ان يمزقوا صلاح الدين ارباً ، بعد ان

أنحوا باللائمة عليه فيما حل بهم مؤخراً من البؤس . على ان متاعبهم لم تنته ، فلم يكد موظفو شاور يدخلون المدينة (الاسكندرية) ، حتى تقرر إلقاء القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع السوريين . ولما رفع صلاح الدين الشكوى الى امالريك ، أمر شاور بأن يطلق سراح الأسرى ، بل ان امالريك بذل السفن لنقل الجرحى من رجال شيركوه ، بحراً الى عكا ، غير انه تقرر ، لسوء الحظ ، ارسال الذين استردوا عافيتهم الى مزارع قصب السكر ، فظلوا يعملون بها ، الى ان قدم الملك شخصياً ، فأطلق سراحهم . واتخذ صلاح الدين أثناء المفاوضات أصدقاء عديدين من الفرنج ، وجرى الاعتقاد بعدئذ ان الكندسطبل همفري سيد تبنين ، نصّب صلاح الدين فارساً . وغادر صلاح الدين وشيركوه مصر في ١٠ اغسطس سنة ١١٦٧ ، فبلغا دمشق في سبتمبر . وتوجه امالريك بجيشه الى القاهرة ، ليريح هيو إبلين من أعباء قيادة الحامية . على انه كان لزاماً على شاور ان يوقع اتفاقاً ، يعد فيه بأن يؤدي إتاوة سنوية قدرها مائة الف قطعة من الذهب ، وبأن يُبقي بالقاهرة مندوباً سامياً من الفرنج ، وبأن تظل بالقاهرة حامية صغيرة من الفرنج تتولى حراسة ابواب المدينة . ثم عاد الملك امالريك الى فلسطين ، فبلغ عسقلان في ٢٠ اغسطس سنة ١١٦٧ [١] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XIX. 26 - 32, pp. 928 - 939.
Abu Shama, pp. 130 - 134.
Ibn al - Athir, pp. 547 - 551. Atabegs, pp. 236 - 246.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 49 - 51.
Imad ed - Din,

وردت رواية تنصيب صلاح الدين فارساً في :
Itinerarium Regis Ricardi, p. 9.

على ان بعض سادة الفرنج ظنوا أنه كان بوسع الملك ان يحصل على شروط تفضل ما حازه . غير ان امالريك لم يشأ ان يخاطر بقواته في مصر الى أبعد مما حدث ، دون ان يحمي بلاد الفرنج بالشام من هجمات نور الدين . فبينما كان امالريك بمصر ، تولى نور الدين الاغارة على بلاد طرابلس ، غير انه لم يستول على شيء من الحصون الهامة . فكان لزاماً على امالريك ان يعيد تنظيم أسباب الدفاع عن البلاد . والواقع ان المشكلة الرئيسية تمثلت دائماً في القوة الضاربة . إذ تضاءلت الأسرات المقيمة بامارات الفرنج ، بالوفاة او بالوقوع في الأسر . أما الصليبيون الزائرون ، أمثال ثييري كونت فلانــد ، فلم يجر استخدامهم إلا في حملات خاصة . ولذا اعتمد امالريك اساساً على الطوائف الدينية العسكرية ، التي تسلمت في سنة ١١٦٧ والسنوات التالية عدداً كبيراً من الحصون وما يحيط بهـا من الاراضي . ولهذه المنح أهمية خاصة في طرابلس ، التي ما زال اميرها في الاسر ، ولم يكن بها إلا عدد قليل من الأسرات النبيلة الكبيرة ، فحاز الداوية انطرطوس وكل الشطر الشمالي من الكونتية ، على حين ان الاسبتارية الذين سبق ان حازوا فعلاً القلعة ، التي صارت تنتسب اليهم فاشتهرت باسم حصن الفرسان (الاكراد) صار موكولاً اليهم امر البقيعة . وفي مملكة بيت المقدس ، حاز الداوية الذين استقروا فعلاً في غزة بالجنوب ، صفد بالشمال ، أما الاسبتارية فحصلوا على حصن كوكب الذي تحكم في مخاضات نهر الاردن الى الجنوب من بحر الجليل . وسار بوهمنــد الثالث في انطاكية على نهج امالريك . فازدادت اقطاعات الداوية حول بغراس على الساحل السوري ، بينما حصل الاسبتارية على مساحة ضخمة من الاراضي جنوبي امارة انطاكية ، كان معظمها في أيدي المسلمين فعلاً . فلو لم تمعن الطوائف الدينية العسكرية في

أحقادها واستهتارها ، لأضحى بوسعها المحافظة على اسباب دفاع المملكة [١] .

وبينا كانت الطوائف الدينية العسكرية تلتزم بالدفاع عن المملكة ، سعى الملك اماريك ايضاً الى إقامة تحالف وثيق مع بيزنطة . فلم يكد يعود من مصر ، في اغسطس سنة ١١٦٧ ، حتى بلغته الأنباء بأن رسوليه الى القسطنطينية ، رئيس اساقفة قيسارية ، والساقي اودو ، هبطا الى صور برفقة ماريا كومنينا الصغيرة الجميلة ابنة اخ الامبراطور . فعجل اماريك بالتوجه للقائها ، وتمّ بكاتدرائية صور احتفال رائع بزواجها على يد البطريرك اماريك ، في ٢٩ اغسطس . وتقرر بذل نابلس وما يحيط بها من الاراضي معاشاً للملكة ، وقدم بصحبة الاميرة اثنان من كبار موظفي عمّها ، وهما جورج باليولوجوس ومانويل كومنينوس ، اللذان تقرّر تفويضهما بأن يناقشا مع اماريك امر التحالف [٢] .

مغامرات اندرونيقوس كومنينوس ١١٦٦ - ١١٦٧ :

على ان العلاقات الطيبة بين امراء الفرنج والامبراطور البيزنطي ، تعرضت منذ زمن قريب للخطر ، بسبب استهتار اندرونيقوس كومنينوس ، أحد أبناء عمومة الامبراطور مانويل ، إذ تقرر فعلاً طرد هذا الامير ، الذي يعتبر

---

(١) انظر : Delaville Leroulx, op. cit. pp. 74 - 76.
Röhricht, Regesta, pp. 109 ff.
اورد روريخت امثلة على المنح المبذولة للطوائف الدينية العسكرية .

(٢) انظر : William of Tyre, XX. 1, pp. 942 - 943.
Ernoul, pp. 17 - 18.
Cinnamus, p. 238.

أنبه رجال أسرته وأكثرهم وسامة ، لأنه غرّر باحدى قريباته ، ايدوسيا ابنة اخ الامبراطور ، وشاع الامر بأن الامبراطور نفسه تعلق بها . يضاف الى ذلك انه تبين أنـــه لم يكن حاكماً صالحاً في قليقية ، سنة ١١٥٢ ، ومع ذلك تقرر في سنة ١١٦٦ إعادته الى منصبه . إذ أن سلفه الكسيوس اكسوخ الذي سبق انفاذه الى قليقية بعـــد وقوع كولومان في الأمر ، فشل في تنفيـذ اوامر الامبراطور بالوفاق مع الارمن ، وكان الامل معقوداً على اندرونيقوس بأن يفوق سلفه فيما يحرزه من نجاح في علاقته مع ثوروس ، بفضل ما اشتهر به اندرونيقوس من شخصية جذابة ، فضلاً عن حصوله على اعانات مالية ضخمة . وعلى الرغم من ان اندرونيقوس كان يناهز وقتذاك السادسة والاربعين من عمره ، فإن أكثر ما اهتم به ، هو المغامرة لا الادارة . ولم تلبث الفرصة أن تهيأت له لزيارة انطاكية ، فراعه جمـــال الاميرة الصغيرة فيليبـا ، شقيقة بوهمنـد الثالث . أغفل اندرونيقوس واجبات وظيفته الحكومية ، فاستقر في انطاكية يلتمس ود فيليبا بما قام به من مغامرات عاطفية ، بهرت الاميرة التي لم ترفض له طلباً . فاشتدت ثائرة بوهمند . ورفع شكواه الى صهره الامبراطور مانويل ، الذي دفعـــه الغضب الى استدعاء اندرونيقوس ، وإحلال قنسطنطين كولومان مكانه في ادارة قليقية . وتلقى كولومان ايضاً امراً بأن يمضي الى انطاكية ويحاول الفوز بهوى فيليبا . غير ان الاميرة رأت فيه رجلاً ساذجاً قصير القامة ، في ربيـع العمر ، لا سبيل الى مقارنته بعشيقها ، فائق الروعة والجمال . وأدرك اندرونيقوس أنه من الحكمة ان يغادر انطاكية وحبيبته ، نظراً لأن غرامه زاد في إزعاج الامبراطورة التي كانت تكنّ له الكراهية والبغضاء . وإذ حمل معه قدراً كبيراً من اموال الامبراطورية التي جبـاها من قليقية وقبرص ، توجـــه صوب الجنوب ، وعرض على الملك املريك

خدماته . أما الاميرة التي هجرها اندرونيقوس فجرى التعجيل بزواجها من ارمل متقدم في السن ، وهو الكندسطبل همفري الثاني سيد تبنين . وإذ استهوت امالريك شخصيـة اندرونيقوس ، وتأثر ببسالته الشخصية ، جعل له بيروت اقطاعاً ، وكان وقتذاك شاغراً . ولم يلبث اندرونيقوس أن توجه بعدئذ الى عكا ، التي كانت معاش ابنة عمـه الأرملة الملكة ثيودورا . كانت وقتذاك في الحادية والعشرين من عمرها ، وفي قمة جمالها ، فتبادلا الغرام والحب . ولكن صلة القرابة بينهما بلغت من الوثاقة والقرب ما يمنعها من الزواج ، على ان الملكة قدمت ، دون خجل او حيـاء ، الى بيروت ، وعاشت معه خليلة له . ولما سمع الامبراطور مانويل بهذا الاتصال الجديد ، والراجح أن جاءه الخبر من الرسولين (السفيرين) اللذين رافقا الملكة ماريا الى فلسطين ، ازداد غيظاً وحنقاً . وطلب مبعوثاه الآخران الى فلسطين سراً تسليم الجاني ، ووقعت هذه التعليمات بيدي ثيودورا . ولما كان معروفاً أن امالريك يلتمس مودة الامبراطور مانويل ، رأى اندرونيقوس أنه من الخير ان يغادر البلاد . وأشاع أنه عائـد الى بلاده ، وقدمت ثيودورا مرة اخرى من عكا لتوديعه . ولم يكدا يجتمعان سوياً ، حتى تخليا عن كل ما لديهما من متاع ، واجتازا الحدود الى دمشق دون ان يلتفت اليهما احد . فأحسن نور الدين استقبالهما ، وظلا يطوفان ، في السنوات التالية ، بالشرق الاسلامي ، حتى بلغـا بغداد ، ثم حـدث آخر الأمر ان منحهما احد الامراء المسلمين قلعة قرب طرف بافلاجونيا ، الذي يفصل بين بيزنطة والبلاد الاسلامية ، فاستقر بها اندرونيقوس ، بعد ان قطعته الكنيسة ، وأنس الى حيـاة الصعلكة . ولم يأسف امالريك لارتحالهما ، الذي هيأ له

الفرصة لاسترداد عكا ، التي كانت اقطاعاً ثقيلاً بيد ثيودورا [1] .

التحالف مع بيزنطة سنة ١١٦٨ :

الواضح ان امالريك أرسل الى مانويل مع رسوله جورج باليولوجوس اقتراحاً يقضي بفتح مصر . وتألفت سفارة مانويل التالية من ايطاليين ، اسكندر كونفيرسانو ، كونت جرافينا ، وميخائيل سيد اوترانتو ، وحملت الى امالريك شروط مانويل ، التي انطوت ، فيما يبدو ، على ان يكون له نصيب من غنائم مصر ، وأن يكون له التصرف التام في امر انطاكية ، فضلاً عن التنازل له عن بعض بلاد الفرنج . وإذ كانت هذه الشروط بالغة التطرف ، أرسل امالريك الى القسطنطينية ، وليم كبير شمامسة صور ، وهو المؤرخ المشهور فيما بعد ، لاستئناف المناقشات مع الامبراطور مانويل . ولما وصل وليم الى القسطنطينية ، علم ان الامبراطور في غزاة في بـــلاد الصرب ، فلحق به واجتمع به في موناستير . فاستقبله مانويل بما اشتهر به من السخاء الوافر ، ثم عاد معه الى القسطنطينية ، حيث تم إبرام المعاهدة ، التي يقتسم الامبراطور والملك بمقتضاها ، كل ما يجري من الفتوح بمصر . ورجع وليم في اواخر خريف سنة ١١٦٨ ، الى فلسطين [2] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XX. 2, pp. 943 - 944.
Cinnamus, pp. 250 - 251.
Nicetas Choniates, pp. 180 - 186.
وعن الاحداث التي وقعت لأندرونيقوس فيما بعـد انظر ما يلي : الكتاب الخامس ، الفصل الاول .

(٢) انظر : William of Tyre, *XX*. 4, pp. 945 - 947.

على ان باروتات المملكة لم ينتظروا ، لسوء الحظ ، عودة وليم الصوري .
وما ورد من أنباء من مصر ، أكّدت تزعزع حكم شاور بها . فاشتهر شاور بأنـــه كان يكره حامية الفرنج بالقاهرة ، وتأخر في تأدية الجزية المطلوبة منه ، وترددت الشائعات ايضاً ان ابنه الكامل اخذ يتفاوض مع شيركوه ، وأنــه طلب ان يتزوج من اخت صلاح الدين . وما حدث في اواخر الصيف من قدوم وليم الرابع كونت نيفر في جماعة كبيرة من الفرسان الى فلسطين ، شجع اولئك الباروتات الذين أرادوا القيام باجراء مباشر . فدعا الملك المجلس الى الانعقاد في بيت المقدس . وفي هذا المجلس اشتد مقدم الاسبتارية ، جيلبرت أسايلي ، في الاصرار على أنه ينبغي ان ألا يجري الارجاء الى أبعد من ذلك ، ووافقه معظم الباروتات العلمانيين .
وزاد في مساندتهم كونت نيفر ورجاله الذين قدموا للقتـــال من اجل الصليب . أما الداوية فعارضوا صراحة توجيه الحملة ، وأعلنوا انهم سوف لا يشتركون فيها . ولعل معارضتهم ترجع الى نهم الاسبتارية ، الذين سبق ان قرروا فعلاً ان تكون الفرما (بيلوزيوم) نصيبهم في الحملة ، مقابل حصن غزة الذي كان بيـــد الداوية . غير ان الداوية ارتبطوا ايضاً من الناحية المالية بالمسلمين وبالتجار الايطاليين ، الذين زادت تجارتهم مع مصر على تجارتهم مع سوريا المسيحية . ووافق الملك املريك على أنه لا بد من التعجيل باتخاذ اجراء ، نظراً لضعف شاور وعدم الاطمئنان له ، غير أنه أراد ان ينتظر حتى يتيسر له الحصول على مساعدة الامبراطور . غير أنه غُلِب على امره ، فلم يسعه إلا الاذعان ، إزاء الإصرار الشديد من قِبل الاسبتارية وأتباعـه ، الذين لم يجدوا من الأسباب ما يدعو الى ضرورة

اشتراك اليونانيين في الغنائم . فتقرر وضع الخطة ، بتوجيه الحملة في اكتوبر سنة ١١٦٨ [١] .

أملريك يزحف على القاهرة سنة ١١٦٨ :

ولما عاد وليم الصوري بمعاهدته من القسطنطينية ، كان الملك قد غادر البلاد فعلا . أشاع املريك أنه سوف يهاجم حمص ، حتى يمنع نور الدين من الحركة . والواقع ان نور الدين كان حريصاً على ان يتجنب الاشتباك في قتـــال مع الفرنج نظراً لانغماسه في مشاكل خاصة في شمال شرقي الشام ولم يدرك شاور ما يجري فعلاً إلا بعد ان سار جيش الفرنج من عسقلان في ٢٠ اكتوبر ، فبلغ بلبيس بعد عشرة ايام . فارتاع شاور ، إذ لم يتوقع مطلقاً من املريك ان يقدم في استهانة بالغة على نقض المعاهدة التي عقدها معه . والتقى الملك عنـد الدارون على الحدود ، بأول رسول من قِبل شاور ، وهو امير اسمه بدران ، غير ان الملك استرضاه بمـــا بذله من رشوة . أما الرسول الثاني ، وهو شمس الخلافـــة فلقي الملك بالصحراء ، قبل بضعة ايام من وصوله الى بلبيس . فاشتد في تقريـع املريك لما ارتكبه من خيانة ، فردّ عليه الملك ، بأن برّر موقفه ما أجراه

---

(١) انظر : William of Tyre, *XX.* 5, pp. 948 - 949.

يشير وليم الصوري في الفصل السابق الى وصول كوفت نيفر . انظر ايضاً :

Michael the Syrian, III. pp. 332 - 333.

Ibn al - Athir, pp. 553 - 554. Atabegs, pp. 244 - 246.

Abu Shama, pp. 112 - 113.

أشار المؤرخون المسلمون الى ان الملك خضع لتأثير المجلس .

الكامل بن شاور من مفاوضات مع شيركوه ، وكيفما كان الامر ، فإن المحاربين الصليبيين الذين قدموا حديثاً من الغرب ، عزموا على مهاجمة مصر ، وأنه لم يقدم إلا لمنعهم . ثم اضاف انه سوف ينسحب اذا أدّوا له مليونين آخرين من الدنانير . غير ان شاور ارتاب عندئذ في صدق عهد الملك . وكانت مفاجأة لأملريك أن قرّر شاور المضي في المقاومة . إذ أن طيء بن شاور ، الذي تولى قيادة الحامية في بلبيس ، رفض ان يفتح ابواب المدينة (بلبيس) للفرنج . وإذ كانت قواته قليلة العدد ، دخل جيش الفرنج الحصن في ٤ نوفمبر سنة ١١٦٨ ، بعد ان استبسلت في القتال حامية الحصن لمدة ثلاثة ايام ، لم يعتقد أملريك أثناءها في كفاية المصريين العسكرية . وتلى دخول الفرنج الى الحصن إجراء مذبحة مروّعة . والراجح أن كان البادئون بها ، هم الرجال القادمون مع نيفر ، الذين لم يختلفوا عن القادمين حديثاً من الغرب في الحماس وعدم الانصياع للقانون . والمعروف ان كونت نيفر مات محموماً بفلسطين قبل رحيل الحملة ، فلم يعد ثمة من القادة من يضبطهم . وحاول املريك ان يعيد الامن الى نصابه ، فلما نجح في ذلك آخر الامر ، استرد من بقي على قيد الحياة من الأسرى الذين وقعوا في ايدي العساكر ، بعد ان بذل لهم الاموال . على ان الضرر قد وقع فعلا . إذ ان عدداً كبيراً من المصريين الذين كرهوا شاور سبق ان أبدوا استعدادهم للترحيب بالفرنج واعتبارهم منقذين لهم ، كما ان الجاليات القبطية التي ازداد عددها بصفة خاصة في مدن الدلتا ، تعاونت حتى وقتذاك مع اخوانهم المسيحيين (الفرنج) . غير أنه هلك في مذبحة بلبيس الأقباط والمسلمون سواء . فاتحد جميع المصريين في كراهية الفرنج . وحدث بعد بضعة ايام ان وصل الى بحيرة المنزلة اسطول صغير للفرنج ، كان معظم بحارته من الغرب ، بعد ان أقلع مصعداً في الفرع التنيسي

لنهر النيل ، وانقض بغتة على مدينة تنيس ، وتلى ذلك ما حدث في بلبيس من الرعب والخوف ، وكان القبط أكثر من تعرض للهجوم .

ولا شك ان امالريك لم يتريث في بلبيس بضعة ايام ، إلا ليعيد السيطرة على جيشه ، غير أنه أضاع الفرصة للاستيلاء على القاهرة فجأة ، واكتفى بالظهور ، في ١٣ نوفمبر سنة ١١٦٨ ، أمام اسوار الفسطاط ، الضاحية القديمة التي تقع جنوبي القاهرة . وإذ ارتاب شاور في قدرته على الاحتفاظ بالفسطاط ، أشعل النار بهـا ، وأنفذ رسوله شمس الخلافة مرة اخرى الى الملك امالريك ، يخطره بأنه كيلا يترك القاهرة تقع بأيدي الفرنج ، سوف يبادر الى احراقها ومساواتها بالارض بكل كنوزها . وأدرك امالريك ان الحملة أخطأت السبيل ، بعد ان اعترض الاسطول في الدلتا الحواجز الملقاة في عرض النهر . وبنـــاء على نصيحة صنجيله ميلز بلانسي ، أخطر شاور بأنه يقبل المساومة على مغادرة البلاد . وتلكأ شاور بعض الوقت ، فأخذ يساوم على المبلغ الذي بوسعه ان يؤديه . فدفع مائة الف دينار لافتداء ابنه طيء ، وتحدث فيما يؤدي من الاموال بعد ذلك . وفي تلك الأثناء تحرك جيش الفرنج بضعة اميال صوب الشمال ، وعسكر في المطرية ، قرب شجرة الجميزة التي استظلت بهـا العذراء عند فرارها الى مصر . وظل عساكر الفرنج ثمانية ايام بهذه الجهة ، حتى وردت الأنباء فجأة بأن شيركوه اتخذ طريقه الى مصر بناء على دعوة الخليفة الفاطمي [١] .

---

(١) انظر . William of Tyre, XX. 6 - 9, pp. 949 - 956.
Abu Shama, pp. 114 - 115, 136 - 146.
(يورد ابو شامة رواية عماد الدين الاصفهاني) .
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 52.
Ibn al - Athir, pp. 554 - 556. Atabegs, pp. 247 - 250.

شيركوه يظفر بمصر لنور الدين سنة ١١٦٩ :

لم يشأ شاور ان يتخذ هــذه الخطوة ، بالغة الخطورة ، غير ان ابنه الكامل تغلب عليه ، فأجبر الخليفة العاضد على ان يكتب الى نور الدين بحلب ، يعرض عليه ثلث بلاد مصر ، وإقطاعات لقادته . ولا بــد ان الخليفة الشاب أدرك خطورة استدعاء مُدافع عنه ، يعتبره ملحداً ودَعيّاً ، غير أنه ليس للخليفة حول ولا قوة . فلما بلغت نور الدين الدعوة ، أرسل الى شيركوه الذي كان يقيم بحمص ، غير ان رسوله التقى بشيركوه عنــد ابواب حلب . لم يتردد نور الدين في هــذه المرة ، فأمدّ شيركوه بثمانية آلاف فارس ، وبذل له مائتي الف دينار ، ليستخدمها مع جيش دمشق في فتح مصر . وأمر صلاح الدين بأن يسير في صحبة عمه . وإذ لم يتحقق شاور أين تقع مصالحه ، أنــذر امالريك الذي تحرك بجيشه نحو برزخ السويس ، بعد ان راوده الامل في الانقضاض على شيركوه عند خروجه من الصحراء . غير ان شيركوه تجاوزه بعــد ان تسلل الى الجنوب من موضعه . فلم يعد لدى الفرنج من سبيل آخر ، سوى الجلاء عن مصر . فشرع امالريك في الارتداد في ٢ يناير سنة ١١٦٩ ، بعد ان امر اسطوله بالعودة الى عكا ، وباستدعاء الحامية المرابطة ببلبيس للحاق به [١] .

ولم تمض ستة ايام حتى دخل شيركوه الى القاهرة ، وبعد ان خلّف جيشه الذي عسكر في باب اللوق ، توجه الى بــلاط الخليفة الفاطمي ،

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 52 - 53.
Ibn al - Athir, p. 563. Atabegs, p. 250.
Abu Shama, p. 117.

أورد بهاء الدين (ابن شداد) وابن الأثير أن صلاح الدين ظل راغباً عن الاشتراك في الحملة التي قادها شيركوه .

حيث غمره بالتشاريف ووعد ببذل الأموال والمؤن لعساكره . أما شاور فأظهر التودد له ، وظل شاور في الايام التالية يتردد على شيركوه كل يوم ، للتشاور في التدابير المالية واقتسام اعمال الوزارة . وتلقى شيركوه هـذه المحادثات في سهولة ويسر ، على حين ان ابن اخيه ، صلاح الدين ، الذي يعتبر مستشاره الاول ، أصر على اتخاذ اجراء آخر . وجرى تحمّل الخليفة على ان يتوجه متنكراً الى مقر قيادة شيركوه . ثم حدث في ١٨ يناير سنة ١١٦٩ ، ان تقررت دعوة شاور للتوجه برفقـة شيركوه لزيارة مشهد الامام الشافعي . ولم يكد شاور يتحرك حتى انقض عليـه صلاح الدين وأمراؤه ، فجرّدوا حرسه من السلاح ، ووقع شاور نفسه في الأمر . وفي أقل من ساعة صدر امر الخليفة باجتذاذ رأس شاور ، وإلقائه عند قدمي الخليفة . وكيما يتجنب شيركوه كل محاولة لمناوأته ، أعلن انه أباح نهب بيت الوزير لمن أراد ذلك . ولمـا اندفع الرعاع الى بيت شاور ، مضى شيركوه مع الخليفة الى دار الخلافة ، فتقلّد في هدوء زمام الحكومة . لم يكن حكم شاور مقبولاً عند الناس ، وبلغ شيركوه من الحرص على مراعاة الصفة الشرعية للحكم ، ما منع كل حاكم بالأقاليم من معارضة نظام الحكم الجديد ، فأضحى شيركوه في اسابيع قليلة سيداً على الديار المصرية بأمرها ، وحاز امراؤه ما كان بيد شاور وأسرته من اقطاعات ، واتخذ شيركوه لقب الملك الوزير [1] .

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 53 - 55.
(نقلاً عن عماد الدين الاصفهاني) .
Ibn al - Athir, pp, 558 - 560. Atabegs, pp. 251 - 253.
Abu Shama, pp. 118 - 119, 142 - 145.
William of Tyre, XX. 10, pp. 956 - 958.

لم يعش شيركوه طويلاً بعد ان تولى الوزارة ، إذ مات في ٢٣ مارس سنة ١١٦٩ نتيجة إفراطه في الأكل . على ان شهرته في التاريخ طغى عليها شهرة سيده نور الدين ، وشهرة ابن اخيه صلاح الدين . ومع ذلك فإنه فاق غيره من المسلمين في إدراك أن الاستيلاء على مصر يعتبر تمهيداً ضرورياً لاستعادة فلسطين ، ولم يكف شيركوه عن العمل لتحقيق هذه الغاية ، برغم ما اشتهر به نور الدين من التردد والحرص الشديد . وجنى ابن اخيه ، صلاح الدين ، ثمرة دأبه ومثابرته . لم تكن هيئة شيركوه ومظهره تلفت النظر او تجذب الاهتمام ، إذ كان قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، أحمر الوجه ، أعور العين ، وكشفت تقاطيعه عن انحطاط أصله . غير أنه كان جندياً فذّاً عبقرياً ، ولم يضارعه إلا قلة من القادة في شدة تعلّق العساكر به [1] .

أدرك الفرنج ما كان لانتصار شيركوه من أهمية في مصيرهم ، فبينما أنحى بعضهم باللائمة على نهم ميلز بلانسي ، الذي حمل الملك على ان يؤثر قبول المال على المضي في القتال ، التمس آخرون كبش فداء في مقدم الاسبتارية ، الذي جرى إرغامه على التخلي عن منصبه ، والعودة الى موطنه بالغرب . أما امالريك فإنه استنجد بالغرب للدعوة الى حرب صليبية جديدة . إذ

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 55.
Ibn al - Athir, pp. 560 - 561.
William of Tyre, XIX. 5, p. 892.
ما أورده وليم الصوري من وصف شيركوه يطابق الى حد كبير ما أورده المؤرخون العرب ، فيصف ابن شداد عزمه وإصراره على اضافة مصر الى مملكة سيده . انظر :
Beha ed - Din, pp. 50 - 51.

تقرر في اوائل سنة ١١٦٩ إنفاذ سفارة بالغة التأثير في الاقناع ، مؤلفة من البطريرك امالريك ، ورئيس أساقفة قيسارية ، تحمل رسائل الى الامبراطور فردريك (الاول) ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنري الثـــاني ملك انجلترا ، ومرجريت الملكة الوصية على عرش صقلية ، وكونتات فلاندر ، وبلوا وتروي . غير ان سفن السفراء تعرضت بعد يومين قضتها في البحر، لعاصفة بلغت من العنف انها قذفت بالسفن وردّتها الى عكا ، وما من احد من الركاب كان يرضى بأن يغامر مرة اخرى ويتعرض لأخطار البحر . ثم توجهت سفارة اخرى ، برئاسة فردريك رئيس اساقفة صور ، وبصحبته نائبه يوحنا اسقف بانياس ، جيلبرت مقدم طائفة الاسبتارية ، فبلغوا روما في يوليه سنة ١١٦٩ ، فأعطاهم البابا الاسكندر الثالث كتب توصية الى كل من ينتمي اليه من رجـال الدين . غير ان كل رسائله لم تكن مجدية . إذ استبقاهم الملك لويس شهوراً عديدة في باريس ، حيث قضى نحبه بهـــا أسقف بانياس ، بينما شرح الملك لويس لهم ما يشغل خاطره من امور مع أسرة بلانتاجنيت . وما وقع من منازعات بين البابا والامبراطور، جعل زيارة المانيا عديمة الجدوى . فعاد السفراء الى فلسطين آسفين ، بعـد ان امضوا سنتين في توسلات غير مثمرة [١] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XX. 12, pp. 960 - 961.

ورد في هذه المجموعة رسائل امالريك . R. H. F. vol. XVI. pp. 187 - 188.

Ibn al - Athir, Atabegs, pp. 258 - 259.

مات مقدم الاسبتارية غرقاً سنة ١١٨٣ عند العبور الى انجلترا ، من دييب . انظر :
Delaville Leroulx, Les Hospitaliers, pp. 76 ff.

وتوجهت الى القسطنطينية سفارة اخرى ، وصادفت من النجاح حظاً اوفر قدراً . إذ كان مانويل شديد الادراك لما حدث من انقلاب خطير في توازن القوى بالشرق . فعرض على امالريك تعاون الاسطول البيزنطي في الحملة التالية [١] . وقبل الملك عن طيب خاطر ما عرضه الامبراطور، إذ لم يفقد الأمل بعد في استرداد مصر ، كما أن نور الدين كان فيما يبدو شديد الانغماس في امور الشمال . فما حدث من وفاة قره ارسلان الأرتقي امير ديار بكر ، في سنة ١١٦٨ ، وما وقع من مشاحنات على ارثه ، أوقعت نور الدين في شقاق ونزاع مع اخيه قطب الدين امير الموصل ، ولم تلبث ثورة غازي بن حسّان ، امير منج ان اندلعت بُعدئذ ، ولم تخمد إلا بعد شهور عديدة . على ان قطب الدين اشرف على الموت ، ولم تلبث ان ظهرت مشكلة ولاية حكومة الموصل [٢] .

وفي مصر انتقلت ألقاب شيركوه وسلطانه الى ابن اخيه صلاح الدين . على أن صلاح الدين لم يتعرض للاختبار باعتباره حاكماً . فكان من امراء شيركوه من يأمل في أن يخلفه في الحكومة ، غير ان الخليفة اختار صلاح الدين ، لاعتقاده ان افتقار صلاح الدين للتجربة سوف يرغمه على الاعتماد على موظفي الدولة الفاطمية . وفي تلك الاثناء ، كتب كبير

---

(١) انظر : William of Tyre, XX. 13, pp. 961 - 962;

(٢) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 52.
Abn Shama, pp. 188 - 189.
Ibn al - Athir, Atabegs, p. 264.
Michael the Syrian, III. pp. 339 - 342.
مات قطب الدين في السنة التالية ، (سنة ١١٧٠) .

الطواشية ، وهو نوبي اسمه المؤتمن ، أي المستشار الأمين ، الى ملك بيت المقدس خفية ، يعدّه بالمساعدة اذا غزا الفرنج مصر . على أنـه حدث لسوء الحظ ان ارتاب احد عمـلاء صلاح الدين في شكل الخفين اللذين اتخذهما رسول البلاط ، فأخذهمـا ونزع خياطتها ، فاكتشف الرسالة بداخلها . وترقب صلاح الدين الفرصة للانتقام . غير ان انباء اضطراب مركزه شجعت المسيحيين [1] . .

حملة مشتركة من الفرنج والبيزنطيين لمهاجمة مصر سنة ١١٦٩ :

ألحّ امالريك على الامبراطور البيزنطي بأن يسرع لمساندته . وفي ١٥ يوليه سنة ١١٦٩ ، خرج اسطول امبراطوري ضخم من ميـاه الدردنيل بقيـادة الدوق الكبير ، اندرونيق كونتوستيفانوس . وأقلع الاسطول الاساسي الى جزيرة قبرص ، فأسر في طريقـه سفينتين مصريتين ، بينما توجه اسطول صغير الى عكا مباشرة يحمل اموالاً للانفـاق على جند امالريك . وطلب من امالريك ان يرسل متى شاء الى الاسطول بقبرص أن يقلع منها ، غير أن امالريك لم يكن مستعداً ، إذ أن حمـلة سنة ١١٦٨ أدت الى الإخلال بنظام قواته ، وكانت خسائر الاسبتارية فادحة ، وما زال الداوية يرفضون الاشتراك في الحملة ، امـا البارونات الذين لم

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 55 - 56.
Ibn al - Athir, pp. 566 - 568.
Abu Shama, p. 146.
وفي مكتبة برلين درج طويل يتضمن تقليد صلاح الدين للوزارة من قبل الخليفة الفاطمي .

تشجّعهم تجربتهم السابقة ، فانهم افتقدوا مـا توافر لهم من حماس من قبل . فلم يدع املريك الاسطول الى القـــدوم الى عكا إلا في أواخر سبتمبر سنة ١١٦٩ ، فأثارت طلعته حمـــاس سكان المدينة ، ولم تستعد كل الحملة للمضي الى مصر إلا في منتصف اكتوبر . على أن إرجاء رحيل الحملة ، أدى الى ان يتعرّض الاسطول لحظ سيء مزدوج . ذلك ان مانويل الذي انقاد للتفاؤل قدّر بأن الحملة لن يطول أمدها ، فلم يشحن السفن بالمؤن إلا لما يكفي ثلاثة شهور ، وأوشكت هذه الفترة على الانتهاء . ولم يكن بوسع جزيرة قبرص ، التي لم تنتعش من التخريب الذي ألحقه بهـا رينالد شاتيون ، أن تسهم في إمداد الحملة بالمؤن ، كما انه لم يتيسر الحصول على المؤن من عكا [١] . وفي نفس الوقت حصل صلاح الدين على تحذير بالغ الكفاية عن الحملة . وكيما يكفل لنفسه الأمن في القاهرة ، امر ، في ٢٠ اغسطس سنة ١١٦٩ ، بإلقاء القبض على الطواشي المؤتمن (مؤتمن الخلافة) وإعدامه ، ثم عزل كل موظفي القصر المعروفين بالولاء للخليفة ، وأحلّ مكانهم صنائعه . وحرّض هؤلاء الموظفون المفصولون ، بتشجيع الخليفة ، حرس القصر المؤلف من النوبيين (السودان) ، على التمرد ومهاجمة عساكر صلاح الدين . على ان توران شاه ، شقيق صلاح الدين ، نهض لردّ هجومهم ، غير أنه لم يحرز نجاحاً ، إلا بعد أن اشعل صلاح الدين النار في ثكنات الحرس بالفسطاط ، وعندئذ هرع السودانيون الى الفسطاط لإنقاذ اسراتهم وزوجاتهم ، فانقضّ عليهم توران شاه ، وأجهز عليهم ولم يكد يبقي على

(١) انظر : Nicetas Choniates, pp. 208 209.
William of Tyre, loc. cit.

احد منهم . وإذ شهد الخليفة المعركة الدائرة ، عجّل بالمضي الى صلاح الدين ليؤكد له ولاءه . واكتملت هزيمة السودانيين بعد ان تخلى عنهم الخليفة . اما حرس الأرمن الذي لم يشترك في القتال ، فتعرّض للقتل حرقاً في الثكنات ، وبذلك خمدت المعارضة المناهضة لصلاح الدين [1] .

حصار دمياط سنة ١١٦٩ :

واستأنف الجيش المسيحي المسير آخر الأمر ، في ١٦ اكتوبر سنة ١١٦٩ . وإذ اشتد سخط قائد الاسطول ، اندرونيق كونتوستيفانوس ، لكثرة ما لجأ اليه امالريك من تأجيل مسير الحملة ، عرض ان ينقل على سفنه معظم العساكر ، غير ان الفرنج اصروا على اتخاذ الطريق البري . وفي ٢٥ اكتوبر سنة ١١٦٩ ، دخل الجيش مصر عند الفرما قرب بيلوزيوم . وتوقع صلاح الدين أن تتعرض بلبيس للهجوم ، فشحنها بالعساكر ، غير أن الفرنج اجتازوا الفروع الشرقية للنيل على سفن بيزنطية ، بعد ان ظلوا على اتصال بها على امتداد الساحل ، ثم اسرعوا في مسيرهم الى دمياط ، الحصن المنيع الذي تحكّم في الفرع الرئيسي للنيل (فرع دمياط) ، الذي يستطيع الاسطول أن يقلع فيه نحو القاهرة . على ان صلاح الدين أخذ على غرة ، فلم يجرؤ على ان يغادر القاهرة ، خشية أن يتشجع انصار الفاطميين فيقومون بالثورة . غير أنه ارسل الامداد الى دمياط ، وكتب الى نور الدين بالشام يلتمس منه المساعدة .

---

(١) انظر : Abu Shama, pp. 147 - 148.
Ibn al - Aihir, p. 568.

وألقت حامية دمياط سلسلة ضخمة عبر النهر لتحول دون مرور السفن. ولم يكن بوسع السفن اليونانية، التي عطلتها فعلاً الرياح العكسية، أن تمضي الى دمياط، لتمنع مما يرد اليها من القاهرة عن طريق فرع النيل من العساكر والمؤن. وقد يؤدي هجوم مفاجىء الى الاستيلاء على الحصن، ومع أن قائد الاسطول كونتوستيفانوس حثّ على اتخاذ اجراء مباشر، برغم قلقه على المؤن التي اخذت تتضاءل، فإن امالريك ارتاع لما شاهده من الاستحكامات الضخمة، وأراد أن يشيد ابراجاً اخرى للحصار. على ان اول برج شيّده اتخذ وضعه، نتيجة خطأ في التقدير، ازاء أمنع جانب من الأسوار. وجزع المسيحيون والمسلمون سواء حينما استخدموا ادواتهم في قذف حيّ باركته كنيسة باسم العذراء، التي توقفت بهذا الموضع اثناء فرارها. وتوالى وصول العساكر الجدد الى المدينة يوماً بعد يوم، على حين اخذت اقوات البحارة اليونانيين ومواطنيهم على الشاطىء تتضاءل يوماً بعد يوم، ولم يتقدم لمساعدتهم حلفاؤهم من الفرنج برغم توافر المؤن عندهم. وصار كونتوستيفانوس يناقش امالريك كل يوم في المغامرة بهجوم شامل على جميع الأسوار، بينما اجاب امالريك بأن المغامرة تنطوي على خطر بالغ الشدة، وتهامس قادته الذين ساورتهم دائماً الشكوك في اليونانيين، بأن حماس كونتوستيفانوس يرجع الى رغبته في أن تكون دمياط من نصيب الامبراطور في الغنائم. ولم يستهل شهر ديسمبر سنة ١١٦٩ حتى تجلى فشل الحملة. فليس بوسع اليونانيين أن يمضوا الى أبعد من ذلك، نظراً لنفاد الأقوات. وأنزل المدافعون عن المدينة سفينة نفاطة (حرّاقة) بين سفن الاسطول اليوناني، فأنزلت به خسائر فادحة برغم مبادرة امالريك الى التدخل لمنع استفحال الضرر. فتوافر لحصن دمياط وقتئذ الرجال المدافعون والمؤن، كما ان جيشاً اسلامياً من الشام اخذ، فيما يقال،

يقترب من المدينة . ولما هطلت الامطار ، قبل موعدها ، وحولت المعسكر المسيحي الى مستنقع ، تهيأ الوقت لرفع الحصار . وليس محققاً ما اذا كان امالريك او كونتوستيفانوس ، هو الذي بدأ المفاوضات مع المسلمين ، وليس معروفاً لنـــا ما تمّ الاتفاق عليه من شروط . والراجح أنـه تقرر ان يؤدى للمسيحيين تعويض مالي ، ومن المحقق ان امالريك كان يأمل في ان اظهار الصداقة لصلاح الدين ، قـــد تبعده عن نور الدين ، الذي جرى الارتياب في ان علاقاته بصلاح الدين تفتقر الى الاخلاص .

وفي ١٣ ديسمبر سنة ١١٦٩ أحرق المسيحيون كل أدوات الحصار حتى لا تقـــع في أيدي المسلمين ، ثم تحركوا من دمياط . ووصل الجيش الى عسقلان في ٢٤ ديسمبر ، ولم يكن حظ الاسطول طيباً ، فحينما أبحر صوب الشمال صادفته عاصفة عنيفة . فلم يستطع البحـارة الذين كادوا يهلكون جوعاً السيطرة على سفنهم ، فغرقت سفن كثيرة . وظلت الأمواج اياماً تقذف الى ساحل فلسطين جثث اليونانين . أما كونتوستيفانوس فاستطاع ان يفلت فأبحر الى قليقية ، ومنهـــا توجه بالطريق البري لينهي الى الامبراطور ما حدث ، وبلغت بقـايا الاسطول الضخم مياه البوسفور في اوائل السنة التالية [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XX, 14 - 17, pp. 962 - 971.
Cinnamus, pp. 278 - 280.
يذكر المؤرخ كيناموس ان صلاح الدين ارسل ، بعـد الحملة ، الى مانويل يعرض ان يؤدي له جزية سنوية ، غير ان مانويل رفض هـذا العرض . بينما أشار (Nicetas Choniates, pp. 209 - 210.) الى ان مانويل عقد صلحاً مع مصر . =

وكان لا بد للنتيجة الفاجعة التي اسفرت عنها الحملة ، ان تثير المهاترات ، إذ وجّه الفرنج اللوم الى اليونانيين لتقاصر المؤن ، وتوافر عند اليونانيين من الدواعي ما جعلهم ينكرون على الفرنج تسويفات المسير التي لا حدّ لها . على ان كلاً من امالريك والامبراطور أدرك انه لا بد من بقاء التحالف قائماً . اما صلاح الدين فأضحى سيد مصر دون منازع .

كان صلاح الدين من الفطانة ما منعته من الوقوع في الفخ الدبلوماسي الذي أعدّه له امالريك . لقد وثق نور الدين في شيركوه ، غير انه ارتاب في أطماع حاكم مصر الجديد . ومع ذلك فان تصرُّف صلاح الدين كان بالغ الاستقامة . ففي ابريل سنة ١١٧٠ ، أنفذ اليه نور الدين أباه نجم الدين ايوب ، وبصحبته جماعة من العساكر السورية ، للتدليل على صداقته من جهة ، وكيما يخصه ، فيما يبدو ، بلفتة من قِبله من جهة اخرى ، نظراً لشدة تعلق ايوب بسيده (نور الدين) . وإذ ارتحل مع القافلة عدد كبير من تجار دمشق ، الذين شغفوا باستئناف التجارة مع القاهرة ، أغار نور الدين على حصن الكرك ، حتى يهيىء للقافلة الضخمة ان تجتاز في أمن

= انظر ايضاً : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 56 - 59.
Abu Shama, pp. 151 - 153.
Ibn al - Athir, pp. 668 - 670. Atabegs.
Michael the Syrian, III. p. 335. the Armenian version, pp. 369 - 370.

اورد ميخائيل السرياني ان صلاح الدين بذل الرشوة لليونانيين حتى يتخلوا عن الحملة . على ان ما اشتهر به مصدره من الكراهية لليونانيين ، جعل روايته ضئيلة القيمة . ويذكر وليم الصوري ان كونتوستيفانوس كان اول من طلب عقد الهدنة ؛ بينما يقول نيكتاس خونياتس ان الملك امالريك هو الذي فعل ذلك .

اقليم ما وراء الاردن[1] . وكانت هذه هي الحركة الوحيدة التي قام بها نور الدين لمناوأة الفرنج . ففي أثناء حملة الفرنج على مصر ، لم يعكر صفو سلامهم ، بل انهم استطاعوا في يناير سنة ١١٧٠ ، ان يستردّوا قلعة عكار الواقعة جنوبي البقيعة ، التي سبق ان فقدوها ، ترجيحاً ، سنة ١١٦٥ . على ان امالريك ، باعتباره وصياً على كونتية طرابلس ، بذلها مع عرقة للاسبتارية ، الذين سيطروا وقتذاك على كل الوادي[2] .

وقوع الزلزال بأنطاكية سنة ١١٧٠ :

تعرّضت سوريا في ٢٩ يونيو سنة ١١٧٠ ، لهزة ارضية عنيفة ، تضارع في شدة تدميرها ما حدث من الزلازل سنة ١١٥٧ ، وظلّ المسيحيون والمسلمون سواء يصلحون في الشهور القليلة التالية ما تخرب من الحصون . إذ لحقت أضرار شديدة بحلب ، وشيزر ، وحماه ، وحمص ، فضلاً عن حصن الاكراد ، وطرابلس وجبيل . على ان الضرر الذي أصاب انطاكية كان بليغاً ، ولكن الفرنج رأوا فيه عدالة إلهية ، إذ بينما كان البطريرك اليوناني ورجال الدين يقيمون القداس بكاتدرائية القديس بطرس

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 59 - 60.
Abu Shama, pp. 153 - 154.
Ibn al - Athir, Atabegs, pp. 260 - 261.

(٢) انظر : Abu Shama, p. 149.
Röhricht, Regesta, p. 125.
يشير روريخت الى ان امالريك لم يبذل عكا وعرقة للاسبتارية إلا بعد وقوع الزلزال في يونيه سنة ١١٧٠ .

هوى عليهم البنـاء . وبينا كان اثناسيوس يعـاني سكرات الموت بين الانقاض ، هرع الامير بوهمند ورجال البلاط الى القصير ، حيث يقيم منافسه البطريرك ايمري ، فتوسلوا له ان يعود الى كرسي البطريركية بأنطاكية ، وبذا انقضت الحقبة القصيرة لسلطان الكنيسة اليونانية [١] .

لم يستطع الامبراطور ان يتدخل ، برغم حنقـه وغضبه حينما سمع الأنباء ، نظراً لأن الامور لم تجرِ في قليقيـة على نحو سليم . إذ مات في سنة ١١٦٨ الامير ثوروس ، الذي خلّف بعده طفلاً ، روبين الثـاني ، ليتولى الحكم بوصاية سيد فرنجي اسمه توماس ، كانت امه اختاً لثوروس . غير ان مليح ، شقيق ثوروس ، نازعه الحكم . والمعروف ان توماس انخرط في وقت من الاوقات في سلك الداوية ، ثم هرب الى نور الدين فاعتنق الاسلام ، بعد ان وقع شجار بينه وبين ثوروس ، وحاول اغتياله . ثم حدث في أوائل سنة ١١٧٠ ، ان أعاره نور الدين عساكر استطاع بها ان يقصي ابن أخيه عن العرش ، وان يغزو قليقية ، وان ينتزع من الحاميات اليونانية المصيصة وأذنة وطرسوس . ثم هاجم الداوية في بغراس ، فاستنجد بوهمند امير انطاكية بأماريك ، الذي توجه الى قليقية ، وأعاد ، فيما يبدو ، الحكم البيزنطي ، لفترة من الزمن . هـذا الاجراء الودّي كان يصح ان يحمل مانويل على التسليم بضياع ما كان لبيزنطة من سلطان كنسي في انطاكية ، غير ان قمع مليح لم يكن امراً سهلاً ، إذ حدث بعد سنة او نحوها ان دبّر مليح

---

(١) انظر : Michael the Syrian, III. p. 339.
Ibn al - Athir, Atabegs, p. 262.
William of Tyre, XX, 18, pp. 971 - 973.

أسر قنسطنطين كولومان ، فأغار من جديد على قليقية [١] .

حدث في تلك الأثناء ان انصرف نور الدين الى ما يجري في الطرف الشرقي لمملكته من امور . إذ مات في صيف سنة ١١٧٠ أخوه قطب الدين امير الموصل ، فتنازع الحكم ولداه سيف الدين وعماد الدين ، ولم يستطع نور الدين ان يسوّي المشكلة كما يشتهي إلا بعد مضي بضعة شهور [٢] . وأفاد الفرنج من فترة الهدوء ، غير ان مشكلة مصر ظلّت باقية دون حلّ . أما امالريك فظل وفياً لسياسته التي تقضي بالتحالف الوثيق مع الامبراطور ، والالحاح في الاستنجاد بالغرب . ففي ربيع سنة ١١٧١ قرّر امالريك ان يقوم بزيارة القسطنطينية .

امالريك في القسطنطينية سنة ١١٧١ :

أرجأ امالريك رحيله ، لما شنّه صلاح الدين من هجوم مفاجىء على الطرف الجنوبي لمملكة بيت المقدس . ففي اوائل ديسمبر سنة ١١٧٠ ظهر

---

(١) انظر : William of Tyre, XX, 26, pp. 991 - 992.
Nicetas Choniates, p. 183.
Michael the Syrian, III. pp. 331 - 337.
Sembat the Constable, pp. 622 - 625.
Vahram, Rhymed Chrouicle, pp. 508 - 509.
جعل وليم الصوري التاريخ بعد زيارة امالريك للقسطنطينية . اما ميخائيل السرياني فجعله قبل وقوع الزلزال في سنة ١١٧٠ . وظلت طرسوس بأيدي البيزنطيين حينما عاد هنري الاسد من حملته الصليبية سنة ١١٧٢ . انظر :
Arnold of Lubeck, pp. 22 - 23.

(٢) انظر المراجع الواردة في ص ٦٢١ حاشية ١ ، وفي ٦٣٥ .

جيش مصري امام الداروم ، وهو حصن للفرنج يقع في أقصى الجنوب على ساحل البحر المتوسط . ولم تكن استحكامات الحصن قوية ، ومع انه لم يكن مع صلاح الدين شيء من ادوات الحصار ، فإن سقوط الحصن أضحى ، فيما يبدو ، وشيك الوقوع . وعجل امالريك بالمسير الى عسقلان في قوة بالغة التدريب برغم قلة عددها ، بعد ان اصطحب البطريرك وحمل أثراً من الصليب المقدس ، فوصل الى عسقلان في ١٨ ديسمبر سنة ١١٧٠ ، ومنها تحرك الى غزة ، حصن الداوية ، الذي عهد به الى مايلز بلانسي ، بعد ان انحاز اليه فرسان الداوية في زحفه على الداروم . ودبّر امالريك اقتحام الجيش المصري لينفذ الى الداروم ، فلم يسع صلاح الدين إلا رفع الحصار والمسير الى غزة ، فاستولى على اسفل المدينة ، برغم ما بذله مايلز من مقاومة عديمة الجدوى ، وجرت مذبحة ذهب ضحيتها سكان المدينة . غير ان القلعة كانت من المناعة ما منع صلاح الدين من ان يخاطر بمهاجمتها . على أن صلاح الدين عاد فجأة الى الطرف المصري مثلما ظهر فجأة أمام الداروم . ثم ارسل اسطولاً الى خليج العقبة ، فاستولى في الايام الاخيرة من السنة على معقل الفرنج ، أيلة ، الواقعة على رأس خليج العقبة [١] .

غـــادر امالريك عكا الى القسطنطينية في ١٠ مارس سنة ١١٧١ في حاشية كبيرة ، كان من بينها اسقف عكا ومارشال البلاط ، جيرار بوجي . واستعفى فيليب ميللي مقدم الداوية من منصبه كيما يكون سفيراً للملك ويسبقه في المضي الى القسطنطينية . وأبحر الملك امالريك نحو الشمال ، بعد

---

(١) انظر : William of Tyre, *XX*. 19 - 20, pp. 973 - 977.
Ibn al - Athir, pp. 577 - 578.

ان زار طرابلس . ولمـــا وصل الى غاليبولي استقبله صهره الامبراطور ، الذي صحبه بطريق البر الى هرقلة ، نظراً لهبوب رياح معاكسة . ومن هرقلة أبحر من جديـد ، فدخل العاصمة من باب القصر الذي يطل على ميناء بوكوليون ، ويعتبر ذلك تشريفاً لم يحظ به إلا أرباب التيجان .

طرب امالريك وحاشيته لمـا حظي به من استقبال باهر . والمعروف ان مانويل يميل ، بوجه عام ، الى الغربيين ، ولمس في امالريك التعاطف ، فغمره بمـــا درج عليه من السخاء . واشتركت أسرة مانويل ، ولا سيما صهر الملك امالريك ، في استضافته . وجرى من المواكب الدينية والاحتفالات ما لا نهاية له . إذ حدث عرض راقص في الملعب الكبير ، وجرت نزهة في سفينة ظلت تذرع البوسفور ذهاباً وإياباً [١] . وفي وسط كل هـــذه الاحتفالات ، تناقش الامبراطور والملك في امر المستقبل ، فانعقدت بينهما معاهدة ، وتم التوقيـع عليها ، غير ان شروطها لم يتمّ تسجيلها . ويبدو ان الملك امالريك اعترف في صورة غامضة بسيادة الامبراطور على المسيحيين الوطنيين ، وأن الامبراطور مانويل وعد ببذل مساعدة بحرية ومالية متى تقرر وضع خطة لتوجيه حملة اخرى الى مصر ، وأنه لا بد من اتخـاذ إجراء مشترك إزاء مليح صاحب ارمينية . والراجح ان المعاهدة تضمنت نصوصاً عن الكنيسة اليونانية في انطاكية ، بل في المملكة ذاتهـا حيث

---

(١) انظر : William of Tyre, *XX*. 22 - 24, pp. 980 - 987.
Cinnamus, p. 280.
(اورد كيناموس رواية قصيرة أشار فيها الى ان امالريك وعد بأن يكون تابعاً للامبراطور.
Michael the Syrian, III. p. 343.

سبق لمانويل ان تولى سنة ١١٦٩ ، امر زخرفة كنيسة المهد في بيت لحم . ويثبت النقش الوارد على الفسيفساء أن الفنان افرايم لم يقم باجراء هذه الزخارف إلا بنــــاء على اوامر الامبراطور ، وكان مسئولاً ايضاً عن الاصلاحات التي قام بها في كنيسة القيامة [١] .

ومهما تكن تفاصيل المعاهدة ، فان الفرنج أعربوا عن ارتياحهم لما قاموا به من زيارة القسطنطينية، واشتد إعجابهم بمضيفهم (الامبراطور) . أبحروا من القسطنطينية في ١٥ يونيو عائدين الى بلادهم ، يراودهم الأمل في المستقبل .

اما الاستنجاد بالغرب فلم يحظ بهذا النجاح ، فما زال فردريك رئيس

---

(١) انظر : de Vogue : Les Eglises de la Terre Sainte, pp. 99 - 103.

اورد دى فوج الكتابة المنقوشة على الفسيفساء بكنيسة المهـــد في بيت لحم . ويشير الرحالة اليوناني فوكاس اليها ، ويذكر ما جرى من اصلاحات في كنيسة القيامة . ويناقش لامونت مسألة السيادة الامبراطورية ، ويقرر انه لم يحدث الاعتراف بها مطلقاً . انظر :

La Monte : « To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States ? ».

اما مانويل فالراجح انه لم يختلف عن سائر اسلافه، قبل نشوب الحروب الصليبية، في اعتبار نفسه مسؤولاً عن سعادة الارثوذكس بفلسطين ، وفي انه جرى الاعتراف بحقه في التدخل لصالح الارثوذكس . وسبق الاشارة الى ان مانويل احتجز بالقسطنطينية بطريرك بيت المقدس . انظر ما سبق ، ص ٥١٦ حاشية ١ . والراجح انه بفضل مساعدة مانويل ، تمت حوالي ذلك الوقت الاصلاحات في المؤسسات الارثوذكسية ، امثال دير قلمون ودير القديس يوثيميوس . انظر :

Vailhé : « Les Laures de Saint Gérasime et de Calamon », in Echos d'Orient, vol. II. p. 117.

Johns : « The Attempt to colonise Palestine and Syria », in Royal Central Asiatic Society Journal, vol. *XXI*, pp. 292 - 293.

أساقفة صور يطوف ببلاطي فرنسا وانجلترا ، دون ان يصادف شيئاً من النجاح . وكتب اليه الملك امالريك ، حوالي نهاية سنة ١١٧٠ ، يطلب اليه دعوة ستيفن شامبين ، كونت سانكير ، للقدوم الى فلسطين ، كيما يتزوج الاميرة سيبللا [١] .

وعجّل بهذا الاقتراح ما حلّ بالاسرة المالكة من مأساة . إذ ان بلدوين ابن الملك امالريك ، والذي ناهز وقتذاك التاسعة من عمره ، تقرر إرساله مع رفاق يضارعونه في السن ، الى وليم رئيس شمامسة صور ، كيما يتولى تعليمهم . كان بلدوين صبياً وسيماً ذكياً ، غير انه حدث ذات يوم ، وبينما كان تلاميذ وليم يختبرون قدرتهم على الاحتمال ، بأن غرس كل منهم ظفره في ذراع الآخر ، ان لحظ وليم ان الامير بلدوين وحده دون الآخرين لم يتأثر بذلك . فأمعن في مراقبته ، ولم يلبث ان أدرك ان الصبي لم يحسّ بالألم لأنه كان مجذوماً [٢] . كان ذلك حكماً من الله ، لما ارتكبه أبواه ، امالريك وأجنيس ، من خطيئة الزواج المحرّم ، الذي كان نذير شر بالمملكة . ولن يكون بوسع بلدوين ، في حالة نموّه ، ان يحافظ على استمرار

---

(١) انظر : William of Tyre, XX. 25, p. 988.

كان ستيفن حفيداً للمحارب الصليبي كونت بلوا ، وأصغر أبناء تيبالد كونت بلوا وشارتر وتروي . وُلد حوالي سنة ١١٣٠ ، وتزوج خطيفة من ماتيلدا دوزي سنة ١١٥١ . انظر : Anselme, Généalogie de la France, II. p. 847.

وإذ جرت الاشارة الى زوجته على انها أليكس تارة ، وماريا تارة اخرى ، فالراجح انه تزوج اكثر من مرة ، وكان ارملاً في سنة ١١٧٠ .

(٢) انظر : William of Tyre, XXI. 1, pp. 1004 - 1005.

الاسرة . ومع ذلك فان الملكة اليونانية الصغيرة يصحّ ان تنجب طفلاً ، غير انه من أجل سلامة الاسرة في تلك الأثناء ، أدرك امالريك انه من الخير ان يزوّج ابنتــه الكبرى ، سبيللا ، من امير ثري بالغ التجربة من الغرب ، يصحّ ان يكون وصياً او ملكاً اذا اقتضت الحاجة ذلك .

قبل ستيفن الدعوة ، فهبط بفلسطين مع جماعة من فرسانه في صيف سنة ١١٧١ ، قبل بضعة ايام من وصول امالريك عائداً من القسطنطينية . غير انه لم يهوَ منظر فلسطين ، فبادر على الفور الى قطع المفاوضات الدائرة حول إتمام الزيجة . وبعد ان أوفى بنذوره في الأماكن المقدسة ، توجّه مع صحبه الى الشمال قاصدين زيارة القسطنطينية . وبينما كان يجتــاز قليقية ، اعترض طريقه مليح امير ارمينية ، فسلبه كل ما كان معه [١] .

وفي السنة التالية قدم الى بيت المقدس زائر يفوق ستيفن أهميــة ، وهو هنري الأسد ، دوق سكسونيا وبافاريا ، وحفيد الامبراطور لوثير ، وصهر هنري الثاني ملك انجلترا . غير انه رفض ايضاً ان يقاتل من أجل الصليب ، إذ لم يأتِ إلا على انه حــاج ، فلم يكد ينتهي من الحج حتى ارتحل الى المانيا [٢] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XX. 25, p. 988.

(٢) ورد وصف مسهب لرحلة هنري الاسد في :

Joranson : « The Crusade of Henry the Lion », in Medieval Essays paesented to W. Thompson.

والمصدر الاصلي عن هذه الرحلة هو ارنولد لوبيك .

زوال الدولة الفاطمية سنة ١١٧١ :

ما حدث من استخفاف الغرب كان مخيباً للرجاء . على أنه لم تكن الحاجة ماسة لتوجيه حملة على الفور الى مصر . إذ كادت تنقطع العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين . ففي يناير سنة ١١٧١ أقام نور الدين حامية بالموصل ، التي خضعت لحكم اخيه سيف الدين (ايلغازي) ، وأضاف الى أملاكه نصيبين ووادي نهر الخابور ، كما ضم سنجار الى أملاك ابن اخيه عماد الدين الأثير عنده . ولشدة حرصه على سيادة المذهب السني ، كتب الى صلاح الدين يطلب اليه منع ذكر اسم الخليفة الفـــاطمي في الصلاة بجميع المساجد في مصر ، وان يذكر اسم الخليفة العباسي ببغداد . لم يشأ صلاح الدين ان يستجيب لرغبة نور الدين ، إذ قويت المؤثرات الشيعية في مصر ، في ظل الحكم الفاطمي الذي استمر قرنين من الزمان . يُضاف الى ذلك ، انه على الرغم من ان صلاح الدين يعتبر نور الدين سيداً له ، فانه استمدّ سلطته من الخليفة الفاطمي . فأخذ يماطل في تحقيق رغبة نور الدين ، حتى حدث في اغسطس أن هـــدّد نور الدين بالقدوم الى مصر ، اذا لم يلتزم صلاح الدين بالطاعة له . فتجهز صلاح الدين لإجراء التغيير بعد ان اتخذ الاجراءات اللازمة لحفظ الأمن ، غير انه مـا من أحد تجاسر على ان يقوم بالخطوة الاولى ، الى ان حدث في الجمعة الاولى من سنة خمسمائة وستين وسبع للهجرة ، أن متصوفاً قدم من الموصل زائراً ، أقدم على ارتقاء المنبر بالمسجد الجامع ودعا للخليفة المستضيء ، وجرى الاحتذاء به في جميع أنحاء القاهرة . وكان الخليفة العاضد يعاني مرض الموت في قصره . وأمر صلاح الدين خدّامه بألا ينهوا اليه بالأنباء ، إذ قال : اذا عوفي من مرضه ، فلا يلبث ان يعلم ما فيه الكفاية ، واذا مات ، فليمت في هدوء .

غير انه حينما طلب الخليفة الشاب المسكين ، قبل بضع ساعات من وفاته ، ان يرى صلاح الدين ، لم يلقَ طلبه إلا الرفض ، خوفاً من تدبير مؤامرة . على ان صلاح الدين ندم بعد فوات الوقت ، على امتناعه عن رؤيته ، وصار يذكره بالخير . وبوفاة العاضد ، زالت الاسرة الفاطمية . ومن بقي على قيد الحياة من الأمراء والأميرات ، عاشوا بقية حياتهم في رغد من العيش ، بعد ان تمّ التحفظ عليهم ، وقطع كل ما يربطهم بالعالم من صلات [1] .

ولم تمضِ إلا ايام قليلة ، حتى توجّه صلاح الدين لمنازلة حصن الشوبك ، الذي يقع جنوبي البحر الميت ، وضيّق الحصار عليه . ولم يغادر املريك بيت المقدس لنجدته إلا متأخراً ، نظراً لما بلغه من أخبار ليست صحيحة . على ان نور الدين ظهر فجأة على الطريق المؤدي الى الكرك ، بينما كانت الحامية في الشوبك تستعد للتسليم . وعندئذ رفع صلاح الدين الحصار ، وأخطِر نور الدين ان حروب إخوته بالصعيد أرغمته على العودة الى القاهرة . اما نور الدين فاعتبر تصرّف صلاح الدين خيانة تستوجب عقوبتها استخدام القوة . وجزع صلاح الدين لما سمعه عن غضب نور الدين ، فدعا الى عقد مجلس من أفراد اسرته وكبار قادته ، فأشار شباب الاسرة بإعلان التحدّي لنور الدين ، لكن نجم الدين ايّوبا والد صلاح الدين ، نهض فقال بأنه يكنّ الولاء والاخلاص لسيده نور الدين ، وأنكر على

---

(۱) انظر : Ibn al - Athir, pp. 575 - 580. Atabegs, pp. 202 - 203.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 551.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 61 - 62.

ابنــه طموحه . ولما خــلا به أنّبه على الإفصاح عن طموحه ، فأذعن صلاح الدين لنصيحته ، وأرسل أعذاراً واهية الى نور الدين ، الذي قبلها في الوقت الراهن [1] .

اطلاق سراح ريموند كونت طرابلس ، سنة ١١٧٢ :

في صيف سنة ١١٧١ أعدّ نور الدين خطة لتوجيه حملة الى الجليل ، ثم عدل عنها . وفي أواخر الخريف أثار غضبه ما ارتكبه فرنج اللاذقية من القرصنة بمهاجمة سفينتين تجاريتين مصريتين ، فأغار على بلاد انطاكية وطرابلس ، ودمّر قلعتي صافيتا والعريمة ، ولم يكفّ عن ذلك إلا بعد ان حصل على تعويض كبير [2]. على انه التزم في سنة ١١٧٢ بالمحافظة على الصلح ، لارتيابه من جهة في صلاح الدين ، ولأنه من جهة اخرى أراد ان يظفر بمساعدة السلاجقة في شن هجوم على انطاكية . غير ان سلطان السلاجقة

---

(١) انظر : William of Tyre, XX. 27, pp. 992 - 994.
Ibn al - Athir, pp. 581 - 585. Atabegs, pp. 286 - 288.
Kemal ed - Din, ed. Blochet, p. 552.
Makrizi, ed. Blochet, p. 506.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 62 - 63.
خلط ابن شداد بين حملتي ١١٧١ ، ١١٧٣ ، وقــد أشار الى ان صلاح الدين لم يفكر في مقارمة نور الدين . انظر : Beha ed - Din, p. 65.

(٢) انظر : Ibn al - Athir, Atabegs, p. 279.
Kemal ed - Din, p. 584.
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 62.
أشار ابن شداد الى ان نور الدين استولى على عرقة ، على حين انه قصد العريمة .

تلقى من القسطنطينية من التحذير الشديد مـا جعله يرفض عروضه ، بل استعاض عنها باستئناف الحرب مع الدانشمنديين التي استمرت مدة سنتين . وعلى الرغم من ان التحالف مع بيزنطة لم يحقق إلا قدراً ضئيلاً من النجاح ، فانه على الأقل أنقذ انطاكية من قيام حلف بين حلب وقونية[1]. وحوالي ذلك الوقت قبل نور الدين آخر الامر ان يطلق سراح ريموند كونت طرابلس مقابل دفع ثمانين الف دينار . وتولى الملك والاسبتارية معاً جمع معظم المال المطلوب ، وبذا تهيأ لريموند ان يعود الى وطنه ، على انه لم يؤدّ مطلقاً ثلاثين الف دينار ، ظل مديناً بها لنور الدين[2] .

نشبت الحرب من جديد سنة ١١٧٣ ، ذلك ان امالريك أحسّ من الاطمئنان ما يكفي لأن يحمله على السير نحو الشمال الى قليقية ، لإنزال العقاب بمليح ، لاعتدائه على ستيفن شامبين ، وللوفاء بمـا بذله من وعد للامبراطور . على ان هذه الحملة لم تحقق شيئاً ، باستثناء منع مليح من المضي

---

(١) انظر : Cinnamus, pp. 291 - 292.
Imad ad - Din, pp, 159 - 160.
استضاف قلج ارسلان ، هنري الاسد أثناء اجتياز بلاد الاناضول عند عودته من فلسطين .

(٢) انظر : Abu Shama, p. 168.
William of Tyre, XX. 28, p. 995.
أحاط الغموض بالاحوال التي تم فيها اطلاق سراح ريموند . انظر :
Baldwin, Raymond III of Tripolis, p. 11, and n. 23.
يقع تاريخ اطلاق سراحه بين سبتمبر سنة ١١٧٣ ، وابريل سنة ١١٧٦ .

في التوسع [١] . واغتنم نور الدين الفرصة ، فأغار على اقليم مـا وراء نهر الاردن ودعـا صلاح الدين الى النهوض لمساندته . وإذ آمن صلاح الدين بنصيحة والده ، قـدم من مصر بجيش ، ونازل حصن الكرك . وفي تلك الأثناء هبط نور الدين بجيشه من دمشق ، غير ان صلاح الدين رفع الحصار عند اقتراب نور الدين بجيشه ، ثم عاد الى مصر . وصدق صلاح الدين في قوله أن العـلة اشتدت بوالده ؛ على انه من الجلي ان صلاح الدين لم يودّ تدمير إمارة الفرنج الحاجزة ، التي تفصل بينه وبين سيده الذي ينزع الى فرض سلطته . وعسكر نور الدين بدوره امام حصن الكرك . والمعروف ان اقطاع الاردن ، الذي يعتبر الكرك حاضرته ، ورثته ستيفاني ميللي . مات زوجها الاول همفري سيد تبنين منـذ بضع سنوات ، اما زوجها الثاني ، وهو مايلز بلانسي صنجيل الملك اماريك ، فكان بصحبة الملك ، بعيـداً عن إقطاعه ؛ فنهض لنجدتها صهرها الاول ، الكندسطبل السابق همفري الثاني صاحب تبنين . فلم يسع نور الدين إلا الانسحاب عند تعبئة مـا تبقى بالمملكة من قوات . وتجـاوز نور الدين الحدّ في غضبه على صلاح الدين ؛ فحينما علم في اغسطس بوفاة نجم الدين ايوب ، أشد أتبـاعه في القاهرة إخلاصاً له ، أقسم بأنه سوف يغزو مصر في الربيع القادم [٢].

---

(١) انظر : William of Tyre, XX. 26, pp. 991 - 992.
انظر مـا ورد من مراجع في ص ٦٣٤ ، حاشية ١ . والراجح ان وليم الصوري خلط بين حملتي اماريك .

(٢) انظر : Ibn al - Athir, pp. 587 - 593. Atabegs, p. 293.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 553.
Makrizi, ed. Blochet, pp. 509 - 511.
يرجع المقريزي سبب وفاة نجم الدين ايوب الى سقوطه عن فرسه أثناء لعب الكرة .

مصرع رسل الباطنية (الحشيشية) ، سنة ١١٧٣ :

الواقع ان فرقة العالم الاسلامي أراحت الفرنج ، ففي خريف سنة ١١٧٣ تلقى الفرنج عروضاً للمفاوضات من جهة اخرى لم يتوقعوها. إذ لم يسمع إلا النذر القليل عن الباطنية (الحشيشية) ، في العشراوات الاخيرة من السنين ، عدا ما حدث سنة ١١٥٢ من ترصدهم لاغتيال ريموند كونت طرابلس . انصرف الباطنية في هدوء الى تدعيم بلادهم في جبال النصيرية ، واعتبروا نور الدين عدوهم اللدود ، نظراً لأن سلطانه قيّد توسعهم على الطرف الشرقي ، غير ان نور الدين لم يستطع ان يقمعهم ، وإذ عثر على خنجر ذات ليلة على وسادته ، كان ذلك نذيراً بألا يتمادى في مناوأتهم . ونظراً لأن عواطفهم وميولهم كانت شيعية لا سنية ، ارتاع الباطنية لزوال الخلافة الفاطمية . ففي سنة ١١٦٩ ، ارسلت قيادة الباطنية في ألموت ببلاد فارس حاكماً جديداً اسمه رشيد الدين سنان البصري ، ليتولى اقليم النصيرية . واستهل هذا الشيخ المخيف ، الذي اشتهر عند الفرنج باسم شيخ الجبال ، حكمه بسياسة جديدة بالغة النشاط . فأرسل وقتذاك الى امالريك يعرض عليه إجراء تحالف وثيق لمناهضة نور الدين ، وأخذ يلوح بأنه يفكر مع قومه في التحول الى المسيحية . والواضح انه طلب مقابل ذلك انه ينبغي إلغاء الاتاوة التي سبق للداوية بأنطرطوس ان نجحوا في فرضها على بعض قرى تابعة للباطنية . وسواء اعتقد امالريك أم لم يعتقد بأن الباطنية سوف يصبحون مسيحيين ، فانه فرح بتشجيع الصداقة معهم . وعاد مبعوثو الشيخ سنان قاصدين جبالهم ، وقد ظفروا بوعد بأن سفارة للفرنج لن تلبث ان تقتفي أثرهم . وبينما كانوا يجتازون طرابلس ، تصدّى لهم احد

فرسان الداوية ، وهو والتر ميسنيل ، بممالأة مقـدم الداوية ، فأوقعهم في كمين وأجهز عليهم .

انزعج الملك امالريك ، إذ تعرضت سياسته للدمار ، وانثلم شرفه ، لا لسبب سوى ان طائفة الداوية بلغت من الشراهة والنهم ، انها لم تشأ ان تضحي بشطر صغير من مواردها . فأمر امالريك مقدم الداوية اودو سانت أماند ، بتسليم الجاني . فرفض اودو ، وكل ما عرضه هو ان يرسل والتر الى روما كيما يتولى البابا محاكمته ، لأنه لم يعترف لأحد سواه بالسلطة . غير ان الغضب استبدّ بأمالريك ، فلم يحفل بدستور طائفة الداوية ، وهرع مع جمـــاعة من العسكر الى صيدا التي أقام بهـا مقدم الداوية وهيئتهم الحاكمة ، فشقّ طريقه الى مجلسهم ، واختطف والتر ، وألقى به في السجن في صور . فتأكد الباطنية ان العدالة تحققت ، فقبلوا مـا بذله الملك من الأعذار . وفي تلك الأثنـــاء ، استعد امالريك لأن يطلب من روما حلّ طائفة الداوية [1] .

استهلت سنــة ١١٧٤ ، والامور تجري لصالح المسيحيين . إذ أضحت علاقتهم ودية مع الباطنية (الحشيشية) ، وما زال تحالفهم مع البيزنطيين وطيداً ، ووعد وليم الثاني ملك صقلية الشاب ، ببذل مساعدة بحرية لهم في الربيع . وما وقع من شقاق بين نور الدين وصلاح الدين بلغ حد الازمة ، ولم يعـد صلاح الدين شديد الاطمئنان على مركزه في مصر ، حيث أخذ أعيـان الشيعة يتآمرون عليه مرة اخرى ، وكانوا على اتصال بالفرنج .

---

(١) انظر : William of Tyre, *XX*. 29 - 30, pp. 995 - 996.

ففي سنة ١١٧٣ ، أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه ، لفتح بلاد السودان (النوبة) ، كيا تلجأ اليها امرته ، إذ ازدادت الاحوال سوءاً . فتقدم توران شاه في غزوه حتى بلغ ابريم ، قرب وادي حلفا ، حيث أجهز على اسقف القبط ورعاياه من المصلين ، فضلاً عن سبعمائة خنزير . غير انه أنهى الى صلاح الدين ان البلاد ليست صالحة لأن تكون ملاذاً للاسرة . ثم أرسله صلاح الدين الى جنوب بلاد العرب (اليمن) ، التي كان يؤثرها . ففتحها توران شاه باسم أخيه ، وظل يحكمها ، نيابة عنه ، حتى سنة ١١٧٦ [1] .

وفاة نور الدين ، سنة ١١٧٤ :

لم تعد ثمة حاجة الى الفرار من غضب نور الدين . ففي ربيع سنة ١١٧٤ ، قدم الأتابك نور الدين الى دمشق لإعداد خطة لحملته على مصر . وبينما كان راكباً مع أصدقائه ، ذات صباح ، يجوسون الحدائق ، تحدث اليهم عن تفاهة حياة الانسان ، ولم تنقض سوى تسعة ايام ، حتى مات نور الدين في ١٥ مايو سنة ١١٧٤ بالخوانيق (الذبحة الصدرية) . كان نور الدين حاكماً عظيماً ، ورجلاً صالحاً ، أحبّ العدالة وآثرها على كل الامور . على ان جانباً من نشاطه قد زايله ، بعد المرض الذي ألمّ به قبل تسعة عشر عاماً ، وصار ينفق معظم وقته في اعمال الخير والتقوى . وبرغم ما اتسمت به تقواه من الترمّت والضيق ، فانها أكسبته احترام رعاياه وأعدائه

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, pp. 599, 602 - 603. Atabegs, p. 293. Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 65 - 66.

سواء . كان شديد التقشف ، وقلّ ان ابتسم . والتزم البساطة في حياته ، وحمل اسرته على ان تسير على نهجه ، وآثر ان ينفق موارده على اعمال البر والاحسان . كان إدارياً حازماً يقظاً ، ودعمت حكومته الرشيدة ما أقامه سيفه له من مملكة . وسعى نور الدين بصفة خاصة الى الحدّ من قلق واضطراب أمرائه من الترك والكرد ، بأن أقرّهم على إقطاعاتهم على ان يؤدوا عنها أجناداً ، غير ان محاكم العدل التي أنشأها كبحت جماحهم وكسرت شوكتهم . وأسهم هـذا النظام الاقطاعي المعتدل الى حد كبير في إعادة الرخاء الى سوريا بعد ان مضى نحو قرن على حكم شيوخ البدو . وكان نور الدين ، في مظهره ، طويل القـامة ، داكن البشرة ، أجرد اللحيـة ، دقيق التقاطيـع ، هـادىء الطبـع ، يغلب عليه الأسى والحزن ، كان لعب الكرة هوايته الأثيرة عنده [١] .

وفاة الملك امالريك ، سنة ١١٧٤ :

خلف نور الدين على الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل ، وهو صبي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكان بصحبة والده في دمشق . وانتزع الامير ابن المقدم بدمشق لنفسه الوصاية ، بعد ان ظفر بتأييد والدة الصبي (اسماعيل) . على حين ان كمشتكين والي حلب ، التي تعتبر حـاضرة نور الدين الاساسية ، أعلن نفسه بهـا وصياً . وتدخّل امير الموصل ، سيف الدين ، ابن عم الصالح اسماعيل ، فأضاف الى أملاكه نصيبين وكل

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, pp. 604 - 605·
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 65.

بلاد الجزيرة حتى الرها . اما صلاح الدين ، الذي يحكم اعظم أقاليم نور الدين ثروة ، فكتب الى أمراء دمشق يطالب بأن تكون له الوصاية ؛ غير انه لم يكن وقتذاك من القوة مـا يدعوه الى المضي في دعواه [١] . على ان تداعي وحدة المسلمين هيأ للفرنج فرصة بادر اماريك الى اغتنامها . ففي يونيو سار اماريك قاصداً بانياس ، وخرج ابن المقـدم من دمشق فالتقى به ، ولم يلبث ابن المقدم ان اقترح عليه عقـد هدنة ، وهو ما كان ، فيما يبدو ، يقصد اليه اماريك ، مقـابل ان يؤدي لأماريك مبلغاً ضخماً من المال ، وان يطلق سراح كل أسرى الفرنج بدمشق ، وان يعقـد معه في المستقبل محالفة لمناهضة صلاح الدين [٢] . ولقيت هـذه المقترحات القبول من اماريك ، الذي أخذ يعاني مرض الدوسنطارية . ولما تمّ توقيع الاتفاق ، ركب اماريك عائداً الى بيت المقدس مجتازاً في طريقه طبرية ونابلس ، ولم يقبل ان يخلد الى الراحة بحمله في محفة . فلما وصل الى بيت المقدس ، كان المرض قد اشتد به ، فجرى استدعاء الأطبـاء من اليونانيين والسوريين ليكونوا بجانب فراشه ، وطلب اليهم اماريك ان يفصدوه ، وان يعطوه شراباً ؛ غير انهم رفضوا ، لأنهم اعتقدوا ان الملك أضحى من الضعف مـا يجعله عاجزاً عن تحمُّل كل جهد . فلم يسعه إلا الالتجاء الى طبيبه الفرنجي ، الذي لم يتوافر له من الاحساس بالمسؤولية ووخز الضمير مـا اشتهر به الأطباء اليونانيون والسوريون . على ان العلاج لم يفِد ، فيما يبدو ، إلا ليوم

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, pp. 606 - 609.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, pp. 558 - 560.

(٢) انظر : William of Tyre, XX. 31, pp. 1000.
Abu Shama, p. 162.
Ibn al - Athir, p. 611.

او ليومين ؛ ففي ١١ يوليو سنة ١١٧٤ ، توفي امالريك وقد ناهز الثامنة والثلاثين من عمره [١] .

اذا لم يكن التاريخ سوى التحدي ورد فعل لهذا التحدي ، فان نمو وحدة المسلمين زمن زنكي ونور الدين وصلاح الدين ليس إلا رد فعلي حتمي للحرب الصليبية الاولى . غير ان للقدر ايضاً نصيباً في تقلب الحظ ؛ ففي مستهل سنة ١١٧٤ ، تراءى ان نجم صلاح الدين بدأ يهوي ويأخذ في الاختفاء . على ان وفاة نور الدين ، ثم موت امالريك ، ولم يكن ذلك متوقعاً ، أنقذت صلاح الدين ، ومهّدت الطريق لانتصاراته المقبلة . ورأى فرنج الشرق في وفاة امالريك في تلك الآونة ، وفيما تعرضت له اسرة امالريك من أحداث ، نذيراً بزوال مملكة بيت المقدس ، إذ يعتبر امالريك آخر ملك جدير بعرش بيت المقدس المسيحية . على انه ارتكب بعض الأخطاء ، إذ وقع تحت نفوذ نبلائه في سنة ١١٦٨ ، وخضع لتردّدهم وتذبذبهم في سنة ١١٦٩ . وكان يؤثر دائماً قبول المنح من الاموال ، التي اشتدت حاجة حكومته اليها في الوقت الراهن ، على ان يمضي في سياسة بعيدة النظر ؛ غير ان نشاطه ومضيّه في تحقيق مشروعاته تجاوز كل حد . ودلّ امالريك على انه ليس بوسع أتباعه او الطوائف الدينية العسكرية ان تتحداه ، دون ان تتعرض للأذى والضرر . ولو انه عاش طويلاً ، لتحدّى ما تحتم على المسلمين ان يحرزوه من انتصارات .

---

(١) انظر : William of Tyre, ibid, pp. 1000 - 1001.
والراجح ان الطبيب السوري لم يكن سوى سليمان بن داود . انظر ما سبق ، ص ٥١١ ، حاشية ١ .

الكتاب الخامس

انتصار المسلمين

الفصل الاول

الوحدة الاسلامية

اعتبر صلاح الدين ، الذي اشتد شغفه بمراقبة الأحداث من القاهرة ، ان وفاة اماريك ليست إلا من علامات رضى الله . وما دبره الشيعة من مؤامرات لمناهضته ، بلغت الذروة حينما انكشف له امر مؤامرة لاغتياله . فبادر على الفور الى الضرب على أيدي زعماء المؤامرة وشنقهم ، غير انه لم يتحقق ما اذا كان ثمة آخرون مستعدين للتآمر ، متى قدم جيش مسيحي لمساندتهم ، وفي الوقت ذاته قد ينتقل إرث نور الدين نهائياً الى سواه[1]. وإذ مات اماريك ، لم يعد ثمة خطر لغزو البلاد براً . والواقع ان اسطول صقلية كان على مقربة من الشواطىء المصرية . إذ ان وليم الثاني ، ملك صقلية ، لم يسمع شيئاً عن فشل مؤامرة الشيعة ، ولا عن وفاة اماريك . ففي ٢٥ يوليو سنة ١١٧٤ ، ظهر فجأة امام الاسكندرية اسطول صقلي

(١) انظر : Ibn al - Athir, p. 600.

مؤلف من مائتي واربع وثمانين سفينة ، يحمل الصقليين ، بدوابهم ومؤنهم ، بقيادة تانكرد ، كونت ليتشي . غير انهم اكتشفوا انهم أضحوا محرومين من المساعدة التي علقوا عليها أهمية كبيرة . وسبق ان رفضوا قبول كل مساعدة من قِبَل الامبراطور البيزنطي مانويل ، نظراً لما وقع من شجار بين وليم الثاني وبين مانويل ، الذي عرض عليه من قبل ان يزوّجه ابنته ماريا ، ثم سحب هذا العرض . وكيفما كان الامر ، أراد وليم الثاني ان يثبت ان بوسعه ان يفوق بأعماله البيزنطيين ، بما قاموا به سنة ١١٦٩ من اعمال . على ان فشل الصليبيين في ان يفاجئوا المدينة (الاسكندرية) ، واقتراب صلاح الدين بجيشه ، حملهم على ان يعودوا الى سفنهم ، والإقلاع من الاسكندرية في اول اغسطس سنة ١١٧٤ . فأضحى لصلاح الدين مطلق الحرية في المسير الى سوريا[١] .

انزعج ابن المقدم ، والي دمشق ، فاستنجد بالفرنج لبذل المساعدة له . وازداد خوفه ، حينما هرب من دمشق الملك الصالح بن نور الدين مع امه الى حلب ، فأضحى في رعاية كمشتكين امير حلب . ثم لجأ ابن المقدم الى امير الموصل سيف الدين ايلغازي لينهض الى مساندته ، غير ان سيف الدين آثر توطيد مكاسبه بالجزيرة . وعندئذ ألحّ اهل دمشق على اميرهم ، ابن

---

(١) انظر : Abu Shama, pp. 164 - 165.
(نقلاً عن عماد الدين الاصفهاني) .
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 66 - 67.
جعل ابن شداد تاريخ وصول الصقليين في ٧ سبتمبر ١١٧٤ .
William of Tyre, XXI. 3, p. 1007.

المقدم ، لدعوة صلاح الدين لنجدته . فبادر صلاح الدين بالخروج من مصر في سبعمائة من خيرة فرسانه ، وأسرع في سيره ، مجتازاً اقليم ما وراء الاردن ، حيث لم يحاول الفرنج اعتراض طريقه ، فبلغ دمشق في ٢٦ نوفمبر سنة ١١٧٤ . فتلقاه اهل دمشق بالفرح والسرور ، وأمضى ليلته بالدار التي يملكها أبوه بدمشق . وفي صبيحة اليوم التالي ، فتح له ابن المقدم ابواب القلعة . ثم جعل صلاح الدين أخاه طغتكين والياً على دمشق يحكمها باسم الملك الصالح ، ثم واصل سيره صوب الشمال لمناوأة كمشتكين بحلب ، بعد ان سخا في الإغداق على اهل دمشق من المنح والعطايا من خزانة الصالح ، ما أرضاهم وزاد في فرحهم وسعادتهم [١] .

ريموند كونت طرابلس يتولى الوصاية على ملك بيت المقدس سنة ١١٧٤ :

أضحى الفرنج بعد وفاة املريك من الضعف ما يمنعهم من التدخل ، إذ لم يتبقَّ من البيت الملكي من الأمراء ، سوى بلدوين الأبرص الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره . اما اخته ايزابيلا التي تكبره بسنة واحدة ، فلم تتزوج بعد ، على حين ان زوجة ابيه ، الملكة ماريا كومنينا ، لم تنجب إلا طفلتين ، ماتت احداهما من قبل ، بينما لم يتجاوز عمر الاخرى ، ايزابيلا ، السنتين . لم يتردد البارونات في قبول بلدوين ملكاً عليهم ، فقام

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 67 - 70.
Ibn al - Athir, pp. 614 - 616.
Makrizi, ed. Blochet, p. 517.

البطريرك بتتويجه ، بعد اربعة ايام مضت على وفاة ابيه (امالريك) . ولم يتعين وصي على العرش ، إنما تولى مقاليد الحكومة ، الصنجيل مَايْلز بلانسي ، أقرب صديق للملك الراحل ، وسيد اقطاع اقليم ما وراء نهر الاردن ، الذي حازته زوجته . غير ان مايلز لم يكن مقبولاً ، ولا سيا بين الطبقة الارستقراطية التي نبتت ونشأت بإمارات الفرنج ، والتي اعتمد ريموند كونت طرابلس ، على مساندتها في المطالبة بالوصاية على العرش . إذ ان ريموند يلي اخوات الملك في القرابة الوثيقة للبيت الملكي ، لأن امه هوديرنا من أميرات بيت المقدس ، كانت خالة لأماريك . وعلى الرغم من ان بوهمند امير انطاكية انحدر من أليس ، الاخت الكبرى للأميرة هوديرنا ، فقد كان يفصله عن عرش بيت المقدس جيل كامل . يضاف الى ذلك انه عاش بعيداً عن بيت المقدس ، على حين ان ريموند تزوج حديثاً الوريثة الثانية الكبيرة بالمملكة ، ايشيفا بور ، اميرة الجليل ، وأرملة والتر ساينت اومر . على ان أنصار ريموند ، الذين تزعمهم الكندسطبل السابق ، همفري الثاني سيد تبنين ، وبيت ابلين ، ورينالد سيد صيدا ، أصرّوا على ان تنظر المحكمة العليا في حقوق ريموند في الوصاية . وعلى الرغم من ان مايلز سعى الى إرجاء عرض الامر امام المحكمة الى أطول فترة يستطيع إرجاؤه اليها ، فقد اضطر الى الرضوخ . ففي أواخر الخريف ، تمّ تنصيب ريموند وصياً ، ولم تنقضِ إلا بضعة أسابيع ، حتى جرى ذات ليلة مظلمة في شوارع عكا ، اغتيال مايلز الذي هوى من السلطة ، في صورة بالغة الأسى [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, *XXI*. 3 - 4, pp. 1007 - 1009.

كان ريموند وقتذاك في الرابعة والثلاثين من عمره ، كان رجلاً طويل القامة ، نحيل الجسم ، اسود الشعر ، داكن البشرة ، كبير الأنف ، اشتهر في طباعه بالبرود وضبط النفس ، فضلاً عن النزوع الى البخل . لم يتوافر فيه ما اشتهر به الصليبيون الأوائل من الميل الشديد للفروسية . وفي أثناء السنوات الطويلة التي أمضاها ريموند في الأسر ، انكبَّ على القراءة والدراسة ، فتعلم اللغة العربية ، ودرس سُبل المسلمين وأساليبهم ، فنظر الى مشاكل إمارات الفرنج من الزاوية المحلية . أولى اهتماماً خاصاً بأن تبقى هذه الامارات ، ولم يحفل بدورها على انها رأس رمح للعالم المسيحي المعتدى . اشتهر ريموند بالكفاية والقدرة ، وبما بذله أصدقاؤه له من مساندة فعّالة ، غير انه لم يكن إلا وصياً ، له أعداؤه [1] .

استهلت وصايته بما وقع في داخل المملكة من تصدُّع وانشقاق . فالمعروف انه كان بالمملكة أحزاب ، ولا سيا زمن الملكة ميليسند ، غير ان هذه الاحزاب لم تعش طويلاً ، إذ خضعت لسلطة الملك . ثم ظهر حزبان ، تألف أولهما من الباروثات الوطنيين والاسبتارية ، الذين خضعوا لقيادة الكونت ريموند ، وسعوا للتفاهم مع جيرانهم المسلمين ، ولم يميلوا الى المضيّ في مغامرات محفوفة بالخطر ؛ أما الحزب الآخر فتألف من القادمين حديثاً من الغرب ، ومن الداوية . واشتهر هذا الحزب بنزعته العدوانية ، والروح المسيحية المحاربة . وعثر هذا الحزب على قادته ، سنة ١١٧٥ ، حينما تمّ آخر الامر اطلاق سراح رينالد شاتيون من حبس المسلمين ، فضلاً عن جوسلين كونت الرها ، الذي أضحى كونتاً ، لا كونتية

---

(١) انظر : William of Tyre, XXI. 5, pp. 1010 - 1012.

له ، فجعل منه القدر مغامراً [١] . على ان العداوات الشخصية كانت أشد وأقوى من الاختلافات في السياسة ، إذ أضحى معظم البارونات أبناء عمومة احدهم للآخر . وما يقع في الاسرة من منازعات ، يعتبر دائماً أشد العداوات مرارة . فزوجتا امارليك تكن احداهما الكراهية للاخرى ، اما أجنيس كورتيناي اخت الكونت جوسلين ، فتزوجت مرتين منذ ان تم طلاقها . ومات زوجها الاول ، هيو ابلين ، ولم يمض على زواجها إلا بضعة شهور . وابتهج زوجها الثاني ، رينالد سيد صيدا ، حين اكتشف ان قرابته بزوجته كانت من الدنو والوثاقة ، مثلما كان اماريك ، ما يجعل الزواج باطلا ، فهيأت له بذلك إلغاء عقد الزواج [٢] .

ولما انحاز الى أجنيس أخوها والداوية ، اتخذ رينالد سيدصيدا جانب الحزب الآخر . على ان الملكة ماريا كومنينا ، لم تلبث ان تزوجت من جديد ، من باليان شقيق هيو ابلين ، فنقلت اليه اقطاع نابلس الذي حازته معاشاً لها . واتسم هذا الزواج بالسعادة ، وقامت الملكة بنشاط كبير في حزب زوجها [٣] . فلم تنقض بضعة شهور على اطلاق سراح رينالد

---

(١) عن اطلاق سراح رينالد شاتيون ، انظر ما يلي ، ص ٦٥٧ .

(٢) مات حوالي سنة ١١٦٩ ، هيو ابلين الذي كان مندوباً سامياً لأماريك في القاهرة سنة ١١٦٧ . وقد خطب لنفسه أجنيس قبل ان تتزوج من اماريك . انظر :

William of Tyre, XIX. 4, p. 890.

ويشير وليم الصوري ايضاً الى طلاقها من رينالد سيد صيدا . وأثبت والد رينالد ، ما كان يربطه بأجنيس من القرابة. ولا شك ان امها بياتريس ، ارملة وليم سيد صهيون ، هي التي منعت تسجيل اسمها .

(٣) انظر : William of Tyre, XXI. 18, p. 1053.

Ernoul, p. 44.

شاتيون ، حتى تزوج من وريثة اقطاع بلاد مـا وراء الاردن ، ستيفاني ارملة مايلز بلانسي ، التي اتهمت الكونت ريموند باغتيال زوجها [١] . وما حدث بين ريموند والداوية من نزاع طويل الأمد ، إنما نشأ حول مسألة شخصية . ذلك ان فارساً فلمنكياً ، اسمه جيرار ريدفورت ، قدم الى طرابلس سنة ١١٧٣ ، ودخل في خدمة الكونت ريموند ، الذي وعد بأن يزوّجه اول اميرة تصلح له من وريثات الاقطاعات بطرابلس . غير انه حينما مات سيد البطرون ، بعد بضعة شهور ، آلت أراضيه لابنته لوسيا ، تجاهل ريموند طلب جيرار ، وزوّجها من أحد أثرياء البيـازنة ، واسمه بليفانو ، الذي بادر ، دون اكتراث ، الى ان يجعل الفتاة في كفة الميزان ، ثم بذل للكونت من الذهب ما يضارع وزنها . وإذ استبدّ الغضب وخيبة الأمل بجيرار ، التحق بطائفة الداوية ، ولم يلبث ان أضحى أقوى رجالها نفوذاً وصنجيلها ، غير انه لم يغفر مطلقاً لريموند تصرفه [٢] .

وإذ توافر للملك الشاب (بلدوين) من النضوج المبكر ما جعله يدرك ما يدور حوله من مؤامرات ، حـاول ان يحفظ التوازن بين الحزبين المتنازعين . ظل ريموند وصياً على العرش ثلاث سنوات ، غير ان أواصر القرابة جعلت الملك يزداد اقتراباً من بيت كورتيناي ، إذ عيّن خاله جوسلين صنجيلاً

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 30 - 31.

(٢) انظر : Ernoul, p. 114.
Estoire d'Eracle, pp. 51 - 52.
بذل بليفانو لعروسه عشرة آلاف ديناراً . فاذا كانت هذه الدنانير من الذهب الخالص ، لكان وزنها حوالي ١٤٠ رطل انجليزي .

في سنة ١١٧٦ ، وعادت امه أجنيس الى البــلاط ، فكان نفوذها بالغ الخطورة ، جالباً للكوارث ، إذ كانت سيئة الخلق ، شديدة النهم ، بالغــة التعطش للرجال والاموال . سبق ان تقرر منعها من القيــام على تربيــة أطفالها ، إذ ان بلدوين تعاهده بالرعاية وليم الصوري ، بينما كفلت سبيللا خالة أبيها الاميرة يوفيتا رئيسة دير بيثـــاني . غير ان أجنيس أخذت تتدخل في شؤون حياتها ، فاستمع لها بلدوين برغم ما اشتهر به من الحكم السديد ، اما سبيللا فوقعت تحت سيطرتها[١] .

صلاح الدين يهاجم حلب ، سنة ١١٧٤ :

كان اول ما التزم به ريموند من واجبات باعتباره وصياً على العرش ، هو ان يحدّ من نموّ قوة صلاح الدين . إذ لم يكن بوسع الفرنج ان يمنعوا اتحـــاد دمشق بالقاهرة ، غير ان حلب لا زالت على الأقل خارجة عن الاتحاد . على انه لم تكد الأمداد تقدم من مصر ، حتى سار صلاح الدين من دمشق قاصداً حلب . وفي ٩ ديسمبر سنة ١١٧٤ دخل حمص ، وخلف بها عساكر لمنازلة القلعة التي امتنعت عليه ، واجتاز حماه في طريقه الى

---

(١) أضحى جوسلين صنجيلاً معترفاً به منـذ سنة ١١٧٧ ، وكان دائماً يعرف بـ « الكونت جوسلين » . انظر :

Röhricht, Regesta, p. 147.

اما أجنيس فورد ذكرها في الوثائق على انها كونتيسة ، نظراً لأنها كانت ، اثنـاء زواجها من املريك ، كونتيسة يافـــا وعسقلان . ولم تكن مطلقاً ملكة ، ولم تعرف بهذا اللقب . انظر : William of Tyre, XXI. 2, p. 1006. ، ومـا سبق ص ٦٣٤ عن نشأة سبيللا وبلدوين وتربيتها .

حلب . ولما أغلق كمشتكين أبوابهـا في وجهه ، شرع في ٣٠ ديسمبر في إحكام محاصرة المدينة . كان اهل المدينة ينزعون الى الإذعان له ، غير ان الملك الصالح الصبي ، خرج اليهم ، فناشدهم ان يحافظوا عليـه من رجل سلبه إرثه . وإذ رقّ المدافعون لحاله ، لم يتخلوا عنـه مطلقاً . وفي تلك الأثناء ارسل كمشتكين يلتمس النجدة من الباطنية والفرنج . ولم تمضِ إلا ايام قليلة ، حتى تمّ اكتشاف جماعة من الباطنية عند خيمة صلاح الدين في جوف معسكره ، فتقرر قتلهم بعـد ان استبسلوا في الدفاع عن انفسهم . وفي اول فبراير سنة ١١٧٥ ، ظهر امـام حمص الكونت ريموند وجيش فرنجي ، فشرعوا في مهاجمة أسوار المدينة ، تساندهم الحامية المرابطة بالقلعة . وحقق هـذا الهجوم النتيجة المرغوبة ، إذ ان صلاح الدين رفع الحصار عن حلب ، وهرع نحو الجنوب ، غير ان ريموند لم يمكث ليلتقي به . وظل صلاح الدين منصرفاً في الشهر التـالي الى منازلة قلعة حمص ، ولم يحلّ شهر ابريل سنة ١١٧٥ ، حتى أضحى صلاح الدين يبسط سلطانه على كل سوريا حتى حماه شمالاً ، على ان حلب ما زالت مستقلة . وأعرب كمشتكين عن امتنانه للفرنج ، فأطلق سراح رينـالد شاتيون وجوسلين كورتيناي ، وسائر الأسرى المسيحيين ، بعد ان ضعفت أجسادهم في سجون حلب المظلمة [١] .

ومـا أحرزه صلاح الدين من انتصارات أثار غضب امير الموصل ، سيف الدين ، ابن شقيق نور الدين ، فوجّه الى سوريا أخـاه عز الدين

(١) انظر : William of Tyre, *XXI*. 6, pp. 1012 - 1013, 1023.
Abu Shama, pp. 167 - 168.
Ibn al - Athir, pp. 618 - 620.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, pp. 562 - 564.

على رأس جيش كثيف ، لينحاز الى كمشتكين بحلب . وعرض صلاح الدين على كمشتكين ان يتنازل له عن حماه وحمص ، ولعله كان يأمل بذلك إثارة الشقاق بين حلب والموصل ، غير ان العرض لم يحظَ بالقبول . على ان صلاح الدين أوقع بالجيش المتحالف في خانق عميق ضيق بين التلال الواقعة الى الشمال من حماه ، فأجهز عليه جنوده البطالون ، ومع ذلك لم يشعر صلاح الدين انه من القوة ما يكفي لمواصلة الانتصار ، فتقرر عقد هدنة قضت بأن يحوز بعض البلاد شمالي حماه ، وفيما عدا ذلك بقيت الاحوال على ما كانت عليه [١] .

تخلى صلاح الدين ، عندئذ ، عن تبعيته للملك الصالح اسماعيل ، وسبق ان قال انه بذل كل ما بوسعه من جهد ليخلص في خدمته ، غير ان الصالح رفض ما عرضه صلاح الدين من مساعدة ، وآثر عليه غيره من الناصحين . فلم يسع صلاح الدين إلا ان يتخذ لقب ملك مصر والشام ، وان يسكّ النقود باسمه وحده . وأقرّ خليفة بغداد عن طيب خاطر ما حدث ، وبعث اليه الخلَع الخليفية التي بلغته ، في مايو ، وهو بحماه [٢] .

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 70 - 71.
Ibn al - Athir, pp. 621 - 622.
أطلق ابن الاثير على الموضع الذي دارت فيه المعركة قرون حماه .
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 564.

(٢) يرجع تاريخ النقود الاولى التي تحمل اسم صلاح الدين مقروناً بلقب ملك، الى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ - ١١٧٥) . لم يتخذ صلاح الدين مطلقاً لقب سلطان ، غير ان المؤرخين العرب ، حتى المعاصرين له منهم ، دأبوا على نعته به .
(كما ورد في ابن جبير ، وابن شداد) . انظر :
Wiet : op. cit. pp. 335 - 336.

صلاح الدين يهزم سيف الدين امير الموصل ، سنة ١١٧٦ :

لم تستمر طويلاً ، الهدنة التي عقدها صلاح الدين مع الزنكيين . ففي مارس سنة ١١٧٦ ، اجتاز سيف الدين امير الموصل ، نهر الفرات ، في جيش كثيف ، ولحق بعسكر كمشتكين في ظاهر حلب . فتوجه صلاح الدين لملاقاته ، بعد ان تلقى أمداداً جديدة من مصر . على ان رجاله جزعوا حينما عبروا نهر الاورنت قرب حماه ، لما حدث من كسوف الشمس في ١١ ابريل سنة ١١٧٦ . فلم تمضِ عشرة ايام ، حتى فاجأهم سيف الدين بعساكره ، وهم يوردون افراسهم الماء . غير ان سيف الدين تردّد في المبادرة الى الهجوم . ولما حشد سيف الدين عساكره في صبيحة اليوم التالي ، لشنّ هجوم على معسكر صلاح الدين على تل السلطان ، على مسافة نحو عشرين ميلاً الى الجنوب من حلب ، كان الوقت قد فات . وكاد اول هجوم لقوات سيف الدين يتكلل بالنجاح ، غير ان صلاح الدين قاد ما لديه من قوات احتياطية لردّ الهجوم ، فحطم خطوط العدو ، ولم يحلّ المساء حتى أضحى سيد الموقف . وما خلفه سيف الدين من أموال في معسكره ، عند فراره ، بذلها صلاح الدين لرجاله على سبيل المكافأة . اما الأسرى الذين وقعوا في يده ، فانهم تلقوا معاملة طيبة ، ولم يلبث صلاح الدين ان أمر بردّهم الى بلادهم . وما أظهره صلاح الدين من السخاء والرحمة ، كان له اكبر الأثر [1] .

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 71 - 74.
Ibn al - Athir, pp. 625 - 626.

أشار ابن شداد الى ان معركة نشبت في تل السلطان وفي قرون حماه .

على ان حلب ظلت ترفض فتح أبوابهـــا لصلاح الدين ؛ ولذا شنّ صلاح الدين الهجوم على حصني البزاعة ومنبج ، الواقعين بين حلب ونهر الفرات ، واستولى عليها ، ثم حاصر عزازاً ، الحصن الكبير الذي يتحكم في الطريق المؤدي الى الشمال . وفي هذا الموضع ، عزاز ، كاد صلاح الدين يلقى حتفه مرة اخرى بيد رجل من الحشيشية ، استطاع ان يدلف الى الخيمة ، حيث كان صلاح الدين يخلد الى الراحة ، ولم ينقذه إلا المغفرة التي كان يتخذها تحت عمامته . وأذعنت عزاز في ٢١ يونيو سنة ١١٧٦ ، ثم ظهر صلاح الدين مرة اخرى في ٢٤ يونيو امام حلب . على انه وافق وقتئذ على التوصل الى اتفاق ، إذ قبل الملك الصالح وأميرا حصن كيفا وماردين الارتقيان اللذان سانداه ، التنازل لصلاح الدين عن كل مـا استولى عليه من بلاد ، وأقسم الجانبان على المحافظة على السلام . ولما تمّ توقيع المعاهدة في ٢٩ يوليو سنة ١١٧٦ ، قدمت اخت الصالح الصغيرة لزيارة معسكر صلاح الدين ، ولما سألها صلاح الدين في لطف عما تودّ من الهدايا ، أجابت انها تطلب قلعة عزاز هدية لها ، وعندئذ أعاد صلاح الدين هـذه القلعة الى أخيها الصالح [١] .

وعلى الرغم من ان صلاح الدين لم يستولِ على حلب ، فان الصالح وبني أعمامه استبد بهم الجبن . فأضحى بوسع صلاح الدين ان يلتفت لتسوية

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 74 - 75.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, pp. 146 - 147.
Ibn al - Athir, loc. cit.
اورد ابن العديم ان الرأي العام في حلب أنكر عقد المعاهدة ، وأمعن في مساندة الصالح .

حسابه مع الحشيشية والفرنج ، فنفـــذ الى جبال النصيرية ، حيث نازل مصياف ، المعقل الاسامي للحشيشية . لم يكن الشيخ سنان حاضراً ، ولما عجل بالعودة الى داره ، كان بوسع عساكر صلاح الدين ان يأسروه ، لولا ان منعتهم من ذلك قوة خفية ، تنطوي على شيء من السحر . واضطرب صلاح الدين نفسه لما رآه من الأحلام المزعجة . ففي احدى الليالي ، نهض فجأة ، فعثر في فراشه على كعك ساخن ، من نوع لا يخبزه إلا الحشيشية ، فضلاً عن خنجر مسموم ، وقصاصة ورق بهـا أشعار تنطوي على التهديد والوعيد . واعتقد صلاح الدين ان شيخ الجبل نفسه هو الذي كان بخيمته ، فانهـــارت أعصابه ، ثم ارسل الى سنان يطلب منه ان يغفر له ذنوبه ، ويعده بأنه سوف لا يتعرض منذئذ للحشيشية بأذى ، مقابل بذل الأمان له . فعفا عنه شيخ الجبل ، والتزم الجانبان بالمحافظة على المعاهدة التي انعقدت بينهما [١] .

لم تنعقد معاهدة من هذا القبيل مع الفرنج . وعلى الرغم من ان هدنة قد أبرمت في سنة ١١٧٥ ، حينما أطلق صلاح الدين من كان بحوزته من الأسرى المسيحيين كيما يستطيع التفرغ لقتال سيف الدين امير الموصل [٢] ،

---

(١) انظر : Abu Firas, ed. Guyard, Journal Asiatique, 7th Series, vol. IX. 1877. Arabic text, pp. 455 - 459.
Ibn al - Athir, loc. cit.
يشير ابن الاثير الى رسالة بعث بها سنان الى شهاب الدين ، خال صلاح الدين .

(٢) انظر : William of Tyre, XXI. 8, pp. 1017 - 1019.
وجه وليم الصوري اللوم الى همفري سيد تبنين ، الذي كان مسؤولاً عن عقـــد الهدنة ، لأنه أضاع الفرصة لتوجيه ضربة لصلاح الدين ، اثناء اضطرابه وحيرته .

فان الفرنج نقضوا الهدنة في السنة التالية . وبينما كان صلاح الدين ينازل حلب ، أغار ريموند كونت طرابلس من البقيعة على اقليم البقاع ، وقدم من الجنوب جيش مملكة بيت المقدس بقيادة همفري سيد تبنين ، والملك الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره . وتعرض ريموند فيما يبدو للهزيمة على يد ابن المقدم ، امير بعلبك . غير ان المسيحيين اجتمعوا سوياً ، وأنزلوا هزيمة ساحقة بتوران شاه ، شقيق صلاح الدين ، وبقوات دمشق . على انه لم يكد صلاح الدين يقدم من الشمال ، حتى انسحبوا من جديد ، فلم يقتفِ أثرهم ، إذ كان حريصاً على العودة الى مصر . وبعد ان خلف أخاه توران شاه على قيادة جيش قوي في بلاد الشام ، اجتاز اقليم ما وراء نهر الاردن مرة اخرى ، ووصل الى القاهرة في نهاية شهر سبتمبر سنة ١١٧٦ [١] .

زواج سبيللا للمرة الاولى ، سنة ١١٧٦ :

أفاد الجانبان من توقف القتال بينهما لمدة سنة . فبينما انصرف صلاح الدين الى إعادة تنظيم مصر ، وعمارة القاهرة وتحصينها ، واجهت الحكومة في بيت المقدس ، أمر مشكلة داخلية . ففي سنة ١١٧٧ ، بلغ الملك بلدوين سن الرشد ، إذ أضحى في السادسة عشرة من عمره ، فتخلى ريموند عن الوصاية . غير ان ما يعانيه الملك من داء البرص ، ازداد سوءاً ، ومن المحقق ان الملك لن يعيش طويلاً . فكان لا بد للاميرة سبيللا ان تتزوج ،

---

(١) انظر : William of Tyre, XXI. pp. 1021 - 1023.
Ibn al - Athir, p. 627.

حتى تضمن ولاية الحكم . والراجح انه بنـــاء على اقتراح لويس السابع ملك فرنسا ، ارسل بلدوين سنة ١١٧٥ ، الى وليم ذي السيف الطويل (William Long - Sword) ، اكبر أبنـاء ماركيز مونتفيرات ، يدعوه للقدوم الى فلسطين وقبول الزواج من سبيللا . والواقع ان ذلك كان اختياراً موفقاً ، نظراً لمـا اشتهر به وليم من الصّلات بأسرات عديدة ، إذ كان أبوه أغنى الأمراء بشمال ايطاليا ، كما انه كان ابن عم وخال كل من الامبراطور فردريك بربروسا ، والملك لويس . ومع ان وليم مونتفيرات لم يكن صغير السن ، فانه كان من الوسامة والفروسية ما يكفي لإرضاء الاميرة المرحة . هبط وليم الى صيـدا في اكتوبر سنة ١١٧٦ ، ولم تمض بضعة ايام حتى تمّ زواجه من سبيللا ، وحاز كونتيـة عسقلان ويافا ، وارتضاه الجميع وريثاً للعرش . على ان الآمال التي انعقـدت على نشاط وليم مونتفيرات ، وصِلاته الرفيعـة الشأن ، قد تبددت . ففي أوائل سنة ١١٧٧ ، خرّ مريضاً لإصابته بالملاريا ، وظل يعـاني المرض بضعة شهور ، ثم قضى نحبه في يونيو سنة ١١٧٧ ، وأنجبت ارملته (سبيللا) في أواخر الصيف ابناً له ، يعتبر وريثاً للمملكة ، غير انه لا بد من قيـــام وصاية على العرش . وأخذت رسل الملك بلدوين تجوب اوربا من جـديد التماساً لزوج آخر للاميرة سبيللا [١] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XXI. 13, pp. 1025 - 1026.
كانت والدة وليم مونتفيرات اختاً غير شقيقة للملك كنراد ، ولوالد فردريك بربروسا . اما والد وليم ووالدة الملك لويس ، اديلايد مورين ، فلم يكونا شقيقين ، اذ أنجبتهما امهما جيزيلا البرجندية من زوجين مختلفين .

وانطلقت رسل الملك ايضاً للطواف بأوربا للحصول على حلفاء لمناهضة صلاح الدين ؛ فمن المحقق ان فترة الهدوء لن تستمر طويلاً . على ان أمراء الغرب كانوا منصرفين الى امورهم الخاصة ، بل انه ليس بوسع القسطنطينية ان تبذل ما سبق ان بذلته من المساعدة . والواقع ان سنة ١١٧٦ تعتبر نقطة تحوُّل في تاريخ بيزنطة . إذ ان السلطان السلجوقي ، قلج ارسلان الثاني ، ضاق ذرعاً بالامبراطور . ففي أثناء حياة نور الدين قَبِل الخضوع للامبراطور ، نظراً لأن نور الدين سبق ان تدخّل سنة ١١٧٣ في أمر الأناضول ، ليمنع السلاجقة من ابتلاع بلاد الدانشمند . ذلك ان عبد المسيح قائد نور الدين ، والوزير السابق لقطب الدين شقيق نور الدين ، أعاد قيصرية مازاكا (بآسيا الصغرى) الى ذي النون الدانشمند ، وأقام مع الحامية في سيواس . اما شاهنشاه ، شقيق قلج ارسلان ، فقد تمّ التصديق على حيازته لأنقرة ، التي أحلّه الامبراطور بها منذ بضع سنوات . غير ان وفاة نور الدين أزاحت ذلك الضغط عن قلج ارسلان . ففي سنة ١١٧٤ عاد عبد المسيح الى الموصل ، وأقام ذو النون وشاهنشاه بالمنفى في القسطنطينية ، وأضحت بلادهما في حوزة قلج ارسلان . وعندئذ التفت قلج ارسلان لمناوأة بيزنطة . وفي صيف سنة ١١٧٦ ، وطّد الامبراطور مانويل العزم على ان يسوّي حسابه نهائياً مع الترك . وما أحرزه في الصيف السابق من انتصارات ضئيلة ، شجعته على ان يكتب الى البابا ، ينهي اليه ان الوقت أضحى ملائماً للدعوة الى حرب صليبية جديدة ، وأراد الامبراطور وقتئذ ان يكفل الأمن الدائم للطريق الذي يجتاز بلاد الأناضول . فبينما أنفذ الامبراطور مانويل جيشاً بقيادة ابن عمه ،

اندرونيق فاتاتسيس ، ليجتاز بافلاجونيا ، ويعيد ذي النون الى بلاده ، قاد الامبراطور جيشاً كثيفاً ، ازداد عـــدداً بكل الامداد التي استطاع الامبراطور ان يحشدها ، وتوجه لمنازلة قونية ، عاصمة السلطان السلجوقي . ولما سمع السلطان قلج ارسلان بأمر الحملة ، ارسل الى الامبراطور يسأله السلامة والعافية ، غير ان مانويل لم يعد يؤمن بكلمته ووعده .

معركة ميريوكيفالوم ، سنة ١١٧٦ :

وفي أوائل سبتمبر سنة ١١٧٦ ، حلّت الكارثة بالحملة البافلاجونية امام أسوار نقصار . على ان رأس فاتاتسيس قائد الحملة ، كان من الأسلاب التي تقرر إرسالها الى السلطان السلجوقي . ثم تحرك ، بعد ايام قليلة ، جيش مانويل ، فاخترق وادي نهر الماياندر ، مجتازاً الحصن الذي شيّده في السنة السابقة عند سوبلايوم ، ثم سار حول قمة بحيرة اجريدير ، ومضى الى التلال المؤدية الى سلسلة الجبال الضخمة المعروفة باسم جبـال سلطان داغ . على ان العربات الثقيلة التي حملت أدوات الحصار والمؤن ، أبطأت في سيرها ، وخرب الترك كل الأراضي التي لا بد ان تجتـازها . وأفضى الطريق الى درب أطلق عليه اليونانيون اسم (تريبريتز) ، يقع في أقصى طرفه حصن ميريوكيفالوم الخرب . وعلى جانب التل الأجرد ، تراءت الحشود التركيـة مجتمعة . على ان قادة الجيش البيزنطي المعروفين بخبرتهم وتجربتهم الطويلة ، حذّروا الامبراطور مانويل ، بألا يجتاز بجيشه البطيء الحركة ، الدرب الوعر المواجه للعدو . غير ان الأمراء الشبان وثقوا في إقدامهم وبسالتهم ، واشتد شغفهم بإحراز المجد ، فحرّضوه على المضي في السير . وجنّد السلطان العساكر من جميع حلفـــائه وأتباعه ، فصار جيشه يضارع في الضخامة

جيش مانويل ، غير انه يقلّ عنه عدّة ، لكنه يفوقه في التعبئة وسرعة الحركة . وفي ١٧ سبتمبر سنة ١١٧٦ ، شقت مقدمة جيش مانويل طريقها داخل الدرب ، فتراجع الترك امامهم ، وصاروا يطوفون بالتلال ، ويهبطون من المنحدرات الى الدرب ، بينما تزاحم الجيش الامبراطوري الاساسي على امتداد الطريق الضيق . وتولى بلدوين سيد انطاكيــة ، وصهر الامبراطور مانويل قيادة سرية من الخيــالة ، ارتقى بها التل وهاجم العدو ، غير انه لقي مصرعه مع جميع رجاله . وشهد العساكر بالوادي مــا حلّ به من هزيمة ، غير انه بلغ من شدة التصاق الجنـــد سوياً أنه لم يكن بوسعهم ان يحركوا أيديهم إلا نادراً . ومع ذلك ، كان بوسع القيادة الباسلة ان تنقذ الموقف ، غير ان شجاعة مانويل تخلت عنه ، فكان الامبراطور اول من استبد به الذعر ، فركن الى الفرار خارج الدرب . وحاول كل الجيش عنــدئذ ان يتبعه ، غير انــه حدث في خضمّ الفوضى والاضطراب ، ان سدّت عربات النقل الطريق ، فلم يفلت إلا عدد قليل من العساكر . وظل الترك يقتلون – وهم يلوحون امامهم بجمجمة فاتاتسيس – من العدو كيفما شاؤوا ، حتى حلول الظلام . ثم أنفـــذ السلطان رسولاً الى الامبراطور ، وهو يحـــاول ان يجمع شتات عساكره في السهل ، وعرض عليه الصلح بشرط ان يبــادر بالانسحاب على الفور ، وان يدمر استحكامات الحصنين الجديدين اللذين شيدهما ، وهما : سوبلايوم ودوريليوم . فقبل مانويل ، راضياً وشاكراً ، هذه الشروط ، وعادت مقــدمة جيشه التي لم تنثلم ، فاجتازت الدرب في اطمئنان ، وانحازت الى ما تبقى من فلول الجيش المثيرة للعطف ، التي قادها وقتذاك مانويل صوب بلاده ، فتعرضت لهجمات الترك الذين لم يدركوا صبر قلج ارسلان وتحمله . والراجح ان السلطان لم يفهم ايضاً ما حازه من انتصار تام ، إذ ان كل اهتمامه كان موجهاً وقتئذ الى التوسع صوب الشرق .

وكل ما كان يبتغيه في تلك الجهات (الأناضول) ، هو الأمن والسلام [1].

على ان مانويل أدرك أهمية الكارثة ، التي عقـــد مقارنة بينها وبين معركة ماتزيكرت التي حدثت قبل مائة سنة [2]. إذ تحطمت فجأة القوة الحربية الضخمة التي أقامها جده وأبوه ، وتستغرق إعادة بنـائها سنوات عديدة ، والواقع انهـا لم يتجدد بناؤها مطلقاً . ومع ذلك فانه تبقى من العساكر ما يكفي لحماية الحدود ، ولإحراز انتصارات صغيرة في السنوات الثلاثة التالية . غير انه لم يعد بوسع الامبراطور ان يسير الى الشام ، وان يُملي إرادته بأنطاكية . ولم يبق له شيء من مكانته الكبيرة ، التي منعت نور الدين في ذروة قوته من الإمعان في الضغط على العالم المسيحي . والواقع ان كارثة ميريوكيفالوم بلغت فاجعتها عند الفرنج ما بلغته عند بيزنطة .

---

(١) انظر : Nicetas Choniatos, pp. 236 - 248.
Michael the Syrian, III. pp. 369 - 372.
Chalandon : Les Comnènes, pp. 506 - 513.
Cahen : La Syrie du Nord, p. 417, n. 3.
Ramsay : « Report on Exploration in Phrygia », in History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire, pp. 235 - 238.
يعالج رامزي معركة ميريوكيفالوم .

(٢) انظر : Nicetas Choniates, p. 249.
وحاول مانويل من جهة اخرى ، ان يقلل من خطورة المعركة ، وذلك في الرسالة التي بعث بها الى هنري الثاني ملك انجلترا . أشار الى هذه الرسالة :
Roger of Hoveden, Chronicle, II. p. 101.
وأشار الى هذه المعركة من المؤرخين الغربيين ، امثال :
Vita Alexandri, in Liber Pontificalis, II. p. 435.
Annales S. Rudberti Salisburgensis, p. 777.

فعلى الرغم من سوء التفاهم وافتقاد الثقة المتبادلة بين الفرنج والبيزنطيين ، فان الفرنج كانوا يعلمون ان بقـاء الامبراطورية العظيمة (بيزنطة) يعتبر السياج الأخير إزاء انتصار المسلمين . على ان الفرنج لم يلحظوا أهميـة المعركة في الوقت الراهن ، حين حكم شمـال الشام الملك الصبي الصالح اسماعيل . ولما قام وليم الصوري ، بعد ثلاث سنوات ، بزيارة القسطنطينية ، ووقف على ما حدث ، أدرك ما يخبئه المستقبل من أخطار [1] .

فيليب كونت فلاندر في فلسطين ، سنة ١١٧٧ :

على الرغم من ان جيش مانويل تعرّض للدمار ، فمـا زال اسطوله قوياً ، وبوسعه ان يستخدمه لمنـاهضة صلاح الدين ، إذ وعد مانويل مرة اخرى ، سنة ١١٧٧ ، ان يرسل اسطوله ليساند الفرنج في الهجوم على مصر . وترددت شائعات أثناء ذلك الصيف عن توجيه حملة صليبية جديدة من الغرب . وجرى القول ان لويس السابع ملك فرنسا ، وهنري الثـاني ملك انجلترا ، قررا الاشتراك في حملة صليبية [2] . على انه لم يظهر بفلسطين إلا امير واحـد من الغرب . ففي سبتمبر سنة ١١٧٧ ، وبينما كان بلدوين يتماثل الى الشفاء من حمّى الملاريا الشديدة ، هبط كونت فلاندر الى عكا في عدد كبير من الأتبـاع . وكان فيليب فلاندر ، ابناً لثييري كونت

---

(١) انظر : William of Tyre, XXI. 12, p. 1025.

(٢) اتفق هنري الثاني ولويس السابع في معاهدة ايفوري المبرمة في ٢١ سبتمبر سنة ١١٧٧ ، على ان يشتركا معاً في حملة صليبية ، غير ان المشروع لم يلبث ان تم إغفاله . انظر :
Benedict of Peterborough, I. pp. 191 - 194.

فلاندر وسبيللا كونتيسة أنجو . وكان الفرنج يأملون من وراء قدومه تحقيق أشياء كثيرة ، لما عرفوه عن الحملات الصليبية الاربعة التي اشترك فيها أبوه ، ولما اشتهرت به امه من التقوى وتعلقها بالارض المقدسة . وإذ ذاعت أنباء قدومه ، جاء من قِبَل الامبراطور مانويل اربعة سفراء امتازوا بعراقة الأصل والنسب ، يعرضون عليه المال اللازم لإعداد حملة ، لتوجيهها الى مصر ، ووصل الى عكا في أثرهم اسطول مؤلف من سبعين سفينة ، بالغة الصلاحية ، فرسا خارج مينائها . وإذ بلغ المرض بالملك ما يمنعه من مباشرة القتال بنفسه ، هرع الى فيليب كونت فلاندر ، فعرض عليه ان يتولى الوصاية على العرش ، اذا تولى قيادة حملة حربية على مصر ، غير ان فيليب أظهر التردد ، ولم يتخذ موقفاً حاسماً . إذ قال اول الأمر ، انه لم يقدم إلا ليؤدي الحج ، ثم أشار الى انه ليس بوسعه ان يضطلع وحده بهذه المسؤوليات . فلما اقترح الملك ان يشترك معه في قيادة الحملة رينالد شاتيون ، وجّه انتقاداً الى سلوك رينالد ، ولما جرى إخطاره بأن الاسطول البيزنطي على استعداد للتعاون معه ، اكتفى بالتساؤل لماذا يلتزم بما يبذله البيزنطيون من مساعدة . ثم أفصح آخر الأمر عن انه لم يقصد من قدومه الى فلسطين سوى ان يزوج ابنتي عمه الاميرتين سبيللا وايزابيلا ، من ولدي روبرت بيثون أقرب أتباعه اليه وأكثرهم حظوة عنده . والواقع ان هذا التصرف تجاوز كل ما بوسع بارونات مملكة بيت المقدس ان يطيقوه . فلما تقدم الكونت بالطلب الى المحكمة العليا ، صاح بلدوين سيد يبنه ، لقد ظننا أنك جئت لتحارب من اجل الصليب ، فألفيناك لا تتحدث إلا في الزواج ، فاستشاط فيليب غيظاً وغضباً ، وتجهز للرحيل مرة اخرى . وارتاع سفراء الامبراطور لما حدث من مناقشة حادة . ومن الجلي أنه لم يعد ما يدعو للمضي في ارسال حملة الى مصر ، وانتظر

السفراء نحو شهر ، ثم أبحروا ممتعضين مع الاسطول لينذروا سيدهم بما شهدوه من وقاحة الفرنج المتأصلة[1] .

وفي نهاية اكتوبر سنة ١١٧٧ ، غادر فيليب كونت فلاندر بيت المقدس ، قاصداً طرابلس . ولعل ضميره أقلقه عندئذ ، لأنه وافق على ان يرافق ريموند كونت طرابلس في حملة لمنازلة حماه ، وأمده الملك بلدوين بعساكر من المملكة . وأغارت كتيبة من الجيش على بلاد حمص ، فوقعت في كمين وفقدت كل ما تحصلت عليه من غنيمة ، بينما نازل كونت فلاندر وكونت طرابلس حماه ، التي اشتد المرض بواليها . ولما قدمت العساكر من دمشق ، انسحب الكونتان (فيليب وريموند) ، دون ان يحققا شيئاً . ثم توجه فيليب كونت فلاندر من طرابلس الى انطاكية ، وفيها وافق على ان يبذل المساعدة للأمير بوهمند لشنّ الهجوم على مدينة حارم . وكانت حارم في حوزة كمشتكين الوزير السابق للملك الصالح اسماعيل ، غير انه وقع شجار بينه وبين سيده ، الذي أمر بإعدامه . غير ان أتباعه في

---

(١) انظر : William of Tyre, XXI. 14 - 15, pp. 1027 - 1035.
أشار وليم الصوري الى ان ريموند كونت طرابلس ، وبوهمند امير انطاكية ، كانا يعارضان في توجيه حملة الى مصر ، وكانا يثبطان همة فيليب كونت فلاندر . غير ان فيليب امتعض من سادة يبنة (الابليين) ؛ ونظراً لما درج عليه بيت ابلين من التعاون مع ريموند كونت طرابلس ، فالراجح ان وليم الصوري بالغ في روايته . والمعروف ان وليم الصوري كان مسؤولاً عن عقد التحالف بين البيزنطيين والفرنج ، ولذا فقد حزن لما جرى من نقض هذا التحالف . وما أعرب عنه فيليب كونت فلاندر ، فيما بعد ، من رغبة في بذل المساعدة لبوهمند وريموند ، قد يحمله على الارتياب بها .
انظر ايضاً : Ernoul, p. 33. ، الذي روى ما وجه ابلين الى بلدوين من الشتائم والإهانات.

حارم أعلنوا التمرد على الصالح اسماعيل ، ولما اقترب الفرنج من المدينة ، خمدت فتنتهم . ونازل بوهمند وفيليب المدينة (حارم) ، دون اكتراث او اهتمام . ولم تلقَ عمليات نقب الأسوار شيئاً من النجاح . واستطاع الملك الصالح اسماعيل ان يرسل سرية اجتازت خطوطهما ، وانحازت الى الحامية في حارم . ولما ارسل اليهما (فيليب وبوهمند) مبعوثين ليشرحوا لهما ان صلاح الدين العدو الحقيقي لحلب وانطاكية عاد الى الشام ، وافقا على رفع الحصار عن حارم . ورجع فيليب كونت فلاندر الى بيت المقدس ، ليقضي عيد القيامة ، ثم استقل سفينة من اللاذقية الى القسطنطينية [1] .

صلاح الدين تحل به الهزيمة في تل الجزر سنة ١١٧٧ :

كان صلاح الدين قد اجتاز الحدود قادماً من مصر ، في ١٨ نوفمبر سنة ١١٧٧ ، واشتهرت جاسوسية صلاح الدين دائماً بالتفوق . إذ علم بانهيار التحالف بين البيزنطيين والفرنج ، وبغياب كونت فلاندر في الشمال ، فقرر القيام بهجوم مفاجىء من الساحل الى داخل فلسطين . واستدعى الداوية كل من كان في متناول أيديهم من فرسان الطائفة للدفاع عن غزة ، غير ان

---

(١) انظر : William of Tyre, XXI. 19, 25, pp. 1036, 1047 - 1049.
Ernoul, p. 34.
Michael the Syrian, III. pp. 75 - 76.
Abu Shama, pp. 189 - 192.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 76 - 77.
Ibn al - Athir, pp. 630 - 633.
Kema ad - Din, ed. Blochet, pp. 148 - 153.

الجيش المصري توجّه رأساً الى عسقلان . واشتد المرض بالكندسطبل ، همفري سيد تبنين ، بينما لم يغـادر الملك بلدوين فراش المرض إلا منـذ وقت قريب ، فهرع بلدوين الى عسقلان بكل مـا استطاع ان يحشده من العساكر ، الذين لم يتجاوز عددهم خمسمائة فارس ، وبصحبته اسقف بيت لحم يحمل الصليب المقـدس ، ثم دخل الحصن (عسقلان) ، قبيل قدوم قوات العدو . واستدعى كل رجل قـادر على حمل السلاح ، لينحاز اليه بها . غير ان صلاح الدين اعترض طريق الدفعات الاولى من هؤلاء العساكر ، وأوقعهم في الأسر . وبعـد ان خلف صلاح الدين قوة صغيرة للتضييق على الملك بلدوين في عسقلان ، مضى في سيره الى بيت المقدس ، وللمرة الاولى والأخيرة ، بالغ صلاح الدين في الثقة بنفسه ، إذ لم يكن من الاعداء ما يحول بينه وبين العاصمة المسيحية (بيت المقدس) ولهذا تهاون في ضبط جنوده ، وأذن لهم في ان يطوفوا بالقرى والريف ، ونهبها واستباحتها . وإذ ولد اليأس الشجاعة ، دبّر الملك بلدوين إنفـاذ رسالة الى الداوية يخطرهم فيها بأن يتخلوا عن غزة ، وأن يلحقوا به في عسقلان ، وركب مع جميـع رجاله ، والتزموا الساحل في سيرهم حتى بلغوا يبنة ، ثم انحرفوا الى الداخل ، وحدث في ٢٥ نوفمبر سنة ١١٧٧ ، بينما كان الجيش المصري يجتاز اخدودا قرب قلعة تل الجزر (Montgisard) على مسافة بضعة اميال ، الى الجنوب الشرقي من الرملة ، أن انقض عليه فجأة فرسان الفرنج القادمون من الشمال . والواقع أن كانت هذه مفاجأة تامة ؛ إذ كان جانب من عساكر صلاح الدين يسعى للحصول على العلف للخيل ، ولم يتوافر لصلاح الدين من الوقت ما يكفي لإعادة حشد من بقي منهم . فلاذ عدد كبير منهم بالفرار ، عند اول صدام ، بينما لم ينقذ حياة صلاح الدين إلا حرسه الخاص من غلمانه . أما القوات التي صمدت

في القتال ، فقد جرت إبادتها . كان بلدوين في مقدمة القوات المسيحية ، وأسهم في احراز النصر، بسالة الاخوين بلدوين وباليان ، من سادة يبنه ، وهيو ووليم سيدي الجليل ، وولدي زوجة ريموند كونت طرابلس ، وجرت مشاهدة القديس جورج نفسه يحارب الى جانبهم .

وولى الجيش المصري الأدبار الى بلاده في بضع ساعات ، بعد ان خلف وراءه كل ما حازه من غنيمة وأسرى ، بل ان العساكر المصرية قذفوا بأسلحتهم الى الارض ، كيما تزداد سرعتهم في الفرار . وحاول صلاح الدين ان يعيـــد الأمن الى نصابه ، غير ان اجتياز صحراء سينا كان شاقاً ومؤلماً . فانقض البدو على هؤلاء الفارّين الذين كادوا ان يكونوا عزّلاً من كل سلاح . وأرسل صلاح الدين ، من الحدود المصرية ، القصاد على الهجن الى القاهرة ليؤكدوا لكل من تسوّل له نفسه التمرد ، انه ما زال على قيد الحياة ، وحمل حمام الزاحل بطائق البشرى بعودته الى القاهرة ، الى جميع انحاء الديار المصرية ، غير ان هيبته تعرضت لمحنة قاسية [1] .

كان ذلك انتصاراً باهراً ، إذ انقـــذ مملكة بيت المقدس في الوقت الراهن ، غير انه لم يغيّر الوضع على مرّ الزمن ، فلا حد لموارد مصر ، على حين ان الفرنج مـــا زالوا يعانون نقصاً في الرجال . فلو تهيأ للملك

---

(١) انظر : William of Tyre, *XXI.* 20 - 24, pp. 1037 - 1047.
Ernoul, pp. 41 - 45.
Michael the Syrian, *III.* p. 373.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 75 - 76.
Abu Shama, pp. 184 - 187.
Ibn al - Athir, pp. 627 - 635.

بلدوين ان يطارد خصمه الى داخل مصر ، او ان يقوم بهجوم خاطف على دمشق ، لاستطاع ان يحطم قوة صلاح الدين ، غير انه لم يكن بوسعه ان يخاطر بجيشه الصغير في مهاجمة العدو ، مـا لم يحصل على مساعدة خارجية . فاستعاض عن ذلك بأن قرر تشييد استحكامات متينة على امتداد حدّ إمارة دمشق ، حيث أدّى ضياع بانياس الى قلب نظام الدفاع عن المملكة رأساً على عقب . فبينما انصرف همفري سيد تبنين ، الى تحصين تل هونين ، على الطريق الممتـد من بانياس الى تبنين ، شرع الملك بلدوين في تشييد قلعـة على المجرى الأعلى لنهر الاردن ، بين بحيرة الحولة وبحر الجليل ، كيما تتحكم في المخاضة ، التي دارت عنـدها المصارعة بين يعقوب والملاك ، وهي التي أطلق عليها الفرنج ايضاً اسم مخاضة الأحزان . ومـا يقع على جانبي الحدود من الأراضي ، استوطنها المسلمون ممن يمتهنون الفلاحة والرعي ، ودان بعضهم بالولاء لدمشق ، وخضع بعضهم للمسيحيين (الفرنج). وكانت لهم الحرية في اجتياز هـذا الحد ، من احد الجانبين الى الجانب الآخر ، إذ لم يميز هذا الحد سوى شجرة بلوط ضخمة . وتعـاهد الفرنج بألا يقوموا مطلقاً بتحصين موضع العبور . وأراد الملك ان يلتزم بالمعاهدة ، بأن يشيد قلعة في موضع آخر ، غير ان الداوية غلبوه على امره . وتقدم المسلمون النازلون بهذه الجهات بالشكوى الى صلاح الدين ، عن نقض الفرنج للعهـد والايمان ، فعرض صلاح الدين على بلدوين اول الامر ستين الف دينار ثم مائة الف دينار ، ليثنيه عن العمل . فلمـا رفض الملك العرض ، أقسم صلاح الدين بأنه سوف يبادر الى اتخاذ إجراء لمنعه [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, *XXI*. 26, pp. 1050 - 1051.
= Ernoul, pp. 51 - 52.

مكث صلاح الدين بمصر عدة شهور ، بعد وقعة تل الجزر ، حتى تحقق له ان كل شيء أضحى تحت سيطرته ، فعـاد الى بلاد الشام في أواخر ربيع سنة ١١٧٨ ، فأمضى بدمشق بقية تلك السنة . وكل مـا وقع من الحروب سنة ١١٧٨ ، لم يتجاوز شنّ بضع غارات ، وردّ بعض الهجمات[١]. ففي أقصى الشمال ، ساد السلام بين انطاكية وحلب ، وانعقد التحالف بين انطاكية وأرمينيـة ، التي كان يحكمها الامير مليح المرتد ، والذي لم يلبث ان أطاح به ، عقب وفاة نور الدين ، ابن أخيه روبين الثـالث . وكان روبين صديقاً للفرنج الذين بذلوا له المساعدة في الحصار الفـاشل الذي ألقاه على حارم[٢] . كما ان بوهمند الثالث ، امير انطاكية ، التمس صداقة الامبراطور . إذ حدث في سنة ١١٧٧ ، ان تزوج للمرة الثانية من ثيودورا التي تمتّ بصلة القرابة للامبراطور مانويل[٣] .

= Abu Shama, pp. 194 - 197.
Ibn al - Athir, p. 634.

كان صلاح الدين وقتذاك منصرفاً الى إخماد الفتنة التي نشبت في بعلبك . ويجتـاز المسافر في الوقت الحاضر هذه المخاضة على جسر ، يعرف بجسر بنات يعقوب .

(١) انظر : Ibn al - Athir, p. 633.

(٢) انظر : Sembat the Constable, p. 624.
Vahram, Rhymed Chronicle, p. 509.

عن زواج روبين انظر ما يلي ، ص ٦٨١ .

(٣) انظر : William of Tyre, *XXII*. 5, p. 1069.

اختلفت الآراء حول تاريخ زواج بوهمند الثالث ، واسم العروس . ففي الانسـاب Lignages (V, p. 446) ، ورد اسمها على انها ايرين ، واسم ابنتها كونستانس ، وعدا ذلك ليس معروفاً. وليس معروفاً ايضاً ما اذا كانت من اسرة كومنين ، أم انها تمتّ بالقرابة الى الامبراطور عن =

وفاة همفري سيد تبنين ، سنة ١١٧٩ :

حدث في ربيع سنة ١١٧٩ ، حينما بدأ موسم حركة قطعان الغنم ، ان نهض الملك بلدوين ليعترض الأغنام القـادمة من سهول دمشق نحو بانياس ، ليسوقها أمامه ؛ فأرسل صلاح الدين ابن أخيه ، فروخشاه ، ليرقب ما كان جارياً وكان لزاماً عليه ان يخطر عمه ، عن طريق حمام الزاجل ، بالاتجاه الذي اتخذه الفرنج . وفي ١٠ ابريل ، انقضّ فروخشاه فجأة على العدو ، من واد ضيق في غابة بانياس ، فأخذ الملك على غرة ، ولم يستطع ان يخلص جيشه إلا بفضل بسالة الكندسطبل الشيخ ، همفري سيد تبنين ، الذي استمر مع حرسه على مقـاومة المسلمين ، حتى أفلت جيش الملك . وأصابت همفري جراح مميتـة ، فقضى نحبه في ٢٢ ابريل ١١٧٩ ، بقلعته الجديدة في هونين . لقد أشاد المسلمون بأخلاقه ، وتُعتبر وفاته ضربة بالغة العنف أصابت مملكة بيت المقدس ، إذ كان الرجل الوحيـد من شيوخ ساستها ، الذي أجمع الناس على احترامه وتبجيله .

وأعقب صلاح الدين الانتصار ، بأن ألقى الحصار على قلعـة مخاضة يعقوب ، غير ان استحكاماتها الدفاعية بلغت من المتانة ما حمله على الارتداد عنها بعد مضي بضعة ايام ، فعسكر امام بانياس . ومن هذا الموضع أرسل

= طريق امها . ويعتقد راي انها كانت الزوجة الاولى لبوهمند . انظر :
Rey : « Histoire des Princes d'Antioch », R. O. L. 1896, II. pp. 379 - 282.
والراجح ان زوجة بوهمند الاولى لم تكن سوى اوجيللورا سيدة حارم ، التي ورد اسمها في الوثائق في السنوات الواقعة بين ١١٧٠ ، ١١٧٥ . ويقطع وليم الصوري بالقول ان بوهمند تخلى عن ثيودورا ، وعاش مع سيبللا .

المغيرين الى الجليل ، والى لبنان ، لتدمير محصولات الأراضي الواقعة بين صيدا وبيروت . فقام الملك بلدوين بحشد كل قوات المملكة ، ودعا ريموند كونت طرابلس للانحياز اليه . فسارا معاً ، مجتازين طبرية وصفد الى تبنين ، حيث علما ان فروخشاه وجماعة من المغيرين ، في طريق عودتهم قادمين من الساحل بغنيمة كبيرة ، فتحركا صوب الشمال لاعتراضهم بوادي مرجعيون ، بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الاردن . غير ان صلاح الدين سبق ان شاهد ، من برج للمراقبة على تل يقع شمالي بانياس ، ما حدث على الجانب الآخر من نهر الاردن ، من ذعر قطعان الغنم وتفرّقها ، فأدرك ان جيش الفرنج لا بد ان اجتاز هذا الموضع ، فنهض لمطاردته . وبينما كان جيش الملك يُنزل الهزيمة بفروخشاه ، في ١٠ يونيه سنة ١١٧٩ ، كان الكونت ريموند والداوية يتقدمون نحو نهر الاردن . وعند مدخل الوادي فاجأوا جيش صلاح الدين ، فبادر الداوية الى الاشتباك في القتال على الفور ، غير ان ما قام به صلاح الدين من هجوم عليهم ، ردّهم على أعقابهم ، فولّوا الأدبار مذعورين الى عساكر بلدوين ، الذين اضطروا ايضاً الى الارتداد ، ولم يلبث الجيش المسيحي بأكمله أن لاذ بالفرار . واستطاع الملك بلدوين والكونت ريموند وجانب من رجالهم ان يعبروا نهر الليطاني ، وان يلجأوا الى قلعة شقيف أرنون ، الواقعة على مرتفع على الضفة الغربية ، ومن تبقى من العساكر وراء نهر الليطاني تعرضوا للقتل او الأسر بعد التضييق عليهم وحصرهم . على ان جماعة من الفارّين لم يتوقفوا عند قلعة الشقيف ، بل مضوا في طريقهم الى الساحل ، فالتقوا برينالد سيد صيدا في عسكره ، فأخطروه بأن الوقت قد فات ، ولم يسعه إلا العودة ، على الرغم من انه لو استمر في سيره الى نهر الليطاني ، لكان بوسعه ان ينقذ عدداً كبيراً من الفارّين الآخرين .

وممن وقع في أسر صلاح الدين ، أودو سانت أماند مقـدم الداوية ، الذي يُعتبر تهوّره وحماقته السبب الأسامي للهزيمة ، وبلدوين سيد يبنه ، وهنيو سيد الجليل . ولم تلبث كونتيسة طرابلس ، والدة هيو ، ان افتدته بخمسة وخمسين الف دينار صوري . وطلب صلاح الدين مائة وخمسين الف ديناراً ، فدية عن بلدوين صاحب يبنه ، وهي فدية ملك ، لما لبلدوين عند صلاح الدين من أهمية بالغـة الشأن . ولم تمضِ إلا بضعة شهور ، حتى تمّ إطلاق سراح بلدوين ، مقابل الإفراج عن ألف أسير من المسلمين ، فضلاً عن وعده بالتماس المال المطلوب للفدية . وجرى الاقتراح بمبادلة اودو بأحد كبار الأسرى المسلمين ، غير ان مقـدم الداوية بلغت به الغطرسة انه لم يقبل بأن يساويه أحد في القيمـة ، فظلّ في الحبس بدمشق حتى قضى نحبه في السنة التالية .

ولم يواصل صلاح الدين انتصاره ، بالإغارة على فلسطين ، ولعـل سبب ذلك يرجع الى انه سمع بقدوم جمـاعة كبيرة من الفرسان من فرنسا ، بقيادة هنري الثاني كونت شامبانيا ، وبطرس سيد كورتيناي ، وفيليب اسقف بوفيه . واستعاض صلاح الدين عن الإغارة على فلسطين بأن هاجم قلعة مخاضة يعقوب التي شيّدها الملك بلدوين . واستطاع صلاح الدين ، بعد حصار لم يستمر سوى خمسة ايام ، من ٢٤ الى ٢٩ اغسطس ، ان ينقب أسوار القلعة ، وان ينفذ الى داخلها . فلقي المدافعون عنها مصرعهم ، وتم تدمير القلعة عن آخرها حتى تساوت بالارض . ولم يشأ الزائرون الفرنسيون أن يتوجهوا ليحاولوا إنقـاذ القلعة ، ثم لم يلبثوا ان عادوا الى بلادهم .

وللمرة الثانية لم يكن للصليبيين القادمين من الغرب شيء من النفع والفائدة [1].

عقد هدنة لمدة سنتين ، سنة ١١٨٠ :

أرسل الملك بلدوين الى صلاح الدين يطلب عقد الهدنة ، وذلك بعد ان قام الاسطول المصري في اكتوبر ، بغارة موفقة على السفن الراسية في ميناء عكا ، وبعد ان شنّ المسلمون في مستهل السنة الجديدة (١١٨٠) غارة عنيفة على الجليل ، فوافق صلاح الدين . والواقع انه حدث طوال الشتاء ومستهل الربيع جفاف شديد ، وتعرضت سوريا بأمرها للمجاعة . وما من أحد يودّ ان يقوم بغارات ، لما قد تلحق بالمحصولات الضئيلة من أضرار . والراجح ايضاً ان صلاح الدين قرر ان يجعل الاستيلاء على حلب سابقاً على الاستيلاء على بيت المقدس . وتحددت الهدنة لمدة سنتين بمقتضى معاهدة ، وقّعها في مايو سنة ١١٨٠ ، ممثلون عن بلدوين وصلاح الدين . ولم تدخل طرابلس في عقد الهدنة ، غير ان صلاح الدين عقد

---

(١) انظر : William of Tyre, XXI. 27 - 30, pp. 1052 - 1059.
Ernoul, pp. 53 - 54.
Abu Shama, pp. 194 - 202.
Ibn al - Athir, pp. 635 - 636.
Makrizi, ed. Blochet, pp. 530 - 531.
ارتاب المؤرخون في مصرع اودو سانت اماند ، نظراً لأن مرسوم البابا اسكندر الثالث يشير الى انه لا زال اسيراً على قيد الحياة . انظر :
d'Albon : « La Mort d'Odeau de St. Amand », in Revue de l'Orient Latin, vol. *XII.* pp. 279 - 282.

هدنة مماثلة مع ريموند كونت طرابلس ، بعد ان أغارت البحرية المصرية على ميناء انطرطوس ، وبعد ان فشلت الغارة التي قام بها صلاح الدين على البقيعة [1] . وفي الخريف توجه صلاح الدين صوب الشمال الى الفرات ، حيث وقع شجار بين الامير نور الدين ارتق صاحب حصن كيفا ، الذي أضحى حليفاً لصلاح الدين ، وبين السلطان السلجوقي قلج ارسلان ؛ إذ كان نور الدين قد تزوج من ابنة السلطان السلجوقي ، غير انه أهملها ، ووقع في غرام فتاة تمتهن الرقص . وفي ٢ اكتوبر سنة ١١٨٠ ، عقد صلاح الدين مجلساً قرب سميساط ، وشهد هذا المجلس أمراء الأراتقة ، ورُسل من قِبل السلطان قلج ارسلان ، وسيف الدين أتابك الموصل ، وروبين صاحب أرمينية . وأقسم جميع الحاضرين على مراعاة السلام بينهم ، في السنتين التاليتين [2] .

وأمضى الملك بلدوين فترة الهدنة في محاولة إقامة جبهة مسيحية لمواجهة المسلمين . وقد حدث سنة ١١٧٩ ان توجه وليم الصوري ، الذي تولى رئاسة اسقفية صور منذ سنة ١١٧٥ ، الى روما لحضور مجلس اللاتران ، وفي طريق عودته قام ، في الايام الاخيرة من هذه السنة (١١٧٩) ، بزيارة القسطنطينية ، ولقي من الامبراطور مانويل ما اشتهر به دائماً من الدماثة والمودة ، غير ان وليم أدرك ان مانويل أضحى بالغ الضعف ، إذ لم ينهض من الصدمة التي تعرض لها في معركة ميريوكيفالوم ، غير انه ما زال

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 1 - 3, pp. 1053 - 1056.
Abu Shama, p. 211.
Ibn al - Athir, p. 642.

(٢) انظر : Ibn al - Athir, pp. 639 - 640.

شديد الاهتمام بسوريا . مكث وليم الصوري بالقسطنطينية سبعة شهور ، شهد أثناءها الاحتفالات الكبيرة التي جرت بمناسبة زفاف ماريا ابنــة الامبراطور مانويل ، والتي ظلت عانساً حتى بلغت الثـامنة والعشرين من العمر ، على راينييه مونتفيرات صهر سبيللا ، وزواج الكسيوس ابن الامبراطور مانويل ، والذي لم يتجاوز العاشرة من عمره ، من الاميرة أجنيس الفرنسية ، التي كانت في التاسعة من عمرها . ثم عاد وليم الصوري ، وقد صحبه رُسل الامبراطور حتى انطاكية [١] . وحرص روبين امير ارمينية ، على توطيـد تحالفه مع الفرنج . ففي أوائل سنة ١١٨١ ، قدم حاجاً الى بيت المقدس ، ثم تزوج بها من ايزابيلا صاحبة تبنين ، وابنة ستيفاني سيدة اقليم ما وراء نهر الاردن [٢] . بل ان السوريين اليعاقبـة أعلنوا ولاءهم للقضية المسيحية المتحدة ، حينما قــام بطريركهم ، المؤرخ ميخائيل ، بزيارة بيت المقدس ، واجتمع فترة طويلة بالملك بلدوين [٣] .

وانتعشت ايضاً الآمال في التماس حليف من الشرق الأقصى ، إذ حدث منــذ سنة ١١٥٠ ، ان أخذ غرب اوربا يتداول رسالة جرى الزعم ان

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 4, pp. 1066 - 1068.

(٢) انظر : Sembat the Constable, p. 627.
Ernoul, p. 31.
أشار ارنول الى زواج روبين ، الذي اعتبره ابنـاً لثوروس . كما انه روى خبر زيارة ثوروس الى بيت المقدس ، التي لم ترد في مصادر اخرى ، ولعلها كانت من نسج خياله . انظر :
Ernoul, pp. 25 - 30.

(٣) انظر : Michael the Syrian, *III*. p. 379.

الزعيم الكبير بريستر يوحنا كتبها الى الامبراطور مانويل . ومع انه يكاد يكون من المحقق ان هذه الرسالة من تزييف اسقف ألماني ، فان روايتها عن ثروة الملك الكاهن (بريستر يوحنا) ، وورعه ، بلغت من السلامة مـا لا يدعو الى إغفالها وإنكارها . ففي سنة ١١٧٧ ، وجه البـابا احد رجال الدين ، الذين برعوا في اصول الدين والتعـاون الكنسي ، واسمه فيليب ، برسالة يطلب فيها الوقوف على أخباره ، ويلتمس منه المساعدة . على ان فيليب ، فيما يبدو ، أنهى رحلته في الحبشة ، ولم تحقق هذه الرحلة نتائج محسوسة [١].

سبيلا وبلدوين ابلين ، سنة ١١٨٠ :

لم يقدم من الغرب حتى وقتذاك فارس نابه ، بل انه لم يأتِ ليقبل الزواج من الاميرة سبيلا واعتلاء عرش مملكة بيت المقدس . وحينما كان فردريك رئيس أساقفة صور ، في روما ، ارسل الى هيو الثـالث دوق برجنديا ، الذي ينحدر من بيت ملوك كابيه ، يدعوه الى قبول الزواج من سبيلا . ووافق هيو اول الامر ، غير انه آثر البقاء في فرنسا . وفي تلك الأثناء وقعت سبيلا ذاتهـا في غرام بلدوين ابلين . ومع ان بيت سادة يبنـه (ابلين) نبت من أصل متواضع ، فانه أضحى متصدراً للأسرات النبيلة في فلسطين . فعند وفـاة ابلين الكبير ، مؤسس بيت يبنه ، تقرر

---

(١) انظر : Röhricht, Regesta, pp. 67 - 145.

عن بريستر يوحنا انظر :

Marinescu : « Le Prêtre Jean », in Bulletin de la Section Historique de l'Académie Romaine, vol. X.

منح يبنه للاسبتارية ، غير ان الرملة انتقلت الى يد اكبر أبنائه ، هيو ، ثم أضحت بعد وفاة هيو من نصيب أخيه بلدوين ، الذي سبق ان تزوج من وارثة اقطاع بيسان ، ثم افترق عنها بسبب قرابتها المباشرة التي تجعل زواجها باطلاً . اما الأخ الاصغر ، وهو باليان ، فانه أضحى زوجاً للملكة ماريا كومنينا ، وسيداً لمدينة نابلس التي حازتها اقطاعاً على سبيل المعاش . ويعتبر بلدوين وباليان أقوى النبلاء المحليين نفوذاً . وبرغم ان بلدوين لم ينحـدر من أصل شريف ، فان زواجه من سبيللا لقي القبول في سائر أنحاء البلاد . على ان بلدوين وقع في الأسر في مرجعيون ، قبل ان يتم إجراء الخطوبة . وكتبت سبيللا له في معتقله ، تؤكد له انهـا لا زالت على حبها له . ولما أطلق سراحه ، أخبرته في برود ، انها لم يعد بوسعها ان تفكر في الزواج منه ، بينما مـا زال ملتزماً بأن يؤدي فدية كبيرة . واستندت معارضتها الى أساس سليم ، فلم تكن مشجعة لبلدوين . وإذ لم يدرِ بلدوين كيف يتحصل على المال المطلوب لافتدائه ، توجه الى القسطنطينية والتمس الحصول على المال من الامبراطور . ولـما اشتهر به مانويل من الميل الى إظهار السخاء والكرم ، بذل لبلدوين كل مـا هو مطلوب من المال لافتـدائه . ثم عـاد بلدوين ظافراً الى فلسطين ، في أوائل ربيع سنة ١١٨٠ ، فاكتشف انه تمّت خطبة سبيللا لرجل آخر[١].

---

(١) انفرد ارنول برواية قصة حب بلدوين ابلين . وكان ارنول في خدمة باليـان ، شقيق بلدوين ، ولذا توافر له كل ما يتعلق بالاسرة من اخبار . انظر :
Ernoul, pp. 48, 56 - 59.

أمـا أجنيس فانها كانت دائماً تكره أقارب أزواجها ولم تقبل بيت بينه . فمنذ بضع سنوات قدم الى فلسطين من بواتو ، فارس اسمه امالريك ، ثاني أبناء كونت لوزيجنان . كان امالريك جندياً لامعاً ، فلما مات همفري صاحب تبنين ، تقرر تعيينـه كندسطبلاً للمملكة . وتزوج حوالي ذلك الوقت من إيشيفا ابنة بلدوين ابلين (يبنه) ، ووقع ايضاً في غرام أجنيس . وكان له بفرنسا شقيق صغير ، اسمه جاي (لوزيجنان) . وبفضل مساندة أجنيس وتأييدها ، أخذ امالريك يتحدث الى سبيللا عما حازه هـــذا الشاب من صفات نادرة ، بمـا اتسم به من طلعـة جذابة ، وشخصية ساحرة ، حتى التمست منه آخر الامر ان يدعوه للقـدوم الى فلسطين . واغتنم امالريك فرصة زيارة بلدوين ابلين للقسطنطينية ، فعجّل بالرحيل الى وطنه (فرنسا) ، ليلتمس جاي ، وليعدّه للقيام بالدور الذي ينبغي ان يقوم به . واكتشفت سيبللا فيه من الوسامة والجمـال ما سبق ان علمت به ، فأعلنت عزمها على الزواج منه . وذهبت احتجاجات أخيها الملك بلدوين أدراج الرياح . ولم يكن جاي ، كما هو معروف لجميع النـاس ، إلا صبياً ضعيفاً أحمق . فاشتد غيظ بارونات فلسطين ، حينما أدركوا ان ملكهم المقبـل ليس إلا هذا الصبي ، أصغر أبنـاء نبيل فرنسي ضئيل الشأن ، والذي لم يكن له من الشهرة سوى انه ينحدر من ميلوسين ، من جنيات البحر [١] . غير

---

(١) ميلوسين ، في الفولكلور الفرنسي ، من جنيات البحر ، نصفها في هيئة امرأة ، بينما اتخذ النصف الآخر شكل سمكة ، وهي ابنـة ملك البانيـا . تزوجت من الكونت ريموند بشرط ألا يلتقي بها في ايام السبت ؛ فلما تزوجت منه ، شيدت له قلعة أطلق عليها قلعة لوزيجنان . انظر :
Everyman's Encyclopedia, art. Melusine.

ان أجنيس وسبيلا ظلتا تشتدان في الإلحاح على الملك المريض ، الخائر القوى ، حتى رضخ لهما . فتزوج جاي من سبيلا يوم عيد القيامة ، سنة ١١٨٠ ، وحاز كونتيتي يافا وعسقلان إقطاعاً له[١] .

البطريرك هرقل ، سنة ١١٨٠ :

الواقع ان أسباباً سياسية ، وأسباباً شخصية ، أدّت الى كراهية بيت ابلين (يبنه) ، كما ان ما وقع بينهم وبين بيت كورتيناي من الشقاق الذي سانده رينالد شاتيون ، ازداد شدة . ففي اكتوبر سنة ١١٨٠ ، حاول الملك ان يوفق بين الاسرتين ، بأن وعد بأن يزوّج ايزابيلا ، وهي اخت له غير شقيقة ، من همفري الرابع سيد تبنين ، وكانت ايزابيلا ابنة زوجة باليان ابلين ، من زوجها السابق همفري ابن زوجة رينالد شاتيون . يضاف الى ذلك ، ان همفري كان حفيداً ووريثاً للكندسطبل الكبير ، ووريثاً لإقطاع ما وراء نهر الاردن الذي كان بحوزة امه ، ولذا يعتبر أصلح مرشح من النبلاء المحليين ، يصح ان ينعم بهذا الزواج . على ان الاحتفال الفعلي بالزواج تأجل لمدة ثلاث سنوات ، نظراً لأن الاميرة لم

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 1, pp. 1064 - 1065.
Ernoul, pp. 59 - 60.
Benedict of Peterborough, I. p. 343.

أشار بنيدكت الى ان سبيلا كانت قد اتخذت جاي فعلاً عشيقاً لها . ولما اكتشف الملك الامر ، أراد ان يأمر بإعدام جاي ، غير انه بناء على طلب الداوية أبقى على حياته ، ووافق على زواجه من سبيلا .

تتجاوز الثامنة من عمرها[1] . غير ان الخطبة لم تفيد شيئاً ، إذ حدث بعد بضعة ايام ، ان بيت كورتيناي أظهروا نفوذهم وسلطانهم في تعيين بطريرك جديد ، بعد ان مات البطريرك امالريك في ٦ اكتوبر . ففي ١٦ اكتوبر سنة ١١٨٠ ، اختارت هيئة رجال الدين بكنيسة القيامة في بيت المقدس ، تحت ضغط اجنيس ، هرقل رئيس اساقفة قيسارية ، ليخلف امالريك في البطريركية . لم يكن هرقل سوى قسيس من اوفرن ، يكاد لا يعرف إلا القراءة والكتابة ، غير انه كان من الوسامة والطلعة الجذابة ما لم يكن بوسع اجنيس ان تقاومها . وما حظي به هرقل من عطف اجنيس ، أدّى الى اضطراد رقيّه وتقدّمه . على ان خليلته الحالية كانت ابنة تاجر بَزّ في نابلس ، اسمه باشيا دي ريفيري ، ولم تلبث ان اشتهرت باسم السيدة صاحبة النيافة البطريرك . وإذ اشتدت ثائرة وليم الصوري ، قدم من ابروشيته ، وحاول عبثاً منع إجراء الانتخاب ، إذ جعله الناخبون المرشح الثاني . غير ان الملك ، بناء على أمر امه ، أقرّ تعيين هرقل بطريركا[2] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 5, pp. 1068 - 1069.
Ernoul, pp. 81 - 82.
ووفقاً لرواية وليم الصوري ، تنازل همفري للملك عن أراضيه بالجليل ، مقابل عقد المصاهرة. فجعل بلدوين تبنين لأمه . ويقول ابن جبير ان تبنين من املاك الخنزيرة ام الخنزير صاحب عكا .
انظر : Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 304.
بينما بذل الملك هونين لخاله جوسلين .

(٢) انظر : William of Tyre, XXII. 4, p. 1068.
وما اورد وليم الصوري من ملحوظة مقتضبة كانت كافية لإسقاط كل ما يتعلق بترشيحه لمنصب البطريركية. وأشار ارنول صراحة، الى ان اجنيس أصرّت على انتخاب هرقل،ولأنها عشقت =

أضحت السلطة والنفوذ وطيـدين في أيدي بيت كورتيناي وبيت لوزيجنان وحليفيها رينـالد شاتيون والبطريرك الجديد . وفي ابريل سنة ١١٨١ ، وجّهوا ضربتهم الى وليم الصوري الذي اعتبروه بالغ الخطورة عليهم ، نظراً لأنه كان مؤدباً للملك ، فقطعه البطريرك هرقل من الكنيسة لسبب تافه . وبعد ان فشلت المحاولات في معالجة هـذا الصّدْع ، ارتحل وليم الصوري ، في سنة ١١٨٢ او في سنة ١١٨٣ ، الى روما للدفاع عن قضيته امام المجلس البابوي . وأقام بروما حتى وافته منيته بها ، بعد ان دسّ له السم ، فيما يرويه الناس ، رسول أنفذه البطريرك[١] .

= جاله» ، وهي التي جعلته فعلاً رئيس اساقفة قيسارية . ويضيف ارنول ان وليم الصوري حذر هيئة الناخبين من اختياره . انظر :

Ernoul, pp. 82 - 84.

وورد في : Estoire d'Eracles, II. pp. 57 - 59. ، ان وليم الصوري تنبأ بأن الصليب الذي استرده هرقل (الامبراطور) ، سوف يضيعه هرقل (البطريرك) .

(١) انظر : Ernoul, pp. 84 - 86.

Estoire d'Eracle, II. pp. 57 - 59.

ورد في هـذا المصدر ان البطريرك هرقل ارسل الى روما احد علمـاء الدين ، فدس السم لوليم الصوري ، ثم تلى ذلك قيام البطريرك بزيارة روما .

ليس معروفاً على وجه التحقيق ، تاريخ رحيل وليم الى رومـا ، وتاريخ وفاته ، اذ توقف في كتابه تأريخه عند سنة ١١٨٣ ، وقد زار هرقل روما في سنة ١١٨٤ .(انظر ما يلي ، ص ٦٩٠).

ومن ناحية اخرى ، جرت الاشارة الى وليم الصوري في وثيقة صادرة عن البابا اربان الثالث ، بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١١٨٦ . على انه خبير في قضية بين الاسبتارية واسقف بلنياس (بانياس).

انظر : Röhricht, Geschichte der Kreuzzugen, p. 491, n. 5.

والراجح ان المحكمة البابوية أخطأت في الاسم ، اذ كان جوسياس رئيساً لأساقفة صور في ٢١ اكتوبر سنة ١١٨٦ . انظر :

Röhricht, Regesta, p. 173.

وكان ريموند كونت طرابلس ، هو الذي تلى وليم الصوري ، فيما تعرض لهم من هجوم . فحينما تأهب ، في أوائل سنة ١١٨٢ ، للعبور من كونتيته (طرابلس) الى أملاك زوجته بالجليل ، اعترضه رجال الملك ومنعوه من دخول المملكة ، وذلك لأن اجنيس وأخيها جوسلين سبق ان أقنعا الملك بلدوين بأن ريموند يتآمر على العرش ، ولم تهدأ ثائرة الملك ، إلا بعـد احتجاجات عنيفة من قِبل بارونات المملكة ؛ فقبل كارهاً ان يرى ريموند ، الذي أقنعه ببراءته [١] .

الامبراطور الكسيوس الثاني ١١٨٠ - ١١٨٢ :

وما أحاط بالملك الأبرص المشرف على الهلاك ، من مؤامرات لم تكن بالغة الخطورة ، لو لم يكن الوضع الخارجي شديد الحرج . فبوفـاة الامبراطور مـانويل في القسطنطينية في ٢٤ اكتوبر سنة ١١٨٠ ، فقد الفرنج اقوى حليف لهم . إذ كان مانويل صادقاً في ميله للفرنج ، وأخلص في العمل لمصلحتهم ، إلا اذا تعارضت مع مصالح امبراطوريته . ومع ان مانويل كان رجلاً تابهاً قوي التأثير ، فإنه لم يكن من كبار الأباطرة ، لأن طموحه للسيطرة على العـالم المسيحي ، حمله على ان يقحم نفسه في مغامرات ، ليس بوسع الامبراطورية ان تتحمّلها زمناً طويلاً . إذ أنفـذ جيوشه الى ايطاليا والمجر ، بينما اشتدت الحاجة اليها على طرف الأناضول ، وفي البلقان . وأطلق يده في الإنفاق من الخزانة ، كأن أموالها لا تنفد .

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 9, pp. 1077 - 1079.

وتعتبر كارثة ميريوكيفالوم ضربة قاصمة أصابت جيشه المنهوك القوة. واستنزف حياة رعاياه الاقتصادية، بما بذله للمدن الايطالية من سلسلة امتيازات تجارية، مقابل الحصول على امتيازات دبلوماسية مباشرة، وترتب على ذلك ان الخزانة الامبراطورية لم تزخر بالمال مرة اخرى. وما اشتهر به بلاط مانويل من الفخامة والرواء، بهر أنظار العالم، حتى ساد الاعتقاد ان الامبراطورية لأضخم مما كانت عليه فعلاً. ولو امتدّ به الأجل، لأضحى اسطوله وأمواله بالغة القيمة للفرنج. على ان شخصيته أبقت على وحدة الامبراطورية وتماسكها، فلما مات أضحى انهيارها ظاهراً. لقد ناضل الموت، بعد ان اشتد تعلقه بالنبوءات، التي أشارت الى امتداد حياته اربع عشرة سنة اخرى، ولذا لم يحاول ان يرتب ما يحتاج اليه ابنه من الوصاية[1].

لم يتجاوز الامبراطور الجديد، الكسيوس الثاني، الحادية عشرة من عمره، عند اعتلائه العرش. ووفقاً لما جرت عليه العادة قديماً، تولت الامبراطورة الام، ماريا، الوصاية على العرش. على ان هذه الامبراطورة، ماريا، كانت من اللاتين من انطاكية، ولذا تعتبر اول من حكم الامبراطورية من اللاتين. وباعتبارها من اللاتين، تعرضت لكراهية سكان القسطنطينية. والمعروف ان مَيْل مانويل للاتين، ظلّ زمناً طويلاً موضع نفور وكراهية. وزاد في الكراهية للبيزنطيين، ما انعقد في انطاكية من سلسلة

---

(١) انظر: Chalandon, op. cit. pp. 605 - 608.
William of Tyre, *XXII*. 5, p. 1069.

اورد وليم الصوري خبر وفاة مانويل.

طويلة من المناظرات الكنسية المتتالية . ولم ينسَ الناس ما أثاره المحاربون الصليبيون من ضجيج ، عند اجتياز أراضي الامبراطورية ، وما زال عالقاً بالأذهان ذكريات ما وقع من مذابح بجزيرة قبرص ، وما أجراه البنادقة والبيازنة والجنويون من مذابح . على ان التجار الايطاليين كانوا أبغض هؤلاء جميعاً ، إذ كانوا يختالون في سيرهم في القسطنطينية ، بعد ان قنعوا بما لهم من سيطرة على تجارة الامبراطورية ، حازوها عادة بما شنّوه من هجمات على السكان الآمنين بالأقاليم . واتخذت الامبراطورة مستشاراً وعشيقاً ، حسبما ظنّ الناس ، ابن أخ لزوجها ، اسمه الكسيوس كومنينوس ، خال ماريا ملكة بيت المقدس . لم يكن الكسيوس محبوباً عند الناس ، ولم يكن حكيماً او متزناً في تصرفاته . واستند الاثنان ، الامبراطورة ومستشارها ، الى العنصر اللاتيني ، ولا سيما التجار الايطاليين . وقاد المعارضة للامبراطورة ، ابنة زوجها ، ماريا بورفيروجنيتوس ، وزوجها راينييه مونتفيرات . وفشلت المؤامرة التي دبّراها لاغتيال عشيق الامبراطورة ، غير انهما لما لجأ الى كنيسة القديسة صوفيا ، أهان مونتفيرات ايضاً جمهور الناس ، بأن حاول تدنيس حرم الكنيسة . واضطرت الامبراطورة الى العفو عن المتآمرَيْن ، غير انها في غمرة قلقها وافتقارها الى الطمأنينة ، التمست من صهرها بيلا الثالث ، ملك بلاد المجر ، القدوم لنجدتها . اما اندرونيقوس كومنينوس ، ابن عم زوجها ، فانه انسحب من الحياة ، وقنع بالإقامة وقتذاك في بونطوس ، وقد جرى العفو عنه ، بعد حياة الفجور التي عاشها في الشرق . على ان مواطنيه ما زالوا يذكرون ما اشتهر به من الفروسية ، وما حازه من صيت . فلما بادر أصدقاؤه الى ان يتقدموا به كيما يكون زعيماً قوياً ، لقيت الدعوة استجابة عاجلة . ففي اغسطس سنة ١١٨٢ ، سار من بونطوس فاجتاز بلاد الأناضول ، ولم يجد عناء في

إنزال الهزيمة بمن لم ينضو تحت لوائه من العساكر ، وكانوا قِلّة . ولم تلبث الامبراطورة ان أضحت بمفردها بالقسطنطينية ، لم تلقَ المساعدة إلا من قِبل اللاتين . ولما اقترب اندرونيقوس من البوسفور ، انقضّ سكان القسطنطينية فجأة على جميع اللاتين المقيمين بالمدينة . وما اشتهر به اللاتين من الغطرسة أدّى الى إجراء مذبحة ، بلغت من الفظاعة والعنف ما روّع أشد البيزنطيين حماساً ووطنية . فلم يبقَ على قيد الحياة إلا عدد ضئيل من التجار الايطاليين ، الذين هرعوا الى سفنهم وأقلعوا بها نحو الغرب ، ينهبون ما اجتازوا به من السواحل ؛ فأضحى الطريق الى القسطنطينية مفتوحاً امام اندرونيقوس .

وكان اول ما قام به اندرونيقوس ، ان استأصل شأفة منافسيه ، فأمر بإلقاء الكسيوس كومنينوس في الحبس ، وسمل عينيه . اما ماريا بورفيروجنيتوس وزوجها ، فقد تعرضا لميتة غريبة ، إذ صدر الحكم بإعدام الامبراطورة شنقاً ، وجرى إرغام ابنها الصبي على ان يوقع على وثيقة بالتنازل عن السلطة ، فأضحى اندرونيقوس قسيماً في الحكم . ولم ينقضِ شهران ، حتى لقي الصبي الكسيوس الثاني مصرعه ، في نوفمبر سنة ١١٨٢ ، فتزوج اندرونيقوس ، الذي كان يبلغ من العمر اثنتين وستين سنة ، ارملته اجنيس الفرنسية ، التي لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها .

سقوط اندرونيقوس كومنينوس ، سنة ١١٨٥ :

وفيما عدا هذه الاغتيالات والمذابح ، كانت بداية حكم اندرونيقوس طيبة . إذ أمر اندرونيقوس بتطهير الادارة المدنية من الفساد ، ومن كثرة موظفيها الزائدين على الحاجة . وحرص على مراعاة سير العدالة المطلقة ،

وأجبر الأغنياء على ان يؤدوا الضرائب المقررة عليهم ، وتولى حماية الفقراء من الاستغلال . ولم تنعم الأقاليم قروناً عديدة بالحكم السلم ، مثلما نعمت به زمن اندرونيقوس . غير ان سبباً وجيهاً حمل اندرونيقوس على ان يتزعج ، ذلك ان كثيراً من أقاربه صاروا يحسدونه ، وأنكرت الطبقة الارستقراطية ما لجأ اليه من سياسة ، كما ان الاحوال الخارجية كانت تؤذن بالخطر .

أدرك اندرونيقوس ما تركته مذبحة سنة ١١٨٢ من تأثير فاجع في الغرب ، فلم يبادر فحسب الى عقد معاهدة مع البندقية ، وعد بمقتضاها ان يؤدي كل سنة من المال ما يعتبر تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بالبنادقة ، بل سعى ايضاً الى استرضاء البابا ، بأن شيّد في القسطنطينية كنيسة تُجرى بها الشعائر اللاتينية ، وشجع تجار الغرب على العودة الى القسطنطينية . على ان الامبراطور الهوهنشتاوفن وملك صقلية ، كانا ألدّ أعداء بيزنطة . وحدث سنة ١١٨٤ ان تمت زيجة مشؤومة بين هنري ابن الامبراطور فردريك الاول ، وكونستانس ابنة وليم الثاني ملك صقلية ووارثة ملكه . وإذ تحقق لأندرونيقوس ان الصقليين لن يلبثوا ان يهاجموه ، أراد ان يستوثق من جبهته الشرقية . أدرك اندرونيقوس ان صلاح الدين يتألق نجمه في تلك الجهات ، فانتهج سياسة مخالفة للسياسة التي سبق ان اتخذها مانويل ، بأن عقد معاهدة مع صلاح الدين أطلق بمقتضاها له الحرية التامة في مناهضة الفرنج ، مقابل تحالفه معه لمناوأة السلاجقة . وتحدد في هذه المعاهدة ، فيما يبدو ، تفاصيل اقتسام ما يجري من فتوح ، فضلاً عن مناطق النفوذ . غير ان المعاهدة لم تكن مثمرة . وإذ خشي آندرونيقوس على مركزه بالقسطنطينية ، شرع في ان يتخذ

وسائل القمع التي بلغت من القسوة والعنف ، مـــا لم تجعل كل شخص بالعاصمة مطمئناً الى سلامته . فلم يوجّه ضرباته الى الطبقـة الارستقراطية فحسب ، بل ان رجال شرطته ألقوا القبض على التجار وصغار الصنّاع لمجرد أدنى ريبـــة في انهم يتآمرون ، وعندئذ يجري سمل عيونهم ، او إرسالهم للمشنقة . وذُعر اندرونيقوس حينما هبط جيش صقلي الى إبيروس في اغسطس سنة ١١٨٥ ، وواصل زحفـه على سالونيك . فـمـــا لجأ اليه اندرونيقوس من إلقاء القبض على الناس وإعدامهم جملة ، حمل أهل المدينة على الثورة ، التي اندلعت حينما نجح اسحاق انجيلوس ، ابن عم الامبراطور ، والذي يكبره في العمر ، ولا ينزع الى الأذى ، في الهروب من الموكلين بحبسه ، والالتجاء الى مذبح كنيسة القديسة صوفيا ، ومن ثمّ التمس النجدة ، بل تخلى عن اندرونيقوس حرسه الخاص . وحاول اندرونيقوس عبثاً الفرار ، بالعبور الى آسيا ، غير انـــه وقع في الأسر ، وجرى الطواف به حول المدينة على جمل أجرب ، ثم قام رعاع المدينة الساخطون بالتنكيل به وقطع أطرافه حتى مات . وتمّت المنـاداة بإسحاق انجيلوس امبراطوراً ، فأعاد الى البلاد قدراً من الأمن والهدوء ، وعقد صلحاً مهيناً مع ملك صقلية . غير انه لم يكن امبراطوراً كفؤاً ، إذ ان الامبراطورية القـديمة أضحت دولة في الدرجة الثالثة ، ليس لها إلا نفوذ ضئيل في السياسة العالمية [1].

---

(١) عن عهد اندرونيقوس ، انظر :

Nicetas Choniates, pp. 356 - 463.

William of Tyre, XXII. 10 - 13, pp. 1079 - 1086.

اورد وليم الصوري رواية قوية الاسناد عن اعتلاء اندرونيقوس العرش .

وترتب على تداعي الامبراطورية البيزنطية ، أن انقلب ميزان القوة في الشرق ، فابتهج أميرا ارمينية وانطاكية ، واحتفلا بزوال ضغط بيزنطة ، بأن تشاجر كل منهما مع الآخر . فما كاد بوهمند الثالث امير انطاكية ، يعلم بنبأ وفاة الامبراطور مانويل ، حتى افترق عن زوجته اليونانية ، كما يتزوج من امرأة خليعة من انطاكية ، اسمها سبيللا . ومع ان البطريرك ايمري لم يرضَ عن الزواج باليونانية ، فانه ارتاع لارتكاب جريمة الزنا ، فقطع بوهمند من الكنيسة ، وفرض الحرمان الديني على المدينة ، ثم لجأ مرة اخرى الى دير القصير . وتوافر لنبلاء انطاكية من الاسباب ما يحملهم على كراهية سبيللا ، إذ كانت جاسوسة تتقاضى دَخْلاً من صلاح الدين ، مقابل ما تبذله من معلومات عن قوة جيوش الفرنج وتحركاتها . وقام هؤلاء النبلاء بمساندة البطريرك ايمري ، واندلعت الحرب الاهلية ، حينما ارسل الملك بلدوين وفداً كنسياً برئاسة البطريرك هرقل ، للتحكيم فيما نشب من نزاع . وقَبِل البطريرك ايمري ان يرفع الحرمان الديني عن انطاكية ، مقابل تعويض مالي ، غير انه رفض رفع قرار القطع عن بوهمند ؛ اما سبيللا فقد تقرر الاعتراف بها اميرة . على ان عدداً كبيراً من نبلاء انطاكية لم يرضوا عن هذه التسوية ، فهربوا من انطاكية ولجأوا الى بلاط روبين . وازدادت العلاقات تعقيداً بين أميري انطاكية وارمينية ، في نهاية سنة ١١٨٢ ، حينما التمس حاكم قليقية البيزنطي ، اسحاق كومنينوس ، أثناء تمرُّده على اندرونيقوس ، المساعدة من بوهمند لمناوأة روبين ، وسمح لعساكر بوهمند بأن تنفذ الى طرسوس . ولم يلبث بوهمند ان غيّر رأيه ، وباع كلا من طرسوس والحاكم البيزنطي الى روبين ، ثم ندم على ذلك . وافتدى الداوية اسحاق كومنينوس ، على أساس ان يتولى القبارصة الذين يعطفون على اسحاق ، تسديد ما دفعوه من الفدية . وعندئذ لجأ اسحاق الى قبرص ،

حيث نصّب نفسه امبراطوراً مستقلاً ، ونسي كل ما يتعلق بالدين . ثم أثار روبين الفزع في نفوس جيرانه ، بأن استولى على إمارة ارمنيــة صغيرة ، لبيت هيثوم ، ظلت قــائمة في لامبرون ، شمالي غربي قليقية ، في رعاية القسطنطينية وحمايتها . وما حدث من امتــداد سلطان روبين ، أقلق بال بوهمنــد امير انطاكية ، الذي دعاه سنة ١١٨٥ ، الى مأدبة بأنطاكية ، لتبادل الحديث في الوفاق بينهما ، غير انه ألقى القبض عليه عند وصوله . على ان ليو شقيق روبين ، أتمّ فتح بلاد اسرة هيثوم ، ثم هاجم انطاكية . وتقرر اطلاق سراح روبين ، بعد ان تنازل لبوهمند عن المصيصة وأذنة . غير انه لم يكد روبين يعود الى قليقية ، حتى استردّهما وجعل نفسه سيداً على كل الإقليم . وما قام به بوهمند من غارات لم تكن مجدية ، ولم تحقق شيئاً آخر [١] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 6 - 7, pp. 1071 - 1074.
William of Tyre Continuatus, p. 208.
Ernoul, p. 9.
Nicetas Choniates, pp. 376 - 377.
Neophytue, De Calamitatibus Cypri, p. CLXXXVII.
Michael the Syrian, III. pp. 389 - 394.
Sembat the Constable, p. 628.
Vahram, Rhymed Chronicle, pp. 508 - 510.

عن سيبلا وبجسبها ، انظر :

Ibn al - Athir, pp. 729 - 730.
Abu Shama, p. 174.

رينالد شاتيون ينقض الهدنة سنة ١١٨١ :

وما وقع بين صغار الأمراء المسيحيين من مشاجرات مثيرة للأسف ، كانت بالغة النفع لصلاح الدين . فلم يكن بوسع بيزنطة ، او الفرنج بشمال الشام ، ان يعترضوا تقدُّم صلاح الدين ، او يبذلوا المساعدة لمملكة بيت المقدس . والواقع ان الدولة المسيحية الوحيدة التي ظفرت باحترام المسلمين ، لم تكن سوى مملكة الكرج النائية ، التي انصرفت وقتذاك الى النمو والتوسع على حساب أمراء السلاجقة بإيران ، الذين وقع بينهم من المشاكل والمتاعب ، ما كان في مصلحة السلطان [1] .

كان لزاماً على مملكة بيت المقدس ، في هذه الاحوال ، ان تحافظ على الهدنة ، التي انعقدت سنة ١١٨٠ . غير ان رينالد شاتيون ، الذي كان وقتئذ سيداً على إقطاع اقليم ما وراء الاردن ، لم يكن بوسعه ان يفهم كل سياسة تتعارض مع رغباته . فبمقتضى شروط الهدنة ، أضحى للتجار المسلمين والمسيحيين الحرية في ان يجتاز كل من الجانبين بلاد الجانب الآخر . على ان رينالد ساءه ان يرى القوافل التجارية الاسلامية الوافرة الثروة تسير مطمئنة قرب إقطاعه . ففي صيف سنة ١١٨١ ، استجاب رينالد لداعي الإغراء ، فقاد عساكر الاقطاع صوب الشرق الى بلاد العرب ،

---

(١) انظر : Georgian Chronicle, pp. 231 - 237.
عن تاريخ الكرج زمن الملك جورج الثالث (١١٥٦ — ١١٨٤) ، الذي خلفته في الحكم ابنته الملكة تمار .
انظر ايضاً : Allen, History of the Georgian People, pp. 102 - 104.

الى واحة تيماء ، الواقعة قرب الطريق الممتد من دمشق الى مكة . وقرب الواحة ، انقضّ على قافلة كانت تسير مطمئنة الى مكة ، واستولى على كل ما تحمل من السلع التجارية . ولعله فكر ايضاً في المضي لمهاجمة المدينة ، غير ان صلاح الدين الذي كان وقتذاك في مصر ، بادر الى إرسال حملة عاجلة بقيادة فروخشاه ، ابن أخيه ، من دمشق ، فنفذت الى اقليم ما وراء الاردن ، فلم يسع رينالد إلا ان يسرع بالعودة الى اقطاعه . ورفع صلاح الدين شكواه الى الملك بلدوين ، عن نقض المعاهدة ، وطلب التعويض ، فأقرّ بلدوين عدالة دعوى صلاح الدين . وعلى الرغم من محاولة رينالد عرض وجهة نظره وتبريرها ، فانه رفض ان يؤدي كل ما يدعو الى اصلاح الخطأ . ولقي رينالد من التأييد منّ أصدقائه بالبلاط الملكي ، ما حمل الملك الضعيف على ان يغفل الموضوع . غير ان صلاح الدين حرص على متابعته ، إذ حدث بعد بضعة شهور ، ان الاحوال الجوية أرغمت قافلة من السفن تقلُّ ألفاً وخمسمائة حاج ، على ان تجنح الى الأراضي المصرية قرب دمياط ، دون ان تعلم ما حدث من انتهاك الهدنة . فأمر صلاح الدين بتكبيلهم جميعاً بالأغلال ، ثم ارسل الى بلدوين ، يعرض عليه استعداده لإطلاق سراحهم ، عند ردّ المتاجر التي نهبها رينالد . غير ان رينالد رفض للمرة الثانية ان يعيد شيئاً ، فأضحت الحرب أمراً لا مفرّ منه [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 14, p. 1087.

لم يورد وليم الصوري السبب الذي حمل صلاح الدين على إلقاء القبض على الحجاج .

Ernoul, pp. 54 - 56.

Abu Shama, pp. 214 - 218.

Ibn al - Athir, pp. 647 - 650.

واستطاع رينـــالد شاتيون وأصحابه ان يقنعوا الملك بلدوين بحشد الجيش الملكي في اقليم ما وراء نهر الاردن ، للانقضاض على صلاح الدين عند قدومه من مصر . ولم تجدِ نفعاً إشارة بيت ابلين وريموند ، الى ان هذا الإجراء سوف يجعـل فلسطين مكشوفة لصلاح الدين حينما يقترب منها . غادر صلاح الدين الديار المصرية في ١١ مايو سنة ١١٨٢ ، وبينما كان يقوم بوداع حافل لوزرائه ، انبعث من بين الجمْع صوت يردّد بيتاً من الشعر يدل على ان صلاح الدين لن يعود مطلقاً الى القـاهرة[١] ؛ وتحققت النبوءة . اجتاز صلاح الدين بجيشه صحراء سيناء الى العقبة ، ثم توجه صوب الشمال ، دون ان يصادفه شيء من العقبات ، ثم الى شرقي جيش الفرنج ، فأخذ يتلف كل ما صادفه في طريقه من محصولات . ولما بلغ دمشق ، اكتشف ان فروخشاه قام فعلاً بالغارة على الجليل ، ونهب القرى الواقعـــة على منحدرات جبل الطور ، فظفر بعشرين الف رأس من الماشية ، ووقع في أسره الف رجل . وهاجم فروخشاه ، أثناء عودته ، حصن حبيس جلدك ، المنحوت في الصخرة الـتي تطلّ على نهر اليرموك وراء نهر الاردن . وشقّ فروخشاه نفقـاً في الصخرة ، فأضحى الحصن تحت رحمته . ولما لم تكن حامية الحصن المؤلفة من السوريين المسيحيين ، حريصة على ان تموت من أجل الفرنج ، فانهـــا بادرت الى التسليم . وأمضى صلاح الدين ثلاثة أسابيع في دمشق ، ثم غادرها ، في ١١ يوليو ، مع فروخشاه في جيش كثيف ، فنفذ الى فلسطين جنوبي بحر الجليل . وإذ أدرك الملك بلدوين ما

---

(١) هذا البيت هو :

تمتع من شميم عرار نجـد ... فما بعد العشية من عرار

ارتكبه من حماقة في خطته الحزبية السابقة ، رجع من اقليم ما وراء نهر الاردن ، وسار إزاء الضفة الغربية لنهر الاردن ، بعد ان استدعى البطريرك والصليب المقدس ، ليبارك أسلحته وجيوشه . والتقى الجيشان في اسفل قلعة كوكب الهوى التابعة للاسبتارية . ومع ان الفرنج صمدوا لهجمات صلاح الدين في المعركة الضارية التي دارت بهذا الموضع ، فان ما قاموا به من محاولات لردّ الهجمات ، لم تحطم خطوط المسلمين . ولما انقضى اليوم ، عاد الجانبان وقد زعم كل منهما لنفسه النصر[1] .

كان هذا تعطيلاً لزحف صلاح الدين باعتباره مغيراً ، غير ان هذا التوقف لم يستمر إلا لفترة مؤقتة . ففي اغسطس ، اجتاز صلاح الدين الحدّ مرة اخرى ، واخترق في سرعة خاطفة الجبال الى بيروت . وفي نفس اللحظة ، ظهر تجاه الساحل اسطوله ، الذي كان قد ارسل في طلبه ، ببريد حمام الزاجل المنتظم بين دمشق والقاهرة . غير ان بيروت كانت منيعة التحصين ، إذ ان اسقفها اودو ، أقام نظاماً قوياً شديد البأس للدفاع عنها . ولما علم بلدوين بالأنباء ، اندفع بجيشه من الجليل ، ولم يتوقف إلا ريثما يجمع السفن الراسية في ميناءيْ عكا وصور . ولما لم يستطع صلاح الدين ان يستولي على بيروت بهجوم عاجل قبل قدوم الفرنج ، لم يسعه إلا

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 14 - 16, pp. 1087 - 1095.
Abu Shama, pp. 218 - 222.
Ibn al - Athir, pp. 651 - 653.

سبقت الاشارة الى بيت الشعر الذي تردد حين غادر صلاح الدين القاهرة . (انظر الصفحة السابقة ، حاشية ١) .

الانسحاب [1] . على انه تهيأ لصلاح الدين الوقت ، ليعالج أمراً بالغ الاستعجال .

وفاة الصالح اسماعيل ، سنة ١١٨١ :

مات سيف الدين امير الموصل ، في ٢٩ يونيه سنة ١١٨٠ ، ولم يكن أبناؤه إلا اطفالاً ، فلم يسع أمراؤه إلا دعوة أخيه عز الدين كيما يتولى الحكم مكانه . ولم ينقض سوى ثمانية عشر شهراً ، حتى مات فجأة ، في ٤ ديسمبر سنة ١١٨١ ، الملك الصالح اسماعيل صاحب حلب ، بالقولنج ، وعزا الناس وفاته الى ما دُسّ له من سمّ . ولم يتجاوز الملك الصالح اسماعيل الثامنة عشرة من العمر ، عند وفاته . كان الصالح شاباً ذكياً ، يبشر بأن يكون اميراً عظيماً . والتمس الصالح ، وهو في فراش موته ، من أمرائه ان يعرضوا على ابن عمه امير الموصل ، بأن يليه على الحكم ، فيوحّد بذلك بلاد الاسرة الزنكية لمناهضة صلاح الدين . ولما قدم عز الدين امير الموصل الى حلب في نهـــاية السنة ، لقي استقبالاً حاراً . وقدم رُسل من قِبَل امير حماه ، لإعلان الولاء له . غير ان الهدنة التي انعقدت مع صلاح الدين ، لمدة سنتين ، لم ينتهِ أجلهـــا . على ان عز الدين رفض ، عن لهو لا عن شرف ، مـــا عرضه رُسل امير حماه ، إذ توافر من الدواعي مـــا يكفي لإقلاق باله ؛ فقد حدث في فبراير سنة ١١٨٢ ، أن طالبه أخوه عماد الدين

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 17 - 18, pp. 1096 - 1101.
Abu Shama, p. 223.
Ibn al - Athir, pp. 653 ff.

صاحب سنجار ، بنصيبه في الإرث ، وتآمر عليه مع كوكبوري قـائد جيش حلب . وفي مايو عاد عز الدين الى الموصل ، وقد تنازل له عماد الدين عن سنجار ، مقابل الحصول على حلب . وظفر كوكبوري بإمارة حرّان على سبيل المكافأة . وأخـذ كوكبوري من حرّان ، يتآمر مع جيرانه الأراتقة ، أمثال أميري حصن كيفا والبيرة ، لمناوأة أميري حلب والموصل ، فضلاً عن قطب الدين الارتقي امير ماردين . ودعا المتآمرون صلاح الدين لمساندتهم .

والمعروف ان الهدنة التي انعقدت بين الأمراء المسلمين ، انقضى أجلها في سبتمبر . ولم يكد أجلها ينتهي حتى اجتاز صلاح الدين الحدود . وبعد ان تظاهر بالهجوم على حلب ، تحرك الى الفرات فعبره عند البيرة ، فهوّت امـامه مدن الجزيرة : الرها ، وسروج ، ونصيبين . ثم مضى في سيره الى الموصل ، وشرع في منازلة المدينـة في ١٠ نوفمبر . على انه خيّب أمله للمرة الثانية ، مـا بلغته استحكامات الموصل من المنـاعة ، فاستعصى على صلاح الدين اقتحامها . على ان الزعيم الروحي للمسلمين ، الخليفة الناصر ، جزع لما نشب من الحرب بين المسلمين ، فحاول التفاوض في أمر الصلح . وتجهّز شاه ارمن السلجوقي وأمير ماردين ، لإرسال قوة لإنقاذ الموصل ، فانسحب صلاح الدين الى سنجار ، التي استولى عليها عنوة بعـد حصار استمرّ اسبوعين . ولأول مرة عجز صلاح الدين عن منع رجاله من نهب المدينة (سنجار) واستباحتها ، ولكنه استطاع ان ينقذ اميرها ، ويرسله مكرماً معززاً الى الموصل .

وخرج عز الدين وحلفاؤه ليلتقوا بصلاح الدين ، قرب ماردين ، غير انهم ارسلوا اليه ، قبل اللقـاء ، يقترحون عقد هدنة ؛ فلما ردّ عليهم

متوعداً بأنه لن يجتمع بهم إلا في ساحة القتال ، تفرقوا وفرّوا الى بلادهم .
لم يطاردهم صلاح الدين ، بل توجه صوب الشمال ، فاستولى على ديار بكر
اكبر حصون الجزيرة وأوفرها ثروة ، وبها أروع مكتبة في العالم الاسلامي .
وبذل صلاح الدين المدينة (ديار بكر) لأمير حصن كيفا . وبعد ان
أعاد صلاح الدين تنظيم أحوال الجزيرة ، بأن جعل كل مدينة إقطاعاً
لأحد الأمراء الموالين له ، ظهر مرة اخرى امام حلب ، في ٢١ مايو [١] .

ولما تحرك صلاح الدين لقتال عماد الدين وعز الدين ، التمسا المساعدة
من الفرنج . إذ ان سفارة توجهت من الموصل ، فوعدت الفرنج بأن
يؤدّى لهم إعانة سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، فضلاً عن إعادة
بانياس وحبيس جلدك الى أيديهم ، وإطلاق سراح كل من يكون في
حوزة صلاح الدين من الأسرى المسيحيين ، اذا هاجموا دمشق كيما يصرفوا
صلاح الدين عن مهاجمتهم . والواقع ان هذه اللحظة كانت تبشر بالأمل ؛
إذ لم تنقض إلا بضعة ايام ، بعد إغارة صلاح الدين على الجزيرة ، حتى
مات فجأة ، فروخشاه ابن أخ صلاح الدين وحاكم دمشق . وعندئذ نهض
الملك بلدوين ، وبصحبته البطريرك والصليب المقدس ، وأوغل في غارته
بحوران ، فنهبوا عزير ، وبلغوا بُصْرى ؛ بينما استولى ريموند كونت
طرابلس ، على حبيس جلدك . وفي أوائل ديسمبر سنة ١١٨٢ ، قاد ريموند
فرسانه في غارة أوغلت ايضاً حتى بلغت بُصرى . ونهض جيش الملك

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 79 - 86.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, pp. 159 - 160.
Ibn al - Athir, pp. 656 - 657.

بلدوين ، بعد ايام ، لمهاجمة دمشق ، فعسكر في داريّا في أرباضها ولما كان لمسجد داريا من شهرة ذائعة ، أبقى عليه بلدوين ولم يتعرض له بأذى ، بعد ان استقبل وفداً من المسيحيين بدمشق ، يحذرونه بأنه اذا ألحق ضرراً بهذا المسجد ، فسوف تتعرض كنائسهم لإجراءات انتقامية . ولم يحاول الملك بلدوين ان يهاجم مدينة دمشق ذاتها ، ثم لم يلبث ان انسحب لكي يقضي عيد الميلاد في صور ، بعد ان امتلأت يده بالغنائم . وأعدّ بلدوين خطة لتوجيه حملة اخرى في فصل الربيع ، غير انه حدث في أوائل السنة الجديدة (١١٨٣) ، أن خرّ مريضاً ، إذ انتابته في الناصرة ، حمّى بالغة العنف ؛ فظلّ بضعة أسابيع بين الحياة والموت ، وترتب على مرضه ، ان تفرّق جيشه [١] . وفي أقصى الشمال ، أضحى بوهمند الثالث امير انطاكية من العجز ، ما منعه من النهوض لقتال صلاح الدين . فأرسل الى صلاح الدين ، وهو يعسكر امام حلب ، ليعقد معه هدنه لمدة اربع سنوات . واستطاع بوهمند ، بفضل هذه الهدنة ، ان يصلح اسباب الدفاع عن حاضرته [٢] .

لم يبذل عماد الدين ، في حلب ، جهداً لمقاومة صلاح الدين ، ولم يكن محبوباً من أهل حلب . فلما عرض صلاح الدين ان يجعل له إمارته السابقة سنجار ، فضلاً عن نصيبين ، وسروج ، والرقة التي يحوزها على سبيل الإقطاع ، استجاب له راضياً مسروراً . وفي ١٢ يونيه سنة ١١٨٣ ،

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 20 - 22, 25, pp. 1102 - 1116.
Ibn al - Athir, pp. 155 - 159.

(٢) انظر : Ibn al - Athir, p. 662.

أضحت حلب في حوزة صلاح الدين . وبعد خمسة ايام ، غادر عماد الدين حلب قاصداً سنجار ، يرافقه حرس شرف ، بينما سخر منه جماهير المدينة التي تخلى عنها في يسر وسهولة . ودخل صلاح الدين المدينة في ١٨ يونيه سنة ١١٨٣ ، في موكب رسمي ، ومضى راكباً الى القلعة [١] .

ثم عاد صلاح الدين ، في ٢٤ اغسطس سنة ١١٨٣ ، الى دمشق ، التي اتخذها حاضرة له [٢] . فأضحت امبراطوريته تمتد من برقة الى نهر دجلة ؛ ولم يظهر من المسلمين منذ اكثر من قرنين ، امير في قوة صلاح الدين ، إذ ارتكن الى ثروة مصر ، وخضعت لحكمه المباشر المدينتان الكبيرتان دمشق وحلب . وأحاط بهما ، وامتدّ صوب الشمال الشرقي حتى أسوار الموصل ، الاقطاعات الحربية ، التي ارتكن صلاح الدين الى مساندة أربابها . ولقي صلاح الدين التأييد من الخليفة العباسي ببغداد . وسعى سلطان السلاجقة ببلاد الأناضول (آسيا الصغرى) ، الى كسب صداقته ، ولم يكن لأمراء السلاجقة بالشرق من القوة ما يدفعهم الى مقاومته . ولم تعد الامبراطورية البيزنطية مصدر خطر له ، ولم يتبقّ له سوى ان يقهر الدخلاء ، الذين صاروا وصمة عار في جبين الاسلام ، بتملّكهم فلسطين وساحل الشام .

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 86 - 88.
Ibn al - Athir, pp. 662.
Abu Shama, pp. 225 - 228.
Kemal ad - Din, ed. Blochet, p. 167.
William of Tyre, XXII. 24, pp. 1113 - 1114.
أدرك وليم الصوري أهمية استيلاء صلاح الدين على حلب .

(٢) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 89.

الفصل الثاني

معركة حطين

لما نهض بلدوين من فراش المرض الذي ألمّ به في الناصرة ، كان من الجلي أنه لم يعد قادراً على ان يحكم البلاد . إذ ان الحمى زادت في وطأة البرص ، فلم يعد بوسعه ان يستخدم ذراعيه وساقيه ، فأخذت هذه الأعضاء في التداعي . وكاد بصره يتلاشى ، وأخذت امه وأخته سبيللا والبطريرك هرقل يتولون مراقبته وحراسته ، فأقنعوه بأن يعهد بالوصاية على العرش ، الى جاي لوزيجنان زوج سبيللا ، فصار لجاي السلطة التامة على المملكة ، باستثناء مدينة بيت المقدس ، التي احتفظ بها الملك لنفسه ، فضلاً عن دخل قدره عشر آلاف بيزنتة . وقبل بارونات المملكة على كره منهم ما اتخذه الملك من قرار [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 25, pp. 1116 - 1117.

حملة رينالد شاتيون في البحر الاحمر سنة ١١٨٢ :

لم يشهد رينالد شاتيون هـــذه المناقشات ، إذ أنه حينما سمع برحيل صلاح الدين نحو الشمال ، في خريف سنة ١١٨٢ ، قام بتنفيذ مشروع طالما جال بخاطره ، وهو ان ينزل بالبحر الاحمر ، اسطولاً ، لا يغير فحسب على القوافل البحرية ، وفيرة الثروة ، التي تقصد مكة ، بل يهاجم ايضاً المدينة الاسلامية المقدسة ذاتها . وحوالي نهاية سنة ١١٨٢ ، توجه رينالد الى أيلة الواقعة على رأس خليج العقبة ، وحمل اليها السفن التى أعدّها من اخشاب اتخذها من غابات مؤاب ، وجرّبها في مياه البحر الميت ، وسقطت أيلة في يده ، بعد ان ظلت في حوزة المسلمين منذ سنة ١١٧٠ ، غير ان الفرنج لم يستولوا على الحصن الواقع بجزيرة على مسافة قريبة من أيلة ، وهي المعروفة عند مؤرخي الفرنج باسم Ile de Graye . وأقـــام رينالد بأيلة لينازل الجزيرة بسفينتين ، بينما انطلقت بقية سفن الاسطول ، يسيرها قراصنة محليون . فالتزموا في سيرهم الساحل الافريقي للبحر الاحمر ، وأخذوا يغيرون على كل ما صادفهم في طريقهم من البلدان الصغيرة ، فهاجموا ونهبوا عيذاب ، وهي ميناء كبير للنوبة يقع قبالة مكة . وبهـا استولوا على سفن تجارية زاخرة بالسلع ، قدمت من عدن ومن الهند ، وهبطت الى البر جماعة هاجمت قافلة ضخمة ، لا مُدافع عنها ، كانت قادمة عبر الصحراء من وادي النيل . ثم اجتـــاز القراصنة البحر الاحمر من عيذاب الى ساحل بلاد العرب . فأشعلوا الحرائق في السفن الراسية بالحوراء وينبع ، مينائي المدينة ، ثم أوغلوا حتى بلغوا غابر [١] من موانىء مكة ذاتها . وأغرقوا بالقرب منها

---

(١) وردت في النص الانجليزي Raghib ، وما هنا من ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٣٠ .

سفينة كان يستقلها الحجاج ، وتتجه الى جدة . ارتاع العالم الاسلامي لما حدث ، بل ان اميري حلب والموصل اللذين التمسا مساعدة الفرنج ، خجلا لاتخاذهما حلفاء دبروا انتهاك حرمة الدين . على ان الملك العادل ، شقيق صلاح الدين ووالي مصر ، اتخذ اجراء ، بأن وجّه لمطاردة الفرنج ، قائد الاسطول المصري ، حسام الدين لؤلؤ ، على رأس اسطول يسيّره بحارة مغاربة من شمال افريقية . وأول ما قام به لؤلؤ من أعمال ، هو انه فك الحصار عن جزيرة جَراي ، واسترد أيلة ، التي انسحب منها ريناالد فعلاً . ثم اوقع بأسطول القراصنة قبالة الحوراء ، قدمره ، وأمر جميع رجاله ، فأرسل جماعة منهم الى مكة ، لينحروا بمنى ، في موسم الحج التالي . أما من تبقى منهم فتقرر إرسالهم الى القاهرة ، حيث تم الإجهاز عليهم . ونـــذر صلاح الدين أنه لن يغفر لريناالد محاولة انتهاك حرمة الدين [1] .

غـــادر صلاح الدين دمشق ، في ١٧ سبتمبر سنة ١١٨٢ ، على رأس جيش كثيف للإغارة على فلسطين ، ثم اجتاز نهر الاردن ، في ٢٩ سبتمبر ،

---

(١) انظر :

Abu Shama, pp. 231 - 235.
Ibn al - Athir, p. 658.
Makrizi, ed. Blochet Revie de l'Orient Latin, vol. XI. pp. 500 - 501.
Ernoul, pp. 96 - 70.

ويعتبر ارنول المؤرخ الفرنجي الوحيد الذي أشار الى غارة البحر الاحمر ، وأطلق عليها حملة الضحية . انظر ايضاً :

Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 49.

شهد ابن جبير بالقاهرة أسرى الفرنج .

عند الطرف الجنوبي لبحر الجليل ، ودخل بيسان ، التي فرّ جميع سكانها ، ولاذوا بأسوار طبرية طلباً للأمان . ولم يكد جاي لوزيجنان يسمع بأنباء قدوم صلاح الدين ، حتى استدعى كل قوات المملكة ، يقودها اثنان من كبار الصليبيين الأثرياء القادمين برجالهما لزيارة البلاد المقدسة ، وهما جودفري الثالث ، دوق برابانت ، ورالف الاكيتاني سيد ماوليون . وكان بصحبة جاي ، ريموند كونت طرابلس ، ومقدم الاسبتارية ، ورينالد شاتيون ، والاخوان ابلين ، ورينالد سيد صيدا ، ووالتر سيد قيسارية . وقـــدم من اقليم ما وراء الاردن للإنحيـــاز اليهم همفري الرابع الصغير ، سيد تبنين ، على رأس قوات زوج امه ، غير ان المسلمين نصبوا له كميناً على منحدرات جبل جلبوع[1] ، فلقي معظم رجاله مصرعهم . وأنفذ صلاح الدين سرايا للاستيلاء على المعاقل الصغيرة في الجهات المجاورة ، وتدميرها ، بينما وجّه سرايا اخرى لنهب دير اليونانيين على جبل الطور ، غير أنهـــا لم تستطع اقتحام الأسوار المنيعة لدير اللاتين على قمة التل . أما صلاح فإنه عسكر بالجيش الرئيسي قرب عين التبانية ، في موقع مدينة يزرعيل القديمة .

احتشد الفرنج في صفورية ، وتوجهوا الى سهل يزرعيل (زرعين) ، في اول ديسمبر . على ان المسلمين بادروا بالهجوم على مقدمة الجيش بقيادة الكندسطبل اماريك ، ولم ينقذها إلا قدوم الاخوين ابلين بقواتهما في الوقت المناسب . وعسكر المسيحيون عند أغوار جالوت ، في مواجهة صلاح الدين ، الذي

---

(١) هذا الاسم هو الوارد في التوراة (صموئيل ٤٨ : ٤) ، وهو المعروف حالياً باسم جبل فقوا ، ولعل قرية جلبون توحي باسم جلبوع . انظر :

John, D. Davis, Dictionary of the Bible (Gilboa).

أمدّ جناحيه حتى كادا تطوقانهم ، وظلت جيوش الفريقين في مواضعها ، خمسة ايام ، دون ان تتحرك . وأضحى من العسير ان تنفذ المؤن الى المسيحيين . ولم ينقض يوم او يومان حتى اخذ المأجورون الايطاليون يشكون الجوع ، ولم ينقذ الجيش من الهلاك جوعاً إلا العثور في الوقت على السمك في أغوار جالوت . على ان معظم الجند ، ومنهم فرسان من فرنسا ، ورينالد شاتيون القلق المتهور ، أرادوا مهاجمة المسلمين ، بينما أظهر جاي التردد ، على حين اشتد إصرار ريموند كونت طرابلس والأخوين إبلين على ان الدعوة لقتال جيوش تفوقهم في العدد ، سوف تودي بهم ، فلا بد للجيش ان يلتزم خطة الدفاع ، وكان رأيهم صائباً ، إذ حاول صلاح الدين مرات عديدة ان يغري الفرنج بالخروج لقتاله ، فلما فشل في ذلك رفع معسكره في ٨ اكتوبر سنة ١١٨٣ ، وتحرّك راجعاً الى مـا وراء نهر الاردن [١] .

وقوع الشجار بين جاي لوزيجنان والملك بلدوين سنة ١١٨٣ :

على ان سلوك جاي لوزيجنان كان صدمة للجند الذين اعتقدوا أنـه جبان ، وللبارونات الذي رموه بالضعف . فلما عاد الى بيت المقدس ، وقع في شجار مع الملك بلدوين . لقـد أحسّ بلدوين ان مناخ صور لألطف

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 26 - 27, pp. 1118 - 1124.
Ernoul, pp. 96 - 102.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 90 91.
Abu Shama, pp. 243 - 246.

لصحته من رياح مرتفعات بيت المقدس ، فطلب الى صهره ان يتبادلا المدينتين (بيت المقدس وصور) ، غير ان جاي كان جافاً وغليظاً عندما تلقى هذا الطلب . ولم يسع بلدوين ، وقــد انتابته نوبة نشاط ، إلا ان يستدعي كبار أتباعه ، وبناء على نصحيتهم قرر عزل جاي من الوصاية على العرش . وأحلّ مكانه في ٢٣ مارس ١١٨٣ بلدوين ابن اخته سبيللا من زوجها الاول ، ولم يكن بلدوين وقتذاك إلا طفلاً في السادسة من عمره ، وحاول بلدوين ان يقنع اخته سبيللا بإلغاء زواجها من جاي . وفي تلك الأثناء استأنف الملك بلدوين تسيير الحكومة بنفسه ، على الرغم من أنــه ليس بوسعه ان يتحرك إلا بمساعدة غيره ، كما انه لم يعد باستطاعته ان يوقع اسمه . ولم يردّ جاي على هــذا الاجراء ، إلا بالالتجاء الى كونتيته عسقلان ويافا ، وبها تخلى عن ولائه للملك . فنزع بلدوين يافا التي جعلها خاضعة لسلطان التاج مباشرة ، بينما تحداه جاي في عسقلان . وما بذله البطريرك هرقل ، ومقدما الداوية والاسبتارية ، من جهود للتوسط لصالح جاي المتمرد ، عند الملك ، لم تلق إلا الفشل الذريع . إذ خرج الملك عن أطواره ، وأمر بنفيهم من البلاط . لقــد سبق ان استدعاهم للدعوة الى حرب صليبية في غرب اوربا ، غير انهم لم يوافقوا إلا وقتئذ ، بعــد ان مضت بضعة شهور على استدعائهم [1] .

---

(١) انظر : William of Tyre, XXII. 29, pp. 1127 - 1128.
يشير وليم الصوري الى ان بلدوين الخامس لم يتوّج إلا في هذه المناسبة .

حفلة زواج بالكرك سنة ١١٨٣ :

أما مجلس البارونات ، الذي قرر الملك بناء على نصيحتهم عزل الملك جاي من الوصاية على العرش ، فتألف من بوهمند الثالث امير انطاكية وريموند كونت طرابلس ، وسيد قيسارية والأخوين ابلين ، ولم يشهد الاجتماع سيد اقطاع ما وراء نهر الاردن . لقد حان الوقت لعقد قران الاميرة ايزابيلا التي بلغت وقتذاك الحادية عشرة من عمرها ، على همفري سيد تبنين الذي كان يناهز سبع عشرة سنة من العمر . وعزم رينالد شاتيون على ان يهيء كل ما يستطيع من مظاهر الفخامة والأبهة للاحتفال بالعرس في قلعته بالكرك ، التي تعتبر العروس وريثة لها . فأخذت الضيوف تتوافد على القلعة اثناء شهر نوفمبر . ومع ان عدداً كبيراً من هؤلاء الضيوف ، مثل الملكة ماريا كومنينا ، والدة العروس ، كانوا أعداء شخصيين لرينالد شاتيون ، فإنهم قدموا للقيام بمحاولة اخيرة لرأب الصدع بين الأحزاب المتناحرة . وقدم ، مع هؤلاء الضيوف ، أرباب الملاهي من الراقصات والحواة والموسيقيين ، من سائر أنحاء الشرق المسيحي . غير ان هذه الاحتفالات عطّلها فجأة ما ورد من أنباء مزعجة عن اقتراب صلاح الدين بجيشه من الكرك .

وكان من ارفع المطامع التي يصبو صلاح الدين الى تحقيقها ، ان يدمر حصن الكرك وسيده الجاحد ، فطالما بقي في يد رينالد شاتيون هذا الحصن الضخم ، صار بوسعه ان يعترض الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية من الشام الى مصر ، ودلّت التجربة على ان ما من معاهدة كبحت جماحه . وحدث في ٢٠ نوفمبر سنة ١١٨٣ أن لحقت بصلاح الدين أمداد من مصر ، فعسكرت امام اسوار الكرك . وساق الفلاحون والرعاة ،

من السوريين المسيحيين ، بالريف ، قطعانهم الى داخل المدينة التماساً للأمن والطمأنينة ، ولاذ عدد كبير منهم بفناء القلعة . فبادر صلاح الدين على الفور الى مهاجمة المدينة السفلى ، وشق لنفسه منفذاً اليها . ولم يستطع رينالد شاتيون ان يفلت الى القلعة إلا بفضل بطولة احد فرسانه ، الذي ظل يقاتل بمفرده للدفاع عن الجسر المقام على الخندق الذي يفصل بين المدينة السفلى والقلعة ، حتى تم تدمير ما يقع من الجسر وراء ظهره ، واستمرت احتفالات العرس تجري بداخل القلعة ، بكل جرأة وبسالة . إذ لم ينقطع الرقص والغناء بداخل القلعة ، بينما تتعرض الأسوار للقذف بالأحجار . وأعدّت ستيفاني ، والدة العريس ، صحوناً من طعام العرس ، وبعثت بها الى صلاح الدين . وأرسل صلاح الدين ، مقابل ذلك ، يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان ، ثم اصدر الأوامر بألا يتعرض هذا البرج للقذف من ادوات الحصار . وفيما عدا ذلك لم يخفف جهوده ، فما زالت مجانيقه التسعة الضخمة تواصل قذف الحجارة ، وطمّ رجاله كل الخندق على وجه التقريب .

وهرعت الرسل الى بيت المقدس تلتمس المساعدة من الملك بلدوين ، فاستدعى الجيش الملكي ، وجعل قيادته لريموند كونت طرابلس ، غير ان الملك أصرّ على ان يحمل في محفة كيما يكون مع رجاله . فأسرعوا بالهبوط ، متجاوزين اريحا ، ثم ارتقوا جبل نبو [١] . ولما اقترب الملك

---

(١) انظر سفر العدد ٣٣ : ٤٧ ، وهذا الجبل هو المعروف حالياً باسم جبل النبي ، على مسافة اثني عشرة ميلاً من مصب نهر الاردن ، وتشير الروايات الى ان النبي موسى عليه السلام قضى نحبه في هذا الموضع . انظر :

John, D. Davis, Dictionary of the Bible.

بجيشه ، رفع صلاح الدين الحصار عن حصن الكرك في ٤ ديسمبر ، ولم تلحق مجانيق صلاح الدين بأسوار الحصن إلا أضراراً ضئيلة ، ثم قفل صلاح الدين راجعاً الى دمشق . ودخل الملك الى الكرك في محفته في موكب الظافر المنتصر . وأضحى ضيوف العرس أحراراً في العودة الى بلادهم [1] . على ان تجربتهم لم تنه ما وقع بينهم من شقاق ، كانت العروس الصغير اكثر من عاناه . إذ ان حماتها منعتها من رؤية امها ، ولا شك ان كان ذلك بناء على طلب رينالد شاتيون ، على حين ان امها التي تأصل فيها من تدبير المؤامرات الحزبية ما كان عزيزاً لدمها اليوناني ، اعتبرتها شبه خائنة . فلم تلق العطف إلا من زوجها . إذ كان همفري سيد تبنين شاباً فائق الجمال ، نال حظاً كبيراً من التعلم وكان في ميوله أقرب ما يكون الى الفتاة لا الى الرجل ، غير انه كان لطيفاً ، حصيفاً في معاملة

---

(١) انظر : William of Tyre *XXII*. 28, 30, pp. 1124 - 1130.
Ernoul, pp. 102 - 106.

انفرد ارنول بالاشارة الى حفل العرس ، إذ شهده باعتباره سائس باليان . واعتقد ارنول ان صلاح الدين كان رهينة في الكرك ، وكان ما زال صبياً ، وكانت ستيفاني تدلله على ركبتها . ولم يرد في غير هذا المصدر ما يشير الى أسر صلاح الدين المبكر . ولا يصح الاخذ بهذه الرواية ، نظراً لأن صلاح الدين قد ولد سنة ١١٣٧ ، والراجح ان ستيفاني لم تولد قبل سنة ١١٤٥ . انظر ايضاً :

Abu Shama, p. 248.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 91 - 92.
Makrizi, ed. Blochet, Revue de l'Orient Latin, vol. XII. pp. 13 - 14.

زوجته الطفلة ، فأحبته [١] .

وفي الصيف التـــالي توجّه صلاح الدين مرة أخرى لمنازلة حصن الكرك ، وانحاز الى جيشه كتائب بعث بهـــا الأمراء الأراتقة . وما للكرك من استحكامات ضخمة ، كانت من المناعة مـــا جعلها تستعصي مرة اخرى على صلاح الدين ، فلم يستطع أن يغري المدافعين بالخروج للقتال على المنحدرات أسفل المدينة . وللمرة الثانية انسحب صلاح الدين الى بلاده ، عند اقتراب جيش قادمَ من بيت المقدس ، ولم يخلف صلاح الدين وراءه سوى سريّة للإغارة على الجليل، ولتمضي في نهب البـــلاد الواقعة الى الجنوب حتى نابلس . وعاد صلاح الدين الى دمشق ، اذا ما زال ينتظره من الأعمال مـــا ينبغي أن يؤديه لإعادة تنظيم امبراطوريته ، ولم يحنْ الوقت للتخلص نهائياً من المسيحيين [٢] .

لا زال الملك الأبرص يقبض بيديه المتداعيتين على أزمـــة الحكم في بيت

---

(١) انظر ما يلي ص٧٢٤، أما التاريخ المتأخر لحفلة العرس، فيرتبط بقصة الحرب الصليبية الثالثة ، إذ يصف مؤرخ Itineratrium Regis Ricardi (p. 120) همفري على أنـــه :
Vir feminae quam viro proprior gestus molis sermane fructus.
ويشير ابن شداد الى جماله الفائق ، ويذكر أنه كان يجيد التحدث باللغة العربية . انظر :
Beha ed - Dine, P. T. T. S. p. 288.
Estoire d'Eracles, II. p. 152..
أورد هذا المصدر الرواية التي تشير الى منع ايزابيلا من رؤية امها .

(٢) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 95 - 98.
Abu Shama, pp. 249 - 256.
وردت رسالة بلدوين الرابع الى هرقل في :
Radulph of Diceto, II. pp. 27 - 28.

المقدس. وما زال جاي لوزيجنان محتفظاً بعسقلان، بعد أن رفض السماح لموظفي الملك بالدخول الى المدينة . أما أصدقاؤه ، البطريرك ومقدما الداوية ، والاسبتارية ، فكانوا بأوربا ، يحاولون عبثاً إقناع الامبراطور فردريك الأول ، والملك هنري الثاني،بما ينتظر الشرق المسيحي من أخطار. فاستقبلهم عاهلا الغرب بالحفاوة والتشريف ، وناقشا الخطط للدعوة الى حملة صليبية كبيرة . غير أن كلا منهما التمس الأعذار التي تمنعه من الاشتراك في الحملة . وكل ما أسفرت عنه هذه البعثة من نتيجة ، انه لم يتخذ الصليب إلا عدد قليل من الفرسان [١] .

وأثار جاي لوزيجنان مرة اخرى غضب صهره الملك بلدوين ، في خريف سنة ١١٨٤ . فالمعروف أن البدو النازلين بالمنطقة ، جاز لهم منذ استيلاء المسيحيين على عسقلان سنة (١١٥٣) أن يتحركوا بقطعانهم للرعي كيفما شاءوا ، مقابل دفع إتاوة صغيرة للملك . وجزع جاي، لأن الاتاوة تؤدي للملك لا إليه ، فانقضّ عليهم ذات يوم وأجهز عليهم ، واستولى على قطعانهم [٢].

وصية الملك بلدوين الرابع سنة ١١٨٥ :

ما زال بلدوين ملتزماً فراش المرض ، ولن ينهض ابداً من مرضه . أدرك بلدوين ما يؤديَ اليه نفوذ أمه وأصدقائها من الدمار ، فأرسل الى ابن خالته ،

---

(١) عن هذه البعثة ، انظر :

Benedict of Peterborough, I. p. 338.
Radulph of Diceto, *IX*. pp. 32 - 33.

لما استشار هنري الثاني ملك انجلترا مجلسه ، نصحه بألا يشترك في الحملة الصليبية .

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II. p. 3.

ريموند كونت طرابلس ، يدعوه ليتسلم إدارة المملكة ، وفي تلك الأثنــاء تهيأ لملاقاة ربه . ففي أوائل سنة ١١٨٥ ، أعلن وصيته أمــام مجلس البارونات . فتقرر أن يخلفه على العرش ابن اخته الصغير ، وبناء على الرغبة العاجلة لمجلس البارونات ، تقرر ألا يلي جاي لوزيجنان الوصاية ، بــل ينبغي ان تكون من نصيب ريموند كونت طرابلس ،على أن يحوز بيروت مكافأة له عن خدماته . غير أن ريموند رفض القوامة الشخصية على الملك الصغير ، حتى لا يموت الصبي صغيراً ، وهو الذي اشتهر بشدة الحساسية ، فيجري اتهامه بأنــه عجّل بوفاته . ونظراً لاعتلال صحة الصبي ، أقسم البارونات مرة اخرى ، انه اذا مات الملــك الصبي قبل أن يبلغ العاشرة من عمره ، كان لزاماً على ريموند ان يبقى في الوصاية ، حتى يفصل في الدعاوى بين الأميرتين سبيللا وايزابيلا ، الحكام الكبار الأربعة بالغرب ، وهم البابا ، وامبراطور الغرب ، وملكا فرنسا وانجلترا . وفي تلك الأثناء ، جرت محاولة أخيرة للتوفيق بين الحزبين ، فتقرر جعــل القوامة على شخص الملك الصبي ، لخــال امه جوسلين كورتيناي ، الذي اخذ يظهر الصداقة الخالصة لريموند [١] .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II. p. 7.
Ernoul, pp. 115 - 119.

أورد ارنول أوفى رواية. إذ جعل هذه الرواية في أعقاب وصف حصار الكرك للمرة الثانية على يد صلاح الدين (سبتمبر سنة ١١٨٤) ، وأشار الى ان بلدوين الرابع لم يلبث ان مات بعــد فترة وجيزة مضت على هــذا الحصار . أما وليم الصوري فألمع الى تتويج بلدوين الخامس ، الذي تم في ٢٠ نوفمبر سنة ١١٨٣ . انظر ما سبق ص ٦٨٧ . وإذ مات وليم الصوري قبل نهاية سنة ١١٨٤ ، بعد ان كتب الصفحات الاخيرة من تاريخه في روما ، فالراجح أنه علم بعزم بلدوين على تتويج ابن اخته ، منذ عزل جاي عن الوصاية ، سنة ١١٨٣ ، غير انــه أخطأ في الاعتقاد بأن التتويج قد تم فعلاً . وما كان لسبيللا وايزابيلا من حقوق شرعية أثارت مشكلة . إذ جاز =

أقسم البارونات المجتمعون ، علـى أن ينفذوا رغبات الملك . وكان من بين الحاضرين البطريرك هرقل ، الذي عـاد تواً من الغرب ، وبصحبته مقدم الاسبتارية ، روجر لي مولين ، اما مقدم الداوية ، ارنولد توروجا فإنه مات أثناء الرحلة . واختارت الداوية خلفاً له ، بعد نقاش عاصف ، جيرار ريدوفورت ، عدو ريموند القديم . على أن جيرار أعلن أيضاً موافقتــه على وصية الملك . وتقرر نقل الملك الطفل الى كنيسة القيامة ، فحمله باليان ابلين بين ذراعيه ، وقام البطريرك بتتويجه [1] .

ولم تنقض إلا بضعة أسابيع ، حتى أراح الموت في مارس سنة ١١٨٥ الملك بلدوين الرابع من آلام مرضه الطويل . لم يتجاوز بلدوين عند وفاته ، الرابعة والعشرين من عمره ، ويعتبر أتعس من حكم بيت المقدس من الملوك أما كفايته وقدرته فلم تكن موضع شك ، كما أن بسالته وشجاعته كانت بالغـة الروعة .

= للاختين اقتسام الاقطاعات بمقتضى الدستور الذي أقره املريك سنة ١١٧١ ، ووفقاً للتقاليد الاقطاعية المرعية في غرب اوربا . ويعتقد المؤرخ Grandclaude p. 340 ان هـذا الدستور اهتم بولاية الحكم . والراجح ان الملكة ماريا أنجبت وقتذاك ابنتها الكبرى . ومن ناحية اخرى، كان للأطفال ، الذكور والأناث ، الذين جاءوا ثمرة الزيجة الاولى ، السابقة على سلالة الزيجــة الثانية . انظر :

La Monte, Feudal Monarchy, p. 36.

غير انه هل للذرية الناجة عن زيجة اجنيس التي تقرر الغاؤها ، السابقة على السلالة الناجة من زواج الامبراطور من ماريا؟ الواضح من احداث سنة ١١٨٦ ان الرأي العام أيد دعاوى سيبللا (انظر ما يلي ص ٧٢٣) . غير ان المسألة كانت من الغموض ما لا يدع مجالاً التفكير .

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II. pp. 7 - 9.
Ernoul, pp. 114, 118.

غير انه كان عاجزاً عن أن يضبط من سرير المرض مايدورحوله من مؤامرات، ولذا طالما انقاد الى نفوذ أمه الشريرة ، وأخته الحمقاء . على أن الموت أغناه على أقل تقدير عن المهانات الأخيرة التي لا بد ان تحل بالمملكة [1] .

ولما توارى جثمان الملك في كنيسة القيامة وسط مظاهر الأسى ، دعا ريموند، باعتباره وصياً، البارونات للاجتماع مرة اخرى، ليسألهم عن السياسة التي ينبغي عليه ان يسلكها . لم تهطل الأمطار في ذلك الشتاء ، وتهدد البلاد خطر المجاعة . ولم يقدم صوب الشرق من الصليبيين سوى الماركيز الشيخ ، وليم مونتفيرات ، جد الملك الطفل ، وبعد أن اطمأن الى ان كل الأمور تجري في صالح حفيده ، استقر في اقطاع بالجليل ينشد الهدوء والسكينة . أما ابنه كنراد مونتفيرات ، عم الملك الطفل ، فإنه خرج في اثر ابيه ، غير انه توقف في الطريق بالقسطنطينية التي هلك بها شقيقه راينيه منذ بضع سنوات . وفيها عرض المساعدة على الامبراطور اسحاق انجيلوس الذي انتقم لمصرع راينيه ، ثم تزوج كنراد من اخت الامبراطور، ونسي كنراد كل ما يتعلق بابن أخيه الملك الطفل، وبفلسطين. وتبين لكل البارونات المجتمعين في بيت المقدس ، أنه مـا لم تقدم حملة صليبية ضخمة جديدة ، فليس بوسع مملكة تكاد تهلك جوعـاً ، ان تواجه الحرب . فوافقوا عـلى اقتراحات ريموند ، بأن يلتمس من صلاح الدين عقد هدنة لمدة أربع سنوات .

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 118 - 119.
Estoire d'Eracles, II. p. 9.
Abu Shama, (Imad ed - Din), p. 258.
أشاد عماد الدين الاصفهاني بذكرى بلدوين الرابع .

ولم يكن صلاح الدين ، من جانبه ، بأقل رغبة في عقد الهدنة ، فما نشب من شجار بين أقاربه في مصر ، تطلب التسوية ، وقد ترامى الى سمعه ايضاً ان عز الدين أمير الموصل يوشك على العصيان مرة اخرى . تم توقيع المعاهدة بين صلاح الدين والفرنج ، وتقرر من جديد استئناف التجارة بين امارات الفرنج وجاراتها ، وما تدفق من القمح من الشرق أنقذ المسيحيين من الهلاك جوعاً [١]

مرض صلاح الدين سنة ١١٨٥ :

سار صلاح الدين صوب الشمال ، في ابريل سنة ١١٨٥ ، فعبر نهر الفرات عند البيرة في ١٥ ابريل . ولحق به في البيرة ، كوكبوري امير حران ، وقدمت اليه الرسل من قبل امراء الجزيرة واربل ، الذي يعتبرون اتباعاً لعز الدين امير الموصل . وأنفذ عز الدين سفارتين الى سلطان السلاجقة في قونية ، والى شاه أرمن . فأرسل اليه شاه أرمن العساكر لمساندته ، ووجه سلطان سلاجقة رسالة الى صلاح الدين تنطوي على التهديد والوعيد ، غير انه لم يتخذ إجراء لمناهضته ، وفي يونيه سنة ١١٨٥ حاصر صلاح الدين الموصل ، بعد ان رفض كل عروض عز الدين الصلح ، بل انه لم يستجب لتوسل والدة الامير عز الدين، المتقدمة في السن ، عند قدومها اليه . على أن الموصل ما زالت حصناً منيعاً . وفي هذا الصيف القائظ ، حلّ المرض بعساكر صلاح الدين . وفي اغسطس سنة ١١٨٥ مات فجأة سكمان الثاني ، شاه أرمن الذي ينتمي للسلاجقة . وتحرك

---

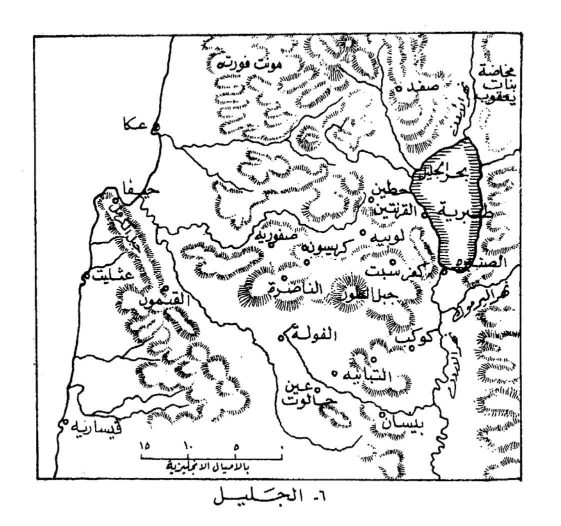
(١) انظر : Ernoul, pp. 121 - 128.
Estoire d'Eracles, II. p. 12 - 13.
Beha ed - Dine, P. T. T. S. pp. 104 - 105.

صلاح الدين صوب الشمال للاستيلاء على ديار بكر وميافارقين اللتين كانتا بحوزة اميرين من اتباع سكمان ، ولكي يُريح رجاله في المرتفعات حيث الهواء عليل. على أن صلاح الدين نفسه خرّ مريضاً ، غير أنــــه تحامل على نفسه ، وبرغم إشرافه على الموت ، توجــه الى قلعة صديقه كوكبوري بحران ، فعجّل اخوه العادل ، الذي كان وقتذاك اميراً على حلب ، بالقدوم الى حرّان ، وبصحبته ابرع اطباء الشرق، للقيام على معالجته ، ولكن لم يكن بوسعهم ان يفعلوا شيئاً . وإذ اعتقد صلاح الدين ان نهايته قد اقتربت ، وأدرك ان كل أقاربه يتآمرون للظفر بالإرث ، طلب الى أمرائه ان يحلفوا لأبنائه على الولاء لهم . ثم حدث فجأة أن أخذ صلاح الدين يسترد عافيته ، ولم يحل يناير سنة ١١٨٦ حتى تجاوز مرحلة الخطر ، فاستقبل في نهاية فبراير سنة ١١٨٦ ، سفارة من عز الدين ، ووافق على عقد الصلح . وبمقتضى المعاهدة التي وقعها رسل عز الدين في ٣ مارس سنة ١١٨٦ ، أضحى عز الدين من اتباع صلاح الدين ، على ان يحتفظ بأملاكه . أما البلاد الواقعة على نهر دجلة ، الى الجنوب من الموصل، والتي تشمل اربل وشهرزور ،فأصبحت بحوزة امراء من قبل صلاح الدين ،ويدينون له مباشرة بالولاء . والواقع ان هؤلاء الامراء كفلوا ولاء عز الدين [١] . كان صلاح الدين وقتئذ في حمص ، التي كان اميرها ناصر الدين بن شيركوه وصهر صلاح الدين . دبّر ناصر الدين مؤامرة أثناء مرض صلاح الدين ، كيما يتولى حكم الشام . ولذا لم يدهش احد، حينما جرى العثور عليه ميتاً في فراشه، في ٥ مارس سنة ١١٨٦ ،

---

(١) انظر :

Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 98 - 103.
Kemal ed - Din, ed. Blochet, pp. 123 - 126.
Abu Shama, p. 288.
Bustan, p.581.


مونت فورته
صفد
مخاضة
بنات
يعقوب
عكا
حيفا
بحر الجليل
حطين
القرنتين
طبرية
لوبيه
صفوريه
كفرسبت
الصنبره
نهر اليرموك
عثليت
القيمون
الناصرة
جبل الطور
الفولة
كوكب
عين
جالوت
بيسان
قيساريه
١٥ ١٠ ٥ ٠
بالاميال الانجليزية

٦- الجليل

بعد الاحتفال بعيد الأضحى . وخلفه على امارة حمص ابنـه الطفل ، شيركوه الثـاني ، الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره . وصادر صلاح الدين قدراً كبيراً من امواله ، غير ان الصبي كان بارعاً في اقتباس آية من القرآن الكريم ، « إنَّ الذين يَأكلون أموَال اليَتامى ظُلمـاً إنَّما يَأكلون في بُطونِهم ناراً وسيَصْلَوْنَ سَعِيراً » [١] . فلم يسع صلاح الدين إلا أن رد ما صادره . ثم عاد صلاح الدين في ابريل الى دمشق ، فأصبحت امبراطوريته تمتد الى أطراف بلاد فارس [٢] .

سبيلا والمناداة بها ملكة سنة ١١٨٦ :

وبفضل الهدنة التي انعقدت بين المسيحيين والمسلمين ، عاد بعض الرخاء الى فلسطين ، إذ نشطت من جديد التجارة بين داخل البلاد وميناثي عكا وصور ، وأفاد منها التجار المسلمون والمسيحيون سواء . فلو ان الصلح استمر ، حتى يصل من الغرب حملة صليبية كبيرة ، فقد تأمـل مملكة بيت المقدس في استمرار مستقبلها ، غير ان القدر لم يترفق مرة اخرى بالمسيحيين. فحوالي نهاية اغسطس سنة ١١٨٦ مات بعكا الملك بلدوين الخامس ، ولما يبلغ التاسعة من عمره [٣] .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة النساء ، آية ٩ .

(٢) انظر :
Abu'l Feda, p. 55.
Lane Poole, Saladin, pp. 194 - 195.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 103 - 104.

(٣) انظر :
Ernoul, p. 129.
Estoire d'Eracles, II. p. 25.

وحضر الى جانب فراش الموت ، الوصي على العرش ريموند ، والصنجيل جوسلين . وإذ أعرب جوسلين عن حرصه على التعاون مع ريموند ، أقنعه بالتوجه الى طبرية ، كيما يدعو بارونات المملكة للاجتماع به فيها ، بعيداً عن مؤامرات البطريرك ، لتنفيذ ما انطوت عليه وصية بلدوين الرابع من شروط. وتعهد جوسلين بنقل جثمان الملك الى بيت المقدس لمواراته.على ان ريموند وقع في الفخ الذي نصبه له جوسلين،فمضى في طريقه في نية سليمة.ولم يكد ريموند يخرج متوجهاً الى طبرية ، حتى ارسل جوسلين من العساكر من كانوا موطن ثقته ، فاحتلوا صور وبيروت ، بينما بقي هو في عكا ، حتى أعلن سبيللا ملكة . أرسل جثمان الملك في رعاية جماعة الداوية الى بيت المقدس ، واستدعت رسله سبيللا وجاي من عسقلان ، ليشهدا تشييع الجنازة ، وهرع رينالد شاتيون من الكرك للحاق بهما في بيت المقدس .

اكتشف ريموند ما تعرض له من خداع ، فتوجه الى نابلس ، وقصد قلعة باليان ابلين ، وباعتباره الوصي الشرعي للملكة ، دعا الى عقد المحكمة العليا للبارونات . فأسرع جميع مؤيديه الى اللحاق به في نابلس . إذ قدم مع باليان وزوجته الملكة ماريا ، ابنتها ايزابيلا مع زوجها همفري سيد تبنين ، وبلدوين سيد الرملة ، ووالتر سيد قيسارية ، ورينالد سيد صيدا ، وجميع كبار مقطعي التاج ، باستثناء رينالد شاتيون . وفي نابلس تلقوا دعوة من سبيلا كيما يشهدوا حفل تتويجها. فردّوا عليها بأن أرسلوا راهبين شثتريين مبعوثين الى بيت المقدس ، كيما يذكرا المتآمرين بالقسم الذي حلفوه للملك بلدوين الرابع ، وليمنعا ما قد يتخذ من إجراء حتى تنظر المحكمة في الأمر .

حازت سبيللا بيت المقدس والموانىء البحرية ، وانحاز الى جانبها عساكر الصنجيل جوسلين والكندسطبل امالريك شقيق جاي ، وجاء رينالد شاتيون

برجاله من إقليم ما وراء نهر الاردن. أما البطريرك هرقل ، عشيق امها السابق، فإنه كفل لها مساندة الكنيسة . وأراد مقدم الداوية ، جيرار ريدفورت أن يؤدي كل ما من شأنه إلحاق الإهانة بخصمه القديم ، ريموند . وفي بيت المقدس، ما من أحد التزم باليمين التي أقسمها سوى مقدم الاسبتارية . وحظيت سبيللا بقدر كبير من العطف ، من قِبل سكان بيت المقدس ، لأنهـا كانت تمثل حق وراثة الحكم ؛ فعلى الرغم من ان ولاية العرش ما زالت من الناحية الاسمية انتخابية ، فلم يكن من اليسير إغفال دعاوى الوارث الشرعي . فحينما تمّ طلاق أمها ، تم التصديق على شرعية بنوّة سبيللا . وكان أخوها ملكاً ، وكذا كان ابنها ملكاً. وكل ما يلصق بها من عيب ، أن زوجها كان بغيضاً يدعو للازدراء.

وأغلق البطريرك والداوية أبواب بيت المقدس ، وأقاموا عليهـا الحراس ، لمنع كل هجوم من قبل البارونات المجتمعين في نابلس . ثم أعدوا التدابير اللازمة لحفلة التتويج . فالمعروف ان الرداء الملكي يجري حفظه في صندوق ، أحكم إغلاقه بثلاثة أقفال ، كانت مفاتيحها في حوزة البطريرك ومقدمي الداوية والاسبتارية ، احتفظ كل منهم بواحد من هذه المفاتيح . ورفض روجر مقدم الاسبتارية ان يقدم مفتاحه ، لا لغرض سوى انه يعتبر ذلك مخالفاً لليمين التي أقسمها، غير انه قذف به آخر الأمر من النافذة فيشيء من الاستهجان والزراية. على انه لن يشترك هو ، ولا احد من فرسانه في الاحتفال ، الذي سوف يجري متى تم إعداد كل شيء . ونظراً لما يكنه الناس من كراهية لجاي ، قـام البطريرك بتتويج سبيللا وحدها . على ان تاجاً آخر تقرر وضعه الى جانبها ، وبعد ان فرغ البطريرك هرقل من تتويجها ، طلب اليها ان تستخدمه في تتويج من تعتقد انه جدير بحكم المملكة . فدعت جاي للاقتراب منها، فركع أمامها، فوضعت التاج على رأسه . وعندئذ أقسم الجمع الحاضر يمين الولاء للملك والملكة

الجديدين . وبينما كان جيرار ريدفورت يتجول خــارج الكنيسة ، صاح بأعلى صوته ان هذا التتويج يعيد الى خاطره الزيجة التي حدثت في البطرون [١].

لم يكن بوسع المحكمة العليا بنابلس ان تقرر شيئاً إزاء مـــا وقع فعلاً من تتويج سبيللا وجــاي . نهض بلدوين ابلين في الجمعية ، وقال انه بالاصالة عن نفسه ، سوف لا يقيم ببلد يحكمه ملك مثل جاي ، ونصح سائر البارونات على ان يحتذوا به . غير ان ريموند ردّ انه لم يضع بعد كل شيء . اذ قال انه مــا زال معهم الاميرة ايزابيلا وزوجها همفري سيد تبنين ، فليجر تتويجهما ، والتوجه بهما الى بيت المقدس . وليس بوسع خصومهم ، باستثناء رينالد شاتيون، الوقوف في وجه جيوش البارونات المتحدة ، وعطف الاسبتارية . وأضاف ريموند انــه طالما بقي وصياً على العرش ، فإن بوسعه ان يؤكد ان صلاح الدين سوف يحافظ على الهدنة . وظفر ريموند بموافقــة البارونات ، فأقسموا على تأييده ، ولو أدى ذلك الى نشوب حرب اهلية ، غير انه ليس لهم قيمة ، طالما لم يكن فيهم احد من زعماء الفريقين . إذ ارتاع همفري لمـا ينتظره من مصير ، فلم يود ان يكون ملكاً ، ولذا بادر بالتسلل من نابلس ، وامتطى جواده متوجهاً الى بيت المقدس، حيث طلب ان يقابل سبيللا . فهزأت به اول الأمر ، غير انهـــا لم تلبث ان ترفقت به ، وجعلته يروي كل قصته ، بعد ان وقف كسير النفس امامها، يحك شعر رأسه ، وتلطفت في الإنصات اليه ، ثم صحبته للالتقــاء بجاي ، فأقسم له يمين الولاء [٢].

---

(١) انظر ما سبق ص ٦٥٥ .

(٢) انظر : Ernoul, pp. 129 - 136.

أورد ارنول أوفى رواية . =

والواقع ان ما ارتكبه همفري من خطأ ألحق الهزيمـــة بالبارونات ، فأحلهم ريموند من يمين الولاء التي أقسموها ، وأخذوا يتوجهون الى بيت المقدس ، الواحد بعد الآخر ، ويعلنون إذعانهم لجاي . بل ان باليان ابلين الذي يعتبر أجدرهم بالاحترام ، رأى انه ليس بوسعه ان يفعل سوى ذلك . أما شقيقه بلدوين فإنه كرّر ما اتخذه من قرار ، بأنه لخير له ان يغادر البلاد ، ولا يقبل جاي ملكاً . ولجأ ريموند كونت طرابلس الى املاك زوجته بالجليل ، وقد اقسم ايضاً انه لن يبذل مطلقاً الولاء للملك الجديد ، لقد كان مخلصاً في قبول ايزابيلا ملكة ، غير ان ما اتصف بـه همفري من الجبن أقنعه انه اضحى الشخص الوحيد الجدير بالترشيح لعرش المملكة [1] .

=

Estoire d'Eracles, II. pp. 25 - 31.

Radulph of Diceto, II. p. 47.

Arnold of Lubeck, pp. 116 - 117.

وحدد المصدران الاول والثاني ، وهمـــا اكثر المصادر صدقاً ، تاريخ التتويج بأن جعلاه في سبتمبر ، بينما اورده رادولف في اغسطس ، أما ارنولد لوبك فجعله في ٢٠ يوليه . وأول وثيقة باسم جاي ، مؤرخة في اكتوبر . انظر :

Rohricht, Regesta, p. 837.

(١) من الجلي ان يعتبر ريموند نفسه مرشحاً لولاية العرش ، ويشير ابن جبير الى ما تردد من شائعات عن طموحه الذي يرجع الى زمن مبكر ، الى سنة ١١٨٣ . انظر :

Ibn Jubayr, p, 304.

وروى ابو شامة عن عمـــاد الدين الاصفهاني ان ريموند كان مستعداً لاعتناق الاسلام ، حتى يحقق رغبته . انظر :

Abu Shama, pp. 257 - 258.

ويروي ابن الأثير ان ريموند كان يعول على مساعدة صلاح الدين . انظر :

Ibn al - Athir, p. 647.

ويشير مصدر متأخر (Historia Regni Hierosolymitani, pp. 51 - 52.) الى ان دعواه للحصول على التاج يرجع الى ان امه دولكس، حسبما ورد في المصدر، قد وُلدت بعد =

اول جمعية للملك جاي سنة ١١٨٦ :

لم يلبث جاي ان عقد في عكا اول جمعية للبارونات ، ولم يظهر ريموند في هـذه الجمعية ، وأعلن جاي انه تقرر نزع بيروت من ريموند ، الذي حازها باعتباره وصياً ، وأرسل اليـه إخطاراً بأن يقدّم حسابات عن الاموال العامة التي أنفقها اثنـاء وصايته . أما بلدوين ابلين الذي شهد الجمعية ، فإن رينالد شاتيون ، الذي كان يقف الى جانب الملك ، دعاه الى ان يحلف يمين الولاء للملك . غير ان بلدوين ابلين اكتفى بأن أدّى للملك تحية شكلية ، بعد ان أنهى اليه انه ترك اراضيه بالرملة الى ابنه توماس ، الذي سوف يبذل له الولاء متى شبّ وكبر ، أمـا هو فلن ينتمي اليه مطلقاً . ثم غادر بلدوين ابلين المملكة ، بعد بضعة ايام ، ودخل في خدمة بوهمند امير انطاكية ، الذي تلقاه بالترحاب والسرور ، وجعل له اقطاعاً تزيد مساحته على الاقطاع الذي تخلى عنه . ولحق بـه في انطاكية سادة آخرون يقلّون عنه مكانة . والواقع ان بوهمند لم يخفِ عطفه على ريموند وصَحْبه [١] .

= تتويج ابيها ، بينما جرت ولادة ميليسيند قبل التتويج . ولو ان صغرى بنات الملك بلدوين الثاني ، وهي يوفيتا رئيسة الدير ولدت في فراش الملك ، لما لجأ الى استخدام هذه الحجة . ولعله عرض حجة مشابهة حتى يحمل البارونات في نابلس على اختيار ايزابيلا ، لا سبيلا ، ولكن المؤرخ أثار الاضطراب في الرواية .

(١) انظر :
Ernoul, pp. 137 - 139.
Estoria d'Eracles, II. p. 33.
Les Gestes des Chiprois, p. 69.

ورد في هـذا المصدر ما يشير الى ان جاي كان يودّ ان ينزل الأذى ببلدوين ابلين ، ولم يمنعه من ذلك إلا شرف أصله ونسبه .

وإذ تمزقت المملكة الى أحزاب متعادية ، كان من الخير ان تظل الهدنة المعقودة مع المسلمين قائمة . كان جاي يود المحافظة على هذه الهدنة ، غير انه كان يمضي في تفكيره منفرداً عن صديقه رينالد شاتيون . وبفضل ما تنطوي عليه الهدنة من بذل الحماية ، صارت القوافل التجارية الكبيرة التي تتردد بين دمشق ومصر ، تجتاز بلاد الفرنج من جديد دون ان تصادف ما يعوق طريقها . وحدث في نهاية سنة ١١٨٦ ان قافلة ضخمة ، ارتحلت من القاهرة في حراسة قوة صغيرة من العساكر المصريين ، لحمايتها من البدو المغيرين ، وبينما كانت تتجه الى مؤاب ، انقض عليها فجأة رينالد شاتيون ، فقتل العساكر ، وحمل الى قلعته بالكرك التجار وأسرائهم وما في حوزتهم من أمتعة ، وتجاوزت الغنيمة في الضخامة كل ما سبق ان حازه . ولم تلبث أنباء الاعتداء أن بلغت صلاح الدين ، ولحرص صلاح الدين على احترام المعاهدة ، ارسل الى رينالد شاتيون ، يطلب اليه اطلاق سراح جميع الاسرى ، وبذل تعويض عن خسائرهم . غير أن رينالد شاتيون رفض استقبال رسل صلاح الدين ، فتوجهوا الى بيت المقدس ، ورفعوا شكواهم الى الملك جاي. فاهتم جاي بالاستماع الى هـــذه الشكوى ، وأمر رينالد شاتيون بأن يؤدي التعويضات . غير ان رينالد لم يحفل بأمر الملك ، لما يعلمه بأن الملك جاي يدين الى مساندة رينالد في اعتلاء العرش والاحتفاظ به ، ولم يكن بوسع جاي ، ولم يشأ ايضاً ، ان يفرض على رينالد شاتيون ان يطيعه [1] .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II. p. 34.

ورد في هذا المصدر ان اخت صلاح الدين كانت من بين أسرى هذه القافلة . والواقع انهـــا قدمت من مكة في قافلة اخرى ، سبقت هذه القافلة في القدوم الى الشام. انظر ما يلي ص٧٣٤.

Abu Shama, pp. 259 - 261.

اتهام ريموند بالخيانة سنة ١١٨٧ :

ما حدث من نقض الهدنة ، بهذه الصورة الوقحة ، جعل الحرب أمراً لا مفر منه ، وهي حرب لم تكن البلاد المنقسمة على نفسها مستعدة لمواجهتها ، فأسرع بوهمند امير انطاكية الى تجديد الهدنة مع صلاح الدين [١] . وعقد ريموند كونت طرابلس هدنة لصالح كونتيته ، وأمدها حتى شملت امارة زوجته بالجليل ، على الرغم من ان الملك ، الذي له السيادة على الجليل ، قد يشتبك في حرب مع المسلمين . وظفر ريموند في الوقت نفسه بعطف صلاح الدين ووعده بمساندته في تحقيق الغرض الذي ينشده ، بأن يجعل نفسه ملكاً ، وبرغم ما كان من سلامة سياسة ريموند ، فلا شك انها انطوت على الخيانة . وبفضل تشجيع جيرار مقدم الداوية ، استدعى جاي اتباعه الموالين له ، وتوجه بهم صوب الشمال الى الناصرة ، لإخضاع الجليل لسيادته ، قبل ان يبدأ الهجوم الاسلامي . والواقع ان الحرب الاهلية لم يدرأها إلا تدخل باليان ابلين ، الذي سأل الملك في خشونة عند وصوله الى المعسكر الفرنجي ، ما الذي يفعله . ولما أجاب الملك جاي انه في طريقه لمنازلة طبرية ، أشار باليان الى حماقة الخطة ، لأن ريموند يتفوق على الملك بقوة عساكره ، بفضل مساعدة المسلمين ، الذين كان بوسعه ان يدعوهم لنصرته ، فطلب باليان الى الملك ان يرسله ، بدلاً من إقدامه على مهاجمة الجليل ، الى ريموند للتحدث اليه . غير ان دعوة باليان للوحدة لم يكن لها نتيجة عند الكونت ريموند ، الذي لن يقبل الخضوع للملك جاي ، إلا اذا عادت

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 109.

بيروت اليـه . واعتقد جاي ان الثمن باهظ [1] . ولمـا جاءت الأنباء عن استعدادات صلاح الدين للحرب المقبـلة ، تحدث باليان مرة أخرى مع الملك في الوفاق مع ريموند . اذ قـال له « لقد خسرت بمقتل بلدوين سيد الرملة ، خير فارس عندك » مشيراً بذلك في اعتزاز الى أخيه . « فإذا خسرت ايضاً مساعدة الكونت ريموند ونصيحته ، انتهى امرك » . وإذ درج جـاي على ان يكون مستعداً لأن يوافق كل من يشتدّ في الحديث معه ، سمح لباليان أن يتوجه مع جوزياس رئيس أساقفة صور ، ومقدمي الاسبتارية والداوية ، في سفارة اخرى الى طبرية . وكان لا بد ان يشترك مقدم الداوية ، ألدّ عدو لريموند ، في كل ما يصح الوصول اليه من تسوية سلمية [2].

وخرج مبعوثو الملك من بيت المقدس في ٢٩ ابريل سنة ١١٨٧ ، في حراسة عشرة من فرسان الاسبتارية . فأمضوا تلك الليلة بقلعة باليان في نابلس ، وإذ تحتم على باليان ان ينصرف الى عمل آخر ، أخطر مقدمي الاسبتارية والداوية ورئيس الاساقفـة ان يسبقوه في المسير ، إذ سوف يُمضي النهار بنابلس ، ثم يلحق بهم في الغد ، في قلعة الفولة ، في سهل يزرعيل (شمال جبل الكرمل) . وفي مساء ٣٠ ابريل سنة ١١٨٧ غادر باليان نابلس في عدد قليل من غلمانه ، وقـد وطّد العزم على ان يسير

(١) انظر : Ernoul, pp. 141 - 142.
Estoire d'Eracles, II. pp. 31 - 35.
يذكر ارنول ان ريموند تلقى فعلاً أمداداً من صلاح الدين .

(٢) انظر : Ernoul, pp. 142 - 143.
وكان المفروض ان يشترك في الوفد رينالد سيد صيدا ، غير انه توجه الى ريموند وحده .

طوال الليل ، غير انه تذكّر فجأة ان هـذه الليلة تطابق عيد القديسين فيليب وجيمس ، فانحرف عن الطريق عند سبسطية ، المعروفة بالسامرة عند القدماء ، ثم قرع باب دار الاسقف . فاستيقظ الاسقف ، ودعاه الى الدخول ، ثم جلسا يتحدثان طوال الليل حتى لاح الفجر ، فأدّيا القداس ، ثم ودّع ريموند باليان واستأنف سيره .

وبينما كان باليان يناقش غلمانه ، في ٣٠ ابريل سنة ١١٨٧ ، في بعض الامور ، ويتخذ مقدما الاسبتارية والداوية طريقهما على التلال الى الفولة ، كان الكونت ريموند يستقبل في طبرية رسولاً من قِبل المسلمين في بانياس . ذلك ان الافضل ، وهو ابن صغير لصلاح الدين ، وقائـــد المعسكر في بانياس ، تلقى امراً من والده بأن يرسل قوة استطلاعية الى فلسطين ، فرأى انـــه من الصواب ان يستأذن لرجاله ، لاجتياز اراضي الكونت ريموند في الجليل . ونظراً لمـــا ارتبط به ريموند من معاهدة خاصة مع صلاح الدين ، لم يكن بوسعه ان يرفض هذا الطلب المثير للحرج والحيرة . وكل ما اشترطه ريموند ، أنه ينبغي على المسلمين ان يجتازوا الحدود بعد طلوع نهار يوم غد ، وأن يعودوا قبل حلول الظلام ، وينبغي ألا يلحقوا أضراراً بكل مدينة او قرية في البلاد التي يجتازونها . ثم ارسل ريموند من قِبله مبعوثين يطوفون باقطاعه ، ليخطروا السكان ان يبقوا مع قطعانهم بداخل الأسوار طوال اليوم ، وألا يتطرق اليهم الخوف . وفي تلك اللحظة سمع ريموند بقدوم الوفد من بيت المقدس ، فوجّه ريموند رسالة اخرى الى الوفد تحمل اليه هذا التحذير . وفي الصباح المبكر من اول مايو سنة ١١٨٧ ، شاهد ريموند من قلعته الامير كوكبوري في سبعة آلاف من مماليكه يجتازون القلعة فرحين مبتهجين .

وحوالي ضحى ذلك اليوم ، وصل الى الفولة باليـان ورفاقه ، وشاهدوا من مسافة بعيدة ، خيام الداوية مضروبة تحت الأسوار ، فلما اقتربوا منهـا ألفوها خالية ، وخيّم السكون على القلعة . ودلف ارنول ، سائس باليان ، الى داخل البناء ، وصار يطوف به ، من حجرة الى حجرة ، فـلم يصادف سوى اثنين من العساكر ، يرقدان في رواق علوي ، وقــد بلغ بهما المرض حدّ الموت ، فلم يستطيعا الكلام . فاشتدت حيرة باليان وقلقه ، فظل نحو ساعة أو ساعتين ، لم يدرِ على وجه التحقيق ما يفعل ، ثم استأنف سيره الى الناصرة . ثم ظهر فجأة فارس من الداوية ، أشعث الشعر ، تنزف دمـاؤه ، يركض بحصانه ، ويصيح بأعلى صوته بما حلّ من فاجعة كبيرة مروعة .

وفي تلك الساعة شهد ريموند بطبرية ، العساكر المماليك راكبين عائدين الى بلادهم . وقد التزموا بالعهد ، اذ جرى كل شيء على وجهٍ سليم قبــل حلول الظلام ، ولم يلحقوا ضرراً بأي بناء في الاقليم ، غير ان فرسان المقدمة رفعوا على أسنة رماحهم رؤوس فرسان الداوية .

وقعة عيون كريسون سنة ١١٨٧ :

وصلت رسالة ريموند الى مقدمي الدوية والاسبتارية بالفولة في مساء يوم ٣٠ ابريل سنة ١١٨٧ . ومع ان روجر مقدم الاسبتارية احتج على هذه الرسالة ، فإن جيرار مقدم الداوية ، بادر على الفور الى استدعاء الداوية من الجهات المجاورة ، للحاق به في الفولة . اذ كان مارشال الداويـة ، جيمس مايللي في تسعين فارساً بقرية قاقون على مسافة خمسة اميال من الفولة ، فقدم وأمضى ليلته أمام القلعة . وفي صبيحة اليوم التالي ، ركب الحشد الى الناصرة ، حيث انحاز اليهم أربعون فارساً علمانياً ، وبقي بالناصرة رئيس أساقفة صور ، بينما لم يتوقف جيرار عن

السير إلا ليهتف بأهل المدينة ان المعركة وشيكة الوقوع ، وينبغي عليهم ان يقدموا ليجمعوا الغنائم. وبينما كان الفرسان يجتازون التل الواقع وراء الناصرة، شهدوا المسلمين يوردون خيولهم عيون كريسون[1] ، في الوادي الواقع أسفل التل . وعنــد رؤية هذه الأعداد الضخمة ، نصح كل من روجر وجيمس مايللي بالإرتداد. واستبدّ الغضب بجيرار، الذي انصرف في شيء من الازدراء والاحتقار عن زميله مقدم الاسبتارية ، وأخــذ يوجه اللوم الى مارشاله جيمس مايللي ، اذ قال له في زراية ، « إن تعلقك برأسك الأصهب بلغ من القوة ما جعلك تحرص على ألا تفقده» . على ان جيمس مايللي ردّ في كبرياء «سوف أموت في المعركة، رجلاً باسلاً ، أما انت ، فسوف تلوذ بالهرب ، شأن كل خائن » . وإذ اشتدت ثائرة الداوية لما لحق جيرار من إهانات ، حملوا على العساكر المماليك ، والواقع ان كان ذلك مذبحة لا معركة . اذ ان رأس مارشال جيمس الأصهب كان من الرؤوس الاخيرة التي هوت ، كما ان مقدم الاسبتارية سقط صريعــاً الى جانب مارشال جيمس . ولم يلبث ان لقي كل فرسان الداوية مصرعهم ، ما عدا ثلاثة ، كان أحدهم جيرار ، اذ ركضوا بجراحاتهم عائدين الى الناصرة . وتوجــــه أحدهم يلتمس باليان . أما الفرسان العلمانيون فوقعوا في الأسر أحيــاء . وخرج بعض السكان النهمين من الناصرة الى ساحة المعركة يلتمسون الغنيمة التي وعدهم بهــا جيرار ، فجرى تطويقهم وسوقهم الى الأسر .

ولحق باليان بجيرار في الناصرة ، بعد ان ارسل الى زوجته يحثها على حشد

---

(١) تقع بين صفورية وكفر كنة ، قرب حطين . انظر :
Le Strange, op. cit. p. 469.
Groussèt : Histoire des Croisades, II. p. 783, note 2.

كل فرسانها ، وحاول ان يقنع جيرار بالقدوم الى طبرية ، غير ان جيرار اعتذر بجراحه بالغة السوء ، فمضى باليان مع رئيس الأساقفة الى طبرية ، فألفيا ريموند في ذهول شديد من هول الكارثة ، التي أحسّ أنــه كان ينبغي توجيه اللوم الى سياسته عنها ، ولذا قبل عن طيب خاطر وساطة باليان ، فأعلن نقض المعاهدة ، التي عقدها مع صلاح الدين ، وسار راكضاً صوب الجنوب ، الى بيت المقدس ، حيث أعلن خضوعه للملك جاي ، على ان جاي لم ينتقم منه ، لما ارتكبه من أخطاء ، بل رحب به ترحيباً صادقاً ، بل انه اعتذر له عن الطريقة التي تم بها تتويجه ، وتراءت المملكة آخر الأمر انها اتحدت من جديد [1] .

وهذا ما جرى من الجانب الآخر ، إذ كان معروفاً ان صلاح الدين اخــذ يحشد جيشاً ضخماً في حوران عبر الحدود . وبينما اخذت الجيوش القادمة من سائر الامبراطورية تجتمع في مايو سنة ١١٨٧ ، توجه صلاح الدين على الطريق المؤدي الى مكة ، ليتولى حراسة قافلة الحجاج ، التي كان بين أفرادها اخته وابنهــا ، عائدين من المدينة المقدسة ، حتى يطمئن الى ان

---

(١) اورد ارنول بالتفصيل ما حدث ، إذ كان برفقة باليان ، باعتباره سائــاله . انظر :
Ernoul, pp. 143 - 154.
Estoire d'Eracles, II. pp. 37 - 44.
Imad ed - Din, in Abu Shama, p. 262.
يشير ابن الاثير الى ان الافضل بن صلاح الدين ارسل كوكبوري على رأس الحملة ، الــتي قدر عدد رجالها بسبعة آلاف فارس . انظر :
Ibn al - Athir, p. 687.
وورد هذا الرقم في :
Expugnatione, pp. 210 - 211.
غير انه انكر ان ريموند أصر على ألا يلحق الضرر بشيء من الممتلكات ، وحاول ان يبرىء ساحة الداوية . أما الفولة فإنها قرية عربية تقع في منتصف المسافة بين جنين والناصرة .

ريتالد لن يحاول مرة اخرى القيـــام بغارات قطاع الطرق . وفي تلك الأثناء تدفقت العساكر من حلب والموصل وماردين ، حتى أضحى أضخم جيش تولى قيادته صلاح الدين . أما جاي لوزيجنان الذي كان ينزل عبر نهر الاردن فإنه دعا كبار المقطعين وأتباعهم الى ان يلتقوا به مع رجالهم في عكا . وإذ حرص الاسبتارية والداوية على الانتقام لمـا دار من مذبحة في كريسّون ، حشدوا كل ما بوسعهم ان يحشدوه من الفرسان ، فلم يتركوا سوى حاميات صغيرة للدفاع عن القـــلاع الموكول امرها اليهم . وبذل الداوية مساعدة اضافية للملك بأن سلموه نصيبهم في المـال الذي أرسله حديثاً للفرسان الرهبان ، هنري الثاني ملك انجلترا ، للتكفير عن مصرع توماس بيكيت . وسبق اخطار الفرسان الرهبان بأن يستثمروه ، مقابل الحملة التي سبق لهنري ان اقسم على القيام بها ، غير ان الحاجة الحاضرة كانت بالغة الشدة . فالجنود الذين جهزوهم بهذا المـال ، حملوا لواء بشعار هنري الثاني . وإذ تأثر بوهمند امير انطاكية بنداء ريموند وباليان ، وعد بإرسال كتيبة تخضع لقيادة بلدوين ابلين ، وأرسل ابنه ريمونـــد ليلحق بريموند كونت طرابلس ، الذي كان عرّاباً له عند التنصير . فلم ينقض شهر يونيو سنة ١١٨٧ ، حتى اجتمع بالمعسكر المسيحي المقام امام عكا الف ومائتا فارس بكامل اسلحتهم ، وما يزيد على هذا العدد من الخيالة الوطنيين المتخففين ، المعروفين بالتركبولية ، ونحو عشرة آلاف من الرجالة . وتقررت دعوة البطريرك هرقل للقدوم بالصليب المقدس ، غير انه قال إنه معتل الصحة ، وعهد بالأثر المقدس الى مقدم كنيسة القيامة ، كيما يسلمه الى اسقف عكا . على ان أعداءه رووا انه آثر ان يبقى مع عشيقته باشيا .

صلاح الدين يعبر نهر الاردن سنة ١١٨٧ :

وفي يوم الجمعة ، ٢٦ يونيه سنة ١١٨٧ ، استعرض صلاح الدين عساكره في عشترا بحوران ، فتولى بنفسه قيادة قلب الجيش ، وجعل ابن اخيه ، تقي الدين على المجنبة اليمنى ، بينما كان كوكبوري على المجنبة اليسرى . وخرج الجيش في تعبئة القتال الى خسفين ، ومنها توجه الى الطرف الجنوبي لبحر الجليل ، وظل صلاح الدين منتظراً بهذا الموضع مدة خمسة ايام ، بينما قامت كشافته بجمع كل ما يتعلق بالقوات المسيحية من أخبار . وفي اول يوليه سنة ١١٨٧ ، اجتاز صلاح الدين نهر الاردن عند سن النبرة ، وفي اليوم الثاني من شهر يوليه عسكر بنصف جيشه في كفر سبت ، في التلال الواقعة على مسافة خمسة أميال ، الى الغرب من بحيرة طبرية ، بينما هاجمت قواته الاخرى طبرية ذاتها ، فسقطت المدينة في أيديهم ، بعد ساعة اشتبك فيها الفريقان في القتال ، وكان ريموند وأبناء زوجته مع جيش الملك ، غير ان زوجته الكونتيسة ايشيفا (صاحبة طبرية) ، ظلت مع الحامية ، قليلة العدد ، بالقلعة (طبرية) تقاوم الهجوم ، بعد ان أنفذت رسولا الى زوجها ريموند تخطره بما حدث .

ولما وردت الأنباء بأن صلاح الدين اجتاز نهر الاردن ، عقد الملك جاي مجلساً مع باروناته في عكا ، وكان الكونت ريموند اول من تحدث في الاجتماع ، فأشار الى ان الجيش الذي يهاجم في حرارة الصيف اللافحة ، لن تكون الاحوال في صالحه . فينبغي ان تقوم خطتهم الحربية على التزام الدفاع المطلق . فإذا لم يتعرض الجيش المسيحي للهزيمة ، فلن يكون بوسع صلاح الدين ان يبقي على قواته الضخمة فترة طويلة في هذه البلاد الجافة ، اللافحة الحرارة ، وسوف ينسحب بعد فترة وجيزة . وفي الوقت نفسه تصل الامداد من انطاكية ، وكان معظم الفرسان يميلون الى اتباع هذه النصيحة ، غير ان كلاً من رينالد شاتيون ومقدم

الداوية جيرار اتهم ريموند بالجبن ، وانـه باع نفسه الى المسلمين . والمعروف ان الملك جاي كان يعتقد فيما يقوله جيرار ، ولذا أصدر الأوامر الى الجيش بأن يتحرك نحو طبرية .

وعسكر المسيحيون ، بعد ظهر يوم ٢ يوليـه سنة ١١٨٧ في صفورية . والواقع ان صفورية تعتبر من أحسن المواضع الملائمة لأن يقوم بها معسكر ، لما توافر بها من الماء والمراعي لخيولهم . ولو انهم بقوا بهذا الموضع ، مثلما أقاموا بعين جالوت ، منذ أربع سنوات ، لما خاطر صلاح الدين مطلقاً بمهاجمتهم . اذ كان جيشهم يضارع في الضخامة جيش صلاح الدين، بل امتازوا بما اتخذوه من موضع ملائم لمعسكرهم . على انه قدم في ذلك المساء ، رسول من قبل كونتيسة طرابلس . فعقد جـاي للمرة الثانية مجلساً في خيمته ، واشتد تأثر الفرسان ، لما أدركوه من استماتة هذه السيدة الباسلة في الدفـاع عن قلعتها ، عند بحيرة طبرية ، وتوسل أبناؤها ، وقد اغرورقت عيونهم بالدموع ، بأنه لا بد من انقاذ أمهم ، وأعقبهم فرسان آخرون ، يؤيدون ملتمسهم ، ثم نهض ريموند ، فكرر الخطبة التي سبق ان ألقاهـا في عكا ، إنما أكدها في يأس وقنوط . اذ أظهر وجه الحماقة في التخلي عن هذا الموقع الحالي القوي ، والمخاطرة بالسير على جانب التل الاجرد في قيظ شهر يوليه ، ثم قـال ان طبرية مدينته ، وأن زوجته هي التي تتولى الدفاع عنها ، غير انه يؤثر ان تضيع طبرية بكل ما تحويه ، على ان تضيع المملكة ، وحملت كلماته في ثناياها الاقناع، وانفض المجلس في منتصف الليل ، بعد ان تقرر البقاء في صفورية .

ولما انصرف البارونات الى مواطنهم ، انسحب مقدم الداوية ، فرجع الى خيمة الملك . فقـال : « سيدي ، هل أنت مقدم على ان تثق في خائن ؟ » فمن العار ان تترك للضياع ، مدينة لا تبعد عن المعسكر سوى ستة فراسخ . وأعلن

جيرار ان الداوية يؤثرون ان يكونوا اكثر مبادرة الى التخلي عن طائفتهم ، على ان يغفلوا الفرصة التي تهيأت لهم للانتقام من المسلمين. أما جاي الذي كان صادقاً، قبل فترة وجيزة ، في اقتناعه بحديث ريموند ، فإنه أظهر التردد ، وهيأ الفرصة لجيرار للإمعان في تحريضه ، فأرسل المنادين ، يطوفون بالخيام ، ويعلنون أن الجيش سوف يتحرك عند طلوع الفجر الى طبرية .

والمعروف ان خير طريق يؤدي من صفورية الى طبرية يتجه قليلاً نحو الشمال والشرق ، عبر تلال الجليل ، ثم يهبط الى بحيرة طبرية ، على مسافة ميل شمالي المدينة (طبرية)، أما الطريق الآخر ، فإنه يسير الى الجسر المقام عند سن النبرة (الصنبرة)، حيث يتفرع منه طريق يتجه صوب الشمال في محاذاة البحيرة. ويقع معسكر صلاح الدين بكفر سبت ، على الجانب الآخر من طريق سن النبرة ، الذي سلكه صلاح الدين بعد عبور النهر. والراجح ان الخونة تسللوا من المعسكر المسيحي ، وتوجهوا الى صلاح الدين ، فأخطروه ان الملك جاي أخذ يتحرك من صفورية ، على امتداد الطريق الشمالي ، وعندئذ قاد صلاح الدين جيشه نحو خمسة اميال عبر التلال ، حتى بلغ حطين ، حيث أخذ الطريق يهبط نحو البحيرة . وكانت حطين قرية ، غزرت بها المراعي ، وتوافرت فيها المياه ، ولحق بصلاح الدين معظم العساكر من طبرية ، فلم يبق بها من العسكر إلا من دعت الحاجة اليهم لحصار القلعة .

واشتدت الحرارة ، وركد الهواء في صبيحة يوم الجمعة ٣ يوليه سنة ١١٨٧ ، حينما غادر الجيش المسيحي الحدائق الخضراء بصفورية ، وشق طريقه فوق التلال الجرداء . ولما لريموند كونت طرابلس من حق ، وفقاً للعرف الاقطاعي ، باعتباره سيد اقطاع طبرية ، تولى قيادة مقدمة الجيش المسيحي ، بينما كان الملك جاي يقود قلب الجيش ، أمـا رينالد شاتيون ،

ومن معه من الفرسان الرهبان ، وباليان ابلين ، فكان موكولاً لهم مؤخرة الجيش . لم يتوافر الماء على امتداد الطريق ، فلم يلبث الرجال والخيول ان اشتدت معاناتها للظمأ ، وترتب على شدة عنائها وعذابهــا ، أن أبطأت الخطى في سيرها . ودأب رماة المسلمين على مهاجمة مقدمة الجيش المسيحي ومؤخرته معاً ، وأمطروا قلب الجيش بالسهام ، وأسرعوا الى الابتعاد ، قبل ان يبادر الفرنج الى ردّ الهجوم . ووصل الفرنج ، بعد الظهر ، الى الهضبة التي تشرف على حطين مباشرة ، وكان يقع أمامهم تل صخري ، تعلوه قمتان على ارتفــاع نحو مائة قدم ، ومن خلفه هبطت الارض في انحدار شديد الى القرية ، والى البحيرة . واشتهر هذا الموضع باسم قرون (قرني) حطين . وأرسل الداوية الى الملك جاي ، يخطرونه بأنهم سوف لا يمضون في سيرهم في ذلك اليوم الى ابعــد من ذلك ، غير ان بعض البارونات التمسوا من الملك ان يصدر الأمر الى الجيش بأن يسرع السير ، وأن يشق طريقه الى البحيرة . على ان الملك جاي ، قرر التوقف تلك الليلة ، بعد ان اشتد تأثره لما حلّ برجاله من التعب والإرهاق . ولم يكد ريموند يعلم بهذه الانباء حتى ركب من المقدمة ، وأخذ يصيح : « يا لله ، انتهت الحرب ، لقد هلكنا ، وزالت المملكة » . وبناء على نصيحة ريموند ، أقام جاي معسكره خلف لوبية مباشرة ، تجاه منحدر قرون حطين ، حيث تقع بئر ، والتفّ كل الجيش حول ريموند ، غير ان اختيــار الموضع كان سيئاً ، نظراً لجفاف البئر .

أما صلاح الدين الذي عسكر بجنده في الوادي المعشب من تحتهم ، فإنه لم يستطع ان يكتم فرحه وسروره ، اذ حانت له آخر الأمر الفرصة التي ينشدها .

أمضى المسيحيون ليلتهم في بؤس ، يستمعون الى مـا تردد في خيام المسلمين من تحتهم ، من الأدعية والأناشيد . وانطلق من المعسكر المسيحي جماعة من العساكر لالتماس الماء ، غير ان محاولتهم ضاعت هبـــاء ، بل انهم لقوا مصرعهم على أيدي المسلمين . وكيما يزيد المسلمون في عناء المسيحيين ومتاعبهم ، أشعلوا النار في الاعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي التل ، فغشى المعسكر المسيحي الدخان الساخن . وفي جنح الظلام ، حرّك صلاح الدين رجـــاله ، فما كاد يبزغ فجر يوم السبت ٤ يوليه سنة ١١٨٧ ، حتى تم تطويق جيش الملك جاي . ويقول احد المؤرخين ، انه ليس بوسع قطّ ان يفلت من الشبكة المنصوبة .

يوم حطين ٤ يوليو سنة ١١٨٧ :

لم يلبث المسلمون أن بدأوا الهجوم عقب طلوع النهار ، ولم يخطر بخلد الرجالة المسيحيين إلا فكرة واحدة ، تدور حول الماء ، اذ حاولت جماعة كبيرة منهم ان تشق لها طريقاً على المنحدر المؤدي الى بحيرة طبرية التي تلمع مياهها تحت التل ، غير أنه جرى ردّهم الى التل ، وقد غشاهم من كل جانب لهيب الحرائق ، وطوقهم المسلمون من كل جانب ، فلقي عدد كبير مصرعهم على الفور ، بينما وقع آخرون في الأسر ، وكان منظر المسيحيين، وهم يرقدون على الارض جرحى ، وقـد تورمت أفواههم ، يثير من بالغ الألم ، ما حمل خمسة فرسان ينتمون لريموند على التوجه الى قادة المسلمين ، يتوسلون اليهم ان يجهزوا عليهم ، حتى ينتهي عذابهم . أما الفرسان الذين اتخذوا أماكنهم على التل ، فإنهم استماتوا في القتال ، في شجاعة وبسالة نادرة ، اذ ردوا حملات المسلمين ، الواحدة بعد الاخرى ، وكبدوهم خسائر فادحة ، غير أن أعدادهم أخذت تتضاءل ، وبدأت قواتهم في الانهيـار ، بعد ان

أضعفها الظمأ الشديد . وبناء على طلب الملك ، وقبل فوات الوقت ، قاد ريموند فرسانه ، محاولاً اقتحام خطوط المسلمين ، فحمل بكل رجاله على القوات التي يقودها تقي الدين ، ابن أخي صلاح الدين ، فافسح له تقي الدين الصفوف حتى اذا نفذ ريموند منها بفرسانه ، سدّ تقي الدين هذه الثغرة ، فلم يستطيعوا العودة الى رفاقهم ، فركبوا من ساحة القتال ، وقد استبد بهم البؤس ، واتخذوا طريقهم الى طرابلس . ولم يلبث باليان ابلين ورينالد سيد صيدا أن شقا لهما بعد فترة قصيرة ، طريقاً الى خارج ارض المعركة ، فكانا آخر من هرب .

لم يعد عند المسيحيين بارقة أمل ، ومع ذلك ظلوا يقاتلون ، أثناء انسحابهم الى قمتي التل المعروفتين بقرون حطين ، وتقرر نقل خيمة الملك الحمراء ، ونصبها بأعلى القمة ، والتف الفرسان حوله . وشهد الأفضل ، من أبناء صلاح الدين الصغار ، اول معركة في حياته ، بينما كان يقف الى جانب والده . وبعد انقضاء سنوات عديدة ، أشاد الأفضل بشجاعة الفرنج اذ قال : « حينما انسحب الملك الى قمة التل ، قام فرسانه بهجوم رائع ، وردوا المسلمين على أبيه ، وقد شهدت اضطرابه ، اذ تغير لونه وصار يمسك بلحيته ، ثم انطلق صائحاً : « فلتشدوا على الشيطان الكاذب » ، وعندئذ انقضّ رجالنا على العدو ، الذي ارتد الى التل ، وحينما رأيت الفرنج يفرون ، صرخت فرحاً مسروراً « لقد هزمناهم » . غير أنهم حملوا مرة اخرى ، وردوا رجالنا ، مرة اخرى ، الى حيث يقف والدي ، وحث والدي الرجال للمرة الثانية ، على ان ينطلقوا لقتالهم ، فدفعوا العدو الى أعلى التل ، فصحت مرة اخرى : « لقد هزمناهم » ، غير ان والدي التفت اليّ وقال ، فلتلتزم السكون ، اذ لم نهزمهم طالما ظلت خيمة الملك قائمة

بأعلى التـــل » . وفي تلك اللحظة ، هوت خيمة الملك ، وعندئذ ترجل والدي عن فرسه وسجد على الأرض ، وقد امتلأت عيناه بالدموع فرحاً جذلاً ، وأخذ يشكر الله ويحمده .

في خيمة صلاح الدين سنة ١١٨٧ :

لقي أسقف عـكا مصرعه ، فأضحى بحوزة المسلمين الصليب المقدس ، الذي كان يحمله أثناء المعركة ، ولم يفلت من الهلاك من خيل الفرسان سوى عدد ضئيل . ولما بلغ المنتصرون الظافرون قمة التل ، ألفوا الفرسان ، وبينهم الملك ، قـد افترشوا الارض ، وبلغ بهم التعب والإرهاق أشده ، فأضحوا عاجزين عن القتال ، بـــل انهم لم يكن لديهم من القوة مـــا تجعلهم يسلمون سيوفهم ، للدلالة على الإذعـان ، وجرى حمل قادتهم الى الخيمة التي تقررت إقامتها للسلطان على ساحة المعركة [١] .

واستقبل صلاح الدين في هذه الخيمة ، الملك جاي ، وشقيقه الكندسطبل أماريك ، ورينالد شاتيون ، وابن زوجته ، همفري سيد تبنين ، فضلاً عن عدد كبير من صغار بارونات المملكة . فحياهم صلاح الدين في لطف وبشاشة، وأجلس الملك جاي الى جانبه ، وإذ شهد ما حلّ به من الظمأ ، ناوله كأساً امتلأ بالجلاب ، الذي أثلجه ما وضع بـــه من قطع الثلج الوارد من جبـــال الثلج (Hermon) ، فشرب منه جاي ، ثم سلمه الى رينالد الذي كان يجلس الى جانبه . ووفقاً لقوانين الضيافة العربية ، متى جرى

(١) انظر الملحق الثاني ، عن الروايات المعقدة المتناقضة التي وردت في وصف معركة حطين.

بذل الطعام أو الشراب للأسير ، فإن ذلك معناه ، الإبقـاء على حياته ، ولذا بادر صلاح الدين بأن قـال للمترجم : « فلتخطر الملك أنه هو الذي أعطى ذلك الرجل الشراب ، ولم أناوله أنا الشراب » . ثم التفت الى رينالد ، الذي لم يغفر له ما ارتكبه من اعمال النهب والسلب المنافية للدين ، وأخذ يذكره بجرائمه وخيانته ، وغدره ، وعدم التزامه بقواعد الدين ، فضلاً عن نهمه وشراهته ، ولما ردّ رينالد شاتيون في خشونة وقسوة ، سلّ صلاح الدين سيفه وأطاح رأسه ، فارتعد جاي ، وظن انه سوف يحل دوره . غير ان صلاح الدين طمأنه ، حين قال : « ان الملك لا يقتل ملكاً » ، غير ان ما ارتكبه ذلك الرجل من الخيـانة تجاوز كل حدّ ، ثم أصدر صلاح الدين الأوامر بأن لا يتعرض للأذى البارونات العلمانيون ، بل ينبغي أن يلقوا في أسرهم الاحترام والمروءة ، غير أنه لم يودّ ان يبقي على حياة احد من الفرسان الرهبان ، باستثناء مقدّم الداوية . والمعروف أنـــه كان بجيش صلاح الدين جماعة من المتصوفة الزهّاد ، فعهد اليهم صلاح الدين بالإجهاز على الأسرى من الداوية والاسبتارية ، فاغتبطوا للقيام بهذا العمل . فلما تم ذلك ، تحرك صلاح الدين بجيشه من حطين ، وما تناثر على ساحة القتال من جثث القتلى ، هرع اليها الضباع وابن آوى .

وجرى حمـــل الاسرى الى دمشق ، حيث تهيأت للبارونات أسباب الراحة في معتقلهم ، بينا تقرر بيع الاسرى الفقراء في سوق الرقيق ، وبلغ من كثرة الاسرى بهذه السوق ، ان هبط سعر الاسير الواحـد الى ثلاثة دنانير ، وأضحى بوسع الشخص ان يشتري أسرة سليمة بأكملها ، مؤلفة من رجل ، وزوجته ، وأبنائه الثلاثة ، وابنتين ، بثمانين ديناراً ، بل

ان احد المسلمين اعتبر ما أجراه من مبادلة نعليه بأسير صفقة رابحة [1].

سبق للمسيحيين في الشرق ان تعرّضوا للكوارث ، إذ وقع في الأسر ملوكهم وأمراؤهم ، غير ان آسريهم لم يكونوا وقتذاك سوى امراء صغار ، لم يستهدفوا إلا إحراز بعض الكسب ، على حين جرت في قرون حطين إبادة اضخم جيش لم تحشد المملكة مثله من قبل ، وضاع الصليب المقدس ، وكان المنتصر سيد العالم الاسلامي بأكمله .

إذعان فلسطين لصلاح الدين سنة ١١٨٧ :

لم يبق امام صلاح الدين ، بعد ان دمّر أعداءه ، سوى ان يحتل حصون الارض المقدسة ، ففي ٥ يوليو سنة ١١٨٧ ، سلمت كونتيسة طرابلس طبرية الى صلاح الدين ، بعـــد ان علمت انه لن تصل اليها مساعدة ، فعاملها صلاح الدين بما يليق بها من الحفاوة والتشريف ، وأذن لهـــا ولحاشيتها بالتوجه الى طرابلس [2] . ثم تحرك صلاح الدين بمعظم جيشه الى عكا . ولم يفكر حاكم المدينة ، الصنجيل جوسلين كورتيناي إلا في سلامته ، فأرسل

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 114 - 115.
Kemal ed - Din, ed. Blochet, pp. 180 - 181
اورد ابن العديم رواية مختلفة ، انما تحمل نفس المعنى، ويروي ايضاً ارنول نفس القصة. انظر:
Ernoul, pp. 172 - 174.

(٢) انظر : Ernoul, p. 171.
Estoire d,Eracles, II. p. 69.
Abi Shama, pp. 266 - 267.

احد سكان المدينة ، واسمه بطرس برايس ، فالتقى بصلاح الدين عند وصوله الى اسوار المدينة (عكا) ، في ٨ يوليو سنة ١١٨٧ ، وعرض عليه تسليم المدينة ، اذا كفل صلاح الدين للسكان حياتهم وأمتعتهم . وتراءى لعدد كبير من سكان المدينة ما ينطوي عليه هـــذا التسليم الذليل من الخزي والعار . فوقعت بالمدينة (عكا) فتنة لم تستمر طويلاً ، احترقت فيها دُور عديدة ، غير ان الامن عاد الى نصابه قبل ان يتملك صلاح الدين المدينة رسمياً في ١٠ يوليو سنة ١١٨٧ . وكان صلاح الدين يأمل في اقناع معظم التجار المسيحيين بالبقاء فيها (عكا) . غير انهم خافوا ما سوف يحدث مستقبلاً ، فغادروها بكل أموالهم المنقولة . أما المستودعات الضخمة الحافلة بالسلع التجارية ، من الحرير والمعادن ، والجواهر ، والأسلحة ، التي تركها التجار وراءهم ، فقد وزعها على العساكر وسائر الرفاق ، الفاتحون ، ولا سيما الافضل ابن صلاح الدين الذي تولى حكومة المدينة (عكا) . واشتد غيظ صلاح الدين لما أقدم عليه تقي الدين من نهب معاصر السكر [١] . وبينما أقام صلاح الدين في عكا ، توجهت السرايا من جيشه لتتلقى إذعان المدن والقلاع بالجليل والسامرة ، وصمدت حامية باليان في نابلس بضعة ايام ، ولم تذعن إلا بعد ان حصلت على شروط مشرّفة ، وظلت قلعة تبنين على مقاومتها حتى استسلمت حاميتها بعد اسبوعين ، ولم تحدث إلا مقاومة ضئيلة في غير

---

(١) انظر :

Ernoul, loc. cit.
Estoire d'Eracles, II. pp. 70 - 71
Abu Shama, pp. 295 - 297.
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 116.
Ibn al - Athir, pp. 688 - 690.

هذين الموضعين[1] . وفي تلك الأثنـــاء ، قدم من مصر ، العادل شقيق صلاح الدين ، فألقى الحصار على يافا ، ولمـــا لم تذعن له المدينة ، استولى عليها عنوة ، وأسر كل من بها من السكان ، من الرجال والنساء والاطفال ، واتخذ معظمهم طريقه الى اسواق الرقيق ودور الحريم بحلب[2] .

ولما تمّ فتح الجليل ، تحرك صلاح الدين على امتداد الساحل الفينيقي ، إذ هرب الى صور باليان وبصحبته معظم من بقي على قيد الحيـاة من معركة حطين . واشتهرت صور بضخامة حاميتها ، وبمناعة اسوارها التي تحميها من جهة البر . ولمـــا فشل اول هجوم وجهه صلاح الدين اليها ، تجاوزها الى غيرها من المدن . فأذعنت صيدا في ٢٩ يوليو بدون قتال . وهرب سيدها ، رينالد ، الى حصنه المنيـع ، شقيف ارنون ، الذي يقع في داخل البلاد . وحاولت بيروت الدفاع عن نفسها ، غير انها أذعنت في ٦ اغسطس ، ولم تلبث جبيل ان رضخت بعـد ستة ايام اخرى ، بناء على اوامر سيدها هيو امبرياكو ، وفقاً لمـــا اشترطه عليه صلاح الدين عند

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II. p. 68.
De Expugnatione, pp. 31 - 34.
Beha ed - Din, loc. cit.
(لم يشر إلا الى تبنين) .
Abu Shama, pp. 300 - 306.
Ibn al - Athir, loc. cit.

(٢) انظر :
Ibn al - Athir, pp. 690 - 691.
اشترى ابن الاثير من سوق حلب جارية صغيرة ، فقدت زوجها وأطفالها الستة . انظر ايضاً:
De Expunatione, p. 229.

اطــلاق سراحه . ولم ينقض شهر اغسطس سنة ١١٨٧ ، حتى لم يبق للمسيحيين جنوبي طرابلس ، سوى صور ، وعسقلان ، وغزة ، وبضع قلاع معزولة ، ثم المدينة المقدسة ، بيت المقدس[١] .

وفي سبتمبر سنة ١١٨٧ ، ظهر صلاح الدين امام عسقلان ، وقد اصطحب أهم أسيرين عنده ، الملك جاي ، ومقدم الداوية جيرار . وجرى إخطار الملك بأنــه لن يظفر بحريته إلا باستسلام عسقلان ، فلما أضحى امام اسوار عسقلان خاطب سكانها بصوت مرتفع ، وأبلغهم بأن يكفوا عن القتال ، وانحاز جيرار الى الملك في دعوته ، غير ان اهل المدينة لم يردوا عليها إلا بتوجيه الشتائم لهما . فاستبسلت عسقلان في الدفاع عن نفسها ، وكلف حصارها مصرع اثنين من امراء صلاح الدين ، غير ان حاميتها أرغمت على الإذعان في ٤ سبتمبر سنة ١١٨٧ . وتقرر السماح لسكانها ان يغادروها ، على ألا يحملوا معهم سوى أمتعتهم ، وتولى عساكر صلاح الدين حراستهم الى مصر ، وجرى توفير اسباب الراحة لهم أثنـــاء مقامهم بالاسكندرية ، حتى تمّ ترحيلهم الى بلاد مسيحية[٢] . وحدث في غزة ،

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. 116 - 117.
Abu Shama, pp. 306 - 310.
Ibn al - Athir, pp. 692 - 693.
De Expuhnatione, p. 236.

(٢) انظر : Ernoul, p. 184.
Estoire d'Eracles, II. pp. 78 - 79.
De Expugnatione, pp. 236 - 238.
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 117.
Ibn al - Athir, pp. 696 - 697.

التي اضطرت حاميتها من الداوية الى ان تطيع أمر مقدم الطائفة بمقتضى قوانين طائفة الداوية ، ان تقرر على الفور تنفيذ أمر جيرار مقدم الداوية ، بضرورة الإذعـان ، وبذا ظفر جيرار بحريته مقابل التنازل عن حصن غزة[1] . غير أن الملك جاي ظـل بضعة شهور اخرى في حبسه ، في نابلس ، ثم في اللاذقية . وتقرر السماح للملكة سبيللا ان تقدم من بيت المقدس للحاق بـه . وحدث ما توقعه صلاح الدين فعلاً ، اذ ان إطلاق سراحهما في الربيع التالي ، أضاف متاعب اخرى الى ما سببه له المسيحيون من ضيق[2] .

---

(١) انظر :
Abu Shama, pp. 312 - 316.
Beha ed - Din, loc. cit.
Ibn al - Athir, p. 697.

(٢) أشار ارنول الى ان سبيللا ظلت في بيت المقدس حتى عشية حصار المدينة، ثم تقرر السماح لها بالتوجه الى نابلس . انظر :
Ernoul, p. 185.
Ibn al - Athir, p. 703.
Estoire d'Eracles, II. p. 79.
Itinerarium Regis Ricardi, pp. 21 - 23.

اورد هؤلاء المؤرخون ان سبيلا كانت في بيت المقدس طوال فترة الحصار الذي فرضه عليها صلاح الدين ، ولم تتوجه الى نابلس إلا لفترة قصيرة . ويقول ابن شداد ان صلاح الدين نقل منه الملك جاي الى انطرطوس ثم أطلق سراحه، بينما كان صلاح الدين يحاصر حصن الاكراد ، جرى ذلك في يوليو سنة ١١٨٨ ، أي قبل بضعة ايام من استيلاء صلاح الدين على انطرطوس. والراجح ان ابن شداد أخطأ بأن اورد انطرطوس ، بينما كان يقصد طرابلس ، على ان اطلاق سراح جاي حدث فعلاً في يوليو سنة ١١٨٨ (انظر Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 143) على ان ارنول اشار الى انه جرى اطلاق سراح جاي في مارس سنة ١١٨٨ ، غير انه حدد تاريخ اطلاق سراحه بأن وقع اثنـاء حصار صلاح الدين لطرابلس ، في يوليو سنة ١١٨٨ . ويشير المصدر (Itineraruim, p. 25.) الى اطلاق سراح الملك جاي في انطرطوس ، حيث لحقت بـه هناك الملكة سبيللا . انظر ايضاً :
Ernoul, p. 185.

الدفاع عن بيت المقدس سنة ١١٨٧ .

حدث أن انكسفت الشمس ، يوم دخلت قوات صلاح الدين عسقلان ، واستقبل صلاح الدين في الظلام وفداً من قبل سكان بيت المقدس ، كان صلاح الدين قد دعاه لمناقشة الشروط التي بمقتضاها تستسلم المدينة المقدسة ، غير انه لم يحدث شيء من النقاش ، اذ رفض رجال الوفد ان يسلموا المدينة التي مات بها المسيح من أجلهم ، وعاد رجال الوفد في كبرياء الى بيت المقدس ، وأقسم صلاح الدين انه سوف ينالها بحدّ السيف . على انه وصل الى بيت المقدس ، دون توقع ، من يساعدها . ذلك ان باليان ابلين الذي كان بزمرة الفرنج اللاجئين بصور ، أرسل الى صلاح الدين يطلب منه الأمان للدخول الى بيت المقدس ، نظراً لأن زوجته ، الملكة ماريا ، لجأت مع أطفالها الى بيت المقدس ، بعد ان غادرت نابلس ، وأراد باليان ان يحملهم الى صور . فأجابه صلاح الدين الى طلبه ، بشرط ألا يمضي في بالمدينة إلا ليلة واحدة، وألا يحمل أسلحة . فلما قدم باليـــان الى بيت المقدس ، ألفى البطريرك هرقـــل وموظفي طائفتي الداوية والاسبتارية ، يحاولون إعداد أسباب للدفاع عن المدينة ، غير انه لم يكن ثمة قائد يثق فيـــه اهل المدينة ؛ فتصايحوا جميعاً بأنه لا بد ان يمكث باليان معهم ، وأن يتولى قيادتهم ، ولن يسمحوا له بالخروج من بيت المقدس . وإذ استبدت الحيرة بباليان، كتب الى صلاح الدين يشرح له إقدامه على انتهاك اليمين التي بذلها . على ان صلاح الدين اشتهر دائماً بالدماثة والمروءة مع العدو الذي يحترمه . فلم يكتف بالعفو عن باليان ، بل أرسل حرساً ليرافق الملكة ماريا وأطفالها،

وحاشيتها ، وكل امتعتها ، الى مدينة صور[1] . وسار بصحبتها ، توماس ابلين الصغير ، ابن أخي باليان ، والابن الصغير لهيو سيد جبيل ، وبكى صلاح الدين حينما شاهد هؤلاء الاطفال ، ورثة المجد الغابر ، يجتازون معسكره ، في طريقهم الى المنفى .

وبذل باليان ، في بيت المقدس ، كل ما بوسعه من جهد . ازداد عدد سكان المدينة بمن تدفق عليها من اللاجئين من المناطق المجاورة ، ولم يصلح منهم لممارسة القتال سوى فئة قليلة العدد . اذ ان كل رجل يقابله خمسون امرأة وطفل ، ولم يكن بالمدينة سوى فارسين اثنين . فلم يسع باليان إلا ان ينصب فارساً ، كل صبي تجاوز السادسة عشرة من عمره ، والمنحدر من أسرة نبيلة ، كما انــه جعل ثلاثين رجلاً من البرجاسية (البرجوازية) فرساناً . ووجه جماعات من الرجال لتلتمس كل ما تعثر عليه من الطعام ، قبل ان يسد عليهم المسلمون المسالك وتسلم باليان الخزانة الملكية ، وحاز كل مــا أرسله هنري الثاني ملك انجلترا من الاموال للاسبتارية ، بل انه نزع الفضة من سقف كنيسة القيامة . وتقرر توزيع الاسلحة على كل من استطاع ان يحمل السلاح .

وعسكر صلاح الدين في ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ ، امام المدينة (بيت المقدس) ، وشرع في مهاجمة أسوارها التي تقع الى الشمال ، والشمال الغربي

---

(١) انظر :
Ernoul, pp. 174 - 175, 185 - 187.
Estoire d'Eracles, II. pp. 81 - 84.
De Expugnatione, p. 238.

منها . غير ان أشعة الشمس تسلطت على عيون عساكره ، كما ان استحكامات المدينة كانت متينة . ثم نقل صلاح الدين معسكره بعد خمسة ايام ، واعتقد المدافعون عن المدينة ، لفترة وجيزة ، ان صلاح الدين رفع الحصار ، غير انه حدث في صبيحة يوم ٢٦ سبتمبر سنة ١١٨٧ ان اتخذ جيشه مواقعه على جبل الزيتون ، وأخـــذ النقابون في حراسة فرسانه ينقبون السور الواقع قرب باب العمود ، على مسافة ليست بعيدة من البقعة ، التي اقتحم منها جودفري كونت اللورين ، المدينة قبل ثماني وثمانين سنة . وفي ٢٩ سبتمبر ، حدثت ثغرة كبيرة بالسور ، فشحنها المدافعون بكل ما استطاعوا حشده من الرجال ، وحاربوا في ضراوة وبأس ، غير انهم لم يكونوا من الكثرة ما يجعلهم يصمدون طويلاً إزاء حشود المسلمين الضخمة . وأراد عساكر الفرنج ان يقوموا بهجوم ضخم ، ولو كلفهم ذلـك التضحية بأرواحهم ، غير ان البطريرك هرقل لم يحل بخاطره ان يستشهد ، إذ قال اذا أقدموا على ذلك ، فسوف يتركون وراءهم نساءهم وأطفالهم ، الذين لا مفر من استرقاقهم ، وليس بوسعه ان يبارك هذا الإجراء المنـافي للدين ، وأيده باليان ، لما أدركه من حماقة الإمعان في إزهاق الأرواح ؛ وفي ٢٠ اكتوبر ، توجه باليان الى معسكر صلاح الدين ، ليطلب شروط الصلح .

اذعان بيت المقدس سنة ١١٨٧ :

أضحت المدينة (بيت المقدس) تحت رحمة صلاح الدين ، وصار بوسعه أن يقتحمها متى شاء ، وقد كان له بداخل المدينة عدد كبير من الأصدقاء ذوي النفوذ والسلطان . فما اتسمت به الكنيسة اللاتينية من الغطرسة ، أثارت دائماً نفور المسيحيين الأرثوذكس ، الذين يؤلفون غالبية السكان الفقراء بالمدينة . لم يقع فعـــلاً شقاق ديني ، فالأسرة الملكية ، والنبلاء

العلمانيون أظهروا المودة والاحترام لرجال الدين الارثوذكس في كل الجهات ما عدا انطاكية . غير ان الطبقة العليا ، من هيئة رجال الدين ، كانت بأجمعها من اللاتين . ففي المشاهد الكبيرة المرتبطة بعقيدتهم ، كان لزاماً على المسيحيين الوطنيين أن يشهدوا طقوساً ، كانت لغتها وشعائرها غريبة عنهم . فتطلعوا بشغف الى الايام التي كان بوسعهم زمن الحكام المسلمين أن يباشروا عبادتهم كيفما شاءوا ووثق صلاح الدين في عالم مسيحي ارثوذكسي ، من بيت المقدس ، اسمه يوسف بابيط ، فاتخذه مستشاراً في كل معاملاته مع الامراء المسيحيين ، وبفضله استطاع الاتصال بالجماعات الارثوذكسية في داخل المدينة ، فوعدوا بفتح ابواب المدينة لصلاح الدين .

والواقع ، ان الحاجة لم تكن ماسة لتدخل الجماعات الارثوذكسية . فحينما قدم باليان الى خيمة صلاح الدين ، أعلن صلاح الدين انه سبق أن أقسم بأنه سوف ينال بيت المقدس بحد السيف ، ولن يحلّه من هذه اليمين ، سوى اذعان المدينة بدون قيد او شرط . وأخذ يذكّر باليان بما ارتكبه المسيحيون ، سنة ١٠٩٩ ، من المذابح ، ألا ينبغي ان يحذو حذوهم ؟ وبينما كانا يتحدثان ، اندلع القتال ، وأشار صلاح الدين ان لواءه قد ارتفع على سور المدينة ، غير ان رجاله لم يلبثوا ان ارتدوا على أعقابهم ، وأنذر باليان صلاح الدين بأنه ما لم يمنح المدافعين شروطاً كريمة ، فانهم في غمرة اليأس ، وقبل ان يهلكوا ، سوف يدمرون كل ما يقع تحت أيديهم بالمدينة ، بما في ذلك ما قام في منطقة المعبد ، من المنشآت المقدسة عند المسلمين ، وسوف يذبحون كل من بحوزتهم من أسرى المسلمين. وإذ أدرك صلاح الدين ان سلطته أضحت وطيدة ، كان مستعداً لأن يكون سخياً ، فأحب ألا تتعرض بيت المقدس إلا لأقل ما يصح ان

تتعرض له من الاضرار . وقبل صلاح الدين ان يضع شروط الصلح ، فعرض بأن بوسع كل مسيحي ان يفتدي نفسه ، على أساس عشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، ودينار للطفل . وعندئذ أشار باليان الى ان بالمدينة حوالى عشرين ألف من الفقراء ، ليس بوسهم ان يؤدوا هذا المبلغ ، أفلا يجوز للسلطات المسيحية ان تدفع مبلغاً إجمالياً ، لافتدائهم . ورضي صلاح الدين بأن يقبل مائة ألف دينار عن جميع العشرين ألف من الفقراء ، غير ان باليان ادرك انه ليس من المستطاع تحصيل هذا المبلغ الضخم ، فتقرر اطلاق سراح سبعة آلاف مقابل دفع ثلاثين ألف دينار وبناء على اوامر باليان ، ألقى العساكر السلاح . وفي يوم الجمعة ، ٢ اكتوبر سنة ١١٨٧ ، دخل صلاح الدين بيت المقدس ، ويوافق هذا التاريخ السابع والعشرين من رجب ، الذي يجري فيه الاحتفال بعيد الاسراء ، حين أسرى النبي الى بيت المقدس ، ثم ارتقى الى السماء .

الواقع ان المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثماني وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الاشخاص مكروه . إذ صار رجال الشرطة ، بناء على اوامر صلاح الدين ، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين . وفي تلك الأثناء حرص كل مسيحي على ان يلتمس المال اللازم لافتدائه . وأخذ باليان كل ما في بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من اموال الافتداء ، وقدرها ثلاثون الف دينار . ولم يخرج الاسبتارية والداوية عن شيء من اموالهم إلا بصعوبة ، ولم يحفل البطريرك وهيئته الكنسية إلا بأنفسهم ، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدي عشرة دنانير ، مقدار الفدية المطلوبة منه ، ويغادر المدينة ،

وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب ، وقـــد تبعته العربات التي تحمل ما بحوزته من الطنافس والأواني المصنوعة من المعـادن النفيسة .

وبفضل ما تبقى من منحة الملك هنري الثاني ، تقرر اطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء . وقد كان يصح ان ينجو من الاسترقاق الوف عديدة من المسيحيين لو ان الاسبتارية والداوية والكنيسة كانوا اكثر سخاء . ولم يلبث ان تدفق من ابواب المدينة طابوران من المسيحيين ، تألف الاول من اولئك الذين افتدوا انفسهم ، او تم افتداؤهم بفضل جهود باليان ، أمـا الطابور الثاني فشمل اولئك الذين لم يستطيعوا افتـــداء انفسهم ، ولذا توجهوا الى الأسر . ومن المناظر التي تدعو للأسى والحزن ، ما حدث من التفات العـادل الى اخيه صلاح الدين يطلب منه اطلاق سراح الف اسير ، على سبيل المكافأة عن خدماتــه له ، فوهبهم له صلاح الدين ، فأطلق العادل على الفور سراحهم . وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير ، لم يسعه إلا ان يطلب من صلاح الدين ان يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم ، فبذل له صلاح الدين سبعمائة اسير ، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة اسير . ثم اعلن صلاح الدين انه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز . ولما اقبل نساء الفرنج اللائي افتدين انفسهن ، وقـد امتلأت عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن ، بعـــد ان لقي ازواجهن او أباؤهن مصرعهم او وقعوا في الأسر ، اجاب بأن وعد باطلاق سراح كل من في الاسر من ازواجهن ، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته . والواقـع ان رحمته وعطفه كان على نقيض أفعـــال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى .

على ان بعض الامراء والعساكر لم يراعوا شيئاً من العطف والرفق ، فمن النوادر ما شاع من تهريب مسيحيين متنكرين ، على أيدي مسلمين ، بعد ان سلبوهم وقتئذ كل ما امتلكوا . واعترف امراء مسلمون آخرون بأنهم عرفوا بعض الأرقاء الفارين ، وتقاضوا منهم سراً فديات كبيرة ، مقابل ألا يعترضوا طريق ضحاياهم . على انه كلما اكتشف صلاح الدين هذه الاجراءات ، أنزل العقاب الصارم (١) .

اللاجئون ، سنة ١١٨٧ :

تحرك طابور طويل من اللاجئين ، ساروا في بطء الى الساحل ، ولم يتعرضوا للاعتداء من قبـــل المسلمين . وارتحلوا في ثلاث قوافل ، تولى

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 174 - 175, 211 - 230.

اورد ارنول أوفى رواية عن هذا الموضوع ، إذ كان ارنول بصحبة باليان في بيت المقدس .

Estoire d'Eracles, II. pp. 81 - 99.

De Expugnatione, pp. 241 - 251.

وردت في هذا المصدر رواية لشاهد عيان ، اصابته خدوش أثناء حصار بيت المقدس ، ولم يقر تسليم المدينة . انظر ايضاً :

Abu Shama, pp. 320 - 340.

Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 118 - 120.

Ibn al - Athir, pp. 699 - 703.

وردت قصة يوسف بابيط في كتاب :

The History of the Patriarchs of Alexandria, p. 207.

وهو مصدر قبطي يتسم بالعداء . ويضيف المؤلف ان المسيحيين الارثوذكس أسفوا لاستسلام بيت المقدس ، إذ كانوا يودون ان تجري مذبحة في الفرنج .

الداوية قيادة القافلة الأولى ، وقاد الاسبتارية القافلة الثانية ، بينما قاد باليان والبطريرك القافلة الثالثة . وإذ ضاقت صور بمن قدم اليها من اللاجئين من جهات اخرى ، لم تسمح بأن يدخل اليهـا سوى الرجال المحاربين . ولما اقتربوا من البترون سلبهم أحـد البارونات المحليين ، واسمه ريموند سيد نيفين ، قدراً كبيراً من سلعهم ، فتوجهوا الى طرابلس ، غير ان المدينة امتلأت بمن قدم قبلهم من اللاجئين ، وإذ أخذت الأقوات في النفاد ، لم تقبل سلطات المدينة أعداداً اضافية ، فأغلقت دونهم الأبواب . ولم يعثروا على موضع يستريحون فيه ، حتى وصلوا انطاكية ، بل ان سلطاتها لم تسمح لهم عن طيب خاطر بالدخول الى المدينة . أما اللاجئون من عسقلان فكانوا أحسن حظاً ، ذلك انـــه حينما رفض قـادة السفن الايطالية التجارية ان يحملوهم على سفنهم ، الى الموانىء المسيحية إلا بعد ان يدفعوا أجوراً باهظة ، رفضت الحكومة المصرية السماح للسفن الايطالية بالإقلاع ، إلا اذا قبلت حملهم بدون ان يؤدوا أجوراً[١] .

أما المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة ، فظلوا مقيمين في بيت المقدس . والتزم كل منهم رسمياً بأن يؤدي الجزية فضلاً عن الفدية المقررة عليه ، على الرغم من ان عدداً كبيراً من الطبقات الفقيرة ، تقرّر إعفاؤهم من الدفع . وابتـاع أغنياؤهم قدراً كبيراً من الأمتعة والأملاك التي أضحت خالية ، بعد رحيل الفرنج ، واشترى مـا تبقى منها المسلمون واليهود ،

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 320 - 324.

Estoire d'Eracles, II. pp. 100 - 103.

الذين شجعهم صلاح الدين على الاستقرار بالمدينة . ولما بلغت القسطنطينية أنباء انتصار صلاح الدين ، ارسل الامبراطور إسحاق انجيلوس سفارة الى صلاح الدين لتهنئته ، ولتطلب منه ضرورة إعادة الأماكن المقدسة المسيحية الى الكنيسة الارثوذكسية ، واستجاب صلاح الدين لطلبه ، بعد ان تمهّل قليلاً . وألحّ على صلاح الدين كثير من اصدقائه بتدمير كنيسة القيامة ، غير انه أشار الى ان المسيحيين يجلون الموضع ، لا البناء ، فما زالوا يودون الحج الى هذه المواضع ، كما انه لم يشأ ان يمنعهم من ذلك . والواقع ان كنيسة القيامة لم تغلق ابوابها إلا لمدة ثلاثة ايام ، ثم تقرر السماح للحجاج الفرنج بدخولها مقابل رسم يؤدونه [١] .

على ان المسيحيين اللاجئين لم يغادروا مدينة بيت المقدس ، إلا بعد ان تمّ انتزاع الصليب المنصوب بأعلى قبة الصخرة ، وزالت كل رموز العبادة المسيحية ، وجرى تطهير المسجد الأقصى من كل آثار احتلال الداوية ، وتم رشّ كلا البنائين ، قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، بماء الورد ، وتهيآ من جديد لتؤدي بهما الشعائر الاسلامية . وفي يوم الجمعة ٩ اكتوبر سنة ١١٨٧

---

(١) انظر : Bar - Hebraeus, trans. Budge, pp. 326 - 327.

أشار ابن العبري الى المسيحيين الوطنيين .

Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 168 - 201.

اورد ابن شداد ما كان من تبادل السفارات بين صلاح الدين والامبراطور اسحاق انجيلوس .

بينما أشار المقريزي الى اغلاق كنيسة القيامة لفترة قصيرة (Makrizi, ed. Blochet, p. 33) .

وعن اليهود انظر :

Schwab, « Al Harizi » in Archives de l'Orient Latin, I. p. 236.

أدّى صلاح الدين مع جمهور المصلين ، صلاة الجمعة بالمسجد الأقصى، وأعربوا عن شكرهم وامتنانهم لله سبحانه وتعالى [١] .

وباسترداد بيت المقدس ، حقق صلاح الدين أهم واجب عليه نحو دينه . غير أنه ما زال للفرنج حصون ينبغي إخضاعها . فالسيدة ستيفاني سيدة إقطاع مـا وراء نهر الاردن ، كانت من الأسرى الذين تم افتداؤهم في بيت المقدس ، وطلبت من صلاح الدين ان يطلق سراح ابنها ، همفري سيد تبنين ، فوافق صلاح الدين ، بشرط ان يستسلم له حصناها الكبيران (الشوبك والكرك) ، وتقرر الإفراج عن همفري ليلحق بأمه ، ستيفاني . غير أن الحامية في كل من حصني الكرك والشوبك ، لم تطع أمرها بالتسليم . فلما فشلت في مساومة الحاميتين، أعادت ابنها الى الأسر . وما قامت به من عمل نبيل ، أرضى صلاح الدين ، فأطلق سراح همفري ، بعـد بضعة شهور . وفي تلك الاثناء ، نازل العادل والجيش المصري حصن الكرك ، واستمر الحصار ما يزيد على سنة ، وظل المدافعون عن الحصن شهوراً معرّضين للهلاك جوعاً، فأخرجوا نساءهم وأطفالهم من الحصن للدفاع عن أنفسهم ، والواقع أن جماعة منهم باعهم رجال من قومهم للبدو مقابل الحصول على المؤونة .

---

(١) انظر :

Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 120.
Ibn al - Athir, pp. 704 - 705.
Estoire d'Eracles, II. p. 104.
Ernoul, pp. 234 - 235.
De Expugnatione, pp. 250 - 251.
Ibn Khalikan, pp. 634 - 641.

اورد ابن خلكان نص الخطبة التي ألقاها قاضي قضاة حلب في اول جمعة بالمسجد الاقصى .

ولم تذعن القلعة إلا بعد ان أكل المدافعون عنها آخر حصان تبقى لديهم ، وذلك في نهاية سنة ١١٨٨ . أمـا حصن الشوبك الذي لم يتعرض للضغط الشديد ، فإن مقاومته استمرت بضعة شهور اخرى [١] .

رينالد سيد صيدا وبراعته الدبلوماسية سنة ١١٨٧ :

وفي أقصى الشمال ، أذعنت قلعة صفد التابعـة للداوية ، وذلك في ٦ ديسمبر سنة ١١٨٨ ، بعد ان اشتد قصفها بالمجانيق لمدة شهر ، ثم احتذى الاسبتارية بهم ، فسلموا بعـــد شهر آخر ، قلعتهم كوكب ، التي تقع على مرتفع يطل على وادي نهر الاردن . اما قلعة هونين ، فجرى احتلالهـا قبـــل ذلك بزمن قصير . وما اتبعه ريناالد سيد صيدا من أساليب الدبلوماسية ، أنقذ حصن شقيف أرنون الذي لاذ به . وكان ريناالد رجلاً يميل للعلم والدراسة ، له ولع خاص بالآداب العربية ، قدم الى خيمة صلاح الدين ، وأعرب عن رغبته في تسليم قلعته ، والالتجاء الى دمشق ، اذا أمهله صلاح الدين ثلاثة شهور لتسوية أموره ، بل انه لوّح بأنـه قد يعتنق الاسلام . وبلغ من اللبـاقة في حديثه ان اقتنع صلاح الدين بصدق نيته وطويته ، ولم يكتشف إلا بعد فوات الوقت ، ان الهدنة التي بذلها لريناالد ، أفاد منها

---

(١) انظر :

Ernoul, p. 187.
Estoire d'Eracles, II. p. 122.
Abu Shama, p. 382.
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 139 - 143.

في تقوية أسباب الدفاع عن قلعته . وفي تلك الاثناء توجه صلاح الدين الى بلاد طرابلس وانطاكية [1] .

مات ريموند ، كونت طرابلس ، حوالى نهاية سنة ١١٨٧ ، اذ لم يلبث بعد فراره من حطين ان خرّ مريضاً بالالتهاب البلوري ، على الرغم من ان بعض الناس اعتقدوا ان مرضه يرجع الى الأسى والعار ، واعتبره كثير من معاصريه خائناً ، أدّت أنانيته الى تدمير المملكة ، غير ان وليم الصوري وباليان ابلين كانا من اصدقائه ومن المدافعين عنه . والواقع ان مأساته الحقيقية ليست إلا مأساة الجيلين الثاني والثالث لكل النزلاء الفرنج ، الذين كانوا مستعدين بحكم مزاجهم ، ولدواعي السياسة ، ان يصيروا شطراً من العالم الشرقي ، غير ان تعصب ابناء عمومتهم القادمين حديثاً من الغرب ، أرغمهم على اتخاذ احد الجانبين ، فلم يسعهم آخر الأمر إلا ان ينحازوا الى رفاقهم المسيحيين . لم ينجب ريموند ذرية ، ولذا أوصى بكونتيته لابنه بالمعمدانية ، ريموند ، ابن بوهمند ، أمير انطاكية ، أدنى قريب له من الذكور ، غير انه اشترط انه متى قدم الى الشرق احد افراد بيت تولوز ، لا بد ان تكون الكونتيته له . ورضي بوهمند بالإرث لابنه ، وعندئذ أحل مكان الصبي ريموند أخاه الأصغر ، بوهمند ، في حكم

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 122 - 123. 138 - 141, 142-143.

اجتمع ابن شداد برينالد ، واسترعى نظره ما اشتهر به رينالد من الجاذبية والمفوبة .

انظر ايضاً : Abu Shama, pp. 395 - 400.

Kemal ed - Din, ed. Blochet, p. 191.

طرابلس، حتى لا يتولى الدفاع عن انطاكية وطرابلس اكثر من رجل واحد [1].

الواقع ان معظم الإرث لم يلبث أن ضاع ، ففي اول يوليه سنة ١١٨٨ ، اجتاح صلاح الدين البقيعة بعد ان جاءته منذ زمن قريب أمداد من سنجار . فاجتاز حصن الكرك (الاكراد) الذي كان بحوزة الاسبتارية ، غير انه اعتقد انه من المناعة ما يحول دون مهاجمته ، فتحرك صلاح الدين نحو طرابلس ، غير ان ما حدث من وصول اسطول ملك صقلية اليها ، منعه من المضي الى طرابلس ، ولذا اتجه نحو الشمال ، وهاجم انطرطوس ، غير ان قلعة الداوية بها امتنعت عليه . ثم ضيّق الخناق على أسوار حصن المرقب ، حيث حاول الاسبتارية اعتراض طريقه ، وأذعنت له جبلة يوم الجمعة ١٥ يوليه سنة ١١٨٨ ، واستسلمت اللاذقية ايضاً يوم الجمعة ٢٢ يوليه سنة ١١٨٨ ، واشتهرت اللاذقية بأنها مدينة جميلة ، لما حفلت به من الكنائس والقصور التي ترجع الى الأزمنة البيزنطية. وبكى المؤرخ المسلم أبو شامة (لعله يقصد العماد الاصفهاني [2]) ، الذي كان يصحب الجيش ، لما شهده من نهب المدينة وتخريبها . وتحوّل صلاح الدين عن اللاذقية الى داخل البلاد ، الى صهيون ، وهذه القلعة

---

(١) لم يرد في الروايات تاريخ دقيق لوفاة ريموند ، انظر :
Estoire d'Eracles, II. p. 72.
Imad ed - Din : (in Abu Shama, p. 284).
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 114.
أشار المؤرخون المسلمون الى ان ريموند مات بتأثير الالتهاب الرئوي . عن سلوكه في حطين ، انظر ما يلي ، الملحق الثاني . أشار بنيدكت بيتربره الى انهم عثروا عليه ميتاً في فراشه . انظر :
Benedict of Peterborough, II. p. 21.

(٢) انظر ما يلي ، ص ٧٦١ ، حاشية ، ١ .

الضخمة التي حازها الاسبتارية ، كانت من المناعة ، حسبما اعتقدها الناس ، ما يحول دون اقتحامها ؛ غير أنها سقطت عنوة ، يوم الجمعة ٢٩ يوليه ، سنة ١١٨٨ ، بعد قتال عنيف لم يستمر إلا بضعة ايام . وفي يوم الجمعة ١٢ أغسطس سنة ١١٨٨ استسلمت حامية قلعة بكّاس الشغر ، برغم ما كان يحميها من أخاديد عميقة ، حينما لم تصلهم مساعدة من انطاكية ، ثم سقطت سرمين يوم الجمعة الموافق ١٩ اغسطس سنة ١١٨٨ ، ولم تمض إلا بضعة ايام حتى استسلمت في ٢٣ اغسطس سنة ١١٨٨ ، برزيه آخر ما يقع من القلاع في أقصى الجنوب من نهر الاورنت . وكان قائد حامية برزيه قد تزوج من شقيقة اميرة انطاكية ، التي كانت عميلاً سرياً لصلاح الدين، فتقرر إطلاق الحرية له ولزوجته . وفي ١٦ سبتمبر سنة ١١٨٨ أذعن حصن دوبساك في جبال الأمانوس ، واستسلمت ٢٦ سبتمبر سنة ١١٨٨ قلعة بغراس ، التي تحكمت في الطريق المؤدي من انطاكية الى قليقية [١] . على ان الارهاق والتعب حلّا وقتئذ بجيش صلاح الدين ، وأعربت عساكر سنجار عن رغبتها في العودة الى بلادها . ولما التمس بوهمند أمير انطاكية من صلاح الدين عقد هدنة ، يعترف فيها بكل الفتوح الاسلامية ، استجاب

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 252-253.
Estoire d'Eracles, II. p. 122.
Abu Shama, pp. 356 - 376.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 125 - 138.
Kemal ed - Din, ed. Blochet, pp. 187 - 190.
Ibn al - Athir, pp. 726 - 729.
روى ابو شامة عن عماد الدين الاصفهاني وصفه لمدينة اللاذقية ، وما تعرضت له من النهب .
انظر : Abu Shama, pp. 361 - 362.

له صلاح الدين . اعتقد صلاح الدين ان يوسعه ان ينجز عمله حسبما اختار. لم يبق لبوهمند وولديه إلا حاضرتا ملكهم ، انطاكية وطرابلس ، فضلاً عن ميناء السويدية ، بينما احتفظ الاسبتارية بحصن المرقب وحصن الكرك (حصن الأكراد) ، واحتفظ الداوية بانطرطوس [١] .

الدفاع عن صور سنة ١١٨٧ :

على ان في اقصى الجنوب مدينة لم يستولِ عليها صلاح الدين ، وفي ذلك ارتكب غلطة جسيمة . إذ ان اللاجئين من بارونات فلسطين اضحوا وقتذاك مكتظين في صور ، التي تعتبر امنع مدينة على الساحل ، فلا يصلها بالبر إلا شبه جزيرة رملية صغيرة ، قام عليها سور ضخم . فلو ان صلاح الدين اشتد في مهاجمة صور ، بعد ان سقطت عكا في يده ، لما حال هذا السور دونه ، غير انه تمهّل زمناً طويلاً ، إذ ان رينالد سيد صيدا الذي كان وقتذاك يتولى امر صور ، كان يتفاوض في تسليمها ، بل ان صلاح الدين ارسل لواءين له ، لرفعهما على القلعة ، بينما نفذت سفينة الى داخل الميناء ، في ١٤ يوليو سنة ١١٨٧ ، بعد عشرة ايام مضت على معركة حطين . وكان على ظهر السفينة كنراد ابن ماركيز مونتفيرات الشيخ ، وشقيق اول زوج للملكة سبيلا . كان كنراد يقيم بالقسطنطينية ، غير انه تورط في جريمة قتل وقعت بها ، ولذا ابحر سراً منها مع جماعة من فرسان

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, pp. 732 - 733.
Beha ed - Din, P. T. T. S. p. 37.

تقرر ان يكون أمد الهدنة سبعة شهور .

الفرنج ، للحج الى الاماكن المقدسة . لم يكن يعلم شيئاً عن الكوارث التي وقعت بفلسطين ، فاتخذ طريقه الى عكا . فلما اضحت السفينة تجـاه ميناء عكا ، دهش قائد السفينة انه لم يسمع ما اعتاد ان يسمعه من دق الناقوس كلما لاح في الافق شراع سفينة ، فأدرك انه قد حدث مكروه ، ولذا لم يلق مراسيه . ولم يلبث ان اقبل قارب صغير يستقله احد موظفي الميناء المسلمين ، حتى أضحى محاذياً للسفينة ، وإذ ادعى كنراد انه تاجر، تساءل عما حدث ، فأجابه ان صلاح الدين استولى على المدينة (عكا) منذ أربعة ايام ، فما أصاب كنراد من الهلع عند سماع هذه الانبـــاء ، أثار شكوك الموظف المسلم ، غير ان كنراد أقلع الى صور ، قبل ان يبـادر الموظف المسلم تحذير السلطات ، ولقي كنراد الترحيب في صور ، على انـه منقذ المدينة ، فتولى تنظيم الدفاع عنها . إذ تقرر رفض ما عرضه صلاح الدين ، من شروط الصلح ، وجرى إلقاء لوائيه في خندق القلعـة . اشتهر كنراد بالقوة والبسالة والقسوة ، أدرك ان المدينة تستطيع ان تقاوم حتى تقدم المساعدة من الغرب ، وكان واثقـاً من انه لا بد من قدوم المساعدة ، بعد ان سمع الغرب نبأ سقوط بيت المقدس . فلمـــا ظهر بعد ايام ، صلاح الدين أمام المدينة (صور) ، كانت استحكامات المدينة من القوة ، ما تمنعه من مهاجمتها ، فجاء بماركيز مونتفيرات من دمشق ، واستعرضه امام اسوار المدينة ، وهدّد باعدامه ما لم تستسلم المدينة له . غير ان ما لدى كنراد من عاطفة البنوة لم تكن من القوة ما يكفي لصرفه عن تأدية واجبه ، على انه محارب مسيحي . فلم يتأثر بما حدث ، على حين ان ما اشتهر به صلاح الدين عـادة من العطف والرفق ، حمله على ان يبقي على حياة الرجل الكهل . ورفع صلاح الدين الحصار عن صور ، وتوجه لمنازلة عسقلان . ولمـــا ظهر صلاح الدين مرة اخرى امام صور ، في نوفمبر سنة

١١٨٧، تبين لنا ما حدث من ازدياد قوة استحكاماتها ، ووصول أمداد بحرية وعسكرية ، كما ان رقعة الارض كانت من الضيق مـا تمنعه من الإفادة من استخدام رجاله ومجانيقه . واستدعى صلاح الدين عشر سفن من عكا للقدوم الى صور ، غير انه حدث في ٢٩ ديسمبر سنة ١١٨٧ ، ان أسر المسيحيون خمساً من هذه السفن ، وردّوا في الوقت نفسه هجوماً على أسوار المدينـة . واستمع صلاح الدين في المجلس الحربي الذي عقده ، لأولئك الأمراء الذين أشاروا الى ان العساكر في حاجـة ماسّة الى الراحة . اذ كان الشتاء مطيراً وشديد البرد ، ووقع المرض في المعسكر؛ وفي اول العـام الجديد ، سنة ١١٨٨ صرف صلاح الدين نصف جيشه ، ثم انسحب للاستيلاء على القلاع الداخلية . ومـا اتصف به كنراد من النشاط والثقة في نفسه ، أنقذ مدينة صور ، وما تلى ذلك من استمرار المملكة المسيحية [١] .

مجد صلاح الدين ، سنة ١١٨٧ :

واشتد أسى صلاح الدين فيما بعد لأنه لم يستطع الاستيلاء على صور . غير ان انجازاته كانت بالغة الروعة . وسواء كانت انتصاراته ترجع الى

---

(١) انظر :
Ernoul, pp. 179 - 183, 240 - 244.
Estoire d'Eracles, II. pp. 74 - 78, 104 - 110.
Itinerarium Regis Ricardi, pp. 18 - 19.
Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 120 122.
Ibn al - Athir, pp. 694 - 696, 707 - 712.

رد الفعل الحتمي عند المسلمين ، على تحدّي الفرنج الدخلاء ، أم ترجع الى ما اشتهر به كبار الزعمـــاء الذين سبقوه من سياسة بعيدة النظر ، أم ترجع الى ما وقع بين الفرنج أنفسهم من منازعات وحماقات ، أم ترجع الى شخصيته ، فإنه أثبت بالدليل القاطع ، مـــا لدى الشرق من قوة وروح . ففي وقعـة قرون حطين ، وعلى أبواب بيت المقدس ، انتقم صلاح الدين لمـا حدث في الحرب الصليبية الأولى من المهانة والإذلال ، وأثبت كيف يحتفل الرجل الشريف بانتصاره .

ملاحق

الملحق الاول

المصادر الأساسية لتاريخ الشرق اللاتيني

(١١٠٠ - ١١٨٧ م)

١ - المصادر اليونانية :

الواقع أن المؤرخين اليونانيين لا يعالجون دراسة اللاتين في الشرق ، إلا حينما تكون للاتين صلة مباشرة مع بيزنطة . إذ أن كتاب أعمال الكسيوس (الكسياد) الذي ألفته أنه كومنينا ظل أهم المصادر اليونانية عن كل ما وقع من الأحداث حتى سنة ١١١٨ ، على الرغم من ان ترتيب الوقائع ، التي أوردتها أنه عن أمور الفرنج ، شابه الخلط والاضطراب [١]. أما عصرا الإمبراطورين ، يوحنا ومانويل كومنينوس ، فأهم المصادر التي عالجتها ، تتمثل في تاريخ يوحنا كينناموس ، وتاريخ نكيتاس اكوميناتوس

(١) انظر المجلد الاول من هذا الكتاب ، ص ٤٦٥ — ٤٦٦ .

المعروف باسم خونياتس . والمعروف ان كينـّاموس كان كاتم سر الامبراطور مانويل كومنينوس ، وألـّف كتابه عقب وفاة مانويل . وما أورده في كتابه عن عصر يوحنا كومنين يتّسم بالسرعة والسطحية ، غير انه أولى اهتماماً كبيراً ، وتحرّى الصدق في كتابته عن مانويل ، وباستثناء ما هو ملحوظ من تحيّزه المعتدل وحماسه القومي ، يعتبر مؤرخاً متزناً يصح الوثوق به والاعتماد عليه [١] . وكتب نكيتاس خونياتس تاريخه في أوائل القرن الثالث عشر ، وعالج فيه الفترة الممتدة من حكم يوحنا كومنينوس الى ما بعد سقوط القسطنطينية في أيدي اللاتين . وتاريخه مستقل عن تاريخ كينـّاموس . فابتداء من الشطر الثاني لحكم يوحنا ، دأب نكيتاس خونياتس على وصف الأحداث ، التي توافرت لديه عنها معرفة شخصية ، وبرغم ما غلب على أسلوبه من البيان ، ونزوعه الى التفسير الخلقي ، فإنه التزم الدقة والصدق[٢]. وليس لمصدر يوناني آخر من أهمية [٣] كبيرة ، سوى القصة الطريفة ، التي يشوبها الغموض، التي ألفها يوحنا فوقاس عن الحج الى فلسطين، في سنة ١١٧٨[٤].

---

(١) صدر هذا الكتاب في مجموعة بون Bonn Corpus .

(٢) نشر كتابه في مجموعة بون .

(٣) لا يزال لكتاب زوناراس أهمية في معالجة السنوات الاولى من القرن الثاني عشر . انظر المجلد الاول من هذا الكتاب ص ٤٦٧ . أما التاريخ الذي وضعه نظماً ماناسيس فإنه لم ينطو إلا على مادة تاريخية ، ضئيلة الاهمية . (نشر ايضاً في مجموعة بون) . وروت قصائد برودروموس عن الاحداث التاريخية ، في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٤) وردت ترجمة هذا الكتاب في مجموعة :

Palestine Pilgrims' Text Society vol. V.

٢ – المصادر اللاتينية :

وأهم المصادر التي عالجت التاريخ المبكر للإمارات الصليبية ، هي التي ألفها مؤرخو الحرب الصليبية الأولى،ولا سيا فولشر قسيس شارتر [١] ، والبرت أسقف آخن [٢] . ويليهما في الدرجة والأهمية رادولف كاين [٣] ، وايكارد رئيس دير آورا [٤] ، وكافارو [٥] . وجرت مناقشة هـــذه المصادر في المجلد الأول من هذا الكتاب . على أنه ينبغي أن نضيف ، ان تاريخ البرت يعتبر مصدراً ثبتــاً موثوقاً به ، فيا أورده عن الفترة الممتدة من سنة ١١٠٠ ، الى سنة ١١١٨ ، وهي السنة التي وقف عندها البرت، وليس معروفاً لنا المصادر التي استمد منها معلوماته ، غير انـــه كلما جرت مراجعة أخباره على ما ورد في المصادر السريانية ، أكدتها هذه المصادر .

أما تاريخ انطاكية في الفترة الممتدة من سنة ١١١٥ الى سنة ١١٢٢ ، فيعالجه كتاب مختصر ، اسمه « الحرب الانطاكية De Bello Antiochene » الذي ألّفه والتر صاحب « ديوان الرسائل Walter the Chancellor » ، والراجح أنه تولى ديوان الرسائل للأمير روجر ؛ وهو كتاب بالغ الجودة،

---

(١) انظر المجلد الاول ، ص ٤٦٨ .

(٢) انظر المجلد الاول ، ص ٤٧١ — ٤٧٢

(٣) انظر المجلد الاول ، ص ٤٧١ .

(٤) انظر المجلد الاول ، ص ٤٧٠ — ٤٧١.

(٥) انظر المجلد الاول، ص ٤٧٣ .

كبير الأهمية ، زخر بالمعلومات القيمة عن تاريخ انطاكية ونظمهـــا في هذه الفترة [١] .

والفترة الممتدة من سنة ١١٢٧ ، التي وقف فولشر عندها ، الى السنوات العشرة السابقة على فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، يعالجها المصدر اللاتيني الوحيد الهـام ، الذي ألفه وليم الصوري ، وعنوانه : Historia rerum in partibus transmarinis gestarum (تاريخ ما جرى من الأمور فيما وراء البحار) ، ويتناول دراسة الفترة الواقعـة بين سنتي ١٠٩٥ ، ١١٨٤ [٢] . وُلِدَ وليم الصوري في الشرق ، قبيل سنة ١١٣٠ . والراجح انه تعـلم في طفولتـه اللغتين العربيـة واليونانية ، ثم توجه الى فرنسا لاستكمال تعليمه . ولم يلبث ان صار ، حوالى سنة ١١٦٠ ، عقب عودته الى فلسطين ، رئيساً لشمامسة صور ، ثم أضحى رئيس ديوان الرسائل بالمملكة ، في الفترة الواقعة بين سنتي ١١٧٠ ، ١١٧٤ . وقـام ايضاً على تأديب الملك المقبل ، بلدوين الرابع . ثم تقلد سنة ١١٧٥ رئاسة أسقفية صور . ولما فشل سنة ١١٨٣ في ان يصير بطريركاً ، لجأ الى روما ، وبقي بهـــا الى ان مات قبل سنة ١١٨٧ .

---

(١) نشر في مجموعة الحروب الصليبية .

(٢) نشر في مجموعة الحروب الصليبية .
انظر ما سبق ، المجلد الاول من هذا الكتاب ص ٤٧٢ — ٤٧٣ .
عن تاريخ وليم الصوري ، انظر :
Stevenson, Crusaders in the East, pp. 361 - 371.
إذ أورد عرضاً وافياً صادقاً لهذا الكتاب .

شرع وليم الصوري في كتابة تاريخه ، في سنة ١١٦٩ ، وفرغ من الكتب الثلاثة عشرة الاولى ، في سنة ١١٧٣ ، ثم حمل معه كل الكتب الى روما ، فظل دائباً على عمله حتى وقت وفاته .

واستند وليم الصوري ، في كتابته عن الحرب الصليبية الاولى ، اساساً الى البرت أسقف آخن ، واعتمد الى حد ما على ريموند أجيلر ، وعلى رواية بودريه الجستا ، وعلى فولشر . ويعتبر فولشر مصدره الاسامي عن الفترة الواقعة بين سنتي ١١٠٠ ، ١١٢٧ ، على الرغم من انه أفاد ايضاً من والتر صاحب ديوان الرسائل بانطاكية . وكل ما اضافه اليها لا يتعدى نوادر شخصية عن الملوك ، ومعلومات عن الكنائس الشرقية ، وعن مدينة صور . أما الفترة الممتدة من سنة ١١٢٧ حتى عودته الى الشرق ، فاعتمد في دراستها على درر الوثائق بمملكة بيت المقدس، وعلى خطة مفقودة سبق ان وضعها لتاريخ الملوك . على ان معلوماته ، تبعاً لذلك ، عن شمال الشام ، لا يصح في بعض الاحوال الاطمئنان اليها والأخذ بها . وابتداء من سنة ١١٦٠ ، وما يليها من السنوات ، توافرت له عنهـــا من الدراية الوثيقة الحصيفة بالأحداث والرجال الذين صنعوها ، ما جعله يتعرض لوصفها. على ان ما أورده من التواريخ سادها الخلط والاضطراب ، بل انهـــا في بعض الأحوال ظاهرة الخطأ . والراجح ان احد الناسخين اضافها في زمن مبكر للمخطوطة .

ويعتبر وليم الصوري من اعظم مؤرخي العصور الوسطى ، وعلى الرغم مما اتصف به من آراء شخصية متحيزة ، مثل كراهيته لسيطرة العلمانيين على الكنيسة ، فإنه كان معتدلاً فيما أورده عن اعدائه الشخصيين ، امثال البطريرك هرقل ، وأجنيس كورتيناي ، اللذين استحقا فعلاً ما وجهه اليهما من نقــد وتجريح . كما ارتكب أخطاء حيثما لم تتوافر عنده المعلومات .

غير ان وليم اشتهر باتساع البصيرة ، إذ ادرك أهمية ما يقع في زمنه من الأحداث الكبيرة ، وتعاقب السبب والنتيجة في التاريخ . أمـــا اسلوبه فاشتهر بالاستقامة ، وإن لم يخل من الفكاهة . والواقع ان كتابه ترك طابعاً بأن مؤلفه كان رجلا عاقلا ، شريفاً ، عذباً ، محبوباً . على ان كتابه الهام الآخر ، وهو تاريخ الشرق ، الذي استند فيه اساساً الى تاريخ سعيد بن البطريق ، تعرض ، لسوء الحظ ، للضياع ، على الرغم من انه قد استخدمه مؤرخو القرن التالي ، امثال جاك فيتري .

ولتاريخ وليم الصوري ، ذيل Continuatus جرت كتابته في الغرب باللغة اللاتينية ، مع إضافات متأخرة [١] . وامتاز هذا الكتاب بالاتزان والموضوعية ، والراجح انــــه مستمد من كتاب مفقود يعتبر ايضاً اساس الكتاب الاول من خط سير حملة الملك ريتشارد Itinerarium Ricardi ، الذي يعالج الفترة الممتدة من سنة ١١٨٤ حتى الحرب الصليبية الثالثة [٢] .

على ان المشكلة الكبرى تتعلق بما ورد في اللغة الفرنسية القديمة من تذييلات لكتاب وليم الصوري . فحوالي منتصف القرن الثالث عشر ، ترجم تاريخ وليم الصوري ، احــــد رعايا ملك فرنسا . إذ لخص بعض الفقرات ، وأورد تعليقات ، تعتبر قيمتها موضع ريبة وشك . وأضاف اليها ذيلا ، امتد وأوغل في القرن الثالث عشر . ومن كلماته الافتتاحية ، يعرف هــذا الكتاب عادة باسم تاريخ هرقل Estoire d'Eracles . وحوالي نفس

---

(١) نشره M. Salloch .

(٢) وهذا الكتاب المتعلق بخط سير حملة ريتشارد نشره ستبز في مجموعة رولز .

الوقت حمل برنارد متولي الخزانة معه الى الشرق تذييلاً عن سنة ١١٢٩ ، عزاه الى ارنول ، الذي كان سائساً لباليان ابلين . واشتهرت هاتان الترجمتان بما بينهما من صلة وثيقة ، ووردتا في عدد كبير من المخطوطات ، وتوافر بينها ، برغم ذلك ، من الاختلافات ما يدعو الى تقسيمها ثلاث مجموعات ، عن الفترة الممتدة من سنة ١١٨٤ الى سنة ١١٩٨ . ويستحيل القول أيها تعتبر المخطوطة الاصلية ، نظراً لأن كل مجموعة حوت من الأحداث ما لم يرد في واحدة من المجموعتين الأخريين . وأكثر الحلول ترجيحاً ، هي انها جميعاً استندت فيما أوردته عن هذه الفترة ، الى كتاب مفقود ، ألفه ارنول نفسه . ومن المحقق ان ارنول اورد الرواية الأصلية لما وقع من احداث في اول مايو سنة ١١٨٧ ، والتي وردت في نسخة برنارد عن ارنول ، واهتمت كل المجموعة ببيت ابلين ، وأوردت ما عرضه شهود العيان من اوصاف ، تتفق مع رواية احد رجال حاشية الابلين . وهذه التذييلات تعتبر في مجموعها مصادر موثوقاً بها ، على الرغم من انها ليست موضوعية . وكان ارنول فيما يبدو دقيقاً فيما سجله لصالح الابلين ، بقدر ما هيأه له التحيز الحربي . على ان الترتيب الزمني للفقرات المبكرة كان ارتجالياً ، إذ انها احتوت فيما يبدو على ملاحظات وذكريات لا ارتباط بينها[1] .

وورد ايضاً وصف فتح صلاح الدين لفلسطين في عجالة بعنوان : « Libellus de expugnatione Terrae Sanctae Per Saladinum » ، تنسب

---

(١) نشر كتاب Estoire d'Eracles في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية . وقام Mas Latrie على نشر ارنول. وعن مناقشة كل المسألة، انظر مقدمة ماس لاتريه لكتاب ارنول.
انظر ايضاً : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 21 - 24.

كتابتها أحياناً الى والف كوججشال ، غير انه يكاد يكون من المحقق ان انجليزياً كتبها ، بعد بضع سنوات مضت على الحادث الذي ورد وصفه . ولا يخفي المؤلّف اعجابه بالفرسان الرهبان ولا سيا الداوية ، الذين كان المؤلف لبقاً في التزام الصمت إزاء سيئاتهم وشرورهم ، غير انه في الوقت نفسه أظهر مودّته لريموند كونت طرابلس . وأورد في رسالته رواية شاهد عيان عن حصار بيت المقدس ذاتها ، أمدّه بهـــا جندي أصابته الجراح أثناء الحصار (١) .

ومن أهم التواريخ المتأخرة لمملكة بيت المقدس ، التي أضافت معلومات جديدة ، الكتاب المعروف باسم « Histoira Regni Hierosolymitani » الذي ليس إلا تذييلاً لكتاب كافارو ، ثم حوليـات الارض المقدسة ، Annales de la Terre Sainte ، وموجز عنوانـــه : Historia Regum Hierosolymitanorum (٢) . أما الحرب الصليبية الثانية فعالجها بالتفصيل اودو دويل Odo of Deuil في كتابه المعروف باسم De Ludovici VII Profectione in Orientum الذي ليس إلا قصة جلية ، شديدة التحيز ، رواهـــا أحد المشتركين مع لويس السابع ، في حملته حتى اضاليا . وورد وصف الحرب الثانية ايضاً في إيجاز شديد ، في كتاب أعمال فردريك Gesta Friderici ، الذي ألفه أوتو فرايزنجين الذي اشترك ايضاً في الحملة . ويضاف الى هذين الكتابين ،

---

(١) نشر J. Stevenson ، هذا الكتاب في سلسلة رولز .

(٢) جرى نشر كتاب : Historia Regni Hier في M. G. H. Ss. وقام ووريخت على نشر Annales de la Terre Sainte في Archives de l'Orient Latin .
نشر كوهلر في دراساته (Mélanges) كتاب Historia Regum .

ما ألفه سوجر عن حياة لويس السابع [١]. أما قصيدة أمبرواز، وعنوانها l'Estoire de la Guerre Sainte وخط سير حملة الملك رتشرد ، فإنها برغم معالجتها للحرب الصليبية الثالثة ، يعرضان معلومات عن الأزمنة السابقة على هذه الحملة [٢].

وأورد كثير من المؤرخين الغربيين فقرات تتصل بالشرق اللاتيني ، فمن الانجليز أمثال ولیم مالیسبوري ، وبنيدكت بيتربره ، وسائر المؤرخين المهتمين بالحرب الصليبية الثالثة ؛ ومن الفرنسيين أمثال سيجبرت جيمبلوه ، والذين ذيلوا عليه ، فضلاً عن روبرت توريجني ؛ ومن الايطاليين امثال روموالد وسيكارد الكريموني وغيرهما [٣]. ويعتبر اوردريك فيتاليس النرماني أعظمهم أهمية ، نظراً لأن تاريخه الذي ينتهي عند سنة ١١٣٨ ، زخر بالمعلومات عن الشرق الفرنجي ، ولا سيا شمال الشام . والراجح انه كان لأوردريك أصدقاء او اقارب من النرمان في انطاكية ، على ان عدداً كبيراً من رواياته ليست إلا حكايات ، ومع ذلك ، فإن قدراً وفيراً من مادته ، لم ترد في مصادر اخرى ، ويصح تصديقها والاقتناع بها [٤].

---

(١) نشر واكيت حديثاً كتاب اودو دويل ، وتولى هوفمايستر نشر كتاب اوتو فرايزنجين ، وكلاهما في السلسلة الجديدة ، في M. G. H. Ss. . وليس لكتاب سوجر طبعة جيدة .

(٢) نشر جاستون باريس قصيدة أمبرواز ، غير ان هيوبرت ولامونت ، ترجماها الى الانجليزية ، وأثبتا في الحواشي تعليقاتها باللغة الاهمية .

(٣) عن مؤلفات هؤلاء المؤرخين وطبعاتها ، انظر للمصادر والمراجع .

(٤) ما زالت الطبعة التي قام عليها لى بريفوست ، تعتبر احسن طبعة لكتاب اوردريك فيتاليس .

وما يتصل بالشرق اللاتيني من رسائل معاصرة ، تعتبر اهم مجموعة منها ، تلك التي وردت في الرسائل البابوية . فرسائل الملك لويس السابع ، وكنراد الثالث تلقي ضوءاً على الحرب الصليبية الثانية [١] . على ان الرسائل التي كتبها اشخاص بارزون من اللاتين في الشرق ، لم يبق منها إلا عـــدد قليل [٢] . وما زال باقياً ايضاً سجلات ووثائق ثلاث مؤسسات كنسية بالشرق ، وهي كنيسة القيامة ، ودير القديسة ماريا يوسيفات ، ودير القديس عازار . وتكاد تكون سجلات طائفة الاسبتارية كاملة ، أما سجلات الداوية ، فلم نقف عليها إلا في مراجع نادرة ، ولم تصلنا مباشرة . وما زال باقياً ايضاً بعض السجلات العلمانية ، التي تتعلق بانتقال الارض في امارات الفرنج [٣] . وحوت السجلات البابوية معلومات اضافية ، وما يتعلق بالأمور التجارية مستمد من سجلات بيزا والبندقية وجنوه [٤] . أما وثائق مملكة بيت المقدس ، الـتي جرى وضعها في زمن لاحق ، فشملت دساتير ترجع الى القرن الثاني عشر [٥] .

ومن السجلات الهامة ، ما خلفه رحالتان قدما الى فلسطين في القرن الثاني عشر ، وهما سايولف ، الذي كان فيما يبدو انجليزياً ، وقد زار فلسطين

---

(١) نشرت في R. H. F. وفي Jaffé, Bibliotheca Wilbaldi Epistolae .

(٢) ورد معظم هذه الرسائل في R. H. F. ووردت رسائل اخرى في التواريخ المختلفة .

(٣) انظر المصادر والمراجع عن السجلات، ومعظمها لخصه رورخت في كتاب Regesta .

(٤) وردت الرسائل البابوية في R. H. F. . ولم يكتمل نشر السجلات الايطالية . وما صدر منها اورده في ايجاز Cahen, op. cit. pp. 3 - 4.

(٥) صدرت هذه الوثائق في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، وعالجها كل من :
La Monte : Feudal Manarchy.Grandclaude, op. cit.

حوالي سنة ١١٠١ ، ويوحنا فورتزبرج الألماني ، الذي قـــدم اليها حوالي سنة ١١٧٥ .

٣ – المصادر العربية :

كلما امعن القرن الثاني عشر في المضي ، ازداد عـدد المصادر العربية المعاصرة . ففي الشطر الاول من القرن الثاني عشر ، يعتمد على ابن القلانسي فيما يتعلق بأمور دمشق [١] ، وعلى العظيمي [٢] فيما يرتبط باقليم الجزيرة ، عـدا ما أورده الكتاب المتأخرون من اقتباسات استمدوها من تواريخ مفقودة . ومع ذلـك ، فإن المذكرات التي كتبها أسامة بن منقذ تعتبر بالغة القيمة [٣] . وكان اسامة بن منقذ اميراً لشيزر ، وقد ولد في سنة ١٠٩٥ ، على ان ما جدث في امرته من الفتن والتآمر ، أدى الى ان يعيش اسامة بالمنفى ثلاثاً وأربعين سنة ، وعاش بدمشق معظم الفترة الباقية من حياته الطويلة ، التي بلغت ثلاثاً وتسعين سنة . على انه في أثناء هذه

---

(١) انظر ما ورد عنه في المجلد الاول من هذا الكتاب ص ٤٧٦ .

(٢) لم ينشر تاريخ العظيمي كاملا ،قام كاهن بدراسة تحليلية لفقرات منه تتعلق بتاريخ الشرق اللاتيني ، في Journal Asiatique, 1935 .

(٣) هذه المذكرات ليست إلا كتاب اسامة بن منقذ ، الذي عنوانه الاعتبار ، وترجمـه الى الانجليزية فيليب حتي بعنوان : An Arab - Syrian Gentleman . واستندت هذه الترجمة الى دراسة النص الاصلي تفوق في دقتها دراسة Derenbourg ، التي جرى نشرها سنة ١٨٩٥ ، والترجمة الانجليزية التي قام بها بوتر ، استندت الى نسخة درنبورج ، واستخدم رنسيان الترجمـة الانجليزية التي قام بها فيليب حتي .

الفترة ، أقـام تارة في مصر ، وتارة في ديار بكر . وعلى الرغم من براعته في تدبير المؤامرات ، التي لم يحفل إزاءها بالولاء الشخصي لمن ينتمي اليه ، كان رجلاً شديد الذكاء ، بالغ الجاذبية ، فضلاً عن كونه فارساً نابهاً ، وصياداً ماهراً ، وكونـه من رجـال الادب . ومع ان مذكراته المعروفة باسم الاعتبـار ، لم تلتزم الترتيب الزمني ، وليست إلا خواطر لرجل متقدم في السن ، تفتقر الى التحقيق ، فإنهـا تعرض صورة شديدة الوضوح لمـا ساد في زمنه من حياة الارستوقراطية العربية والفرنجية . ويضارعها في الجلاء والدقة رحلات ابن جبير الاندلسي ، الذي اجتاز مملكة بيت المقدس في سنة ١١٨١ [١] .

أما حياة صلاح الدين فقد استهوت كل المؤرخين ، وأهمهم : عماد الدين الاصفهاني [٢] ، وبهاء الدين بن شداد ، والمؤرخ المجهول لكتاب البستان [٣] . وكان عماد الدين الاصفهاني من موظفي الدولة السلجوقية بالعراق ، وانتقل الى خدمة نور الدين ، ثم صار منذ سنة ١١٧٣ كاتم سر صلاح الدين .

---

(١) قـام رايت على نشر النص الكامل لرحلة ابن جبير في ليدن ، منذ اكثر من مائة سنة وترجمها الى الفرنسية جودفري ديومبين ، ولها ترجمة انجليزية اخرى ، قام بها R. Broadhurt وورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الفقرات التي تتعلق بهذه الحروب .

(٢) عن مؤلفات عماد الدين الاصفهاني . انظر :

Cahen, Le Syrie du Nord, pp. 50 - 52.

وأورد ابو شامة اقتباسات كثيرة من مؤلفات عماد الدين الاصفهاني . انظر ما يلي .

(٣) نشره كاهن في :

Bulletin de l'Institut Oriental à Damas.

ألّف كتباً كثيرة ، منها تاريخ السلاجقة ، وقصة حروب صلاح الدين ، وهذا الكتاب ، قصة حروب صلاح الدين يعتبر أصدق مصدر عن حياة صلاح الدين ، ويكاد يكون برمته وارداً في كتاب الروضتين لأبي شامة ، وغلب على لغته التزويق والتعقيد والصعوبة [١] .

وكان بهاء الدين بن شداد ايضاً من رجـــال حاشية صلاح الدين ، دخل بخدمته في سنة ١١٨٨ . وترجمته لصلاح الدين امتازت بالأسلوب السهل ، الدقيق ، واعتمد اساساً في كل ما حدث حتى سنة ١١٨٨ على ما ترامى لسمعه من اخبار وبعض الذكريات عن صلاح الدين ، ومنذ هذا التاريخ يعتبر ابن شداد حجة فيما كتبه عن صلاح الدين ، شأنه في ذلك شأن عماد الدين الاصفهاني . أما كتاب البستان [٢] ، فجرت كتابته في حلب سنتي ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، وليس إلا موجزاً لتاريخ الاسلام ، غير انـه عالج اساساً تاريخ حلب ومصر ، وما اشتمل عليه من معلومات لم ترد إلا في الكتاب الذي يرجع الى عصر متأخر عنه ، وإن كان يفوقه في التفاصيل وهو المعروف بتاريخ ابن ابي طي . وكلاهما استند الى مصدر شيعي مفقود . أما المؤرخون المعاصرون الآخرون ، امثال القاضي الفاضل ، والشيباني ، فلا نعلم عن مؤلفاتهم إلا من الاقتباسات المستمدة منهم [٣] .

---

(١) كتاب العماد الاصفهاني عن السلاجقة هو المعروف باسم نصرة الفطرة وعصرة القطرة في اخبار الدولة السلجوقية . أما مؤلفه عن حروب صلاح الدين فعنوانه كتاب البرق الشامي ، الذي يقع في سبعة مجلدات . انظر العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٠ وما يليها .

(٢) نشره كاهن في : Bulletin de l'Institut Oriental a Damas.

(٣) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 52 - 54.

ويعتبر ابن الأثير أعظم مؤرخي القرن الثالث عشر . ولد بالموصل سنة ١١٦٠ ، ومات بها سنة ١٢٣٣ . وكتابه المعروف بكامل التواريخ ، ليس إلا تاريخ العـــالم الاسلامي . وحرص ابن الاثير على الإفادة من المؤرخين المتقدمين والمعاصرين ، غير ان ما أورده عنهم مـــن روايات ، لقيت منه بالغ الاهتمام والنقد . على ان كتاباته عن الحرب الصليبية الأولى وبداية القرن الثاني عشر ، تتسم بالإيجاز ، وارتكن أساساً فـــيما يتعلق بنهاية القرن الثاني عشر ، على الكتاب الدين كانوا بخدمـة صلاح الدين ، غير انه أضاف بعض خواطره الشخصية . على ان يبدو انـــه استخدم مادة أصيلة في كتابة الأحداث الواقعـة في منتصف القرن الثاني عشر ، والتي لم يعالجها احـــد من المؤرخين المسلمين المشهورين . على ان تاريخ ابن الاثير لا يخلو من قصور وعيوب ، اذ لم يفصح ابن الاثير عن أسماء مصادره ، ولجأ في احوال كثيرة الى اجراء تغيير في روايات هـــذه المصادر ، حتى تلائم ميوله وتحيزه للزنكيين ، ومع ذلك ، فهو يشبه وليم الصوري ، في انه يعتبر مؤرخاً واقعيـاً ، حاول ان يفهم الدلالة الواسعة لما يصفه من أحداث . وكتابه الثاني المعروف باسم تاريخ أتابكة الموصل ، يقل أهمية عن كتابه كامل التواريخ ، وعلى الرغم من انه زخر بالإشادة فيه بالزنكيين ومدحهم ، وتفتقر رواياته الى النقد والتمحيص ، فانه حوى من المعلومات ما لم يرد في غيره من المصادر [١] .

وكتاب كنوز الذهب ، الذي ألفه ابن ابي طي الحلبي المولود سنة ١١٨٠ ، وهو الشيعي الوحيد الذي يعتبر من كبار المؤرخين ، لم نعرفه

---

(١) انظر المجلد الاول من هذا الكتاب ص ٤٧٦ .

إلا من إمعان المؤرخين السنيين في استخدامه دون تحرج أو وازع من ضميرهم . والواضح انه كتاب بالغ الأهمية ، يعالج كل تاريخ الاسلام ، وأولى حلب اهتماماً خاصاً ، ويتضح من الاقتباسات التي لا زالت باقية ، ان هذا الكتاب لا بد أنه أسهب في استخدام المصدر الذي أفاد منه البستان [1] .

اما كمال الدين بن العديم الحلبي ، الذي عاش بين سنتي ١١٩١ ، ١٢٦٢ ، ومؤلف معجم التراجم ، الراجح انه لم يتمه ، فقد كتب قبل سنة ١٢٤٣ تاريخ حلب ، وهو كتاب مفصل ، امتازت كتابته بالوضوح والسلاسة ، ويستند الى حد كبير الى العظيمي ، وابن القلانسي ، ومعاصري صلاح الدين ، فضلاً عن الروايات والاخبار المتواترة . لم يحرص ابن العديم على الربط بين مصادره ، واشتهر بتحامله على الشيعة [2] .

سبط بن الجوزي ، ولد ببغداد سنة ١١٨٦ ، يعتبر مؤلفه ، مرآة الزمان من اطول التواريخ الاسلامية . على ان ما اورده عن القرن الثاني عشر استمده من المؤرخين الذين يرجعون الى عصر مبكر [3] .

ابو شامة ، ولد بدمشق في سنة ١٢٠٣ ، أتمّ في سنة ١٢٥١ كتابة تاريخ

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 55 - 57.

(٢) انظر المجلد الاول من هذا الكتاب ص ٧٧ ، . والفصول التي عالجت اواخر القرن الثاني عشر ، ترجمها بلوشيه الى الفرنسية ، ونشرها في :
Revue de l'Orient Latin.

(٣) نشرت فقرات منه في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، على ان طبعة مصورة لمخطوطة اخرى من هذا الكتاب ، نشرها جيويت في شيكاغو سنة ١٩٠٧ .

عهدي نور الدين وصلاح الدين ، المعروف باسم « كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين »[1] . وتألف الى حد كبير من الاقتباسات المستمدة من ابن القلانسي ، وبهاء الدين بن شداد ، ومن تاريخ أتابكة الموصل لابن الاثير ، وابن ابي طي ، والقاضي الفاضل ، فضلاً عن عماد الدين الأصفهاني ، الذي حرص ابو شامة على تهذيب أسلوبه .

ومن المؤرخين المتأخرين ، ابو الفدا امير حماه في اوائل القرن الرابع عشر ، ألّف تاريخاً لا يعدو ان يكون موجزاً مفيداً لما اورده المؤرخون المتقدمون . غير ان تاريخه حاز قبولاً كبيراً ، وجرى الاقتباس منه في احوال كثيرة[2] .

ابن خلدون ؛ كتب في نهاية القرن الرابع عشر ، فلخّص ابن الاثير في كل ما اورده عن احوال الشام ، غير انه في امور مصر أفاد من كتاب مفقود ينسب لابن الطوير ، وجرت كتابته زمن صلاح الدين[3] .

المقريزي ، وترجع كتابته الى اوائل القرن الخامس عشر ، وحوى معلومات عن مصر لم ترد في سواه من المصادر[4] .

---

(١) جرى طبعه في بولاق سنة ١٨٧١ ، ١٨٧٥ . على ان رنسيان رجع الى الفقرات المنشورة في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٢) نشر في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٣) طبع ابن خلكان (وفيات الأعيان) في سبعة اجزاء في مطبعة بولاق سنة ١٨٦٨ .

(٤) ترجم بلوشيه الى الفرنسية فقرات من المقريزي ونشرها في :
Revue de l'Orient Latin.

وفيات الأعيان الذي صنفه ابن خلكان في القرن الثالث عشر ، لم يَحوِ من المعلومات التاريخية إلا نبذاً قليلة فريدة في ذاتها[1] .

ليس ثمة مصادر تعالج مباشرة الترك في بلاد الاناضول . والواقع ان ابن بيبي من مؤرخي القرن الثالث عشر ، يشير الى انه ليس بوسعه ان يشرع في كتابة تاريخ عن السلاجقة قبل سنة ١١٩٢ ، أي السنة التي مات فيها السلطان قلج ارسلان الثاني ، نظراً لافتقاره الى المادة التاريخية[2] . كما انه ليس في اللغة الفارسية مصادر تعالج تاريخ السلاجقة .

٤ – المصادر الارمنية :

يعتبر كتاب متى الرهاوي المتوفي سنة ١١٣٦ ، المصدر الارمني الاساسي عن العشروات الاولى من القرن الثاني عشر ، والحرب الصليبية الاولى[3] . وذيّل على هذا الكتاب ، جريجوري القس ، من كيسوم ، وانتهى فيه عند سنة ١١٦٢ ، وحافظ على ما اتسم به كتاب متى الرهاوي ، من الروح القومية ، ومعاداة بيزنطة[4] .

---

(١) ترجمه الى الفرنسية دي سلان .

(٢) وردت تعليقات ابن بيبي في مستهل الجزء الثالث من كتاب هوتسما Houtsma, Textes Relatifs a l'Histoire des Seldjoukides (ترجمة عن اللغة التركية القديمة لابن بيبي) .

(٣) انظر المجلد الاول من هذا الكتاب ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

(٤) نشر في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، وأشار اليه رنسيمان في الحواشي . وترجم دولاوربيه هذا الكتاب الى اللغة الفرنسية ، حين انتهى كتاب متى الرهاوي .

القديس نرسيس شنورهال الاول ، جاثليق الارمن من سنة ١١٦٦ حتى سنة ١١٧٢ . نظم قصيدة طويلة عن سقوط الرها ، غير انهـــا تفتقر في بعض النواحي الى خصائص التاريخ والشعر [١] .

الجاثليق جريجوري الرابع دَغا ، خلف نرسيس في الجاثليقية ، نظم ايضاً قصيدة عن سقوط بيت المقدس ، ولم تكن خيراً من القصيدة السابقة في الاهمية والتأثير [٢] .

باسيل عالم الدين ، وهو قسيس ، وضع مرثية تفوق في الصياغة الشعرية ، القصيدتين التي سبق الاشارة اليها ، وتناول فيها رثاء بلدوين سيد مرعش ، وقد كان باسيل كاهناً له [٣] .

حوليات صمويل آني ، جرت كتابتها في ارمينية الكبرى ، وانتهت عند سنة ١١٧٧ ، وهي كبيرة الاهمية [٤] . إذ استندت من ناحية الى متى الرهاوي ، ومن ناحية اخرى الى تواريخ مفقودة تُعزى الى يوحنا الشماس والى ساركفاج . أمـــا الفئة التالية من المؤرخين الارمن الذين كتبوا في ارمينية الكبرى اواخر القرن الثالث عشر ، امثال ميختار إيرفانك ، وفارتان ، وكيراكوس ، فــلا يصح الوثوق فيما يوردونه عن امور الفرنج ، على الرغم من اهميتهم فيما يكتبونه عن الاساس الاسلامي [٥] .

---

(١) وردت في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .
(٢) وردت في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .
(٣) وردت في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .
(٤) وردت في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .
(٥) وردت فقرات من كتاباتهم في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

أما مؤرخو ارمينية الصغرى (قليقية) ، فأولهم المؤرخ المجهول ، الذي ترجم حوالي سنة ١٢٣٠ ، تاريخ ميخائيل السرياني ، وتصرف في الترجمة حتى تلائم نزعته القومية [١] .

وحوالي سنة ١٢٧٥ ، قام سمباط الكندسطبل الذي ترجم وثائق إمارة انطاكية ، بوضع تاريخ اعتمد فيه على متى الرهاوي وجريجوري في كل ما أورده عن القرن الثاني عشر ، غير انه اضاف بعض المعلومات المستمدة من دور الوثائق الحكومية [٢] . وبعد بضع سنوات ألف المدعو « المؤرخ الملكي » تاريخاً لم يُنشر حتى الآن [٣] . وفي اوائل القرن الرابع عشر وضع بهرام متولي وثائق الرها ، التاريخ المقفى Rhymed Chronicle ، الذي اعتمد الى حد كبير على متى الرهاوي ، غير انه حوى معلومات كثيرة ، ليس مصدرها معروفاً [٤] .

٥ – المصادر السريانية :

يعتبر كتاب ميخائيل السرياني عن تاريخ العالم أهم المصادر السريانية [٥] . والتزم الدقة ، ومراعاة الضمير في كتابته ، على انه اشتد في تحامله على بيزنطة . وأشار الى المصادر السريانية ، التي أفاد منها ، وكلها لا تزال مفقودة .

---

(١) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٢) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٣) ومخطوطته محفوظة بالبندقية في المكتبة الميختارية .

(٤) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٥) نشره وترجمه شابو الى الفرنسية .

ووقف ميخائيل السرياني ايضاً على مصدر عربي ، لمؤلف مجهول ، يعالج السنوات بين ١١٠٧ ، ١١١٩ ، كان فيما يبدو معروفاً لابن الاثير .

أما التاريخ السرياني المجهول ، الذي ألفه في الرها حوالي سنة ١٢٤٠ ، قس غير معروف ، فإنه يشتمل على معلومات قيّمة عن الرها ، الى جانب المعلومات المستمدة من ميخائيل السرياني [١] .

وحوالي نهاية القرن الثالث عشر كتب ابو الفرج المعروف بابن العبري مختصراً لتاريخ الدول ، استند الى ميخائيل السرياني وابن الاثير فيما أورده عن القرن الثاني عشر ، غير انـــه استمد بعض المعلومات من مصادر فارسية ، وغيرها من المصادر [٢] .

٦ — المصادر الاخرى :

تعتبر رحلة بنيامين التطيلي المصدر الوحيد العبري الهام عن هـــذه الفترة . أولى بنيامين اهتماماً كبيراً بالجاليات اليهودية في الشام ، أثناء رحلته في حوض البحر المتوسط في السنوات الواقعة بين ١١٦٦ ، ١١٧٠ [٣] .

---

(١) الشطر المبكر من هذا التاريخ ، نشره في ترجمة انجليزية ، تريتون في :
Journal of the Royal Asiatic Society.
انظر ايضاً المجلد الاول من هذا الكتاب ، ص ٥٠٠-٥٠١ . نشر النص كاملاً ، شابو ، في:
Corpus Scriptorum Orientalium.

(٢) نشره وترجمه الى الانجليزية واليس بدج .

(٣) نشر هذه الرحلة ، أدلر .

والمصادر الكرجية التي لها قيمة لتاريخ بلاد الكرج وما يجاورها من البلاد ، جرى جمعها سوياً فيما هو معروف باسم تاريخ الكرج ، الذي تمّ نشره في القرن الثامن عشر [1] .

وألف في اللغـة الصقلبية القديمة دانيال هيجومين الذي زار فلسطين سنة ١١٠٤ ، كتاباً يصف فيه الحج الى الارض المقدسة [2] .

وحكايات النورثمن ، ولا سيما تلك التي تتعلق باشتراك الملك سيجورد في الحرب الصليبية ، تشتمل على أجزاء تعتبر مادة تاريخية طريفة ، يصح استخلاصها من التفاصيل الزاخرة بالحكايات والخرافات [3] .

---

(١) نشره بروسيه .

(٢) ترجمته الى اللغـة الفرنسية السيدة خيتروفو . لم يستطع رنسيمان الرجوع الى النسخة المكتوبة باللغة الصقلبية . وقامت هذه السيدة ايضاً بترجمة رحلة رئيسة دير ايفروسين الى الارض المقدسة من اللغة الصقلبية .

(٣) وردت هذه الحكايات في ايجاز في كتاب :

Riant, Les Expeditions des Scandinaves.

الملحق الثاني

معركة حطين

أوردت المصادر اللاتينية والعربية في شيء من الإسهاب وصفاً لمعركة حطين ، غير أن رواياتها لم تكن دائماً متّسقة . حاول رنسيمان في الفصل الثاني (ص ٧٣٥ – ٧٤٢) من الكتاب الخامس أن يورد رواية متناسقة مقبولة عن معركة حطين ، غير أن مـــا تنطوي عليه من اختلافات ، اقتضت التدوين والإثبـــات . فمن سوء الحظ ، انه لم يشهد المعركة من الكتاب ، الى جانب تيرنيس (تيرّيكوس) الذي ينتمي للداوية ، والذي كتب رسالة موجزة عن معركة حطين ، وبعض المسلمين الذين وردت مقتطفات من رسائلهم في كتاب أبي شامة ، سوى إرنول الذي باعتباره سائساً لباليان ابلين ، ربما صحب سيده المعركة ، ثم فرّ معه ، وكذا عماد الدين الأصفهاني الذى كان يرافق صلاح الدين . غير ان الرواية الاصلية لأرنول تعرّضت للتغيير والتبديل على أيدي برنارد متولي الخزانة ، والمذيلين على وليم الصوري . أما رواية عماد الدين الاصفهاني ، فإنها برغم مـــا تتصف به أحياناً من الحيوية ، تغلب فيهـــا البيان على الدّقة والإيجاز . وما رواه الأفضل بن

صلاح الدين لابن الأثير عن أزمة المعركة ، جعلت برغم ايجازها للمعركة صورة حيّة .

ويعتبر كتاب Estoire d'Eracles المصدر الوحيد ، الذي بيّن في جلاء ان الملك جاي عقد قبل نشوب المعركة مجلسين مستقلين ، المجلس الأول في عكا ، والراجح أنه جرى يوم اول يوليه سنة ۱۱۸۷ ، وانعقد المجلس الثاني في صفورية في مساء يوم ٢ يوليــــه سنة ۱۱۸۷ . وتحدث ريموند كونت طرابلس في الاجتماعين . ولا شك في ان مـــا ورد في كتاب Estoire من اقتباسات من خطابي ريموند المستقلين ، توضح القصد الأساسي من عباراته الحقيقية . غير ان كتاب Estoire لا بد أنه اخطأ في القول بأن مجلس عكا قد دعي للانعقـــاد بعد ان أرسلت كونتيسة طرابلس إخطاراً باستيلاء صلاح الدين على بلدة طبرية ، نظراً لأن صلاح الدين دخل طبرية في صبيحة يوم ٣ يوليه سنة ۱۱۸۷ ، ولم يشر ريموند الى طبرية في خطابه بعكا ، غير انه اكتفى بأن نصح باتخاذ خطة للدفاع . ووفقاً لما يرد في نسخة برنارد ، أغفل إرنول الإشارة الى المجلس الاول . والراجح ان برنارد تحمل المسؤولية في أنه قرر أن خطـــابي ريموند حدثا في نفس الاجتماع . ولم ترد إشارة في كتاب De Expugnatione إلا للمجلس الثاني . أما الخطاب الثاني لريموند فكان معروفـــاً لابن الاثير ، الذي أورد من عبارات الخطاب وألفاظه مـــا يماثل ما أورده كتاب Estoire d'Eracles وإرنول ، وكتاب Expugnatione . وبذا أضحت نصيحة ريموند مؤكدة ، على الرغم من ان عماد الدين الاصفهاني اعتقد ان ريموند حث على الهجوم ، كما أن الكتاب المتأخرين الذين رافقوا ريتشارد قلب الأسد ، الذين اتخذوا جانب جاي لوزيجنان ، اتهموا ريموند بالخيـــانة . فالشاعر

أمبرواز ، وتاريخ حملة ريتشارد Itinerarium Regis Ricardi ، أشارا الى أن ريموند أراد أن يوقع الجيش في الشرك ، لما كان بينه وبين صلاح الدين من اتفاق ، ووردت هذه التهمة ايضاً في رسالة وجهها احد الجنوبيين الى البابا ، كما أشار اليها فيما بعد المؤرخ السرياني ابن العبري .

ويروي عماد الدين الاصفهاني ان كونتيسة طرابلس كانت بطبرية مع أطفالها . غير ان ارنول يشير الى ان أبناء زوجة ريموند هربوا معه من المعركة ، وورد في رسالة الجنوي ، ما يشير الى مـــا حدث في المجلس الذي انعقد قبل نشوب المعركة من حرص الأبناء على انقاذ أمهم .

قرّر الملك جاي بناء على طلب جيرار مقدم الداوية ، ان يتحرك من صفورية . أورد هذه الرواية في وضوح كل من Estoire ، وإرنول ، غير ان مؤلف كتاب Expugnatione قصد في كتابته معنى آخر ، اذ انه لم يودّ لسبب أو لآخر أن يلوم الداوية ، ويتضح ذلك من الأمور التي تحفظ فيهـــا . اذ طُلب الى ريموند باعتباره سيد المنطقة ، أن ينصح بالطريق الذي ينبغي اتخاذه ، فاختار الطريق الذي يجتاز حطين . هذه النصيحة التي ثبتت خطورتها ، كانت العذر الذي التمسه اعداء ريموند ، لرميـــه بالخيانة . وما ورد في رسالة الجنوي والرسالة المتداولة بين الاسبتارية عن معركة حطين ، أوقفنـــا على ستة خونة ، كانوا فعلاً من فرسان ريموند ، وكان أحدهم ، واسمه لأوديكيوس أو لويكيوس من طبرية ، هو الذي أخطر صلاح الدين بحالة الجيش المسيحي . والراجح ، حسبما يرى رنسيان ، ان خيانتهم حدثت في هذه اللحظة الحرجة ، وتمثلت في إخطار صلاح الدين بالطريق الذي اختاره المسيحيون . ومن العسير أن نتبين ما قد بذلوه له فيما بعد من معلومـــات قيمـــة . فكلا المصدرين ، ارنول ،

Estoirè يلوم ريموند لاختياره ارض المعسكر أمام حطين ، اذ أنه اعتقد ان المـــاء يتوافر به ، على حين ان النبع كان جافاً . أورد مؤلف Expugnatione قصة مستفيضة ، إذ يقول ان ريموند الذي اتخذ مركزه في مقدمة الجيش أوصى بالإسراع الى البحيرة ، على حين ان الداوية الذين كانوا بالمؤخرة لم يستطيعوا المضي الى أبعد من موضعهم . واستبد الجزع بريموند لِما اتخذه الملك من قرار بإقامة المعسكر ، فصاح ، « لقد ضِعْنا » وإذ جرى اتخاذ القرار ، لم يسعه إلا ان يختـار موضع الحملة على أساس اعتقـــاد خاطىء بأن الماء متوافر به . ويشير عماد الدين الى اغتبـاط صلاح الدين لتحركات الجيش المسيحي .

على ان الموقع الحقيقي للمعسكر لم يجر التحقق منـه . إذ أن المصادر De Expugnatione , Itinerarium ، وامبرواز ، أطلقت على هذا الموضع قرية ماريسكالكيا ، أو ماريسكاليا ، ولعلّ ما هو معروف الآن باسم خان السكينة يحتفظ بهذا الاسم . على حين ان عماد الدين الاصفهاني وبهاء الدين ابن شدّاد ، أشارا الى ان الموقع هو قرية لوبيه التي تقع على الطريق الحالي، على مسافة ميلين الى الجنوب الغربي من قرون حطين . وأطلق المؤرخون العرب على المعركة اسم معركة حطين ، وأشاروا الى ان المراحل النهائية للمعركة جرت فوق قرون حطين . وجعلت حوليات الارض المقدسة Annales de la Terre Sainte اسم المعركة Karneatin ، أي قَرن حطين. ويذكر ارنول ان المعركة نشبت على بعد فرسخين من طبرية . والواقع أن قرني حطين يرتفعان خمسة أميال عن طبرية ، قـدر تحليق الغراب في الجو ، وحوالي ثمانية أميال ، باتخاذ الطريق المؤدي اليها من طبرية .

ويقول عماد الدين الاصفهاني ان رماة المسلمين شرعوا في قذف سهامهم

على المسيحيين أثنـــاء سيرهم ، وعقَّد القصة بقوله ان الرمي جرى يوم الخميس لأنه أراد للمعركة ان تقع يوم الجمعـــة . ويشير ارنول وكتاب Estoire الى ما تكبده المسيحيون في مسيرهم من خسائر فادحـــة . ولم يتحقق الزمن الذي اشتعلت فيه الحرائق بأرض المعركة . ويلمح ابن الاثير ان الحريق أشعله ، من قبيل الصدفة ، احد المتطوعة من المسلمين ، وأشار ابن الاثير وعماد الدين الاصفهاني في جلاء ووضوح الى ان النـــار كانت مشتعلة حينما بدأت المعركة في صبيحة يوم ٤ يوليو سنة ١١٨٧ . وأورد عماد الدين الاصفهاني صورة حية لما جرى في المعسكر العربي أثناء الليل من الابتهالات والأغاني .

ووفقاً لابن الأثير ، حاول رجالة الفرنج في صبيحة يوم المعركة ، ان يندفعوا نحو المـــاء . ويذكر عماد الدين الاصفهاني ، انه نظراً للهب لم يستطيعوا التقدم نحو الماء . ويشير مؤلف De Expugnatione الى ان الرجالة بادروا الى الفرار ، واعتصموا في كتلة صلبة بأعلى التـــل ، بعيدين عن الفرسان ، ورفضوا ان يعودوا حينما أصدر اليهم الملك الاوامر ، بأن قالوا انهم يموتون عطشاً . فتعرضوا في ذلك الموضع للقتل عن آخرهم . أمـــا إرنول فإنه يقول انهم استسلموا ، بينما توجه خمسة فرسان ينتمون لريموند ، الى صلاح الدين ، يتوسلون اليه ان يجهز عليهم . ولعـــل هذا الاجراء هو الخيانة التي أشار اليها الاسبتارية (أنظر ما سبق) ، على الرغم من انـــه قد يكون التماس الموت السريع وسيلة لاستدرار الرحمة . واكتفى بهاء الدين ابن شداد بالقول بأن الجيش المسيحي انقسم شطرين ، لقي مصرعه احدهما وهو الذي يتألف من الرجالة ، بعد ان احاطت به النار من كل جانب ، بينما وقع في الأسر ، الشطر الثاني الذي يتألف من الفرسان الملتفين حول

الملك . وأجمعت المصادر الاسلامية ، على انـــه حدث ، قبل ان يستهل الهجوم على فرسان الفرنج ، ان نازل احد الغلمان فارساً مسيحياً ، فلقى الغلام مصرعه ، واعتقد المسيحيون خطأ ان الغلام كان ابن صلاح الدين .

ووفقاً لما ورد في ارنول ، لمـا شهد الملك ما حلّ بالرجالة من القتل والذبح ، طلب الى ريموند ان يشنّ هجوماً على المسلمين ، والواقع ان ريموند كان الرجل الصالح للقيام بهذا الهجوم ، باعتباره سيد المنطقة ، كما ان هذا الهجوم كان يهيء الفرصة الوحيدة للجيش كيما يخلّص نفسه من هــذا المأزق . ولذا يبدو انه لا اساس لمـا وجهه المؤلفون المسيحيون المتأخرون ، امثال الرجل الجنوي وأصدقاء الملك ، من تهمة الخيانـة الى ريموند ، ولا داعي لمـا اتهمه به المسلمون من الجبن . غير ان ما لجأ اليه تقي الدين عمر من مناورة بارعة ، بما أجراه في صفوف جيشه من ثغرة ، ليفلت منها ريموند ، أيدت فيما يبدو اتهام الكتّاب المسيحيين ، على الرغم من ان عماد الدين الاصفهاني أشار الى ان رجال ريموند تعرضوا لخسائر فادحة . أما ارنول فيذكر ان ريموند لم يهرب من ساحة المعركة إلا بعد ان ادرك ان الملك اضحى في وضع لا رجـــاء فيه ، ولم تتهيأ الفرصة لإنقاذه . ويشير مؤلف كتاب De Expugnatione الى ان كلًا من باليان ورينالد سيد صيدا هرب بصحبة ريموند ، غير انه شأن عماد الدين الاصفهاني لم يورد شيئاً من التفاصيل ، على حين ان ارنول أصرّ على انهما هربا وحدهما ، وهو ما يعتبر اكثر احتمالاً ، نظراً لأنهما كانا في شطر آخر للجيش . ولا بد انهما شقّا طريقهما للفرار مع الفئة القليلة من الداوية ، التي أشار تيرينس الى فرارها وما أورده بالتفصيل عن المعركة مؤلف كتاب De Expugnatione ، توقف عند فرار ريموند . والراجح ان احد رجال ريموند هو الذي زوّد هذا المؤلف بالمعلومات .

يذكر عماد الدين الاصفهاني ان الملك والفرسان لجأوا بعد فرار ريموند الى تل حطين ، بعد أن خلفوا وراءهم أفراسهم (التي لا بد ان أصابتها الجراح فأصبحت عاجزة ، لا فائدة منها) . ويورد عماد الدين ملحوظة ، عن عجز الفرسان ، حين تخليهم عن خيولهم . ويشير ابن الأثير الى انهم حاولوا ان ينصبوا خيامهم على قمة التل ، غير انه لم يتوافر من الوقت إلا لما يكفي الملك أن يرتدي ملابسه . وكان الفرسان قد ترجلوا عن خيولهم ، واشتد بهم الاعياء والتعب ، حينما وقعوا في الأسر . واتفق عماد الدين الاصفهاني وابن الاثير فيما أورداه بأن تقي الدين هو الذي استولى على الصليب المقدس . أما رواية الأفضل فتعرض قصة اللحظات الأخيرة في مصير الجيش المسيحي ، على حين ان ابن القادسي يشير في إسهاب الى ان ريحاً عاتية هبّت وقت الظهيرة ، حينما قام المسلمون بهجومهم الاخير .

وما جرى من الأحداث في خيمة صلاح الدين بعد المعركة ، تكاد روايتها تتفق في النص ، عند ارنول ، Estoire d'Eracles ، وعماد الدين الاصفهاني ، وابن الاثير . ولا حاجة للتشكك في قصة الشراب الذي قدمه صلاح الدين للملك جاي لوزيجنان ، أو في قصة مصرع رينالد شاتيون بيد صلاح الدين نفسه .

أما حجم الجيش المسيحي ، فبلغ حسبما ورد في Historia Regni Hierosolymitani ألف فارس من فرسان المملكة فضلاً عن ألف ومائتي فارس أنفق عليهم الملك هنري الثاني ، وأربعة آلاف تركبولية ، وثلاثين الف وألفين من الرجالة ، تولى هنري الثاني الانفاق على سبعة آلاف راجل منهم ، والواضح ان المبالغة جرت في تقدير هذا العدد . ويورد كتاب حملة رتشرد Itinerarium العدد على أنه عشرون ألف ، والراجح

ايضاً ان العــدد لا زال كبيراً . ويصحّ تقدير العدد الحقيقي للفرسان ، بأنهم كانوا ألف فارس ، فضلاً عــن مائتي فارس جهّزهم هنري الثاني ، فيصير الجميع ألفاً ومائتي فارس . اما Estoire d'Eracles فأورد في مخطوطة عدد الجيش كله ، على انــه تسعة آلاف رجل ، وفي مخطوطة اخرى أربعين ألف رجل . وورد في رسالة الاسبتارية انه ألف فارس ، سقطوا في معركة حطين بين قتيل وأسير ، بينما لاذ مائتان بالفرار ، ويذكر ارنول ان ريموند أمير انطاكية صحب معه الى المعركة خمسين او ستين فارساً (اختلفت قراءات المخطوطة) . ويشير تيرنيس الى ان مائتــين وستين من فرسان الداوية لقوا مصرعهم في المعركة ، ولم يكد أحد منهم يفلت من القتل ، سواه وحـــده ، حسب لفظة « nos » التي أوردها . وتذكر رسالة الاسبتارية ان من تبقى على قيد الحياة بلغ مائتي فارس . على ان نسبة الرجالة الى الفرسان لا تبلغ عشرة الى واحـد ، والراجح أنهم لم يقلوا عن عشرة آلاف . وقد يبلغ عدد الخيالة الخفاف ، التركبولية ، أربعة آلاف رجـــل ، غير انه لم يكن لهم فيما يبدو دور خاص في المعركة ، والراجح أنهم كانوا يقلون عن هذا العدد . والراجح ان جيش صلاح الدين كان يزيد قليلاً في العدد على جيش الفرنج ، غير انه لم يتوافر لدينا أعداد يصح الوثوق فيها . وما أورده عماد الدين الاصفهاني من ان الجيش تألف من اثني عشر ألف فارس وعدد كبير من المتطوعة ، لا يخلو من المبالغة ، غير ان هذه المبالغة لم تضارع تلك التى قدر بهـا الجيش المسيحي ، فجعله خمسين ألفاً . (وأمعن بهاء الدين بن شداد في المبالغة ، بأن جعل ممن قتـــل من المسيحيين نحو ثلاثين ألف ، ومن أسر منهم ثلاثين ألفاً ايضاً) . ويصح ان نفترض ان الجيش النظامي لصلاح الدين بلغ حوالي اثني عشر ألف رجل ، غير انه ازداد عدداً بمن انحــاز اليه

من المتطوعة ، ومن الكتائب التي بعث بها حلفاؤه ، فأضحى عدده يقدر بنحو ثمانية عشر ألف رجل . وتعتبر هذه الجيوش عند المسيحيين والمسلمين من أضخم ما احتشد من القوات في ساحة القتال حتى وقتذاك . وبذا يعتبر الحد الأقصى لعدد الجيش عند المسيحيين ، خمسة عشر ألف رجل ، وعند المسلمين ثمانية عشر ألف رجل . على ان الفرسان المسيحيين كانوا خيراً من الفرسان المسلمين في تجهيزهم وإعدادهم ، بينما كان الخيالة الخفيفة عند المسلمين فيما يبدو اكثر إعداداً وتجهيزاً من التركبولية عند الفرنج ، كما ان رجالتهم يفضلون رجالة المسيحيين .

ملاحظات

فيما يلي أهم المصادر عن المعركة

مصادر الفرنج :

Ernoul, pp. 155 - 174.
Estoire d'Eracles, pp. 46 - 49.
De Expugnatione, pp. 218 - 228.

(ورد فيه الرسالة التي وجهها احد الجنويين الى البابا ، ورسالة تيرينس من فرسان الداوية) .

Ambroise, ed - Paris, cols 67 - 70.
Ambert,Expeditio Frederici.

(يحوي رسالة الاسبتارية الى ارشيمبالد) .

Historia Regni Hierosolymitani, pp. 52 - 53.
Annales de la Terre Sainte, p. 218.

المصادر العربية :

Beha ed - Din, P. T. T. S. pp. 110 - 116.
Ibn al - Athir, pp. 679 - 688.

(تحوى وصف الافضل بن صلاح الدين للمعركة) .

Abu Shama, pp. 262 - 289.

(أورد الرواية الكاملة لعماد الدين الاصفهاني عن المعركة ، وفقرات من بهاء الدين بن شداد ومحمد بن القادسي) .

ووردت رواية موجزة عن المعركة في :

Michael the Syrian, III. p. 404.

وما ورد في ابن العبري عن المعركة يفتقر الى الدقـــة برغم طول الرواية . انظر :

Bar - Hebraeus, trans. Budge, pp. 322-324.

خلط ابن العبري بين الملكة سبيللا وايشيفا كونتيسة طرابلس . ولا تتسم بالدقة ايضاً ما ورد من روايات عن المعركة في النسخة الأرمنية لتاريخ ميخائيل السرياني (pp. 396 - 408) وعند Kirakos of Gargar, pp. 420 - 421 .

وتشير الروايات السريانية والارمنية الى ان ريموند كان خائناً .

وجرت مناقشة قيّمة لهذه المصادر ، ودور ريموند في المعركة في :

Baldwin, Raymond, III. of Tripoli, pp. 151 - 160.

الملحق الثالث

معركة حطين

حسبما وصفها المؤرخون المعاصرون من المسلمين

سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م)[١]

رواية عماد الدين الاصفهاني[٢] :

قال العماد في كتابي الفتح والبرق : فبرز السلطان (صلاح الدين) من دمشق يوم السبت ، اول المحرم ، في العسكر العرمرم ، ومضى بأهل الجنة لجهاد اهل جهنم . فلمـــا وصل الى رأس الماء ، أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك ، يستدني اليه الأمراء الواصلين والأملاك ، ويجمع الأغارب والأعاجم والأتراك . وسار السلطان الى بصرى ، وخيم على قصر السلامة . وأقام على ارتقاب اقتراب الحجاج ، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر

---

(١) تعرض رنسيمان لمناقشة ما أورده المؤرخون المعاصرون من الفرنج والمسلمين عن معركة حطين ، فحرصت على إثبات روايات المؤرخين المسلمين .

(٢) انظر ، ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ — ٨٠ .

ابن لاجين ووالدته اخت السلطان مع جماعة من الخواص . وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك ، وهو على طريق العسكر المصري والحاج . ووصل الحاج في آخر صفر ، وخلا سر السلطان من شغلهم . ثم سار ونزل على الكرك وأخاف أهله ، وأخذ ما كان حوله ... ثم سار الى الشوبك وفعل به مثل ذلك . ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين ، وفرّقه على اعمال القلعتين . وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين ، والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة ، والحواصل الحاصلة ، والعساكر الكاسرة ، والقساور القاسرة ، وهو ينتظر أمراً من أبيه ، ويكتب اليه ويقتضيه . وانقضى من السنة شهران ، وطال به انتظار السلطان ، فأنهض منهم سرية وأمرها بالغارة على اعمال طبرية .

ثم سار السلطان وخيّم بعشترا ، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى ، وامتد العسكر فراسخ عرضاً وطولاً ، وملأ بالملأ حزوناً وسهولاً .... وعرض العسكر في اثني عشر الف مدجج ، في ليل العجاج مدلج . ولما تمّ العرض ، تعين الجهاد وتبين الاجتهاد . ثم رتّب السلطان للعساكر أطلاباً ... وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر عازماً على دخول الساحل وأحاط ببحيرة طبرية . ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام عليهم ، وسير ذلك الجيش اليهم ، علموا انه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله ، وأن الايمان كله قد برز الى الشرك كله ، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا وانتخوا ، ودخل القمص معهم بعد ان دخل عليه الملك ، ورمى بنفسه عليه ، وصفّوا راياتهم بصفورية ، ولووا الألوية ، وحشدوا الفارس والراجل ، والرامح والنابل ، ورفعوا صليب الصلبوت ، فاجتمع اليه عبّاد الطاغوت ، وضلال الناسوت واللاهوت . ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل

الأقـانيم ، وصلبوا للصليب الاعظم بالتعظيم ، وما عصاهم من له عصى ، وخرجوا عن العدد والإحصاء ، وكانوا عـــدد الحصى . وصاروا في زهاء خمسين الفاً او يزيدون ، ويكيدون ما يكيدون ، قد توافوا على صعيد ، ووافوا من قريب وبعيد . وهم هنالك مقيمون لا يريمون . والسلطان في كل صباح يسير اليهم ، ويشرف عليهم ، ويبكي فيهم ، ويتعرّض لهم ليتعرضوا له . فربضوا وما نبضوا ، وقعدوا وما نهضوا . فلما رأى السلطان أنهم لا يبرحون ، أمر أمراءه ان يقيموا في مقابلتهم ، ويبدءوا على عزم معاملتهم ، ونزل هو في خواصه العسية على مدينة طبرية ، وعلم انهم اذا علموا بنزوله عليها ، بادروا للوصول اليها . فحينئذ يتمكن من قتالهم ، ويجهـــد في استئصالهم . ثم أحضر الجاندرية والنقابين والخراسانية والحجارين وأطاف بسورها ، وشرع في تخريب معمورها . وأخـذ النقابون في النقب في برج فهدّوه وهدموه ، وتسلقوا فيه وتسلموه . ودخل الليل ، وصباح الفتح مسفر ، وليل الويل على العدو معتكر ، وامتنعت القلعـــة بمن فيها من القمصية وبنيها ، ولما سمع القمص بفتح طبرية ، وأخذ بلده ، سقط في يده ، وخرج عن جلد جَلده ، ومسح الفرنج بسبده ولبده . وقال لهم لا قعود بعد اليوم ، ولا بد لنا من لقاء القوم . واذا اخذت طبرية ، اخذت البلاد ، وذهبت الطراف والتلاد . وما بقي لي صبر ، وما بعد هـــذا الكسر لي جبر . وكان الملك قد حالفه ، فما خالفه ، ووافقه فما نافقه ، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه ، فمادت الارض بحركته ، وغامت السماء من غبرته . ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ، ففرح السلطان وقـال : جاءنا ما نريد ، ونحن أولو بأس شديد ، واذا صحت كسرتهم ، فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ، ولا عن فتحه وازع . واستخار الله تعالى ، وسار وعدم القرار ، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر ، والفرنج

سائرون الى طبرية ، بقضهم وقضيضهم ، وهم كالجبال السائرة ، والبحار الزاخرة ، أمواجها متلطمة ، وأفواجها مزدحمة . فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه ، وحصل بعسكره قدامهم ، وحجز بينهم وبين الماء ، واليوم قيظ ، والخصوم غيظ . وحجز الليل بين الفريقين ، وحجرت الخيل على الطريقين . وهيئت دركات النيران ، وهنئت درجات الجنان . وانتظر مالك ، واستبشر رضوان ، فهي ليلة القدر خير من الف شهر ، تنزل فيها الملائكة والروح ، وفي سحرها نشر الظفر يفوح ، وفي صباحها الفتوح ، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . وبتنا والجنة معروضة ، والسنة مقروضة ، والكوثر واقفة سقاته الخلد ، قاطفة جناته ، والسلسبيل واضح سبيله . والإقبال ظاهر قبيله ، والظهور قائم دليله ، والله ناصر الإسلام ومديله . وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب ، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال ، وكان ما فرّقه من النشاب اربعمائة حمل ، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى ، يأخذ منها من خلت جعابه ، وفرغ نشابه ، حتى اذا اسفر الصباح ، خرج الجاليشية تحرق بنيران النضال ، اهل النار . ورنت القسى وغنّت الأوتار إذ ذاك ، واليوم ذاك ، والجيش شاك ، وللقيظ عليهم فيض ، وما للفيظ منهم غيض . وقد وَقَد الحر واستشرى الشر ، ووقع الكر والفر ، والسراب طافح والظماء لافح ، والجو محرق ، والجوى مقلق . ولأولئك الكلاب من اللهث لهث ، وبالعيث عيث ، وفي ظنهم انهم يردون الماء . فاستقبلتهم جهنم بشرارها ، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها ، وذلك في يوم الجمعة ، بجموع اهلها المجتمعة ، ووراء عسكرنا بحيرة طبرية ، والورد عد ، وما منه بعد . وقد قطعت على الفرنج طريق الورود ، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود . فوقفوا صابرين مصابرين ، مكابرين ، مضابرين ،

فكلبوا على ضراوتهم ، وشربوا ما في أدواتهم ، وشفهوا مـــا حولهم من موارد المصانع ، واستترفهوا حتى مـاء المدامع ، وأشرقوا على المصير الى المصارع . ودخل الليل ، وسكن السيل ، وباتوا حيـــارى ، ومن العطش سكارى ، وهم على شغف البحيرة بحيرة ، وقووا انفسهم على الشدة ، واستعدوا بالعزائم المحتدة ، وقالوا غداً نصب عليهم مـاء المواضي ، ونقاضيهم الى القواضب القواضي ، فأجدوا عزم البلاء ، وطلبوا البقـــاء ، بالتورط في الفناء . وأما عساكرنا ، فانها اجترأت ، ومن كل ما يعوق برئت ، فهذا لسنانه شاحذ ، وهذا لعنانه آخذ ، وهذا شهم موفق ، وهذا مكثر للتكبير ومنتظر للتبكير ، وهذا تاج للسعادة ، وهذا راج للشهادة ، فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة ، ومن سحر انفاسها ألطاف الله المتداركة . والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله . فهو يمضي بنفسه على الصفوف ، ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف ، وهم بمشاهدته إياهم يجيـدون ، ويجدّون ويصدّون العدو ، ويردون . وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس ، حمل في اول الناس ، وكان حصانه قوي الرأس ، فأبعد عن اخوانه ، ولم يتابعه احد من اقرانه ، فانفرد به الفرنج ، فأثبت في مستنقع الموت رجـله ، وقاتل الى ان بلغوا قتله . ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده ، حميت حميتهم ، وخلصت لله نيتهم . وأصبح الجيش على تعبيته ، والنصر على تلبيته ، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، وهو يوم النصرة ووقوع الكسرة ، وبرح بالفرنج العطش ، وأبت عثرتها ان تنتعش . وكان النسيم من امامهم ، والحشيش تحت أقدامهم ، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النـــار في الحشيش ، فتأجج عليهم استعارها ، وتوهج أوارها ، فبلوا ، وهم اهل التثليث ، من نار الدنيا ، بثلاثة اقسام ، في الاصطلا ، والاصطلام ، نار الضرام ، ونار الأوام ، ونار السهام . فرَجا الفرنج فرَجاً ،

وطلب طلبهم المخرج مخرجـاً ، فكلما خرجوا ، جرحوا ، وبرح بهم حر الحرب ، فمـا برحوا وهم ظمأى وما لهم ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند ، فشوتهم نار السهام ، وأشوتهم ، وصممت عليهم قلوب القسى القاسية وأصمتهم وأعجزوا ، وأزعجوا ، وأحرجوا وأخرجوا . وكلما حملوا ، ردوا وروداً ، وكلما ساروا او شدّوا ، أسروا وشدّوا ، وما دبّت منهم نملة ، ولا ذبت عنهم حملة ، واضطرموا واضطربوا والتهفوا والتهبوا ، وناشبهم النشاب ، فعادت أسودهم قنافذ ، وضايقتهم السهام ، فوسعت فيهم الخرق النافذ ، فآووا الى جبل حطين ، ليعصمهم من طوفان الدمـار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار ، ورشقتهم الظبى ، وقرشتهم على الربى ، ورشقتهم الحنايا وقشرتهم المنايا وقوشتهم البلايا ، ورقشتهم الرزايا . ولمـا أحس القمص بالكسرة ، حسر عن ذراع الحسرة ، وافتال من العزيمة ، واحتال في الهزيمة ، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع ، واضطرام الجمر ، فخرج بطلبه يطلب الخروج ، وأعوج الى الوادي ، ومـا ودّ ان يعوج ، ومضى كومض البرق ، ووسع خطى خرقه ، قبل اتساع الخرق ، وأفلت في عدة معدودة ، ولم يلتفت الى مودة مردودة . وكان قـال لأصحابه أنا أسبقكم في الحملة ، وأفضلكم في الجملة ، فاجتمع هو ومؤازروه وجماعة من المقدمين مظافروه ، وصحبه صاحب صيدا باليان بن بارزان ، وتآمروا على أنهم يحملون ويبلغون الطعان ، فحمل القمص ومن معـه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين ، وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين ، ففتح لهم طريقاً ، ورمى من اتباعهم فريقاً ، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم .

ولما عرف الفرنج ان القمص أخذ بالغريمة ، ونفـذ في الهزيمة ، وهنوا

وهانوا ثم اشتدوا وما لانوا ، وثبتوا على ما كانوا ، واستقبلوا واستقلوا ، واستلحموا وحملوا ، ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء ، وصببنا ماء الحديد بلا إطفاء ، فزاد في الإذكاء ، فحطوا خيامهم على غارب حطين ، حين رأونا بهم محيطين ، فأعجلناهم عن ضرب الخيام ، بضرب الهام ، ثم استحر الحرب ، واستمر الطعن والضرب . وأحيط بالفرنج من حواليهم ، ودارت الدوائر عليهم . وتوجوا خيراً ، فترجلوا عن الخيل ، وجرفهم السيف جرف السيل . وملك عليهم الصليب الأعظم ، وذاك مصابهم الأعظم . ولما شاهدوا الصليب سليباً ، ورقيب الردى قريباً ، أيقنوا بالهلاك ، وأثخنوا بالضرب الدراك . فما برحوا يؤسرون ويُقتلون ويخمدون ويخملون ، وللوثوب يخفون ، وبالجراح يثقلون ، وفي مصارع القتل الى معاصر الأسر يُنقلون ، ووصلنا الى مقدمهم وملكهم وابرنسهم ، فتمّ أسر الملك وابرنس الكرك ، وأخي الملك ، جفري ، وأوك صاحب جبيل ، وهنفري بن هنفري وابن صاحب اسكندرونة ، وصاحب مرقية ، وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها ، ومن الاسبتارية معظمها ، ومن البارونية من أخطأه البوار ، فأصابه وساءه الأسار . وأسر الشيطان وجنوده ، وملك الملك وكنوده ، وجبر الاسلام بكسرهم ، وقتلوا وأسروا بأسرهم . فمن شاهد القتلى ، قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى ، قال ما هناك قتيل ، وقد استولى الفرنج على ساحل الشام ، ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل ، فالله عزّ وجلّ ، سلّط السلطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوك ، وهداه بين التوفيق لامتثال امره ، ومن إقامة فرضه للنهج المسلوك ، ونظم له في حقوق أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك ، وخصه بهذا اليوم الأغر ، والنصر الأبرّ واليمن الأسرّ والنجح الأدرّ . ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم لكان متفرداً على الملوك السالفة ؛ فكيف ملوك العصر في السحر والصوم .

غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمة ، ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة .

ومن عجائب هذه الوقعة وغرائب هذه الدفعة ، ان فارسهم ما دام فرسه سالماً لم يذل للصرعة ، فإن من لبسه الزردي من قرنه الى قدمه كان كأنه قطعة حديد ، ودراك الضرب اليه غير مفيد ، لكن فرسه اذا هلك ، فُرِس وُملك ، فلم يُغنم من خيلهم ودوابهم ، وكانت ألوفاً ، ما هو سالم . وما ترجّل فارس ، إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم . وغنمنا ما لا يحصر من بيض مكنون ، زغف موضون ، وبلاد وحصون ، وسهول وحزون . وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل اقليم مصون ، وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون ، واستخرج من كنز مدفون ، وصحّت هـذه الكسرة ، وتمّت هذه النصرة ، يوم السبت . وضربت ذلة اهل السبت على اهل الاحد ، وكانوا اسوداً ، فعادوا من النقد ، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد ، وما نجا من اولئك الأعداء إلا أعداد . وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى ، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى ، وقيدت الأسارى في الحبال واجبة القلوب ، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب . وحطت حطين تلك الجيف عن متنها ، وطاب نشر النصر بنتنها ، وعبرت بهـا ، فألفيتها محل الاعتبار ، وشاهدت ما فعل اهل الإقبـال بأهل الإدبار ، وعاينت أعيانهم خبراً من الأخبـار ، ورأيت الرؤوس طائرة ، والنفوس بائرة ، والعيون غائرة ، والجسوم رسمتها السوافي ، والرسوم درستها العوافي ، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء ، عراة ممزقـة ، بالمازق مفصلة المفاصل ، مفرقـة المرافق ، مفلقة المفارق ، محذوفة الرقاب ، مقصوفة الأصلاب ، مقطعة الهام ، موزعة الأقدام ، مجذوعة الآناف ، منزعة الأطراف ،

مفقوءة العيون ، مبعوجة البطون ، منصفة الأجساد ، مقصفة الأعضاد ، مقلصة الشفاة ، مخلصة الجباة ، سائلة الأحداق ، مائلة الأعناق ، عديمة الأرواح ، هشيمة الاشباح ، كالاحجار بين الاحجار عبرة لأولي الابصار .

ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب ، وقد قطعوا آراباً ، تلوت قول الله تعالى : « ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » .

فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث ، وما ألهب عذبات العذاب في تلك الجثث . وما احسن عمارات القلوب ، بقبح ذلك الشعث . وما أجزأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث .

هذا حساب من قتل ، فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره ، وعده . وأما من أسر ، فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده . ولقد رأيت في الحبل الوحد ، ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفي بقعة واحدة ، مائة ومائتين يحميهم حارس ، وهناك العتاة عناة ، والعداة عراة ، وذوو الأسرة أسرى ، وأولو الأثرة عثرى ، والقوامص قنائص ، والفوارس فرانس ، وغوالي الارواح رخائص ، ووجوه الداوية عوابس ، والرؤوس تحت الأخامص . فكم أصيد صيد ، وقائد قيد ، وملك مملوك ، وهاتك مهتوك ، وحر في الرق ، ومبطل في يد الحق . ولم يؤسر الملك حتى اخذ صليب الصلبوت ، وأهلك دونه الطاغوت ، وهو الذي اذا نصب وأقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صُلب عليها معبودهم ، وقد غلّفوه بالذهب الاحمر ، وكلّلوه بالدرّ والجوهر ، وأعدّوه ليوم الروع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود . فإذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤوس ، تبادروا اليه ، وانثالوا عليه . ولا يسع احدهم

عنه التخلف ، وللمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف ، وأخذه عنـــدهم أعظم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك ، فإن الصليب السليب ما له عوض ، ولا لهم في سواه غرض ، والتأله له عليهم مفترض ، فهو إلههم ، تعفر له جباههم ، وتبسم له أفواههم ، يتغاشون عند إحضاره ، ويتعـاشون لإبصاره ، ويتلاشون لإظهاره ، ويتفـاضون اذا شاهدوه ، ويتواجدون اذا وجدوه . ويبذلون دونه المهج ، ويطلبون به الفرج ، بل صاغوا على مثله صلباناً يعبدونها ، ويخشعون لهـا في بيوتهم ويشهدونها . فلما أخذ هـــذا الصليب عَظُم مصابهم ، ووهَت أصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيماً ، والموقف المنصور كريماً ، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب ، لم يتخلف احـــد عن يومهم العصيب ، فهلكوا قتلاً وأسراً ، وملكوا قهراً وقسراً . ولما صحّ الكسر ، وقضي الامر ، وتمكن النصر ، وسكن البحر ، ضرب السلطان في تلك الحومة دهليز السرادق ، وتوافت اليه حماة الحقائق ، ونزل السلطان وصلى للشكر ، وسجد وجدّد الاستبشار بما وجده ، وأحضر عنده من الأسارى ، الملك والبرنس ، وأجلس الملك بجنبه .

وقال العماد في كتاب الفتح : وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى ، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى . فقدم بداية مقدم الداوية ، وعدة كثيرة منهم ومن الاسبتارية . وأحضر الملك كي وأخوه جفري ، وأوك صاحب جبيل ، وهنفري والابرنس أرناط صاحب الكرك ، وهو اول مَن وقع في الشرك . وكان السلطان نذر دمه ، وقـال لأعملنّ عنـد وجدانه عدمه . فلمـــا حضر بين يديه أجلسه الى جنب الملك ، والملك بجنبه ، وقرّعه على عذره وذكّره بذنبه ، وقال له : كم تحلف وتحنث ، وتعهـد

وتنكث ، وتبرم الميثاق وتنقض ، وتقبل على الوفاق ثم تُعرض . فقـــال الترجمان عنه : إنه يقول قد جرت بذلك عادة الملوك ، وما سلكت غير السن المسلوك . وكان الملك يلهث ظمأ ، ويميل من سكرة الرعب منتشياً ، فأسّه السلطان وحاوره ، وقثأ سورة الوجل الذي ساوره ، وسكن رعبه وأمن قلبه ، وأمر له بماء مثلوج فشربه وأطفأ به لهبـه . ثم ناول الملك الابرنس القدح فاستشفه وبرّد به لهفه . فقال السلطان للملك : لم تأخذ في سقيه مني إذناً ، فلا يوجب ذلك له مني أمناً . ثم ركب وخلاهما ، وبنار الوهل أصلاهمـــا . ولم ينزل الى ان ضرب سرادقه ، وركزت أعلامه وبيارقه ، وعادت الى الحمى عن الحومة فيالقه . فلما دخل سرادقه استحضر الابرنس ، فقام اليه وتلقاه بالسيف ، فحلّ عاتقه . وحين صُرع أمر برأسه فقطع ، وجُرّ برجله قدّام الملك حتى أخرج ، فارتاع الملك وانزعج . فعرف السلطان أنــه خامره الفزع ، وساوره الهلع ، وسامره الجزع ، فاستدعاه واستدناه ، وأمّنه وطمّنه ، وأمّنه من قربه وسكّنه ، وقـــال له : ذاك رداءته أردته ، وغدرته كما تراه غادرته ، وقد هلك بغيه وبغيه ...

رواية ابن شداد(١)

ذكر غزاة أنشأها الى الكرك :

لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، عزم صلاح الدين على قصد الكرك ، فسيّر الى محروسة حلب مَن يستحضر العسكر ، وبرز من دمشق

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، نشر جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٤ — ٧٩ .

في منتصف المحرم ، فسار حتى نزل بأرض نيطرة (المنيطرة) منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية ، وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارات على ما في طريقهم من البلاد الساحلية ، ففعلوا ذلك . وأقام بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي الى الشام ، وأمنوا غائلة العدو .

وفي تاسع صفر ، سار الملك المظفر (تقي الدين عمر) ، بعسكر حلب الى حارم ، ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل ، فعاد السلطان الى الشام .

وفي يوم الخميس سابع عشر صفر ، نزل بعشترا ، ولقيه ولده الملك الأفضل ، ومظفر الدين (كوكبوري) بن زين الدين وجميع العساكر .

وكان قد تقدم الى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الافرنج ، ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد ، فصالحهم الملك المظفر في العشر الأواخر من ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وتوجه الى حماة يطلب خدمة السلطان الغزاة التي عزم عليها ، فسار ومَن اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته ، وهم : عسكر الموصل مقدمهم مسعود بن الزعفراني ، وعسكر ماردين ، الى ان أتوا عشترا في العشر الاوسط من ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فلقيهم السلطان واحترمهم وأكرمهم .

وفي منتصف هذا الشهر عرض السلطان العسكر لأمر قد عزم عليه ، على تل يُعرف بتل نسيل ، وتقدم الى ارباب الميمنة تحفظ موضعهم ، والى اصحاب الميسرة بذلك ، والى اصحاب القلب بمثله ، قدّس الله روحه ، فما كان أحرصه على نصر الاسلام .

ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين :

كانت هذه الوقعة في يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر ، سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . وذلك ان السلطان رأى ان نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك ، وتمكين الله إياه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ولزومهم قانون خدمته ، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في إقامة قانون الجهاد . فسيّر الى سائر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا اليه بعشترا في التاريخ المذكور ، وعرضهم ورتبهم ، واندفع قاصداً بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة سابع عشر من ربيع الآخر ، وكان ابداً يقصد بوقعاته الجُمَع لا سيا أوقات الصلاة ، تبرُّكاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب الى الإجابة .

فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه ان العدو لما بلغهم انه قد جمع العساكر ، اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدوا نحو المصاف معهم . فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة ورحل من هناك . ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب ، منتظراً ان الافرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم .

وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخر المذكور ، فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب بحالها قبالة وجهة العدو ، ونازل طبرية وزحف عليها ، فهاجمها وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدّت الأيدي اليها بالنهب والأسر والحريق والقتل ، واحتمت القلعة وحدها .

ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية ، لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفاع عنها ، فأخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الافرنج ، فسيّروا الى السلطان من عرف ذلك ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس ، الثاني والعشرين .

وحال الليل بين الفئتين ، فتبايتا على مصاف شاكين في السلاح ، الى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين ، فركب العسكران وتصادما . وعملت الجاليشية ، وتحركت الأطلاب ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحسّت أنفسهم أنهم في غد زوّار القبور .

ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قرنه يصطدم ، حتى لم يبق إلا الظفر ، ووقوع الوبال على من كفر . فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرت في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والامور الجسيمة ، ما لم يُحكَ عمن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة ، وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضلاً عن الركوض .

حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه ، فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة ان المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس ، وتحقق المسلمون ان من ورائهم الاردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى .

وكان الله قدّر نصر المؤمنين ويسّره ، وأجراه على وفق ما قدّره ، فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ، « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

وكان القومص ذكي القوم وألمعيهم ، فرأى امارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن نفسه ، فهرب في أوائل الامر قبل اشتداده ، وأخذ طريقه نحو صور ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، وأمن الاسلام كيده ، واحتاط اهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وعاملوهم بالصفاح ، وانهزمت منهم طائفة ، فتبعها ابطال المسلمين ، فلم ينج منهم واحـــد ، واعتصمت الطائفة الاخرى بتل يقـال له تل حطين ، وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليـه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء ، فضايقهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حواليهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الامر ، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل ، فأسر مقدموهم ، وُقتل البـــاقون وأُسروا ، وكان فيمن سَلِم وأُسر من مقدميهم الملك جفري ، والبرنس أرناط ، وأخو الملك ، والبرنس ، وهو صاحب الشوبك ، وابن الهنفري ، وابن صاحبة طبرية ، ومقـدم الداوية ، وصاحب جبيل ، ومقدم الاسبتارية .

وأما الباقون من المقدمين فانهم ُقتلوا ، وأمـا الأدواق فانهم ُقسموا الى قتيل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا َمن أسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد الى الأسر خوفاً على نفسه . ولقـد حكى لي َمن أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمـة فيه نيف وثلاثون أسيراً يجرُّهم

وحده ، لخذلان وقع عليهم . فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم .

أما القومص الذي هرب فانه وصل الى طرابلس وأصابته ذات الجنب فأهلكه الله بها .

وأما مقدم الاسبتارية والداوية فان السلطان اختار قتلهم ، فقتلوا عن بكرة ابيهم .

وأمـا البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر انه اذا ظفر به قتله ؛ وذلك انه كان عبر به الشوبك قفل من الديار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال مـا يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم . وبلغ ذلك السلطان ، فحمله الدين والحمية على انه نذر إن ظفر به قتله .

ولما فتح الله تعـالى عليه بالنصر والظفر ، جلس السلطان في دهليز الخيمة ، فانها لم تكن نُصبت ، والناس يتقربون اليه بالأسرى ومَن وجدوه من المقدّمين .

ونُصبت الخيمة ، وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما انعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك جفري وأخـاه والبرنس ارناط ، وناول الملك جفري شربة من جلاب مثلج ، فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس ارناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك ، انت الذي تسقيه ، وإلا انا ما سقيته .

وكان على جميل عادة العرب وكريم اخلاقهم ان الاسير اذا أكل او شرب من ماء لمن أسره أمن ، فقصد بذلك الجري على مكارم الاخلاق .

ثم أمرهم بسيرهم الى موضع عُيِّن لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عاد فاستحضرهم ، ولم يبقَ عنــده احد سوى بعض الخدم ، واستحضرهما وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس ارناط ووافقه على ما قال .

وقال له : هاأنذا أستنصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل ، فسلَّ النمجاة وضربه بها ، فحلَّ كتفه ، وتمم عليه من حضر ، وعجَّل الله بروحه الى النار ، فأخذ ورُمي على باب الخيمة .

فلما رآه الملك ، وقد خرج به على تلك الصورة ، لم يشك انــه يثنى به ، فاستحضره السلطان وطيَّب قلبه وقال : لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك ، وأما هذا فانه تجاوز حده ، فجرى ما جرى .

وبات النـــاس في تلك الليلة على أتمّ سرور ، وأكمل حبور ، ترتفع اصواتهم بالحمد لله والشكر له ، والتكبير والتهليل ، حتى طلع الصبح من يوم الاحد .

ذكر أخذ قلعة طبرية :

ولما كان يوم الاحد الخامس والعشرين من ربيـع الآخر ، نزل ، قدّس الله روحه ، على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها ، وأقام بهــا الى يوم الثلاثاء .

رواية ابن الاثير (١)

ذكر حصر صلاح الدين الكرك

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . وفي هذه السنة كتب صلاح الدين

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، القاهرة . جـ ٩ ، ص ١٧٥ — ١٧٩ .

الى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد ، وكتب الى الموصل وديار الجزيرة وأربل وغيرها من بلاد الشرق ، والى مصر وسائر بلاد الشام ، يدعوهم الى الجهاد ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم بالتجهز له بغــاية الامكان . ثم خرج من دمشق اواخر المحرم في عسكرها وحلقتها الخاص ، فسار الى رأس الماء ، وتلاحقت به العساكر الشامية . فلمــا اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الافضل علي ، ليجتمع اليه من يرد اليه منها ، وسار هو الى بصرى جريدة . وكان سبب مسيره وقصده اليهــا أنه أتته الاخبار ان البرنس أرناط صاحب الكرك يريد ان يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم ، وأظهر أنه اذا فرغ من اخذ الحجاج ، يرجع الى طريق العسكر المصري ، يصدهم عن الوصول الى صلاح الدين ، فسار الى بصري ليمنع البرنس أرناط من طلب الحجاج ، ويلزم بلده خوفاً عليه . وكان من الحجاج جماعة من اقاربه ، منهم محمد بن لاجين وهو ابن اخت صلاح الدين وغيره . فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه ، وانقطع عما طمع فيه . فوصل الحجاج سالمين . فلما وصلوا ، وفرغ سره من جهتهم ، سار الى الكرك وبثّ سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما ، فنهبوا وخربوا وأحرقوا والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده ، وسائر الفرنج قــد لزموا طرق بلادهم خوفــاً من العسكر ، الذي مع ولده الافضل ، فتمكن من الحصر والنهب والحريق والتخريب . هكذا فعل صلاح الدين .

ذكر الغارة على بلد عكا :

ارسل صلاح الدين الى ولده الافضل ، يأمره ان يرسل قطعــة صالحة من الجيش الى بــلد عكا ، ينهبونه ويخربونه ، فسيّر مظفر الدين كوكبري ابن زين الدين صاحب حران والرها ، وأضاف اليه قايماز النجمي ودلدرم

الياقوتي ، وهما من اكابر الأمراء وغيرهما ، فساروا ليلاً ، وصبحوا صفورية ، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود . ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، فانهزم الفرنج ، وقتل منهم جماعة وأُسر الباقون . وفيمن قتل مقدم الاسبتارية ، وكان من فرسان الفرنج المشهورين ، وله النكايات العظيمة في المسلمين . ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد ، وغنموا وسبّوا وعادوا سالمين . وكان عودهم على طبرية ، وبها القمص ، فلم ينكر ذلك ، فكان فتحاً كبيراً ، فان الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج ، وسيرت البشائر الى البلاد بذلك .

ذكر عود صلاح الدين الى عسكره ودخوله الى الفرنج :

لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية ، وقتل من قتل منهم ، وأسر من أسر منهم ، عاد عن الكرك ، وساروا جميعاً . وعرض العسكر ، فبلغت عدتهم اثني عشر الف فارس ممن له الإقطاع والجامكية سوى المتطوعة ، فعبأ عساكره ، قلباً وجناحين ، وميمنة وميسرة ، وجاليشية وساقة . وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته . وسار على تعبية ، فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية . وكان القمص قد انتمى الى صلاح الدين ، كما ذكرنا ، وكتبه متصلة اليه ، يعدّه النصرة ، ويمنّيه المعاضدة « وما يَعِدُهم الشيطان إلا غروراً » . فلما رأى الفرنج العساكر الاسلامية ، وتصميم العزم على قصد بلادهم ، ارسلوا الى القمص البطريرك والقسوس والرهبان وكثيراً من الفرسان ، فأنكروا عليه انتماءه الى صلاح الدين . وقالوا له : لا شك أسلمت ، وإلا لم تصبر على فعل المسلمين امس بالفرنج ، يقتلون الداوية والاسبتارية ، ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك ، وأنت لا تنكر ذلك ، ولا تمتنع عنه . ووافقهم على ذلك من عنده من

عسكر طبرية وطرابلس ، وتهدّده البطريرك ان يحرمه ويفسخ عليه نكاح زوجته ، الى غير ذلك من التهديد . فلما رأى القمص شدة الامر عليه خاف واعتذر وتنصل وتاب ، فقبلوا عذره وغفروا زلته ، وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والمؤازرة على حفظ بلادهم ، فأجابهم الى المصالحة والانضمام اليهم والاجتماع بهم ، وسار معهم الى ملك الفرنج . واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ، ولم تغن عنهم من الله شيئاً ، وجمعوا فارسهم وراجلهم . ثم ساروا من عكا الى صفورية ، وهم يقدمون رجلاً ، ويؤخرون اخرى ، وقد ملئت قلوبهم رعباً .

ذكر فتح صلاح الدين طبرية :

لما اجتمع الفرنج وساروا الى صفورية ، جمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم ، فأشار اكثرهم عليه بترك اللقاء ، وان يضعف الفرنج بشن الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة . فقال له بعض أمرائه : الرأي عندي اننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي ، فإن وقف احد من عسكر الفرنج بين أيدينا ، لقيناه ، فان الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار ، وأقبل يريد قتال المسلمين . والرأي ان نفعل فعلاً نعذر فيه ، ونكفّ الألسن عنا . فقال صلاح الدين : الرأي عندي ان نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار ، فان الامور لا تجري بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي ان نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد . ثم رحل من الاقحوانة في اليوم الخامس من نزوله بها ، وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر . فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم حتى قارب الفرنج ، فلم يرَ منهم احداً ، ولا فارقوا خيامهم . فنزل ، وأمر العسكر بالنزول . فلما جنّ الليل ، جعل في مقابل

الفرنج مَن يمنعهم من القتـــال ، ونزل جريدة الى طبرية وقاتلها ، ونقب بعض أبراجها ، وأخذ المدينة عنوة في ليلة . ولجأ مَن بهـا الى القلعة التي لها ، فامتنعوا بها ، وفيها صاحبتها ومعها اولادها ، فنهب المدينة وأحرقها . فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية وملكه المدينة ، وأخذ ما فيها وإحراقها ، وإحراق ما تخلّف مما لا يُحمل ، اجتمعوا للمشورة ، فأشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية . فقال القمص : ان طبرية لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل ، وبقي القلعة وفيها زوجتي ، وقد رضيت ان يأخذها وزوجتي وما لنـا بها ، ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديماً وحديثاً ، ما رأيت مثل هـــذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة . واذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بهـا لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم ، فيضطر الى تركها ، ونفتك مَن أسُر منا . فقـــال له برنس ارناط صاحب الكرك : قد أطلتَ في التخويف من المسلمين ، ولا شك انك تريدهم ، وتميل اليهم ، وإلا ما كنت تقول هـذا . وأما قولك انهم كثيرون ، فان النار لا يضرُّها كثرة الحطب . فقال : انا واحد منكم ، إن تقدمتم تقدمت ، وإن تأخرتم تأخرت ، وسترون مـا يكون . فقوي عزمهم على التقدم الى المسلمين وقتالهم ، فرحلوا عن معسكرهم الذي لزموا وقربوا من عساكر الاسلام . فلما سمع صلاح الدين بذلك ، عاد من طبرية الى عسكره وكان قريباً منه ، وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ، ليتمكن من قتـــالهم . وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر ، فوجد الفرنج العطش ، ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين ، وكانوا قد أفنوا مـا هناك من ماء الصهاريج ،

ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين ، فبقوا على حالهم الى الغـد ، وهو يوم السبت ، وقد أخذ العطش منهم . وأمـا المسلمون فانهم طمعوا فيهم ، وكانوا من قبل يخافونهم ، فباتوا يحرّض بعضهم بعضاً ، وقد وجدوا ريح النصر والظفر . وكلما رأوا حال الفرنج ، خلاف عادتهم ممـا ركبهم ركبهم من الخذلان ، زاد طمعهم وجرأتهم ، فأكثروا التكبير والتهليل ، طول ليلتهم ، ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية ، وفرّق فيهم النشاب .

ذكر انهزام الفرنج بحطين :

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر ، فركبوا وتقدموا الى الفرنج ، فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض ، إلا ان الفرنج قد اشتد بهم العطش ، وانخذلوا فاقتتلوا واشتد القتال ، وصبر الفريقان ، ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر ، فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً . هذا القتال بينهم والفرنج قـــد جمعوا نفوسهم براجلهم ، وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية ، لعلهم يردون المـاء . فلما علم صلاح الدين مقصدهم ، صدّهم عن مرادهم ، ووقف بالعسكر في وجوههم ، وطاف بنفسه على المسلمين يحرّضهم ويأمرهم بمـــا يصلحهم ، وينهاهم عما يضرّهم ، والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه ، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج ، فقاتل قتـالاً عجب منه الناس . ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه . فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ، ضعضعوا الكفار ، وقتلوا منهم كثيراً . فلمـا رأى القمص شدة الامر ، علم انهم لا طاقة لهم بالمسلمين فاتفق هو وجماعة ، وحملوا على من يليهم . وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين . فلمـا رأى حملة الفرنج حملة مكروب ، علم انه لا سبب إلا

الوقوف في وجوههم ، فأمر اصحابه ان يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه ، وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الارض ناراً ، وكان الحشيش كثيراً فاحترق . وكانت الريح فحملت حر النار والدخان اليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان ، وحر القتال . فلما انهزم القمص سقط في أيديهم ، وكادوا يستسلمون . ثم علموا انهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا حملات متداركة ، كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم ، لولا لطف الله بهم ، إلا ان الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قُتل منهم ، فوهنوا لذلك وهناً عظيماً ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها ، فارتفع مَن بقي من الفرنج الى تل بناحية حطين ، وأرادوا ان ينصبوا خيامهم ويحموا انفسهم به ، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعوهم عما أرادوا ، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير . وأخذ المسلمون صليبهم الاعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ، ويذكرون ان فيه قطعة من الخشبة التي صُلب عليها المسيح عليه السلام ، بزعمهم ، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم ، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك . هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم ؛ فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين . فحكى لي عن الملك ، الافضل ولد صلاح الدين ، قال : كنت الى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو اول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على ما بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي . قال : فنظرت اليه ، وقد علته كآبة ، واربد لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان . قال : فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا وصعدوا الى التل . فلما رأيت الفرنج قد عادوا ، والمسلمون يتبعونهم ،

صحتُ من فرحي : هزمناهم . فعاد الفرنج ، فحملوا حملة ثانية مثل الاولى ، ألحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثل ما فعل اولاً . وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل ، فصحتُ انا ايضاً : هزمناهم ، فالتفت والدي إليّ وقال : اسكت ، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة . قـال : فهو يقول لي ، واذا الخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى ، فبكى من فرحه . وكان سبب سقوطها ، ان الفرنج لما حملوا تلك الحملات ، ازدادوا عطشاً ، وقـد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات لما هم فيه ، فلم يجدوا الى الخلاص طريقاً ، فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الارض ، فصعد المسلمون اليهم ، فألقوا خيمـة الملك وأسروهم عن بكرة ابيهم ، وفيهم الملك وأخوه ، والبرنس ارناط صاحب الكرك ، ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين ، وأسروا ايضاً صاحب جبيل ، وابن هنفري ، ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شأناً ، وأسروا ايضاً جمـاعة من الداوية ، وجماعة من الاسبتارية ، وكثر القتل والأسر فيهم . فكان من يرى القتلى لا يظن انهم أسروا احداً ، ومن يرى الأسرى لا يظن انهم قتلوا احداً . وما أصيب الفرنج منـذ خرجوا الى الساحل ، وهو سنة احدى وتسعين واربعمائة ، الى الآن بمثل هذه الوقعة ، فلما فرغ المسلمون منهم ، نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنـده ، وبرنس صاحب الكرك ، وأجلس الملك الى جانبه ، وقـد أهلكه العطش ، فسقاه ماء مثلوجاً ، فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك ، فشرب . فقـال صلاح الدين : ان هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني ، فينال أماني . ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه ، وعدّد عليه عوراته ، وقـام اليه بنفسه فضرب رقبته ، وقال : كنت نذرت دفعتين ان أقتله إن ظفرت به ، احداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القفل غدراً . فلما قتله ،

وسُحب وأُخرج ، ارتعدت فرائص الملك ، فسكن جأشه وأمّنه . وأما القمص صاحب طرابلس ، فانه لما نجا من المعركة ، كما ذكرنا ، وصل الى صور ، ثم قصد طرابلس . ولم يلبث إلا اياماً قلائل حتى مات غيظاً وحنقاً ، بما جرى على الفرنج خاصة ، وعلى دين النصرانية عامة .

ذكر عود صلاح الدين الى طبرية وملك قلعتها مع المدينة :

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج ، اقام بموضعه باقي يومه . وأصبح يوم الاحد ، عاد الى طبرية ونازلها ، فأرسلت صاحبتها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ، ومالها ، فأجابها الى ذلك ، فخرجت بالجميع ، فوفى لها ، فسارت آمنة . ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الأسرى فأرسلوا الى دمشق ، وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية ان يُجمَعوا ليقتلهم . ثم علم ان من عنده لسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه . فبذل في كل اسير من هذين الصنفين خمسين ديناراً مصرية . فأحضر عنده في الحال مائتا اسير ، فأمر بهم فضربت اعناقهم ، وإنما خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج ، فأراح الناس من شرهم . وكتب الى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم ، سواء كان له او لغيره ، ففعل ذلك . ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الارض ملأى من عظامهم ، تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ، ومنها المفترق ، هذا سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع من تلك الآكام والوهاد .

الملحق الرابع

أنساب الأسرات الحاكمة

ملوك بيت المقدس

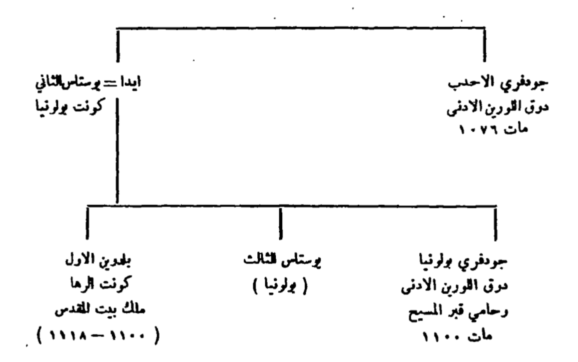
– ١ –

جودفري الملتحي

دوق اللورين الأدنى (مات ١٠٦٩ م) .

= (١) دودا .

= (٢) بياتريس والدة الكونتيسة ماتيلدا .



تابع ملوك بيت المقدس

- ٢ -

بلدوين الثاني (١١١٨ — ١١٣٠)
(ابن عم بلدوين الاول)

ميليسند = فولك انجو
(١١٣٠ — ١١٧٤)

بلدوين الثالث
١١٤٣ — ١١٦٣

املريك الاول
١١٦٣ — ١١٧٤

بلدوين الرابع
١١٧٤ — ١١٨٥

سيبللا = (١) وليم مونتفيرات

بلدوين الخامس
١١٨٥ — ١١٨٦

(٢) جاي لوزيجنان
١١٨٦ — ١١٩٢

ايزابيلا = كنراد مونتفيرات
١١٩٢

= هنري شمبانيا
١١٩٢ — ١١٩٧

= املريك الثاني (قبرص)
١١٩٧ — ١٢٠٥

ماري = يوحنا برين (١٢١٠ — ١٢٢٢)
يولندا = الامبراطور فردريك الثاني
(ماتت ١٢٥٠)

املريك الثالث
مات ١٢٠٦

كونتات الرها

١ – يوستاس الاول كونت بولونيا

ايدا = بلدوين لى بور
كونت ريتل

هيو الاول ريتل

بلدوين لى بور (بلدوين الثاني)
كونت الرها ١١٠٠ – ١١١٨

ميليسند = فولك انجو

اليس
(بوهمند الثاني)
انطاكية

هوديرنا
(ريموند الثاني طرابلس)

يوفيتا
(رئيسة دير بيثاني)

سيسيليا = روجر (انطاكية)
انظر جدول انطاكية

هوديرنا

يوستاس الثاني
(انظر جدول ملوك
بيت المقدس)

٢ – بيت كورتيناي

بوشار كونت كوربيل = اديلايد كريسي

ميليسند = هيو الاول ريتل
(انظر جدول ١)

أليس = ايفيرار لى بويزيه

ايزابيلا = جوسلين كورتيناي

اخت ليو روبين = جوسلين الاول
كونت الرها

جوسلين الثاني (كونت الرها) = بياتريس ارملة وليم (صهيون)

جوسلين الثالث (الرها)

اجنيس ميللي = (١) رينالد سيد مرعش
(٢) امالريك الاول
(٣) هيو ابلين
(٤) رينالد (صيدا)

مايلز كورتيناي

أمراء انطاكية وملوك صقلية

(١)

تانكرد هوتفيل = فريسّيندا

روبرت جويسكارد درق ابوليا — وليم الزعيم (سالرنو) — روجر الاول (كونت صقلية)

= (١) البيرادا — = (٢) سيجلجايتا

سبيللا = هيو رومي — إيما = أودو الماركيز — روجر بورصا = اديلايد فلاندر
(ابوليا) ملكة دانمرقة

بوهمند الاول = كنستانس الفرنسية
(امير انطاكية)

ماييلا = هيو الاول لى بويزيه

تانكرد = سيسيليا الفرنسية
(٢) = بونز (طرابلس)

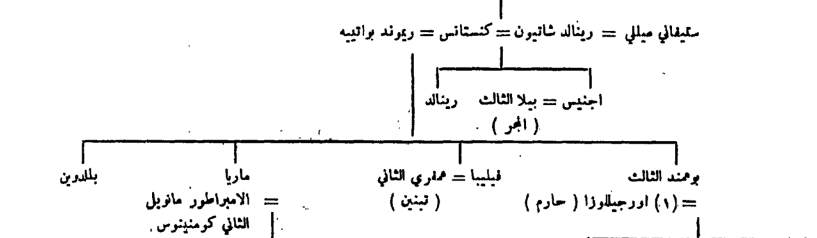
يوحنا — بوهمند الثاني = أليس (بيت المقدس)
(انطاكية)

اخت = ريتشرد الزعيم

روجر = سيسيليا لى بور
شقيقة بلدوين الثاني

ماريا = جوسلين
(الرها)

تابع أمراء انطاكية وملوك صقلية



(٢)
ملوك صقلية

تانكرد هوتفيل = فريسيندا (انظر جدول ١)
مات ١٠٤١

روجر الاول (كونت صقلية) مات ١١٠١
= اديلايد = بلدوين الاول (بيت المقدس)

روجر الثـاني = (١) ايلفيرا (قشتالة)
(ملك صقلية)
١١٠٥—١١٥٤

روجر

تانكرد (صقلية)

وليم الاول
(ملك صقلية)
١١٥٤-١١٦٦

وليم الثاني = حنه ابنة هنري الثاني
١١٦٦-١١٨٩ ملك انجلترا

= (٢) بياتريس ريتل

كنستانس = الامبراطور هنري السادس (ملك صقلية) ١١٩٤ — ١١٩٧

الامبراطور فردريك الثاني

كونتات طرابلس وأمراء الجليل

ايلفيرا أراجون = ريموند الاول كونت تولوز ، وماركيز بروفانس وكونت سانت جيل (ضنجيل)

الفونسو جوردان
كونت تولوز

برتراند (ابن غير شرعي)

برتراند كونت طرابلس = هيلين البرجندية
(ابن غير شرعي)

بونز = سيسيليا الفرنسية
ارملة تانكرد امير انطاكية

ريموند الثاني = هوديرنا
(بيت المقدس)

اجنيس = رينالد الثاني مازوار
سيد المرقب

ميليسند

ريموند الثالث
= ايشيفا بورز
اميرة الجليل وسيدة طبرية

والتر فولكونبرج =
سيد سانت اومر
حفيد هيو سانت اومر
امير الجليل

رالف = اجنيس مرجريت
سيدة صيدا = هيو ابلين

وليم = ماريا سيدة بيروت
ارملة بلدوين ابلين

اوتو = ايفيميا
سيدة صيدا

بيت قيسارية وصيدا

يوستاس جارنييه (قيسارية وصيدا)
= ايما ابنة اخ البطريرك ارنولف

اجنيس = هنري ميللي (نابلس)

والتر الاول (قيسارية)
- والتر الثاني (قيسارية)
- جوليانا = جاي (بيروت)
  - والتر الثالث (قيسارية) = مرجريت ابنة باليان ابلين وماريا كومنينا
    - مرجريت (قيسارية)

يوستاس الثاني (صيدا)
جيرار (صيدا)
= أجنيس بورز ارملة رينيه (الجليل وبانياس)
- رينالد (صيدا — الشقيف)
  = (١) (اجنيس كورتيناي) ارملة هيو ابلين
  = (٢) هيلفيس ابنة باليان ابلين وماريا كومنينا
  - باليان (صيدا) = مرجريت برين
    - جوليان (صيدا والشقيف)
      - والتر الثالث (قيسارية)
        = مرجريت ابلين
        = يوحنا (قيسارية)
        = مرجريت (قيسارية)

بيت تبنين والشوبك

سادة الشوبك والكرك

رومان لى بوية

- باجان الساقي الشوبك الكرك
- موريس
  - ايزابيلا

فيليب ميللي (نابلس) = ايزابيلا

- ستيفاني
- هيلين = والتر الثالث بريسبار (بيروت)
- رينيبه

ستيفاني تزوجت =
(١) همفري الثالث (تبنين)
(٢) مايلر بلانسي صنجيل بيت المقدس
(٣) رينالد شاتيون امير انطاكية سيد الشوبك والكرك

سادة تبنين

همفري الأول (تبنين)

فيليبا (انطاكية) = همفري الثاني الكبير (تبنين) كندسطبل المملكة = وريثة بانياس

همفري الثالث (تبنين)

همفري الرابع (تبنين)
= ايزابيلا (بيت المقدس) اخت بلدوين الرابع

نابلس ، الرملة ، ابلين ، بيروت .. الخ

جاي ميللي = ستيفاني
(نابلس)

ايزابيلا = فيليب ميللي
(الكرك) (نابلس) ١١٦١

جاي

هنري = اجنيس جارنييه

هيلفيس = ادم (بيسان)

اجنيس = جوسلين الثالث
(الرها)

ريشيلدا (انظر الرملة)

ستيفاني (الكرك) = (١) همفري الثالث ابلين (انظر الجدول)

هيلين = والتر الثالث (بيروت)

ستيفاني = (١) وليم دوريل
(البطرون)
(٢) هيو امبرياكو (جبيل)
(٣) رينالد شاتيون

لوسيا (البطرون) = بليفاو (جنوه)

همفري الرابع = ايزابيلا
(بيت المقدس)

ايزابيلا = روبين الثالث
(ارمينيا)
= (٢) مايلر بلانسي

الرملة ، ابلين (يتبع)

بلدوين = ستيفاني (انظر الجدول في الصفحة السابقة)

هيلفيس (الرملة) = (١) باليان الكبير (ابلين)
(٢) مناسيس هييرح

هيو (الرملة) = أجنيس كورتيناي

بلدوين (الرملة) = (١) ريشيلدا (بيسان)
(٢) ايزابيلا ، ارملة والتر الاول (قيسارية)
(٣) ماريا (بيروت)

باليان الثالث = ماريا كومنينا (نابلس)

ايرمنجارد =

إلينالد امير الجليل

ستيفاني = امالريك (نابلس)

ايشيفا = امالريك الثاني (قبرص بيت المقدس توماس)

مرجريت = (١) هيو (طبرية)
(٢) والتر الثالث (قيسارية)

هيلفيس = رينالد (صيدا)

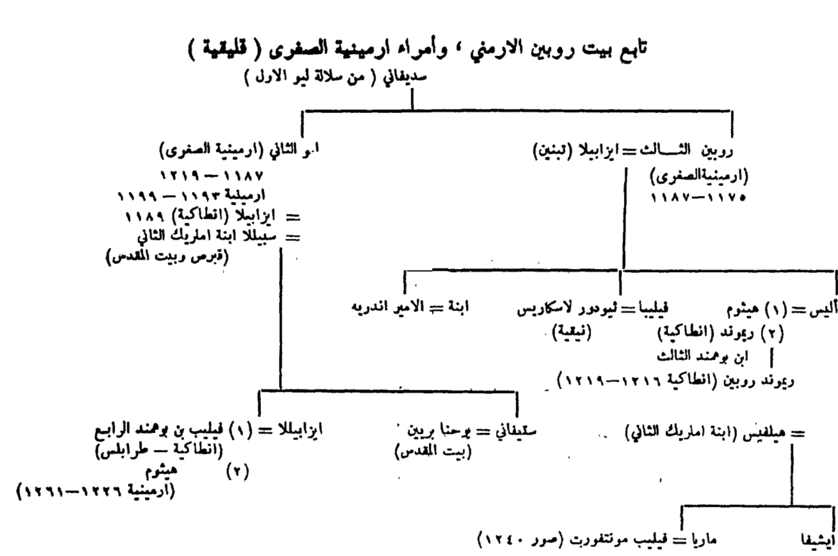
فيليب

يوحنا (بيروت)

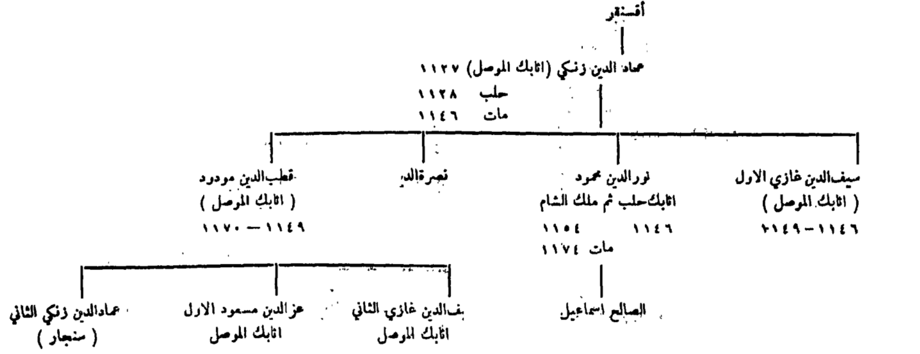
بيت روبين الارمني ، وأمراء ارمينية الصغرى (قليقية)

- روبين الاول (امارته بجبال طوروس)
  - قسطنطين الاول
    مات سنة ١١٠٠
    - ثوروس الاول
      (ارمينية الصغرى)
      ١١٠٠ — ١١٢٩
    - ليو الاول
      (ارمينية الصغرى)
      ١١٢٩ — ١١٣٦
      =(١) ابنة اخت الامبراطور يوحنا كومنين
      (٢) اخت بلدوين الثاني (الرها ، بيت المقدس)
      - روبين
      - ثوروس الثاني
        (ارمينية الصغرى)
        ١١٤٤ — ١١٦٧
        - روبين الثاني
        - ابنة = هيثوم لامبرون
          (اسرة هيثوم)
      - مليح المرتد
        (ارمينية الصغرى)
        ١١٧٠ — ١١٧٥
      - سديفاني
      - ابنة = توماس
        (ارمينية الصغرى)
        ١١٦٧ — ١١٦٨
      - ابنة = واسيل دغا
    - ابنة = جوسلين الأول
      (الرها)
      - جوسلين الثاني (الرها)
  - ثوريك (لفنوس)
    - اردا = بلدوين الاول (الرها)

تابع بيت روبين الارمني ، وأمراء ارمينية الصغرى (قليقية)

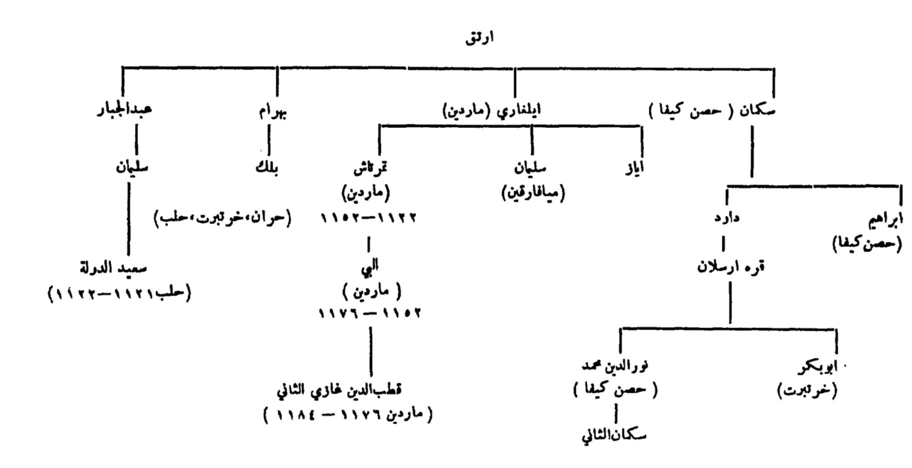


بيت زنكي



أقسنقر
عماد الدين زنكي (اتابك الموصل) ١١٢٧
حلب ١١٢٨
مات ١١٤٦
سيف الدين غازي الاول
(اتابك الموصل)
١١٤٦—١١٤٩
نور الدين محمود
اتابك حلب ثم ملك الشام
١١٤٦ ١١٥٤
مات ١١٧٤
نصرة الدين
قطب الدين مودود
(اتابك الموصل)
١١٤٩ — ١١٧٠
الصالح اسماعيل
سيف الدين غازي الثاني
اتابك الموصل
١١٧٠—١١٧٦ ؛ ١١٨٠
عز الدين مسعود الاول
اتابك الموصل
١١٧٦ ، ١١٨٠—١١٩٣
عماد الدين زنكي الثاني
(سنجار)
١١٧٠—١١٩٧

أمراء الأراتقة



الملحق الخامس

الخلفاء والسلاطين والامراء والأتابكة

في الشرق الاوسط زمن المائة سنة الاولى من الحروب الصليبية

الخلفاء العباسيون ببغداد

القائم	١٠٣١
المقتدي	١٠٧٥
المستظهر	١٠٩٤
المسترشد	١١١٨
الراشد	١١٣٥
المكتفي	١١٣٦
المستنجد	١١٦٠
المستضيء	١١٧٠
الناصر	١١٨٠
الظاهر	١٢٢٥
المستنصر	١١٢٦
المستعصم	١٢٤٢ – ١٢٥٨

الفاطميون بشمال افريقية ومصر والشام

٩٠٩ — ١١٧١

الداعي ابو عبد الله الشيعي

أتم الإعداد لقيام الدولة سنة ٢٩٨هـ = ٩١٠ م

عبيد الله المهدي ابتداء من	٩٠٩ م	
القائم	٩٣٤	
المنصور	٩٤٦	
المعز	٩٥٣	
العزيز	٩٧٥	
الحاكم	٩٩٦	
الظاهر	١٠٢١	
المستنصر	١٠٣٦	
المستعلي	١٠٩٤	
الآمر	١١٠١	
الحافظ	١١٣٠	كان قيماً ، ولم يكن خليفة
الحافظ	١١٣١	
الظافر	١١٤٩	
الفائز	١١٥٤	
العاضد	١١٦٠ — ١١٧١	(سقوط مصر في أيدي الايوبيين)

السلاجقة

السلاجقة العظام ، العراق وفارس

١٠٣٨ — ١١٩٣

طغرل	١٠٣٨
ألب ارسلان	١٠٦٣
ملك شاه	١٠٧٢
محمود الاول	١٠٩٢
بار كيا روق	١٠٩٤
ملك شاه الثاني	١١٠٥
محمد الاول	١١٠٥
سَنْجر	١١١٨ — ١١٥٧

(حكم خراسان ١٠٩٧ — ١١٥٧ — سلطان السلاجقة بعد سنة ١١١٨)

محمود الثاني	١١١٨
داود	١١٣١
طغرل الثاني	١١٣٢
مسعود	١١٣٤
ملك شاه الثالث	١١٥٢
محمد الثاني	١١٥٣
سليمان شاه	١١٦٠
ارسلان	١١٦١
طغرل الثالث (خوارزم شاه)	١١٧٦ — ١١٩٤

سلاجقة الشام

١٠٧٨ – ١١١٧

تتش	١٠٧٨
رضوان (حلب)	١٠٩٥ – ١١١٣
دقاق (دمشق)	١٠٩٥ – ١١٠٤
(خلفه الأتابك طغتكين)	
الاخرس } حلب	١١١٣
سلطان شاه } حلب	١١١٤ – ١١١٧

سلاجقة آسيا الصغرى

سلاجقة الروم – بالاناضول

١٠٧٧ – ١٣٠٧

سليمان بن قتلمش	١٠٧٧
فترة شغور	١٠٨٦
قلج ارسلان الاول	١٠٩٢
ملك شاه	١١٠٧
مسعود الاول	١١١٦
عزالدين قلج ارسلان الثاني	١١٥٦
(انقسام ملكه بين ابنائه او اخر حكمه)	
كيخسرو الاول (السلطنة الاولى)	١١٩٢
سليمان الثاني	١١٩٦
عزالدين قلج ارسلان الثالث	١٢٠٤
كيخسر الاول (السلطنة الثانية)	١٢٠٤
كيكاوس الاول	١٢١٠

كيقباذ الاول	١٢١٩
كيخسرو الثاني	١٢٣٧
كيكاوس الثاني	١٢٤٦
كيكاوس الثاني بالاشتراك مع أخيه قلج ارسلان الرابع	١٢٤٨
كيكاوس الثاني، قلج ارسلان الرابع بالاشتراك مع كيقباذ الثاني	١٢٤٩
قلج ارسلان الرابع	١٢٥٧

الزنكيون

١١٢٧ — ١٢٢٢

الجزيرة والشام

١ — الموصل وحلب :

زنكي بن أقسنقر	١١٢٧
غازي الاول	١١٤٦
مودود	١١٤٩
غازي الثاني	١١٦٩
مسعود الاول	١١٧٦
ارسلان شاه الاول	١١٩٣
مسعود الثاني	١٢١١
ارسلان شاه الثاني	١٢١٨
محمود	١٢١٩ — ١٢٢٢

(انتزع لؤلؤ السلطة من الزنكيين)

٢ — دمشق وحلب :

نور الدين محمود بن زنكي	١١٤٦
اسماعيل	١١٧٤ — ١١٨١

(استيلاء صلاح الدين على حلب ودمشق)

الدانشمند

هضبة الاناضول الوسطى والشرقية

١٠٧١ - ١١٧٧

١ - الدانشمند في سيواس

١٠٧١ - ١١٧٤

الدانشمند غازي	١٠٧١
جمشتكين	١٠٨٤
محمد	١١٣٤
ذو النون (في قيصرية)	١١٤٢
ياغي بازان	١١٤٢
غازي	١١٦٤
ابراهيم	١١٦٦
اسماعيل	١١٦٦
ذو النون (خضع لسلاجقة الروم)	١١٦٨ - ١١٧٤

٢ - الدانشمند في ملطية

١١٤٢ - ١١٧٨

عين الدين بن جمشتكين	١١٤٢
ذو القرنين	١١٥٢
ناصر الدين محمد	١١٦٢
فخر الدين قاسم	١١٧٠
افريدون	١١٧٢
ناصر الدين محمد (خضع لسلاجقة الروم)	١١٧٥ - ١١٧٨

الأراتقة

١١٠٢ – ١٤٠٨

ديار بكر

١ حصن كيفا وآمد ١٠٩٨ – ١٢٣٢ :

سكان الاول	١٠٩٨
ابراهيم	١١٠٥
داود	١١٠٩
قره ارسلان	١١٤٤
سكان الثاني	١١٨٥
محمود	١٢٠١
مودود	١٢٢٢
الملك المسعود	١٢٣٢ (سقط الموضعان في أيدي الأيوبيين)

٢ – ماردين وميافارقين ١١٠٤ – ١٤٠٨ :

غازي الاول	١١٠٤
تيمورتاش	١١٢٢
ألبى	١١٥٢
غازي الثاني	١١٧٦
ارسلان	١١٨٤
ارتق ارسلان	١٢٠١
غازي الاول	١٢٣٩
المظفر	١٢٦٠

الملحق السادس

أباطرة بيزنطة

أسرة كومنينوس

الكسيوس الاول	١٠٨١ – ١١١٨
– قنسطنطين دوقاس	
– يوحنا	
يوحنا الثاني	١١١٨ – ١١٤٣
مانويل الاول	١١٤٣ – ١١٨٠
الكسيوس الثاني	١١٨٠ – ١١٨٢
اندرونيقوس الاول	١١٨٣ – ١١٨٥

أسرة انجيلوس

اسحاق الثاني (انجيلوس)	١١٨٥ – ١١٩٥
الكسيوس الثالث	١١٩٥ – ١٢٠٣
الكسيوس الرابع	١٢٠٣ – ١٢٠٤
الكسيوس الخامس	١٢٠٤

المصادر والمراجع

المصـادر والمراجـــع

ملحوظة — ليست هذه القائمة إلا إضافة لما ورد في المجلد الأول من هذا الكتاب ، من المصادر والمراجع ، فلا تشمل ما سبق الإشارة إليه في المجلد الأول من المؤلفات . على أنه جرى التزام ما ورد بالمجلد الأول من الاختصارات والرموز .

اولا — المصادر الاصلية

١ — مجموعات المصـادر

Borgo, F. Dal. *Diplomata Pisana*. Pisa, 1765.

Demetracopoulos, A. K. *Bibliotheca Ecclesiastica*. Leipzig, 1866.

Fornmanna Sögur, 12 vols. Copenhagen, 1825–37.

Halphen, L. and Poupardin, R. *Chroniques des Comtes d'Anjou*. Paris, 1913.

Liber Jurium Reipublicae Genuensis (ed. Ricotti), 3 vols., in *Monumenta Historiae Patriae*. Turin, 1854–7.

Marchegay, P. and Mabille, E. *Chronique des Eglises d'Anjou*. Paris, 1869.

Muratori, L. A. *Antiquitates Italicae*, 6 vols. Milan, 1738–42.

Recueil des Historiens des Croisades, Lois, 2 vols. Paris 1841–3, including the *Assises* of Jerusalem (R. H. C. Lois).

Reinaud, M. *Extraits des Historiens Arabes*, in Michaud, *Bibliothèque des Croisades*.

٢ — مصادر مؤلفة باللغتين اليونانية والفرنسية القديمة

Ambroise. *L'Estoire de la Guerre Sainte* (ed. Paris). Paris, 1897.

Annales Barenses, in *M.G:H.Ss.* vol. v.

Annales Beneventani, in *M.G.H.Ss.* vol. iii.

Annales Herbipolenses, in *M.G.H.Ss.* vol. xvi.

Annales Palidenses, in *M.G.H.Ss.* vol. xvi.

Annales Romani, in *M.G.H.Ss.* vol. v.

Annales S. Rudberti Salisburgensis, in *M.G.H.Ss.* vol. ix.

Annales de Terre Sainte (ed. Röhricht), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. ii. Paris, 1884.

Ansbert. *Gesta Frederici Imperatoris in Expeditione Sacra*, in *M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1892.

Arnold of Lubeck. *Chronica Slavorum, M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1868.

Benedict of Peterborough. *Gesta Regis Henrici II* (ed. Stubbs), 2 vols., Rolls Series. London, 1867.

Bernard, St, Abbot of Clairvaux. *Epistolae, M.P.L.*, vol. clxxxii.

Burchard of Mount Sion. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.T.T.S.* vol. xii. London, 1896.

Caesarius of Heisterbach. *Dialogus Miraculorum* (ed. Strange), 2 vols. Cologne, 1851.

Cartulaire de Notre Dame de Chartres (ed. L'Epinois and Merlet), 3 vols. Chartres, 1852–5.

Cartulaire de Sainte Marie Josaphat (ed. Kohler). *Revue de l'Orient Latin*, vol. VII. Geneva, 1899.

Cartulaire du Saint Sepulcre (ed. Rozière). Paris, 1849.

Cartulaire Générale de l'Ordre des Hospitaliers (ed. Delaville Leroulx), 4 vols. Paris, 1894–1904.

Cartulaire Générale de l'Ordre du Temple (ed. D'Albon). Paris, 1913.

Chronicon Mauriniacense, in *R.H.F.* vol. XII.

Chronicon Sancti Maxentii, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*

Chronicon Vindocinense, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*

Dandolo. *Chronicon Venetum*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. XII.

De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum Libellus (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1875.

Ernoul. *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier* (ed. Mas Latrie). Paris, 1871.

Estoire d'Eracles, *R.H.C.Occ.* vols. I and II.

Eudes, *see* Odo.

Gesta Ambaziencium Dominorum, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*

Gesta Consulum Andegavorum, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*

Gestes des Chiprois, *R.H.C.Arm.* vol. II.

Historia Ducum Veneticorum, in *M.G.H.Ss.* vol. XIV.

Historia Regni Hierosolymitani, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.

Historia Regum Hierusalem Latinorum, ed. in Kohler, *Mélanges pour servir à l'histoire de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1906.

Historia Welforum Weingartensis, in *M.G.H.Ss.* vol. XXI.

Ibelin. *Le Livre de Jean d'Ibelin*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.

Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864.

John of Salisbury. *Historiae Pontificalis quae Supersunt* (ed. Lane Poole). Oxford, 1927.

John of Wurzburg. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.T.T.S.*, vol. v. London, 1896.

Landolph Junior. *Historia Mediolanensis*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. v.

Letters of King Amalric, Masters of the Temple, officials of the Temple and other officials of Outremer, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.

Lignages d'Outremer, in *R.H.C., Lois*, vol. II.

Louis VII, King of France, letters, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.

Miracula Sancti Leonardi, *Aa. Ss.* (Nov.), vol. III.

Necrologia Panormitana (ed. Winkelmann), in *Forschungen zu deutschen Geschichte*, vol. XVIII. Gottingen, 1878.
Odo (Eudes) of Deuil. *De Profectione Ludovici VII in Orientem* (ed. Waquet). Paris, 1949.
Osborn. *De Expugnatione Lyxbonensi*, in Stubbs, *Memorials of the Reign of Richard I*, Rolls Series. London, 1864.
Otto, Bishop of Freisingen. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1912.
Otto, Bishop of Freisingen. *Gesta Friderici I Imperatoris* (ed. Simson), *M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1912.
Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1912.
Paschal II, Pope. *Epistolae, in M.P.L.* vol. CLXIII.
Passiones Sancti Thiemonis, in *R.H.C.Occ.* vol. V.
Peter Diaconus. *Chronica* (ed. Wattenbach), *M.G.H.Ss.* vol. VII.
Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem (trans. Bishop of Clifton), *P.T.T.S.*, vol. IV. London, 1896.
Radulph of Diceto. *Opera Historica* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1876.
Ralph of Coggeshall. *Chronicon Anglicanum* (ed. Stevenson), Rolls Series. London, 1875.
Robert of Torigny. *Chronique* (ed. Delisle), 2 vols. Rouen, 1872–3.
Roger of Hoveden. *Chronica* (ed. Stubbs), 4 vols., Rolls Series. London, 1868–71.
Romuald of Salerno. *Chronicon* (ed. Arndt). *M.G.H.Ss.* vol. XIX.
Suger, Abbot of Saint-Denis. *Gesta Ludovici cognomine Grossi* and *Historia gloriosi regis Ludovici VII* (ed. Molinier). Paris, 1887.
Suger, Abbot of Saint-Denis. *Opera* (ed. de la Marche). Paris, 1867.
Vita Alexandri III, in *Liber Pontificalis*, vol. II.
Vita Sancti Bernardi, in *M.P.L.* vol. CLXXXV.
Wibald. *Epistolae*, in Jaffe, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. I.
William the Monk. *Dialogus Apologeticus* (ed. Wilmart), in *Revue Mabillon*. Paris, 1942.
William the Monk. *Vita Sugerii*, in Suger, *Opera* (*see* above).
William of Nangis. *Gesta Ludovici VII*, in *R.H.F.* vol. XX.
William of Tyre. *Latin continuation* (ed. Salloch). Leipzig, 1934.

٢ ـ مصادر يونانية

Chrysolan, Peter, Archbishop of Milan. *De Sancto Spiritu* in *M.P.G.* vol. CXXVII.
Cinnamus, John. *Epitome Historiarum*, *C.S.H.B.* Bonn, 1836.
Eustratius, Archbishop of Nicaea. *On the Holy Ghost*, in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. I.

Nicetas Choniates (Acominatus). *Historia, C.S.H.B.* Bonn, 1835.

Neophytus. *De Calamitatibus Cypri* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864. (In preface to *Itinerarium Regis Ricardi.*)

Phocas, John. *A Brief Description* (trans. Stewart), *P.T.T.S.*, vol. v. London, 1896.

Prodromus, Theodore. *Poemata*, selections in *M.P.G.* vol. cxxxiii and *R.H.C.Grecs.* vol. ii.

٤ ـ المصــادر العربيــة (١)

Abu'l Mahàsin. Extracts in *R.H.C.Or.* vol. iii.

Abu Shama. *Book of the Two Gardens.* Extracts in *R.H.C.Or.* vols. iv and v; full edition. Cairo, 1870–1. (Except when otherwise stated references are to the *R.H.C.* edition.)

Al-Azimi. *Abrégé* (ed. Cahen), in *Journal Asiatique*, vol. ccxxxii. Paris, 1940.

Beha ed-Din Ibn Shedad. *Life of Saladin* (trans. Conder), in *P.T.T.S.*, vol. xiii. London, 1897.

Bustan al-Djami li Djami Tawarikhi z-Zaman (ed. Cahen), in *Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut de Damas*, vols. vii and viii. Damascus, 1938.

Ibn Jubayr. *Voyage* (Arabic text ed. Wright). Leyden, 1852.

Ibn Moyessar. Extracts in *R.H.C.Or.* vol. iii.

Ibn at-Tiqtaqa. *Al-Fakhri (History of Musulman Dynasties)*; trad. Amar. Paris, 1910.

Imad ed-Din. *Al Fath al Qussi fi'l Fath al Qudsi* (ed. de Landsberg). Leyden, 1888. Extracts quoted by Abu Shama, *op. cit.*

Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (later portions trans. Blochet) in *Revue de l'Orient Latin*, vols. iii and vi. Paris, 1895–8.

Maqrisi. *History of Egypt.* (trans. Blochet). *Revue de l'Orient Latin*, vols. viii–x. Paris, 1900–2.

Sibt ibn al-Djauzi. Extracts in *R.H.C.Or.* vol. iii.

Usama ibn Munqidh. *Autobiography* (ed. Hitti). *An Arab-Syrian Gentleman of the Crusades.* New York, 1929.

Zettersteen Chronicle. Anonymous chronicle (ed. K. V. Zettersteen). Leyden, 1919.

٥ ـ مصادر ارمنية وسريانية وكرجيــة وعبريــة

Basil the Doctor. *Funeral Elegy of Baldwin of Marash, R.H.C.Arm.* vol. i.

Gregory the Priest. *Continuation of Matthew of Edessa's chronicle, R.H.C.Arm.* vol. i.

Gregory IV Dgha, Catholicus. *Elegy on the Fall of Jerusalem, R.H.C.Arm.* vol. i.

Nerses Shnorhali, Catholicus. *Elegy on the Fall of Edessa, R.H.C.Arm.* vol. i.

١ ـ المقصود بالاشارات الى ابن الاثير الاحالة الى كتابه « كامل التواريخ »
اما مؤلفات ابن الاثير الاخرى الواردة في الكتاب فجرى ذكرها .

المصـــادر والمراجع

Anonymous Syriac Chronicle (full text ed. Chabot). C.S.C.O. vol. III. (Quoted as *Chron. Anon. Syr.* References are to Tritton's translation—see above, vol. I, Bibliography, p. 349—except where otherwise stated.
Georgian Chronicle, in Brosset, *Histoire de la Géorgie*.
Benjamin of Tudela. *Voyages* (ed. Adler). London, 1907.
Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicle* (trans. Biellablotzky), 2 vols. London, 1835.

٦ ـ مصادر صقلية وشمالية (نورسية)

Daniel, Hegumene. *Life and Pilgrimage* (trans. de Khitrowo). *Itiner. Russes en Orient, Société de l'Orient Latin.* Geneva, 1889.
Pilgrimage in Palestine of Euphrosyne, Princess of Polotsk (trans. de Khitrowo), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1896.
Agrip af Noregs Konungasögum (ed. Munch), in *Samlinger til det Norske Folks Sprog og Historie*, vol. II. Oslo, 1834.
Sigurdar Saga Jorsalafara ok brœdra hans in *Fornmanna Sögur*, vol. VII.

ثانيا ـ مراجع حديثة

ABEL, F. M. *Géographie de la Palestine*, 2 vols. Paris, 1933–8.
ALLEN, W. E. D. *History of the Georgian People.* London, 1932.
ALMEIDA, F. DE. *Historia de Portugal*, 4 vols. Coimbra, 1922–6.
ANSELME DE LA VIERGE MARIE (P. DE GUIBOURS). *Histoire Généalogique et Chronologique de la France*, 9 vols. Paris, 1726–33.
BALDWIN, M. W. *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem.* Princeton, 1936.
BEL, A. Article 'Almohads', in *Encyclopaedia of Islam.*
BERNHARDI, W. VON. *Konrad III.* Leipzig, 1883.
BROSSET, M. F. *Histoire de la Géorgie.* St Petersburg, 1849.
BROWNE, E. G. *Literary History of Persia*, 2 vols. London, 1906.
CAHEN, C. 'Indigènes et Croisés', in *Syria*, vol. XV, Paris, 1934. 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 1951.
CASPAR, E. 'Die Kreuzzugsbullen Eugens III', in *Neues Archiv der Gesellschaft*, vol. XLV. Hanover, 1924.
CATE, J. L. 'A Gay Crusader', in *Byzantion*, vol. XVI, 2. New York, 1943.
CODERA, F. *Decadencia y Desaparición de los Almoravides en España.* Saragossa, 1899.
COSACK, H. 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug', in *Mitteilungen des Instituts für oesterreichische Geschichtsforschung*, vol. XXXV. Vienna, 1914.
CUISSARD, C. *Les Seigneurs du Puiset.* Orleans, 1881.

CURZON, H. DE. *La Règle du Temple*. Paris, 1886.
D'ALBON, G. A. M. J. A. 'La Mort d'Odon de Saint-Amand', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. XII. Paris, 1904.
DELAVILLE LEROULX, G. *Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre*. Paris, 1904.
DELISLE, L. *Memoire sur les Opérations Financières des Templiers*. Paris, 1889.
DIB, P. Article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*. ...
DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1894.
DOSITHEUS, Patriarch of Jerusalem. Ἱστορία περὶ τῶν ἐν Ἱεροσολύμοις Πατριαρχευσάντων. Bucharest, 1715.
ERDMANN, K. 'Der Kreuzzugsgedankes in Portugal,' in *Historische Zeitschrift*, vol. CXLI. Munich, 1930.
GERULLI, E. *Etiopi in Palestina*. Rome, 1943.
GLEBER, H. *Papst Eugen III*. Jena, 1936.
GRANDCLAUDE, M. 'Liste d'Assises remontant au premier Royaume de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier*. Paris, 1929.
HAGENMEYER, H. *Chronologie du Royaume de Jérusalem*. Paris, 1901.
HAMMER, J. VON. *Histoire de l'Ordre des Assassins* (French trans.). Paris, 1833.
HERTZOG, E. *Die Frauen auf den Fürstentronen der Kreuzfahrerstaaten*. Zürich, 1915.
JOHNS, C. N. 'The Crusaders' attempt to colonize Syria,' in *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. XXI. London, 1934.
JORANSON, E. 'The Crusade of Henry the Lion,' in *Medieval Essays presented to G. W. Thompson*. Chicago, 1938.
KOHLER, C. 'Un nouveau récit de l'Invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron,' in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
KÜGLER, B. *Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges*. Stuttgart, 1866.
LA MONTE, J. L. 'The Lords of Caesarea in the period of the Crusades,' in *Speculum*, vol. XXII. Cambridge, Mass., 1947.
LA MONTE, J. L. 'The Lords of Le Puiset on the Crusades,' in *Speculum*, vol. XVII, Cambridge. Mass., 1942.
LA MONTE, J. L. 'The Lords of Sidon', in *Byzantion*, vol. XVII. New York, 1944.
LA MONTE, J. L. 'To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Crusading States? *Byzantion*, vol. VII. Brussels, 1932.
LANE POOLE, S. *Saladin*, London, 1898.
LE QUIEN, M. *Oriens Christianus*, 3 vols. Paris, 1740.
LUCHAIRE, A. *Louis VI le Gros*. Paris, 1890.
MARINESCU, C. 'Le Prêtre Jean', in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. X. Bucharest, 1923.

MARTIN, ABBÉ. 'Les premiers princes croisés et les Syriens jacobites de Jérusalem', in *Journal Asiatique* (8me serie), vols. XII and XIII. Paris, 1888–9.

MELVILLE, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.

MUSIL, A. Article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam*.

NAU, F. 'Le croisé lorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique* (9me serie), vol. XIV. Paris, 1899.

NEUMANN, C. *Bernhard von Clairvaux und die Anfänge des zweiten Kreuzzuges*. Heidelberg, 1882.

RAMSAY, W. M. 'Preliminary report on exploration in Phrygia and Lycaonia' and 'War of Moslem and Christian for the posession of Asia Minor', in *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*. Aberdeen, 1906.

REY, E. G. 'Les Seigneurs de Giblet', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1895.

REY, E. G. 'Les Seigneurs de Barut' and 'Les Seigneurs de Montréal et la Terre d'Oultrejourdain', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.

REY, E. G. 'Résumé de l'Histoire des Princes d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.

RICHARD, J. *Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine*. Paris, 1945.

SCHLUMBERGER, G. *Campagnes du roi Amaury de Jérusalem en Egypte*. Paris, 1906.

SCHLUMBERGER, G. *La Numismatique de l'Orient Latin*. Paris, 1878.

SCHLUMBERGER, G. *Les Principautés Franques du Levant*. Paris, 1877.

SCHLUMBERGER, G. *Renaud de Châtillon*. Paris, 1923.

SCHWAB, M. 'Al-Harizi et ses pérégrinations en Terre Sainte', in *Archives de l'Orient Latin*. vol. I. Paris, 1881.

VACANDARD, E. *Vie de Saint Bernard, Abbé de Clairvaux*, 2 vols. Paris, 1895.

VAILHE, S. 'Les Laures de Saint Gérasime et de Calamon', in *Echos d'Orient*, vol. II. Paris, 1899.

VOGUE, C. J. M. DE. *Les Eglises de la Terre Sainte*. Paris, 1860.

WALKER, C. H. 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain', in *American Historical Review*, vol. LV. New York, 1950.

الكشاف

١ – هذا الكشاف لا يشمل أسماء الشعوب كالعرب واليونانيين والترك والفرنج ، والفرنسيين والايطاليين ، والجرمان والمصريين، ولا يحتوي على بلاد هـــذه الشعوب ، ولا يحوي من الأقاليم أمثال سوريا وفلسطين ، على أنه ورد في هـذا الفهرست ما عدا ذلك من أسماء الأعلام والمدن والأنهار والوقائع .

٢ — أسماء البلاد والمواضع والأنهار والوقائع الواردة في المصادر والمراجع الاجنبية : مـــا يقابلها في المصادر العربية .

Apamea	أفامية
Belfort	شقيف أرنون
Belvoir	كوكب
Bethgibelin	بيت جبرين
Blanchgard	تل الصافية
Chastel Rouge	الروج
Château Neuf	هونين
Crac des Chevaliers	حصن الأكراد
Cyrenaica	برقة
Dyrrachium	دورازو
Ecbatana	همدان
Edom	العربة
Ezra	عزير
Gerrhae	حرّان
Gilead	جلعاد

Goliath	جالوت
Hierapolis	منبج
Hospitallers	الاسبتارية
Ibelin	يبنة
Jezreel	يزرعيل (زرعين)
Krak de Montreal	الشوبك
Le Graye	جزيرة فرعون
Mansis Platanus	بلاطنس
Mirabel	رأس العين
Montferrand	بعرين
Montgisard	تل الجزر
Osrahoene	إقليم الرها
Pelusium	الفرما
Saint Symeon	السويدية
Sharon.	شارون (سهل)
Segor	زغر
Templar	الداوية
Toron	تبنين

المحتوى

الكتاب الثالث

الحرب الصليبية الثانية

الكتاب الرابع

تحوّل المد

الكتاب الخامس

انتصار المسلمين

الملاحق

المصادر والمراجع

الكشاف

الخرائط

اللوحات

هذه اللوحات واردة في الكتاب بين صفحتي ٣٦٨ - ٣٦٩
هذه اللوحات وردت بين ص ٣٦٨ و ص ٣٦٩

